

المركز القومي للترجمة

شارلين ناجي هيسي - بايبر

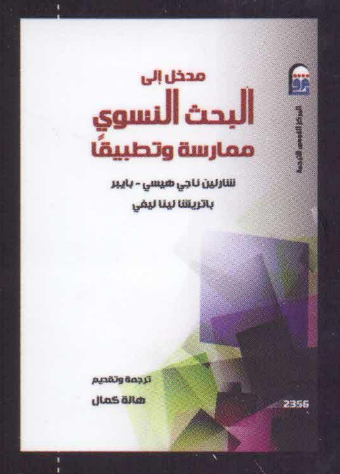
باتريشا لينا ليفي

ترجمة وتقديم

هالة كمال







يقدم هذا الكتاب مقاربة فريدة ومباشرة لتناول نطاق واسع من الرؤى النسوية حول المسار البحثي من أجل تجاوز الفجوة القائمة بين النظرية ومناهج البحث، كما يربط بين النظرية والمنهج، و يقدم رؤية شاملة ونظرة عامة للبحث النسوي، كما يستكشف نطاقًا واسعًا من الرؤى النسوية، بما فيها النسوية الإمبيريقية، والموقعية النسوية، والمنظور ما بعد الحداثي. وتغطي الأمثلة المتعمقة أسئلة بحث متنوعة من البحث النسوي، بما في ذلك قضايا غياب المساواة على أساس النوع، والعنف ضد النساء، وصورة الجسد، والتمييز.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

مدخل إلى..

البحث النسوى

(ممارسة و تطبيقا)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين
المشرف على السلسلة: فيصل يونس

- العدد: 2356
- مدخل إلى.. البحث النسوى: ممارسة وتطبيقا
- شارلين ناجى هيسى- بايبر، وباتريشا لينا ليفى وآخرون
- هالة كمال
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:
Feminist Research Practice
By: Sharlene Nagy Hesse-Biber and Patricia Lina Leavy

هذا العمل يصدر بالتعاون مع مؤسسة فورد

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مدخل إلى..

البحث النسوى

ممارسة وتطبيقا

تأليف: شارلين ناجى هيسى- بايبر

باتريشا لينا ليفى

ترجمة وتقديم: هالة كمال



2015

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية
هيسى ، شارلين ناجى.
مدخل إلى البحث النسوى: ممارسة وتطبيقا/ تأليف شارلين ناجى هيسى، بايبر، باتريشا لينا ليفى،
ترجمة وتقديم هالة كمال.- القاهرة: وزارة الثقافة، ٢٠١٥
عدد الصفحات : ٥٢٠ صفحة
المقـــــاس: ١٧ × ٢٤ سم
تدمك ٧ ١١٧ ٠ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - البحوث الاجتماعية.
أ- ليفى، بايبر، باتريشا لينا (مؤلف مشارك)
ب- كمال، هالة (مترجم، مقدم)
جـ- العنوان
٠٠١,٤٣٣

رقم الإيداع
٢٠١٥ / ٤٣٥٧

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

المحتويات

تقديم

البحث النسوي والترجمة النسوية

يأتي كتاب "البحث النسوي: ممارسة وتطبيقا" ليقدم إضافة بارزة ومهمة في مجال العلوم الاجتماعية والدراسات النسوية. وهو إصدار حديث نسبيا، إذ صدر عام 2007 عن دار نشر سيج، وهي من أبرز دور النشر الأكاديمية والمتخصصة. وقد جاء الكتاب نتاج جهود مجموعة من الباحثات المتخصصات في مناهج البحث النسوي، حيث قام بتأليف الكتاب كل من شارلين ناجي هيسي-بايبر وباتريشا لينا ليفي، وذلك في إطار عمل جماعي، اشتركت فيه باحثات بكتابة فصول الكتاب بالإضافة إلى فكرة جديدة تبناها الكتاب، ممثلة في مقاطع "ما وراء الستار" التي تتضمن مساهمات من التجارب الشخصية والخبرات الميدانية، ليكون مجمل المشاركات والمشاركين في تأليف الكتاب حوالي عشرين باحثة وباحث (واحد). وينطلق الكتاب من قاعدة فكرية نسوية تتجلى في شكل الكتاب ومضمونه، إذ يجمع بين النظرية والممارسة، أي التنظير على أساس التجارب (البحثية) المعيشة. كما أنه يقوم على فكرة دمج المنظور النسوي في أبحاث العلوم الاجتماعية؛ ليحلق بالتالي خارج إطار تخصص معرفي واحد أو مجال بحثي بعينه نحو رحابة الدراسات البينية.

وتجيء في مستهل الكتاب دعوة لنا بوصفنا قارئات وقراء؛ للتعرف على البحث النسوي وتطبيقاته وممارساته، وللانضمام كباحثات إلى مدارس البحث النسوي على تنوع مناهجه. ويضم الكتاب ثلاثة أبواب، يعرض الباب الأول عددا من المقاربات النسوية إلى الإبستمولوجيا والنظرية، ويركز تحديدا على طرح مفاهيم الوضعية النسوية (feminist empiricism)، وإبستمولوجيا الموقعية النسوية (feminist standpoint epistemology)، وكلٍّ من ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية النسوية. وينتقل الباب

الثاني إلى قضايا المنهجية النسوية؛ إذ يأتي بقدر من التفصيل بناء على التجارب البحثية، والممارسات الميدانية، وتطبيقات مناهج البحث في العلوم الاجتماعية من منظور وبأسلوب نسويين؛ فيقدم لنا نماذج لممارسات البحث النسوي وتطبيقاته في عقد المقابلات النسوية، والتاريخ الشفاهي النسوي، والإثنوجرافيا النسوية، والمنهج النسوي في تحليل المضمون، والمقاربات النسوية للبحث متداخل المناهج، واستطلاعات الرأي النسوية. بينما يُختتم الكتاب بالباب الثالث الذي يقدم نموذجا متكاملا لمشروع بحث نسوي، بدءا من مرحلة الإعداد ووضع خطة البحث وانتهاء بعملية كتابة البحث ونشره.

ويدلنا الكتاب – من عنوانه وعبر صفحاته– إلى عدة نقاط جديرة بالتأمل؛ فهو ينطلق من كونه مدخلا إلى مناهج البحث النسوي بجوانبها النظرية والميدانية. وتتأكد قيمة الكتاب التعليمية في كونه يعتمد كثيرا على تقديم الخبرات والتجارب السابقة مشفوعة –عادة– ببعض الملاحظات والإرشادات غير المباشرة التي تساعد الباحثة والباحث على فهم النظرية من خلال تطبيقاتها، واكتساب أهم المهارات النظرية المشجعة على الممارسة الميدانية. ومن هنا ينجح الكتاب في الربط بين الأطر المعرفية والنظريات العلمية ومناهج البحث المتنوعة، مع تقديم أمثلة مباشرة على كيفية القيام بأبحاث في العلوم الاجتماعية، وخاصة في مجال الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا وعلم الاجتماع وعلم النفس، وذلك باستخدام منظور نسوي، أي دمج المنظور النسوي في العلوم الاجتماعية. ولا تقتصر فائدة الكتاب على الباحثات والباحثين في العلوم الاجتماعية، بل تتجاوزهم، إذ يحمل الكتاب قيمة لكل المهتمات والمهتمين بمناهج البحث النسوي عبر مختلف التخصصات، سواء في العلوم الاجتماعية أو الدراسات الإنسانية أو الدراسات النسائية بشكل عام. كذلك تتمثل أهمية هذا الكتاب كأداة تعليمية في أسلوب كتابته، الذي يميل إلى مخاطبة قرائه (وفي أحيان كثيرة نجد الخطاب موجها إلى القارئات والباحثات تحديدا)، وذلك في أسلوب أقرب إلى الحوار لا الاستعراض أو التوجيه، وأكثر اهتماما بالعلاقات التبادلية بين مختلف الأطراف.

وأعتقد أن من أهم مزايا هذا الكتاب هو نجاحه في التناول المفصل لكيفية دمج المنظور

النســوي في مناهــج البحــث المختلفة ؛بما يخلق ممارســات جديدة في البحث النســوي . فــلا يدعي الكتــاب خلق منهجيات نســوية جديدة ، بل ينطلق من مناهــج أبحاث العلوم الاجتماعيــة ذاتها ، علــى اختلاف مجالاتهــا وتنوعها ، فيشــرح تلك المناهــج التقليدية ويوضــح تطبيقاتها ، ثم ينتقل إلى الكشــف عن كيفية نجاح باحثات نســويات في إضفاء البعد النسوي وتطبيق النظرية النسوية واستخدام المنظور النسوي بما يؤدي إلى ترسيخ البحث النســوي في العلوم الاجتماعية. ومن هنا نجد أن عناوين فصــول الكتاب تجمع بين النســوية ومناهج البحث المعروفة في مجالات البحوث الاجتماعية والإنسانية ، ذلك مــع التركيز على الجانب التطبيقي وتجارب العمــل الميداني. وفي نفس الوقت الذي يتم فيه إضفاء المنظور النسوي على البحوث الاجتماعية ، ينجح الكتاب في إلقاء الضوء على أهم القيم والمفاهيم النســوية على مســتوى النظرية والتطبيق والتجارب المعيشة. فيؤكد الكتاب على أهمية "المطاوعة" لدى الباحثة أو الباحث كقيمة نسوية ، وعلى الأخلاقيات المهنية في المسار البحثي ، وعلى إدراك علاقات القوى القائمة بين طرفي البحث .

بناء المعرفة

من المبادئ الراسخة في الفكر النسوي عامة والبحث النسوي تحديدا قضيتان هما بناء المعرفة البديلة وتحقيق التغير الاجتماعي. وتعتمد مسألة بناء المعرفة البديلة على مراجعة المعرفة السائدة التي تكشف النسويات عن مواضع غياب وإقصاء النساء وإسكات أصواتهن مع تغييب التجربة النســائية وتجاهلها. ومن هنا تلتفت مناهج البحث النســوي على وجه الخصــوص إلى تجارب النساء وأصواتهن في بناء معرفة بديلة قائمة على حيوات النساء وتجاربهن المعيشــة بشــكل عام ، في إطار علاقات القوى السائدة في المجتمع. وتحرص مناهج البحث النســوي على الربط المســتمر بين كافة أشــكال التمييز ، والمســاحات التي تتقاطع فيها قضايا النوع والأصل والعرق والانتماء الطبقي والمكانة الاجتماعية وغيرها من الفئات والعناصر التحليلية. وهكذا يكاد يشــير كل فصــل من فصول هذا الكتاب إلى دور البحث النسوي في بناء المعرفة ودمج معارف النساء كباحثات و "مبحوثات" في بنية تلك المعرفة البديلة التي لا تقتصر على صوت سائد ولا على معرفة مهيمنة ، وهو ما يرد

بشكل مباشر في الفصل التاسع من هذا الكتاب حين تتحدث المؤلفتان عن أهداف البحث النسوي في تسمية ما هو غير مسمى، وفي الكشف عما هو غير مرئي في "أنماط إنتاج المعرفة التقليدية" (Feminist Research Practice, p. 276).

ومن جانب آخر يتفق التوجه العام للمشاركات والمشاركين في تأليف هذا الكتاب مع النسوية كفكر وممارسة وحركة سياسية هادفة إلى إحداث تغيير اجتماعي أساسه الكشف عن أوجه الظلم والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بين الجنسين. بل ولا يقتصر الأمر هنا على علاقات النوع، وإنما يمتد هذا المبدأ النسوي فيتم تطبيقه منهجيا في إطار البحوث الاجتماعية لتحقيق توازن في علاقات القوى لا بين الجنسين فحسب، بل وبين طرفي كل علاقة يتمتع أحد طرفيها بامتيازات أو سلطة، كما هو الوضع في علاقات البحث بين الطرف القائم بالبحث والطرف الخاضع للبحث. فيأتي الباب الثالث من هذا الكتاب مفردا جزئية تتناول تجارب النساء باعتبارها خارطة لتحقيق العدالة الاجتماعية، التي تبدأ بوعي النساء بأن تجارب كل واحدة منهن ليست مجرد تجربة ذاتية منفردة، وإنما هي جزء من منظومة مجتمعية متكاملة تضع النساء في مكانة أدنى وتخل بالتالي بميزان العدالة الاجتماعية. وهو وعي جعل النساء يدركن أن ما يتعرضن له ليس قدرا بيولوجيا طبيعيا حتميا لا فكاك منه، وإنما هو نتاج أدوار تم تشكيلها وبناؤها في إطار المنظومة الأبوية وفرضها عليهن. كما أن تنامي هذا الوعي "مكن النساء من مقاومة التصورات الاجتماعية السائدة" ومكنهن من أن يقمن بصياغة حيواتهن وأن يسلكن طرقا في الحياة تتجاوز حدود تلك الأدوار (Feminist Research Practice, 62). وهكذا يطرح هذا الكتاب – وبقوة – نفسه باعتباره فعلا سياسيا من أجل التغيير الاجتماعي، يسعى من خلال الجهد البحثي والممارسة الميدانية إلى الإسهام في صياغة معرفة بديلة تعمل على تمكين النساء وتحقيق العدالة الاجتماعية.

الترجمة النسوية

بعد عقد من انطلاق الموجة الثانية من النسوية، التي دخلت المجال الأكاديمي باعتبارها منهجا فكريا تعليميا تحرريا بمسمى الدراسات النسائية (Women's Studies)، صدر

في ثمانينات القرن العشرين كتاب عن "تغيير الذهنية: التحولات النسوية في المعرفة"، تتحدث محرراته جماعيا في الفصل الختامي عن إشكاليات دمج المنظور النسوي في المقررات التعليمية. وقد أفردت الكاتبات جزئية من هذا الفصل تتناول "مشكلة الترجمة" (The Problem of Translation)، والمثير في الأمر أن الترجمة هنا لا تشير إلى نقل نص إلى لغة أخرى بالمعنى اللغوي، وإنما تعني "ترجمة" الفكر النسوي في سياق الخطابات الفكرية والأكاديمية السائدة، وهي الإشكالية التي أوردُ جزءًا منها فيما يلي:

> على مدار الندوات والسمينارات وجد العديد من المشاركين والمشاركات فيها أن الخطابات حول النوع (الجندر) غريبة ومزعجة جدا. وكنا قد قللنا من شأن أثر السنوات الطوال التي قضيناها في تناول تلك القضايا بما جعلنا نملك أسلوبا رمزيا يكاد يكون مختزلا في التعبير اللغوي الذي كنا نجيده، بينما لم يتمكن هؤلاء المشاركون والمشاركات من ترجمته أو الحديث به. فصار -بالتالي- أمامنا تحد لإيجاد مستوى من الخطاب يصل إلى غير العارفين بالفكر النسوي، مع احتفاظ هذا الخطاب في نفس الوقت بقدر من الرصانة تعبر عما يحمله من عمق وتعقيد. فلم يكن من الكافي أن نعرض المنظومات النسوية ونقدمها للمشاركين والمشاركات، وإنما قضينا الكثير من الوقت في شرح المفاهيم الأساسية، وتعريف المصطلحات المحورية، وتصحيح المفاهيم الخاطئة الناجمة عن الفهم الجزئي غير الشامل للموضوع. (Changing Our Minds, p. 142)

إن السطور السابقة تشير إلى نقطة جوهرية ألا وهي مسألة صعوبة طرح منظومة فكرية جديدة وخطاب نسوي في إطار المعرفة والخطاب السائد. وهي مشكلة تتمثل أعلاه في نقل ذلك الخطاب النسوي داخل إطار لغوي واحد (اللغة الإنجليزية المتداولة في هذه الحالة)، والتي تتحول إلى مشكلة بل وأزمة عند طرح خطاب جديد في إطار لغوي مختلف. فإذا كانت هؤلاء الباحثات النسويات قد واجهن صعوبات في الحديث عن "قضايا النوع" إلى جمهور يتحدث نفس اللغة (لغويا) دون معرفة بالخطاب (معرفيا)،

فلنتخيل معا مدى صعوبة ترجمة هذا الفكر النسوي إلى لغة أجنبية وسياق ثقافي ومعرفي مغاير. وهو التحدي الذي واجهته خلال الفترة التي عكفت فيها على ترجمة هذا الكتاب من الإنجليزية إلى العربية. وكما تخبرنا نظرية الترجمة (Translation Theory) ودراسات الترجمة (Translation Studies) فإن الترجمة ليست مجرد نقل نص من لغة إلى أخرى بل هي نقل نص من ثقافة إلى نص في ثقافة مغايرة، بما يتطلبه ذلك من إجادة تامة للغتين ومعرفة عميقة بالثقافتين. ويضاف إلى هذا وذاك نقل نص في مجال غير مألوف من ثقافة ما إلى نص في مجال غير مألوف في ثقافة مغايرة، وهو ما ينعكس على الترجمة إذ تحمل غربة وغرابة: غربة اللغة وغرابة الموضوع واختلاف السياق الثقافي.

ومن هنا فإن ترجمة الفكر النسوي إلى اللغة العربية يستدعي في رأيي عدة شروط أساسية لضمان دقة الترجمة لغويا وصحة نقل الفكر معرفيا، وهي شروط يمكن إيجازها في الآتي: 1) الفهم العميق للمفاهيم الفكرية ولتطور النظرية النسوية ومصطلحاتها. 2) إدراك خصوصية الخطاب النسوي من حيث توجهه إلى النساء أساسا في سبيل رفع الوعي النسوي، بما قد يتطلبه ذلك من تأنيث النص العربي. 3) الوعي بعلاقات القوى الكامنة في فعل الترجمة، من حيث دور المترجمة أو المترجم في الوساطة بين النص الأصلي والنص المترجم وسلطة التحكم في كيفية هذا النقل. 4) التعامل مع ترجمة النص النسوي باعتباره فعلا سياسيا يسعى إلى بناء معرفة جديدة نسوية باللغة العربية، بالإضافة إلى إنتاج نص (مترجم) باللغة العربية يساهم في إحداث تغير اجتماعي من خلال رفع الوعي وتمكين النساء معرفيا.

وقد سعيت خلال عملي على ترجمة هذا الكتاب المهم في البحث النسوي على الالتزام بتلك الشروط.

أولا: جاءت موافقتي على ترجمة الكتاب انطلاقا من تخصصي الأكاديمي في النظرية النسوية والدراسات النسائية، وهو المجال الذي قررت - منذ سنوات - التخصص فيه بحثا وترجمة، وبالتالي لدي معرفة دقيقة بالفكر النسوي ومصطلحاته وجهود ترجمته خلال العقدين الماضيين منذ بدأ طرح قضايا النساء والنوع (الجندر) باللغة العربية. وقد

كنت أرجع في أحيان كثيرة إلى مصـادر في النظرية النسـوية للتيقن من بعض المفاهيم النسـوية، ومنها "قاموس النظرية النسوية" لصـاحبته ماجي هم، وغيره من المصادر النسـوية. أما فيما يتصل بمصـطلحات العلوم الاجتماعية، فمنها ما هو معروف لي في إطـار الدراسـات الثقافية، ومنها ما كنت أتثبت منه بالرجوع إلى "معجم مصـطلحات العلـوم الاجتماعية". وقـد جمعت في الترجمة بين معرفتي بالنظرية النسـوية والعلوم الاجتماعيـة وبـين اهتمامي بالترجمة، نظرية وممارسـة. ولعل من أهـم المفاهيم التي اسـتلزمت مني اختيار الترجمة الملائمة لها هي مفهوم "gender"، والذي تتنوع صيغ ترجمتـه إلى اللغة العربيـة ما بين كلمة "الجنوسـة" و"النوع الاجتماعـي" و"النوع" و"الجندر". ونظرا لأن كلمة "النوع" صـارت مألوفـة كترجمة لمفهوم "gender" في العلوم الاجتماعية، فقد آثرت اسـتخدامه عنه بديلا عـن البدائل الأخرى التي قد تكون هي الأنسب في تخصصات معرفية أخرى.*

ثانيا: من المعروف في اللغة الإنجليزية أن الأسـماء لا تأتي إلا على شـاكلة واحدة، وهـو ما لا ينطبق علـى اللغة العربيـة التي تكون الأسـماء فيها إما مؤنثـة أو مذكرة. وبالتـالي فإن كلمة مثل "researcher" باللغة الإنجليزية لا تشـير إلى جنس بعينه وإنما هي اسم محايد ينطبق على الباحث أو الباحثة. وقد لاحظت في فصول الكتاب أن بعض المؤلفات يوجهن خطابهن إلى النسـاء، وهو ما لا يتضح من صيغة الاسم "researcher" وإنما عند اسـتخدام ضـمائر الغائبة، إذ عادة ما يتم اسـتخدام "she" كضمير عائد على "researcher". ومن هنا حرصت على ترجمة الاسم إلى صيغة المؤنث في اللغة العربية "الباحثة" حين يكون من الواضـح أن الاسم يشير إلى المؤنث، وفيما عدا ذلك اخترت أن أستخدم صيغة "الباحثة أو الباحث" كترجمة لكلمة "researcher" وصيغة "الباحثات والباحثين" كترجمة لصـيغة الجمع "researchers". وهو مـا طبقته كمنهج في ترجمة الأسـماء عبر صـفحات الكتاب تأكيدا على تواجد النساء كطرف أساسي يخاطبه الكتاب وبالتالي لا يجوز تجاهله أو تغييبه باستخدام صيغة جمع المذكر السالم.

* للمزيد عن ترجمة المصطلحات المتعلقة بقضايا النساء والجندر، يمكن الرجوع إلى المقالة التالية:
Hala Kamal, "Translation Women and Gender," in WSQ: Women's Studies Quarterly, 36: 3&4, Fall/Winter 2008 pp. 254-268.

ثالثا: تعلمنا نظرية الترجمة ودراسات الترجمة أن فعل الترجمة يعتمد على الوساطة، فالمترجمة أو المترجم ناقل للمعرفة من لغة إلى لغة، ومن نص إلى نص. وبالتالي توضح سوزان باسنيت في كتابها عن "دراسات الترجمة"، أن الترجمة من منظور النظرية الأدبية (Literary Theory) تجمع بين علم اللغويات (linguistics)، وبين نظرية التلقي (reception theory)، وبين نظريات التأويل والتمثيل (interpretation and representation). فأنا كمترجمة أقوم بنقل النص اعتمادا على قواعد لغوية، كما أنني في الوقت نفسه أقترب من النص أساسا كقارئة أولا، ثم أقوم بترجمة ما فهمته بناء على تأويلاتي؛ لينتهي الأمر بتقديم نص جديد ليس صورة مطابقة للنص الأصلي بقدر ما أقرب إلى تمثيل لذاك النص (Translation Studies, p. 80). ولذا وجب على المترجمة والمترجم الأمين الوعي بدورهما كوسيطين في نقل المعرفة الاقتراب من النص بأكبر قدر ممكن من الدقة وتأمل الذات والحذر من عدم الوقوع في فخ ترجمة تصوراتهما أو تأويلهما للنص بدلا مما يحمله النص ذاته. ومن هنا التزمت في الترجمة بأكبر قدر من الدقة وما يكاد يقرب من الترجمة الحرفية كي لا أفرض مواقفي أو تفسيري الشخصي أو تأويلاتي على النص، مع أهمية تأكيدي هنا على وعيي بأن ذاتي بلا شك كامنة داخل الترجمة العربية سواء عبر حصيلتي اللغوية أولا واختياراتي في الترجمة التي قد تعبر عن مساحات معرفية حاضرة أو غائبة أو كامنة. ولضمان أكبر قدر من الدقة في ترجمة المفاهيم والمصطلحات حرصت على وضع المصطلحات في أصلها الإنجليزي بين قوسين عند أول ورود لها في النص، كي أرشد القارئة أو القارئ إلى الأصل وإدخال القراء طرفا في فاعلا وربما مساهما في الترجمة دون أن أحتكر ترجمة المصطلحات الجديدة وغير المألوفة أو أدعي أن ترجمتي هي المقابل المعادل الوحيد للمصطلح الأصلي.

رابعا: إنني أعتبر ترجمة النص النسوي في حد ذاتها فعلا سياسيا. فمن خلال قيامي بنقل الفكر النسوي الغربي إلى اللغة العربية أعتقد أنني أساهم في تمكين الباحثات والباحثين العرب من التعرف على ما يتم إنتاجه من فكر ونظرية ومناهج بحث وتطبيق في العالم، بما يضيف إلى بنيتنا المعرفية ويمكننا من الإمساك بأدوات البحث ومناهجه

المختلفة بما يحقق لنا، نساء ورجالا، قدرا من التمكين المعرفي والقدرة على المقارنة والاختيار والنقد والخلق والإبداع. كما أن ترجمة النص النسوي هي في رأيي نشاط نسوي لما ينتج عنه من بناء معرفة نسوية جديدة باللغة العربية تساعد النساء على مزيد من الوعي وامتلاك أدوات التحليل والتعبير والتعرف على أنماط المقاومة والفعل نحو التغيير. وإنني أعتبر قيامي بترجمة أي نص نسوي بمثابة إسهام في بلورة خطاب نسوي مصري وعربي، يكون نتاجا للتواصل المعرفي، ودافعا لمزيد من الفهم والنقد والمواجهة والاقتباس والرفض، وكافة أشكال التفاعل البناء، بما يؤدي إلى زيادة الوعي بقضايا النساء والعمل على إحداث تغيير اجتماعي أساسه العدالة على كل المستويات، في تقاطعاتها ونقاط التماس بين النوع والطبقة والأصل وغيرها من عناصر التمييز بين البشر.

وفي هذا السياق يحضرني تعريف جيردا ليرنر للوعي النسوي باعتباره يشير إلى وعي النساء بأنهن ينتمين إلى فئة ثانوية مستضعفة، وأنهن تعرضن للظلم والأذى جماعيا كفئة، وأن وضعهن الدوني في المجتمع ليس أمرا طبيعيا بل هو محدد اجتماعيا، وأن عليهن الاتحاد مع غيرهن من النساء لمواجهة ما يعانين منه من أذى وظلم، وأخيرا أن عليهن وفي استطاعتهن طرح رؤية بديلة للنظام الاجتماعي تتمتع فيه النساء والرجال على السواء بالاستقلالية وحق اتخاذ القرار (The Creation of Feminist Consciousness, p. 14). وختاما أود أن أؤكد أنني حاولت نقل نص الكتاب من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وكلي أمل أن يمثل هذا الكتاب حلقة في حلقات رفع الوعي النسوي وتمكين النساء معرفيا وبلورة رؤية بديلة لمجتمع يسوده العدالة الاجتماعية على كافة المستويات. ومن جانب آخر فإنني أمارس الترجمة من منطلق السعي إلى ترجمة نص نسوي ترجمة تلتزم بشكل النص الأصلي ومضمونه ورسالته، وجهد يتم في إطار ما تطلق عليه شيري سايمون "التحالف بين دراسات الترجمة والنسوية" (Gender in Translation, p. 8). كما أن طموحي كمترجمة ونسوية يجعلني آمل أن أعمل كمترجمة لا يقتصر همها على ترجمة كتاب فحسب، وإنما تسعى إلى إنتاج ترجمة نسوية لنص نسوي.

المصادر:

Aiken, Susan Hardy et al. (Eds.). Changing Our Minds: Feminist Transformations of Knowledge. State University of New York Press, 1988.

Bassnett, Susan. Translation Studies. London and New York: Routledge, 1980.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, and Particia Lina Leavy. Feminist Research Practice. Sage Publications, 2007.

Humm, Maggie. The Dictionary of Feminist Theory. Ohio State University Press, 1990.

Simon, Sherry. Gender in Translation: Cultural Identity and the Politics of Transmission. London and New York: Routledge, 1996.

محمد الجوهري، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: إنجليزي-عربي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010.

هالة كمال

شكر وتقدير

إننا نعبر عن تقديرنا لما حصلنا عليه من عون من أشخاص دعموا الجهود الرامية إلى إصدار هذا الكتاب. ونتقدم بالشكر إلى الباحثات النسويات اللاتي سمحن لنا بالتواجد معهن "ما وراء الستار" حيث شاركننا رواياتهن الشخصية وآراءهن الخاصة بالبحث النسوي، ذلك إلى جانب كل الباحثات والباحثين الذين شاركوا بفصول في هذا الكتاب.

ونشعر بالامتنان تجاه طالباتنا وطلابنا لدورهم في إلهامنا ودعمنا. ونود أن نعبر عن تقديرنا لمساعدات ومساعدي البحث الذين جاؤونا من عدة جهات. فمن كلية بوسطن جاءت كولي هورنر وميليسا ريكر وفيث كيرباتريك بما أضفينه على العمل من طاقة وجهد في إعداد مخطوطة هذا الكتاب، كما نعبر عن شكرنا لهن لما قمن به من جهد في التحرير والبحث في المصادر. كذلك نتقدم بالشكر إلى مكتب منح أبحاث التعليم الجامعي في كلية بوسطن.

ونتقدم بالشكر العميق إلى طالب الدراسات العليا في كلية ستونهيل، بول ساكو؛ لما قدمه من فائق العون في عرض الأدبيات ومراجعة طباعة الكتابة ومتابعة العمل اليومي. والشكر كذلك للطالبتين في كلية ستونهيل، كيم فولي وكريستينا نيكاسترو لمراجعة الشكل النهائي للمخطوطة استعدادا للطباعة؛ ولجهدهما عموما كمساعدتين للبحث. وكذلك نشكر الطالبة في كلية ستونهيل، كاثرين مالوني؛ لما قدمته من عون في عرض الأدبيات المتعلقة بالفصل الخاص بنسوية ما بعد الحداثة، وأيضا طالبتي الدراسات العليا في كلية ستونهيل، لورين شاردي ولياندرا سمولين، لمساعدتهما لنا في عرض الأدبيات المتعلقة بالفصل الخاص بالتاريخ الشفاهي النسوي وتحليل المضمون النسوي، وطالبة الدراسات العليا في كلية ستونهيل لورا ماكفي لما قدمته من مساعدة. ونشعر بالامتنان

نحـو كل من بوني تـروب وكاثي كونروي، مديرتي برنامج "المدرسـة الصـيفية في تجربة البحث الجامعي" (SURE: Summer Undergraduate Research Experience) في كلية سـتونهيل، والذي حصلنا من خلاله على مساعدة من الدرجة الأولى لمشروعنا هذا. وتتقدم باتريشـا بالشـكر إلى نائبة رئيس كلية ستونهيل للشؤون الأكاديمية، كاتي كونبوي، ولعميدة الكلية كارين تالينتينو، ورئيسـة قسم علم الاجتماع، سو جوارينو، لرعايتهن ودعمهن من خلال منحها تفرغا من التدريس لتيسير الانتهاء من هذا الكتاب ولدعمهن المسـتمر لأهداف هيئـة التدريس البحثية. كذلك نعرب عن امتناننا لصـديقتنا ديبورا لافتن لما قدمته من مسـاعدة في كتابة مشروع الكتاب. ونود التعبير عن تقديرنا للدعم والحماس الذي وجدناهما لدى العاملين في دار نشر سيج، ونتقدم بالشكر تحديدا إلى أليسون موديت، وليسا كويفاس شو، ولورين شيا، وكارين جرين.

شارلـين: أود أن أعبر عن حبـي وعميق تقديري لأسرتي، وتحديـدا ابنتيَّ جوليا أريبل وسـاره ألكسـندرا للصـبر والحب والاحتمال. وأعبر عن تقديري الخاص إلى زوجـي مايـكل بيتر بايير (الطبيب) لما يقدمه من صـداقة وحب ودعـم. كذلك أود أن أشكر جودي ويجرين لتشجيعها ونصحها لي، وأشكر كيرا ستوكس، مدربتي الخاصة التي تذكرني بمدى أهمية الحفاظ على التوازن بين عقلنا وجسدنا وروحنا.

باتريشا: إنني أهدي الجهد الذي بذلته في هذا الكتاب إلى والدي، بوب ليفي، الذي يدعمنـي باسـتمرار وبكافة الطـرق الممكنة، ودومـا بروح محبة لا تعـرف الأنانية. أبـي، حين يسـألونني عنك، أجيب دائما بنفس الرد قائلة: "أبي ببسـاطة هو الخير". إنك شـخص مدهش في الاتسـاق والمسـؤولية والكرم والطيبة والخير والفكاهة، وهي كلها أمور جديرة بالملاحظة والتقدير. وفوق كل شيء لديك قدرة مدهشة فعلا على أن تحـب الآخرين بما هم عليه، بكل ما يحملونه من اهتمامـات وغرابة أطوار وعيوب، وعلـى أن تحتفي بمن تحبهم لما هم عليه. وهو ما يجعلك شخصـا مميزا جدا، وأنا أحبك بجنون! أمي، أشـكرك على كونك أفضـل أصـدقائي أنت وأبي. فأنا أعشقك وأقدرك

أنت أيضـا! وكما هو الحال دائما أهدي كتابي أيضـا إلى ابنتي الرائعة مادلين كلير التي تسـتفيد من تضـحيات النسـويات الرائدات، والتي ستقوم بلا شـك بالمساهمة بطريقتها الخاصـة والجميلة في رحلتنا الجماعيـة. وأخيرا أهدي الكتاب إلى كل النسـاء القويات اللاتي سـاعدنني على صياغة حياتي، وخاصة أينا سميلتنس، مولي ليفي، هيلين ليفي، ليديـا فيزبوليس، بيجـي إيفانجيلاكوس، ليز لوفيري، تارا ديريكـو، ليندا ليفي، ألي فيلد، باتريشـا آرند، جانيت لانداو، ومرة أخرى إلى والدتي الماهرة المدهشـة سـيلفيا ليفي.

تصدير

فلسفة الكتاب التعليمية

البحث النسوي ليس أمرا يمكن- ببساطة- تعلمه من خلال الشرح المكتوب. فكما تعلم كل الباحثات والأكاديميات النسويات، إن فهم البحث النسوي ممارسة وتطبيقا لا يتحقق عن طريق قراءة قائمة من المناهج فحسب. فالبحث النسوي عملية معقدة تترابط فيها النظرية والإبستمولوجيا والمنهج ترابطا حميما. وفي سبيل تقريب هذا الكتاب إلى الطالبات والطلاب وإلى الباحثات والباحثين المتخصصين على السواء، ومن أجل سبر أعماق ممارسات البحث النسوي، قمنا بتضمين خاصية مميزة في هذا الكتاب، إذ نقدم مقاطع "ما وراء الستار" المشوقة والتي تتحدث عن تجارب الباحثات والباحثين في علم الاجتماع ممن يبحرون ويستكشفون مساحات ومستويات جديدة من البحث العلمي.

وعند التفكير في التعقيد الكامن في الكتابة عن البحث النسوي سرعان ما أدركنا أمرين: أولا، أن النسوية ليست كيانا واحدا، كما أنه لا توجد منهجية نسوية في حد ذاتها. فالنسوية نافذة على الواقع الاجتماعي وتشتمل على نطاق واسع من الرؤى والممارسات. وبالتالي فالنسوية متعددة الأصوات. ومع أخذنا ذلك في الاعتبار أردنا التيقن من أن الأصوات النسوية المتعددة تجد لها مساحة في هذا النص. وكان من سبل تحقيق ذلك الهدف أن ندعو البعض للمشاركة في كتابة بعض فصول هذا الكتاب، فدعونا بعض الباحثات والباحثين لتأليف الفصول التي شعرنا بأنهم سيقدمون مستوى من المعرفة والأفكار والتجارب يضفونها إلى الموضوع.

كذلك أردنا التيقن من تقديم أصوات متعددة في كل فصول الكتاب. ومن هنا- وبوحي من مفهوم إيرفينج جوفمان بشأن "مقدمة المسرح" و"خلفية المسرح"-

بدأنـا في إدراك أن المعلومـات المتاحـة في كثير من الكتب والتي تتنـاول مناهج البحث هي معلومات تمثل "مقدمة المسرح" في مسـار البحث. وبمعنى آخر، فإن معظم الكتب التي تتناول مناهج البحث تقدم تعريفات لأهم المصـطلحات والمفاهيم متبوعة بتوصيفات لمناهج البحث ونماذج لكيفية إعداد خطة مشروع بحثي. إن مثل هذه المقاربة تعجز عن التوصـل إلى التعقيد القائم في ممارسـات البحث الاجتماعي. فما الذي يوجه اختيارات الباحثات والباحثين من حيث موضـوعات البحث؟ كيف تؤثر القناعات الإبستمولوجية والالتزامـات النظريـة على مسـار البحث؟ ما القيم والقضـايا والدوافع التي يضـفيها الباحثون والباحثات على مشروعاتهم؟ كيف تتجلى أخلاق المهنة في الممارسة؟ ما حقيقة الجوانب العاطفية الخاصـة بمشروع البحث؟ لماذا يختـار البعض مناهج معينة؟ وكيف تعمل تلك المناهج على تقوية البحث؟ إنها كلها أسئلة وأفكار محورية في ممارسات البحث النسـوي، وهي تتطلب بشـكل قاطع تفاعلا بين مكونات مسـار البحـث على تعددها. وفي سـبيل تناول بعض تلك القضـايا تناولا عميقا قمنا بدعوة باحثات نسويات بارزات للمشـاركة بالكتابـة عن نطاق من القضـايا الإبسـتمولوجية والمنهجية، بالإضـافة إلى "حكايات من العمل الميداني" إن جاز لنا القول، وهي التجارب التي تمر بها النسويات عند اسـتخدامهن لبعضـ الخيارات المنهجية المعروضـة في هذا النص. إن النصـوص الغنية التي شـاركننا فيها ترد عبر صفحات هذا الكتاب فيما نطلق عليه مقاطع "ما وراء السـتار"، وهي مقاطع تقدم لمحة لما وراء سـتار البحث النسـوي، أي نافذة تطل على منظور الباحثة النسوية.

الفصل الأول

دعوة إلى البحث النسوي

أبيجيل بروكس
وشارلين ناجي هيسّي-بايبر

ركوب القطار مع أليس وماري

بينما كانت شارلين تقوم مؤخرا برحلة بالقطار ما بين مدينتي نيويورك وبوسطن، أذهلها حوار دائر بين شابتين في سن الجامعة جالستين بالقرب منها. ونظرًا إلى أن الشابتين كانتا تتحدثان عن النسويات وما يحملنه من أفكار، فلم تستطع شارلين منع نفسها من الاهتمام بفحوى الحديث. وقد اتضح خلال الحوار أن هاتين الشابتين، ولنطلق عليهما اسم أليس وماري، كانتا ملتحقتين بجامعة من جامعات القمة، كما قضتا معظم سنوات حياتهما المدرسية في مدارس خاصة. وفيما يلي مقتطف من الحوار الذي دار بينهما طبقا لما تتذكره شارلين:

أليس: أعتقد حقا أن النسويات قد تجاوزن الحد، إذ يرين أن النساء يعاملن معاملة ظالمة طول الوقت. فمنذ أيام قابلت مصادفةً إحدى صديقاتي من المدرسة الثانوية ووجدتها قد تغيرت جدا – فلم تكن تضع أي مساحيق تجميل وقد قصت شعرها كله فأصبح قصيرا جدا، أما ملابسها، فلم تبد عليها أية مظاهر من الأنوثة على الإطلاق! وعلى أية حال، كانت تجعجع وتهذي حول تدني أجور النساء وتعرضهن للتحرش في أماكن العمل. لم أكن قادرة على مواصلة الاستماع إليها، كما تعلمين.

ماري: إن هؤلاء النساء تغلبهن الأيديولوجيا، يتخذن مواقف راديكالية دون أن تتوفر لهن أية حقائق داعمة! إن صديقتي سالي على هذه الشاكلة تماما، فتظل تردد وتكرر الحديث عن غياب المساواة. أنا عن نفسي لم أتعرض قط للتمييز ضدي وأشعر أن الحركة النسائية هي أمر عفا عليه الزمن. أما هؤلاء الفتيات، فهن غير قادرات على تجاوز تلك المرحلة، كما تعلمين.

ونحن إذ ننطلق في رحلة هذا الكتاب، لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من التفكير في الحوار الذي دار في رحلة القطار تلك، ونود أن نشرك قراءنا معنا. فإن آراء أليس وماري بشأن الهوية النسوية ومفهوم النسوية هي أفكار تشكلت بطريقة أو بأخرى بفعل تجاربهما اليومية، فباعتبارهن من نساء الطبقة الوسطى العليا الملتحقات بجامعة عريقة من جامعات القمة، ربما لم تتعرض أي منهما للتمييز على أساس الجنس في حياتهما اليومية. ولا يبدو أن النسوية تحتل جانبا محوريا في عالم أليس وماري، ولا تؤثر على حياة أشخاص ضمن دائرة معارفهما أو شبكات علاقاتهما الشخصية والعائلية. فبالنسبة لهما تمثل القضايا التي تنادي بها النسويات أمورا من الماضي، إذ تريان أن اهتمام النسوية بقضايا العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي لصالح النساء هي أمور ذات طبيعة أيديولوجية وغير موجودة على أرض الواقع. كما أن لدى كل منهما صورا تنميطية وآراء منمطة حول النسويات (بلا مساحيق تجميل، والشعر القصير، وانعدام الأنوثة)، كما تعتبران النسويات فئة واحدة موحدة بما يوحي بأن النسويات جميعا يحملن نفس الأفكار السياسية والصورة الجسدية.

فما الذي عسانا نقوله لكل من أليس وماري عن النسويات والنسوية لو أتيحت لنا فرصة الدخول في حوار معهما؟ سنبدأ حينها بالقول إن النسويات يأتين في كل الأحجام والأشكال والألوان، وترتدي بعضهن ملابس من أعرق بيوت الأزياء مثل نيمان ماركوس وشعورهن طويلة، كما أن البعض الآخر منهن لا يملك القدر الكافي من المال لشراء أدوات التجميل أو الملابس المواكبة للموضة، بل ومنهن من لا يؤمن بتلك

الأفكار الخاصة بالجمال والأناقة. ومن النسويات نساء متزوجات أو يرتبطن بعلاقات مستقرة، بأطفال أو بدون أطفال. ومنهن العازبات، وبعضهن هوياتهن الجنسية مثلية (gay) والبعض الآخر هوياتهن الجنسية غيرية (straight)، وأخريات هوياتهن الجنسية متحولة (transgendered). كما أن منهن المتدينات وغير المتدينات. وبالتالي فإن الفكرة القائلة بوجود هيئة أو تصرف أو سلوك محدد للنسويات في الحياة هي فكرة إنما تعمل على ترسيخ الصور النمطية التي تبعد أليس وماري عن الهموم والقضايا النسوية.

وتنتمي النسويات إلى طبقات وأعراق وثقافات مختلفة، كما مررن بتجارب حياتية مختلفة، وبينما تشترك الكثيرات منهن في بعض الأهداف المشتركة، كالمساواة بين الجنسين (gender equality)، والعدالة الاجتماعية للنساء، والتأكيد على هموم وقضايا النساء وغيرها من الفئات المقهورة، إلا أن النسويات جميعا لسن على نفس الشاكلة ولا يشتركن في نفس القيم والرؤى والاهتمامات. إن أليس تعرف امرأة نسوية قصيرة الشعر ولا تضع مساحيق التجميل، وتعتنق مواقف قوية، وهي ناشطة نسوية. وفي الوقت الذي تنظر فيه أليس إلى تلك الخصائص نظرة سلبية، إلا أنها يمكن بسهولة أن تمثل تلك الخصائص نفسها بالنسبة لامرأة أخرى مزايا إيجابية، وتضفي على التوجه النسوي جوانب إيجابية. ولكن الأمر الذي يجعل الاستنتاج الذي توصلت إليه أليس وماري استنتاجا خاطئا تماما –ويتطلب ترابطا منطقيا غائبا تماما– هو الفرضية التي يقوم عليها هذا الاستنتاج والقائل بأن كل النسويات قصيرات الشعر، ولا يضعن المساحيق ويعتنقن نفس الآراء والتصورات.

وربما لم تواجه أليس وماري في حياتهما اليومية أي تحيز أو تمييز ضدهما على أساس الجنس (gender-related bias)، ولا عايشتا القهر أو النضال المتعلق بكونهما من جنس النساء، ولكنه من الضروري مع ذلك الاعتراف بأن غالبية الآراء ووجهات النظر النسوية ليست مجرد أفكار أو أيديولوجيات، وإنما تضرب بجذورها في حيوات النساء ونضالهن وتجاربهن الحقيقية. ويمكن في الواقع إرجاع الغياب الظاهري

لتعرض أليس وماري للتمييز والتحيز على أساس الجنس، إلى حد كبير، إلى العمل الشاق والجهد النسوي المتواصل الذي تقوم به النساء على مدار العقود الأخيرة. إن المكاسب التي حققتها الباحثات والناشطات النسويات ومساهماتهن، سعيا للقضاء على الصور النمطية واسعة الانتشار لكلا الجنسين (gender stereotypes) ولتحسين أوضاع النساء من حيث الحقوق والمساواة على مستوى العالم، هي مكاسب ومساهمات مهمة ولا يجب اعتبارها بالأمر البسيط. فإن العديد من الكليات ومؤسسات التعليم العالي لم تفتح أبوابها أمام النساء إلا خلال السنوات الخمس والعشرين إلى الخمس والثلاثين الأخيرة. كما أن القوانين التي تحمي النساء من التحرش الجنسي في مكان العمل لم تؤت ثمارها إلا في بداية التسعينيات من القرن العشرين. كذلك فإننا نرى انضمام النساء إلى القوى العاملة والتحاقهن بمهن كانت في السابق حكرا على الرجال، مثل المحاماة وإدارة الأعمال، والطب، وذلك بأعداد كبيرة، كما تناقصت معدلات التمييز ضد النساء على أساس الجنس في التعيين والترقي. ولكن من ناحية أخرى، تظل المرأة تحصل على نسبة 70% من الراتب الذي يحصل عليه الرجل في الوظائف المعادلة لها، كما تنخفض نسب تمثيل النساء في مجالات العلوم والهندسة وفي المناصب العليا في المحاماة وإدارة الأعمال والطب. إن عدم توفر خدمات رعاية الأطفال بمقابل مادي مقدور عليه، وبيئات العمل التي تفتقد إلى المرونة في الشركات الكبرى يمكن أن تجعل من الصعب على الكثيرات من النساء العاملات تحقيق توازن بين العمل والأسرة. كذلك فإن تأنيث الفقر في تزايد مستمر –إذ تشكل النساء والفتيات نسبة كبيرة ومتزايدة من الفقراء على مستوى العالم– كما أن العنف ضد النساء والفتيات يواصل اتساعه عالميا متخذا أشكالا جديدة ومؤذية للغاية (انظر/ي: Hesse-Biber & Carter, 2005).

إن آلاف النساء من كل أرجاء العالم يواجهن مجموعة متنوعة من التحديات بشكل يومي، كما أن هنالك العديد من أشكال النضال والفعل التي نتفاعل معها ونشارك فيها من منطلق كوننا نساء. إن القضايا الموصوفة أعلاه إنما تمثل حفنة من القضايا والهموم العديدة المتمحورة حول النساء، والتي لا تزال تحفز الناشطات النسويات على

العمل، والتي تؤكد أهمية وجود بحث نسوي متمحور حول النساء. ولعل القول مع ذلك بأن معظم النسويات، سواء من الناشطات أو الباحثات أو كليهما، مازلن يشتركن في بعض الهموم والأهداف والالتزامات المحورية، بما فيها منح صوت لحيوات النساء وتجاربهن، وتحسين نوعية وفرص وخيارات الحياة بالنسبة للنساء والفتيات، والقضاء على عدم المساواة والقهر الواقع على النساء على أساس الجنس.

ما البحث النسوي؟

إن البحث النسوي في الأساس "متصل من حيث المبدأ بالنضال النسوي" (انظر/ي: Sprague & Zimmerman, 1993, p. 266). فالبحث النسوي يتصدى للبنى الفكرية والاجتماعية والأيديولوجيات القائمة على قهر النساء، وذلك عبر توثيق حيوات النساء وتجاربهن وهمومهن، وإلقاء الضوء على الأنماط والتحيزات القائمة على أساس الجنس، والكشف عن معارف النساء التي طال إغفالها. كما أن أهداف البحث النسوي تعزز تمكين وتحرير النساء وغيرهن من المجموعات المهمشة، وعادة ما تقوم الباحثات النسويات بتطبيق نتائجهن التي توصلن إليها في سبيل تشجيع التغيير الاجتماعي وتحقيق العدالة الاجتماعية للنساء.

وإذا كنا لا نستطيع اختزال كل النساء في مجموعة واحدة ذات تجربة أو عرق أو طبقة أو ثقافة موحدة، فمن نفس المنطلق لا يوجد منهج أو منهجية أو إبستمولوجيا (نظرية المعرفة) واحدة يقوم عليها البحث النسوي، إذ تتبع الباحثات النسويات وجهات نظر مختلفة، ويطرحن أسئلة مختلفة، ويعتمدن على مجال رحب من المناهج والمنهجيات، ويطبقن رؤى متعددة بما يعلي من وعينا بالأيديولوجيات والممارسات المتحيزة جنسيا، والمعادية للمثلية الجنسية، والعنصرية والاستعمارية. ونجد بعض النسويات يستخدمن المنهجيات التقليدية، ولكن مع طرح أسئلة جديدة تتضمن قضايا وهموم النساء، بينما

تقوم أخريات بإعادة صـياغة أو حتى إحداث زعزعـة جذرية، للمعارف والمنهجيات التقليدية. وفي الواقع فإن بعض الباحثات النسويات يواصلن جهودهن لتطوير معارف ومنهجيـات وأسـاليب بنـاء المعارف تتسـم كلها بالجدة، وذلك في سـبيل الكشـف عن الجوانب الخافية والمخفية من حيوات النسـاء وغيرهن من الفئات المقهورة، واسـتعادة المعرفة التي طال إغفالها.

إن البحث النسـوي هو مشروع شـامل يتضـمن كافة مراحل العمليـة البحثية، من النظرية إلى التطبيق، من صياغة أسئلة البحث إلى كتابة نتائج البحث، كما أن الباحثات النسـويات يؤكدن علـى التداخل القائم بين نظرية المعرفة والمنهجية والمنهج، وينصـب اهتمامهـن علـى الطرق المختلفة التـي تتفاعل بها رؤيـة الباحثة للواقع ومـدى تأثيرها في كيفيـة قيامها بجمع وتحليـل مادتها (انظـر/ي: Charmaz, 2006; Hesse-Biber & Leavy, 2006). إن الإبسـتمولوجيا (epistemology) هـي "نظرية المعرفة" التي تحدد مجموعـة من الفرضـيات عن العالم الاجتماعي وعن الشـخص الـذي يمكن أن يكون عارفا والأشـياء القابلة للمعرفة، (انظر/ي: Harding, 1987, p. 3). ويقوم الباحث أو الباحثة باتخاذ القرارات المتأصلة في تلك الفرضيات والتي تؤثر على موضوع الدراسة (بناء على ما يمكن دراسـته) وكيفية القيام بالدراسة. أما المنهجية (methodology) فهي النظرية الخاصـة بكيفية القيام بالبحث أو كيفية مواصـلته (ص 3 من المرجع السابق)، وأخيرا فإن المنهج (methodology) هو "آلية (أو أسـلوب مواصلة) جمع الأدلة" (ص2 من المرجع السابق).

ويأتي على رأس المهام التي يقوم بها هذا الكتاب تقديم فهم عملي لكيفية قيام النسويات ببناء المعرفة عبر ممارسة البحث، وهو ما يعني عدم الاكتفاء بتقديم النظريات التي قامت الباحثات النسـويات بتطويرها والتي يعتمد عليها البحث النسـوي، وإنما يتضمن أيضا تقديم كيف تقوم الباحثات النسـويات بتطبيق تلك النظريـات في مشروعاتهن البحثية.

فمـا العلاقة بين نظرية ما من نظريات بناء المعرفة أو الإطار الإبسـتمولوجي المعرفي، والأسئلة التي تطرحها الباحثة النسوية، وبين المناهج والأساليب التي تستخدمها في جمع مادتهـا؟ وكيف يمكن للأسـئلة التي تطرحها الباحثة النسـوية أن تؤثـر على اختياراتها للمناهج والأساليب المتبعة؟ وكيف تصوغ إطارها الإبستمولوجي؟ ونأمل في هذا الكتاب أن نعرفـك على مجـال متنوع مـن الأطر النظريـة والمعرفية، والمنهجيـات والمناهج والأسـاليب والأسئلة البحثية التي تشكّل البحث النسـوي. وأخيرا فلا يمكننا التقليل من قدر التداخل القائم بين البحث والعمل النسـوي. وسـوف نعرفـك في هذا الكتاب على الطرق الكثيرة التي يمثل بها العمل النسـوي مكونا أساسيا ودافعا للنسويات خلال كافة مراحل العملية البحثية، من حيث الأسئلة مرورا بالمناهج وانتهاء بالنتائج.

أصول البحث النسوي؟

إنه لمن غير المنطقي ولا المعقول، بل وحتى من المستحيل، أن نناقش البحث النسوي دون أية إشـارة إلى العمل النسـوي (activism)، وذلك لأن البحث النسـوي يضرب بجذوره وترجع أصـوله إلى سـياق الموجة الثانية من الحركة النسوية.[1] فمع مشاركة الباحثات والطالبات في مجموعة رفع الوعي النسوي على مدار الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، تزايد إدراكهـن للتناقض الجليّ بين تجاربهن الحياتية باعتبارهن نسـاء وبين نماذج البحث والدراسـات ونتائج البحث السـائدة. وطبقـا للباحثة في علم الاجتماع النسوية دوروثي سميث (Dorothy Smith) فإن النظريات والمناهج التي كان يتم تدرسـيها لم تنطبق على "ما كان يحدث" تبعا "لتجارب" الطالبات (Smith, 1987, p. 86). وقد أدت هذه التناقضات بالباحثات النسويات الأوليات إلى تسليط الضوء على أحد أوجه القصـور في عدد من التخصصـات الأكاديمية وفي التوجه السـائد في بحوث العلـوم الاجتماعية، والذي يتمثل في إلغاء النسـاء وعدم وجـود تمثيل دقيق لتجارب

النســاء. فكثيرا ما كان يتم إغفال النســاء أصلا في الدراســات وفي عينات البحث، كما أن الموضــوعات البحثية تجاهلت باســتمرار الالتفات إلى أنشــطة وتجارب النســاء ولم تأخذهــا في الاعتبار. كذلك فـإن الأطر النظرية والمنهجية الســائدة أثبتت -في العادة- عدم فاعليتها والعجز عن التعبير الكامل عن وجهات نظر النســاء. إن فشــل الدراسات الأكاديمية والبحوث الســائدة في "منح صــوت" لأنشطة النسـاء وتجاربهن ووجهات نظرهــن هو الذي دفع الباحثات والأكاديميات النســويات الأوليات إلى الســعي لإيجاد علاج لهذا القصــور والإغفال، وتمثلت أشــكال هذا العلاج في إعادة صــياغة الآليات النظرية والمنهجية التقليدية بل وإيجاد نماذج بحثية جديدة.

نقد النسوية للنظرية الوضعية

لقــد وجهــت النســويات نقــدا قويــا لإحــدى أكــثر المنظومــات انتشــارا في العلوم الاجتماعية، أي النظرية الوضعية[2] (positivism)، وذلك عبر لفت الانتباه إلى اختفاء تجارب النســاء في بحوث العلوم الاجتماعية، وإلى التناقض بين تجاربهن كنساء وبين النتائج التي تتوصــل إليها الدراســات الســائدة في العلوم الاجتماعية. وترجع النظرية الوضعية إلى نهايات القرن التاسع عشر، ونشأت وتطورت من رحم الحركة العقلانية (rationalism) وحركة التجربة العملية الإمبيريقية (empiricism) الأوروبيتين. فالفكر العقلاني القائم على المنهج الديكارتي في الفصل بين العقل والجسد مع تفضيل العقل على المجالات الجســدية والذاتية والعاطفية من ناحية، والمنهج الإمبيريقي الذي يرتكز على الملاحظة الموضــوعية وجذوره المتأصــلة في الثورة العلمية من ناحية أخرى، اشــتركا معا في وضــع قاعدة المنظومة الوضــعية في علم الاجتماع. ونجــد أن علماء الاجتماع الوضــعيين، مثلهم في ذلك مثل أصــحاب المنهج العقلاني والإمبيريقي، يؤكدون على وجود واقع موضوعي أو حقيقة راسخة في انتظار من يكتشفها. كما يدعون إلى تطبيق مناهج محددة لإلقاء الضوء المناسب على تلك الحقيقة الموضوعية.

وتقـوم المنظومـة الوضـعية على وجـود واقع خارجي أو موضـوعي يقـوم مقام الأسـاس لكل من "الواقع" و"الحقيقـة"، وبالتالي لابد من البحث عـن المعرفة العالمية العامة والثابتة غـير المتغيرة والنقية البحتة داخل ذلك الواقع الموضـوعي، حيث يمكن التوصـل إليهـا. إن عالم الاجتماع الكلاسـيكي إيميل دوركهـايم(Émile Durkheim, 1938/1965)، وانطلاقا من التراث الوضعي، يميز بين الحقائق والقيم، فيرى أن القيم تنبع من الوعي الفردي وبالتالي ليسـت سوى تأويل يحمل متغيرات، بينما تقع الحقائق "خارج العقل الإنسـاني" ولها "وجود مسـتقل خارج الوعي الفردي"، وهي بالتالي موضوعية وغير متغيرة وغير معرضة للتلوث. أي أن الحقائق "بعيدا عن كونها نتاجا للإرادة... هي التي تحدد الإرادة من الخارج" (ص 20 من المرجع السابق).

ومن خلال تشـجيع عملية اكتشـاف "الحقائـق" لزيادة المعرفة بالواقع الموضـوعي والحقيقة العامة غير المتغيرة، يدعو الوضـعيون إلى اسـتخدام أدوات قياس موضوعية ومحايدة كالتي يطبقها الباحث الموضـوعي المتحرر من المعايـير القيمية (value-free). وطبقا لما يراه جون ميرفي (John W. Murphy) فإن "الوضـعية تتضـمن كون الآليات المنهجيـة خالية من المعايير القيميـة.... فمن خلال تتبع بعضـ الآليات يمكن التغلب على التأويل والكشـف عن الحقائق" (Murphy, 1989, p. 38). وفي كتابه عن "قواعد المنهـج الاجتماعـي" (The Rules of Sociological Research)، يقـدم لنـا دوركهايم (Durkheim 1938/1965) مجموعـة من الإرشـادات أو المناهج التي يجب بالضرورة تطبيقها للقيام ببحث موضـوعي خال من المعايير القيمية، بما يؤدي في نهاية الأمر إلى الكشـف عن الحقيقة العامة أو المعرفة المطلقـة أو طبقا لدوركهايم "الحقائق الاجتماعية" (social facts). والمناهـج التـي يدعـو إليها دوركهـايم هي في أغلبهـا مناهج كمية في طبيعتهـا، كما تظل النظرية الوضـعية تقدم الأسـاس الإبسـتمولوجي النظري المعرفي للبحوث الكمية. وعادة ما يسـتخدم الباحثون الكمّيون البيانات الاسـتطلاعية والتحليل

الإحصائي لاختبار الفرضيات والعلاقات السببية، وذلك لقياس الأنماط وساعة النطاق والتنبؤ بها، وللتوصل إلى نتائج تعتبر قابلة للتعميم.

انطلاقا من تجارب النساء التي سبق أن كانت مخفية، وبالكشف عن ندرة تمثيل تلك التجارب داخل منظومة البحث الوضعي، ومع تسليط الضوء على كثرة طرق التناقض بين تجارب النساء ونتائج البحث السائد، وجهت النساء تحديا مهما لما يطلق عليه الحياد القيمي للعلوم الاجتماعية الوضعية. إن ما قامت به الأكاديميات والباحثات النسويات من إلقاء الضوء على تجارب النساء أدى إلى زعزعة ما تدعيه النظرية الوضعية من امتلاك زمام المعرفة العامة، وما يطلق عليه المنهجيات الموضوعية التي تصاحب هذا الادعاء وتبرره. فقد قامت النساء -حقا- بالكشف عن سيادة المنظومة الوضعية باعتبارها ترجع إلى موقعها المتميز داخل مجموعة علاقات القوى الأبوية التاريخية والمادية والاجتماعية، لا موضوعيتها وعمومها. وباختصار فعلى الرغم من كافة الدعاوى الخاطئة، فإن بناء المعرفة لم يكن قط عملية خالية من المعايير القيمية، وإن الواقع الاجتماعي لم يكن ساكنا، وإن النظرية الوضعية أو مناهج البحث في العلوم الاجتماعية عموما لم تقع قط خارج عالم الحياة الاجتماعية.

إن النص التالي من "ما وراء الستار" يتضمن مقطعا من مقابلة تمت مع الباحثة والفيلسوفة النسوية الشهيرة ساندرا هاردينج (Sandra Harding) بعنوان "بدءا من الحيوات المهمشة: حوار مع ساندرا هاردينج" :Starting from Marginalized Lives") (A Conversation with Sandra Harding"، وهي المقابلة التي قام بها كل من إليزابيث هيرش وجاري أولسون (Elizabeth Hirsch and Gary A. Olson, 1995). وتقوم فيها إليزابيث هاردينج بتفنيد ادعاءات الوضعيين بالتزام الموضوعية والحياد القيمي، كما تنقد المعايير والمناهج التقليدية المصاحبة لتلك الادعاءات. كذلك نجدها تلقي ضوءا على الطرق المختلفة التي تم بها إقصاء وتهميش النساء من التراث المعرفي الغربي

السـائد على مدار التاريخ. ولكن وبخلاف بعض الأكاديميات والباحثات النسـويات، فـإن إليزابيث هاردينج لا ترفض مفهوم "الموضـوعية" تماما، وإنما تقوم باسـتعادته وإعادة تعريفه وإعادة تسـميته بمسـمى "الموضـوعية القوية"، بحيث لا يقتصر الأمر على إدراج تجارب وأصـوات الآخر المهمش، بما في ذلك النسـاء، بل إنها تجعل من تلك التجارب والأصـوات نقطة انطلاق لبناء المعرفة. فالباحثات والأكاديميات اللاتي يمارسـن "الموضـوعية القوية" لا ينطلقن من موقع ما يطلق عليه الحياد القيمي، وإنما يكون لديهن التزام سياسـي واجتماعي واضح بشأن تقوية الادعاءات الخاصة بالحقيقة الصادقة والموضوعية التي تتسم بها المعرفة، أي -وبمعنى آخر- أخذ أصوات وتجارب الفئات الخاضعة للإسكات والتهميش في الاعتبار.

ما وراء الستار مع ساندرا هاردينج

س: لقـد أكدت في كثير مـن أعمالك على أن "الوصـول إلى أقصـى درجات الموضـوعية في البحوث الاجتماعية لا يتطلب الحيـاد القيمي التام، وإنما يتطلب التزامـا مـن الباحثـة أو الباحث ببعضـ القيـم الاجتماعية المعينـة." ثم تقومين بتوضـيح أن "البحث الاجتماعي الموجه بواسـطة بعض القيـم الاجتماعية المعينة يمكن أن يفوق في موضوعيته البحث الذي لا تلعب فيه هذه القيم أي دور." فهل بوسعك تقديم المزيد من الإيضاح لمفهوم "الموضوعية القوية"؟

ج: بدايـة فهنالـك نطاق ما من القيم الاجتماعيـة (إن أردت التعبير عنها هكذا)، والمصـالح التي لا يكون من الممكن لمعايير الموضـوعية التقليدية التوصـل إليها، ألا وهي القيم أو المصـالح التي يشـترك فيها دعيني أطلق عليه "المجتمع العلمي" بأكمله. وهي ليست مشكلة من اختراع النسوية أو بالتأكيد ليست من اختراعي

أنا، وإنما هي المشكلة التي يتحدث عنها الباحث "كون" (Kuhn) حين يتناول التحولات التي تطرأ على المنظومات، إنها قضية من قضايا المعرفة. فقد أصبح لدينا الآن تاريخ طويل، يمتد إلى ثلاثة عقود أو أكثر، في الغرب من التشكك في أن ما يقوم الغرب بالإعلاء من شأنه هو معيب وأن الطرق المتعارف عليها التي تسعى إلى البلوغ بتلك المفاهيم المعيبة إلى أقصى مدى لم يثبت في الواقع أي فاعلية. ومرة أخرى أكرر أنني أحاول الإشارة إلى أن الأمر لم تثره المجموعات "الراديكالية"، وإنما أثاره أشخاص مثل ريتشارد بيرنستين (Richard Bernstein) على سبيل المثال. ففي كتابه "ما وراء الموضوعية والنسبية" (Beyond Objectivism and Relativism) يقوم بمراجعة المشاكل القائمة في التيارات المختلفة في العلوم الاجتماعية والفلسفة والتي ترتبط بمفهوم الموضوعية، ويبدو في كل حالة منها أن الأمر يرجع إلى نفس النقطة: أي المنظومات والأطر الفكرية التي تتحدد المناهج في داخلها. وبالتالي لا يمكن لتلك المناهج أن تحول منظورها لتأمل الإطار الفكري الذي أوجدها أصلا، أليس كذلك؟ وهو الأمر الذي يمثل بالطبع الموقف الفكري الذي تم تصعيده بقوة في الفكر النسوي والفكر المناهض للعنصرية وما إلى غير ذلك. فالأمر لا يتعلق بالتحيز الجنسي (sexism) لدى الأفراد، وإنما يتعلق الأمر بالفرضيات المتمحورة حول الرجل (androcentric) في النظم الفكرية للفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد.

ودعوني أقدم بعض الأمثلة الوضاحة من مجال تخصصي. فلنتأمل المفاهيم السائدة عن الطبيعة الإنسانية في التراث الفلسفي. يقول أرسطو إن الإنسان حيوان عاقل، بينما يتم وصف النساء باستمرار، منذ أرسطو وكل من تبعه، باعتبارهن عاطفيات مهمومات بمشاعرهن وغير عقلانيات. وبتالي يمكن القول إنه لا يمكن إضافة "النساء كحيوانات عاقلة" في النظام الفكري الذي تم تعريفه أصلا باعتباره نظاما فكريا ضد الأنوثة. وبالتالي تكون المحصلة النهائية هي أن مفهوم المرأة العقلانية

يعتبر– بشـكل ما– مفهوما متناقضا في حد ذاته في إطار هذا النظام الفكري. ولكن تظل تلك النقطة فرضـية غـير ملحوظة إلى أن يتم محاولة إدخال فئة كاملة سـبق وأن تم إقصاؤها من داخل تلك المنظومة. كذلك يقول أرسطو إن ما يميز الإنسان هو أنه حيوان سياسـي –أي يبني طريقة حياته عـبر الخطاب العام والاجتماعات العامـة– ومع ذلك تم إقصـاء النسـاء من المشـاركة في المجال العـام. ويمكننا أن نتتبع كل تعريف لما يميز البشر لنلاحظ أنه تم إقصـاء النسـاء منه. فبالنسبة لمفهوم "العامـل" الذي اهتم بـه تحديدا ماركس (Marx)، تم إقصـاء النسـاء من مواقع العمـل المأجور التي كان ماركس يقصـدها عنـد تأمله أوضـاع بروليتاريا القرن التاسـع عشر. فـإذا انتقلنا إلى مفهـوم "البشر باعتبارهم مسـتخدمين للغة"، فنجد أن المرأة الصـالحة كالطفل يجب أن تكون مرئية ولكن غير مسـموعة. فلم يسمح للنساء بالخطابة على الملأ. ويمكننا أن نتوقف أمام طرق علم الاجتماع في تعريف المجتمـع باعتباره بناء مبنيا بفاعلين مرئيـين ومتحركين من العامة، لا من منطلق الطرق المرئية والمتحركة بقدر أقل في المجتمعات التي تنتمي إليها النسـاء وغيرهن من المجموعات المهمشة والتي تقوم في إطارها بالإسهام في تنظيم المجتمع. ويمكننا تأمل أي تخصـص أو فرع معرفي لنجد أن المناهج المتعارف عليها للوصـول إلى أقصى درجات الموضوعية هي مناهج غير قادرة على التوصل إلى تلك الفرضيات والمصالح الكبرى والمشتركة والتي تقوم في الواقع بتحديد وتعريف الأطر الفكرية لهـذا المجال المعرفي. وبمعنى آخر، فإن الطريقة التي يقوم بها المنهج العلمي المتبع في أي فرع معرفي بمحاولة تعريف وتحديد العوامل الاجتماعية إنما تتم بواسـطة تكرار الملاحظات على أعداد من الأفراد– أي يتم تكرار التجربة باستخدام شخص آخـر لاختبار مدى صـحة الافتراض– ولكن إذا كان كل النـاس القائمين بتكرار التجربة مشـتركين في نفس القيم، كما هو الحال بالنسبة للأعضاء المنتمين إلى ثقافة ما، عندها يكون هذا المنهج المسـتخدم معيبا. وهكذا فإن مفهوم الموضـوعية القوية يسـعى إلى تطوير معايـير أكثر قوة. لقد قامت النسـويات ومناهضـو العنصرية

وغيرهم من أعضاء الحركات الاجتماعية الجديدة، قطعا، بنقد مفهوم الموضوعية بعدة طرق، ولكنهن في الأغلب يريدن الحصـول على روايات أكثر موضوعية. إننا في حاجة إلى روايات أكثر موضوعية تتناول كيف تعمل أجسادنا؟ وكيف يعمل الاقتصـاد السياسي العالمي؟ وما الذي يسـبب الدمار البيئي؟ وما تداعيات التصنيع المسـتقبلية على البيئة وعلى البنية الاجتماعية؟ وهلم جرا. فنحن لسـنا في حاجة إلى روايات أقل موضوعية، ولسنا في حاجة إلى روايات ذاتية. فالمشكلة تكمن في أننا قد حصـلنا على روايات ذاتية - أو ربمـا الأدق أن نطلق عليها روايات متمحورة حول الإنسـان (ethnocentric). ومن هنا فإن الموضـوعية القوية هي القضـية المتعلقـة - وببسـاطة متناهية - بأن نتعلم رؤية أنفسـنا كما يرانـا الآخرون. (وكما قال الشـاعر روبـيرت بيرنـز (Robert Burns) "آه لو منحتنا قـوة ما هبة/ أن نرى أنفسـنا كما يرانا الآخرون!") إنه منطق يدفع للخروج من الإطار الفكري، بإطـلاق المشروعـات البحثية، وإطلاق فكرنا بشـأن أية ظاهـرة معينة، انطلاقا من خارج الإطار الفكري السـائد. إن الحيوات المهمشـة تمثـل على الأقل موقعا واحدا جيدا، واستراتيجية واحدة جيدة للقيام بذلك. إن إطلاق الفكر حول المفاهيم الغربيـة للعقلانية والانطلاق من حيوات البشر الذين تعرضـوا للإقصـاء والذين يتـم الادعاء بكونهم عاجزين بطبيعتهم الجسـدية عن التعبير عـن تلك العقلانية - كالأقليات العرقية، والطبقة العاملة، والمثليات والمثليين، والنسـاء من المجموعات العرقية المتنوعة - هي أسـلوب جيد للتمكن من تحديد تلك القيم والمصـالح المشتركة على نطاق واسـع والتي قامت بصياغة الأسـاليب السائدة في التفكير حول مفهوم العقلانية.

المصدر: Hirsch and Olson (1995)

ومـن جوانب عـدة، فإن المنهـج الإمبيريقـي النسـوي (feminist empiricism)، الذي يتم تناوله في الباب التالي، يتضـمن ممارسة "الموضوعية القوية". وتظل غالبية

النسويات اللاتي يتبعن المنهج الإمبيريقي ملتزمات بتحقيق نتائج بحث موضوعية، ولكنهن مع ذلك ينقدن الادعاءات الخاصة بالموضوعية والحياد القيمي في مناهج ونتائج البحث الوضعي التقليدي، وذلك لأن تلك المناهج والنتائج تظل قاصرة عن أخذ حيوات وتجارب النساء في الاعتبار. وتسعى هؤلاء الباحثات النسويات إلى إنتاج نتائج أكثر قوة وأكثر موضوعية وأكثر صدقا عبر إدراج النساء في دراساتهن البحثية وبواسطة توثيق حيوات النساء وتجاربهن التي سبق أن تعرضت للتهميش أو الإغفال التام في التراث المعرفي السائد.

تعديلات نسوية على المنظومة الوضعية

لا تزال بعض الباحثات النسويات يشعرن بحميمية تجاه الخصائص المعرفية والمنهجية الأساسية التي يتسم بها البحث الوضعي (من حيث كون المعرفة الموضوعية الخالية من المعايير القيمية موجودة وقابلة للتوصل إليها عبر تطبيق أدوات القياس المحايدة والخالية من المعايير القيمية)، مع دعوتهن إلى إعادة صياغة المقاربات المنهجية الوضعية التقليدية بحيث تتضمن تجارب النساء. وهنالك باحثات نسويات أخريات يرفضن المنهج الوضعي أساسا ويركزن جهودهن على تطوير أطر معرفية ومنهجية بديلة، وربما يفضلن في ذلك البحث الكيفي باعتباره أكثر اتساقا مع أهدافهن البحثية وقناعاتهن المعرفية.

إن الباحثات النسويات اللاتي يواصلن التزامهن بالمبادئ الأساسية للمنهج الوضعي، مثل إمكانية تطبيق مناهج البحث الخالية من المعايير القيمية والتوصل إلى نتائج بحث موضوعية، يطلق عليهن في العادة مصطلح النسويات الإمبيريقيات (feminist empiricists)[3]. ولكنهن مع ذلك سعين إلى تحسين درجة الدقة والموضوعية في البحث الوضعي بواسطة تعديل المناهج الوضعية التقليدية بحيث تأخذ في اعتبارها أنشطة وتجارب النساء. كما قمن بجهود من أجل إدراج النساء في عينات البحث،

ولتوجيه البحوث لتتضمن موضوعات وقضايا تهم النساء، وإعادة صياغة بعض المناهج الوضعية التقليدية بما يعكس تجارب النساء بقدر أكبر. وتؤكد بعض النسويات الإمبيريقيات أن هذه الآليات الجديدة في مناهج البحث الوضعية، بما تتضمنه من إدراج لأنشطة وتجارب النساء، تزيد من إمكانيات تحقيق نتائج بحث موضوعية وقابلة للتعميم.

إن البيانات والمواد الإمبيريقية الجديدة التي تجمعها الباحثات النسويات تساهم في "إصلاح الأوضاع" بالكشف عن تجارب الكثيرات من النساء والتي سبق أن تعرضت للإسكات أو النسيان. . كما اعتمدت الباحثات النسويات أيضا على نقاط القوة في المنهج الوضعي وذلك في توثيق التشكيل الاجتماعي لأدوار الجنسين، وفي جمع أدلة جديدة من أرض الواقع مما يمثل تحديا لأنماط الأنوثة السائدة. فعلى سبيل المثال نجد أن البحث الأرشيفي الذي قامت به لوريل ثاتشر أولريخ (Laurel Thatcher Ulrich, 1991)، يعلمنا درسا في الشجاعة والمهارة التي تمتعت بهما امرأة أمريكية تعمل مولّدة في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن العشرين. كذلك استخدمت جوان جينسين (Joan M. Jensen, 1977) المواد والبيانات الأرشيفية في توثيق مظاهر السلطة والسيطرة السياسية التي زاولتها نساء أمريكا الأصليات المنتميات إلى قبيلة سينيكا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كما أن تحليل المضمون الأرشيفي الذي قامت به روث ميلكمان (Ruth Milkman, 1987) يعمل على توثيق إعادة التشكيل والتفكيك الراديكالي لأدوار النساء في الإعلام الأمريكي، وذلك خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها، بينما نجد أن تحليل السرد الذي قامت به إميلي مارتن (Emily Martin, 1991) يكشف عن سيادة صور نمطية وتحيزات على أساس الجنس متأصلة في وصف العملية الإنجابية في الكتب التعليمية السائدة في مجالي الطب والبيولوجيا. وما سبق لا يمثل سوى النزر القليل من فيض البيانات والمادة الإمبيريقية التي جمعتها باحثات نسويات بما يكشف عن تجارب النساء التي سبق أن كانت مجهولة و/أو مقموعة، وبما يزعزع المعتقدات

الجوهرية التقليدية بشأن قدرات وتصرفات النساء. وعن طريق جمع المواد والبيانات الإمبيريقية الجديدة تواصل الباحثات النسويات علاج أوجه القصور والحذف، بل ويعملن على تحسين الموضوعية والدقة الإمبيريقية، في الدراسات والنماذج والنتائج البحثية السائدة. ويتم في الفصل الثاني من هذا الكتاب عرض المساهمات الكبيرة التي تقوم بها النسويات الإمبيريقيات.

البدائل النسوية للمنظومة الوضعية

كما سبق أن ذكرنا أعلاه، تواصل الكثيرات من الباحثات النسويات، ومنهن النسويات الإمبيريقيات، إعادة صياغة وتعديل جوانب من المنظومة الوضعية بحيث يتم إدراج تجارب النساء مع الالتزام بالمبادئ والأهداف الوضعية الأساسية الخاصة بمناهج البحث الموضوعية والخالية من المعايير القيمية، وبإمكانية التوصل إلى نتائج بحثية محايدة وقابلة للتعميم. وقد قامت بعض الأكاديميات والباحثات النسويات الأخريات (بما في ذلك- مؤخرا- بعض النسويات الإمبيريقيات) بتوجيه نقد أعمق للمنظومة الوضعية، مع مواجهة الآليات المنهجية المصاحبة لها والفرضيات المعرفية التي تقوم عليها. ولكن بدلا من تعديل المناهج الوضعية لتحسين إمكانيات القيام بأبحاث خالية من المعايير القيمية بما يؤدي إلى التوصل إلى نتائج عامة موضوعية، تصرح الكثيرات من النسويات بشكوكهن حول قابلية تطبيق مناهج البحث المحايدة والخالية من المعايير القيمية وفائدتها، وكذلك التشكيك في مفهوم الموضوعية نفسه في المنهج الوضعي، فيطرحن السؤال التالي: هل يمكن لما يطلق عليه البحث الخالي من المعايير القيمية أن يمنح الصوت كاملا لمعارف وتجارب النساء؟ وأخيرا فإن المنهجيات التي تنبع من المنهج الوضعي كثيرا ما تعتمد على الفصل الصارم بين الطرف الحامل للمعرفة أي العارف، وبين الأمر الذي يعتبر قابلا للمعرفة. وبمعنى آخر، فهنالك خط فاصل بين الذات والموضوع، بين الباحث والمبحوث. وفي نماذج البحث الوضعي، قد يتمتع

الباحث بوضع مميز باعتباره الطرف العارف، ويحتل موقعا أعلى من المبحوث، وهو الشكل الذي تقوم نسويات كثيرات بالتشكيك في فائدته وجوانبه الأخلاقية.

وتؤكد هؤلاء الباحثات والأكاديميات النسويات على أنه في سبيل تسليط المزيد من الضوء على معارف وتجارب النساء، يتعين علينا الانخراط في ما تطلق عليه دوروثي سميث (Dorothy Smith) "أسلوب تفكير بديلا" (Smith ، 1990 ، p. 20) بشأن البحث وبناء المعرفة.[4] إن هذا الأسلوب البديل في التفكير يدحض المفهوم الوضعي الخاص بوجود واقع اجتماعي ثابت وغير متغير أو وجود حقائق "هناك" في انتظار من يكتشفها، ويرفض قابلية وجود باحث موضوعي وقابلية تطبيق أدوات الملاحظة التجريبية المحايدة والخالية من المعايير القيمية. ولكن الأمر الأكثر أهمية يتمثل في أن هذه المقاربة المنهجية تعمل على دمج عناصر التأويل والذاتية والعاطفة والتجسد داخل عملية بناء المعرفة، وهي عناصر ارتبطت تاريخيا بالنساء وتم استبعادها من البحث الوضعي السائد. وقد بدأت بالفعل باحثات وأكاديميات نسويات عديدات في إلقاء الضوء على مصادر جديدة ممكنة للحصول على المعرفة والفهم من داخل تجارب النساء المعيشة وتأويلاتهن وذواتهن وعواطفهن. وبدلا من النظر إلى تلك الجوانب باعتبارها ملوثات أو معوقات تحول دون الكشف عن الحقيقة الموضوعية، توضح الباحثات النسويات كيف أن الالتفات إلى التجارب المعينة ووجهات النظر المحددة للبشر، باحثين ومبحوثين على حد سواء، قد يصبح في الواقع أداة لبناء المعرفة والفهم العميق.

وتعتبر كل من جويس ماكارل نيلسين (Joyce McCarl Nielsen ، 1990)، ودونا هاراواي (Donna Haraway ، 1991)، وأليسون جاجر (Alison Jaggar ، 1997)، وهيلين لونجينو (Helen Longino ، 1999)، مجرد نماذج للأكاديميات والباحثات النسويات اللاتي يواصلن توسيع نطاق إمكانيات قيام أشكال مفيدة وجديدة للبحث خارج الإطار الوضعي الإمبيريقي. وتثير جويس ماكارل نيلسين انتباهنا إلى الحقيقة التي مفادها أن كل الباحثات والباحثين يحملون آراءهم العامة وتواريخهم وسير

حياتهـم معهم عند قيامهـم بالمشروعات البحثية، بينما تقوم دونا هاراواي باستكشـاف مواقع بناء المعرفة. وطبقا لجويس ماكارل نيلسين فإن الآراء العامة ليست بالضرورة مفسدة للمعرفة أو الحقيقة، بل يمكن اعتبارها بمثابة "خرائط" ترشد الباحثين والباحثات إلى موضـوعات بحثية معينة يشـعرون نحوها بالحميمية، أو توجههم صوب مبحوثين يبادلونهم مشـاعر الألفة والتواصل. كذلك تؤكد دونا هاراواي على أنه لا يجب النظر إلى موقعنـا -أي سـيرة حياتنا وتاريخنـا ومكاننا- باعتباره حائلا يعوق التوصـل إلى المعرفة أو الحقيقة، بل يمكنه أن يوفر لكل منا أسـلوبا فريدا لرؤية العالم، وبمعنى آخر "أداة تركيـز للرؤيـة" ("focusing device") قد نتمكن من خلالها من إدراك و/أو رؤية و/أو فهم الظواهر بطرق لا يستطيعها الآخرون.

وتقوم كل من هيلين لونجينو وأليسـون جاجر بإلقاء الضـوء على التداخلات القائمة بين المعرفة والجسـد من ناحية والمعرفة والعاطفة من ناحية أخرى. فمن خلال استعادة مجالي الجسـد والعاطفة باعتبارهما مصـادر للمعرفة، تقوم الباحثتان بتفنيد الفصل بين العقل والجسـد تبعـا للمنطق الديكارتـي العقلاني (حيث اعتبر ديكارت الجسـد مرتبطا باللاعقلانية والعاطفة والخداع، وليس سـوى العقل، أو "الذات المنزهة عن الجسد"، قادرا على القيام بأفعال العقل الصرف)، وكذلك دحض المذهب الإمبيريقي الوضـعي بشأن المراقب الموضوعي المنفصل والمنزه عن المعايير القيمية. وترى لونجينو (Long-ino 1999)، أن المعرفة تكون "ممكنة للذات المتجسـدة" وأن أجسـادنا تقع في "أماكن معينة، وأزمنة معينة، وفي علاقة معينة ببيئاتها" (صـ 133 من المرجع السـابق). إن مواقع أجسادنا لا تمثل مصـادر ملوثة لبناء المعرفة بل "مصادر معرفية" توجه انتباهنا إلى "ملامح . . . كنا في الحالات الأخرى سـنغفلها [تأكيد أضـافته المؤلفة]" (صـ335 من المرجع السـابق). وكذلك تدعونا أليسـون جاجر إلى عدم تنقية أنفسنا من عواطفنا للتوصـل إلى شيء من الحقيقة أو المعرفة الموضـوعية، بل تطالبنا بتوجيه قدر أكبر من الانتباه إلى مشـاعرنا والإنصـات إليها بقدر أكبر من الاهتمام. إذ تعتبر أليسون جاجر

العاطفة "ملمحا ضروريا من ملامـح المعرفة بأكملها ومفاهيم المعرفة كافة" (Jaggar، 1997، p. 190)، فالعواطـف تمنح حياتنا معنى وتسـاهم في بقائنا أحياء، فتنبهنا متى "نلامس أو نعانق" ومتى "نقاتل أو نفر" (صـ191 من المصدر السابق).

وتصرح هؤلاء الأكاديميات والباحثات النسويات بأننا باستبعاد الفرضيات الوضعية بشأن الباحث المتحرر من المعايير القيمية، ووجود حقيقة موضوعية، وإمكانية التوصل إلى حقيقة عامة وثابتة وموضـوعية، لا نفقد قدرتنا على بناء المعرفة. بل إننا في الواقع بدلا من تنحية العاطفة والذاتية الإنسـانية، والتجارب المعيشة الفريدة، والمواقف العامة من الحيـاة، باعتبارها جميعا ملوثات أو معوقات في رحلـة البحث عن المعرفة، يمكننا تبني هذه العناصر لاكتساب رؤى وفهم جديد، أو بمعنى آخر، اكتساب معرفة جديدة. فلمـاذا إذن تقوم الباحثات والباحثون باختيار موضـوع بعينه، في الوقت الذي يمكنهم دراسـة موضـوع من ضـمن عدد لانهائي من الموضـوعات، ومن عدد لانهائي من الزوايا؟ إن التجارب الشخصـية والعواطف والمواقـف العامة لدى أي باحث أو باحثة تمثل دافعا وراء صـياغة مشروع بحثي ما أو موجها لاختيار موضـوع بحثي معين. فعلى سبيل المثال، إذا كانت مسألة العنف المنزلي أو اضطرابات الطعام قد مست حياتك بشـكل ما أو إذا كانت لديك قوة تدفعك للعمل في سـبيل تحقيق المسـاواة والأمان للنساء أو الفتيات، قد تصـبح تلك الموضـوعات مجـالا لاهتمامك البحثي. فبـدلا من الابتعاد والانفصـال عن عواطفك، قد يصـبح مشروعك البحثي مشـتقا منها أو على الأقل من مجالات اهتماماتك، والتي تشكلت بفعل عدة عوامل.

إن هذا الإطار المعرفي النسـوي يقدم شـكلا وتطبيقا جديدا في البحث بحيث يتضـمن بالضـرورة عناصر كالتجربة الشخصـية والذاتيـة والموقع والموقف العـام من الحياة والعواطـف، كما يوجه إليها الكثير من الاهتمام. فكما توضـح هيلين لونجينو، إن هذا الشـكل الجديد من البحث النسـوي هو "أمين ومحمل بالقيم" في آن واحد (Longino، 1999، p. 349). ولكن كيف تقوم الباحثات النسويات فعلا بجمع مادة بحثهن داخل

هـذا الإطار المعرفي النسـوي الجديد؟ وكيف تتداخل قضـايا التجربـة والموقع والذاتية والعاطفيـة والتجسـد وتتفاعـل مع عمليـة البحث النسـوي، وتؤثر في نوعية الأسـئلة التـي تطرحها النسـويات والمناهج التـي يسـتخدمنها؟ ويمكننا هنا الرجـوع إلى مقولة دوروثـي سـميث عن علم الاجتمـاع: "إن لم يسـتطع علم الاجتماع تجنب خضـوعه لموقـع معين، فيجب على علـم الاجتماع بالتالي اعتبار ذلك نقطـة بداية له وأن يدخلها ضـمن اسـتراتيجياته المنهجيـة" (Dorothy Smith، 1990، p. 22)، وأن نطبقها على العديد من التخصصـات التي تقوم النسـويات بأبحاثهن فيها. وسيتم في هذا الكتاب تعريفك بالاسـتخدامات الجديدة والمبتكـرة التي تقوم بها النسـويات في آليات وتقنيات المقابلات الشخصـية والتاريخ الشفاهي والإثنوجرافيا. فسـنقوم على سبيل المثال بتتبع أسـاليب المقابلات المشـتركة حيث يؤدي فيها "التفاعل" بين الباحثة والمبحوثة/المبحوث إلى "إنتـاج مادة البحـث" (Anderson & Jack، 1991; Charmaz، 1995، p. 9)، كما تعتمد الباحثة على تجاربها الشخصـية في "الصـياغة المشتركة" لمفردات جديدة تعكس بقدر أكبر من الدقة مشـاعر وتجارب الطرف المبحوث (DeVault، 1990). وبالفعل فهنالك تزايد في صراحة الباحثات النسويات بشأن مواقعهن ووجهات نظرهن ومواقفهـن العامة، كما يتزايد انخراطهن في العمل المشـترك مع مبحوثيهن خلال كافة مراحل العمليـة البحثية، بداية من جمـع البيانات والمعلومـات والتحليل (Borland، 1991)، انتهاء بالكتابة والتأليف (Horne & McBeth، 1998).

إن معظم الأبحاث والدراسات النسوية التي يتم تناولها في هذا الباب تشير إلى وجود تحول بعيد عن تحقيق أهداف الحياد القيمي وادعاءات الموضـوعية في العملية البحثية، إذ يتـم تشـجيع الباحثة على الاعتراف الصريـح، بل والاعتماد علـى منظورها القائم على موقعها خلال قيامها بمشروعها البحثي. وفي النص التالي من "ما وراء السـتار" (والمقتبس أيضـا من المقابلة التي قامت بها إليزابيث هيرش وجاري أولسون (Hirsch & Olson، 1995)، تتوقف سـاندرا هاردينج مجددا أمام مفهوم الموضوعية القوية.

ونجد أن العديد من الأكاديميات والباحثات النسـويات يتحدين قابلية تطبيق الموضوعية ومدى فائدتها في مشروع البحث النسـوي، ولكن سـاندرا هاردينج تلقي الضوء على جانـب آخـر من جوانب الموضـوعية القويـة -والتي يطلـق عليها "المطاوعـة القوية" ("strong reflexivity")- والتي تذكرنا بالتأكيد النسـوي علـى موقعية المعرفة التي سبق وصـفها أعلاه. فالمطاوعة القوية هي إحدى تجليات الموضوعية القوية عبر المنهج المتبـع في البحث، وتتطلب مـن الباحثة أن تكـون على معرفة وأن تقـوم بتأمل نقدي للطرق المختلفة التي يمكن لموقعها أن يمثل في نفس الوقت عائقا ومصـدرا نحو التوصل إلى المعرفة على مدار العملية البحثية.

ما وراء الستار مع ساندرا هاردينج

لقـد شرع بعض الناس في التوصـل إلى فهم أن الوصـول بالموضـوعية إلى أقصـاها يتطلب اسـتخدام منهج أقوى، ومفهوم أكثر اتساعا للمنهج، وهو إنتاج مطاوعة قوية (strong reflexivity)، أي التوصل إلى إدراك أن كون الطرف القائم بالملاحظة يتغير، وكونه أو كونها تتفاعل مع موضوع الملاحظة أي مع ما يقوم أو تقوم بملاحظته، ليس بالضرورة أمرا سلبيا، أو يؤثر بالسلب على نتائج البحث، بل يمكن اسـتخدامه بطريقة إيجابية. أي أنه يعني أن نفهم أن في إمكاننا اسـتخدام الموارد المتعلقة بالموقع الذي نتحدث منه، وذلك في سـبيل تحقيق منهج أقوى وموضوعية أقوى، وهو ما تتطلبه المطاوعة القوية.

والآن، مـا معنى وجـود معرفة ذات موقـع محدد اجتماعيا، أي اسـتخدام الموقـع الذي نتحـدث منه باعتباره موردا وجزءا من المنهـج وجزءا من أدوات البحث؟ دعوني أتخذ من نفســي مثالا على ذلك. فالجميع يتحدثون عن المطاوعة

(reflexivity) بطرق شـتى، ولكن قلما يتضـح اسـتخدامها كمورد، بل تعتبر مشكلة أو مأزقا أو شيئا لابد من التعامل معه، أو يتم النظر إليها برزانة: "للأسف هـي أمر لا يمكن تجنبه." وبالتالي يتم -عادة- التعبير عنها بطريقة تتعامل معها على أنها بمثابة الاعتراف: "أنا امرأة بيضـاء من مدينة نووارك، ديلوير..." فتبدئين بالاعتراف، ثم تنتقلين إلى التحليل كما لو كان الاعتراف يفي بالأمر... ولكن هذا الأسلوب لا يقترب من المشكلة ذاتها، بل يترك للقراء القيام بالتحليل، أي يترك القارئة أو القارئ متسـائلا: "حسـنا، فما هي العلاقة بين كون ساندرا هاردينج امرأة بيضـاء وأكاديميـة من ديلوير وبين التحليل الـذي تقدمه؟ وهي فيلسوفة، ونسوية، وهلم جرا، فما أثر ذلك على ما تقدمه من تحليل؟" فالغرض هنـا هو قيـام المؤلفة أو الملاحظة بهـذا التحليل، أي أن تقوم هي بطرح الأسـئلة والإجابة عليها. فترك هذا الجهد للقراء هو من باب التكاسـل وعدم المسـؤولية، ويوحـي كما لـو كان الأمر غير ذي أهميـة على الإطـلاق. إن نظرية الموقف النسـوية (feminist standpoint theory)، والتـي شـاركتُ في تطويرها، تمكننا مـن إدراك قيمة هذا الأمر. كما أن الموضـوعية القوية تطالبنا بالنظر إلى الأنظمة الفكرية أي الأطر التي تتضـمن موقعنا الاجتماعي نظرة نقدية. فما هي الفرضيات التي أطرحها باعتباري أنتمي إلى الفلسفة التحليلية الأنجلو-أمريكية في هذه اللحظة التاريخية، باعتباري متخصصـة في الوضعية المنطقية؟ فكيف تؤدي بي تلك الخلفية إلى صـياغة أسئلة ومشروعات هي في الواقع أقل من الموضوعية القصـوى، ومقيدة بموقعي الاجتماعي المحـدد؟ وهكذا فإن المجموعة الأولى من الأسـئلة التي تمكن المرء من تقوية المطاوعة واسـتخدام المطاوعة بمثابة مورد، هي تلك الأسـئلة التي تجعلنا نقول بهذا التحليل وأن نتأمل الأطر الفكرية للمجال البحثي. فالأمر لا يقوم على "أنا، ساندرا هاردينج، امرأة بيضاء..."، وإنما يمثـل ذلك في حد ذاته قضـية للمناقشـة. فالسـؤال هنا هو: "كيف تمت صـياغة الأطر الفكرية التي أستخدمها بحيث تتماشى مع مشاكل النساء البيض في الغرب عموما؟"

وهكذا فإن الخطوة الأولى تكون في القيام بنوعية النقد الذي تقوم به في الواقع الحركات الاجتماعية الجديدة المتنوعة تجاه الأطر الفكرية في الغرب وأفرعه المعرفية وسياسة الغرب وفلسفته. ولكن هنالك خطوة تتجاوز ذلك، وهي محاولة إعادة التفكير كيف يمكن -مع ذلك- للمرء استخدام موقعه الاجتماعي كمورد؟ على الرغم من أننا ننتمي إلى مجموعات مهيمنة. فهنالك ميل عام للتفكير في أن الخاضعين للهيمنة فقط وأن المهمشين فقط هم القادرون على استخدام موقعهم الاجتماعي كأداة لإنتاج المعرفة. وهم بالقطع يستطيعون استخدامه وفعلا يستخدمونه، ولكن ذلك لا ينفي أن المنتمين إلى المجموعات المهيمنة يمكن أن يتعلموا كيفية استخدام موقعهم (كامرأة بيضاء في حالتي، ولنقل باعتبار الشخص رجلا أبيض في حالة أخرى) لطرح نوعية الأسئلة والتفكير في نوعية الأفكار التي يمكنها أن تستفيد من الموارد التي يقدمها موقع ما. فعلى سبيل المثال، أنا على دراية كبيرة بالفلسفة الغربية، وبالتالي فإن عدم طرحي أسئلة بأن فرضياتها يمثل عقبة أمام اكتسابي منظورا للعالم والفلسفة أقل في درجة مركزيته الأوروبية. ولكني أيضا على علم بهذا التراث بقدر جيد، بما يجعلني قادرة على التعلم إذا غيرت اتجاه النظرة النقدية وحولتها نحو الفلسفة الغربية، حيث إن موقعي يمكنني من ذلك، كما أنه أمر أشعر بالتزامي بالقيام به. فأنا أستخدم موقعي بطريقة قد لا يستطيعها شخص منتم إلى تراث آخر. فلماذا يكون عليهم قضاء وقتهم كله في نقد الفلسفة الغربية؟ ولا أعتقد أن علينا أن نترك لضحايا الغرب عبء القيام بالنقد الكامل الغرب، فهو مورد علينا التزام باستخدامه، ونحن على دراية به فيجب أن نتعلم القيام بهذا النقد بأنفسنا. والموجودون منا في تلك المواقع المهيمنة، هم موجودون في مواقع مهيمنة: فلأصواتنا سلطة كبيرة، وهو مورد لنا. وإنه لمن المؤسف أن يكون العالم خاضعا لنظام تراتبي، وأن هنالك علاقات قوى، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فأعتقد أن من لديهم فصول يدرسون فيها، ومن تنال أوراقهم البحثية القبول للنشر في دوريات مقروءة

على مستوى العالم، ومن يقوم الناشرون بنشر كتبهم، هم جميعا موارد محلية يمكننا استخدامها بأساليب تقدمية علميا وسياسيا.

المصدر: Hirsch and Olson (1995)

إن ساندرا هاردينج تدعو كل الأفراد، بما في ذلك النساء، المنتمين إلى مجموعات مهيمنة إلى نقد الذات واستخدام سلطتهم بـ"طرق تقدمية سياسيا." وفي الجزئية التالية سنستمع إلى نساء ينتمين إلى مجموعات أقل هيمنة. ويتم تذكيرنا بالاكتراث واحترام الاختلافات بين النساء، والوعي بوجود طرق وفيرة تتداخل بها عناصر العرق والطبقة والنوع في تجربة حياة المرأة الواحدة، كما تذكرنا بإدراك ومراقبة أوجه تفاعل وتباين القوى على مدار مسار البحث.

التحول نحو الاختلاف في النظرية والممارسة النسوية

لقد لفتت الأكاديميات والباحثات النسويات الأوليات الانتباه إلى اختفاء (invisibil-ity)، وسوء تمثيل (misrepresentation) النساء في البحوث الأكاديمية عبر العديد من التخصصات وفي بحوث العلوم الاجتماعية السائدة. وأصبح العمل على الكشف عن هذه التحيز للمحورية الذكورية (androcentric bias) الشائعة وتصحيحه هو مجال العمل الأساسي لكثيرات من الباحثات النسويات. كما دعت باحثات وأكاديميات نسويات أخريات إلى طرح أسئلة جديدة وتطوير أطر معرفية ومناهج بحث جديدة بحيث تأخذ في الاعتبار حيوات النساء وتجاربهن، وتقدر قصص حياة النساء باعتبارها معرفة. ولكن أي قصص نسائية هي التي تحكى؟ ومن هن النساء اللاتي تم إدراج تجاربهن؟ ومن هن اللاتي تم إغفالهن؟ ودون إنكار أهمية ودلالة تلك المساهمات النسوية المبكرة، يظل من المهم أيضا الإشارة إلى أن العديد من النسويات الرائدات

ركزن على النساء باعتبارهن فئة عامة وأغفلن التعددية والتنوع القائم فيما بين حيوات وتجارب النساء. وهكذا ركز قدر كبير من تلك البحوث النسوية المبكرة على القضايا التي تهم النساء البيض من الطبقتين الوسطى والعليا، مع إغفال القضايا ذات الأهمية بالنسبة للنساء الملونات والنساء المنتميات إلى الطبقة العاملة.

وقد كشفت النسويات الملونات (feminists of color) أوجه النقص في البحوث النسوية المبكرة، وطالبن النسويات البيض (white feminists) بدراسة امتيازات البيض كشكل من أشكال القهر (McIntosh، 1995). وطبقا لما ورد عن ماريان هيرش وإيفيلين فوكس كيلير فإن "النسويات الملونات كشفن لنسويات الطبقة الوسطى البيض مدى عنصريتهن هن أنفسهن" (Hirsch & Keller, 1990, p. 379). وقد أدركت النسويات ذوات الامتيازات أن الإنصات إلى تجارب "الأخريات"، والدخول في حوار مع النساء الفقيرات والنساء الملونات، يكسبهن فهما أكثر اكتمالا ودقة وتنوعا للواقع الاجتماعي. وتؤكد عالمة الاجتماع النسوية السوداء، باتريشا هيل كولينز (Patricia Hill Collins, 1990)، على سبيل المثال، أن بقاء وازدهار النساء السود، في مجتمع يغلب عليه البيض، لا يتحقق إلا بقيام النساء السود بالتعامل مع قواعد عالم البيض ذوي الامتيازات في الوقت الذي يقمن فيه بالتعامل مع موقعهن الاجتماعي المهمش، وهو موقع يعكس اللون والطبقة والنوع. ومن خلال فهم تلك الجوانب من حيوات النساء السود يصبح من الواضح جدا أن الموقعية (positionality) الأكاديمية ذات الامتيازات، والتي تتمتع بها الشخصية المنتمية إلى الداخل الاجتماعي، إنما تضعها "في موقع لا تلحظ منه التناقضات التي تتضح للنساء الأفرو-أمريكيات، نظرا لأن المنتمين إلى الداخل الاجتماعي أنفسهم قد أنتجوا تلك التناقضات" (Collins, 1990, p. 35).

كذلك تلقي الباحثات والأكاديميات النسويات الملونات الضوء على التداخل الشديد بين فئات الاختلاف الخاصة بالنوع والعرق واللون والطبقة (Anzaldúa، 1987; Collins، 1990; hooks، 1984، 1990; Mohanty، 1988). وتؤكد باتريشا

هيل كولينز (Patricia Hill Collins، 1990) على أوجه الترابط المعقدة بين اللون والطبقة والنوع – أو ما تطلق عليه منظومة الهيمنة (matrix of domination). ويمكن تطبيق منظومة الهيمنة تلك عند التفكير في الاختلاف (difference) على مدار أشكال اللامساواة المتداخلة فيما بين اللون والطبقة والنوع، إذ تؤثر تلك العوامل الناتجة عن عملية التشكيل الاجتماعي في بعضها البعض، فلا يمكننا فهم تجربة حياة فردية ما دون الدراسة الجماعية للعلاقات المعقدة القائمة بين تلك العوامل.

ومن خلال طرح الأسئلة عن "أية نساء؟" و"تجارب مَن؟" قامت النسويات الملونات بتوسيع مجال البحث النسوي، وما زالت الباحثات والأكاديميات النسويات الملونات يواصلن تطوير أطر نظرية واستراتيجيات منهجية جديدة تأخذ في الاعتبار نطاقا متنوعا من حيوات وتجارب وثقافات النساء. وفي الفصل الخاص بإبستمولوجيا الموقف النسوي (الفصل الثالث) من هذا الكتاب، سأعرفك كيف قامت الأكاديميات النسويات الملونات بتناول إشكاليات مفهوم موقف النساء (standpoint of women)، وذلك بتأكيدهن على أن النساء يشغلن مواقف متعددة عبر طبقات وثقافات متنوعة. فعلى سبيل المثال، تلقي باتريشا هيل كولينز موقف النساء السود ومن أجل النساء السود، مع تأكيدها على العلاقات المتداخلة بين اللون والطبقة والنوع والتي تساهم في صياغة ذلك الموقف (Collins، 1990). وفي الفصل المخصص لتقنيات وآليات المقابلات الشخصية (الفصل الخامس)، سأعرفك على بعض الموضوعات والمآزق، والإمكانيات والمخاطر، التي تواجه الباحثات النسويات في سياق الدراسات عبر الاختلاف. فما الذي يمكننا أن نتعلمه على سبيل المثال من أبحاث ودراسات النسويات الملونات حول دراسة الاختلاف؟ وهل توجد استراتيجيات محددة للمقابلات الشخصية التي تحمل قدرا أكبر من الاحترام وتنجح بدرجة أكبر في بناء علاقات عبر أوجه الاختلاف مقارنة بغيرها من الاستراتيجيات؟

تحديات وإمكانيات منظور ما بعد الحداثة بالنسبة للبحث النسوي

يوجد تقارب، من عدة أوجه، بين مسعى وأهداف البحث النسوي وبين منظوري ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية. ونتيجة -إلى حد كبير- للدراسات والأبحاث التي تقوم بها النسويات الملونات، وكذلك لتفاعل الفكر النسوي مع المنظور ما بعد الكولونيالي وما بعد البنيوي وما بعد الحداثي، قامت غالبية النساء برفض المفهوم القائل بوجود تجربة واحدة جوهرية للنساء، مع تبني تعددية تجارب النساء في الحياة. إن تأكيد ما بعد الحداثة على إدراج "الآخر" في العملية البحثية "يتماشى جيدا مع التيارات العامة القائمة داخل المشروع النسوي ذاته،" إذ إن النسويات من كل المذاهب الفكرية عملن دائما على "الاهتمام بإدراج النساء في أبحاثهن لتصحيح اعتماد التاريخ على الرجال كموضوعات بحث" (Hesse-Biber، Leavy، and Yaiser، 2004، p. 18).
ومثلهن في ذلك مثل الكثيرات من النسويات، يقوم باحثو وباحثات ما بعد الحداثية بنقد منظومات بحوث العلوم الاجتماعية، كالوضعية، ورفض مفاهيم التعميم والموضوعية والحقيقة بمعناها العام، وذلك مقابل تبني تأويلات للواقع الاجتماعي، قائمة على التعددية والموقعية والتشكيل. وأخيرا فإن تأكيد ما بعد الحداثة على تمكين الفئات المقهورة يجد أصداء في الالتزام النسوي نحو "المقاومة الثقافية السياسية للأنماط التراتبية في بناء الحياة الاجتماعية، وفي التفات النسويات إلى "ديناميكيات السلطة والمعرفة" (ص18 من المصدر السابق).

ويمكن لوجهات النظر ما بعد الحداثية وما بعد البنيوية أن تنشط النظريات والممارسات النسوية، ولكن بعض النسويات يخشين مع ذلك من أن اهتمام ما بعد الحداثة بالتشكيل الاجتماعي والتأويل والتعددية والاختلاف قد يؤدي إلى تخفيف وتناثر الالتزام النسوي بتحقيق التغيير الاجتماعي والمساواة الاجتماعية للنساء. وتطرح بعض النسويات السؤال التالي: "مع تركيز الاهتمام بالتأويلات المتعددة للواقع الاجتماعي، وأوجه الاختلاف بين النساء، هل تفقد النساء القدرة على تحديد أوجه التشابه والدخول

في حوار والتجمع معا كقوة منظمة من أجل التغيير الاجتماعي؟"، كما تتساءل نسويات أخريات: "هل يمكننا أن نتعامل بجدية ونواجه تجارب القهر الحقيقية والمادية الملموسة، إذا نحن خضعنا لمنحى ما بعد الحداثة في تفضيل تناول التأويل والتشكيل الاجتماعي؟" وكما تشير كل من شارلين هيسّي-بايبر وكريستينا جيلمارتن وروبين ليدنبرج (Sharlene Hesse-Biber، Christina Gilmartin and Robin Lydenberg، 1999) فهنالك بعض المجازفة والمخاطر والخسارة المحتملة التي تصاحب زيادة التشتت والانقسام فيما بين المنظرات والباحثات والناشطات النسويات. وترى كل من ميشيل باريت وآن فيليبس (Michelle Barrett and Ann Phillips) أن المخاوف التي تعبر عنها الآن بعض النسويات هي أنه مع "تغير الصيحات النظرية [ومن بينها ما بعد الحداثة] . . . فقد ينتهي بنا الأمر بالابتعاد عن مشروع النسوية الأصلي" (Barrett & Phillips، 1992، p. 6). إن فائدة المنظور ما بعد الحداثي وقربه من البحث النسوي، وأشكال النضال والجدل القائم فيما بين النسويات بشأن مزايا وأوجه قصور ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية هي موضوعات سيتم عرضها بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

ترتيب هذا الكتاب

إن هدفنا الأساسي من تأليف هذا الكتاب هو تقديم فهم متأصل للمقاربات المنهجية الرئيسية، المعرفية والنظرية والمنهجية، التي تؤثر في البحث النسوي. ويعكس ترتيب هذا الكتاب الممارسات النسوية العامة، كما يسلط الضوء على التفاعل القائم بين الجوانب المعرفية والمنهجية للعملية البحثية. ويركز الباب الأول من هذا الكتاب على الأسس المعرفية والنظرية الأساسية التي توجه العديد من النسويات في أعمالهن البحثية، كما يتضمن فصولا حول الإمبيريقية النسوية، ونظرية الموقف النسوية، وما بعد الحداثة النسوية. وفي الباب الثاني، نعرض نطاقا واسعا من مناهج البحث التي تستخدمها

الباحثات النسـويات، كما نتنـاول العلاقات التي تربط بين مناهـج بعينها وبين الأطر ووجهات النظر المعرفية النسـوية. وسـوف نعرفك كيف تم اسـتخدام مناهج معينة في خدمة أجندات البحث النسوي، وكيف تتحقق فائدة المناهج والمنهجيات المختلفة في أزمنة مختلفة وفي سياقات مختلفة. وقد قمنا بتضمين فصل حول الخطط متعددة المنهج (-mul timethod designs)، لتوضـيح كيف تجمع النسويات أحيانا بين المنظومتين (الكيفية والكمية) في خدمة أهداف البحث النسـوي. وسيتم تقديم نماذج من البحث الإمبيريقي. أما الباب الثالث من هذا الكتاب، فيتناول الممارسة النسوية الممثلة في تحليل وتأويل نتائج البحث.

وإننا نأمل أن بقراءتك هذا الكتاب سيمكنك إدراك الطرق العديدة المختلفة التي يمكن للبحث النسـوي أن يسـاهم بها كوسيلة لتمكين النسـاء. إن البيانات والمواد التي جمعتها النسـويات الإمبيريقيـات تمثل تحديـا للانحيـازات القائمة على أسـاس الجنس و"تعيد الأمور إلى نصابها". كذلك فإن التحليلات الأرشيفية النسوية، من حيث تحليل المضمون والسـرد، تعمل على توثيق التشـكيل الاجتماعي والتاريخي لأدوار الجنسـين (-gen der roles). وتقوم الباحثات الإثنوجرافيات النسـويات بإلقاء الضـوء على الصلات القائمة بين المفاهيم السـائدة والمقيدة كمفهوم الأنوثة، وتجربة النساء اليومية، وأنظمة/ بنى السـلطة على نطاق أوسع. إن النساء اللاتي سـبق تعرضهن للإسكات والحرمان يتحدثن اليوم من خلال منبر التاريخ الشـفاهي النسـوي والمقابلات المركزة. كل هذا لا يقدم سوى أمثلة على الطرق العديدة التي يقوم بها البحث النسوي بتمكين النساء.

وإننا نمد إليك دعوتنا الشخصية لك للقيام معنا بتلك الرحلة المثيرة!

الهوامش

1- لايعني هذا اســتبعاد أعمال الكثيرات من النســاء ذوات الشــجاعة والموهبة اللاتي ساهمن في بناء المعرفة قبل الســتينيات من القرن العشــرين. ولكن ما نقصده هنا هو أن البحث النســوي -باعتباره فرعا جديدا من أفرع النظريات والمنهجيات والمناهج- تمت تســميته وصياغته الواعية كجزء ونتيجة من نتائج الحركة النســائية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

2- إن المنظومة (paradigm)تشــير إلى رؤية أو نموذج أو مقاربة منهجية معينة إلى بناء المعرفة. وتتضمن المنظومــة الوضعيــة باقة معرفية من الفرضيــات، أي تتضمن بمعنى آخر مقاربة إلى بنــاء المعرفة أو البحث المعرفي، والنماذج النظرية والمنهجية المصاحبة لتلك المقاربة. (للحصول على شرح أكثر تفصيلا لاستخدامنا لمصطلح المنظومة، انظر/ي1990 (Kuhn, 1962; Nielsen,.

3- صفــة الإمبيريقي (empiricist)تشــير إلى تبنــي مقاربة إمبيريقية تجريبية إلى بنــاء المعرفة، تعتمد على المنهج العلمي التقليدي بشأن الملاحظة الموضوعية المحايدة (القائمة على الحواس).

4 -بينما تســتخدم دوروثي ســميث هذه العبارة أو المفهوم في ســياق تناولها علم الاجتماع بالنقاش، إلا أننا نرى فائدة في تطبيق هذا المفهوم على أبحاث وبناء المعرفة في العلوم الاجتماعية بشكل أعم. (للحصول على المزيد من التفسير والتحليل، انظر/ي: (Dorothy Smith, The Conceptual Practices of Power: A Feminist Sociology of Knowledge, 1990, pp. 19-24).

المراجع

Anderson, Kathyrn, & Jack, Dana C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analyses. In Sherna Berger Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.

Anzaldúa, Gloria. (1987). *Borderlands/la frontera: The new mestiza*. San Francisco: Spinsters/Aunt Lute.

Barrett, Michele, & Phillips, Anne. (1992). *Destabilizing theory: Contemporary feminist debates*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Borland, Katherine. (1991). "That's not what I said": Interpretive conflict in oral narrative research. In Sherna Berger Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 63–75). London: Routledge.

Charmaz, Kathy. (1995). Grounded theory. In Jonathan A. Smith, Rom Harre, & Luk van Langenhove (Eds.), *Rethinking methods in psychology* (pp. 27–49). Thousand Oaks, CA: Sage.

Charmaz, Kathy. (2006). What's good writing in feminist research? What can feminist researchers learn about good writing? In Sharlène Nagy Hesse-Biber (Ed.), *Handbook of feminist research: Theory and praxis*. Thousand Oaks, CA: Sage.

Collins, Patricia Hill. (1990). *Black feminist thought: Knowledge, consciousness, and the politics of empowerment*. Boston: Unwin Hyman.

DeVault, Marjorie. (1990). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. *Social Problems, 37*(1), 96–116.

Durkheim, Émile. (1965). *The rules of sociological method* (8th ed.; S. A. Solovay & J. H. Mueller, Trans.). New York: Free Press. (Original work published 1938)

Haraway, Donna J. (1991). *Simians, cyborgs, and women: The reinvention of nature*. New York: Routledge.

Harding, Sandra. (1987). Introduction: Is there a feminist method? In S. Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 1–14). Bloomington: Indiana University Press.

Hesse-Biber, Sharlene, & Carter, Gregg Lee. (2005). *Working women in America: Split dreams*. New York: Oxford University Press.

Hesse-Biber, Sharlene, Gilmartin, Christina, & Lydenberg, Robin (Eds.). (1999). *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader*. New York: Oxford University Press.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, Leavy, Patricia, & Yaiser, Michelle, L. (2004). Feminist approaches to research as a *process*: Reconceptualizing epistemology, methodology, and method. In Sharlene Nagy Hesse-Biber & Michelle L. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 3–26). New York: Oxford University Press.

Hirsch, Elizabeth, & Olson, Gary A. (1995). Starting from marginalized lives: A conversation with Sandra Harding. *JAC: A Journal of Composition Theory, 15*(2), 193–225. Retrieved July 7, 2006, from http://Jac.gsu.edu/jac/15.2/Articles/1.htm

Hirsch, Marianne, & Keller, Evelyn Fox. (1990). Practicing conflict in feminist theory. In Marianne Hirsh & Evelyn Fox Keller (Eds.), *Conflicts in feminism* (pp. 370–385). New York: Routledge.

hooks, bell. (1984). *Feminist theory: From margin to center.* Boston: South End Press.

hooks, bell. (1990). *Yearning: Race, gender, and cultural politics*. Boston: South End Press.

Horne, Esther Burnett, & McBeth, Sally. (1998). *Essie's story. The life and legacy of a Shoshone teacher*. Lincoln: University of Nebraska Press.

Jaggar, Alison M. (1997). Love and knowledge: Emotion in feminist epistemology. In Sandra Kemp & Judith Squires (Eds.), *Feminisms* (pp. 188–193). Oxford: Oxford University Press.

Jensen, Joan M. (1977). Native American women and agriculture: A Seneca case study. *Sex Roles: A Journal of Research, 3*, 70–83.

Kuhn, Thomas. (1962). *The structure of scientific revolutions*. Chicago: University of Chicago Press.

Longino, Helen E. (1999). Feminist epistemology. In John Grecco & Ernest Sosa (Eds.), *The Blackwell guide to epistemology* (pp. 327–353). Malden, MA: Blackwell.

Martin, Emily. (1991). The egg and the sperm: How science has constructed a romance based on stereotypical male-female roles. *Signs, 16*(3), 485–501.

McIntosh, Peggy. (1995). White privilege and male privilege: A personal account of coming to see correspondences through work in women's studies. In Margaret L. Andersen & Patricia Hill Collins (Eds.), *Race, class, and gender: An anthology* (pp. 76–86). Belmont, CA: Wadsworth.

Milkman, Ruth. (1987). *Gender at work: The dynamics of job segregation by sex during World War II*. Urbana: University of Illinois Press.

Mohanty, Chandra. (1988). Under Western eyes: Feminist scholarship and colonial discourses. *Feminist Review, 30*, 61–88.

Murphy, John W. (1989). *Postmodern social analysis and criticism*. New York: Greenwood Press.

Nielsen, Joyce McCarl. (1990). Introduction. In Joyce McCarl Nielsen (Ed.), *Feminist research methods: Exemplary readings in the social sciences* (pp. 1–37). Boulder, CO: Westview Press.

Smith, Dorothy E. (1987). Women's perspective as a radical critique of sociology. In Sandra Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 84–96). Bloomington: Indiana University Press.

Smith, Dorothy E. (1990). *The conceptual practices of power: A feminist sociology of knowledge*. Boston: Northeastern University Press.

Sprague, Joey, & Zimmerman, Mary K. (1993). Overcoming dualisms: A feminist agenda for sociological methodology. In Paula England (Ed.), *Theory on gender/feminism on theory* (pp. 255–280). New York: Aldine de Gruyter.

Ulrich, Laurel Thatcher. (1991). *A midwife's tale. The life of Martha Ballard based on her diary 1785–1812*. New York: Vintage Books.

الباب الأول

مقاربـات نسويـة

إلـى

الإبستمولوجيـا والنظريـة

الفصل الثاني

الإمبيريقية التجريبية النسوية

مواجهة التحيز الجنسي

و"تصحيح الأوضاع"

دينيز ليكينبي

يوجد تصور خاطئ أن النسوية والإمبيريقية التجريبية (empiricism) لا تتماشيان معا. ومع ذلك فما زالت أبحاث مهمة تجمع بين مذاهب النسوية والإمبيريقية تساهم بقوة في فهمنا لقضيتي النوع وعدم المساواة.

- ما الذي يجعل البحث النسوي بحثا إمبيريقيا؟
- ما الذي يجعل البحث الإمبيريقي بحثا نسويا؟

إن عملية الإجابة على هذين السؤالين الأساسيين تتبع اتجاهين بارزين داخل نطاق المقاربات الإمبيريقية النسوية إلى علم المعرفة (epistemology) وما تستخدمه من منهجيات ومناهج. وتطرح الباحثات الإمبيريقيات النسويات (feminist empiri-

cists) ، أنواعـا متعددة من الأسـئلة ضـمن أنواع متعددة من التخصصـات البحثية.
وبخـلاف بعض الباحثات النسـويات الأخريـات، فإن عملهن لا يقتصـر على العلوم الطبيعيـة أو العلـوم الاجتماعيـة، فمع انطلاقهن من أسـس علوم المعرفـة الإمبيريقية نجدهن يعملن عبر العديد من المناهج والكثير من أسـئلة البحث تاركات بصـمات مهمة مؤثرة علـى المنظومات التقليدية الخاصـة ببناء المعرفة. وتشـير الإمبيريقية التجريبية (empiricism) إلى الموقـف والقناعـة بأن المصـدر المعرفي الوحيد المتـاح لنا هو ذلك القابـل للتجربة والقياس بواسـطة الحواسـ. ويرى ريتشـموند كامبل Richmond) Campbell، 1994) ،أن الإمبيريقـة التجريبية تعتمد علـى "معايير النجاح المتوقع، واستقلال الملاحظة، والقوة الشارحة" (صـ90). ويستخدم كامبل ذلك التقسيم -de) lineation) للمعايير الإمبيريقية لمعارضة مقولات ساندرا هاردينج -Sandra Hard) ing 1986، cited in Campbell 1994) ،في نقد الإمبيريقية النسـوية، قائلا: "إذا كانت النسوية مستبطنة في الإمبيريقية، أما كان لها إذن أن تتضمن التناقض نفسه الذي يصف به نقاد النسـوية مفهوم العلم النسوي (feminist science)؟ فإذا كانت المعايير الإمبيريقيـة تتطلب بطبيعتها أن يكـون الباحث منزها تماما عن المواقف السياسـية عند اختبار فرضـيات البحث، فكيف يمكن وجود منهجية لبناء وتقييـم الاختبارات العلمية تجمع بين الإمبيريقية والنسوية في آن واحد؟" (Campbell 1994، p. 93). ويدعو كامبل إلى إدماج الأهداف النسـوية السياسـية في باطن البحث الإمبيريقي، وهو تكتيك مغايـر للدعوة إلى ضرورة أن تصـبح مناهـج البحث الإمبيريقـي في باطن الأهداف النسوية السياسية.

ونجد أنه في داخل هذا التراث الطويل من الجهد والبحث تسعى النسويات الإمبيريقيات إلى فهـم العالم المحيط بهن، بحيث تضرب منهجياتهـن البحثية بجذورها في ما يمكنهن إدراكه بحواسهن وما يمكنهن قياسه بمناهج بحثهن. ونجد أن النسويات الإمبيريقيات،

جنبا إلى جنب الإمبيريقيين الآخرين، ينطلقن من قواعد راسخة في القناعة الوضعية (positivist) بشأن إمكانية بلوغ العالم الاجتماعي والطبيعي وقابليته للفهم. وتسعى النسويات الإمبيريقيات، باعتبارهن وضعيات، إلى تطوير معرفة تتسم بالموضوعية والصدق، ويحملن قناعة كبيرة بإمكانية بلوغ وتحقيق هذا النوع من المعرفة. ونجدهن مبهرات في التزامهن بأدوات البحث الوضعية حيث يحتل عملهن موقعه داخل البنى الإبستمولوجية والمنهجية القائمة[1] فعليا. وتتسم كتاباتهن بقوة القول، وهي تلفت الانتباه لانطلاقها من داخل مؤسسة العلوم الوضعية.

وعلى الرغم من رسوخ موقعهن داخل الوضعية، فإن النسويات الإمبيريقيات يقمن مع ذلك بنقد ممارسات ونتاج المؤسسة العلمية التقليدية. فالبحث الإمبيريقي النسوي مرتبط بمنظوره النسوي بنفس القوة التي يتفاعل بها مع المقاربات الوضعية. ونجد مؤرخة العلوم لوندا شيبينجر (Londa Schiebinger، 2003) تشير في مقدمتها للعدد الخاص من مجلة ساينز (Signs) حول الجندر والعلوم قائلة:

> إن ذلك البحث يشتمل على العديد من القيم النسوية الأساسية. . . مزيحا البحث المؤدي إلى استغلال الطبيعة أو البشر الآخرين، ومقاوما التفسيرات المنزوعة من السياق الاجتماعي والسياسي. . . معترفا بقيمنا ومعتقداتنا، من حيث الصدق في فرضياتنا والمسؤولية في اللغة التي نستخدمها. (ص861)[2]

إن مثل هذه الأهداف هي أهداف نسوية في منظورها، بما يعمل على صياغة وتشكيل البحث بطرق متنوعة، مع بقائها مفتوحة أمام جهود النسويات الإمبيريقيات للحفاظ على موقعهن داخل المنظومة الإمبيريقية. وتؤكد هيلين لونجينو (Helen Longino، 1990) أن "النسوية تعني عدة أشياء للعديد من البشر، ولكنها في جوهرها تختص بتوسيع الإمكانات البشرية" (ص190). وقد كان مثل هذا التوسيع للإمكانات البشرية

مستحيلا عندما كانت النساء مستبعدات من مضمون ومسارات بناء المعرفة. وقد شرعت النساء الباحثات منذ بدايات القرن العشرين في إدراك ومواجهة عمليات إقصاء النساء وتجارب النساء من أسئلة وعينات البحث، وهي عمليات إقصاء منها ما هو إقصاء منهجي منظم أحيانا وإقصاء شامل على الدوام. وقد سعت هؤلاء الباحثات إلى خلق علم "أفضل" وأكثر موضوعية، محملات في ذلك بمنظورهن النسوي وأدواتهن الوضعية. وقد نجحن في توضيح كيف تم ترسيخ الإنحيازات الذكورية (androcen-tric)، الوضعية التقليدية واستمرار رسوخها داخل الوضعية، بما يتركنا أمام معرفة ذاتية بدلا من المعرفة الموضوعية بشأن عالمنا. ومع التزامهن بتطوير معرفة تشتمل على النساء، سعت النسويات الإمبيريقيات إلى المعرفة التي تفيد حيوات النساء وتمثل حياتهن تمثيلا دقيقا وتلقي بالضوء على حقيقة واقع البشر. وتؤكد هؤلاء النسويات الإمبيريقيات على ضرورة أن يصبو العلم -في مجمله- إلى تحقيق دراسة أفضل وأكثر موضوعية، حيث يصبح البحث عملية تتسم بقدر أكبر من التعقيد والوقائع الفعلية عندما يتم أخذ التداعيات السياسية والاجتماعية والثقافية للبحث في الاعتبار.

وضع النساء في الاعتبار: بحثا عن الحقائق التي تم تجاهلها وتغييبها

تهدف النسويات الإمبيريقيات، من خلال انخراطهن في الإبستمولوجيا النسوية السياسية، إلى تضمين النساء في الأسئلة البحثية التي درجت العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية على طرحها. ونظرا إلى انتمائهن وتأثرهن بالموجة الثانية من الحركات النسوية تمثلت المهمة الأولى أمام النسويات الإمبيريقيات في استهداف تغيير وجه العلوم الذكورية التقليدية، إذ نجد أن العلوم الذكورية لا تأخذ في اعتبارها سوى المنظور ووحدة التحليل الذكورية والخاصة بالرجل في المسار البحثي، وهي أبحاث تستخدم (extrapolates) المعرفة المكتسبة من تلك الأسئلة البحثية المطروحة وتعممها

علـى الجنس البشري بأكمله، مع تجاهل أصوات النساء وتجاربهن، بل واستبعاد التجربة الأنثوية برمتها. ولا تتناول النسويات الإمبيريقيات هذه المشكلة بتغيير أنماط البحث التقليدية والمنظور الإبستمولوجي والأنطولوجي (ontological)، المعرفي والوجودي، تغييرا جذريا فيما يتعلق بطبيعة الحقيقة أو التخلص من مناهج البحث القائمة، بل تسعى هؤلاء النسويات الإمبيريقيات إلى الدفع بأسئلتهن التجريبية (em-pirical)، ومناهجهن الإمبيريقية في مواجهة ومعالجة التحيزات التي تجعل المنظومة الوضعية التقليدية تؤدي إلى نتائج أقل من أن تتسم بالموضوعية. كما يسعين إلى إبراز وإثبات كيف يمكن للنساء عادة تغيير نتائج البحث في حال دمجهن ضمن عينات البحث التقليدية. إن تضمين النساء ومنظور النوع في الجهود البحثية ينتج معرفة أكثر اقترابا من الحقيقة وأقل تحيزا للرجل. وقد سعت النسويات الإمبيريقيات وكافحن لتوضيح أن إهمال أخذ تجارب النساء في الاعتبار أدى إلى إضعاف الأهداف الموضوعية التي تسعى العلوم لتحقيقها. إن العلوم الوضعية، أي المنظومة التقليدية للجهود البحثية في العلوم الاجتماعية، تأسست على قواعد الموضوعية والعقل والبحث عن الحقيقة. ومع بدء النسويات الإمبيريقيات في جذب النساء إلى داخل الجهود الإمبيريقية التجريبية نجدهن وقد بدأن في توضيح مدى ابتعاد الوضعية التقليدية عن الموضوعية.

بحثا عن حقيقة غير المسمى: التحرش الجنسي

ما شكل التحيز الذكوري؟ وما الشعور المتولد عنه؟ فلنتخيل لحظة أن كافة الكتابات والأدبيات الخاصة بقضايا الجنسانية (الحياة الجنسية: sexuality) والعنف تخلو تماما من أي تناول للوقائع المتعلقة بالتجربة اليومية التي تمر بها امرأة ما من جانب رئيسها في العمل الذي يواصل الضغط عليها (proposition)، مقابل إقامة علاقة جنسية معها. فلنتخيل فعلا عدم وجود مسمى لمشكلة تلك المرأة تحديدا، وعدم وجود مصطلح يصف هذا الموقف. نجدها عاجزة عن البحث عن أمثلة لما تمر به في النصوص القانونية، كما

أن مدير شـؤون الأفراد في عملها لا يملك أي سياسـة أو معايير لمواجهة مشكلتها. ولا تتـم دراسـة تجربة هذه المرأة في البحـوث الاجتماعية حول أماكـن العمل، بل إن تلك النصوص لا تذكر سـوى النزر اليسير عن دورها كامرأة في تلك الشركة، ناهيك عن الحديث عما يجب عمله عند تعرض المرأة لضـغوط جنسـية من رؤسـائها أو زملائها الذكور. وهكذا يظل هذا الموقف المسـتمر في حياة هذه المرأة غير معلوم لأحد. وقد ظل التحرش الجنســي، حتى السبعينيات من القرن العشرين، مسألة غير مطروحة للنقاش في المجـال الأكاديمي والعام، لأن "التحرش الجنســي من منظور الرجال لم يكن أمرا جديرا بالاهتمام أو يمثل مشـكلة أصلا. فنظرا لعدم تعرضهم للتحرش الجنسي لم يوجد لدى الرجال أي سبب قوي لتمييزه عن مجريات الحياة العادية من خلال تسميته بمسمى خاص" (Bingham، 1994، p. 14). فلنتخيل أن جزءا مزعجا ومدمرا من حياتك العملية لا يرد حتى ذكره باعتباره مسألة ذات جدوى. إن العلوم الذكورية تبدأ وتنتهي عند تجارب الرجـال، وفي هذه الحالة تحديدا كانت العلوم الذكورية في تقييمها وفهمها لمكان العمل تحمل رؤية غير موضوعية باعتبار التحرش الجنسي غير ذي شأن.

وقـد حددت النسـويات الإمبيريقيات- جنبـا إلى جنب- مع غيرهن مـن الباحثات والناشـطات النسويات، وجود مشكلة جديرة بالدراسة والفهم من أجل توسيع إمكانات النسـاء داخل مكان العمل. ومن منطلق الجمع بين المسـاعي السياسية النسوية والسعي نحو المعرفة الإمبيريقية، شرعت النسويات الإمبيريقيات في القيام بدراسات استطلاعية للنساء في أماكن العمل وذلك للتوصل إلى فهم أكثر موضوعية لما يحدث. وقد كانت لين فارلي (Lynn Farley، 1978) أول نسـوية تصوغ فهما ونظرية للتحرش الجنسي في مكان العمل، وقد أسسـت مفاهيمها البحثيـة والنظرية بناء على مجموعات رفع الوعي (consciousness-raising groups) من النسـاء العاملات ممن تعرضن لتجارب شـبيهة بالمرأة التي سـبقت الإشـارة إليها: "وقد تطلب الأمر في النهاية إطلاق مسـمى على هذا السـلوك الرجالي، وجاء مصطلح التحرش الجنسي كأقرب رمز لغوي متاح

معبر عن تلك المشكلة" (Farley، 1978، p. xi). وبمجرد أن بدأت صياغة مفهوم التحرش الجنسي، سرعان ما أصبح السؤال المطروح هو عمَّ الذي يحدث للنساء؟ وعن عدد النساء اللاتي يتعرضن للتحرش الجنسي؟ وسرعان ما شهدت السبعينيات من القرن العشرين علاج مسألة غياب التحرش الجنسي باعتباره أمرا فعليا ومعروفا مع كونه مخفيا بفعل التحيز الذكوري في مجال بناء المعرفة. وقد تمثلت الخطوة الثانية أمام الباحثات في تناول الأسئلة الخاصة بالتحرش الجنسي من حيث: من، ماذا، متى، أين، وكيف. ولم تكن النسويات هن الطرف الوحيد الذي تناول التحرش الجنسي، كما أن الإمبيريقيات لم يكن هن النسويات الوحيدات الباحثات في هذا المجال. إلا أن إسهامات النسويات الإمبيريقيات في مجال الأبحاث الخاصة بالتحرش الجنسي وسياساته أضافت أبعادا مهمة وحاسمة أدت إلى تأصيل وترسيخ المعرفة المتوفرة لدينا حاليا بشأن التحرش الجنسي في سياقه الاجتماعي والسياسي.

وتعمل العلوم الذكورية على تقليص وجهات النظر والقضايا والسياقات التي تلعب دورا محوريا في إنتاج المعرفة التي يجب أن تحقق مستلزمات المنهج الوضعي من حيث الصدق والموضوعية والتي يمكنها أن تحقق الأهداف النسوية بشأن توسيع نطاق الإمكانات البشرية. "إن النسويات الإمبيريقيات يؤكدن أن التمييز الجنسي والتحيز الذكوري يمثلان أشكالا محددة من الانحياز لدى أصحاب المعرفة والتي يمكن التخلص منها بتطبيق المنهجيات العلمية والفلسفية تطبيقا أكثر صرامة" (Goldman، 1999، p. 34). وتؤمن النسويات الإمبيريقيات بأن كل ما نحتاج إلى معرفته بشأن الحقيقة الموضوعية لحياتنا هو متوفر فعلا، وما علينا سوى استخدامه استخداما أفضل. فلنتخيل كيف يمكن لباحثة نسوية إمبيريقية أن تهدف إلى اكتساب معلومات أعمق عن التحرش الجنسي بشكل عام. إن منظورها الوضعي سوف يقودها في الغالب نحو طريق التفكير الاستنباطي (deductive reasoning)، حيث ستؤدي معرفتها وفهمها لما تم إنجازه بحثيا عن التحرش الجنسي إلى مساعدتها على صياغة فرضية ما. وربما تجعلها قراءتها للأبحاث السابقة تلاحظ أن التحيزات الذكورية تلعب دورا واضحا في الأبحاث

السابقة، إذ نجدها تلحظ -على سبيل المثال- أنه لم يسبق لأحد التفكير في تناول التحرش الجنسي بالبحث من منظور يأخذ في الاعتبار عدم المساواة بين الجنسين. فلا يوجد أحد قائم على تتبع العلاقة الوارد قيامها بين عدم المساواة في السلطة بين الجنسين وبين حالات التحرش الجنسي وردود الأفعال حياله.

ففي داخل إطار مجال معرفي ما، لا يعمل التحيز الذكوري إلى تيسير التعرف على والاعتراف بالسياق المعقد للمواقف السياسية والاجتماعية بحيث تصبح جزءا من أجزاء البحث القائم. ولكن النظرة النسوية التي ترى بها تلك الباحثة العالم وسياق البحث هي نظرة تمكنها من إنتاج بحث ومعرفة أكثر موضوعية. إن قيام تلك الباحثة النسوية الإمبيريقية بأخذ سياق علاقات القوى وعدم المساواة بين الجنسين في بيئة العمل في الاعتبار يجعلها تطرح أسئلة جديدة بشأن الحقيقة الموضوعية للتحرش الجنسي. وقد يؤدي منظورها الإمبيريقي إلى جعلها تختبر فرضيتها الجديدة من خلال تجربة اجتماعية أو بحث استطلاعي إحصائي أو حتى بواسطة سلسلة من المقابلات الكمية، مدفوعة في ذلك -دوما- بسعيها للحصول على البيانات الإمبيريقية (empirical data)، التجريبية التي تقيس الواقع وتمثله. إن التحيزات الذكورية تبني بيئة لا يقوم فيها البحث والمعرفة بشأن العالم عامة باختبار أو قياس الواقع، ولا تحقق أي شيء في سبيل توسيع الإمكانيات البشرية. إن النسويات الإمبيريقيات يسعين نحو علم أفضل وأكثر موضوعية عن طريق تنحية العلوم الذكورية.

بحثا عن الحقيقة كميًا

إن أخذ النساء في الاعتبار في الجهود الإمبيريقية نحو المعرفة هو أمر لا يشير فقط إلى التخلص من التحيز الذكوري في العلوم، كما نراه في مثال التحرش الجنسي، بل يشير أيضا إلى التضمين الكمّي للنساء في عينات البحث ومجموعاته. وبخلاف غيرهن من

الباحثات النسويات، نجد أن النسويات الإمبيريقيات هن الأكثر ميلا لتقبل مناهج البحث التقليديـة كمناهـج البحـث الكمـي[3] (quantitative research methods). وتقوم العديدات من النسـويات الإمبيريقيات باسـتخدام المنهجيات وأدوات الاستطلاع الكمية في دراسـة الأسئلة المطروحة. ونجد أن مناهج البحث الكمي، ورغم كونها واحدة من أدوات البحـث المتاحة، فإنها تتلاءم مع أغراض البحث الإمبيريقي. ويسـتلزم البحث الكمي بالنسـبة للكثير من النسـويات احتلال موقع داخل المنظومة الوضـعية، سعيا إلى معرفة ملائمة قابلة للتعميم ومؤثرة كميا.

وقد أكدت نسـويات إمبيريقيات عديدات وأوضـحن أن استخدام المناهج الكمية ليس بالضرورة متعارضا ومتناقضا مع الأغراض السياسية النسوية (Jayaratne، 1983). وعلى الرغم من حرص النسويات الإمبيريقيات على مواصلة العمل بما يتمتع به البحث الإحصـائي من سلطة، فإنهن أضفن أيضا إليه نظرتهن النسوية ومنظورهن النقدي بما يجعل المنهج المسـتخدم أفضـل. وقد اهتمت الأجيال الأولى من النسويات الإمبيريقيات بنقد التحيزات القائمة في البحوث الاسـتطلاعية، والتي كانت محملة بفرضـيات نوعية (gendered) وثقافيـة لم تلتفت إليها العلوم الوضـعية التقليديـة، وهي التحيزات التي حددتها هؤلاء الباحثات باعتبارها إحدى المشـاكل التي قللت من موضـوعية تلك الأداة البحثية (Unger، 1979). وقد سـعت النسـويات الإمبيريقيات خلال الثمانينيات من القرن العشرين إلى التنظير واسـتخدام المنهجيات والمناهج المنزهة عن التمييز الجنسي، مـع تطويـر أبحاث لا تعمـل على التمييز ضـد جنسـ مـا، (Griffin & Phoenix[4]، 1994). إن قيام النسـويات الإمبيريقيات بتضمين قضـايا النوع والثقافة والسياق في مناهج الاسـتطلاعات الكمية أدى إلى تسليط الضوء على الافتراضات الذاتية والأبوية التي كانت قد ترسخت داخل أدوات البحث المستخدمة مسبقا.

وقد كانـت مناهج البحث الاسـتطلاعي الوضـعية التقليدية تنحو إلى تغييب النسـاء وجعلهـن غير مرئيـات. ونجد أن تضـمين عنصر النـوع (gender) كميـا باعتباره

عنصرا متغيرا في البحث الاستطلاعي، قد عمل على تسليط الضوء وتعقيد نتائج البحث في عدد من التخصصات البحثية المتنوعة. إن القيام ببحث استطلاعي من منطلق نسوي يتضـمن موقفا سياسيا في دراسة العالم دراسـة تلتفت إلى الأبعاد والاختلافات النوعية (gender). وقد أصـبحت قضـايا النسـاء والنوع -جزئيا- حاضرا مرئيا في الحقائق الإحصـائية التي تدرسها النسـويات الإمبيريقية. وبالعودة إلى المثال الذي سبق ذكره بشأن التحرش الجنسي، فمن الممكن بالطبع أن نتخيل خطة البحث الكمي التي يستخدمها باحث وضعي تقليدي غير نسوي من حيث ما قد يشكل مضمون ونتائج هذا البحث، إذ سيرى مثل هذا البحث أن التحرش الجنسي هو حدث حقيقي ومعروف يؤثر على أعداد معتبرة من النسـاء في أماكن عمل متنوعة، كما سيسـعى ربما إلى التوصل إلى إجابات وحلول لمشكلة التحرش الجنسي.

ولكن فلنتخيل أوجه القصـور عند عدم تطبيق المنظور النسـوي في مراحل صـياغة أسـئلة الاستطلاع الكمي ثم تحليل البيانات والبحث النهائي في صيغته النصية. إن عدم وجود نظرة نسوية في تلك المسألة الإمبيريقية تحديدا سيؤدي في الغالب إلى عدم دراسة مفهوم التحرش الجنسي باعتباره من معوقات ترقي النساء في أماكن العمل. فعلى سبيل المثال، نجد أن التحليل الإمبيريقي النسوي سيتطلب طرح أسئلة ووضع عناصر متغيرة في تصـميم الاستطلاع بما يقيس معدلات رواتب وترقيات الرجال والنساء، إذ إن هذا القياس والتحليل يتطلب الالتفات إلى مسـاواة النسـاء بالرجـال. وهكذا فإن الاختلاف بين الجنسين والأسئلة المتعلقة بعلاقات القوى لن تخضع للدراسة داخل خطة بحث كمي يفتقد إلى المنظور النسوي.

إن قيـام أبحاث تتنـاول حياة النسـاء لا يعني بالضـرورة أنها تتم من أجل النسـاء. وتهدف القيم النسـوية إلى مقاومة التفسـيرات الخاوية من سياقها الاجتماعي والسياسي. وتؤمـن الإمبيريقيات النسـويات أن السـياق الاجتماعي والسياسـي لسـؤال البحث هو سـياق قابـل للقياس والملاحظة، كما تؤمـن هؤلاء الباحثات بأن السـياق جزء محوري

من البحث الجيد، فبدون السياق يكون البحث الناتج أقل من أن يوصف بالموضوعية. ويمكن للبحوث الاستطلاعية الكمية أن تتناول أمورا ذات أهمية قصوى بالنسبة للنساء (كالتحرش الجنسي)، ولكن وضع النساء في الاعتبار من منظور نسوي هو أمر يتطلب أن تكون السياقات الاجتماعية والسياسية لقضايا النوع والسلطة جزءا لا يتجزأ من الحقائق التي يتم الحديث عنها. وتؤكد النسويات الإمبيريقيات اللاتي يستخدمن مناهج البحث الكمي على أنهن يتمتعن بموقع متميز في سبيل تحقيق التغيير الاجتماعي للنساء بطرق فعالة[5]، إذ يؤكدن على أن الاحصائيات تصب في صالح أصحاب السلطة. وترى كل من روبيرتا سبالتر-روث وهايدي هارتمان (Roberta Spalter-Roth and Heidi Hartman، 1999)، على ضرورة وجود رؤية تسعى إلى "الجمع والتوفيق بين آراء جيلين من أجل قيام بحوث تتوافق مع معايير العلوم الاجتماعية الوضعية وبين الأهداف النسوية في قيام أبحاث "من أجل" النساء لا "عن" النساء (صـ333). ونجد أن النسويات الإمبيريقيات ينطلقن في أبحاثهن من موقع في داخل المؤسسة العلمية والسياسية.

إن أخذ النساء في الاعتبار لا يشير فقط إلى وجود النساء وهمومهن ضمن الجهود البحثية، بل يتضمن أيضا قيام النساء بإفراد مساحة خاصة بهن داخل مواقع البحث الأكاديمية، أو الأبحاث الطبية المجتمعية، أو النقاش حول السياسات العامة، وما إلى ذلك. وفي ذلك تشير مارجوري دي فولت (Marjori e DeVault، 1996) قائلة "إن الاهتمام بالتمييز الجنسي في مسار البحث ربما يعتمد في الغالب على تواجد النسويات داخل فرق البحث المتنوعة، حيث يكن هن الأقرب من غيرهن إلى لفت الانتباه إلى تلك التحيزات" (صـ36). إن قيام الكثيرات من النسويات الإمبيريقيات، مثل روبيرتا سبالتر-روث وهايدي هارتمان، بالجمع بين رؤاهن الإبستمولوجية وأهدافهن السياسية النسوية يجعلهن صاحبات "رؤية مزدوجة تجاه . . . البحث" (صـ337). وفيما يتعلق بما قامتا به من بحث في السياسات العامة الإحصائية بشأن أوضاع النساء في العمل وبرامج الرفاهة الاجتماعية (welfare)، تشير الباحثتان إلى الآتي:

> إن البحـث الـذي قمنا به يعكس كلا من الآراء المنهجية السـائدة والآراء النقدية المعارضة لها، وذلك لاستخدامنا تقنيات العلوم الاجتماعية الشائعة مع قيامنـا بغربلتها عبر منظور نسـوي يتوقف نقديا أمـام كيفية قيام تلك التقنيات بإعادة إنتاج وإضفاء الشرعية على علاقات السيادة وعدم المساواة على مسـتوى النوع والعرق والطبقة (Roberta Spalter-Roth and Heidi Hartman، 1999، p. 337).

إن العمل داخل النظام القائم لمناهج البحث، ومتطلبات السياسـة العامة والسـاحات التقليدية الخاصـة بمعايير البحث العلمي هو عمل يسـتدعي تقديم تنازلات تجدها بعض النسويات مسألة ضرورية وعملية وذكية عند العمل من أجل التغيير الاجتماعي. ولكنها في الوقـت ذاته تمثل تنازلات باهظة بالنسـبة لنسـويات أخريات ممـن يتطلب موقفهن السياسـي ومنظورهن الإبسـتمولوجي المعرفي الخروج من قيود المنظومة الوضـعية. إلا أن النسـويات الإمبيريقيـات يدركن وجود حاجة لتواجد النسـاء والنسـويات على كل مسـتويات البحث المعرفي، وداخل كل السـاحات التي تشهد جهودا من أجل التغيير الاجتماعي، وفي كل تخصص يسعى إلى صلاح البشرية ورفاهيتها.

الكشف عن اللاحقائق ورصد التنميط

إن التدمير العملي الإمبيريقي للصـور النمطية والأيديولوجيات الأبوية واللاحقائق هو إحدى السـاحات الكبرى التي تميل النسويات الإمبيريقيات إلى العمل فيها. وقد أخذ العمل على التخلص من التحيز الذكوري، والسـعي لتضـمين النساء في الجهود البحثية خلال السـنوات الأخيرة، في الانتقال من التضـمين المباشر لحيوات وتجارب النسـاء نحو قيام النسـويات الإمبيريقيات بطرح أكثر تعقيدا للأسـئلة حول كيفية تمثيل النسـاء داخل النشـاط البحثي في حد ذاته. فعندما نجد أن الفكر النسـوي يوفر أرضـية سياسية

للعمل الإمبيريقي، فنجد أن الباحثة "ملزمة أيضا بالتوقف أمام الطرق التي يعمل بها الخطاب العلمي على ترسيخ الصور النمطية الاجتماعية والثقافية القائمة، بما يجعلها تبدو "طبيعية" (Weasel، 2001، p. 30).

وعودة إلى مثال مختلف من دنيا الواقع، فلنتخيل مرة أخرى لوهلة أن كل الدراسات الطبية التي تتناول تجارب والعلاج الفعال لأمراض القلب هي دراسات تمت على حالات من الرجال، ولنتخيل أنه لا توجد دراسة واحدة تتضمن السؤال التالي: كيف تعايش النساء الأمراض القلبية؟ وهل تختلف تجاربهن عن تجارب الرجال؟ وكيف يجب أن يتخذ علاج النساء مسارا يحقق أفضل النتائج؟ وتقوم كل من كيم ماكورميك وشيلا بنتينج (Kim M. McCormick and Sheila M. Bunting، 2002) بدراسة أثر النظرية النسوية على البحوث التي تتناول التمريض، حيث تتبعان الأبحاث الصادرة حديثا والتي توضح أن تجربة النساء المتعلقة بالإصابة بأمراض القلب تختلف كثيرا عن تجربة الرجال. إن مثل هذه الدراسات تقوم بتضمين النساء في خطة البحث، مع طرح أسئلة عما إذا كانت الأعراض التي أصيبت بها النساء وتجربة المرض والتعافي والعلاج ملائمة وناجحة عند قيامها تبعا للنموذج العام الصادر عن الأبحاث التي تتناول الرجال. وقد أثبتت هذه الدراسات أن النساء يعانين من أعراض وتجارب مختلفة كما أن التعافي يتطلب أشكالا من العلاج مختلفة عما يلائم الرجال.

إلا أن الباحثتين كيم ماكورميك وشيلا بنتينج لا تتوقفان عند حديثهما عن النسويات الإمبيريقيات عند نقطة تضمين عينات من النساء المريضات في الدراسات وعند توضيح أوجه التحيز الذكوري في الأبحاث القائمة، ففي رأيهما لا يكفي "إضافة النساء ثم التقليب"، وإنما تواصلان حديثهما بالتعليق على الصعوبات في التعبير عن الاختلافات بين الرجال والنساء في الدراسات المنشورة وتمثيل تلك الاختلافات في تلك النصوص، بما لا يلحق مزيدا من الضرر بأوضاع النساء أو الرعاية الصحية. إن الجهود الساعية لإيقاف البحوث التي تستغل النساء دفعت بعض النسويات الإمبيريقيات

إلى عدم التوقف عند الجهود لتقليل التحيز الذكوري وتجاوزها في التعمق بشأن المسائل المتعلقة بالتداعيات السياسية والاجتماعية المترتبة عن البحوث والدراسات التي يتم القيام بها. وفي هذا الصدد توضح الباحثتان أن "التحدي الذي يواجه الباحثات يتمثل في تناول النساء بشكل يتيح ظهور أوجه الاختلاف دون تصويرهن باعتبارهن أدنى من الرجال" (ص820). وتقوم الباحثتان بتحليل كمي لأنماط تمثيل النساء في أدبيات التمريض بشأن أمراض القلب، ونجدهما تحاولان تقديم صورة هي الأكثر موضوعية ومكتملة السياق عند تمثيل النساء، بينما تقومان- في الوقت نفسه- بنقد البنى المعرفية التي تسيء إلى النساء وإلى الأنوثة. إن البحث عن الحقيقة بتضمين النساء داخل خطط وأسئلة البحث لا يتسم بالعمق الكافي.

إن الدراسة الإمبيريقية وتناول إشكاليات المفاهيم المختلفة أصبحت جزءا لا يتجزأ من العمل النسوي الإمبيريقي. كذلك نجد باحثة الآثار النسوية مارجريت كونكي (Margaret W. Conkey، 2003)، تشير قائلة: "نعم، توجد لدينا الآن نساء، ولكن وجودهن قاصر على أدوار وأنشطة وأهمية لا تنال قدرا من التناول الإشكالي" (ص876). وهكذا فإن النسويات الإمبيريقيات يقمن بمواجهة مجالات بحثهن وتخصصهن في سبيل توجيهها نحو الالتفات لتمثيلهن للنساء، ولكن النسويات الإمبيريقيات يضعن مجالاتهن وتخصصاتهن أمام كم من الأسئلة يماثل كم الإجابات المطروحة.

وفي سبيل إلقاء المزيد من الضوء على جهود النسويات الإمبيريقيات البحثية، يمكننا التوقف أمام مسألة كيف يمكن لتمثيل النساء في بحث يتناول التحرش الجنسي أن يقوم على مزيد من استغلال النساء. فالبحث الإمبيريقي التجريبي الذي لا يقوم على القيم النسوية المناهضة للاستغلال قد يؤدي إلى تصوير النساء باعتبارهن ضحايا، كما قد يقوم مثل هذا البحث على فرضيات أبوية محددة تؤدي إلى تحليل مقولات تمثل النساء باعتبارهن "يطلبن" هذا التحرش عن طريق ارتداء الملابس المثيرة في مكان العمل أو

التفاعل مع أنماط من الغزل. ولكن القيام بالبحث الإمبيريقي من منطلق نسوي يتطلب أن يتسم تمثيل النساء في التحليل والنص المكتوب بمبادئ المسؤولية والأخلاق، ومن هنا ترى بعض النسويات الإمبيريقيات أن نتائج البحث التي تضع المرأة في موقع الضحية أو "طلب التحرش" هي نتائج تستدعي اعتماد الباحث على افتراضات محملة بالأبوية والتحيز الذكوري وكونها أقل من أن توصف بالموضوعية.

وعلى الرغم من مثل تلك المقاصد السياسية التي تتبناها بعض النسويات الإمبيريقيات سعيا للتوقف أمام وإصلاح البحث العلمي القائم على الاستغلال، فإن هنالك العديد من النسويات الإمبيريقيات، صاحبات خلفيات إبستمولوجية معرفية مختلفة، ممن يؤكدن على أن ارتباطهن الصارم بالمنهج الوضعي والمؤسسة التي ينتمي إليها هو ارتباط يجب أن يتعرض للخلخلة، ويرين أن النسويات الإمبيريقيات مستمرات في "إضافة النساء والتقليب" على الرغم من حسن نواياهن، وذلك في اعتمادهن على أدوات البحث الأبوية غير الناجعة والتابعة للمؤسسة العلمية، بما يجعل ما يتم إنتاجه من معرفة قابلا للاستخدام بشكل في استغلال للنساء. وعادة ما تواجه النسويات الإمبيريقيات مثل هذا النقد بقناعة وإيمان بإمكانية التغلب بالجهود الإمبيريقية النسوية على تلك الأمور بالجمع بين الحرص والمنظور السياسي والمعايير الموضوعية في بناء المعرفة.

ويتسم مضمون الصور النمطية للنساء والرجال بالتنوع والحيوية بل والطرافة أحيانا، فلنأخذ- على سبيل المثال- ما قامت به باحثة الأنثروبولوجيا إيميلي مارتن (Emily Martin، 1999) في عملها الرائد كاشفة عن التحيز الذكوري في العلوم الطبيعية. فقد قامت بدراسة الكتب الدراسية التي تتناول النشاط الإنجابي لدى البشر، فوجدت أن تلك الكتب تميل إلى صياغة حكاية تقوم على خلق وإعادة صياغة وترسيخ الصور النمطية للبويضة والحيوان المنوي على أساس من علاقات القوى بين الجنسين. فقد اتضح لها أن الإشارة تتم عادة إلى البويضة بما يعكس سلبيتها، حيث أن البويضة "يتم نقلها" و"تتم إزاحتها" بل وأنها "تنجرف"، بينما نجد على النقيض من ذلك أن

الحديث عن الحيوان المنوي يتم عادة باستخدام مصطلحات تعبر عن الحركة والعدوانية والنشاط مثل استخدام تعبيرات "السرعة" (velocity) و"القوة" (propelling) إذ "يحفر طريقه عبر غشاء البويضة" و"يخترقها" (Emily Martin ، 1999 ، p. 17). وتبرز لنا إيميلي مارتن أن ما يعتبر كتبا دراسية طبية موضوعية هي كتب مليئة بالصور النمطية غير الموضوعية، بما يجعلها تعمل على تشكيل كل من الفهم الطبي والثقافي للأحداث الطبيعية. إن موقف إيميلي مارتن الإمبيريقي النسوي يؤكد على أن هنالك واقعا موضوعيا قابلا للفهم بشأن ما يدور بين البويضة والحيوان المنوي، كما تؤكد الباحثة أن الكتب الدراسية الطبية كانت تقدم صورا نمطية لعلاقات القوى بين الجنسين باستخدام لغة ليس لها أساس فعلي في الواقع.

وتشترك إيميلي مارتن مع العديدات من النسويات الإمبيريقيات اللاتي يرين أن تسليط الضوء على مثل هذه الصور النمطية يؤدي إلى تقليص آثارها على المجتمع. إن الهدف من كشف الصور النمطية والتحيزات الذكورية هو هدف سياسي، ونجد أن النسويات الإمبيريقيات يتعمقن إلى ما هو أسفل قشور البحوث التقليدية المتحجرة، فيتوقفن عند مساحات الظلام حيث يتم تقديم النساء والأنوثة في شكل سلبي وقمعي. وبالعودة مرة أخرى إلى المثال الذي قدمناه مسبقا بشأن تجربة تلك المرأة مع التحرش الجنسي، فلنتخيل لو أن تجربتها تلك قد تمت دراستها من خلال نظرة وضعية لباحثة أو باحث يتبنى النظرة النمطية للنساء في صورة الكائنات الراعية العاطفية باعتبارها هي النظرة الواقعية الفعلية. وبالتالي سيتبنى هذا الباحث نظرة نمطية فيما يتعلق بأدوار الجنسين، فيرى الرجال باعتبارهم عدوانيين، مسيطرين وغير قادرين على التحكم في دوافعهم الجنسية. فلنتخيل لوهلة كيف يمكن لتلك الصور النمطية غير الموضوعية والتي لم تخضع للاختبار أن تؤثر على نتائج البحث. فبدون المسعى النسوي لتجاوز تلك الصور النمطية والتي تمثل في حد ذاتها جزءا من السياق الاجتماعي والسياسي الأعم للتحرش الجنسي، فإن نتائج البحث حينها ستميل نحو إعادة إنتاج مستمر للصور

النمطية المعهودة. وتقوم النسويات الإمبيريقيات، ومن بينهن إيميلي مارتن، بملاحظة ودراسة واختبار تلك الصور النمطية بدرجات متفاوتة. فعلى سبيل المثال، وفيما يتعلق بالتحرش الجنسي، نجد أن جين ستوكارد وميريام جونسون (Jean Stock-ard and Miriam Johnson، 1992)، قد تجاوزتا الصور النمطية التي تتكرر في أسئلة البحث ونتائجه، إذ أكدتا أن التفاعل الاجتماعي (socialization) يشجع النساء على تجنب الصراعات (وهو ما يتعارض مع الصور النمطية التي توحي بأن النساء بطبيعتهن سلبيات في مواجهة الصراعات) وأنه يؤثر على أنماط تعبير النساء عن تعرضهن للتحرش الجنسي. إن المقصد الإمبيريقي في اختبار وملاحظة الإجابات على ذلك السؤال النسوي يؤدي ببعض الباحثات، مثل جين ستوكارد وميريام جونسون، إلى تقديم أسس أكثر موضوعية لبناء المعرفة.

إن صياغة أسئلة جديدة على قاعدة من التحليل الإمبيريقي إنما يمثل إحدى نقاط قوة المنهج الإمبيريقي النسوي.[6] وفي سبيل التوصل إلى فهم أفضل للأثر الحقيقي الناتج عن الجمع بين خصائص المنهج النسوي والمنهج الإمبيريقي، فلننتقل إلى المثال التالي؛ ففي المقطع المتعمق التالي من "ما وراء الستار" تدعونا الباحثة النسوية المعروفة ديانا راسل (Diana E. H. Russell) إلى التعرف على الدراسة الكمية التي قامت بها حول الاغتصاب، وإلى التعرف على الموقف النسوي الذي وجه مسار هذا البحث.

ما وراء الستار مع ديانا راسل

مساهمة النسوية في البحث الذي قمت به حول الاغتصاب

"إنك لم توضحي ما إذا كان الاغتصاب مشكلة مهمة، أم أنه مجرد موضوع يهم حفنة من النساء المختلات."

جلاديس هاندي،

المؤسسة القومية للعلوم، 1971

إن كلا من تجربتي الشخصية مع الاعتداء الجنسي في الطفولة وانتمائي النسوي لعبا أدوارا رئيسية في قراري بشأن القيام بأبحاث عن الاغتصاب وغيره من العنف والاعتداء الجنسي الذكوري (misogynist) ضد الإناث، وهي الأبحاث التي بدأت منذ عام 1971 واستمرت حتى يومنا هذا. إن المحاكمة التي جرت في سان فرانسيسكو في عام 1971 لقضية اغتصاب كانت عاملا في إثارتي بالغضب النسوي تجاه ازدواجية المعايير في التمييز الجنسي التي اتضحت من خلال تصوير الضحية باعتبارها هي المتهمة بسبب حياتها الجنسية النشطة، بينما على النقيض من ذلك تم استخدام النشاط الجنسي للمغتصب، جيري بلوتكين، كوسيلة للدفاع عنه ضد تهمة الاغتصاب، إذ طرح المحامي المدافع عنه سؤاله لهيئة المحلفين بنبرة متشككة قائلا: "ما الذي يجعله يغتصب امرأة إذا كان لا يجد صعوبة في العثور على إناث يقبلن إقامة علاقة جنسية معه؟"

وقد أصابني ذلك "المنطق" القائم على التمييز بغضب أدى بي إلى الانضمام إلى وقفة احتجاج نسوية أمام المحكمة ضمت نساء شاركنني مشاعري بشأن التمييز الجنسي الذي اتسمت به تلك المحاكمة. وقمنا في هذا الصدد بتوزيع منشورات تستنكر "الاغتصاب في قاعة المحكمة"، وقد قامت العديد من النساء

المشـاركات في الاحتجاج بالإشارة بشكل تلقائي غير رسمي إلى العدد الكبير من النسـاء المعروفات لهن ممن تعرضـن للاغتصـاب، بما يوحي بأن الاغتصاب صـار أمرا شائعا يمارسـه الرجال. وقد أذهلتني تلك المقولة، كما أدهشني كوني غير مدركة لتعرض أي من معارفي من النساء للاغتصاب.

وقد أوضحت لي تلك التجربة مدى قلة معلوماتي عن الاغتصاب من منظور الضـحية، فقـررت تتبع ما هو مكتـوب في الأدبيات الأكاديمية في هذا الشـأن. ومـرة أخـرى مكنني منظوري النسـوي مـن إدراك- وبصـدمة بالغة- مدى التمييز الجنسـي ولوم الضـحية الموجود في تلك الكتابات. ثـم مكنني منظوري النسـوي لاحقا من إدراك الدور الذي يلعبه التحيز الذكوري (misogyny) في أشـكال أخرى عديدة من الاستغلال الجنسـي، والإجبار الجنسي، والعنف ضد النساء والفتيات، ذلك كله إلى جانب الاغتصاب.

ولكني مع ذلك أعتقد أن تجربة الأذى الجنسي الصادمة التي تعرضت لها في الخامسة عشرة من عمري كانت هي الحافز الأقوى وراء دراستي الممتدة للأذى الجنسـي والعنف الجنسي الذي يمارسه الرجال ضد النسـاء والفتيات. ولم أكن حينها واعية بمصدر هذا الحافز القوي، ولم أدركه إلا في مرحلة لاحقة جدا.

لقد ثرت غضبا لحكم هيئة المحلفين بأن جيري بلوتكين "غير مذنب"، ونظرا لإدراكي أن الشـهادات التي اسـتمعت إليهـا هيئة المحلفين كانـت بالغة التحيز، عزمت على أن تقوم دراستي بعرض وجهات نظر الضحايا (victims) (لم يتم البدء في استخدام مصطلح الناجيات (survivors) سوى بعد فترة طويلة)، وهو منظـور توقعت أن يختلف تماما عن الطريقة التي ظهر بها في سـجلات المحكمة والتقارير الصحفية.

وقـد أوردت في بدايـة حديثي هنـا رد الفعل الجاهل والمهـين وغير المحترم والقائم على التمييز الجنسـي، والذي حصـلت عليه مـن جلاديس هاندي، أحد العاملـين في المؤسسـة القومية للعلوم والمسـؤول عن تقييم طلـب لتمويل بحث. ونظرا لأسـفي البالـغ على رد فعله العدائي، شرعت في القيام ببحث استكشـافي حول تجارب الناجيات من الاغتصـاب في بيركلي وأوكلاند بكاليفورنيا، دون التمتـع بمزايا التمويل. فقمـت مع ثلاث طالبات متطوعات بمقابلات شخصـية مـع ما يزيد على عدد 80 متطوعة من الناجيات من الاغتصـاب. وقد أدت هذه الدراسة إلى إصدار كتابي عن "سياسـات الاغتصاب: منظور الضحايا (Rus-sell، The Politics of Rape: The Victims' Perspective، 1975) والذي أؤكد فيه أن الاغتصـاب لم يكن فعلا رجاليا منحرفا، بل فعلا متماشيا مع مفاهيم الذكورة الشائعة في مجتمعنا الأبوي.

ونظرا لأن الناشر (Stein & Day) طالب بحذف الفصـل النظري الأساسي الموجـود في المخطوطة، تعرض الكتاب لتأخر في نشره لما يزيد على العام. ومع ذلك جاء هذا الكتاب ليكون ثالث كتاب نسـوي يسـاهم في تثويـر أدبيات العلوم الاجتماعيـة حول الاغتصـاب، ثـم التأثير لاحقـا بالمثل على أعـداد كبيرة من الأمريكيين (وكان الكتابان الآخران المنشـوران عن الاغتصاب هما: Cornell & Wilson، 1974; Medea & Thomson، 1974، ولم أكن على علم بهما أثناء عملي في كتابي).

ونظرا لكوني كنت قد سـمعت قول الكثيرات من النسـويات إن الاغتصـاب جريمة شـائعة ضـد النسـاء، وعلى النقيض مـن افتراض غالبية غـير المؤمنين بالنسـوية ممن يعتبرون الاغتصاب جريمة غير شائعة نسبيا، فقد قررت أنه من المهم للغاية أن أحاول الحصول على تمويل للقيام بدراسة علمية على نطاق واسع نسـبيا حول مدى انتشار الاغتصاب في منطقة سـان فرانسيسكو، وذلك للتحقق

من هذين النقيضين والتوصل إلى الرأي الصحيح فيهما. وكان المعهد القومي للصحة العقلية قد قام وقتها بتوفير تمويل خاص بأبحاث الاغتصاب، فجاء مشروع البحث الاستطلاعي الذي تقدمت إليهم به ضمن أوائل طلبات التمويل التي تم تمويلها في عام 1977.

وإضافة إلى رغبتي في التحقق من شيوع الاغتصاب من خلال عينة محتملة من النساء المقيمات في سان فرانسيسكو والبالغات من العمر 18 عاما وما فوق، سعيت أيضا إلى تأكيد مدى انتشار زنا المحارم، والأذى الجنسي للأطفال من خارج الأسرة، والأذى الجنسي من أفراد يتمتعون بسلطة ما، وآثار كل تلك الأشكال من الانتهاك والعنف الجنسي على الضحايا/الناجين. ولكني سأركز حديثي هنا على أثر منظوري النسوي على المنهجية التي اتبعتها في تقدير مدى شيوع الاغتصاب.

المنهجية

فكرت وقتها في التعاقد مع مركز الأبحاث الاستطلاعية في جامعة كاليفورنيا ببيركلي، وذلك لتنفيذ مرحلة العمل الميداني في مشروعي، ولكني علمت أنهم لن يسمحوا لي بأي تأثير على أسلوب تدريب القائمين بالمقابلات الشخصية، فكان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعلني أتراجع عن تلك الفكرة. أما السبب وراء ذلك فهو كالآتي: من أهم الخصائص الأساسية في البحث الاستطلاعي هي عدم ضرورة إخبار من يتم عقد المقابلات الشخصية معهم بموضوع الدراسة، أو اختيارهم تبعا لمواقفهم حيال موضوع البحث، حتى عندما يتطرق موضوع البحث إلى المحرمات في المجتمع. ولكنني قررت أن تلك القاعدة السائدة في البحوث الاستطلاعية لا تتلاءم مع دراستي بسبب طبيعة الموضوعات،

واعتبارهـا من المحرمـات، والتي رغبـت في تناولها، ومواقـف معظم الناس حينذاك والقائمة على لوم الضـحية فيما يتعلق بالاغتصـاب وغيره من أشـكال الاعتداء الجنسـي. وتميل الكثيرات من النسـاء عادة إلى التزام الصـمت عندما يسـألن في مقابلة شخصـية من قبل شـخص غير معلوم لهن ليتحدثن عن تجربة الاغتصاب، وذلك بفعل شعورهن بالعار ولوم الذات والقلق من التعرض للوم مـن قبل القائمين بالمقابلة، وخاصـة حـين يوحي أحدهم، ولو بشـكل غامض، عن مسـؤولية الضحايا عما يتعرضـن له. وبالتالي فإن إرسال من يفترض إنهم باحثون محايدون للقيام بالمقابلات الشخصـية في الميدان دون إعدادهم وتعريفهم بالقضايا التي يتضمنها البحث، هو أمر كان سيؤثر تأثيرا سلبيا بالغا على محاولتي في الحصـول على أكثر درجات الكشف والحديث عن الاغتصاب وزنا المحارم وغيرهما من أشكال الاعتداء الجنسي.

ومـن هنا قررت أن أتعاقد فقط فيما يخص مرحلة إعداد عينة البحث، وقمت في سـبيل ذلك بالتعاقد مع شركة البحوث الميدانية "فيلد ريسيرتش كوربوريشن" (Field Research Corporation)، وهـي شركـة تتمتـع بسـمعة رفيعة في بحوث التسـويق ودراسـات الرأي العام في سان فرانسيسكو. وقد نتج عن ذلك حصـولي على عينة إمكانية (probability sample) من 960 امرأة من سكان سان فرانسيسكو في الفئة العمرية من الثامنة عشرة وما فوقها. وقد قام فريق من 33 باحثة من ذوات هويات عرقية وطبقية متنوعة بعقد مقابلات مع تلك العينة من النسـاء خلال صيف عام 1978 (وللمزيد من المعلومات بشأن المنهجية المتبعة في تلك الدراسة يمكن الرجوع إلى: 1984 ،Russell).

وقد تضمن الزمن المخصص بواقع 65 ساعة للتدريب المكثف لهؤلاء الباحثات عشر سـاعات– على الأقل– لتعريفهم بالاغتصـاب وزنا المحارم. وقد تضـمن هذا التدريب الاسـتماع إلى شـهادات شخصـية لتجارب اغتصاب وزنا محارم

التــي تطوعــت بتوفيرها بعض الباحثــات وغيرهن من العاملــين في المشروع، كما تضمن أيضــا مشاهدة فيلم سينمائي نسوي عن الاغتصاب، وتلقي إرشادات مباشرة بشــأن الاغتصاب، ومنها على ســبيل المثال أن الكثيرات من النساء يكن ضــحايا للاغتصــاب المتكرر. وبالتالي تم تنبيه الباحثات كي لا تصيبهن الدهشة عند تعرضهن لمثل تلك الحالات في المقابلات الشخصية.

ومع ذلك فإن تخصيص 10 ســاعات من التدريب لا يمكن أن يحول شخصا متعصــبا إلى شــخص محايد بــلا تحامل أو مواقف مسبقة. ومن هنــا تم اختيار الباحثات القائمات بالمقابلات بناء على مواقفهن في عدم لوم ضــحايا الاعتداءات الجنســية، إضافة إلى مهاراتهن في عقد المقابلات الشخصية. كذلك، ونظرا لأن الاســتطلاع كان قاصرا على عينة من النســاء، لم أتوقف أمام فكرة الاســتعانة بباحثين من الذكور.

وقــد رأيــت أنه من المهم للغايــة إعداد جدول للمقابلات بحيــث يتم تجنب أي إيحاء بلوم الضــحية، فعلى ســبيل المثال كان يطلب من المســتجيبات الإشارة إلى مدى موافقتهن أو معارضــتهن لعدد من المقولات التي كانت تستهدف ذلك الأمر قبل البدء في طرح الأسئلة عليهن عن تجاربهن مع الاغتصاب والتعرض للأذى الجنســي سواء من الأقارب و/أو غير الأقارب، وهلم جرا. ومن تلك المقولات التي كان يتم البدء بها ما يلي: "يمكن لأية امرأة أن تكون ضــحية للاغتصاب أو الأذى الجنســي"، "تتعرض معظم النســاء إلى نوع ما من أنواع الأذى الجنسي على- الأقل مرة- واحدة في حياتهن"، "في حالة توفر الظروف المناســبة، فإن معظم الرجال قادرون على ارتكاب الاغتصــاب"، "ضــحايا الاغتصــاب غير مسؤولات عن تعرضــهن للاغتصاب". كما تمت صــياغة مقولة أخرى بحيث تشــجع المســتجيبات على الكشــف عن تجاربهن: "مــن المفيد عــادة الحديث عن التجــارب الأليمــة". إن التعبير عن الانحياز في صــياغة الأســئلة بتلك الطريقة

هو أمر يتعارض مع قاعدة أساسية من قواعد إعداد الاستبيان الذي يتطلب من الباحثين أن يتجنبوا الكشف عن مثل هذا الانحياز، بحيث تتم صياغة أسئلة تعبر عن "الموضوعية" في تناول موضوع البحث.

وقد جعلتني معرفتي عن الاغتصاب أتجنب استخدام هذا المصطلح (الاغتصاب) سوى في الحالات التي تبرر ذلك، فعلى سبيل المثال، لم أدرج في جدول المقابلات المشتمل على 38 سؤالا، والذي استخدمته في البحث، سوى سؤال واحد يتضمن كلمة الاغتصاب، وذلك لإلقاء الضوء على عدد النساء اللاتي يدركن تجاربهن باعتبارها تجارب اغتصاب. وهو مفهوم قمت بتعريفه باعتباره يشير إلى الممارسة الجنسية الإجبارية، أو الممارسة الجنسية التي تتم بتهديد استخدام القوة، أو الممارسة الجنسية التي تتم أثناء وقوع المرأة تحت تأثير مخدر ما أو في حالة فقدان الوعي أو التعرض لشل حركتها الجسدية بأي شكل من الأشكال، أو أية محالات تتم لتحقيق ذلك الفعل (وكان هذا هو التعريف القانوني للاغتصاب في كاليفورنيا في ذلك الوقت، باستثناء كون دراستي تتضمن حالات من اغتصاب الزوجة). وقد قمت باستبعاد المصطلحات المحرمة (الطابوهات) لما توقعته من قيام كثير من المستجيبات من عدم تطبيق مثل تلك المصطلحات المحملة بالقيم على تجاربهن. وقد تأكدت صحة توقعاتي كما يتضح في الباب التالي.

نتائج بشأن معدلات الانتشار

إن الحكمة التي حملها فهمي النسوي لتجارب النساء في التعرض للاغتصاب تأكدت بما حصلت عليه من معدل صراحة مرتفع وغير مسبوق، وذلك نتيجة لمنهجيتي في البحث الاستطلاعي. فعلى سبيل المثال، كشفت نسبة 22% من مجموع 930 مستجيبة عن تجارب من الاغتصاب[1] المكتمل و/أو محاولات

الاغتصاب في إجاباتهن على السؤال الذي تضمن كلمة الاغتصاب.* وعند الجمع بين الاغتصــاب المكتمل ومحاولات الاغتصاب، وهو ما يتم عادة في إحصائيات مكتب التحقيقات الفيدرالية (FBI)، اتضح أن 44 % من العينة تحدثن على الأقل عــن حالة واحدة من الاغتصــاب المكتمل أو محاولة الاغتصــاب. ومن هنا نجد أن طرح الســؤال المباشر بشأن الاغتصــاب لا يكشف سوى عن نصف تجارب الاغتصاب الفعلية التي تبلغ عنها المستجيبات.

خاتمة

إننــي أرى أن المعدلات المرتفعة التي حصــلنا عليها باتباع منهجيتي في البحث جاءت نتيجة لفهمي النســوي فيما يتعلق بالاغتصــاب. وفيما يلي ملخص لبعض أهم الملامح المنهجية التي أعتقد أنها تفسر الأســباب وراء حصولي في الاستطلاع على هذا الارتفاع النســبي في معدلات انتشار الاغتصاب، وهي معدلات تفوق بشــكل ملحوظ أي دراســة شــبيهة تمت منذ ذلك الحين انظر/ي: Russell &) :Bolen، 2000)

- الاستعانة بمجال واسع من الأسئلة في جدول المقابلات بما ساعد في استحضار ذكريات النساء لما تعرضن له من تجارب اغتصاب.
- إدراج أسئلة تكشف عن مواقف لا تلوم الضحية، وبلا تحيز من جانب الدراسة.
- تجنب استخدام كلمة الاغتصاب في كل أسئلة جدول المقابلة باستثناء سؤال واحد.
- الاقتصار على الاستعانة بإناث في عملية عقد المقابلات.
- الاختيار الدقيق للقائمات على المقابلات الشخصية ممن لا يعترفن بالأساطير السائدة بشأن الاغتصاب.

- التدريب الجاد للقائمات بالمقابلات الشخصية من حيث إدارة مسار جدول المقابلات ومن حيث تعريفهن بكل ما يخص الاغتصاب.
- محاولة التوفيق بين الخلفية العرقية لكل من المستجيبة والقائمة بالمقابلة بقدر المستطاع.

ولأسباب غير معلومة لم تقم أي باحثة في الولايات المتحدة الأمريكية بتكرار بعض الملامح المهمة المستخدمة في منهجي البحثي في تلك الدراسة، فيما عدا ما يتعلق بالاستعانة بباحثات من الإناث لعقد المقابلات. فهل من المثير للدهشة إذن أنه لا يوجد بحث استطلاعي آخر نجح حتى في الاقتراب من معدلات الانتشار مثل تلك التي توصلت إليها في بحثي الاستطلاعي بالنسبة للاغتصاب؟ (وهي مقولة يتم تفسيرها في: Russell & Bolen، 2000). إنني أرى أن بحثي الاستطلاعي يوضح الأهمية الكبرى لتوظيف منهجية بحث نسوية لتقدير مدى انتشار الاغتصاب وغيره من الأذى والعنف الجنسي. ولم يمنعني سوى ضيق المساحة هنا من إدراج وصف لمنهجيتي النسوية ونتائج بحثي حول انتشار الأذى الجنسي للأطفال سواء من ذوي المحارم أو من خارج إطار الأسرة. وأنا أعتقد أن المنظور النسوي سيثبت نفس القدر من الأهمية عند تطبيقه في دراسات وأبحاث حول العديد من الموضوعات الأخرى.

لقد أحدث البحث النسوي والتحليل النسوي للاغتصاب ثورة في مفهوم الاغتصاب في الدول الغربية وغيرها، وأنا أعتز لكوني ممن مهدن هذا الطريق أنا ومعي عدد من الباحثات الأخريات والعديد من النساء الشجاعات الناجيات من الاغتصاب ممن أعربن عن استعدادهن للحديث عن تجاربهن.

هامش

* قمت مع اثنتين من المساعدات (coders) بتقييم ما إذا كانت كل تجربة مما وصفتها المستجيبات بالاغتصاب تتماشى مع تعريف البحث لكل من الاغتصاب ومحاولة الاغتصاب.

مساحات (chasms) إبستمولوجية: الموضوعية

تهدف النسويات الإمبيريقيات إلى تناول القضايا المعرضة للتجاهل والإهمال مما يجعلها بالتالي غير ملحوظة في منظومة البحث الوضعي التقليدي. وهي تتضمن قضايا النساء وتجاربهن ووجهات نظرهن باعتبارها موضوعا مباشرا للبحث يتم تناوله بالتساؤل والدراسة والمعرفة خلال عملية البحث. كما تهدف النسويات الإمبيريقيات إلى مواجهة المشاكل القائمة داخل المنظومة الوضعية التقليدية، بما في ذلك التحيزات الذكورية وإعادة صياغة الصور النمطية. ويعتمد كل من هذين الهدفين العامين لدى النسويات الإمبيريقيات على الأهداف الشاملة للقيم النسوية وأخيرا فإن المسار الأكثر أهمية الذي تتبعه النسويات ألإمبيريقيات والذي يميزهن عن غيرهن من الباحثات النسويات الأخريات هو سعيهن لتحقيق الموضوعية. إن الجهود التي تقوم بها النسويات الإمبيريقيات في تناول القضايا الذكورة أعلاه هي جهود تتم بهدف تتبع وتحديد واستخدام شكل أفضل من أشكال الموضوعية مقارنة بما يقوم به الوضعيون التقليديون. وتعتبر النسويات الإمبيريقيات أن تجاهل وتغييب النساء وتجاربهن هو أمر يحد من موضوعية البحث، كذلك فإن التحيزات الذكورية والأبحاث المتأثرة بالصور النمطية تعوق المساعي الموضوعية للتوصل إلى المعرفة. وتعمل النسويات الإمبيريقيات على معالجة تلك المشكلة من داخل المنظومة الوضعية، بما يميزهن عن غيرهن من الباحثات النسويات كما يعرضهن في نفس الوقت للنقد.

إن المدخل الذي تتخذه النسويات الإمبيريقيات نحو الموضوعية هو ما يميزهن عن غيرهن من الباحثات النسويات. ونجد أن موقع المنهج الإمبيريقي (empiricism) داخل المنظومة الوضعية يقربنا من التوصل إلى فهم أكثر تجريدا فيما يتعلق بالأسس التي يقوم عليها كيانهن باعتبارهن مفكرات وعارفات. فمن الناحية الإبستمولوجية والمنهجية، يشكل التمييز بين الذات/الموضوع أساس الصيغة الوضعية للعلوم الاجتماعية، بحيث تحتل الباحثة/الباحث موضوع الذات المنفصلة (detached sub-ject). وتقوم الوضعية على وجود واقع "واقعي" قابل للمعرفة ويمكن فهمه وبلوغه

بالممارسات العلمية الموضوعية (objectivist)، كما أن ذلك الواقع الواقعي القابل للفهم مبني على التمييز والتفرقة بين موضوع الدراسة القابل للمعرفة وبين الذات، أي ذات الباحث صاحب المعرفة. وهكذا عبر ثنائية (dichotomy) (الذات/الموضوع) يكون موقع (الباحثة/الباحث) صاحبي المعرفة موقعا غير ذي تأثير ومنفصلا بطبيعته عن الموضوع القابل للمعرفة. وبالتالي يتم نفي وجود أي تأثير للباحثة أو الباحث، كما أن الصوت المتنامي من النص المعرفي هو صوت يعبر عن "'عالم منزه عن المصلحة' باعتباره ناقلا للمعلومات عن صناع القرار وصناع السياسات وعوامل التغيير" (Guba & Lincoln، 1994، p. 112). إن مدخل المنهج الإمبيريقي إلى بناء المعرفة يقوم على شكل من أشكال الوضعية التي ترى أن الحد الفاصل بين الذات/الموضوع لا يمكن فهمه ومعرفته سوى باستخدام الحواس.

إن التمييز بين الذات/الموضوع يشكل ثنائية أساسية يقوم عليها قدر كبير من المنظومة الوضعية. وتتمتع النسويات الإمبيريقيات بأساليب معينة للتفاوض ومناقشة النقد الموجه لذلك الموقف الإبستمولوجي والمنهجي. ونجد أن الباحثة النسوية الإمبيريقية وفيلسوفة العلوم، إيفلين فوكس كيلير (Evelyn Fox Keller) تؤكد أن الصيغ الوضعية للموضوعية هي صيغ ثابتة غير متغيرة بما يستدعي أن تكون ذات البحث، أي الباحث أو الباحثة، منفصلة تماما عن موضوع البحث، أي موضوع الدراسة. وترى إيفلين فوكس كيلير أنه يجب على الباحثات النسويات التحرك نحو شكل من الموضوعية الديناميكية المتحركة التي "تصبو نحو شكل من المعرفة يضمن للعالم المحيط بنا اتساقه واستقلاله، ولكنها تحقق ذلك بطريقة مدركة بل ومعتمدة على اتصالنا بالعالم" (Evelyn Fox Keller، 1985، p. 117). وهي تعتبر أن علاقات الموضوع (object relations)، والتي تتطلب وجود أيديولوجيا السيطرة على الموضوع (أي الطبيعة والنساء) تشكل قاعدة العلوم الإمبيريقية.

وتوحي التعريفات التقليدية للموضوعية بوجود انفصال بين الأيديولوجيا والعلوم، أي ملاحظة العالم بأكمله دون مؤثرات المعتقدات السياسية والفردية. إن هذا التقييم

(normative valuation) برفع العلم إلى مرتبة أسـمى مـن الأيديولوجيا، والتعبير عنـه من منطلق إما/أو لا من منطلق الجمع بين الاثنين، هو ما يبدو على سـطح البحث الموضـوعي في العلوم الاجتماعية. وتقوم النسـويات الإمبيريقيات بالتعامل مع مأزق (tight rope) الفاصـل القائـم بـين ما هـو أيديولوجي ومـا هو علمـي، مؤكدات أن الاعتراف والعمل في مسـاحة حدود التمييز بين الذات/الموضـوع والأيديولوجيا/العلم هـو ما يجعل مقاربتهن المنهجية هي الأكثر موضـوعية. وتشـير كارولين رمزانوجلو (Caroline Ramazanoglu، 2002) أن النسـويات طالمـا تناولـن مفاهيـم عصـر التنوير عن العقلانية والموضوعية تبعا لديكارت وكانط، وقد وجدن صعوبة في محاولة "التوصـل إلى قرار بشـأن ما إذا كان في إمكانهن أو يجـب عليهن 'التحليق في الفكر' بحيث يمكن للنسـاء التجول حول الكون والغوصـ في طبيعة المرأة في علاقتها بالرجل (wo/man)" (Caroline Ramazanoglu، 2002، pp. 25-26).

إن التوقف للتسـاؤل حـول الحدود القائمة بين العلم والأيديولوجيا جعل النسـويات الإمبيريقيات يكشـفن عن المدى الذي وصـل إليه العلم الموضـوعي المتحيز. فمع تعمق النسـويات الإمبيريقيـات في تجاوز سـطح الوضـعية التقليدية، وجـدن أن المعتقدات الأيديولوجية والشخصـية تعكر شـفافية ميـاه عملية إنتاج المعرفة. وتهدف النسـويات الإمبيريقيات إلى التعامل مع الممر الواصل بين الأيديلوجيا والعلوم، بحيث يقمن بصياغة وتشـكيل مجال علمي أفضل يصـلح لبناء معرفة حول النساء. ومع ذلك تشير كثير من الأعمال النقدية بشـأن النسوية الإمبيريقية إلى أن مثل تلك المحاولات ليست بعد معرفة من أجل النسـاء. وتؤكد كارولين رمزانوجلو أنه "يمكن للنسـويات أن يكن عقلانيات ومنطقيـات ومنظمـات في أبحاثهـن دون التعامل مـع العقلانية باعتبارهـا قوة مؤدية للحياد. ففي إمكانهن (بصـورة إشـكالية) تتبع الحقيقة بمعنى ادعـاء امتلاكهن لـ'حكاية أفضـل'، ولكن ليس في وسعهن ادعاء الموضـوعية" (Caroline Ramazanoglu،

2002، p. 49). وعلى الرغم من مثل تلك الانتقادات، فإن النسـويات الإمبيريقيات يُبقين على التزامهن بما يقدمنه من تنازلات ورضاهن عنها.

وتتناول الفيلسوفة سـاندرا هاردينج (Sarah Harding، 1992)، جنبا إلى جنب النسـويات الإمبيريقيات، مفهوم الموضوعية بالنقد ولكن دون رغبة منها في الاستغناء تماما عن المصـطلح. وهي ترى أن الموضـوعية باختصـار ليسـت موضـوعية بالقدر الـكافي، وأنها تحول وتحد من تمثيل الصـيغ المعبرة عن العالم والتي تتسـم بكونها أقل تشـويها وإفسادا. إذ تعمل تلك الصيغ على إفساد فرص تشكيل وخلق الموارد التي تأتي بها المعرفة الموضـوعية "كالعدل والأمانـة والبعد و. . . دفع عجلة الديمقراطية" (Sa-rah Harding، 1992، p. 574)، فالأيدي التي تنتزع سلطة كلمة الموضوعية إنما تستخدمها من موقعها ولتحقيق مكاسبها الشخصية بالمعنى البنيوي والشخصي. كما ترى سـاندرا هاردينج أن "المناهج والأنماط القائمة في التخصصات المعرفية هي أضعف من أن تتيـح للباحثين والباحثات العمل، بشـكل منظم ومن داخـل نتائج البحث، في تحديد واسـتخلاص تلك القيم والمصالح والأجندات الاجتماعية المشـتركة بين أعضاء المجتمع العلمـي بأكملـه" (Sarah Harding، 1993، p. 52). وهكـذا فـإن الإضـافة إلى المناهج القائمة بالفعل وتدعيم سـلطتها في بلوغ المعرفة الموضـوعية هو هدف النسويات الإمبيريقيات.

وبينما تجتمع غالبية الباحثات النسـويات من مختلف الخلفيات الإبسـتمولوجية على نقـد والنقاش حول القضـايا المتعلقة بالتمييز بين الذات/الموضـوع، فإن الإجابات التي يتوصـلن إليها والأدوات التي يسـتخدمنها في تناول تلك المسألة تشـكل نقطة تباين فيما بينهن. فنجد أن النسـويات الإمبيريقيات في مسـيرتهن للتفاعل وتشجيع أهداف البحث النسوي وتوظيفه ينطلقن من أسـس قوية تضرب بجذورها العميقة في الموضوعية. إلا أن رؤيتهن للموضـوعية تصبو إلى تتبع واقع أكثر ثراء وتفصيلا وحيوية مقارنة بذلك "الانعكاس المنفصل والموضوعي لواقع 'طبيعي' أوحد"[7] (Weasel، 2001، p. 27).

إن الموضـوعية الخالية من المواقف القيمية (value-free) توحي باشـتمالها على جهود المنظومات الوضعية التقليدية الساعية لحمل مرآة أمام العالم ورؤيته تبعا لما هو عليه:

> إن الموضوعية الخالية من المواقف القيمية تتطلب أيضا نظرية خاطئة بشأن العامل المثـالي -أي وجود ذات-للعلم والمعرفـة والتاريخ. وهي تتطلب مفهومًا عن الأنا باعتبارها حصنًا لابد من الدفاع عنه ضد المؤثرات الملوثة له من المحيط الاجتماعي. (Harding، 1991، p. 158)

إن تحديـد موقع مؤثـرات المحيط الاجتماعي باعتبارها مؤثرات مصـيبة بالتلوث، بما فيها المؤثرات الكامنة داخل الباحثة أو الباحث نفسيهما، يؤدي بالعلوم الوضعية إلى تجاهل كم كبير من المعلومات والمؤثرات والملاحظات القيمة التي يمكنها في ظرف آخر إضفاء المزيد من الموضـوعية على نتائج البحث[8]. إن الأوهام المتعلقة بالباحث المنفصل وغير المتواصـل عاطفيا ببحثه هي أوهام تعوق السـاعي الموضوعية تجاه الحقيقة. كما أن مثل تلك الموضوعية الخالية من المواقف القيمية ليست موضوعية بالقدر الكافي نظرا لسعيها إلى تجاهل السياقات المهمة التي تجعل المعرفة التي يتم التوصل إليها معرفة تتمتع بالزخم والوضوح والالتزام.

ويمكننـا أن نرى اتحاد الأهداف السياسـية النسـوية مع المقاربـات الإمبيريقية إلى الموضـوعية في أبحاث زوليما تـانج هالبـين (Zuleyma Tang Halpin، 1989)، والتـي تجمع بـين منظوري علم البيولوجيا والدراسـات النسـائية، في تناولها لأسـوأ سمات اسـتخدام المؤسسة العلمية للموضـوعية العلمية، إذ تحدد لنا الباحثة مشكلتين من مشـاكل الموضـوعية العلمية بما يؤدي إلى إعادة بناء أنظمة القمع والقهر-(subjuga-tion)، والعنف تجاه كل من ينتمي إلى فئة الآخر. والمسألة الأولى التي تتناولها تخص الانفصـال والبعد العاطفي الذي تفرضـه ممارسات وأهداف الموضـوعية العلمية. أما المسـألة الثانية التي تستشـهد بها الباحثة -باعتبارها تعيد إنتاج أنظمة القهر- فهي مسألة

الفصل الإبستمولوجي للموضوع، أي الطرف الخاضع للدراسة، عن الذات، أي الطرف المنتج للمعرفة. وتوضح تلك المسألتان البعد الأساسي للمقاربات الإمبيريقية النسوية لعملية بناء المعرفة العلمية. ومع ذلك تواصل الباحثة الدعوة إلى الحفاظ على الموضوعية كمعيار أساسي، قائلة:

> بينما نجد أن الموضوعية الحقيقية هي بلاشك ضرورية للمسعى العقلاني للعلوم، إلا أن مفهوم الموضوعية العلمية بصورته الشائعة في فهم وممارسات العلماء كثيرا ما تمت صياغته بطرق جعلت الموضوعية العلمية في واقع الأمر متعارضة مع البحث العلمي الموضوعي وغير المنحاز.
> (Zuleyma Tang Halpin، 1989، p. 285)

إن التوظيف المتعارض (antithetical) للمناهج العلمية في تتبع المعرفة الموضوعية تطلب من النسويات الإمبيريقيات حدوث نقلة إبستمولوجية رشيقة وعميقة، وهي نقلة لم تدفعهن بعيدا عن المفاهيم الأسبق بشأن الموضوعية، بل سعيا لتقديم تفاصيل راسخة وأساسية. وهكذا فإن الممارسة العلمية واستخدام المناهج الوضعية واستهداف منهج بحث علمي موضوعي حقا أدت جميعها إلى تدعيم وتقوية الباحثات النسويات عبر التخصصات.

فما الذي يحدث عند استكشاف الوعي والإحساس بالخفايا والكوامن الأيديولوجية والمحملة بالقيم؟ وعودة بنا إلى المثال المقدم مسبقا، نجد أنه قد ثبت غياب الكثير من التفاصيل والموضوعية تبعا للباحثات النسويات فيما يتعلق بالمنظومات التقليدية للمعرفة بشأن التحرش الجنسي. ومع ذلك يواصل الباحثون والباحثات غير النسويين التمسك بافتراضات وتحيزات بعيدة عن الموضوعية من المنظور الإمبيريقي النسوي. ومن الفرضيات التي حملت ثقلا كبيرا في الثمانينات، أثناء تناول قضية التحرش الجنسي إياها، ورغم عدم وجود بيانات ومادة إمبيريقية لتأكيدها، هي الادعاء بأن القائمين

بالتحرش الجنسي يعانون من خلل نفسي (Hotelling & Zuber، 1997، p. 100). وبتوسيع دائرة تلك التفسيرات الشخصية والنفسية فإننا نجد أنفسنا داخل معمعة (morass) الفرضيات بشأن قوة الدوافع الجنسية لدى الرجال بما يجعلهم عاجزين عن التحكم في أنفسهم. وقد ساد العديد من الافتراضات الأخرى داخل أبحاث المنظومة الوضعية التقليدية، بما يحد من الإمكانات البشرية وإمكانيات حدوث تغير اجتماعي وإمكانات البحث. وقد دخلت النسويات الإمبيريقيات بثقلهن في مناقشة تلك الافتراضات، بهدف تقديم أدلة إمبيريقية على السياق الاجتماعي للتحرش الجنسي.

الخاتمة

إن الإسهامات المتنوعة والحيوية التي أضفتها النسويات الإمبيريقيات أوجدت بيئة تشهد- بالفعل- نقلات في الأنساق والمنظومات، وهي مساهمات تؤدي إلى علم أفضل وأكثر موضوعية، وكثيرا ما تنفذ إلى مفاهيم المؤسسة العلمية عن العلم الجيد، وعادة ما تترك هؤلاء النسويات الإمبيريقيات بصمتهن النسوية على هذا العلم الموضوعي الجيد. ولا تعتبر النسويات الإمبيريقيات كتلة واحدة من حيث الإبستمولوجيا والمنهجية واستخدام المناهج، ولكنهن يتركن تأثيرا تراكميا على المنظومة الوضعية. ومع كثرة الأبعاد التي توفر شبكة من أسس التوقف أمام الباحثات النسويات، فإن النسويات الإمبيريقيات يملن إلى البقاء على مقربة من أسلافهن الوضعيين، فنجدهن ينقدن العلوم الوضعية من الداخل، فيدعون ويدفعن نحو معرفة أكثر قوة وجودة وموضوعية والتي يمكن اكتسابها عندما تصبح الدراسة الدقيقة للسياق السياسي والخطابي لبناء المعرفة جزءا من العملية البحثية. كما يؤكدن على أن العالم قابل للمعرفة، وأن الحقيقة قابلة للعثور عليها، وأن الكثير من العلم قد بنى حواجز تخفي ما يتمتع به سياق مسارات وواقع المعرفة من ثراء وتنوع، بما يصب في تقوية والحفاظ على المنظومة والوضعية

والبنى الأبوية للنظام القائم. وتستخدم النسويات الإمبيريقيات رؤيتهن المزدوجة للأهداف السياسية والوسائل الإمبيريقية التجريبية، مؤكدات على نجاحهن في التوصل إلى أسلوب متوازن لبلوغ أفضل ما هو موجود في عالمي النسوية والإمبيريقية.

وعلى الرغم من إسهامات الإمبيريقية في المشروع النسوي الأشمل، كما يتضح في الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب، فإن هنالك الكثيرين ممن يرون في الإمبيريقية النسوية كتلة يتم بمقتضاها إلحاق النساء بالأنظمة الموجودة مسبقا، مع التقليب، ثم الافتراض بان الأمور صارت "أفضل". لقد قامت النسويات الإمبيريقيات بدور ريادي في صياغة مقاربات إبستمولوجية ومنهجية جديدة في بناء المعرفة، مع الكشف عن بعض "أسس" الإمبيريقية. فإذا نظرنا إلى المواقف الإبستمولوجية باعتبارها تشكل خطا متصلا متواصلا، فربما سنرى حينها الإمبيريقية عند إحدى نهايات هذا الخط، يتبعها إبستمولوجيا الموقعية (standpoint epistemology) ثم ما بعد الحداثة (post-modernism)، وهو ما يتعارض تماما مع النزعة الجوهرية (essentialism)، اللازمة للإمبيريقية وللموقعية. وسوف نتناول في الفصل التالي إبستمولوجيا الموقعية باعتبارها أول نقد قوي موجه للنسوية الإمبيريقية، وبديلا عنها.

الهوامش

1- يرى ريتشـموند كامبل أن الوضعية في واقع الأمر تقبل بإمكانية تأثير الجوانب السياسـية على "اكتشـاف" فرضية ما أو بيانات ما، ولكنه يصر على أن مسألة ما إذا كانت تلك الفرضية "ف" مثبتة بذلك الدليل "د" هي مسـألة أخرى. وطبقا للوضعيين فإن مدى تأكيد الدليل للفرضية هي مسـألة متعلقة بالمنطق، بصرف النظر عن مصدرهما، وهو أمر يتجاوز نطاق السياسات. (Richmond Campbell, 1994, p. 90)

ويؤكد ريتشـموند كامبل أنه يجب علينا الحرص، إبسـتمولوجيا ومنهجيا، على تحديد ما إذا كنا نتحدث عن تأثير السياسـات في سـياق الاكتشاف أم سياق التبرير. ويتفق كامبل مع ساندرا هاردينج (Sandra Harding, 1986, cited in Campbell, 1994) فـي تأكيدهـا على أن السياسـات والتحيزات الاجتماعية توجه الباحثة أو الباحث في مدخلهما إلى سـياق الاكتشـاف، كما يرى كامبل أيضا أن "ما يتم التثبت منه، في حالة إثبات "د" لـ"ف"، هو أمـر يعكس تلك التحيـزات" (Campbell, 1994, p. 95). ولكنه مع ذلك يؤكد أن نقد سـاندرا هارديمج للإمبيريقية النسـوية هو نقد مبالغ فيه، مشـيرا إلى أن "علاقة التثبت في حد ذاتها هي علاقة لا تتأثر بالمسـائل السياسـية"، كما يؤكد أن "منطق التثبت في حد ذاته ... يعتمد على سـياق الاكتشاف، أي أنه لا يمكن تحديد ما إذا كان دليل ما يثبت فرضية ما بشكل مستقل عن سياق الاكتشاف" (Campbell, 1994, p. 95).

2- قدم هذا الإصدار من مجلة "سـاينز" (Signs) العديد من الأمثلة المفيدة والمتعمقة على البحث النسـوي في كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية. ومن الجدير بالذكر تحديدا ما قدمته المشـاركات في هذا العدد من تقييمات تأمليـة لأدوارهن باعتبارهـن باحثات هادفات إلى إنتـاج معرفة إمبيريقية وباعتبارهن نسـويات صاحبات قيم ورؤى سياسية. وقد تم تناول بعض تلك المساهمات في هذا الفصل من الكتاب.

3- بالرغم من الانقسام الكمي/الكيفي الذي يكثر الجدل حوله في أدبيات المنهجيات النسوية، فإن داينا دن وديفيد والر (Dana Dunn and David Waller, 2000) وجدا أن من بين مجموع 1826 مقالا ذا محتوى يتناول قضايا النوع، منشـورا في الفترة من 1984 إلى 1993، فإن نسـبة 93 % منها تعتمد على مادة كمية.ومن بين ما مجموعه 544 مقالا نسـويا تتناول قضايا النوع، نسـبة 83 % منها تعتمد على مادة كمية. وهكذا فإن مناهج البحث الكمية ما زالت تمثل المسـاحة السائدة لبناء ونشر المعرفة المتصلة بقضايا النوع والتوجه النسوي. ومن اللافت للانتباه أن عددا أكبر من المقالات كان يتصدره اسم باحث رجل مقارنة بأسماء الباحثات.

4- فعلى سـبيل المثال نجد أن مارجريت أيكلر وجين لابوينت في كتابهما "حول معالجة الجنسـين في البحث" (Margrit Eichler, Jeanne Lapointe, On the Treatment of the Sexes in Research, 1985) قدمتا إرشادات محددة ودقيقة لمعايير البحث الاستطلاعي لتضمين عنصر النوع وتجنب التحيز الذكوري.

5- وفي ذلك تشـير مارجوري ديفولت قائلة إن "من المقاربات الشـائعة في الدراسـات الكمية النسـوية مقاربة تتضمـن تصحيـح التحيزات القائمة على أسـاس النوع وغيرها مـن التحيزات الثقافية القائمة في الممارسـات المعتادة". وهي مقاربات تخدم الأهداف النسـوية، وذلك على سبيل المثال من خلال الإشارة إلى الطرق العديدة التي تقوم عبرها تقنيات البحوث الاسـتطلاعية المعتادة بترسـيخ افتراضات غير ملحوظة بشأن النوع والثقافة. وقد بدأ المتعاملون والمتعاملات مع البيانات الاسـتطلاعية فـي تعديل خطط البحث وعمليات التحليل بحيث يتم تقليل والتخلص من مصادر التحيز تلك" (Marjorie DeVault, 1996, p. 36)

6- تستشـهد جانيت سـالتزمان تشافيتز بالعديد من الأسـئلة التي أسهمت بها كل النسويات في تخصصاتهن عبر

نقد الجهود العلمية التقليدية، باعتبار ذلك من المساحات التي يجب على النسويات الإمبيريقيات طرقها. وترى أنه ليس من الكافي الاقتصار على النقد، وبناء نظريات ومفاهيم ومتغيرات جديدة، بل يتعين على الباحثات النسويات العمل من أجل الإجابة على الأسئلة التي يطرحنها في مجالات تخصصاتهن. وتعليقا على مفاهيم مثل الأبوية، والتحيز الجنسي، والعرق/الطبقة/النوع، تقول: "حسب علمي، لم يتطرق أحد لتلك المهمة الصعبة وبالغة الأهمية، للقيام بدراسة إمبيريقية للتعرف على مجموع المتغيرات الأكثر أهمية في الحفاظ على (أو تغيير) أنظمة عدم المساواة على أساس النوع، وللتعرف على أيها يشكل بنى مستقلة وأيها بنى متداخلة؟" (Janet Saltzman Chafetz, 1990, p. 13)

7- على الرغم من عدم كونها نسوية إمبيريقية في كتاباتها الحالية، فإن هيلين لونجينو توضح إمكانات إثراء وتعقيد عملية إنتاج المعرفة من خلال علوم أكثر موضوعية، حيث يأخذ الباحث أو الباحثة في الاعتبار السياق السياسي للباحث أو الباحثة نفسيهما. وتقول:

ما أطرحه هنا هو أن الممارسة العلمية النسوية تعترف بالاعتبارات السياسية كقيود على النشاط العقلي، بحيث تعمل على تشكيل المحتوى تبعا لتأثيرها على النشاط العقلي والتأويل. وفي هذه الحالة تحديدا تعمل تلك الاعتبارات مع الظواهر على دعم نموذج تفسيري يقوم على قدر كبير من التفاعل والتعقيد. (Helen Longino, 1990, p. 193)

إن أخذ السياق المعقد لعملية البحث في الاعتبار لا يقع على مسؤولية الباحث أو الباحثة فقط، وإنما تمضي هيلين لونجينو مطالبة بتولي قراء المعرفة قدرا من المسؤولية في عملية التعلم والتواصل العلمي، حيث:

تتمثل الخطوة الأولى في التخلي عن الفكرة القائلة بأن الفحص الدقيق للبيانات يولد شبكة من المعرفة. أما الخطوة الثانية فتتمثل في التفكير الدقيق في مجال ما مع محاولة فهم الافتراضات الأساسية الكامنة وكيفية تأثيرها في مسار البحث. كما أن اكتساب قدر من المعرفة بتاريخ ذلك المجال العلمي هو أمر ضروري لتلك العملية وهو ما ينطبق بالمثل على مواصلة الحوار مع النسويات الأخريات. (Helen Longino, 1990, p. 193)

8- تشير ماريان جاناك إلى أن:

الصلة بين الموضوعية والحقيقة هي أداة مهمة لعمل النسويات وغيرهن من المشروعات التحررية، إلا أن أوجه فشل الموضوعية ليست على الدوام أو مجرد أوجه فشل معرفي. إن القول باستمرار وجود تحيز جنسي في العالم هو أمر لا يمكن أن ينكره سوى شخص عاجز عن الموضوعية، وهو عجز أو فشل ذو وجهين اثنين مختلفين ومنفصلين. فهو فشل إبستمي (epistemic) معرفي من حيث ما يتضمنه من تجاهل مقصود لأدلة واضحة تماما. ... كما أنه نموذج لنظرية أو ادعاء يفشل في التوافق مع الحقائق. (Marianne Jamack, 2002, p. 268)

المراجع

Bingham, Shereen G. (Ed.). (1994). *Conceptualizing sexual harassment as discursive practice*. Westport, CT: Praeger.

Campbell, Richmond. (1994). The virtues of feminist empiricism. *Hypatia, 9*(1), 90–115.

Chafetz, Janet Saltzman. (1990, August). *Some thoughts by an "unrepentant positivist" who considers herself a feminist nonetheless*. Paper presented at the 85th Annual Meeting of the American Sociological Association, Washington, DC.

Conkey, Margaret. (2003). Has feminism changed archaeology? *Signs, 28*(3), 867–880.

Connell, Noreen, & Wilson, Cassandra (Eds.). (1974). *Rape: The first sourcebook for women*. New York: New American Library.

DeVault, Marjorie. (1996). Talking back to sociology: Distinctive contributions of feminist methodology. *Annual Review of Sociology, 22*, 29–50.

Dunn, Dana, & Waller, David V. (2000). The methodological inclinations of gender scholarship in mainstream sociology journals. *Sociological Spectrum, 20*(2), 239–257.

Eichler, Margrit, & Lapointe, Jeanne. (1985). *On the treatment of the sexes in research*. Ottawa, Ontario, Canada: Social Sciences and Humanities Research Council of Canada.

Farley, Lin. (1978). *Sexual shakedown: The sexual harassment of women on the job*. New York: McGraw-Hill.

Goldman, Alvin. (1999). *Knowledge in a social world*. Oxford, UK: Oxford University Press.

Griffin, Christine, & Phoenix, Ann. (1994). The relationship between qualitative and quantitative research: Lessons from feminist psychology. *Journal of Community & Applied Social Psychology, 4*(4), 287–298.

Guba, Egon G., & Lincoln, Yvonna S. (1994). Competing paradigms in qualitative research. In Norman Denzin & Yvonna S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 105–117). Thousand Oaks, CA: Sage.

Halpin, Zuleyma Tang. (1989). Scientific objectivity and the concept of "the other." *Women's Studies International Forum, 12*(3), 285–294.

Harding, Sandra. (1991). *Whose science? Whose knowledge? Thinking from women's lives*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Harding, Sandra. (1992). After the neutrality ideal: Science, politics, and "strong objectivity. *Social Research, 59*(3), 567–587.

Harding, Sandra. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In Linda Alcoff & Elizabeth Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49–82). New York: Routledge.

Hotelling, Kathy, & Zuber, Barbara A. (1997). Feminist issues in sexual harassment. In William O'Donohue (Ed.), *Sexual harassment: Theory, research and treatment* (pp. 99–111). Boston: Allyn & Bacon.

Janack, Marianne. (2002). Dilemmas of objectivity. *Social Epistemology, 16*(3), 267–281.

Jayaratne, Toby Epstein. (1983). The value of quantitative methodology for feminist research. In Gloria Bowles & Renate Duelli Klein (Eds.), *Theories of Women's Studies* (pp. 140–161). Boston: Routledge & Kegan Paul.

Keller, Evelyn Fox. (1985). *Reflections on gender and science.* New Haven, CT: Yale University Press.

Longino, Helen E. (1990). *Science as social knowledge: Values and objectivity in scientific inquiry.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Martin, Emily. (1999). The egg and the sperm: How science has constructed a romance based on stereotypical male-female roles. In Sharlene Hesse-Biber et al. (Eds.), *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader* (pp. 15–28). Oxford, UK: Oxford University Press.

McCormick, Kim M., & Bunting, Sheila M. (2002). Application of feminist theory in nursing research: The case of women and cardiovascular disease. *Health Care for Women International, 23,* 820–834.

Medea, Andra, & Thompson, Kathleen. (1974). *Against rape; a survival manual for women: How to avoid entrapment and how to cope with rape physically and emotionally.* New York: Farrar, Straus, & Giroux.

Ramazanoglu, Caroline (with Holland, Janet). (2002). *Feminist methodology: Challenges and choices.* London: Sage.

Russell, Diana, E. H. (1975). *The politics of rape: The victims' perspective.* New York: Stein & Day. (Reprinted by iUniverse, On-Demand Book Service, New York, 2003. Available at Backinprint.com)

Russell, Diana. E. H. (1984). *Sexual exploitation: Rape, child sexual abuse, and workplace harassment* (8th printing). Newbury Park, CA: Sage.

Russell, Diana. E. H., & Bolen, Rebecca M. (2000). *The epidemic of rape and child sexual abuse in the United States.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Schiebinger, Londa. (2003). Introduction: Feminism inside the sciences. *Signs, 28*(3), 859–886.

Spalter-Roth, Roberta, & Hartmann, Heidi. (1999). Small happiness: The feminist struggle to integrate social research with social activism. In Sharlene Hesse-Biber et al. (Eds.), *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader* (pp. 333–347). New York: Oxford University Press.

Stockard, Jean, & Johnson, Miriam M. (1992). *Sex and gender in society.* Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.

Unger, Rhoda Kesler. (1979). Toward a redefinition of sex and gender. *American Psychologist, 34*(11), 1085–1094.

Weasel, Lisa. (2001). Dismantling the self/other dichotomy in science: Towards a feminist model of the immune system. *Hypatia, 16*(1), 27–44.

الفصل الثالث

إبستمولوجيا الموقعية النسوية
بناء المعرفة والتمكين من خلال
تجارب حياة النساء

أبيجيل بروكس

لقد . . . سعيت مخلصة لتقديم حكاية صادقة وعادلة عن حياتي في العبودية . . . وأن أقترب منكم كما أنا باعتباري مجرد أم عبدة فقيرة – وأنا لا أحكي ما سمعته بل ما رأيته بنفسي– وما عانيته[1].

(Jacobs، 1861/1987، p. 242)

هذه كلمات هارييت جاكوبس التي تولت توثيق سنوات عمرها، التي قضتها عبدة في الجنوب الأمريكي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد اتخذت هذا القرار بعد هروبها ثم حصولها في نهاية الأمر على حريتها. وهي إذ انطلقت في حديثها من موقع الخبرة الشخصية المباشرة، فقد ملأ كلماتها الصمت والجهل المنتشران بشأن أوضاع العبيد من النساء، كما واجهت الكثير من المفاهيم المغلوطة السائدة حينذاك عن العبدات. وقد جاء هدف هارييت جاكوبس الساعي إلى تعريف سكان شمال الولايات المتحدة الأمريكية بقسوة وظلم العبودية، ومعاناة العبيد من جنس النساء من العبودية، فمنحها هدفها هذا الشجاعة والقوة والحافز اللازم لتحكي حكايتها. فقد جرؤت على امتلاك الأمل في أن قيامها بمشاركة الآخرين في قصة حياتها كامرأة عبدة، وأن اعتمادها على ما شهدته وعايشته هي نفسها، سيتيح لها فرصة إقناع أهل الشمال بالحقائق الوحشية المتعلقة بالعبودية. وكما تقول هارييت جاكوبس نفسها:

لم أسجل تجاربي من أجل شد الانتباه إلى نفسي، بل على النقيض كان

> الأسـعد بالنسبة لي هو الصمت عن الحديث عن تاريخي الشخصي. كما لا يهمني اسـتثارة العطف تجاه أوجه معاناتي. ولكني أرغب بشدة في إثارة نساء الشـمال نحو الإحساس والإدراك لأوضـاع مليونين من النساء في الجنـوب، ما زلن في براثـن العبودية يعانين ممـا عانيته، بل ومعظمهن في حالة أكثر سـوءا مما كنت عليه. وأود أن أضيف شهادتي إلى من أقدر منـي تعبيرا بالكتابة وذلك لإقناع أهل الولايـات الحرة بالعبودية كما هي في الواقـع. إن التجربـة وحدها هـي التي تجعل المرء قـادرا على إدراك مـدى عمق، ومدى حلكة، ومدى سـوء هاوية ذلـك العذاب (abomi-nations). فلتحـل بركة الرب على هـذا الجهد القاصر، وذلك نيابة عن شعبي المضطهد! (Harriet Jacobs، 1861/1987، p. 1-2)

وقد نجحت هارييت جاكوبس في إثارة الوعي لدى نسـاء الشـمال من خلال كشفها عن الاسـتغلال الشديد والألم الجسدي والقلق الذهني الذي أجبرت على احتماله لكونها عبدة، بما في ذلك سـنوات من التحرش الجنسي الذي مارسه مالكها، الدكتور فلينت. إن ذلك الوعي المتنامـي الناجم عما كتبته هارييت جاكوبس عن فظائع العبودية، وعن العنف النفسـي والجسدي الذي تتحمله تحديدا النسـاء من العبيد، قد ألهم في نهاية الأمر نساء الشمال البيض لمواجهة العبودية وأسهم في تنامي حركة مقاومة العبودية في الشمال الأمريكي.

لقد عاشـت هارييت جاكوبس ومارست الكتابة منذ حوالي 150 عاما، إلا أننا نتوجه إليها طلبا للمشـورة والتوجيه إذ نسـتهل مناقشـتنا حـول المقاربات النسـوية المعاصرة للبحث وبناء المعرفة. فلماذا؟ ذلك أن قصـة حياة هارييت جاكوبس -والاستراتيجيات التـي طبقتها والأهداف التي أمّلت في تحقيقها من خلال قصـها علينا- تتماشـى جدا مع مشروع البحث النسـوي ومساره الحالي. فمن خلال روايتها لتجاربها الشخصية كفتاة عبـدة، فتحت هارييت جاكوبس أعين الناس على ما سـبق أن كان مسـكوتا عنه وغير

معروف، أي ماهية الحياة بالنسبة لامرأة من العبيد. وباعتبارها رواية عن العبودية صادرة مباشرة عن منظور نسائي، قدمت حكايتها رؤى جديدة وعميقة لمدى وحشية مؤسسة العبودية، كما ساعدت على تدعيم (galvanize) النقد والمقاومة العامة تجاه تلك المؤسسة. كذلك فإن الكثير من الدراسات والأبحاث النسوية المعاصرة تسعى إلى منح حيوات النساء صوتا بعد طول إسكات وتجاهل، مع الكشف عن المعرفة الخفية الكامنة داخل تجارب النساء، وتحقيق التضامن النسائي والتغيير الاجتماعي. ويأتي هذا الفصل مركزا على فرع من الدراسات والأبحاث النسوية قام وتأسس على قاعدة من تلك الأهداف كما يحافظ على الالتزام القائم نحو تحقيقها، أي إبستمولوجيا الموقعية النسوية (feminist standpoint epistemology).

إن إبستمولوجيا الموقعية النسوية هي نوع فريد من فلسفة بناء المعرفة التي تتحدانا في سبيل: 1) رؤية وفهم العالم عبر عيون وتجارب النساء المقهورات، 2) تطبيق رؤية ومعرفة النساء المقهورات على العمل الاجتماعي والتغير الاجتماعي. وتتطلب إبستمولوجيا الموقعية النسوية التحام المعرفة بالممارسة، فهي تجمع بين كونها نظرية لبناء المعرفة ومنهجا للبحث - أي مدخل لبناء المعرفة ودعوة للفعل السياسي.

- ولكن كيف نقوم فعلا بدمج إطار الموقعية النسوي في ممارساتنا البحثية؟
- ما هي بعض تلك الرؤى ووجهات النظر التي تكشفها تجارب حياة النساء بشأن العالم الاجتماعي الأوسع؟
- كيف نقوم بترجمة ما نتعلمه من حيوات النساء اليومية، ومن مواقع القهر المختلفة التي تسكنها النساء في المجتمع، وننقله إلى مجال الفعل السياسي والاجتماعي؟

إن تلك الأسئلة سترشدنا في تتبعنا أدناه لتطور إبستمولوحيا الموقعية النسوية، منذ نشأتها انتهاء بتطوراتها المستمرة.

بناء معرفة جديدة من واقع تجارب النساء

في الوقت الذي تم فيه الاعتراف وتسجيل حياة الآلاف من الرجال على مدار قرون وعبر الثقافات، فإن قصص حياة النساء لم توثق إلا قليلا بل وتعرضت للنسيان. وكما تقول جويس ماكارل نيلسون، فإن ثقافة النساء وتاريخهن وحيواتهن ظلت "تحت الأرض وغير مرئية"، وتمت تنحيتها "أسفل" ثقافة الرجال وتاريخهم وحيواتهم (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 10). وقد شرعت النساء، بداية من أواخر الستينيات وخلال السبعينيات من القرن العشرين، ونتيجة لجهود رفع الوعي النسوي داخل وخارج المجال الأكاديمي، بالبدء في جذب الانتباه إلى ما تم من حذف واستبعاد لأصواتهن وتجاربهن في مجالات متعددة: السياسة، والسياسات العامة، ومهن القانون والطب وإدارة الأعمال، وفي تخصصات العلوم والعلوم الاجتماعية والإنسانيات على سبيل المثال لا الحصر. ففي فصول علم الاجتماع، على سبيل المثال، بدأت الطالبات في التعبير عن إحباطهن من أن النظريات والمفاهيم السائدة والمتمحورة حول الرجال، والتي كان يتم تدريسها، لم تأخذ تجاربهن كنساء في الاعتبار. وطبقا لعالمة الاجتماع النسوية دوروثي سميث، فإن نظريات ومناهج علم الاجتماع التي كان يتم تدريسها لم تطبق "ما يحدث" تبعا "لتجارب" الطالبات (Dorothy Smith، 1987، p. 86). وقد أدى وعي النساء المتنامي بالتناقض القائم بين تجارب حياتهن المعيشة وبين الأبحاث والأطر النظرية التي يدرسنها، مع فشل تلك الدراسات والأطر في تصوير حياتهن تصويرا دقيقا، بما ألهمهن لإقامة نماذج جديدة لبناء المعرفة. وهي نماذج جديدة أو "طرق تفكير بديلة" أخذت تتطور بأيدي النساء ومن أجل النساء، وذلك بهدف ضمان تقديم تعبير وتمثيل أصلي لحيوات النساء. ومن تلك النماذج البديلة لبناء المعرفة هو ما عرف فيما بعد بمسمى إبستمولوجيا الموقعية النسوية.

وتتطلب إبستمولوجيا الموقعية النسوية منا وضع النساء في مركز مسار البحث: أي أن توفر تجارب النساء الملموسة نقطة الانطلاق لبناء المعرفة. ومثلما نجد أن واقع

حياة النســاء العبدات لم يظهر إلى النور سوى من خلال تجربة حياة هارييت جاكوبس الفعلية في العبودية، فكذلك نجد باحثات الموقعية النسوية يؤكدن ضرورة البدء بحيوات النساء، تبعا لمعايشتهن الشخصية لها، في سبيل التوصل إلى فهم دقيق وأصلي لماهية حياة نســاء اليوم. إن بناء المعرفة من واقع تجارب حياة النســاء الفعلية أو الملموســة هو أمر تراه باحثات الموقعية النســوية أمرا بالغ الأهمية إذا كنا نأمل في معالجة الخطأ في التوجه التاريخي القائم على ســوء تمثيل النســاء وإقصــائهن عن مجــالات (canons) المعرفة الســائدة. إن جعل تجارب حياة النساء الملموسة مصدرا أوليا لأبحاثنا هو السبيل الوحيد لنجاحنا في بناء معرفة تعكس وتمثل النســاء بشــكل دقيق. وفي ذلك ترى باحثة الموقعية النســوية باتريشا هيل كولينز أنه عند ادعاء المعرفة في الحديث عن النساء يجب علينا أن نتذكر دائما أن "التجارب الملموســة" للنساء هي التي تقدم "معيار المصداقية" الأكبر في ادعاءات المعرفة تلــك (Patricia Hill Collins، 1990، p. 209). ولكن ما الذي نعنيه تحديدا بتجارب النســاء الملموســة؟ وكيف تقوم الباحثات النســويات بالكشف عن تجارب النســاء الملموسة؟ وما الذي يمكننا ان نتعلمه من تلك التجارب؟ فلننتقل الآن إلى بعض الأمثلة.

تتكون تجارب النســاء الملموســة من ما تفعله النســاء، وهي نطاق الأنشطة الواسعة والمختلفــة التي تنخرط فيها النســاء كجزء من حيواتهــن اليومية. فمن مجالات حيوات النســاء والتــي لم تكن تلقى ســوى القليل من الاهتمــام البحثي وضــعف القيمة، والتي تواصــل الباحثات النســويات إلقاء الضــوء عليها، هي الكم اللانهائي من مهام الرعاية والعنايــة، من الطهي والتنظيف ورعاية الأسر (DeVault، 1991)، مرورا برعاية أطفالهــن وأطفال الغير (Collins، 1990)، ورعايــة أطفالهن عن بعد (Hondag-neu-Sotelo & Avila، 1997)، هي أمثلة على تجارب النســاء الملموســة. كذلك، وانطلاقا من تلك التجارب الملموسة، اكتسبت النساء معرفة معينة ومجموعة فريدة من المهارات المتنوعة.

وفي سبيل إلقاء الضوء على حيوات وتجارب النساء المقهورات، وللكشف عن معارف ومهارات النساء الكامنة و/أو غير المعترف بقيمتها الحقيقية، كثيرا ما نجد الباحثات النسويات يستخدمن مناهج البحث استخداما جديدا، ويطورن استراتيجيات بحث بديلة، بل ويقمن ببناء تقنيات منهجية جديدة تماما[2]. فعلى سبيل المثال، وجدت مارجوري دي فولت (Marjorie DeVault, 1990, 1991) في بحثها حول تجارب النساء في التسوق والتخطيط وإعداد وطهي الطعام لأسرهن أن مجرد طرح الأسئلة والإنصات إلى الإجابات لم يكن كافيا. ففي كثير من الحالات لم يكن قد سبق لكثير من هؤلاء النساء أن أتيحت لهن فرصة الحديث عن أنشطة حياتهن اليومية لشخص ما مهتم بالأمر، وبالتالي واجهن صعوبة في نقل أفكارهن ومشاعرهن بشأن أنشطة حياتهن اليومية إلى كلمات. وقد تجاوزت مارجوري دي فولت (DeVault, 1990, 1991) شكل المقابلة التقليدية متبنية ما أطلقت عليه كاثرين أندرسون ودانا جاك (Kathryn Anderson and Dana Jack, 1991) مسمى "المدخل التفاعلي" (interactive approach). فقد عملت بالاشتراك مع مجموعة المستجيبات في البحث على "المشاركة في صياغة" كلمات جديدة تعكس بدقة تجاربهن وأفكارهن ومشاعرهن.

ويقوم بحث مارجوري دي فولت (DeVault, 1991) بتوثيق المهارات التنظيمية والتنسيقية التي اكتسبتها وطورتها النساء جراء قيامهن بالتخطيط والإعداد وطهي الطعام لأعضاء أسرهن. وتؤكد باحثة الموقعية النسوية، أليسون جاجار (Alison Jaggar, 1997)، أن النساء ومن خلال ممارساتهن المستمرة كراعيات ومعتنيات بالآخرين، قد اكتسبن مهارة خاصة في التعبير عن العواطف وقراءة المشاعر، وهي مهارة مهمة لما تقوم به المشاعر من وظائف عديدة أساسية: "فالعاطفة ضرورية من أجل بقاء الإنسانية، والعواطف هي التي تدفعنا للقيام بالفعل المناسب، والاقتراب من بعض الناس والمواقف وتجنب أناس آخرين ومواقف أخرى، والمداعبة أو الاحتضان، والهروب أو الفرار. فلا يمكننا تصور حياة بشرية بلا عواطف" (Jaggar, 1997, pp. 190, 192).

ويكشف البحث الذي قامت به باتريشا هيل كولينز عن مهارة النساء الأفروأمريكيات في بناء الجماعة، وهي مهارة اكتسبنها من دورهن الفريد في رعاية أطفال الأسرة الممتدة والصديقات والجيران. فمن خلال القيام بدور الرعاية التي تسميها الباحثة "الأمومة الأخرى" (other mothering) -أي المساعدة في ملء الفراغ الناجم عن عدم القدرة المادية على الاستعانة بمؤسسات رعاية الأطفال، والصعوبات الاقتصادية، والتعب الذي يصيب الأمهات اللاتي يرعين أطفال غير أطفالهن- فإن هؤلاء "الأمهات الأخريات" اللاتي يعرفهن ويثق فيهن الكثير قد يلعبن دورا مهما في الجمع بين أعضاء المجتمع وفي توجيه مسار المجتمع إلى الأمام. وبالإضافة إلى "الأمومة الأخرى"، هنالك شكل آخر مستجد من الأمومة، وهو "الأمومة عبر الحدود" بما يعكسه من تمتع النساء بمهارات محددة. إذ نكتشف من البحث الذي قامت به هونداجنو-سوتيلو وأفيلا (Hondagneu-Sotelo and Avila، 1997) وجود أمهات من أمريكا اللاتينية ممن يعشن ويعملن في الولايات المتحدة الأمريكية لتوفير الدعم المادي لأطفالهن، مع انفصالهن عن أطفالهن الباقين في أمريكا اللاتينية ومع ما يتعرضن هن أنفسهن له من مخاطر. فنجدهن يرسلن معظم دخلهن إلى أرض الوطن لضمان رفاهية أطفالهن، إذ تغطي تلك الأموال تكاليف طعام وملابس والنفقات الطبية ومصاريف التعليم المدرسي لأطفالهن. وقد قامت هؤلاء الأمهات في هذا الصدد باكتساب مهارات رعاية وعناية جديدة تقع خارج الدور التقليدي للأم في توفير الدعم العاطفي. فعلى الرغم من قيام هؤلاء الأمهات بتقديم الدعم العاطفي لأطفالهن عبر الاتصالات الهاتفية والمراسلات، فإن أسلوبهن الأساسي في الدعم أصبح هو الدعم المادي الذي كان هو أسلوب الدعم التقليدي الذي يختص الأب بتقديمه لأطفاله.

إن جعل تجارب النساء الملموسة هي "مدخل" البحث والدراسة والكشف عن النطاق المتسع من المعرفة الجديدة الكامنة في تجارب النساء هو ما بدأت باحثات الموقعية النسوية في استخدامه لملء الفراغ القائم حول النساء في العديد من التخصصات. إلا أن ضمان

فرصــة التعبير الأصلي عن تجارب النساء والتعبير عن المعرفة التي اكتسبتها النساء من تلك التجارب ليس هو الهدف الوحيد لإبســتمولوجيا الموقعية النسوية، التي تعمل كذلك على دفعنا إلى دراسة المجتمع دراسة نقدية من منظور النساء.

- فما الذي نتعلمه من تجارب النساء فيما يتعلق بوظائف المجتمع ككل؟
- وهل تقدم لنا تجارب النساء، والمعرفة المستقاة من تلك التجارب، رؤى وأفكارا فريدة عن العالم المحيط بنا؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف يحدث ذلك؟

فهم المجتمع عبر منظور تجارب النساء

إن باحثات الموقعية النســوية، مثلهن مثل هارييــت جاكوبس التي دفعت قراءها إلى تقييم مؤسســة العبودية من خلال نظرتها هي كفتاة عبدة، يعملن هن أيضا على تشجيعنا على استخدام تجارب النساء كعدسة نتدارس عبرها المجتمع بأكمله. وبالعودة إلى البحث الذي قامت به باتريشــا هيل كولينــز (Patricia Hill Collins، 1990) حول أمومة النســاء الأفروأمريكيات لتوضيح تلك النقطة، فإننا نجد الباحثة تكشف لنا بقدر مهم عن جانب لم تســبق دراسته إلا قليلا بشأن الحياة اليومية للنساء الأفروأمريكيات فيما عرف بمســمى الأمومة الأخرى (other mothering)، وهي ممارســة تقوم خلالها النساء برعاية أطفال صــديقاتهن والجيران وأعضــاء العائلة ممن تمارس أمهاتهم الطبيعيات (biological mothers) العمل خارج البيت. وتلقي باتريشا هيل كولينز الضوء على ممارســة الأمومة الأخرى باعتبارها مؤشرا على ما تتمتع به النساء الأوفروأمريكيات من قدرات، فهي مهارة فريدة ومفيدة قامت النساء بتطويرها بواسطة النساء ومن أجل النســاء. إلا أنه في الوقت نفســه، وكما تشير باتريشــا هيل كولينز، فإن تجارب النساء اليومية في ممارسة الأمومة الأخرى، واعتمادهن عليها، إنما يسلط ضوءا على قضايا

اجتماعية واقتصـــادية أشـمل، أي عـدم توفر دور رعاية الأطفال التي تتسـم بالجودة والتــي تكون في متناول اليد ماديا في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك الصــعوبات التي تواجهها الكثيرات من الأمهات الفقيرات.

وتقدم لنا الدراسة التي قامت بها أليسون جاجار (Alison Jaggar, 1997) نموذجا آخر لتجارب الحياة اليومية للنساء وما يصاحبها من معرفة من حيث كونها تتيح أداة مفيدة نحو فهم العالم في إطاره الاجتماعي الواسع. فحينما تنخرط النساء في الأعمال المنزلية اليومية ويخضــعن للأدوار المفروضــة عليهن اجتماعيــا، ومنها دور الرعايــة، فنجدهن ينمين مجموعة فريدة من الخبرات التي تتماشى مع تلك الأعمال المنزلية والأدوار الاجتماعية. وتقوم أليســون جاجار بتحديد مفهوم "الفطنة العاطفية" (emotional acumen) بوصفها قدرة حدسية فريدة على قراءة وتفسير الألم والعواطف الخفية مع فهم أصل تلك العواطف، وتعتبر الفطنة العاطفية واحدة من مجموعة الخبرات الفريدة التي تتمتع بها النساء (Alison Jaggar, 1997, p. 192). إلا أن استخدام فطنة النساء العاطفية لا يقتصر على مجالي البيت والأسرة، بل تؤكد أليسون جاجار على أنه في حالة امتدادها خارج هذا النطاق وتطبيقها علــى العالم الاجتماعي يمكــن للفطنة العاطفية أن تقوم بوظائــف حيوية عديدة. إذ يمكن لفطنة النســاء العاطفية أن تســاعد على "تحفيز مدارك جديدة" في مجالات علم الاجتماع والفلســفة، كما يمكنها أن تولد حزمة جديدة من "أدوات العلاج النفسي" في مجال الطب النفسي (Jaggar, 1997, p. 192). ولعل أكثر إمكانيات تطبيق الفطنة العاطفية تأثيرا تتمثل في التحليل السياســي والمحاســبة. ونظرا إلى أن الفطنة العاطفية تمكن النساء من التكيف بسرعة مع مواقف "القســوة أو الظلم أو الخطر"، فيمكن لتلك الفطنة العاطفية أن تتحول إلى وسيلة فعالة لكشف صور الظلم السياسي والاجتماعي، فمن خلال تقديم "مؤشر أولي بوجود خطأ ما في كيفية تشكيل الوقائع المفترضة، مع وجود تفهم مقبول لمجريات الأمور" يمكن للفطنة العاطفية أن تقوي النســاء وتمكنهن من صياغة "ملاحظات تقويضية تواجه التصورات السائدة التي يفرضها الوضع القائم" (Jaggar, 1997, p. 191).

وتقوم كل من أليسون جاجار وباتريشا هيل كولينز (Alison Jaggar، 1997 and Patricia Hill Collins 1990)، في دراستيهما بتوضيح كيف يمكن الاستعانة بتجارب النساء وما يتولد عنها من معرفة واستخدامها كوسيلة للفت الانتباه إلى أشكال عدم المساواة والظلم القائم في المجتمع ككل. وفي الواقع فإننا حين نتفهم المجتمع عبر منظور تجارب النساء -ولنقل على سبيل المثال أن ننظر بعيون الأمومة الأخرى التي تمارسها النساء الأفروأمريكيات - فإننا عندئذ نكون قد خطونا الخطوة الأولى نحو تشكيل موقعية نسوية. فالموقعية النسوية هي طريقة لفهم العالم، ووجهة نظر بشأن الواقع الاجتماعي، وتنطلق من تجارب النساء. أما الخطوة الثانية فتقوم على البناء على ما نتعلمه من تجارب النساء، أي تطبيق تلك الموقعية النسوية نحو تحسين أوضاع النساء وتحقيق التغيير الاجتماعي. إن تجارب النساء لا تقتصر على توجيهنا للتعرف على العيوب القائمة في الأنظمة السياسية والاقتصادية، وإنما تقدم لنا أيضا حلولا ممكنة للتغلب على تلك العيوب. وفي ذلك تقول أليسون جاجار موضحة أنه نظرا إلى أن تجارب النساء والموقعيات النسوية الناشئة عنها تقدم لنا فهما عميقا لـ"آليات السيطرة" فإنها تساعدنا أيضا على "تصور أساليب حياة أكثر حرية" (Jagger، 1997، p. 193).

تجارب النساء باعتبارها خارطة للتغيير الاجتماعي

إن حكاية هارييت جاكوبس (Harriet Jacobs، 1861/1987) الشخصية عن تجربتها مع الاعتداء والاستغلال الجنسي الذي اضطرت إلى تحمله بوصفها امرأة من العبيد أضفت دفعة على النشاط المناهض للعبودية في شمال الولايات المتحدة الأمريكية. فعند تعرف الناس على تجربة هارييت جاكوبس أدرك الناس طبيعة مؤسسة العبودية ككل وذلك كما تراها وبعيون نساء من العبيد، أي من موقعية النساء العبيد. إن موقعية النساء العبيد -ومع ما كشفت عنه من معرفة وفهم للعبودية- كانت نقطة انطلاق قوية،

أو موقعا يتم منه النضـال ضـد تلك المؤسسـة الوحشـية. كذلك فمع منح مساحة للتعبير الصـادق عن تجارب النسـاء المعاصرات مع القهر يسـعى البحث القائـم على الموقعية النسـوية إلى إثارة المقاومة ضـد تلك التجارب الخاصـة بالقهر، وفرض حلول للتغلب عليها. فتجارب النساء الأفروأمريكيات مع الأمومة الأخرى تعلمنا أن النظام الرأسمالي برمته يعجز عن توفير الدعم المناسـب للأمهات العاملات الفقيرات. إضـافة إلى ذلك، فإننا حين نتأمل النظام الرأسمالي من موقعية الأفروأمريكيات اللاتي يمارسن الأمومة الأخرى تتكشف أمامنا لا أوجه قصور النظام الرأسمالي فحسب، بل وأيضا الحاجة إلى التغيير وطرح حلول جديدة مثل دور رعاية الأطفال التي تتصف بالجودة وفي متناول يد الجميع ماديا. وفي الواقع فإن عملية تمكين النساء من التعبير عن تجاربهن مع القهر كثيرا ما تؤدي إلى رفع الوعي بين النسـاء وغيرهن بشـأن الصـعوبات التي تواجهها مختلف النساء، كما تمثل مصدرا ملهما للحركة نحو التغيير. ولننتقل الآن إلى المزيد من الأمثلة على ذلك.

في كتابهـا عن "السـحر الأنثوي" تحدثـت بيتي فريـدان (Betty Friedan، The Feminine Mystique، 1963)، عـن طبيعة حياة ربة البيت (البيضـاء) من الطبقة الوسـطى في منتصـف القرن العشرين بأمريكا. وانطلاقا من تجربتها الذاتية وتجارب الكثيرات من نساء الطبقة الوسطى قامت بيتي فريدان بمواجهة التصورات السائدة عن ربات البيوت الأمريكيات حينذاك، فقد تجاوزت المؤلفة الصور الإعلامية والصحافية المرحة لربـات البيوت وهن يدفعن بالمكانس الكهربائية ويقمن بغسـل الملابس ويعبرن عن بهجتهن بثلاجاتهن الجديدة، وكشفت عن مشاعر عدم الرضا والتململ السائدة بين هؤلاء النساء. فقد وجدت بيتي فريدان أن الكثيرات من النساء يعانين من الملل والوحدة ويواجهن الإحباط من حياتهن اليومية. وحينما كانت تسـعى النسـاء طلبا للمساعدة في محاولة التغلب على تلك المشـاعر التعيسة، كثيرا ما كان ينتهي بهن الأمر بلوم أنفسهن: "عندما كانت امرأة ما تذهب إلى طبيب نفسي طلبا للعون، وهو ما لجأت إليه الكثيرات،

كانت تقول لنفسها "كم أشعر بالخجل!" أو "أكيد أني مصابة بحالة اضطراب عصبي ميئوس منها" (Friedan، 1963، p. 389). فقد تم تربية النساء على الطموح للقيام بدور ربة البيت: حيث إن الخضوع لدور ربة البيت يفترض أن يحقق لهن قمة السعادة والرضا، ومن هنا كانت المرأة التي لا تشعر بالسعادة والتحقق في دورها كربة بيت تعيش نهبا لمشاعر القلق متسائلة: "هل أعاني من عيب ما؟"

ولكن انتهى الأمر بأن صناعة الطب النفسي الذكورية نفسها بدأت تشك في أن تعاسة النساء ترجع فقط إلى عوامل فردية أو نفسية، فقد انتشرت المشكلة انتشارا بالغا، إذ تخبرنا بيتي فريدان "إن طبيبا نفسيا من أطباء ضواحي المدن تساءل منزعجا: "لست أدري ماذا دها نساء هذا العصر؟" وأضاف قائلا: "كل ما أعرفه أن هنالك خطأ ما لأن معظم مرضاي من النساء" (Friedan، 1963، p. 390). وقد أضفت بيتي فريدان مسمى على "تلك المشاعر الغريبة الملحة من عدم الرضا والشوق إلى شيء ما" والذي كانت تشعر به الكثيرات من النساء، وقد أطلقت عليه مسمى معبرا بعبارة "المشكلة التي لا اسم لها" (Friedan، 1963، p. 387). ومن خلال التعبير عن التعاسة التي عايشتها العديد من ربات البيوت الأمريكيات ساعدت بيتي فريدان النساء على إدراك أنهن غير مضطرات للمعاناة من تلك المشاعر والتغلب عليها بمفردهن، كما أن قيامها بتسمية تلك المشكلة على الملأ نجحت بيتي فريدان في إلهام النساء بالقيام بأفعال للتغلب عليها.

إن تلاقي النساء وتبادلهن الحديث عن تعاستهن ومشاعر عدم الرضا التي تنتابهن أدى إلى توقفهن عن لوم أنفسهن على العجز عن الخضوع لصورة ربة البيت السعيدة، بل بدأن في دراسة المجتمع بشكل نقدي من خلال تجاربهن الذاتية، ومواجهة الأنماط والتوقعات الاجتماعية بشأن نموذج المرأة باعتبارها ربة بيت. وعن طريق المعرفة المشتركة بحقيقة حياة ربات البيوت الأمريكيات قامت النساء بصياغة موقعية نسوية، أي منظور نقدي للواقع وموقع للوعي السياسي، يتناول بجدية مدى شرعية الرؤية

السائدة للعالم التي ترى أن المصير الطبيعي والبيولوجي للنساء يقتصر على أدوارهن كزوجات وأمهات. وفي ذلك توضح جويس مكارل نيلسن قائلة: "مع انعدام الجهد الواعي لإعادة تأويل الواقع بناء على التجارب المعاشة لكل منا -أي مع انعدام الوعي السياسي- يصبح من المتوقع أن تتقبل المستضعفات رؤية العالم السائدة في المجتمع" (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 11). وهكذا اعتمادا على الموقعية النسوية تمكنت النساء من تقييم تجاربهن بوصفهن ربات بيوت وأمهات بتأملها من منظور جديد، فاستوعبن تجاربهن في الحياة المنزلية لا باعتبارها قدرا بيولوجيا وطبيعيا محتوما، بل بوصفه دورا تم تشكيله وفرضه عليهن بواسطة المجتمع الأبوي. إن هذا الوعي المتصاعد مكن النساء من مقاومة التصورات الاجتماعية السائدة التي تحصرهن في أدوار الزوجة والأم، كما منحتهن قوة دافعة للانطلاق في طرق حياتية وعملية خارج نطاق تلك الأدوار.

ونجد أن شهادة أنيتا هيل عام 1991 عن التحرش الجنسي الذي تعرضت له من قبل وكيل النيابة آنذاك كلارنس توماس، وما أعقب تلك الشهادة من تزايد الوعي وأشكال الحماية القانونية من التحرش الجنسي في أوساط القوى العاملة، تقدم جميعها مثالا واضحا على العلاقة القوية بين منح صوت للتعبير عن تجارب النساء مع القهر وتنشيط الحراك نحو تحقيق تغيير اجتماعي. فقد عبرت أنيتا هيل في عام 1991 عن تجربتها في التعرض للتحرش الجنسي متحدثة عنها في جلسة استماع عامة عقدت أمام لجنة قضائية لمجلس الشيوخ. وقد كانت أنيتا هيل شاهدة عامة مترددة وتحدثت ببساطة ورقة، إلا أن وصفها لما تحملته من تحرش جنسي لاقى صدى لدى العديد من النساء الأمريكيات. فبعد سماع حكاية أنيتا هيل تقدمت آلاف من النساء الأمريكيات وتحدثن عن مواقف من التعدي والأذى الذي عانين منه في أماكن العمل، فنجد أن النساء اللاتي سبق أن عانين في صمت من التحرش الجنسي في العمل أخذن في التقدم بعدد غير مسبوق من شكاوى التحرش الجنسي. وتمت إعادة صياغة وتشديد قوانين التحرش الجنسي في

مجال العمل وفي الحكومة. وقد تم تسمية عام 1992، وهو العام التالي على شهادة أنيتا هيل، بمسمى "عام المرأة"، إذ شهد انتخاب عدد غير مسبوق من النساء في الكونجرس الأمريكي وهو ما يمكن إرجاعه بقدر كبير إلى "أثر أنيتا هيل" (George–Graves، 2003، p. 16).

وقد أضفت شهادة أنيتا هيل على النساء الشجاعة والقوة لصياغة نقدية للتحرش الجنسي ومحاربته. فمع تجمع النساء وتشاركهن حكايات التحرش الجنسي، لم تعد كل امرأة تعاني وحدها ولوم نفسها على ما تعرضت له من تحرش، ولم تعد النساء يعتبرن التحرش الجنسي مشكلة شخصية عليهن احتمالها ذاتيا كما توقفن عن التساؤل عما إذا كان مثل هذا التحرش هو نتيجة لقصور شخصي لديهن. بل وبناء على تجاربهن الخاصة مع التحرش الجنسي أخذت النساء في تطوير وجهة نظر وموقف جديد، أي موقعية نسوية، بشأن ثقافة مكان العمل ككل. ومع قيام النساء بدراسة مكان العمل من منظور تجاربهن الذاتية، بدأن في الكشف عن العلاقات القائمة بين التحرش الذي تعرضن له وبين عدة جوانب متعلقة ببنية مكان العمل، أي عدم التوازن الشائع في علاقات القوى بناء على الجنس، والغياب الفج للقوانين التي تمنع التحرش الجنسي بالنساء والتي لا توفر للنساء مرجعية قوية لمحاربته. وهكذا، فمن خلال عملية التشارك والتعبير عن تجارب التعرض للتحرش الجنسي، اكتسبت النساء درجة عالية من الوعي بهذا الموضوع وشرعن في تفسير تجاربهن وتأويلها من منظور جديد، وهو المنظور، أو الموقعية النسوية، التي مكنت النساء من تحديد السبب الحقيقي والعميق للتحرش الجنسي، وتمكين النساء بما يجعلهن قادرات على العمل على تغييره.

تجارب النساء والوعي المزدوج

إن الأبحاث التي تنطلق من الموقعية النسوية تعلمنا أن تجارب النساء مع القهر تقدم منظورا قويا يمكن من خلاله تقييم المجتمع وقاعدة لتغييره. ونقوم في هذه الجزئية بتناول جانب واحد من المنظور الناتج عن تجارب النساء مع القهر بقدر أكثر من التفصيل، وهو الجانب الذي تطلق عليه باحثات الموقعية النسوية مفهوم "الرؤية المزدوجة" أو "الوعي المزدوج".

وننتقل الآن إلى الأسئلة التالية:

- ما الوعي المزدوج؟
- كيف ينشأ عن تجارب النساء مع القهر؟
- كيف يقدم للنساء رؤى فريدة للمجتمع ككل؟
- وماذا عن قابلية استخدامه لإحداث تغيير اجتماعي؟

تؤكد باحثات الموقعية النسوية أن النساء، باعتبارهن ينتمين إلى فئة مقهورة، قمن بصقل وعي مزدوج، أي وعي بالغ لا بحياتهن فحسب بل أيضا بحياة الفئة السائدة (الرجال). وكثيرا ما يظل عمل وحياة النساء اليومية جانبا خفيا غير مرئي بالنسبة للفئة السائدة، بينما نجد النساء على دراية بـ"الرؤية العامة السائدة للمجتمع وكذلك منظورهن الخاص كأقلية" (Nielsen، 1990، p. 10)، وبكلام آخر فللنساء "وعي فاعل نشيط" بكلا المنظورين (Smith، 1990، p. 19). وفي بعض الحالات تنشأ قدرة النساء على الوعي المزدوج من خضوعهن للأدوار المفروضة اجتماعيا، مثل دور الزوجة والأم. وفي حالات أخرى تقوم النساء بتطوير وعي مزدوج لضمان البقاء البدني والاقتصادي لهن ولأسرهن.

الرجــال لا يدركــون -بالضرورة- ولا يعــون على الدوام الأعمــال اليومية التي تؤديها النســاء في البيت واعتمادهم عليهن. ولكن الكثيرات من النســاء مضطرات إلى الالتفات إلى المهام اليومية من طهي وغســيل ورعاية الأطفال، وكذلك يتعلمن التعامل أو علــى الأقل التعرف العملي على الحيز العام (الخاضــع للســيادة الذكورية) لســوق العمل الرأســمالي. وفي هذا الصــدد تقوم النساء بالوســاطة بين عالمين: عالم "الأنشطة المحليــة المنصــبة على أفراد آخرين محدديــن، والحفاظ على النظافة، وإدارة شــؤون البيــت والأســرة والأطفال" وعالم ســوق العمل الذكوري، وهو عالم يتســم بالتجريد والعقلانية (Smith، 1990، p. 20). ونجد في دراســة سوزان أوستراندر (Susan Ostrander، 1984)، على ســبيل المثال أنه إلى جانب إدارة شــؤون البيت، يكون من المتوقع من النساء عادة الإلمام بتفاصيل عمل الزوج واكتساب معرفة مناسبة في هذا المجال. إن معرفة النســاء بأسماء زملاء أزواجهن في العمل ومجريات الأمور اليومية في مكان عمل الزوج بما يتيح للزوجات تقديم الدعم العاطفي اللازم لأزواجهن، وهو الدعم الذي يؤدي في نهاية الأمر إلى مواصلة الزواج المشاركة والنجاح في الحيز العام (Ostrander، 1984; Smith، 1999).

وبينمــا تقــوم بعض النســاء بتطوير وعي مــزدوج في محاولتهن الالتــزام بأدوار وتوقعــات اجتماعيــة معينــة، نجد نســاء أخريات يعتمــدن على قدرتهــن على الوعي المزدوج لحماية أنفســهن وضمان البقاء. وهو ما توضــحه جويس ماكارل نيلسن قائلة إنه إذا كانت المرأة في موقع المقهورة فعادة ما يكون من مصــلحتها "الالتفات والانتباه" لمنظــور الرجــل ومنظورها الخاص بها، فلضــمان البقــاء "اجتماعيا بــل وأحيانا حتى جسديا" يتعين على النساء التعرف الجيد على كيف "يرى الرجال الدنيا" مع القدرة على "قراءة وتوقع وفهم مصالح ودوافع وتوقعات وتوجهات الرجال" (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 10). وتقدم قصة حياة هارييت جاكوبس وخروجها من محنة تجربة التحرش مثالا قويا في هذا الصــدد، فسعيا لحماية نفسها بقدر المستطاع من الأذى

الجنسي الواقع عليها من سيدها، كان عليها أن تصبح عارفة خبيرة بطريقة تفكيره وحالاته المزاجية، وهي تفسر ذلك قائلة: "لقد كان رجلا ماهرا وكان يلجأ لأساليب عديدة لتحقيق أغراضه"، فأحيانا كان يستخدم "طرقا هائجة مرعبة تصيب ضحاياه بالارتعاش، وأحيانا كان يدعي الرقة التي يراها سبيلا أكيدا لإخضاع الغير"، ومع تعرفها على نفسية سيدها توصلت إلى أن حالات "مزاجه الهادئ" كانت هي الأكثر خطورة، "فمن بين حالتيه المزاجيتين كنت أفضل حالاته المزاجية الهائجة رغم أنها كانت تجعلني أرتعد" (Harriet Jacobs، 1861/1987، p. 27)، فكنت حينها أجد أبتدع أساليب جديدة وماهرة لتجنب تلك الحالات المزاجية.

وتقدم لنا حكاية بل هوكس (bell hooks، 2004) عن نشأتها كفتاة فقيرة وسوداء في جنوب كنتاكي مثالا آخر على كيفية تشكل الوعي المزدوج إذ يحاول الفرد الكفاح من أجل البقاء، وتحديدا البقاء المادي، فقد كانت بل هوكس وجيرانها يعبرون الطريق مرورا إلى الجزء الذي يقطنه البيض في المدينة الصغيرة، وحيث كان عملهم في الخدمة بالمنازل وحراسة وتنظيف العقارات والدعارة يضمن لهم أجرا بالكاد يكفي الحصول على المأكل والملبس والمأوى لأنفسهم وأسرهم. وكان يسمح لهم العمل في الجزء الأبيض من المدينة بما فيه من "شوارع مرصوفة ودكاكين لم يكن يحق لنا دخولها، ومطاعم لم يكن بوسعنا تناول الطعام فيها، وأناس لم يكن يسمح لنا بالنظر مباشرة في وجوههم" طالما كان العمل في مجال "العمل الخدمي". ولم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك. ففي نهاية كل يوم عمل، كانت بل هوكس وجيرانها يعبرون الطريق عودة إلى "الأكواخ والبيوت المهجورة الواقعة في طرف المدينة"، "وقد كانت هنالك قوانين تضمن عودتنا، فعدم العودة كان يعني المخاطرة بالتعرض للعقاب" (bell hooks، 2004، p. 156). ومن خلال عبور الطريق يوميا إلى العمل، نشأ لدى بل هوكس وجيرانها "وعي عملي" بعالم الأناس البيض وكذلك عالمهم، أما البيض فقلما عبروا الطريق في الاتجاه الآخر.

إن حكاية بـل هوكس تركز على الأفروأمريكيين باعتبارهـم فئة مقهورة في مقابل البيض بوصـفهم فئة مهيمنة، بدلا من الاقتصـار على النسـاء مقابـل الرجال. ولكن تفسـيرها لكيفية نشـأة الوعي المزدوج إذ يكافح الأفراد للبقاء المادي يمكن تطبيقه تحديدا على النساء أيضـا. ولعل بعض الأفراد الأفروأمريكيين الذين تصفهم بل هوكس كانوا من النسـاء اللاتي عملـن لدى رجال بيض واعتمدن في بقائهن المـادي على الرجال البيض. وفي الواقع فإن بعض باحثات الموقعية النسـوية يقارن بين قدرة النسـاء على الوعـي المزدوج وقدرة الوعي المزدوج لدى الفئـات المقهورة كالأفروأمريكيين. وفي ذلك تقول جويس ماكارل نيلسن الآتي:

> أخذا في الاعتبار أن السـود في ثقافتنا يتعرضون لسيادة الثقافة البيضاء في المدارس وعبر وسـائل الإعلام وكذلك في تعاملاتهم مع البيض، فيمكننا أن ندرك كيف يمكن للسـود أن يعرفوا الثقافتين البيضاء والسوداء، بينما لا يعـرف البيض سـوى ثقافتهم. ويمكـن القول بالأمر نفسـه فيما يتعلق بالنساء مقابل الرجال.[3] (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 10)

ويجب أن يكون من الواضـح الآن أن قدرة النسـاء على الوعي المزدوج تتيح لهن منظـورا فريدا، أو عينا فريدة يمكنهن من خلالها تقييم المجتمع ككل. إذ تخرج النسـاء من تجاربهن مع القهر والاسـتغلال وقيامهن بأدوار (ثانوية تابعة) على أسـاس النوع وقد طورن كما تقول بل هوكس "نمطا من أنماط الرؤية غير معروف لمعظم قاهرينا" (bell hooks، 2004، p. 156). فالنسـاء قادرات على اسـتيعاب أنشـطة الرجال وتوجهاتهم وتصرفاتهم كما يدركن ما يخصـهن. ولكن الرجال باعتبارهم ينتمون إلى الفئة المسـيطرة ذات السـيادة لا يكونون بالضرورة قادرين على التقاط أنشـطة النساء وتصرفاتهن، وإنمـا يبدو نمط رؤية الرجال للحقيقة أقـرب إلى الانطلاق من أعماق تجاربهم. إن قدرة النساء على الوعي المزدوج تمكنهن من رؤية وفهم "معالم معينة من الحقيقة . . . المجهولة بالنسبة لغيرهم (الرجال)" (Jaggar، 2004، p. 60).

إن هذا النمط الفريد "من أنماط الرؤية"، أي تلك القدرة على معرفة وفهم توجهات وتصرفات الفئة المسيطرة وكذلك معرفة وفهم توجهاتهن إنما هي قدرة تضع النساء في موقع مميز يمكن منه تغيير المجتمع إلى الأفضل. ومن أجل تحسين مجتمع ما من الضروري فهم الكيفية التي يعمل بها هذا المجتمع ككل، والتعرف عن قرب على الحياة اليومية للفئات السائدة والفئات المقهورة، وفهم العلاقات فيما بينها. وهكذا يمكن تطبيق المعرفة المكتسبة من الوعي المزدوج لدى النساء لتشخيص أوجه عدم المساواة والظلم الاجتماعي، وصياغة وتفعيل الحلول لذلك. ونجد بل هوكس وقد أحسنت إيجاز تلك النقطة بقولها إن الوعي المزدوج يمثل في نفس الوقت "حيزا للمقاومة" قويا، و"موقعا للإمكانيات الجذرية" (bell hooks، 2004، p. 156).

تجارب النساء والموضوعية القوية

تؤكد بعض باحثات الموقعية النسوية أن وضع النساء الثانوي في المجتمع، وقدرتهن على الوعي المزدوج الصادر عن ذلك الوضع، يضع النساء في مكانة متميزة يمكن منها توليد المعرفة عن العالم. إن مفهوم الموقعية النسوية هذا، والذي يطلق عليه أحيانا مسمى "الموضوعية القوية"[4] (strong objectivity) يعلمنا أن النساء أكثر قدرة على إنتاج تأويل أكثر دقة وشمولا وموضوعية بشأن الواقع الاجتماعي مقارنة بالرجال. وتوضح أليسون جاجار أن "الموقع الاجتماعي المميز" للنساء يتيح فرصة لـ"رؤية العالم بشكل أكثر دقة وأقل تشويها" مقارنة بما هو متاح "للطبقة الحاكمة" (أو الرجال، Alison Jaggar، 2004، pp. 56، 57). كما تؤكد بعض باحثات الموقعية النسوية على أن البحث الذي ينطلق من حيوات النساء اليومية باعتبارهن منتميات إلى فئة مقهورة سيؤدي إلى مقولات معرفية "أقل محدودية وتشويها" من البحث الذي ينطلق "من حيوات الرجال المنتمين إلى فئات مسيطرة" (Harding، 1991، p. 185). وللإجابة على السؤال: لماذا؟ ننتقل الآن إلى تفسير أكثر تفصيلا مصحوبا بالأمثلة.

تؤكد باحثات الموقعية النسوية أنه في كثير من المجتمعات يتم إنتاج المعرفة والتحكم فيها من قبل الطبقة الحاكمة، ومن هنا يكون تأويل الواقع السائد في مجتمع ما عاكسا لمصالح وقيم الطبقة الحاكمة. ونظرا لالتزام الطبقة الحاكمة بالحفاظ على السلطة، نجدها تسعى إلى إخفاء الطرق التي تقوم بها بالسيطرة على بقية أفراد المجتمع واستغلالهم. ويصبح تأويل الواقع تبعا للطبقة الحاكمة مشوها بحيث "يتم تجاهل أو معاناة الطبقات الثانوية والتابعة، وإعادة وصف هذه المعاناة باعتبارها مصدر متعة، أو تبريرها بوصفها مختارة أو مستحقة أو حتمية" (Alison Jaggar، 2004، p. 56). إن مواقع السلطة والامتياز التي يحتلها أعضاء الطبقة الحاكمة تتيح لهم فصل وعزل أنفسهم عن معاناة المقهورين، وأن يصبحوا أسهل ميلا للاقتناع بأيديولوجيتهم (المشوهة)، فأعضاء الطبقة الحاكمة يعايشون "النظام الحالي للمجتمع باعتبارها نظاما مُرضيا في الأساس، وبالتالي يقبلون تأويل الحقيقة بما يبرر هذا النظام. وهم لا يواجهون في حياتهم اليومية ما يتعارض مع ذاك التأويل" (Alison Jaggar، 2004، p. 56).

إن أعضاء الطبقة الحاكمة يكونون راضين عن النظام القائم ولا يكون لديهم سبب للتساؤل عن صحة التأويل السائد للواقع. ومن الناحية الأخرى فإن المعاناة اليومية التي يعايشها أعضاء الفئات المقهورة تقدم سلسلة من "المشاكل الجديرة بالتفسير ذات الأهمية الخاصة" (Harding، 1993، p. 54) كما تتطلب مزيدا من التدقيق. وأحيانا تنجح الأيديولوجيا السائدة (الصادرة عن الطبقة الحاكمة) في إقناع الفئات المقهورة، وبشكل مؤقت، بأن تقبل الألم، أو أن تلوم نفسها، أو أن تنفيه أساسا. ولكن في نهاية الأمر فإن انتشار وقوة واستمرارية تلك المعاناة تدفع بالفئات المقهورة إلىإدراك أن ثمة خطأ ما في النظام الاجتماعي. وما يعانونه من ألم يقدم لهم دافعا لمعرفة وجه الخطأ، ولنقد تأويلات الواقع التي تلقى قبولا، ولصياغة طرق فهم للعالم تكون جديدة وأقل تشوها. (Alison Jaggar، 2004، p. 56)[5]

وباعتبارهن منتميات لفئة مقهورة لا تتوفر للنســاء أسباب أو دوافع لتشويه الواقع. فعلى العكس من الرجال الذين باعتبارهم أعضاء في الطبقة الحاكمة قاموا بصياغة تأويل مشـوه للواقع لحماية مصالحهم والحفاظ على سـلطتهم، نجد أن الوضع الثانوي للنساء يعني أنهن أقرب إلى صياغة "فهم أكثر وضوحا ومصداقية للعالم" (Jaggar، 2004، p. 62). ولنبـدأ بنموذج هارييت جاكوبس. فإذا تناولنا مؤسســة العبودية من موقعية هارييت جاكوبس، أي من منظورها ومن خلال تجربتها الشخصية المعيشة، فسنحصل على تأويل لتلك المؤسســة يختلف عن التأويلات الســائدة حينذاك. فقد قام ملاك العبيد بصـياغة خطاب أبوي عن العبودية: فكان العبيد لا حول لهم ولا قوة، ضعاف الفكر، بل وفصيلة أدنى من البشر، أما الأسياد فيبدون في صورة الآباء الطيبين ممن يراعون العبيد ويضمنون لهم سبل العيش. أما النساء من العبيد فكثيرا ما كان يتم تصويرهن في صـورة أقرب إلى الحيوانات، بالغات الســمات الجنسية، وفي حاجة "للترويض" تبعا لفضــائل وأخلاق ســيداتهن البيض. ولكن حكاية هارييت جاكوبســ تحدثنا عن حقيقة المعاملة القاسية والوحشية الشائعة تجاه العبيد، كما نتعرف على الجانب الإنساني تحديدا للنســاء من العبيد، ومعاناتهن وشــجاعتهن. فبالكشــف عن حقيقة العنف والاســتغلال الجنســي الذي كان على الكثيرات من العبيد من النساء احتماله تنجح هارييت جاكوبس في مواجهة الأيديولوجيات (المشــوهة) بشأن العبيد من النساء، والتي كانت هي الشائعة والرائجة حينذاك.

إن دراسة بيتي فريدان (Betty Friedan، 1963) عن ربات البيوت الأمريكيات خلال الخمســينيات والســتينيات من القرن العشرين تقدم نموذجا آخر لما يتيحه الوضع الثانوي للنســاء في المجتمع من موقع تقوم منه النســاء ببناء المعرفة وتشكيل صورة أكثر دقة للواقع الاجتماعي. فكما رأينا في جزء ســابق من هذا الفصل، فإن الأيديولوجيات المسيطرة والصــور الإعلامية السائدة في الخمســينيات من القرن الماضي كانت تصور النســاء بوصفهن ربات بيوت ســعيدات، حيث الدور الحقيقي والوحيد للنساء في الحياة

هو دور الزوجة والأم. ولكن في واقع الأمر كانت الكثيرات من النساء يشعرن بالتعاسة وعدم الرضا والقيود التي يفرضها ذلك الدور المحدود، وقد دفعت مشاعر الألم العاطفي والإحباط النساء إلى التحرك ومواجهة تلك الأيديولوجيا الشائعة، أي أيديولوجيا سعادة ربة البيت وهنائها. وقد نجحت النساء في التشكيك في صحة التأويل السائد والمقبول للواقع -بشأن سعادة ربة البيت وهنائها- بناء على ما لدى النساء من معرفة وتجربة معيشة بوصفهن ربات بيوت. وأخيرا، فمن خلال قلب تلك الأيديولوجيا (المشوهة) عن سعادة ربة البيت وهنائها، تمتعت النساء بحرية تخطّي الحدود والقيود المتعلقة بدور ربة البيت، وحرية المضي لتحقيق أهداف وتتبع اهتمامات واكتساب مهارات أخرى، أي صياغة واقع جديد يعكس بدقة أكبر النطاق الكامل لما تتمتع به النساء من إمكانيات وطاقات باعتبارهن من جنس البشر.

وبإيجاز، فإن مفهوم الموقعية النسوية الخاص بالموضوعية القوية يعلمنا أن تمثيل الواقع من موقعية النساء هو تمثيل "أكثر موضوعية وحيادية عن التمثيلات السائدة التي تعكس موقعية الرجال" (Jaggar، 2004، p. 62). وتنبع الموضوعية القوية من موقع النساء كمقهورات في المجتمع، ومن قدرتهن على امتلاك وعي مزدوج ناتج عن ذلك الموقع. ونظرا إلى أن النساء قادرات على معرفة وفهم تصرفات وأيديولوجيات المجموعات المسيطرة في المجتمع، إلى جانب معرفة وفهم ما يخصهن، فإن الانطلاق من النساء في البحث يعني أن "بعض المساحات أو جوانب الحياة لا تخضع للإقصاء والاستبعاد" (Jaggar، 2004، p. 2)، وهو ما يذكرنا بقول ساندرا هاردينج: "إن انطلاق البحث والبدء بحيوات النساء سيؤدي إلى توليد حكايات أقل تحيزا وتشوها لا فيما يتعلق بحيوات النساء فحسب، بل وحيوات الرجال والنظام الاجتماعي بأكمله" (Sandra Harding، 2004b، p. 62).

تعقيدات جديدة وموقعيات عديدة

كما رأينا أعلاه، تؤكد بعض باحثات الموقعية النسوية أن الوضع الثانوي للنساء في المجتمع بالإضافة إلى قدرتهن على الوعي المزدوج يوفر لهن نوعا من "الامتياز المعرفي" (epistemological privilege; Jaggar، 1997; Narayan، 2004) الذي تخرج منه أسئلة بحثية نقدية وجديدة، وهي أسئلة يمكن لها في حال دراستها أن تنتج فهما للواقع الاجتماعي "أقل تشوها" وأكثر "مصداقية" (Harding، 1993; Jaggar، 1997، p. 192). وربما الأمر الأكثر أهمية هو أنه نظرا إلى أن البحث الذي ينطلق من حياة النساء يقدم صورة أكثر دقة بشأن كيفية عمل مجتمع ما، فإنه يكشف في الوقت نفسه عن المكونات الضرورية للتغير الاجتماعي. إن الكشف عن التفاعلات داخل المجتمع ككل يعرفنا بالعناصر التي تتطلب التعديل وإعادة التشكيل بحيث يمكن صياغة مجتمع أكثر إنسانية وعدالة. وكما توضح أليسون جاجار، فنظرا إلى أن البحث الذي يبدأ بالنساء يوفر "تقييما صادقا" وأكثر دقة للمجتمع، فإنه أيضا يمنحنا "فرصة أفضل" كي يتم "ترسيخ بدايات ممكنة" لمجتمع جديد يمكن لكل أفراده أن تتاح لهم فرص متساوية للتطور والنماء (Alison Jaggar، 1997، p. 192).

ومنذ فترة قريبة بدأت بعض باحثات الموقعية النسوية في مواجهة وإعادة طرح الدعوى بقدرة النساء على تحقيق فهم أشمل للواقع الاجتماعي وإمكانية قيامهن بإنتاج نتائج أكثر "موضوعية" عند البدء بتناول حيوات النساء. إذ ترى جويس ماكارل نيلسن أن مقولات الموقعية النسوية بشأن الدقة والموضوعية تتسم بكونها "مثيرة للأمل ومحملة بالإشكالية" في نفس الوقت (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 25). فمن ناحية نجد باحثات الموقعية النسائية على التزامهن بما تحمله تلك المقولات من "أثر تحرري" بما يصاحبها من أهداف تحقيق العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي. ففي نهاية الأمر يكون الغرض الأساسي من الحصول على فهم أدق وأشمل للمجتمع هو القدرة على تغييره من أجل "ما هو أفضل للجميع". ومن ناحية أخرى، يعترض الكثيرون على

المفهوم نفسه والكامن في مقولات الموقعية النسوية بشأن الدقة والموضوعية من حيث إن تجارب ورؤى مجموعة ما (وفي تلك الحالة نقصـد النساء) هي أقرب إلى "الواقع (أي أفضل أو أدق) مقارنة بغيرها" (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 25).

وبخلاف صـعوبة التأسيس لكون النسـاء كفئة يتمتعن، بعكس الرجال كفئة، بقدرة فريدة خاصـة بهـن على فهم التعقيدات الكامنـة في الواقع الاجتماعي، فإننا نجد أيضـا إشـكالية أخـرى في اختزال النسـاء كافة في مجموعة واحدة تشـترك في تجربة واحدة ووجهة نظر أو موقعية موحدة تقوم على تلك التجربة. إن هذا الشكل من أشكال المنطق الجوهري (essentialism) هو سلاح ذو حدين، إذ تتزايد صعوبة التعامل مع مفاهيم الموضوعية وموقعية النساء "الأكثر دقة" أو "الأكثر مصداقية" كلما تم الأخذ في الاعتبار التعددية وتنوع نطاق تجارب النساء. وهو الأمر الذي يفرض التساؤلات التالية:

- كيف تتغير طبيعة إبستمولوجيا الموقعية النسوية مع التناول والكشف عن الاختلافات العرقية والثقافية والطبقية بين النساء؟
- هل تفقد باحثات الموقعية النسوية القدرة على إنتاج نتائج بحث تتسم بالصدق ولها معنى في ظل قيام هؤلاء الباحثات بالتعرف والاعتراف بتعددية واقع النساء الاجتماعي؟
- هل تقدم لنا تجارب وموقعيات بعض النساء تقييما أكثر موضوعية وأكثر دقة بأن الواقع الاجتماعي مقارنة بتجارب الأخريات وموقعياتهن؟
- وإذا كان الأمر كذلك، فما معايير تحديد التجارب والموقعيات التي تعتبر الأكثر أو الأقل مصداقية؟

ولننتقل الآن إلى تلك الأسئلة بقدر أكبر من التفصيل.

إن غالبية باحثات الموقعية النسـوية يعترفن الآن بأن النسـاء "يشغلن عدة موقعيات مختلفة ويعايشـن أنواعا مختلفة من الواقـع" (Hekman، 2004، p. 227)، أي إن هؤلاء الباحثات باختصار يتعاملن مع الاختلافات القائمة بين النساء بجدية. ولكن بينما تمت إزاحة الدعوى بإمكانية تصـنيف النساء ضـمن فئة واحدة ذات خصائص موحدة وموقعية واحدة، نجد أن باحثات الموقعية النسـوية يواصلن النقاش حول أفضل طريقة لتضـمين أوجه الاختلاف بين النسـاء داخل عملية البحث. وقد تم في هذا الصدد طرح عـدد من الاسـتراتيجيات. وقد اقترحـت سـاندرا هاردينـج (Sandra Harding، 2004a، 1993، 1991)، عدة استراتيجيات، سيتم تسليط الضوء على اثنتين منها فيما يلي. تتطلب الأولى الالتفات نحو موقعيات النسـاء المختلفة، مع التمسك في نفس الوقت بأن بعض الموقعيات قد تؤدي إلى معرفة أكثر صدقا وموضوعية مقارنة بغيرها. وهي آلية تشير إلى أنه كلما زاد معدل القهر ازدادت موضوعية الرواية: أي إن موقعية فئات النسـاء الأكثر تعرضا للقهر سـتولد أكثر نتائج البحث صـدقا. وهو ما توضحه ساندرا هاردينج قائلة:

> يجب أن يكون من الواضـح أنه إذا كان من المفيد البدء بالبحث والدراسـة والنظرية من مواقع النسـاء البيضـ، فيتعين علينا بالتـالي أن نتمكن من التعـرف على المزيد عن الأنظمة الاجتماعية والطبيعية في حال ما إذا بدأنا من مواقع النساء المنتميات إلى الأعراق والطبقات والثقافات التي تتعرض للقهر وتقليل قيمتها. (Sandra Harding، 1991، pp. 179-180)

وتقوم سـاندرا هاردينج في مقاربتها تلك بدعـوة الباحثين والباحثات إلى الانخراط في عمليـة "التقييم النقدي" لتحديد المواقع الاجتماعيـة التي "تميل إلى توليد دعاوى المعرفة الأكثر موضوعية" (Harding، 1991، p. 142).

وفي مقاربتها الثانية تطالب ساندرا هاردينج بتوجيه المزيد من الانتباه إلى الاختلافات بل وحتى الصراعات القائمة بين موقعيات النساء:

> لقد انطلقت المعرفة النسوية من حيوات النساء، ولكنها انطلقت من حيوات مختلفة للكثيرات من النســاء. فلا توجد حياة امــرأة نموذجية أو جوهرية ينطلق منها الفكر النسوي على تعدده. كما أن تلك الحيوات المختلفة للنساء تتعارض فيما بينها في جوانب مهمة. (Harding، 1993، p. 65)

وتؤكد ســاندرا هاردينج في هذه المقاربة على أن الاختلافات والتعددية والتنوع بل وحتى الصراعات القائمة بين تجارب النساء هي تحديدا التي تمكننا من فهم أكثر ما يمكن بشأن المجتمع ككل، وهو ما توضحه قائلة:

> سيتعين على كل فئة مقهورة أن تملك رؤاها النقدية بشأن الطبيعة والنظام الاجتماعي الأوســع وذلك من أجل المســاهمة في جمع المعرفة الإنسانية. ونظــرا إلى أن الفئــات المختلفة تتعرض للقهر بطــرق مختلفة، فلكل منها إمكانية (لا الثقة الأكيدة في) التوصل إلى رؤى مميزة عن أنظمة العلاقات الاجتماعيــة بشــكل عام والتــي يمثل القهر الــذي تتعرض لــه ملمحا من ملامحها. (Sandra Harding، 2004a، p. 9)

ومع ذلك، وعلى الرغم من مطالبة ساندرا هاردينج الاعتراف بالاختلافات –وأن "الذوات/عناصر نظرية الموقعية النسوية" تتسم بأنها "متعددة ومتجانسة ومتناقضة"– فإنها تواصل التأكيد على أن تجارب المقهورين، بغض النظر عن تنوعها، هي تجارب تنتــج روايات وحكايــات أكثر دقة حول النظام الاجتماعي مقارنة بتلك الصــادرة عن الفئات المســيطرة في المجتمع. وتؤكد قائلة: "ومع ذلك، فإن الفكر الذي ينطلق من كل نوع من أنواع الحياة المختلفة تلك يمكنه أن يولد حكايات عن الطبيعة والحياة الاجتماعية تتسم بكونها أقل تحيزا وتشويها" (Harding، 1993، p. 65).

وعلى العكس من مفهوم ساندرا هاردينج الخاص بالموقعية "ذات أقصى موضوعية"، فإننا نجد ما يتماشى مع تأكيد ساندرا هاردينج مؤخرا على الاختلاف، إذ تركز باحثات نسويات أخريات على النطاق المتنوع للمعرفة الموجود في تعددية الموقعيات. فبدلا من محاولة العثور على آليات تختزل كل الموقعيات في "الأقل تشوها" أو توليد دعاوى وجود معرفة عالمية عامة من نموذج إضافي للموقعيات المتعددة، نجد أن هؤلاء الباحثات النسويات يتساءلن عن مدى إمكانية، أو ما إذا كان من المرغوب فيه، "إنتاج توصيف واحد وموحد وكامل للعالم" (Longino، 1999، p. 339). فكل موقعية نسائية تقدم تجربة حياتية ووجهة نظر فريدة، ويجب أن تخضع للتقييم على هذا الأساس. وترى باحثات الموقعية النسوية أن الالتفات إلى الخصائص المميزة لموقعية كل امرأة بذاتها، والتعددية والتنوع القائمين بين تجارب النساء، هو أمر لا يتدخل في قدرتنا على بناء المعرفة. ففي الواقع أننا نأمل في التوصل إلى معرفة جديدة تحديدا داخل تلك الخصائص المميزة لموقعية ما، أو ما تحمله تجربة امرأة ما من سمات فريدة.

وتؤكد كل من دونا هاراواي وهيلين لونجينو (Donna Haraway، 1991; Hel-en Longino، 1999)، أن المعرفة تأتي من تجارب حياة النساء الفريدة، والتأويلات المعينة للواقع الاجتماعي (أو الموقعيات) والتي تصاحب تلك التجارب. فبدلا من محاولة المرور بالاختلافات القائمة بين النساء مرور الكرام، تشير دونا هاراواي إلى الرؤى القيمة الناجمة عن الاختلافات القائمة بين موقعيات النساء وبين "الخصوصية المفصلة" لكل منهن (Donna Haraway، 1991، p. 190). كذلك تؤكد هيلين لونجينو على أن معرفة النساء تقع في "أماكن معينة وفي أزمنة معينة" (Helen Longino، 1999، p. 333). فللنساء موقعيات مختلفة، وتجسد معارف مختلفة، بناء على كيفية توجيه النساء نحو بيئاتها، وكيفية تفاعلهن مع تلك البيئات. وهكذا فإن التجربة والموقعية الفريدة الخاصة بكل امرأة توجه انتباهنا إلى التفاصيل والملامح التي ربما ما كنا لنلتفت إليها في سياق آخر (Longino، 1999، 335).

إن تطبيق استراتيجيات بناء المعرفة التي طرحتها ساندرا هاردينج ودونا هاراواي وهيلين لونجينو على بعض حيوات النساء كما تعرفنا عليها في هذا الفصل من الكتاب، يكسبنا فهما للكيفية التي تعمل بها كل استراتيجية عند التطبيق الفعلي. فطبقا للآلية الأولى التي اقترحتها ساندرا هاردينج على سبيل المثال، فإن حيوات وتجارب النساء الأفروأمريكيات الفقيرات (كما سلطت عليها الضوء دراسة باتريشا هيل كولنز: Pa-tricia Hill Collins، 1999) -تحمل إمكانيات تقديم صورة أكثر دقة واكتمالا للواقع الاجتماعي مقارنة بحيوات وتجارب ربات البيوت البيض من الطبقتين الوسطى والوسطى العليا (وهو ما سلطت عليه الضوء دراسة بيتي فريدان: Betty Friedan، 1963). ولا تتمثل تداعيات ذلك في نفي تجارب القهر والمعاناة التي تعيشها النساء البيض. ولكن نظرا لأن القهر والمعاناة التي تعيشها النساء الأفروأمريكيات كفئة اجتماعية هي تجارب تفوق تلك التي تعيشها النساء البيض، فإن البدء بحيوات وتجارب النساء الأفروأمريكيات هو ما يوصلنا إلى موقعية أكثر موضوعية بشأن المجتمع ككل.

وطبقا لكل من دونا هاراواي وهيلين لونجينو يمكننا أن نعرف أكثر بتوجيه المزيد من الانتباه إلى المنظور الفريد أو الموقعية التي تقدمها لنا تجارب النساء الأفروأمريكيات والنساء البيض بشأن الواقع الاجتماعي. فكل تجربة من تجارب هؤلاء النساء تعلمنا شيئا مختلفا وقيما عن المجتمع. فالبدء بالحياة اليومية للنساء الأفروأمريكيات يعلمنا أشياء عن المجتمع من منظور النساء اللاتي يضطررن إلى العمل خارج البيت. كما يعلمنا ذلك أشياء عن انخفاض الدخل، وعدم وجود دور رعاية أطفال تتصف بالجودة وفي حدود الإمكانيات المادية، وكذلك الاستراتيجيات البديلة والمبتكرة لرعاية الأطفال والتي ابتدعتها النساء الأفروأمريكيات. ومن ناحية أخرى فإن البدء بالحياة اليومية لربات البيوت البيض من الطبقتين الوسطى والوسطى العليا يعلمنا أشياء عن المجتمع من منظور النساء غير المضطرات إلى العمل خارج البيت، فنتعرف على مشاعر عدم الرضا والعزلة التي تعيشها هؤلاء النساء أثناء قيامهن بمهامهن اليومية في البيت

من إدارة شـؤون المنزل والرعاية، كما تكشـف لنا عن الزيف الذي يحوط الصـورة والأيديولوجيـا القائلة بسـعادة ربـة البيت. كذلك نتعلم أشـياء عن رغبات النسـاء في توسـيع دائرة حيواتهن لتتجاوز حدود أدوار الزوجة والأم، والدخول إلى دنيا العمل الخارجي.

تجاوز النسبية

إذا كان الأمـر كمـا تدعو له كل من دونا هاراواي وهيلين لونجينو وسـاندرا هاردينج وغيرهن بأن نشعر بقيمة المنظور الفريد للواقع، أو الموقعية الناتجة عن التجارب المعيشة لكل امرأة، وأن نحترم تعددية وتنوع المعرفة المتولدة عن تجارب النساء المختلفة، فهل يتعين علينا أيضا أن نتنازل عن فرص العمل السياسي؟

- هل من الممكن أن نعترف بقيمة مجال متنوع من رؤى النساء وتجاربهن وأن نجتمع لخلق قوة منظمة للتغيير الاجتماعي؟

إن جويس ماكارل نيلسن تعبر عن تلك المعضلة في الآتي: "بمجرد أن يرفض المرء الموضـوعية، يصبح البديل نوعا من النسبية غير المرضية" (Joyce McCarl Niels-en، 1990، p. 28). فمن الصعوبة تجميع تجارب النساء العديدة داخل موقعية عامة واحدة، دون المجازفة بقمع الاختلافات بين النساء أو اختزال النساء في فئة واحدة ذات خصـائص موحدة. ومن ناحيـة أخرى، فإن اعتراف باحثات الموقعية النسـوية بقيمة التعددية والتنوع في تجارب ووجهات نظر النساء على قدم المساواة يفرض على هؤلاء الباحثات الحذر لتجنب الوقوع في حالة من الشلل التي تعوق النساء عن المضي قدما معا واتخاذ موقف من القضـايا الاجتماعية. فإذا قامت كل الفئات بإنتاج "فكر متخصص، وأن يتمتـع فكر كل فئـة بنفس القدر من الصـحة" مع عدم قدرة أي فئـة منها الادعاء

بأن لديها "تأويلا أفضل 'للحقيقة مقارنة بغيرها" (Collins، 1993، p. 625)، فهل يؤدي ذلك بنا لخطر الوقوع في النسبية السياسية (political relativism) وهي حالة "عدم الوجود في أي مكان مع ادعاء الوجود في كل مكان بنفس القدر" (Harway، 1991، p. 191)، يبدو واضحا أنه إذا كانت النساء سيعملن للتأثير وتغيير وخلق سياسات اجتماعية جديدة، فمن اللازم أن يوجدن مساحة ما مشتركة أو وجهات نظر يتشاركن فيها لتحقيق النجاح في مسعاهن. وهو ما توضحه جويس ماكارل نيلسن قائلة:

> يمكن القول بعدم وجود حاجة لتحديد رأي ما باعتباره أكثر صحة من غيره، وأنه يمكن لتعددية الرؤى أن تسود. ولكن ستأتي لحظة ما -مثل لحظة ضرورة اتخاذ قرارات مهمة ما- سيتعين فيها تبني رأي ما بشأن الواقع الاجتماعي. إن تطوير سياسة عن الإجهاض على سبيل المثال سيتطلب اتخاذ موقف في مساحة تخلو من الآراء المتناقضة والتي تبدو في ظاهرها غير متصالحة. (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 27)

ولكن كيف يمكننا تيسير تجميع النساء بما يحملنه من تجارب حياتية مختلفة ورؤى فريدة، مع تشجيع مد الجسور بين الموقعيات لشن معركة ناجحة في سبيل التغيير الاجتماعي، دون أن يصاحب ذلك كبت للتنوع والتفرد الفردي؟

نجد أن الكثيرات من باحثات الموقعية النسوية يؤكدن على الحاجة إلى فتح حوار بين النساء، وعبر مختلف الرؤى كخطوة أولى نحو بناء أنواع شبكات التحالف أو القواعد المتينة اللازمة كأرضية للانطلاق منها. وتشجع هيلين لونجينو على تطوير مواقع "الخطاب النقدي" داخل المجتمعات وفيما بينها، بحيث يمكن لأعضاء المجتمع في تلك المواقع التعبير بحرية عن رؤاهم وكذلك الدخول في حوار مع مجتمعات أخرى حيث "تختلف الخلفية المشتركة" (Longino، 1999، p. 343). كذلك تعلن بل هوكس الحاجة إلى "النقاش المُجدي والمواجهة البناءة" بين الرؤى المختلفة، كما تدعو

إلى خلق مساحات آمنة "حيث يمكن للحوارات النقدية أن تتم بين أفراد لم يسبق لهم أن اضطروا. . . إلى التحاور فيما بينهم" (bell hooks، 1990، p. 133).

إن نوعية الحوار الذي تدعو إليه باحثات الموقعية النسوية هو حوار يتيح الإنصات إلى كل تجربة ورؤية فريدة أو موقعية للمرأة بناء على تجربتها. ونجد أن بعض باحثات الموقعية النسوية يؤكدن فعلا على أنه من خلال عملية خلق مساحة مفتوحة للحوار عبر تجارب وموقعيات النساء على اختلافها، وحيث يتاح لكل الأصوات النسائية وموقعياتهن نفس القدر من التواصل، حينها يمكننا فعليا بناء مجتمع. وتدعونا باتريشا هيل كولنز إلى الإنصات إلى صوت النداء والرد الأفريقي التقليدي والذي يقوم على تعلم الجميع الحديث والإنصات لضمان الانتماء إلى الجماعة: "كل فرد له صوت، ولكن يجب على كل فرد الإنصات والرد على الأصوات الأخرى لضمان السماح بالبقاء في المجتمع" (Patricia Hill Collins، 1990، pp. 625-626). ففي سياق مثل هذا المجتمع، حيث يمثل المجتمع موقعا للتجمع فتتداخل فيه الموقعيات المتعددة، وحيث يتم تشجيع الإنصات باحترام والحديث الحواري، هو سياق يمكننا من أن نتخيل إمكانيات الفهم المتزايد بين النساء وفيما بينهن بما يحملنه من خلفيات وثقافات مختلفة، وتجارب حياتية مختلفة.

وتصف باتريشا هيل كولنز إمكانيات نمو تفهم بدافع مجتمعي بين فئات المجتمع ممن ينتمون إلى موقعيات مختلفة فيما يلي:

> كل فئة تتحدث من موقعيتها وتشترك في معرفتها المنحازة والخاصة بموقعها، ولكن نظرا لأن كل فئة تدرك حقيقتها باعتبارها منحازة وخاصة بها، تكون معرفتها غير مكتملة. وتصبح كل فئة أكثر قدرة على الأخذ في الاعتبار موقعيات الفئات الأخرى دون انتقاص من موقعيتها الفريدة أو قمع لرؤى الفئات الأخرى. (Patricia Hill Collins، 1993، p. 626)

وهكذا، فمن خلال حوار مجتمعي يتم التشارك والإنصات إلى تعددية الآراء. ومع قدرة كل عضوة من أعضاء المجتمع على الثقة في أن منظورها الفريد سيلقى الاهتمام والاحترام تصبح هي قادرة تماما على سماع آراء الآخرين واحترامها. ويمكن لمثل هذا الحوار المجتمعي أن يوصلنا إلى النقطة التي يمكن -طبقا لإلزا باركلي براون- "لكل الناس أن يتعلموا وضع تجارب الآخرين في المركز، والتأكد من صحتها، والحكم عليها تبعا لمعاييرها دون الحاجة إلى عقد مقارنات أو احتياج لتبني ذلك الإطار الآخر" (وردت في: Patricia Hill Collins، 1993، p. 625). ولكن بخلاف تيسير التفهم عبر الموقعيات النسائية وكذلك احترام التنوع والتفرد، هل يمكن لمثل هذا الحوار المجتمعي أن يؤدي إلى قيام تحالفات فعالة بين الموقعيات؟

في واقع الأمر، وكما تشير باحثات الموقعية النسوية، فإن الحوار المجتمعي الذي يدعم التفاعل بين النساء في الوقت ذاته الذي يحافظ فيه على الاحترام لتعددية الرؤى النسائية، هو حوار يعد الساحة لقيام صلات ما بين الفئات كما يمكن من نمو التحالفات اللازمة للسيطرة على السلطة وصياغة التغيير الاجتماعي. ومع حدوث تشارك للموقعيات النسائية المتنوعة، يمكن خلق صلات قائمة على الإنصات والاحترام والثقة "في مواقع لم يسبق وجودها فيه" (Walker، cited in Collins، 1993، p. 625). فعندما تشرك امرأة ما أخريات في حكاية تعرضها للتحرش الجنسي في مكان العمل، أو تعرضها للحرمان من الحصول على إجهاض قانوني آمن، على سبيل المثال، سيكون من الوارد جدا أن تتواصل وتتفاعل نساء أخريات مع هذه التجربة حتى ممن لم يتعرضن لنفس التجربة وإنما واجهن استغلالا على أساس الجنس أو مشاعر المغلوبة على أمرها.

ولا توجد ضرورة لقيام تلك الصلات على حساب التعددية والتنوع، كما أنها لا تهدد بإنكار تجارب حياة النساء المختلفة والفريدة، وإنما يمكن للنساء أن يتواصلن عبر تحديد "خيط مشترك" أو "فكرة موحدة ضمن التنوع الكبير" (Walker، cited in Collins،

(1993، p. 625 . فلنقل على سبيل المثال إن مجموعة من النساء العاملات من خلفيات اقتصادية اجتماعية وعرقية وثقافية متنوعة اجتمعن معا للتشارك والإنصات لتجاربهن ورؤاهن بشأن أمور العمل والأسرة، فسنجدهن دون إنكار أو عدم احترام ما بينهن من اختلافات وقد توحدن في الأغلب حول بعض المشاكل المشتركة وانضممن معا للنضال من أجل تحقيق بعض الأهداف المشتركة، مثل المساواة مع الرجال في الأجر، وتحسين أوضاع إجازة الوضع، وإيجاد أماكن رعاية للأطفال تتسم بالجودة وفي متناول اليد، وأشكال أفضل للحماية من التحرش الجنسي في مكان العمل. وتصف جويس ماكارل نيلسن هذه العملية بأنها "اندماج الآفاق": "مع وجود تواصل عبر وما بين موقعيات نسائية متنوعة، يمكن تكبير كل موقعية منها أو إثراؤها أو توسيعها بحيث يحدث اندماج أو توليفة بين الموقعيات"[6] (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 29).

إن التجمع والتشارك في التجارب والرؤى الفريدة يمكن النساء من بناء التحالفات وصياغة موقف مشترك واتخاذ مواقف من قضايا بعينها دون تنازلات بشأن اختلافاتهن. إن التوصل إلى موقف مشترك أو موقعية بشأن موضوع معين يدعم المسار المأمول للعمل من أجل التغيير الاجتماعي، أي يؤسس لقاعدة راسخة ينطلق منها العمل. وفي نفس الوقت يتعين علينا أن نتذكر أيضا أن تجارب ورؤى النساء والقضايا التي يواجهنها هي أمور تتطور باستمرار وتتغير عبر الزمان والمكان، ومن هنا جاءت أهمية ألا ينتهي الحوار بين النساء بالتوصل إلى خلق تحالف معين أو موقف مشترك، بل يجب على الحوار أن يستمر، وهو ما تؤكده الكثيرات من باحثات الموقعية النسوية. يجب علينا العمل للتوصل إلى طرق لتوظيف الإنصات والتبادل المستمر داخل جماعات النساء، أو ببساطة أكبر، أن نبني مجتمعا تبعا لمفهوم باتريشا هيل كولينز لكلمة مجتمع (community). وفي حالة الإدماج الناجح لمثل هذا الحوار والنقاش المتواصل داخل مجتمعاتنا فإنه يدفع بل ويضمن وجود عملية متكاملة من التقييم الصحي، وهي العملية التي تسميها هيلين لونجينو "تبرير التفاعل الاجتماعي"، (socializing justification)

(Helen Longino، 1999. فالحفاظ على مساحة آمنة للحوار والنقاش المتواصل - ولخلق وإعادة خلق تحالفات وموقعيات جديدة ما بين النساء وفيما بينهن- يظل أمرا بالغ الأهمية مع ظهور قضايا جديدة على الساحة، مع اتخاذ النضال النسائي من أجل العدالة صورا وأشكالا جديدة.

وهكذا ومن جوانب عدة نجد أن الالتزام بالتبادل الحواري الجدلي وعمليات التقييم ما بين موقعيات النساء وفيما بينها هو التزام يعبر في الوقت ذاته عن الالتزام بالنضال المستمر من أجل تمكين النساء. ففي نهاية الأمر نجد أن نضالات النساء ليست موحدة أو راكدة، بل هي مستمرة ومتواصلة وخاضعة للتغير. فلنأخذ على سبيل المثال مسألة النساء والعمل، وسنجد أن النساء كافحن في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين من أجل الانضمام إلى القوى العاملة[7]. ثم جاء النضال من أجل المساواة في الأجر. والآن تناضل النساء من أجل سياسات أفضل لإجازة الوضع، وأماكن رعاية للأطفال تتصف بالجودة وتكون في متناول اليد[8]. إن الحقيقة القائلة بأن تجارب النساء، وموقعيتهن بشأن الواقع الناتج عن تلك التجارب، التي هي تجارب قابلة للتغير والتطور عبر الزمان والمكان، هي مقولة لا تقلل من واقعية أو شرعية تلك المسألة. فكما تؤكد ليندا ألكوف، يمكن للنساء بلوغ موقع أو موقعية تتسم بأنها "محددة" و"متحولة" في آن واحد (Linda Alcoff، 1989، p. 325). وبكلام آخر، فإن في إمكاننا التعامل مع موقعيات النساء بشأن مسألة ما أو عدد من المسائل المعينة باعتبارها موقعيات مشروعة وجادة وراسخة في أرضية الواقع الاجتماعي، بينما نعترف في الوقت ذاته بموقع تلك الموقعيات داخل "سياق تاريخي متحرك"، بل إن تركيزنا على "الحركة التاريخية وقدرة الذات على تغيير سياقها" (Linda Alcoff، 1989، p. 325) يعني أننا نأخذ موقعيات النساء بعين الاعتبار دون اختزال النساء كافة في فئة عامة لها نفس التجارب والاحتياجات والخصائص.

الخاتمة

إن إبستمولوجيا الموقعية النسوية هي مقاربة مبتكرة لبناء المعرفة، وتعمل على تحطيم الحدود القائمة بين المجال الأكاديمي والعمل السياسي، وبين النظرية والتطبيق. وتسعى باحثات الموقعية النسوية إلى منح صوت لأعضاء الفئات المقهورة -أي النساء-، وإلى الكشف عن المعرفة الكامنة والخفية التي نمتها النساء من حياتهن "في الهامش". وإبستمولوجيا الموقعية النسوية لا تطالبنا فقط بأخذ النساء في الاعتبار بوصفهن عارفات، ولكن تطالبنا بأن نترجم معرفة النساء إلى ممارسة، وأن نطبق ما نتعلمه من تجارب النساء نحو تحقيق التغيير الاجتماعي ونحو الحد من القهر، لا قهر النساء فحسب بل قهر كل الفئات المهمشة.

وقد ازدادت إبستمولوجيا الموقعية النسوية تعقيدا وتنوعا، ويستمر تطورها عبر الزمان. فباحثات الموقعية النسوية لم يعدن يتحدثن عن تجربة النساء ولا يجمعن النساء كافة داخل فئة مقهورة واحدة، بل يعترفن بأن النساء يأتين من نطاق متنوع من الخلفيات الطبقية والثقافية والعرقية، وأنهن يعشن في عدة مواقع اجتماعية مختلفة، ويتحملن أشكالا مختلفة من القهر والاستغلال. ونتيجة لذلك فإن التطورات النظرية التي طرأت على إبستمولوجيا الموقعية النسوية هي تطورات متعددة الأبعاد ومستمرة، كما أن الباحثات العاملات في إطار الموقعية النسوية يواصلن تطبيق أساليب بحث جديدة ومبتكرة من أجل التمكن من تناول حيوات النساء وتجاربهن على تنوعها، وهي أساليب سيتم عرض بعضها في فصول أخرى من هذا الكتاب. وأخيرا، فبينما تتفهم باحثات الموقعية النسوية ويعترفن بالاختلافات القائمة بين النساء وفيما بينهن -من حيث مختلف تجارب القهر ومختلف الموقعيات أو الرؤى القائمة على تلك التجارب- نجدهن أيضا يواصلن التأكيد على أهمية الحوار بين النساء وفيما بينهن، والحاجة إلى التفهم، وإمكانية تحقيق تحالفات. فالتحالفات بين النساء وفيما بينهن ممكنة -دون خطر قمع الاختلاف- وضرورية، إذا كنا نأمل في الكفاح من أجل مجتمعات أكثر عدلا، وتحسين وضع النساء فيها.

الهوامش

1 ـ هذا الجزء مأخوذ من رسالة كتبتها هارييت جاكوبس لناشر كتبها في عام 1857، وتقوم في تلك الرسالة بوصف دافعها من وراء كتابة سيرتها الذاتية عن "أحداث في حياة فتاة من العبيد، بقلمها": Harriet Jacobs, Incidents in the Life of a Slave Girl, Written by Herself.

2- من المهم الإشارة إلى أن بالرغم من عدم كون مناهج البحث النسوي هي الموضوع المحوري لهذا الفصل، فإنه قد تم استخدام مناهج البحث النسوي في العديد من الدراسات التي تناولت حيوات النساء وتجاربهن التي يتم الاستشهاد بها في الفصل. فالمناقشات التي تتناول حيوات النساء وتجاربهن هنا تهتم بالمضمون أكثر من المنهج. ومع ذلك ونظرا لأن الكثير من حيوات النساء وتجاربهن المذكورة هنا ما كانت لتعرف لولا تطبيق مناهج نسوية جديدة ومبتكرة، فإن أهمية تلك المناهج كامن هنا حتى وإن لم يصرح بها. فالإطار العام لإبستمولوجيا الموقعية النسوية يستدعي أن تكسر حيوات النساء وتجاربهن القيود وتلقى آذانا مصغية، وهي التي "كانت تتعرض حتى الآن للإنكار والقمع والوضع في مكانة ثانوية" (Smith, 1990, p. 12). وكثيرا ما يتطلب المرء استخدام مناهج نسوية جديدة ومبتكرة للوصول إلى حيوات النساء وتجاربهن والكشف عنها. إن المقابلات الشخصية النسوية، وكتابة السيرة الذاتية، وأساليب التاريخ الشفوي، والإثنوجرافيا المؤسسية كلها نماذج للمناهج النسوية المستخدمة للحصول على معلومات عن حيوات النساء وتجاربهن المذكورة في هذا الفصل من الكتاب. وسوف يتم مناقشة تلك المناهج النسوية وغيرها بالتفصيل، وسترتكز عليها فصول الكتاب التالية.

3- إن مفهوم "جدلية السيد-العبد" لدى الفيلسوف هيجل (G.W.F. Hegel, 1967) يسهل تطبيقها هنا ولكن مع تحويلها لحالة النساء والرجال. ويوضح هيجل أن السيد لا يمكنه سوى امتلاك وهم الاستقلالية، ووهم الوعي المستقل، بسبب اعتماده على عبده، فبدون ما يقدمه العبد من عمل عاطفي ومادي، ما كان لسيده أن يكون حرا في الانخراط في "مساع مستقلة" أما العبد، ففي سبيل ضمان البقاء يظل مضطرا إلى الوعي لا بعالمه هو وحده بل بعالم سيده أيضا، أما السيد وبسبب وضعه المتميز فيكون قادرا على البقاء غير واع بالعالم الذي ينتمي إليه عبده. حقا، بقدر ما يوجد رجال غير واعين باعتمادهم على عمل النساء (العمل الذي يضمن دوام السيطرة في أيديهم) كذلك يكون السيد غير واع باعتماده على العبد.

4- لقد تم تطوير مفهوم "الموضوعية القوية" بواسطة باحثة الموقعية النسوية ساندرا هاردينج، وهي التي أطلقت على هذا المفهوم مسماه. وللمزيد من كتابات ساندرا هاردينج عن الموضوعية القوية، انظر/ي أولى المقاطع الخاصة بـ"ما وراء المشهد" في الفصل الأول من هذا الكتاب. انظر/ي كذلك كتاب ساندرا هاردينج (Sandra Harding, Whose Science? Whose Knowledge? 1991) وأحد فصول الكتاب (Sandra Harding, "Rethinking Standpoint Epistemology: What is 'Strong Objectivity?'" in Feminist Epistemologies, 1993) والذي صدر في صورة منقحة في كتاب (Harding, The Feminist Standpoint Theory Reader: Intellectual and Political Controversies, 2004a). وجدير بالذكر أيضا أن مفهوم "المطاوعة القوية" (strong reflexivity)، وهو جانب مهم من مفهوم ساندرا هاردينج بشأن "الموضوعية القوية" والمتعلق بالبحث منهجا وتطبيقا، ليس محور الحديث هنا، فالمطاوعة القوية تتطلب من الباحثات والباحثين الاعتراف الفعلي وتأمل كيفية تفاعل مواقعهم الاجتماعية وتواريخ حياتهم والرؤى للعالم ومدى تأثيرها وتأثرها بالعملية البحثية. وللمزيد عن تناول ساندرا هاردينج لمفهوم المطاوعة القوية، انظر/ي المقطع الثاني من جزئية "ما وراء الستار" في الفصل الأول من هذا الكتاب. وأخيرا يتم في الفصل الخامس من

الكتاب تناول بعض ظواهر المطاوعة القوية، أي ممارسة المطاوعة وتطبيقها بشأن الموقع الاجتماعي وتاريخ الحياة ورؤية العالم فيما يتعلق بالباحثة أو الباحث خلال البحث.

5- ولكن في بعض الحالات، وبينما تلعب معاناة النساء دورا كبيرا، فإن الألم ليس هو الدافع الوحيد للبدء في نقد النظام القائم وتحديه، كما علمنا بأن حالة ربات البيوت الأمريكيات في الخمسينيات من القرن العشرين، أو من النساء اللاتي تعرضن للتحرش الجنسي في تسعينيات القرن العشرين، فإنه من الضروري أحيانا وجود عملية رفع الوعي، فمع تجمع النساء وتشاركهن الحكايات المختلفة نجدهن وقد أخذن في إدراك أنهن لسن وحيدات في معاناتهن، ويتوقفن عن لوم أنفسهن على ما يعشنه من معاناة، كما تتولد لديهن القوة للنظر خارج نطاق الذات، ونحو المجتمع، ومواجهة الأنماط المجتمعية والأيديولوجيات السائدة التي تقهرهن. وهكذا يجب التوصل إلى المنظور النقدي لدى النساء –أي موقفهن من الوعي السياسي، أو موقعيتهن النسوية- (Hartsock, 2004) وذلك من خلال عملية رفع للوعي بدلا من الانطلاق مباشرة وبلا تأمل نقدي لما يتعرضن له من ألم ومعاناة.

6 - وهنالك مثال افتراضي آخر لمفهوم ووكر (Walker, cited in Collins, 1993) بأن "فكرة موحدة عبر التعددية البالغة" ومفهوم جويس ماكارل نيلسن عن "اندماج الآفاق" (Nielsen, 1990)، وهو المثال التالي: إذا اجتمعت مجموعة من النساء لمناقشة حقوق الإجهاض، فقد تزداد موقعية كل امرأة منهن عمقا أو اتساعا حين تتعرف على خبرات وهموم ووجهات نظر غيرها من النساء. والمرأة التي تتمتع بامتيازات اقتصادية واجتماعية قد يقتصر تركيزها على الحق القانوني في الإجهاض. أما المرأة المنتمية إلى منطقة ريفية فقد يكون مما يؤرقها هو عدم توفر مقار أو عيادات للأطباء في المنطقة التي تقطنها ممن يقومون بعمليات إجهاض. وأخيرا فقد تعبر امرأة فقيرة عن قلقها مما إذا كانت قادرة ماديا على دفع مقابل لعملية إجهاض آمنة وقانونية. ومن خلال التشارك والإنصات إلى همومهن المختلفة قد تقوم هؤلاء النساء بصياغة موقعية أعقد وأكثر تطورا فيما يتعلق بحقوق الإجهاض، بالتحول من موقف مباشر لحق الاختيار إلى موقف قائم على حق الاختيار يطالب بتوفير عدد من العيادات على مستوى كل منطقة، وكذلك توفر الدعم الحكومي للمساهمة في ضمان حصول النساء الفقيرات على عمليات إجهاض آمنة وقانونية.

7- وليس في ذلك إنكار للآلاف من النساء التي عملن في حرث الأرض والعمل الخدمي وفي مجالات الصناعة والتعليم والطب قبل ستينيات القرن العشرين وسبعينياته فعلى مدار مئات السنين اضطرت النساء في جميع أرجاء العالم إلى العمل لضمان سبل المعيشة لأنفسهن وأسرهن.

8- ومن المهم أيضا أن نذكر أن كل صراع من تلك الصراعات ما زال قائما، فالنساء ما زلن أقل عددا من الرجال في الوظائف العليا على سبيل المثال، كما أنهن يحصلن على أجور أقل من الرجال الذين يشغلون نفس المواقع والمناصب في العمل.

المراجع

Anderson, Kathryn, & Jack, Dana C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In Sherna B. Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.

Alcoff, Linda. (1989). Cultural feminism versus post-structuralism: The identity crisis in feminist theory. In Micheline R. Malson, Jean F. O'Barr, Sarah Westphal-Wihl, & Mary Wyer (Eds.), *Feminist theory in practice and process* (pp. 295–326). Chicago: University of Chicago Press.

Collins, Patricia Hill. (1990). *Black feminist thought: Knowledge, consciousness, and the politics of empowerment.* Boston: Unwin Hyman.

Collins, Patricia Hill. (1993). Black feminist thought in the matrix of domination. In Charles Lemert, (Ed.), *Social theory: The multicultural and classic readings* (pp. 615–626). Boulder, CO: Westview Press.

DeVault, Marjorie. (1990). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. *Social Problems, 37,* 96–116.

DeVault, Marjorie. (1991). *Feeding the family: The social organization of caring as gendered work.* Chicago: University of Chicago Press.

Friedan, Betty. (1963). *The feminine mystique.* New York: Norton.

George-Graves, Florence. (2003, January 16). The complete Anita Hill. *Boston Globe Magazine,* pp. 15–24.

Haraway, Donna J. (1991). *Simians, cyborgs, and women.* New York: Routledge.

Harding, Sandra. (1991). *Whose science? Whose knowledge?* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Harding, Sandra. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In L. Alcoff & E. Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49–82). New York: Routledge.

Harding, Sandra. (2004a). Introduction: Standpoint theory as a site of political, philosophic, and scientific debate. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 1–15). New York: Routledge.

Harding, Sandra. (2004b). Rethinking feminist standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In Sandra Harding, (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies,* (pp. 127–140). New York: Routledge.

Hartsock, Nancy C. M. (2004). The feminist standpoint: developing the ground for a specifically feminist historical materialism. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 35–53). New York: Routledge.

Hegel, G. F. W. (1967). *The phenomenology of mind* (J. B. Baillie, Trans.). New York: Harper & Row.

Hekman, Susan. (2004). Truth and method: Feminist standpoint theory revisited. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 225–241). New York: Routledge.

Hondagneu-Sotelo, Pierrette, & Avila, Ernestine. (1997). "I'm here but I'm there:" The meanings of Latina transnational motherhood. *Gender and Society, 11*(5), 548–571.

hooks, bell. (1990). Culture to culture: Ethnography and cultural studies as critical intervention. In *Yearning: Race, gender, and cultural politics* (pp. 123–133). Boston: South End Press.

hooks, bell. (2004). Choosing the margin as a space of radical openness. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Political and intellectual controversies* (pp. 153–159). New York: Routledge.

Jacobs, Harriet. (1987). *Incidents in the life of a slave girl, written by herself.* Cambridge, MA: Harvard University Press. (Original work published 1861)

Jaggar, Alison M. (1997). Love and knowledge: Emotion in feminist epistemology. In Sandra Kemp & Judith Squires (Eds.), *Feminisms* (pp. 188–193). Oxford, UK: Oxford University Press.

Jaggar, Alison M. (2004). Feminist politics and epistemology: The standpoint of women. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 55–66). New York: Routledge.

Longino, Helen E. (1999). Feminist epistemology. In John Grecco & Ernest Sosa (Eds.), *The Blackwell guide to epistemology* (pp. 327–353). Malden, MA: Blackwell.

Narayan, Uma. (2004). The project of feminist epistemology: Perspectives from a non-Western feminist. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Political and intellectual controversies* (pp. 213–224). New York: Routledge.

Nielsen, Joyce McCarl. (Ed.). (1990). Introduction. In Joyce McCarl Nielsen (Ed.), *Feminist research methods* (pp. 1–37). Boulder, CO: Westview Press.

Ostrander, Susan A. (1984). *Women of the upper class*. Philadelphia: Temple University Press.

Smith, Dorothy E. (1987). Women's perspective as a radical critique of sociology. In Sandra Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 84–96). Bloomington: Indiana University Press.

Smith, Dorothy E. (1990). *The conceptual practices of power: A feminist sociology of knowledge*. Boston: Northeastern University Press.

Smith, Dorothy E. (1999). *Writing the social: Critique, theory, and investigations*. Toronto, Ontario, Canada: University of Toronto Press.

الفصل الرابع

ما بعد الحداثة النسوية وما بعد البنيوية النسوية

باتريشا لينا ليفي

حين يعود "المقهورون" في ثقافتهم ومجتمعهم، فإن عودتهم تأتي متفجرة، وتكون مدمرة وصاعقة وانقلابية تماما، مدفوعة بقوة لم يسبق لها الانطلاق قط. (Cixous and Clément، 1996، p. ix)

إن جهود التقويض... تنبع من داخل الثقافة ومن داخل اللغات التي تنطق عنا، والتي يتعين علينا أن نقلبها بما يخدم أغراضنا.

(Du Bois، 1988، p. 188)

لا أدري ماذا عن مصطلح "ما بعد الحداثة"، ولكن إذا كانت هنالك نقطة محورية واضحة بالنسبة لما أعرفه باعتباره ما بعد البنيوية فهي أن السلطة متمكنة من الجهاز الفكري ذاته الذي يسعى للتفاوض حول شروطه، بما في ذلك الموقع الذاتي للناقدة أو الناقد، وكذلك أن ما يترتب هنا على شروط النقد في مجال السلطة ليس بشيرا بمجيء النسبية العدمية العاجزة عن وضع قواعد، بل هو شرط مسبق للنقد ذي التوجه السياسي.*

(Butler، 1992، p. 6-7)

* ملحوظة: المقاطع المأخوذة من كتاب جوديث بتلر تخضع لحقوق الملكية الفكرية التالية:

كثيرا ما يتـم النظر إلى الإمبيريقية النسـوية (feminist empiricism) باعتبارها إحدى النقاط لمنتهى خط ممتد يتأصـل فيه البحث النسـوي، بينمـا تقع مابعد الحداثة في الطـرف الآخر من نفس الخط. وعلى الرغم من كثرة ما يقال عن كون ما بعد الحداثة منظـورا نظريا، أعتقد أن ما بعد الحداثة تعكس موقفا إبسـتمولوجيا معرفيا. ولعل من الأسـباب التي جعلت ما بعد الحداثة موضـوعا لكثير من الخلاف هو أنها تخرج الهموم النسـوية خارج المجال المهنجي وتدخلـه داخل النطاق المعـرفي، أي إن ما بعد الحداثة تطرح أسـئلة حيوية بشأن طبيعة المعرفة وبناء المعرفة. إن هذا الأساس الإبستمولوجي المعرفي هو محور هذا الفصل من الكتاب.

وبينما سـأقدم في مرحلة لاحقة من هذا الفصـل عرضا مفصلا لما بعد الحداثة النسوية (feminist postmodernism)، وتمييزها عن الإمبيريقية النسـوية وإبسـتمولوجيا الموقعيـة النسـوية (feminist standpoint epistemology)، فإنـه من الأهمية أن أوضـح كيف تقع مابعد الحداثة النسـوية على الخط الممتد للإبستمولوجيا أو علم المعرفة في علاقتهـا بتلـك المواقع الأخرى. وتبين لنا باحثات ما بعد الحداثة النسـويات أن كلا من الإمبيريقية النسـوية وإبستمولوجيا الموقعية النسـوية، كل بطريقتها المميزة، تنتهي بمواجهة الدعاوى الجوهرية وقلبها في اسـتخدامها لمفهوم "النساء" باعتباره فئة محددة للهويـة. وفي هذا الصـدد، نجد أن نسـوية ما بعـد الحداثة تطرح "فاصـلا مزيفا" بين الإمبيريقية النسوية والموقعية النسوية، وقد فشلتا في وضع نهاية لقهر النساء، وتعتمدان علـى نفس المفاهيـم الجوهرية، وهو الأمر الذي أدى بالنسـويات اللاتي يتبنين منظور نسـوية القهر (oppression feminists) إلى عدم الاعتمـاد على أي من الإمبيريقية أو الموقعية النسـوية (Cosgrove، 2003). وباختصـار فإن الإمبيريقيات النسويات والمتخصصـات في إبسـتمولوجيا الموقعية النسـوية يرجعـن إلى الجوهرية حين ينظرن إلى الجندر باعتباره عاملا متغيرا مسـتقلا (أي إضـافة النساء مع التقليب داخل النماذج المسـبقة) في الإمبيريقية النسـوية، وباعتباره سمة متأصـلة في الموقعية النسوية (Cos-grove، 2003; Hekman، 1999). إن المراجعـة النقدية لما بعد الحداثية للإمبيريقية

النسـوية تركز على مدى اعتماد الإمبيريقية النسـوية على العلم الوضعي الذي فشل في نهاية الأمر في تحقيق المساواة بين الجنسين. وفي هذا الصدد تقول ليسا كوسجروف:

> إن التركيز المتواصـل علـى الأبحاث القائمة على الاختلاف على أسـاس الجندر (gender difference research)، مع الفشل في مواجهة كيفية ترميز الجندر وإنتاجه، سـاهما في الاعتقاد بـأن الاختلافات بين الرجال والنساء هي اختلافات جوهرية وعامة ولا تاريخية. (Lisa Cosgrove، 2003، p. 91).

وطبقا لنسـوية ما بعد الحداثة فبينما قامت نظريـة الموقعية (standpoint theory) بتنبيه الباحثات والباحثين بموقعيتهم داخل المشروع البحثي، والتي يمكنها أن تؤدي إلى "تجذير أو تثوير" (radicalize) المسار البحثي، فإن الموقعية لا تقطع شوطا أكبر وتلجأ إلى بعض المفاهيم الجوهرية مثل "صـوت النساء". فعلى سبيل المثال نجد أنه في دراسة ليسا كوسجروف التي تعتمد فيها على لين ليتون (Layton، 1998، p. 217)، نجدها توضـح أن هنالك اختلافا أساسـيا بين القول بأن النساء يملن إلى الارتباط بعلاقات مع الآخرين وأن "الأنوثـة يرمز إليها بالميل للعلاقات" (Cosgrove، 2003، p. 89). إن نظرية الموقعيـة تحقق المقولة الأولى أعلاه دون النظر إلى كيفية إنتاج الجندر داخل المجـال الرمزي. كما أن تركيـز منظري ومنظرات الموقعية على مفهوم "الصـوت" كثيرا مـا يؤدي إلى تعطيل التأمل العميق للخلاف و"عدم التماهي"-(disidentifica-tion) (Cosgrove، 2003; Pujal، 1998). وتعبر ليسا كوسجروف بإيجاز عن أوجه قصور الموقعية وحدودها فيما يلي:

> المسـألة الخلافية لا تقتصـر على نظرية الموقعية أو مجاز الصـوت في حد ذاتهما، بل المشكلة في أن الفرضيات الكامنة بشأن مفاهيم الجندر والتجربة

والهوية هي فرضيات لا تتيح مجالا لتحليل تعقيدات علاقات القوى التي تتضمنها مفاهيم الجندر والهوية والتجربة. (Lisa Cosgrove، 2003، p. 89-90).

وقد نشأت نظرية ما بعد الحداثة النسوية كبديل لهذين المنهجين، اللذين يعرضان -عادة- باعتبارهما رأيين متقابلين على طرفي النقيض، بينما هما في واقع الأمر يلجآن إلى المنطق الجوهري الذي انطلق منه قهر النساء. وهكذا فإن نسوية ما بعد الحداثة تقع على الطرف الآخر من الخط الممتد للإبستمولوجيا النسوية في الوقت الذي تقوم فيه بتناول إشكاليات الاستقطاب للإمبيريقية النسوية وإبستمولوجيا الموقعية النسوية.

ولعل نظرية ما بعد الحداثة قد نالها نصيب من النقد داخل المجال الأكاديمي يفوق أي حركة أخرى في الفترة التاريخية الحديثة، كذلك فإن العلاقة بين النسوية وما بعد الحداثة، داخل البحث النسوي، كانت مصدرا لانقسامات كبرى وفزع كبير خوفا من أنه مع بداية دمج النساء في العملية البحثية ومنحهن "صوتا" أن يمثل هذا الرأي الجديد بشأن بناء المعرفة مصدر تهديد بالتقليل من قدر النجاح الذي حققته النسوية. وبشكل ما أو بآخر فإن أقوى المراجعات النقدية لنسوية ما بعد الحداثة جاءت من داخل النظرية النسوية، وعلى الرغم من أهمية تلك المراجعات النقدية فإنها في أغلب الوقت تحجب إبستمولوجيا ما بعد الحداثة النسوية. وفي هذا الصدد سأبدأ بتناول بعض من خلفيات تطور الفكر ما بعد الحداثي، ثم أعرض التأويلات النسوية لما بعد الحداثة. وبعد تأسيس مفهوم ما بعد الحداثة ومساهمات النسويات في ذلك سأنتقل إلى عرض أهم المراجعات النقدية لما بعد الحداثة النسوية والتي تتمحور حول قضايا البراجماتية السياسية والهوية وموقع الذات والفاعلية (agency).

ومن المهم أيضا أن أذكر منذ البداية أن ما بعد الحداثة هي فئة شاملة أشبه بمظلة تم استخدامها لتصنيف وتجميع رؤى نظرية وإبستمولوجية معرفية متفرقة. وتشير

ليندا مارتن ألكوف إلى ما بعد الحداثة باعتبارها "مصطلحا مهشما من الصميم" (Al-coff، 1997، p.6)، ففي حالات كثيرة نجد الباحثات والباحثين يلصقون بأنفسهن صفة ما بعد الحداثة دون أن يصفوا أو يعرفوا أبحاثهم باعتبارها ما بعد حداثية. وفي أحيان أخرى، نجد أن الآراء التي تعتبر ما بعد حداثية تختلف فيما بينها إلى درجة صعوبة تحديد خط واصل فيما بينها. بل ويتساءل البعض في الواقع عما إذا كانت ما بعد الحداثة تشير إلى لحظة تاريخية، أم إطار نظري، أم إبستمولوجيا، أم مجموعة ما من الهموم والاهتمامات. فإذا أخذنا في الاعتبار النقد اللاذع وغير المسبوق الذي نالته مابعد الحداثة داخل النظرية النسوية وفي المجتمع البحثي عموما، فإن تجميع عدد من النظريات تحت مسمى ما بعد الحداثة يصبح مسألة أهم مما هو مفترض. وقد تحدثت جوديث بتلر بوضوح حول مسألة تجميع عدة مواقف نظرية ومعرفية تحت مسمى "مابعد الحداثة" وتتساءل عن الغرض السياسي من ذلك. فعلى سبيل المثال حينما يتم جمع بعض الآراء المتفرقة وربطها ببعضها البعض برباط زائف لصياغة إطار نظري "كلي"، يصبح من الممكن استخدام أي من ذلك الإطار الكلي (استخدام أي نظرية منها) لتمثيل "مابعد الحداثة"، وهو أمر تعتبره جوديث بتلر (Judith Butler، 1992) بالغ الإشكالية، كما يمثل في حد ذاته اختزالا شديدا. وتستهل جوديث بتلر دراستها الشهيرة عن "الأسس العرَضية: النسوية ومسألة ما بعد الحداثة"

(Butler، "Contingent Foundations: Feminism and the Question of Postmodernism")، طارحة سؤالا عن مابعد الحداثة، ثم تكتب قائلة ما يلي:

> من هم هؤلاء ما بعد الحداثيين؟ هل هو اسم يلحقه المرء بنفسه، أم أن الأكثر شيوعا هو أنه اسم يطلق على المرء إذا وحينما يقدم المرء مراجعة نقدية للموضوع، أو تحليلا خطابيا له، أو يطرح تساؤلات حول مدى الاتساق أو التماسك في إجمال التوصيفات الاجتماعية؟ (Butler، 1992، p. 3)

وباستخدام منظور ما بعد حداثي تواصل جوديث بتلر حديثها متأملة كيف يقدم مفهوم السلطة (power) الإطار الأشمل الذي يحتوي ما بعد الحداثة، وتتوقف أمام أصحاب المصلحة المستفيدين من هذا التصنيف:

> ولكن إذا كنت أفهم جزءا من مشروع ما بعد الحداثة فهو طرح التساؤلات بشأن الطرق التي تؤدي بها تلك "الأمثلة" و"المنظومات" إلى جعل ما تسعى إلى تفسيره أمرا ثانويا وتابعا، بل ومحوه. حيث إن "الكل"، أي مجال ما بعد الحداثة على اتساعه المفترض، هو كل "ينتج" بفاعلية عن المثال الذي يتم صنعه ليصبح عرَضا ومثالا على الكل... وحينها نكون قد فرضنا إحلال مثال محل المجال بأكمله، بما يؤدي إلى اختزال عنيف للمجال في قطعة واحدة من النص الذي يود الناقد قراءته، وهي قطعة تستخدم مصطلح "ما بعد الحداثة" لتحقيق الغرض. وهكذا وبشكل ما فإن هذه الحركة من البراعة الفكرية والتي تقوم بتجميع مجموعة من المواقف تحت ما بعد الحداثة، والتي تحول ما بعد الحداثة إلى عصر أو كل متآلف، والتي تدعي أن بوسع الجزء أن يمثل ذلك الكل المصطنع، هي براعة فكرية تقوم بتفعيل استخدام معين منضبط للسلطة. (Butler، 1992، p. 5)

وبينما تتمتع النقطة التي أثارتها جوديث بتلر بأهمية في الجدل الدائر حول ما بعد الحداثة في الدوائر الأكاديمية، فإنني لا أجد هذا الجدل مثمرا ومفيدا في توضيح غرض هذا الكتاب، وبالتالي سأتوقف في تناولي له عند هذه النقطة. ولكن يجب علي أن أعترف أني مذنبة في استخدامي لمصطلح ما بعد الحداثة (postmodernism) باعتباره فئة شاملة وإطارا عاما، بل وحتى في استخدامي إياه لوصف بعض أنواع الدراسات التي قد لا يصفها أصحابها به. ولعل بعض الدراسات التي أشير إليها يجدر وصفها بالفئة الأصغر، أي مسمى ما بعد البنيوية (poststructuralism)، بل وربما لا تتسق بعض الدراسات بأي من هذين المصطلحين. ومن هنا فإني أعترف تماما بأني قد أظلم في ذلك قدرا كبيرا

من الجهود البحثية والتفاوت القائم داخل مجال "ما بعد الحداثة". كذلك وبسبب اتساع مجال استخدام هذا المصطلح، فهنالك قدر كبير من الجهود البحثية التي لن أتمكن من تسليط الضوء عليها في هذا الفصل من الكتاب. وبالتالي توجد عملية اختيار وانتقاء ينتج عنها تمييز بعض مفكرات ما بعد الحداثة النسوية مقارنة بغيرهن، ولكنه اختيار لابد منه في سبيل عرض أهم إسهامات فكر ما بعد الحداثة في تطبيقات النظرية النسوية.

تطور فكر ما بعد الحداثة: عرض عام

نشأت نظرية ما بعد الحداثة بشكل عام كرد فعل لأوجه القصور في الحداثة والنظريات الكبرى، أو السرديات العليا (metnarratives) التي أنتجها الحداثيون. ويستخدم ليوتار (Lyotard، 1984) كلمة الحداثة كمصطلح يشير إلى أي علم يكتسب شرعيته الذاتية في إطار مرجعية نظرية كبرى ما (وبالتالي إضفاء جانب ملموس على النظرية من خلال مزيد من الكلام)، وهكذا تحتفظ النظرية بأساسها الخطابي وتظل تدور حول نفسها. وبكلام آخر فإن النظريات الكبرى هي مقولات محددة عن كيفية شيء ما، وهي تفسيرات تكسب ذاتها الشرعية دون أن تكون ادعاءاتها مثارا للتساؤل والجدل، فتصبح تلك السرديات العليا بمثابة تفسيرات محسومة كأمر واقع بشأن الواقع الاجتماعي. وتشير مابعد الحداثة إلى التشكيل الاجتماعي للواقع، وكيف يمكن خدمة بعض المصالح بواسطة تشكيل وصياغة معينة (Lyotard، 1998). وهو أمر مهم بالنسبة للباحثات النسويات المهتمات بالتشكيل الاجتماعي لمفهوم الجندر، والاختلاف بين الجنسين، وما إلى غير ذلك. فعلى سبيل المثال تهتم نسويات كثيرات بمفاهيم الأنوثة والذكورة ذات الخصوصية الثقافية والاجتماعية، وتحديدا فيما يتعلق بكيفية نشأتها والأطراف التي تخدمها أشكال فهم مفهوم الجندر دون تأمل باعتباره مفهوما محسوما وأمرا واقعا. وسوف أتطرق إلى ذلك بمزيد من التفصيل عند تناولي التمازج بين النسوية وما بعد الحداثة.

> السرديات العليا هي حكايات أو سرديات منظمة تخلق توحيدا للأفكار والمنهجيات التي يمكن استخدامها لفهم كافة أوجه العالم الاجتماعي.
> (Hepburn، 1999، Postmodern Politics section، para. 5)

إن التركيز على السرديات العليا التي تتسم بها الحداثة ضمن هذا المنظور خدم فكرة "القوة المقصية" (exclusionary force) والتي تعجز عن التوقف أمام الاختلاف والتفاوت (Hepburn، 1999). وفيما يتصل بالسأم المحيط بالسرديات العليا نجد أن ما بعد الحداثة ترفض أيضا المفهوم الوضعي لبناء المعرفة على قاعدة من الموضوعية والحياد والعلاقات السببية وتحديد الأنساق والمنهج العلمي الساعي الممارسة القائمة على المطاوعة والوعي الدقيق بالسلطات (Haraway، 1991; Pfol، 1992). وبدلا من السرديات الكبرى (grand narratives) وادعاءات معرفة الحقيقة، تطرح ما بعد الحداثة دراسة متسعة للاختلاف وللعلاقة غير القابلة للفصم بين السلطة والمعرفة، بل ويتجاوز ما بعد الحداثيين "المعارف المحددة بالموقع" في نظرية الموقعية، فينظرون إلى العالم الاجتماعي في تدفقه وانصهاره. كذلك ترفض ما بعد الحداثة التفكير القائم على الاستقطاب والذي كان سائدا خلال الحداثة، فعلى سبيل المثال، وكما سيرد عرضه لاحقا في هذا الفصل من الكتاب، يقاوم مابعد الحداثيون الانفصال المصطنع بين العقل والجسد، والذكر والأنثى، والذات والموضوع. وفيما هو أبعد من مجرد مقاومة التفكير القائم على الانقسام الثنائي، تقدم ما بعد الحداثة طرقا جديدا للتفكير في فرضيات ظلت تعتبر محسومة وأمرا واقعا لفترات طويلة، بشأن طبيعة الموضوع والعارف والمعرفة.

وبالإضافة إلى الشؤون المتعلقة بالنظريات الكبرى في الحداثة، قامت ما بعد الحداثة أيضا بالتطور بحيث تدمج النظرية بالممارسة في عصر رأس المال العالمي. وتبين لنا الباحثة النسوية ماري بوفي أهم التغيرات التي طرأت على ما بعد الحداثة فيما يلي:

> لا يقتصر الأمر على تعديلات ملحوظة في الاقتصاد الأمريكي ونظام الرفاهة، بل تحولات في الاقتصاد العالمي. . . ابتكارات تكنولوجية في الحفظ والاسترجاع والإرسال الإلكتروني، والتقدم الطبي في الأبحاث الوراثية والتركيبات البروتينية، ومسيرة الأمراض الجديدة عبر كوكب الأرض (Poovey، 1992، p. 39).

وهكذا يمكن القول بأن ما بعد الحداثة تشير إلى تحول من العصر الحديث إلى العصر ما بعد الحديث، والذي حدده فريدريك جيمسون باعتباره "المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة" (Frederic Jameson، 1984)، والذي يكوّن شكلا جديدا متخللا للسلطة الاجتماعية، متكاملا بما فيه من تغيرات كبيرة في الاقتصاد والتكنولوجيا/الاتصالات. وفي هذا العصر الجديد أصبح هنالك انفجار داخلي في الأشكال الإعلامية مما أوجد ما أطلق عليه جان بودريلار مسماه الشهير "الواقع المفرط" (hyperreality) حيث صار "الحقيقي" و"الخيال" ضبابيين بما يكاد يحول دون (إعادة) إدراكهما (re)(cognition):

> إنها عملية توليد باستخدام النماذج لما هو حقيقي دون أصول أو واقع: أي واقع مفرط. . . فعصر التقليد تم افتتاحه بمحو كافة المرجعيات، بل والأسوأ من ذلك هو إعادة إحياء مصطنع للمرجعيات في أنظمة للعلامات، ومادة أكثر ميوعة من المعنى إذ تتماشى مع كافة أنظمة المعادلات وكل المتقابلات الثنائية، والجبريات المركبة. فلم يعد الأمر مسألة المحدودية أو التكرار ولا حتى المحاكاة الساخرة، وإنما هي مسألة إحلال علامات دالة على ما هو حقيقي محل ما هو حقيقي. (Jean Buadrillard، 1999، p. 1-2)

وفي هذا السياق، كيف يتم بناء ما هو رمزي؟ وكيف تقوم الأبنية الرمزية بخدمة مصالح معينة؟ إنها بالطبع أسئلة بالغة الأهمية بالنسبة للنسويات اللاتي قد يطرحن أسئلة أكثر تحديدا مثل ما يلي:

- كيف يتم خلق الأبنية الرمزية للأنوثة والذكورة؟ ومن الذي تخدمه تلك الأبنية تحديدا؟ هل تخدم الأبوية، وإن كان الأمر كذلك، فكيف؟
- كيف يتم خلق أبنية رمزية للاختلاف (على أساس الجنس، والعرق، والطبقة، والميل الجنسي، . . . إلخ)؟ وهل يتم استخدام تلك الأبنية الخاصة بالاختلاف في خدمة عدم المساواة أو القهر؟ ومن الذي تخدمه تلك الأبنية تحديدا؟
- ما أبعاد الأبنية الرمزية للجندر وما ورد أعلاه (أي: الخيال البالغ، والصور الكاريكاتورية، والأجساد المتجزئة، وأبنية معينة للغة، وما إلى غير ذلك؟)

تأثير فوكو وديريدا على الفكر النسوي: السلطة-المعرفة، التفكيكية، وتحليل الخطاب

إن ميشيل فوكو (Michel Foucault، 1978)، الذي أثرت مجمل أعماله على الفكر النسوي بقدر كبير، قام بتغيير جذري في طريقة فهم وتصور الكثير من الباحثين والباحثات بشأن السلطة. وقد كان فوكو مهتما في الأساس بالسياسات الصغيرة للسلطة (micropolitics of power)، وقد قام بالتنظير بأن السلطة والمعرفة متصلان اتصالا غير قابل للفصم في شبكة معقدة من علاقات السلطة-المعرفة. وبكلام آخر، فإن أعمال فوكو تجاهر بأن كل المعرفة مرتبطة بالسياق ويتم إنتاجها داخل مجال من علاقات القوى المتحولة. والباحثات والباحثون المنتمون إلى تلك المدرسة الفكرية قد يستجوبون النصوص الثقافية للكشف عن معالم علاقات القوى التي أنتجتها، بما في ذلك آثار الرؤية السائدة للعالم والكامنة داخل النص بالإضافة إلى أشكال "الصمت". وعلى وجه الخصوص، يقوم الباحثون والباحثات في تلك المدرسة بتناول الممارسات الخطابية الكامنة في النص، مع الإشارة إلى الطرق المحددة التي يتم بها استخدام اللغة في النص. وقد طرح فوكو منهجا تنقيبيا (archeological) في البحث للكشف عن

كيفية وصــول النصــ إلى ما هو عليــه (Prior، 1997). إنه منهج راســخ ينطلق من رؤية إبســتمولوجية للســلطة والمعرفة، ويعتمد على تتبع عملية إنتاج النص وتوزيعه. ويوضــح لنا ســتيوارت هول (Stuart Hall، 1981، cited in Storey، 1996)، المؤثر في مجال الدراســات الثقافية البينية، أن الهيمنــة (hegemony) تتبدى فاعليتها داخل النصــوص الثقافية، ويواصل شرحه قائلا إن النصــوص الجماهيرية (popu- lar texts)، تملــك هي الأخرى إمكانية "تعارضــية"، كما تتعرض الهيمنة للمناقشــة والمقاومة والتحدي داخل النصوص أيضا. وهكذا فإن النصوص جزء حيوي فاعل في تشكيل الواقع الاجتماعي أو "الواقع المفرط" (hyperreality).

وقــد جاء جاك ديريــدا (Jacques Derrida، 1966) في مقدمة مطوري النظرية ما بعد البنيوية. ومن أهم معالم نظرية ما بعد البنيوية هي اســتخدام أداة التفكيك البحثية (بما يوضــح مرة أخــرى العلاقة بــين تطوير النظريــة والمناهج). وقد صــاغ ديريدا مصــطلح التفكيكيــة (deconstruction) كمنهج للقيام بنقد داخلــي (internal cri- tique)، للنصــوص. هذا وتقوم التفكيكية على مفهوم كــون معنى الكلمات يحدث في علاقة بالتماثل والاختلاف، ففي كل نص هنالك بعض الأشياء المؤكدة كالحقيقة والمعنى والتأليف والســلطة، ولكن يوجد دوما "آخر" أو شــيء آخر يتناقض مع ما هو مؤكد. إن ما تم إغفاله أو إخفاؤه، أي "الآخر"، يبدو غائبا في النص ولكنه يكون فعليا متضمنا داخل النص باعتباره معنى مختلفــا أو مؤجلا (Hesse-Biber & Leavy، 2006). وقــد قام ديريدا بالتنظير بأنه عبر عملية التفكيك يمكن الكشــف عــن تلك المعاني المختلفة والمؤجلــة، والهدف من التفكيك هو تغيير مواقع الفرضــيات داخــل النص. ونجد أن الباحثة النســوية لوســي إريجاراي، والتي أتناول عملها في الجزء الخاص عن "ما بعد الحداثة النسوية الفرنسية"، تطرح التفكيكية باعتبارها طريقة لـ"تعطيل الآلية النظرية" (Lucy Irigaray، 1985، p. 78). ويوضــح هؤلاء الباحثون والباحثات أن معنى النص لا يكون أبدا واحدا أو ثابتا وساكنا.

وبالإضافة إلى التفكيك، كثيرا ما يستخدم ما بعد الحداثيين أيضا تحليل الخطاب:

> متأثرا بما بعد البنيوية والمنهجيـة الإثنوجرافية (ethnomethodology) وعلـم اللغويات، فإن تحليل الخطاب هو اسـتراتيجية يتم اسـتخدامها عند الاهتمام بالمعاني الاجتماعية الموجودة داخل اللغة والممارسـات الخطابية. وبـكلام آخـر، يهتم تحليـل الخطاب بعملية التواصـل. ويـرى فوكو أن الخطابات هي ممارسـات تتكون مـن أفكار وأيديولويجـات ومرجعيات تقوم بشـكل منظم ببناء وتشكيل الذوات والموضوعات التي تتحدث عنها، وبالتـالي تكون الخطابات جزءا أساسـيا في صـياغة الواقـع الاجتماعي. ويقـوم الكثـيرون من الباحثين والباحثات بممارسـة تحليـل الخطاب عند دراسـتهم للنصـوص، وذلك في سبيل الكشـف عن الأفكار الخفية الكامنة داخل اللغة المكتوبة. ويمكن للباحثات والباحثين دراسة كيفية إنتاج الخطاب السائد، وكيف يتم نشره، وما الذي يتم استبعاده، وكيف يتم وضع بعض صـور المعرفة في مكانـة ثانوية، وما إلى غير ذلـك. وتنطلق جذور مثل هـذا البحـث من الفكر ما بعد الحداثـي وما بعد البنيوي القائم على تصـور اللغـة باعتبارها تعكس السـلطة. كذلك فإن بنية المجتمـع تكمن داخل اللغة (والأشكال التمثيلية). (Hesse-Biber، & Leavy، 2006، p. 293)

ويمكـن للباحثات النسـويات المتأثرات بنظرية مـا بعد الحداثة أن يهتممن بدراسـة المجـالات الخطابيـة المتأثرة بعلاقـات الجندر التي يـدور فيها البشـر، وكيف يتم عبر الخطاب توصيل الأساليب الأبوية والذكورية في النظر إلى العالم، بما في ذلك الخطاب من لغة ورموز وأيديولوجيا وغيرها.

الإبستمولوجيا النسوية مابعد الحداثية: الفرار من السرديات العليا

كما رأينا في الفصل السابق الخاص بإبستمولوجيا الموقعية، فإن المقاربات النسوية إلى بناء المعرفة قد تطورت أحيانا باعتبارها نقيضا في مواجهة الوضعية (positivism) والتصورات الفكرية القائمة على الجمع بين الموضوعية والحقيقة. كما نشأت نسوية ما بعد الحداثة (postmodern feminism) بشكل ما على النقيض من أهم خصائص الوضعية وما شابهها من رؤى حول صياغة المعرفة. وأولا وقبل كل شيء، نجد أن ما بعد الحداثة تنظر إلى عملية بناء المعرفة باعتبارها عملية خلق وذلك على النقيض من النموذج العلمي التقليدي بشأن اعتبار بناء المعرفة عملية "اكتشاف". وكما سبق القول، يذكر ليوتارد أن الحداثة أوجدت سرديات كبرى مرجعيتها ذاتية، فلم تكن منتبهة للاختلاف مما أدى بها في نهاية الأمر إلى استبعاد تلك الآراء والتجارب التي لم تمتزج بتلك النظرية. وهنا تقع نقطة تقاطع أساسية بين النسوية وما بعد الحداثة: كيفية حدوث التهميش إذ يتم إنتاج النظريات الكبرى والتي تصبح بدورها ذاتية الشرعية. لقد كانت النظريات الكبرى تاريخيا مجحفة وقاهرة للنساء وكافة الأقليات لأنها لا تتناول الاختلاف على تنوعه ولا تواجه الفرضيات التي تقوم عليها (والتي هي في حد ذاتها نتاج لعلاقات قوى معقدة).

وتقدم ليسا كوسجروف (Lisa cosgrove، 2002) مثالا على كيفية قيام عالمات النفس النسويات، أحيانا، بالتمسك بالفرضيات الوضعية بشأن العالم الاجتماعي الذي يقهر النساء. فكما توضح ليسا كوسجروف، فعند تناول الانحياز الذكوري (an-drocentric bias)، وتضمين النساء في أسئلة البحث اعتمدت بعض عالمات النفس النسويات بل ناصرن مفاهيم مثل "تجارب النساء" و"أدوار الجنسين" دون مراجعة الفرضيات الراسخة داخل تلك المفاهيم، وهكذا لا يتم مواجهة مفهوم الجندر باعتباره أمرا "يملكه الشخص"، بل وحتى لا يتم ملاحظته. ونتيجة لذلك يصبح كل من مفهومي الجندر والتجربة مفهومين "أساسيين" تبنى عليهما النظرية والبيانات. فعلى سبيل المثال ربما تود ليسا كوسجروف منا التوقف أمام الأسئلة التالية:

• ما الفرضيات التي يقوم على أساسها مصطلح تجارب النساء؟

• حين يشــير الباحثــون والباحثات إلى مفهوم مثل أدوار الجنسـين أو أدوار النوع، فكيف يفترضون في ذلك ثبات مصطلح الجندر أو الجنس؟

• حينما نقوم نحن كباحثات بأخذ النساء في الاعتبار ونحاول إصلاح التحيز الجنسي، فنضـيف "منظور النســاء" إلى المزيج، فهل نقوم حينها بتحديد مفهوم النوع بشــكل مادي ملموس وبأسلوب يتسق مع الوضعية؟

إن المفاهيم المكونة للنظريات الكبرى يجب أن تخضــع للدراســة والتحدي في أبحاث العلوم الاجتماعية إذا كان للنســاء وغيرهن أن يصــبحن أكثر من مجرد عنصرا مضافا إلى النماذج القائمة لصــياغة المعرفة. ونجد أن ما بعد الحداثة تقدم للباحثات النســويات قاعدة إبستمولوجية يمكن منها رؤية بناء المعرفة بشكل مختلف. وقد كتبت المؤلفة النسوية أليكسا هيبورن الآتي بشأن النظريات العليا (metatheories):

> إن تلك عناصر الثقة تخلق/تعيد خلق "عنف تجاه الآخر"، تهميشــا لبعض قطاعات السكان -كالنساء والأطفال والأقليات العرقية- بما يؤدي إلى ما يتبعه ذلك من التحول إلى فئة مغلوبة على أمرها. . . . ويترتب على ذلك أن التحليل ما بعد الحداثي لخطاب المشاركين والمشاركين، عند كونه منتبها للطرق التي يمكن للســلطة بهــا أن تعمل من خلال السرديــات العليا، قد يوفر لنا نحن النســويات الأدوات التي نحتاجها لمواجهة وتحدي الحكايات الكبرى التي تنظم حياتنا- (Hepburn، 1999، Postmodern Politics section، para. 6).

وهكــذا تكون ما بعد الحداثة النســوية (feminist postmodernism) منتبهة جدا لكيفيــة تواطؤ النظريات الشــاملة مع تهميش النســاء وغيرهن مــن الأقليات، وكذلك

إضـــفاء الجوهرية علـــى الاختلاف. وتقدم ما بعد الحداثة منهجا لتفكيك الفئات الشـــاملة (totalizing categories)، بما فيها تلك التي تهم النســـويات، مثل فئة النوع (gen-der). وهكذا يمكن لمابعد الحداثة النســـوية أن تواجه على سبيل المثال السرديات الثقافية حول الأنوثة والذكورة والتي كان يمكن لها أن تمر دون مواجهة، على الرغم من أن الدراسة المتفحصة تكشف كيف أن الأفكار المتنوعة أو أجزاء السردية تعمل بحيث تدعم إحداها الأخرى.

وقد احتلت جوديث بتلر صـــدارة التنظير النســـوي في هذا المجال، إذ تتحدى أعمالها وتواجه الأســـس النظرية للسرديات الكبرى، بينما تقدم بديلا قويا للنســـويات يقوم في جوهره على التوقف أمام الكيان الذي تتكون عليه الذوات.

الإبستمولوجيا النسوية مابعد الحداثية: الذات

إن الباحثـــات النســـويات المتأثـــرات بالمقاربات مابعـــد الحداثية لبنـــاء المعرفة، وتحديدا المدرسة الفكرية الفرنســـية، اعتمدت على فكرة "موت الإنسان"، والتي تتساءل حول إبســـتمولوجيا الحداثة المتمحورة حـــول الـــذات (subject-centered epistemol-ogy). عن الذات الحداثية المشـــتقة من الفلسفة الديكارتية تقوم على تصنيفات ثنائية مثل العقل/الجســـد والذكر/الأنثى، وهو منظور للذات قام بتشـــكيل النساء باعتبارهن أدنى مرتبة من الرجال. وقد ارتأت الكثيرات من نســـويات مابعد الحداثة أنه إلى حين تغير تصـــورنا عن "الـــذات" لن نتمكن من تغيير عدم المســـاواة الراســـخة في بناء المعرفة في العلـــوم الاجتماعية الحديثة. وبالتالي تعتبر نســـويات مابعد الحداثة أن تغيير تصـــورنا عن الذات هي مهمة حيوية ضرورية إذا كان لنا أن نحقق أهداف النســـوية. فبينما نجد أن مفكري ما بعد الحداثة الذين تم تناولهم في الجزء الســـابق من هذا الفصـــل قد طرحوا تحديات شـــبيهة بذلك أمام مفهوم الذات الديكارتيـــة، فإن غالبية الجهد التنظيري لم يقم

سوى بالنزر اليسير من حيث التوقف أمام مفهوم النوع، ومن هنا أضافت مفكرات ما بعد الحداثة النسويات إضافات بالغة إلى الأدبيات في هذا المجال بما قمن به من إضافة النوع إلى النقد ما بعد الحداثي للذات (Hekman، 1991، p. 46). وإن الاهتمام بالتأمل الفكري ووضع تصور للذات ليس مجال اهتمام نسوي جديد، فعلى مدار عقود طرحت النسويات أسئلة مثل "كيف يتم تشكيل وتعريف النساء بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها؟" فكما تشير سوزان هيكمان، لقد وجهت سيمون دي بوفوار جزءا كبيرا من كتابها الشهير عن "الجنس الثاني" (Simone de Beauvoir، The Second Sex، 1972)، لتناول مثل تلك المسائل. وكذلك قطعا لطالما اهتم باحثو وباحثات إبستمولوجيا الموقعية بالذات، وتحديدا كيفية اكتساب الذات الأنثى لتجارب حياة ورؤية وصوت معين بناء على شغلها مكانة اجتماعية تابعة. وعلى الرغم من التاريخ الطويل للنسويات في التعرف على والاعتراف بمركزية مفاهيم الذات، فإن مفكري ما بعد الحداثة يرون أن البحث النسوي لم ينظر لإعادة صياغة الذات وتكوينها التي يؤدي في نهاية الأمر إلى فكفكة المنطق الديكارتي القائم على التشكيلات الثنائية التي طالما قهرت النساء (وغيرهن من الأقليات). واعتمادا على التطورات في نظرية ما بعد الحداثة (ونظرية التحليل النفسي) قدمت النسويات تحديا كبيرا أمام الآراء المسبقة بشأن الذات، كما قدمن إعادة صياغات عدة تتماشى مع خصائص كل من النسوية وما بعد الحداثة. وتشير سوزان هيكمان إلى تأثير ما بعد الحداثة على البحث النسوي الصادر مؤخرا في هذا المجال، قائلة:

> لقد لجأت العديدات من المنظرات النسويات إلى نظريات مابعد الحداثة للتعبير عن مقاربة جديدة للذات. فما بعد الحداثة ترفض إبستمولوجيا الحداثة الثنائية مؤكدة على أن التعارض ظاهري فحسب، وأن الاستقطاب المفترض كامن داخل طرفيه. إن مفهوم اللغة والمعنى الذي تبنته ما بعد الحداثة يتضمن إزاحة الذات الحداثية عن الصدارة هي وما

تبعهــا من ثنائيات. كما يرفض ما بعد الحداثيــين المفهوم القائل بأن المعنى مشــتق من العلاقة بين الكلمات والعالم، طارحــين مقولة بديلة مفادها أن المعنــى نتاج داخلــي لآليات اللغة. كمــا يرون أن المعنــى يأتي من تفاعل العلامة والمدلول داخل الصيغ الخطابية للغة. ومن تداعيات المفهوم ما بعد الحداثــي للغة والمعنى هو أنه يتم بموجبه إزاحة الذات عن مكانها المركزي كأصــل للمعنى والحقيقة. ويؤكد مابعد الحداثيين على الطريقة التي يتم بها تكوين الذوات داخل الصــيغ الخطابية، ولكنهــم لا يحلون الذات المتكونة محل الذات المكونة، وإنما يدهمون مفهوما للذات يعمل على تفجير الثنائية بــين ما هــو متكون وما هو مكــوِّن، وذلك من خلال إزاحة المعارضــة. (Hekman، 1991، p. 47).

وبــكلام آخر فإن النســويات المتأثرات بما بعد الحداثة قمن بأشــكال متنوعة بتطوير مفاهيــم جديدة للذات تــرى الذات باعتبارهــا إلى حد كبير متكونة (بــدلا من أن تكون مكونة)، على الرغم- وكما ســنرى لاحقا- من أن ذلــك لا ينفي الفاعلية (agency). وتدعــو جوديث بتلر النســويات إلى عدم الخوف من دعوى مــا بعد الحداثة بأن الذات قــد "ماتت" باعتبارها بالضرورة مقولة تهدد مشروع النســوية، وإنما تشــجعهن على التوقــف أمام كيفية إنتاج الذات وكيف يمكن للمفهــوم التقليدي لـ "الذات" أن يكون في الواقع في خدمة القهر:

توجد مقولة متكررة حاليا بأنه في اللحظة التي بدأت فيها النســاء في احتلال موقع الــذات، إذا بالمواقف ما بعد الحداثية آتية لإعلان موت الذات.... ومــن المؤكد وجود موضــع حــذر هنا، وهي أنه في خضــم النضــال نحو الحصــول على الحقوق السياســية والتحولات الديمقراطية، قد نجد أنفسنا نتبنى نفس نماذج الســيطرة التي كنا نخضــع لقهرها، دون إدراك أن أحد الأســاليب التي تعمل بها الســيطرة هي عبر تنظيم الذات وإنتاجها. فما هي

صور الإقصاء والاستبعاد التي مر بها تشكيل الذات النسوية، وكيف تقوم تلك المجالات المستبعدة بالعودة لتلوح في أفق "اتساق" و"وحدة" صيغة الجمع "نحن" النسوية؟ وكيف يمكن لنفس الفئة، أي الذات، أي "نحن" التي يفترض أنها موجودة لغرض التضامن تقوم هي نفسها بإنتاج الانقسام الذي من المفترض قيامها بإخماده؟ هل تريد النساء أن يصبحن ذواتًا طبقا لنموذج يتطلب وينتج نطاقا أماميا من المذلة؟ أم يجب على النسوية أن تصبح عملية تقوم على نقد الذات بشأن المسارات والعمليات التي تنتج وتخلخل تصنيفات وفئات الهوية؟ (Judith Butler، 1992، p. 14-15)

النسوية الفرنسية والذات ما بعد الحداثية

لقد احتلت النسويات الفرنسيات موقع الصدارة في إحداث تفجير جذري وإعادة تشكيل الذات، وقد استوحين ذلك على خلفية نظرية ما بعد الحداثة ومابعد البنيوية الفرنسية. وقد قامت كل من لوسي إيريجاراي (Luce Irigaray) وإيلين سيكسو (Hélène Cixous) وجوليا كريستيفا (Julia Kristeva) بتطوير نظريات مهمة عن الذات، ولكن نظرا لضيق المساحة هنا فسوف أركز على أعمال جوليا كريستيفا. وقد تأثرت جوليا كريستيفا بعلم السيميوطيقا واللغويات والتحليل النفسي، فأصبحت من قادة تجذير وتثوير هذا الموضوع (وشخصية مثيرة للجدل في هذا المجال). فبناء على مدرسة لاكان (Lacan) طرحت جوليا كريستيفا وجود ثلاث ذوات (جمعية) تتشكل تبعا لأنواع خطاب مختلفة، فتقول:

الذات لا تكون أبدا موجودة، وإنما الذات هي مجرد عملية التدليل (sig-nifying)، ولا تتبدى الذات إلا باعتبارها ممارسة تدليل، أي مجرد عند غياب الذات داخل الموقع الذي يتكشف عنه النشاط الاجتماعي والتاريخي

والتدليلي. فلا يوجد علم عن الذات، وأي فكرة بشأن التمكن من الذات هي فكرة صوفية: فكل ما هو موجود إنما هو مجال الممارسة، حيث يمكن عبر تمدد الذات أن يتم توقعها في مستقبل مسبق دائما. (Julia Kristeva، 1980، p. 215).

وبكلام آخر، فإن الذوات لا تشكل، وإنما يتم تشكلها تبعا لعديد من الممارسات الخطابية، وهي نقطة انطلاق تبتعد جذريا عن الذات الديكارتية التي تخلق المعرفة، وتكون عارفة، ومنتجة، وسيدة على معرفتها. أما بالنسبة لجوليا كريستيفا فإن الذات هي نتاج الثقافة، وتحديدا أن الخطابات المتعددة هي التي تشكل الذوات. وهو أمر مهم خاصة بالنسبة للنسويات التي يتعاملن مع فكرة ما إذا كانت هنالك "أنوثة" فطرية كامنة (وإذا كان الأمر كذلك، فمن الذي يحددها ولأية أغراض). وتعترض جوليا كريستيفا على هذا الشكل من أشكال الجوهرية، واتساقا مع بقية نظريتها توضح لنا أن "الأنوثة" تتشكل عبر تعددية الخطابات، وتشير بالتالي إلى "الذات" لا باعتبارها كيانا ثابتا، بل على أنها "ذوات ضمن عملية". وهو مكون أساسي في نظريتها، إذ يتيح للذات المتسمة بالتحدد والإصرار أن تحتفظ بإمكانياتها الثورية، أي القدرة السياسية وإمكانية المقاومة، أي الفاعلية (agency). وسوف أعود إلى سياسات النسوية ما بعد الحداثية لاحقا في هذا الفصل، وسأواصل حاليا حديثي عن إبستمولوجيا ما بعد الحداثة النسوية.

إبستمولوجيا ما بعد الحداثة النسوية

إذا أخذنا في الاعتبار فكفكة الذات الديكارتية التي شكلت بناء المعرفة على مدى قرون، فليس من المستغرب أن تكون ما بعد الحداثة قد ألهمت الباحثات النسويات بإعادة التفكير في "التجربة" (experience) كفئة من فئات بناء المعرفة.

• ما التجربة؟

بالنسبة للذات المتشكلة خطابيا، والتي لم تعد هي مركز بناء المعرفة وحاملة "الحقيقة"، فما التجربة؟

إن النسويات اللاتي طال اهتمامهن بغياب "تجربة النساء" في بناء المعرفة (وبناء المجتمع بشكل أوسع) أكثرن من تأكيد تجربة/تجارب النساء كدليل على الموقعية الفريدة للنساء في المجتمع تراتبي البنية، و/أو تقديم الدليل على على مواقع النساء وأفكارهن ومشاعرهن، وما إلى غير ذلك. وباختصار فإن التجربة تعتبر بالنسبة لكثير من النسويات بمثابة حجر الأساس الذي يقوم عليه عملهن. ونجد أن ما بعد الحداثة ومفهوم "الذات ضمن عملية" يضفيان الإشكالية على هذه الرؤية بشأن "التجربة" مما أدى إلى نشأة طرق بديلة يمكن للنسويات تأمل التجربة من خلالها.

وترى جوان سكوت أنه بتشكيل التجربة كنقطة مركزية في بناء المعرفة، قامت النسويات -عن غير قصد- بتغييب العمليات والمسارات التاريخية والخطابية التي تخدم كأساس لتلك التجربة. ومثلها في ذلك مثل الذات المتشكلة خطابيا، فإن التجربة تتشكل بالممارسات الخطابية، ولا يمكن أن تنشأ "المعاني" التي نوجدها من حكي تجاربنا بدون عملية الدلالة (signification)، فالتجربة متصلة اتصالا وثيقا بالخطاب، وفي ذلك توجز جوان سكوت موقفها كما يلي:

> ليس الأفراد هم من يملكون التجربة، بل الذوات التي يتم تشكيلها هي التجربة. وطبقا لهذا التعريف فإن التجربة لا تصبح بالتالي أصل التفسير، ولا الدليل الحاسم (بسبب تمتعه بسلطة مرئية أو محسوسة) الذي يحدد أساس ما هو معروف، وإنما التجربة هي ما نسعى لتفسيره، وما يتم إنتاج المعرفة عنها. (Joan Scott، 1992، p. 25-26)

وحـين يتم طرح الذات الديكارتية للتساؤل وتفكيكها فلا تعود الـذات مركزا لبناء المعرفة ودعاوى الحقيقة، حينها يحدث تحول أيضا في رؤيتنا للتجربة. فالتجربة بمعناها ما بعد الحداثي النسـوي جـزء من المجال الخطابي الذي تتشـكل فيه الذوات وتتحول. كذلك نجـد أن نظرية جوديث بتلر عـن الاستعراضـية (performativity) ترى أن النوع (gender) يتشكل داخل المجالات الخطابية.

إن العلاقة بين مابعد الحداثة والأهداف النسـوية هي علاقة واضحة للبعض، ولكن يبدو للبعض وجود فجوة بينهما بسبب رفض ما بعد الحداثة للفئات الجوهرية مثل "تجربة النسـاء" والتي أثبتت فائدتها الجمة بالنسبة لكثيرات من الناشطات النسويات. ومن هنا يوجد نقاش متسع بين النسويات بشأن مكان نظرية ما بعد الحداثة داخل النسوية، وهي قضـايا يتم تناولها في الجزئية اللاحقة التي تناقش الإمكانات السياسـية للنسـوية ما بعد الحداثية. ولكن قبل الانتقال إلى تلك النقطة قد يكون من المفيد أن نستمع إلى آراء الباحثة النسـوية ما بعد حداثية التي تجد تزاوجا وثيقا بين ما بعد الحداثة والنسوية في أبحاثها في مجـال علم النفس. فلننتقل الآن إلى مقطع "ما وراء السـتار" مع عالمة النفس النسـوية الشهيرة ليسا كوسجروف حيث تتوجه مباشرة إلى داخل هذا الجانب من النقاش متحدثة عن بداياتها الأكاديمية، والجدل الإبسـتمولوجي الأوسع القائم بين النسويات، وتقديم مثـال على البحث الإمبيريقي، ثم تنتهي بإيضـاح جميل أن "النسـوية مابعد الحداثية" ليست تعبيرا متناقضا بل إن "الطريق الوحيد للخروج هو العبور".

ما وراء الستار مع ليسا كوسجروف

"الطريق الوحيد للخروج هو العبور". (الانيس موريسيت)

عنـد التعرض للمواجهة بصـعوبة القيـام بأبحاث في العلم الإنسـاني، تعتمد الكثـيرات من النسـويات على مناهج مجربة وصـادقة. وببسـاطة، حين يحل

الشـك، عليك بالعدّ. فهناك افتراض بأن "النتائج الصـالحة" لا يمكن الحصول عليها سـوى بإعداد دراسـات تستخدم مناهج إحصـائية متعددة المتغيرات، فإذا كان بوسعك إطلاق المسميات -مثل بناء النماذج العلّية، الدوران قائم الزاوية، وانحـدار المسـتقيم (causal modelling، orthogonal rotation، lin-ear regression)- فأنت بلا شـك باحثة/باحث "حقيقي". وعلى مدى العقدين الماضيين، أخذ عدد متزايد من النسويات في مراجعة ذلك الافتراض، مع التأكيد على أن مناهج البحث الكيفي، لا الكمي، هي الأنسـب لدراسة التجارب المتأثرة بالنـوع. وقد تم إفرد العديد من المقـالات في الدوريات، والكثير من المقالات، وربمـا المئـات من المشـاركات في المؤتمرات لمناقشـة ذلك الجدل المحتدم بشـأن الأسلوب الأفضل لدراسة تجارب النساء.

ونظرا لبداية تخصصـي في مجال على النفس الإكلينيكي، قمت بأبحاث كمية وكيفية، وأرى أن القضـايا الإبسـتمولوجية هي المسـألة الحقيقية (انظر/ي على سـبيل المثـال: Ussher، 1999) إذ نجد أنفسـنا نتناقش حـول مزايا كل مدخل أو مقاربـة أو حتى حين نتصـور أننا قد قمنا بحل المشـكلة بالقول "حسـنا، يجب اسـتخدام كلا المنهجين، الكمي والكيفي." ولكن لا يوجد حل بسـيط، والطريق الوحيد للخروج من تلك المعضـلات الإبسـتمولوجية هي الدخول فيها وعبورها منهـا، فعلينا أن نتعامـل مع التخبط والتعقيد الذي يشـوب محاولة "القيام ببحث نسـوي... وخلق خطـط بحثية تحمل تمكينـا" (Lather، 1991، p. 71) في عالم ظالم. وقد وجدت فائدة فيما بعد الحداثة من حيث اسـتجابتها للمسألة المعقدة الخاصـة ببناء المعرفة في عالم ظالم. ولكني لا أرى بأية حال من الأحوال أن ما بعد الحداثة هي الحل "الأوحد".

لقد بدأت بداية تعرفي على البحث ما بعد الحداثي في فترة مبكرة من دراستي، فعلى العكس من معظم برامج علم النفس الإكلينيكي، كان البرنامج الذي درسته يتضـمن تركيزا فلسـفيا كبيرا. وقد كان تعرضـي للبحث ما بعد الحداثي أثره في

مساعدتي وإرباكي في نفس الوقت كباحثة نسوية، فقد وجدت تحديدا في التركيز على استحالة التوصل إلى علم حيادي القيمة (value-neutral) ما يتماشى مع المبادئ النسوية. فكل شيء يمضي دوما في خدمة المصالح والفارق بين الحقائق والقيم، وبين السياسة والعلم، هي فروق مصطنعة. فقد تم وصف ما بعد الحداثة باعتبارها مشروعا يكشف عن طبيعة الحقيقة التي يتم تشكيلها اجتماعيا وعن المصالح المتنوعة التي تتم خدمتها بتشكيلات وصيغ معينة (Layton، 1998، وانظر/ي أيضا: Fairfield، Layton، & Stack، 2002). ونجد أن ما بعد الحداثيين يأخذون مأخذ الجد مقولة نيتشه بأنه حين يؤكد شخص ما حقيقة ما، فيجب سؤاله أو سؤالها: "وماذا يعود عليّ من ذلك؟" وهكذا يرى ما بعد الحداثيين أنه من المستحيل اكتشاف حقائق عامة عن السلوك الإنساني، ويطرحون الأسئلة بشأن الفئات والتصنيفات في حد ذاتها التي يتمسك بها علماء الاجتماع، كالاضطراب العقلي أو النوع. وبالتالي تقوم مابعد الحداثة بوضع القضايا الإبستمولوجية والمنهجية والسياسية في موقع الصدارة.

ولعل ذلك الوصف الموجز يدفعك للتفكير في وجود اتساق كبير بين النسوية وما بعد الحداثة. وهو كذلك بالفعل، فالنسويات وما بعد الحداثيين والحداثيات يعترفون بما في التجربة من ثراء وكثير من التناقض، كما يعترفون بأهمية مقاومة الإجابات السهلة، ومدى التعقيد في القوى وعلاقات القوى. ولكن توجد أيضا بعض النقاط الخلافية الكبرى، والتي توجد مساحات لصراع لا يسهل حله، فعلى سبيل المثال قد يكون من الممكن معارضة الفكرة القائلة بأن "الاضطراب العقلي" هو فئة تصنيفية عامة يمكن تحديدها وقياسها إمبيريقيا، ولكن معارضة فكرة النوع هي مسألة مختلفة تماما. فالنوع (gender) هو في نهاية الأمر المثال التقليدي، الذي يقدم في مقررات مناهج البحث في مستوى الدراسة الجامعية، على المتغير المنقسم (على النقيض من المتغير المتصل). إن طرح فكرة كون النوع مسألة غير فطرية، وأنه ليس متغيرا مستقلا بل يفضل

فهمــه باعتباره استعراضــا، أي أمرا نفعله لا أمرا بداخلنــا نملكه (انظر/ي على سـبيل المثــال: Butler، 1993)، أليس في ذلك الطــرح مبالغة؟ وفي حالة عدم وجــود حقائق عامة، فكيــف يمكن التأكيد علــى وجود مبادئ نســوية؟ وبكلام آخر، ألا يؤدي تبني منظور ما بعد حداثي إلى نزع الســمة السياسية عن برنامج البحث النســوي؟ ودون إنكار حقيقة وجود علاقة ملتبســة بين النســوية وما بعد الحداثة، سأوضــح في الجزئية التالية ما الذي أوصــلني إلى نتيجة مفادها أن "ما بعد الحداثة النسوية" ليست تعبيرا متناقضا.

فمنذ عدة سنوات، بدأت مع مجموعة من طالباتي في الدراسات العليا، بالقيام ببحث حول الدورة الشــهرية، وعلى وجه التحديد انصــب اهتمامنا على العلاقة بين تشــكيلات الهوية النوعية الأنثوية وبين تجارب التوتر المصــاحب للطمث. ومع إدراكنا للجدل الدائر حول مدى صحة "توتر ما قبل الطمث" (PMS) -إذ تؤكد بعض النســاء بشــدة علــى أن توتر ما قبل الطمث هو كيــان إكلينيكي مميز واضــطراب "حقيقــي"، بينما تؤكــد أخريات على عــدم وجود "توتــر ما قبل الطمث"- فأردنا وضــع خطة بحث تتجنب تحديد خيار ما بين إما/أو، أي إننا لم نكن نريد تحويل أجســاد النساء ووظائفها الإنجابية إلى حالة باثولوجية مرضية، كمــا أننا لم نكن نريد إبطال تجربة النســاء اللاتي يرين أنهن يعانين من توتر من قبــل الطمــث. وكان اتباعنا لمنظور ما بعد حداثي دور في مســاعدتنا على تجنب تلــك الثنائية الزائفة نظرا لكونه منظورا يؤكد طبيعة التجربة باعتبارها خاضــعة للتشكيل أو الوساطة، من حيث كون توتر ما قبل الطمث يتكون أو يتم إنتاجه من خلال لغة النموذج الطبي*.

إذ تضــع النساء أنفســهن في مواقع بعينها، كما يتم وضعهن في مواقع معينة، بواســطة ممارســات عديدة (على ســبيل المثال من خلال المجلات التي تتضــمن مقالات على شاكلة "هل عندك توتر ما قبل الطمث؟"، والأدوية مثل بروزاك/

ســارافيم "لعلاج" توتــر ما قبل الطمث)، والكنايات (مثــل اعتبار الطمث عارا أو نجاســة، . . . إلخ)، والخطابات (مثل النمــوذج الطبي لخطاب توتر ما قبل الطمث). وقد ساعدنا الإطار المرجعي ما بعد الحداثي في إدراك أن طرح السؤال "هل توتر ما قبل الطمث حقيقي؟" ليس ســؤال البحث الأنســب. وقد جعلنا هذا الإطار العام نركز انتباهنا على الطرق التي تفسر بها النســاء توترهن الجســدي والعاطفي داخل الخطابات الســائدة عن الأنوثة وتوتــر ما قبل الطمث. وبكلام آخر، فبدلا من محاولة التوصــل إلى حقيقة كامنة أو عامة حول تجارب النساء، حاولنا وضع خطة بحث تتناول السياق الاجتماعي والسياسي لتلك التجربة.

ولذا انطلقنــا من فكرة أن معنى "وجود توتر ما قبل الطمث" يتم تناوله داخل صور مجازية سائدة عن الأنوثة والطمث. وكان من أكثر الجوانب المثيرة للانتباه في دراســتنا هــو أن خطاب توتر مــا قبل الطمث قد انتشــر في الثقافة الدارجة بما يجعل النساء يتوقعن تعرضهن لتوتر ما قبل الطمث، بحيث أصبح مسألة معيارية حتميــة لا حالة شــاذة. كذلك قامت المشــاركات بوصــف تجربتهــن لا من حيث مرورهن بتوتر ما قبل الطمث وإنما أيضا من حيث كونهن ذواتا مختلفة، أي إن الذات في حالة توتر ما قبل الطمث جاءت باعتبارها ذاتا "سيئة" أو إشكالية بشكل أساسي، ومتناقضة مع ذات المرأة الحقيقية أو غير الخاضعة لتوتر ما قبل الطمث. وفيما يتعلق بمشــاعر "التوتر" أو "الغضب"، وهما العاطفتان الأساسيتان اللتان اعتبرتهما النســاء من أعراض الذات الخاضعة لتوتر ما قبل الطمث، هي مشاعر لم تمــر بها النســاء باعتبارها تجربة تعبر عن اســتجابة عاطفية جديرة بالاهتمام. ومــن اللافت للانتباه ملاحظــة أن الأنوثة المعيارية تتطلب ســكينة وانســجاما لا تلوثه أية مشــاعر ســلبية، فمن المســتحيل الجمع بين الأنوثة والتوتر. عن وضع الذات داخل خطاب توتر ما قبل الطمث يتيح لنا مواصــلة الســعي لتحقيق الصور المثاليــة للأنوثة، وإن "أنا الحقيقية" أو الذات غير الخاضــعة لتوتر ما قبل الطمث

هي الـذات التي تحقق تلك الصـورة المثالية، بينما الذات الخاضعـة لتوتر ما قبل الطمـث هي انحراف مضطرب عن ذلك المثال. وهكذا يعمل خطاب توتر ما قبل الطمث على تشـجيع النساء على إنكار التجارب الشـعورية السلبية التي تزعزع صـور الأنوثة الراسـخة ثقافيا (أي: "أنا لست غاضبا حقا، إنه مجرد توتر ما قبل الطمث"). وهكذا ساعدنا استخدام مقاربة ما بعد حداثية على دراسة تجربة النساء دون وضع النوع في شكل مادي ملموس أو جوهري.

وإنني أتمنى أن يكون ذلك المثال الموجز قد أوضح أن إدماج بعض الأفكار ما بعد الحداثية في البحث النسوي يضفي عليه البعد السياسي ويدعم جهودنا البحثية، فهو يضفي البعد السياسـي على البحث لأننا حينها نتحول من تفسيرات للتجارب ما بين الأفراد إلى تفسـيرات بنيوية وسياسـية اجتماعية. إن مابعد الحداثة تدعم عملنا لأنها تشـجعنا على مقاومة الفكر الانقسامي، وعلى إعادة دراسة فرضياتنا الكامنة، وعلى إدراك أن الطريق الوحيد للخروج هو العبور.

الهوامش

* لم نكن نحاول إنكار تجارب النساء اللاتي يقلن بأنهن يتعرضن للتوتر قبل فترة الطمث أو خلالها، كما لم نكن نشير إلى أن التغيرات الهرمونية لا يمكن أن تؤثر سلبيا. حقا إن طرح سؤال حول عما إذا كانت معدلات الهرمونات تختلف على مدار الدورة الشهرية ليس سؤالا ضد النسوية، وإنما ما هو ضد النسوية هو أن نفترض أن الجسد مجرد شيء طبيعي أو "متغير مستقل نسبيا، بدلا من أن يكون متغيرا أيديولوجيا غير مستقل" (Zita, 1989, p. 200).

لقد قدمت ليسـا كوسـجروف مثالا قويا على كيفيـة إمكان أن تكـون مابعد الحداثة والنسـوية جزءا من إضـفاء البعد السياسـي على البحث، وهو مثال مخالف لكثير من المراجعات النقدية الناقصـة. ومن هنا أنتقل إلى مناقشـة النشاط النسوي مابعد الحداثي ومكوناته المختلفة.

ما بعـد الحداثة والعمل النسـوي: الفاعليـة والتقويض والمقاومة/ الثورة السياسية

> في مكان ما يكون لكل ثقافة حيز خيالي لما تقوم تلك الثقافة باستبعاده، وهو الحيز الذي يجب علينا اليوم تذكره. (Cixous & Clément, 1996, p. 6)

لعل ساره هيربولد هي أفضل من عبرت عن الوضع بقولها إن الأمر بالنسبة للبعض يبدو وكأن ما بعد الحداثة والنسـوية لهما أهداف متناقضـة. فالنسوية تسعى إلى القضاء على قهر النساء عبر سياسات الهوية، وتسعى ما بعد الحداثة إلى تفكيك مصطلحات مثل النساء باعتبارها فئة شاملة زائفة (Sarah Herbold، 1995، p. 85). وأرى أن ما نسـمعه من نقد عال لما بعد الحداثة داخل المجتمع النسـوي هو نتيجة لتلك الأهداف التي تبدو متنافرة، مع وجود اعتقاد بعدم إمكانية تجاوز تلك الفجوة. فالنقد الأساسي الموجه لـما بعد الحداثة النسـوية يرتكز على السـؤال التالي: إذا أخذنا في الاعتبـار رأي ما بعد الحداثة القائل بأن الذات تمر بعملية مسـتمرة، وكذلك موقف ما بعد الحداثة ضد الفئات الجوهرية، فهل تتماشى ما بعد الحداثة مع الالتزامات السياسية النسوية؟

إن الخوف الذي يدفع بذلك السؤال هو كالآتي:

- هل ستدفع ما بعد الحداثة النشاط النسوي إلى الخلف؟

بالنسبة للباحثات النسويات فإن الإجابة على هذا السؤال هي إجابة تصدح بكلمة لا. ففي الواقع تتسـق ما بعد الحداثة اتسـاقا عميقا مع الأهداف السياسية للنسوية، فهي تعقد سياسات الهوية ولكنها لا تهجر جهود الرائدات النسويات.

ولا شـك في أن النسـويات حققن تقدما كبيرا عبر ما يشار إليه عموما بعبارة سياسات الهويـة (identity politics). وبخلاف ما في نظرية ما بعد الحداثة من تشـابك وتعقيد يجعل من الصـعب فهمها، فإن النقد والخوف الأكبر من تلك النظرية يتمثل في أن مابعد

الحداثة تنكر بشكل ما صوت النساء، في حين أنه لأسباب عملية وبراجماتية كانت الفئات الجوهرية مثل "تجارب النساء" مفيدة في النضال النسوي، وبالتالي فالنسويات قلقات من التنازل عما ثبتت فاعليته. وقد سارعت النسويات ما بعد الحداثيات في التحذير من أن الاعتماد على فئات تصنيف مثل "تجارب النساء" إنما يسعى إلى تعضيد الهيمنة وتطبيع التصورات السائدة حول النوع دون الالتفات إلى المجالات الخطابية التي يتم فيها التعبير عن النوع. إن نسوية ما بعد الحداثة تتيح للباحثات تفكيك أنماط النوع بدلا من تحديدها ماديا أو تنظيمها (Cosgrove، 2003)، وبالتالي فإن الأبحاث التي تتم من منظور النسوية ما بعد الحداثية تواجه ما في الإمبيريقية النسوية وإبستمولوجيا الموقعية من جوهرية. عن مابعد الحداثة تقدم للباحثات النسويات أساليب جديدة لخلق التضامن.

وكما سبق الحديث، فإن كتابات فوكو تذكر أن السلطة والمجالات الخطابية التي نتحرك فيها هي التي تنتج الذات، وتضيف جوديث بتلر إلى ذلك موضحة أن هوية النوع (gender identity) يتم إنتاجها في منظومة خطابية حيث الأنوثة فيها هي "حضور مثالي" (Butler، 1993، p. 232). ومن الممكن خلق سياسة نسوية موحدة ترى هوية النوع كنتيجة لعوامل القوى، وباعتبار الهوية مسألة عارضة (وهو أمر لا يجعلها أقل "حقيقية" في تجارب الناس معها). وبالتالي يمكن للنسويات حقا البدء في كشف الأفكار الخاصة بالنوع والتي تصبح سائدة وتشكل الذوات الفردية كلا على حدة.

> في حالة وجود خوف من أن النسوية ستنهار عندما تتوقف عن اعتبار الذات أمرا مفروغا منه، من حيث نوعها وجنسها أو وجودها المادي، فربما يكون من الحكمة تأمل التداعيات السياسية المترتبة على الحفاظ على الفرضيات التي عملت منذ البداية على ضمان تبعيتنا. (Butler، 1992، p. 19)

وقد قررت أن أختم هذا الفصل بطريقة قد تكون غير تقليدية، بما أشعر أنه يتماشى مع بعض ما جاء في البحث ما بعد الحداثي. وفيما يلي مقطع "من وراء الستار" عن الباحثة النسوية المعروفة باتي ليذر.

ما وراء الستار مع باتي ليذر

مقدمة المسرح/خلفية المسرح: أي عرض وأين؟

فيما يلي مقتطفات من مراسلات تمت بالبريد الإلكتروني والخطابات ما بين عامي 1997-1996 مع إليوت ميشلر، أستاذ علم النفس الاجتماعي في كلية طب جامعة هارفارد، والذي كنت قد أرسلت إليه نسخة من مطبوعة لي عن صحة وجود الملائكة (Lather، 1995) ونسخة إلكترونية من طبعة كتاب عن "إزعاج الملائكة" (Lather & Smithies، Troubling the Angels، 1997). وقد جاء رد فعله على الكتاب "متقلب المزاج وضيق الصدر"، ولم أكن متيقنة على الإطلاق من إمكانية قيام "حوار بناء" مع ما به من "انزعاج من الكتاب". وقد جاء خطاب ممتد لأكثر من أربع صفحات من الطباعة بمسافة واحدة صغيرة بين السطور محددا "رد فعله السلبي"، ولكني لا أعتقد أني أرسلت إليه الخطاب التالي، رغم التقائنا لتناول القهوة في مقهي كولومبوس بعدها بسنوات، وظل يرسل لي "قصاصات عن الملائكة" لأنه لم يكن "قد حلف يمينا بعدم فعل ذلك".

ويأتي العنوان مستوحى من جوديث بتلر التي تطرح في كتابها عن "مشكلة النوع" سؤالا هو "أي عرض وأين؟" من حيث تقويض ثنائيات النوع (Judith Butler، Gender Trouble، 1990، p. 139). كما يأتي العنوان مستوحى أيضا من رواية إثنوجرافية درامية لصاحبها إيرفينج جوفمان (Erving Goff-man، 1959)، مع قلب فرضياته بأن الشيء الأصدق والأكثر أصالة موجود فيما وراء الستار. عند توسيع تلك المقارنة للحديث عن كتاب أوضح أنه إذا كانت "خلفية المسرح" هي المكان الذي يدور فيه العرض الخاص غير المواجع وغير المقصود الاستهلاك العام، فإن "مقدمة المسرح" هي ما يتم نشره. ومع ذلك فإن فيما يلي الكثير مما تم إعداده للعرض على جمهور، وما أدعيه لا يحمل أي صدق أو أصالة أكثر من عرض كتاب "إزعاج الملائكة" في مقدمة المسرح، والمتلئ فعليا بكثير من مطاوعة ذات (self-reflexivity). ولكن بدلا من ذلك

أقدم هنا طبقة أخرى من الموضوع بغرض الإشارة إلى حدود عروض مطاوعة الـذات وما يذكره فوكو على أنه الثمن الذي ندفعه لقول الحقيقة عن أنفسـنا. إن هـدفي هو "عرض" ما هو بعـد حداثي في تلك الإيماءة التي تسـتخدم وتربك في الوقـت نفسـه مفهوما من مفاهيم الإطـار العام الذي نفكر في أننا لا نسـتطيع أن نفكر دونه: أي في حالة محو. (للحصـول على نموذج كلاسـيكي لفك التفكيك، انظر/ي: Gayatri Spivak، 1976، وللحصـول على رأي أحدث انظر/ي: Caputo، 1997، ولمثال ممتد انظر/ي: Lather، 2007).

عزيزي إليوت،

في قراءتي لقراءتك، أود أن أظن متفاعلة مع عدم اليقين، فلا أسـمح لقراءة دون الأخرى أن تتملك الكتاب. وبشكل ما فإنه أمر يختلف جدا عن انتقاد الذات في الحداثـة، وأنا أحـاول أن أنتبه إلى الطريقة التي يقع فيها الكتاب فيما يجب أن يرفضه. ولذا أشكرك على تفاعلك الصريح.

لقد كنت أحاول تجنب كل سـذاجة عاطفية وتفاهة وانغماس ذاتي. ألا أخشى من إثارة عواطف كبيرة، ولكن أن أفعل ذلك بمسؤولية كثيرا ما كنت أشعر بأنها مهمة أكبر مني، وربما أنني لست متمكنة من الكتابة بالقدر الذي يجعلني أنطلق. وقـد تعددت طموحاتي لهذا الكتاب على عدة مسـتويات، وكنت متأهبة لمواجهة قصوري، يدفعني إحسـاس قوي بالمخاطر التي صاحبتني مثلا عند الحديث عن الملائكة. ربما أكون قد تجاوزت حدود نفسـي، أحرجت نفسي، مجال البحث، أيا ما كان الأمر، بنزعة نسـوية متسربة، تجاوز للحدود. والآن وقد أرسـلت مراجعتي النهائية (أكتوبر 1996) أجد نفسـي أمام فشـل النص في تحقيق أهدافه الطموحة، مع نوع من الإحسـاس بالسلام الداخلي. عبر قراءة والتر بنجامين أرى أن الكتـاب "تالف من بدايته" وأستشـهد بقولي مـن الكتاب قائلة "أكثر مما يجب، أقل مما يجب، متعجل أكثر مما يجب، متأخر أكثر مما يجب".

تقول إن الكتاب "يضـغط على القراء لقبول أفكاره" ومليء بأبعاد "أوزيو" (Ozhio) عـن "كريس وباتـي متقافزين على الطريق الطوبي الأصـفر لرؤية السـاحر، بأجنحة ملائكية مضـافة." إنه أشـبه برأي ناقدة فـن الرقص أرلين كروتشـي (Arlene Croce، 1994/1995) بشـأن عمل بيل ت. جونز (Bill T. Jones، Still Here)، حيـث تكتب عن كيفية قيام منظور الشـخص غير المؤمن بإنكار الشرعية فيما يتعلق بفن "القهر" الذي يضـع القارئ غير الراضي عن العمل في موقع ذات غير قابلة للتحقق.[1]

لقد وجدت أنت البلاغة اللاهوتية تحديدا قسرية. إنه أكثر كتبي نزعة كاثوليكية بالتأكيد، ولكني أعقتُ ذلك المسار عبر "الرب كخطاب متاح" و"وعي روحاني مابعـد ويكي" [وهي عقيدة تتخذ من الديانات الأوروبية ما قبل المسـيحية أساسـا لها]. وقد كنت حريصـة جدا على اسـتخدام الملائكة لإعاقة مـا لدينا من "تعاليم لاهوتيـة متخفية": التقـدم، والخلاص العلماني عبر "المعرفـة كعلاج"، والعلم الذي يحل محل الرب، . . . إلخ.

إنك ترى الملائكة كعلامة على "النزعة الترانسـندنتالية السهلة" (Bloom، 1996)، ولكنـي أسـتخدم كلا من بنجامين وريلكه لمحاولة القيام بشـيء آخر، حركـة تغريب اعتمادا على حب بنجامين للوحة بـول كلي "أنجيلوس نوفوس" (Paul Klee، Angelus Novus) والتـي وصـفها بنجامين علـى أنها تواجه إلى الخلف كارثة الماضـي، رغبة في جعـل ما تحطم يعود كلا كاملا، ولكن مع التورط في عنف عاصـفة التقدم التي تحمل الملاك إلى المسـتقبل (Benjamin، 1968).

إن مفتـاح فهم علم الملاك لـدى بنجامين هو ما يذكره بول دي مان (Paul de Man، 1986)، عـن ميل بنجامـين إلى القيام في نفس الوقت باسـتخدام أنماط مألوفة وتغريبها بحيث تشـير إلى جاذبيتها الإنسـانية بالنسـبة لنا. وهو يستخدم تحديدا جاذبية مفهوم المسيح لتغريب إحساسنا بما هو إنساني، وزعزعة الأصل، والترجمـة مـع تجاوز النص الأصـلي، والحفـاظ على النص في حالة انتشـار

ودوران، وخلع قيمته الراسخة بجعلنا على وعي بما فيه من أشكال التنافر والتفكك والتكيف والضعف والخديعة والقوالب الثابتة، Paul de Man) 1986، p. 97) . ويعمل بنجامين على نزع القدسية من خلال إضفاء انحرافات على الصور المألوفة لنزع كل ما يتصل بها. إنه التناقض الذي يقع فيه الملاك: تمثيل كيف للغة ألا تستطيع ألا تحمل معنى، وكيف تؤدي إلى التماهي والذاتية والسرد، فأستخدم الملاك لا لاسترجاع نموذج مألوف بل لتقديم الملاك تفكيكيا معبرا عن تاريخه، وتعبيرا عن فشله في أن يحمل أي معنى. لقد أردت تفريغ سرديتنا مقدما وأن أجعلها تولّد نفسها متجاوزة استحالتها.

إن ما تراه "عقد ألفية تسيئه الملائكة"، فإن رأي بلوم لا يرتكز على الملائكة بل على ما نصنعه بها. وقد أجهدت نفسي أيضا في التفكير في هذا الاستخدام للدين والأفكار الروحانية عند تناول ما طرحه بنجامين من مجاورة ومقارنة اللاهوت والماركسية في نظريته عن اللغة والمادية. إن وضع الملاك باعتباره محتالا، وهو عرض يتيح للنزعة الترانسيندينتالية المتجاوزة للواقع أن تكون صاحبة الكلمة الخيرة فقط باعتبارها "رمزا للوهم" (rosen، 1977، p. 38)، هو وضع يعمل على تسليط الضوء على التناقض الحتمي بين العلامة المرئية وصورتها أو معناها، ووضع ذلك التناقض في محل الصدارة. وإنني إذ أفعل ذلك فإنما أحذو حذو بنجامين في محاولته انتحال ما تبقى من ثقافة دينية تحتضر، وخاصة في تياراتها الصوفية النقية، بإضفاء شكل علماني عليها بما يجعلها متاحة مرة أخرى عبر ترجمة أطلالها.

لقد وجدت من المثير للاهتمام أن ما لفت انتباهك هو ملحوظة بحثية وردت في الجزء الثالث من سلسلة الحكايات، وهو ما اعتبرته أنا ربما أكثر لمحة بحثية تقليدية في الكتاب، "تنظير" حيوات الآخرين، و"تحديد موقعهم" ضمن عرض الأدبيات، . . . إلخ. لقد كان ذلك نوعا من حركة "التحليل مع التعرض للمحو." فمن خلال عرض مقتطفات من تسجيلات المقابلات وتداخلها بحيث توجد رواية من الحيز المشترك و"الأفكار الناشئة"، أرى أن الشذرات المأخوذة

من تسـجيلات المقابلات تنتج محاكاة ساخرة لنص بلا وساطة، تمثيلا بالمحاكاة. إن استخدام الصمت لملء الفجوات حيث يكون من المتوقع إيجاد تعليق من الباحثة أو الباحث هي استراتيجية لمقاومة سلطة "شهادة أهل الخبرة"، ثم القيام بمجاورة ومقارنة ذلك ببعض أجزاء النص السـفلي الساري، حيث أقوم أنا وكريس حقا بـ"قول ما تعنيه الأشـياء"، فإنما نقلد أشـكال شـهادة أهل الخبرة، مع تعرضها للمحو، ووضع النظرة للعرض، وجعلها قابلة للمحاسبة.

إنك تثير مسألة عدم القدرة على تتبع نفس الشخص، وهو تشييء يجعل النساء مجهولات، حيث نحيط أصواتهن بأشخاص "حقيقيين"، وهي طبيعة الروايات الأشبه بـ"البيان الصحفي". عن مسعاي هنا كان استبدال نظرية الإرجاء (de-ferral)، لتحل محلها نظرية الجوهـر. وباعتباره عملا أقرب إلى الإرجاء من التصـوير، فالكتـاب بالتالي غير قابل للاختـزال تبعا لمفهوم الواقـع. إنه تفكير من منطلـق الإرجاء، وتعقيد للغـة الوجود: إنه طموح فكري رهيب يسـتدعي بالضرورة عدم الالتزام بمسـار مباشر، انحراف عـن الطريق وتأخر لإعاقة المسعى إلى الوجود. إنه فرض للتعقيدات الجذرية لأية حكاية تعدنا بنقل رسالة ما إلى المرسـل إليه الصحيح – أي استسلام وتسليم لدعوى بساطة الوجود. فبدون مركز، كيف لمثل هذا الشيء أن يبدو للعيان؟

لقد كان هدفي هو الوصـول إلى ممارسـة تتجاوز نية المؤلف أو المؤلفة وقدرة القارئة أو القارئ التأويلية في إنتاج عمل لا عظيم. إنها ممارسة معقدة وطموحة، ومكان للأشباح والأطلال لا الوعي. وفي إطار هذا الطموح قلقت بشأن المعايير العليا التي تحول دون الانتهاء من العمل أبدا.

وعند تقييم فاعليته، أفترض أننا ننجو بذلك من بعض الأسـئلة الوضعية غير المحكمة. إني من خلال خلق التمثيلات لمجرد وضـع قصـورها في الصدارة إنما أرسـل رسـالة أساسية وهي ألا شـيء بوسـعه أن ينجينا من عدم إدراكنا. وهو أمـر لا يمكن تنحيته جانبا، وإنما يجب إدراكه والتعامل معه من كافة الجوانب، إنها أشـكال لا نستطيع قراءتها بشكل مستقر كما يحلو لنا، وربما تكون في أفضل

حالاتهـا مدونــات متحولة ومتنقلة. إن مقدار انفصــالي مسـبقا/حاليا إنما هو في انفصام العمل عن نفسه.

وإنني آمل لقرائي الحصول على ما هو أكثر من قراءة لا تجد سوى ما تبحث عنه، ربما آمل في قراءة تثير الدهشـة، آمل في مكان يشـهد انفصـالا منفرجا، بحيث يجبرنا النص على رؤية ما نراه خارج إطار عادات القراءة الحتمية، آمل في قراءة تختلف أو تفوق ما نريده منها، دوما فائقة ومختلفة، متحولة ومتغيرة.

وعنـد الاسـتماع إلى ردود أفعـال القراء، يكـون هدفي عـدم التعبير بنبرة اعتذارية أو سـاخرة، في محاولة لتحديد معالم شـيء يجمع بين الكون والجسد. وقـد تم المرور بالعديد مـن المجازفات، والمخاطرة بالتعرض للإحراج، سـعيا لتفعيل رغبة التأويل في تحقيق السيادة والعظمة في وجه مقاومة الشيء للفهم التام بواسـطة آلية التأويل، وعالم لن يسمح لنا جزئيا بولوجه. لقد كان الشعار الذي أكـرره هو مقولة موريس بلانشـو "هذا العمل بعيد عنـي" (Maurice Blan-chot، 1982، p. 126). وقـد كنت أشـعر على الدوام بعجـزي عن إعطاء الموضوع حق قدره، وفي محاولتي لوقف نزعتي الرومانسية، رأيت أن مهمتي المحورية في أن أكون عن عمد غير مفهومة داخل الأطر المتعارف عليها، وذلك كي أنتج كتابا عن الوقائع المتنقلة والمتعددة، كتابا عنيدا يعاكس الرغبة في الإجادة التأويلية ويورط الجمهور بدلا من الإقناع أو الإغراء.

إنني أرى نفســي حضورا موجودًا إراديا في الكتاب بدلا من أن أكون عارفة تملك سـلطة بما يجب قوله وفعلـه. ومع ما فيه من مجازفـة "كالمجد أو الجرم" (Melville، 1996، quoting Stanley Cavell) فـإن المخاطر علم يتشـكل في نوع من المادية التي تدرك غياب الأشياء وعدم براءة جهودنا لأن نعرف.

هامش

1-إن عـرض بيـل ت. جونـز الراقـص (Bill T. Jones, Still/Here) يدور حول الحيـاة مع مرض يهددنا بالمـوت. وقد قامت آرلين كروتشـي (Arlene Croce, 1994/1995)، وهي ناقـدة لفن الرقص في صحيفة "نيويوركـر" (New Yorker) بإشـعال عاصفة نارية برفضها كتابة عرض نقدي لما اسـمه "فن الضحية". وللأسـف فإن الموقف الذي كان من الممكن أن يفتح مجالا لمناقشـة قضايا مهمة بشـأن موقع الذات من شـهادة شخصية مرعبة انحرف مساره بسبب قرارها باتخاذ موقفها من العرض دون مشاهدته.

المراجع

Alcoff, Linda Martin. (1997). The politics of postmodern feminism, revisited. *Cultural Critique, 36*, 5–27.

Baudrillard, Jean. (1999). *Simulacra and simulation* (Sheila Faria Glaser, Trans.). Ann Arbor: University of Michigan Press. (Original work published 1981)

Benjamin, Walter. (1968). Theses on the philosophy of history. In Hanah Arendt (Ed.), *Illuminations* (pp. 253–264). New York: Schocken Books. (Original work published 1940)

Blanchot, Maurice. (1982). *The space of literature* (Ann Smock, Trans.). Lincoln: University of Nebraska Press. (Original work published 1955)

Bloom, Harold. (1996). *Omens of millennium: The gnosis of angels, dreams and resurrection*. New York: Riverhead Books.

Butler, Judith. (1990). *Gender trouble: Feminism and the subversion of identity*. New York: Routledge.

Butler, Judith. (1992). Contingent foundations. Feminism and the question of postmodernism. In Judith Butler & Joan W. Scott (Eds.), *Feminists theorize the political* (pp. 3–21). New York: Routledge.

Butler, Judith. (1993). *Bodies that matter: On the discursive limits of "sex."* New York: Routledge.

Caputo, John. (1997). *Deconstruction in a nutshell: A conversation with Jacques Derrida*. New York: Fordham University Press.

Cixous, Hélène, & Clément, Catherine. (1996). *The newly born woman* (Betsy Wing, Trans.; Introduction by Sandra M. Gilbert). Minneapolis: University of Minnesota Press. (Original work published 1975)

Cosgrove, Lisa. (2002). Resisting essentialism in feminist therapy theory: Some epistemological considerations. *Women and therapy, 25*(1), 89–112.

Cosgrove, Lisa. (2003). Feminism, postmodernism, and psychological research. *Hypatia, 18*, 85–247.

Croce, Arlene. (1994/1995, December–January). Discussing the undiscussable. *New Yorker,* pp. 54–60.

de Man, Paul. (1986). *The resistance to theory.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

Derrida, Jacques. (1966). The decentering event and social thought. In A. Bass (Trans.), *Writing and difference* (pp. 278–282). Chicago: University of Chicago Press. (Original work published 1968)

Du Bois, Page. (1988). *Sowing the body: Psychoanalysis and ancient representations of women.* Chicago: University of Chicago Press.

Fairfield, Susan, Layton, Lynne, & Stack, Carolyn. (Eds.). (2002). *Bringing the plague: Toward a postmodern psychoanalysis.* New York: Other Press.

Foucault, Michel. (1978). *This history of sexuality: An introduction* (Vol. 1). New York: Vintage Books.

Goffman, Erving. (1959). *The presentation of self in everyday life.* Garden City, New York: Doubleday.

Haraway, Donna. (1991). *Simians, cyborgs, and women: The reinvention of nature.* New York: Routledge.

Hekman, Susan. (1991). Reconstituting the subject: Feminism, modernism, and post-modernism. *Hypatia, 6,* 44–63.

Hekman, Susan. (1999). *The future of differences: Truth and method in feminist theory.* Malden, MA: Blackwell.

Hepburn, Alexa. (1999). Postmodernity and the politics of feminist psychology. *Radical Psychology, 1*(2). Retrieved June 30, 2005, from www.radpsynet.org/journal/v011-2/hepburn.html

Herbold, Sarah. (1995). Well-placed reflections: (Post) modern woman as a symptom of (post) modern man. *Signs, 21,* 83–115.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Irigaray, Luce. (1985). The power of discourse and the subordination of the feminine. In *This sex which is not one* (pp. 68–85, Catherine Porter & Carolyn Burke, Trans.). Ithaca, NY: Cornell University Press.

Jameson, Frederic. (1984). Postmodernism, or, the cultural logic of late capitalism. *New Left Review, 146,* 59–92.

Kristeva, Julia. (1980). *Desire in language: A semiótic approach to literature and art* (Thomas Goray, Alica Jardine, & Leon S. Roudiez, Trans.). New York: Columbia University Press.

Lather, Patti. (1991). *Getting smart: Feminist research and pedagogy within/in the postmodern.* New York: Routledge.

Lather, Patti. (1995). Troubling angels: Interpretive and textual strategies in researching the lives of women with HIV/AIDS. *Qualitative Inquiry, 1*(1), 41–68.

Lather, Patti. (2007). *Getting lost: Feminist efforts toward a double(d) science.* Albany: State University of New York Press.

Lather, Patti, & Smithies, Chris. (1997). *Troubling the angels: Women living with HIV/AIDS.* Boulder, CO: Westview Press.

Layton, Lynne. (1998). *Who's that girl? Who's that boy? Clinical practice meets postmodern gender theory.* Northvale, NJ: Jason Aronson.

Lyotard, Jean-François. (1984). *The postmodern condition: A report on knowledge* (Geoff Bennington & Brian Massumi, Trans.). Minneapolis: University of Minnesota Press. (Original work published 1979)

Melville, Stephen. (1996). Color has not yet been named: Objectivity in deconstruction. In Jeremy Gilbert-Rolfe & Stephen Melville (Eds.), *Seams: Art as a philosophical context (Critical voices in art, theory and culture)* (pp. 129–146). Amsterdam: G&B Arts. (Introduced by Jeremy Gilbert-Rolfe)

Pfohl, Stephen. (1992). *Death at the Parasite Café.* New York: St. Martin's Press.

Poovey, Mary. (1992). Feminism and postmodernism: Another view. *Boundary 2, 19,* 34–52.

Prior, Lindsay. (1997). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In David Silverman (Ed.), *Qualitative research: Theory, method and practice* (pp. 63–79). Thousand Oaks, CA: Sage.

Pujal, i Llombart Margot. (1998). Feminist psychology or the history of a nonfeminist practice. In Erica Burman (Ed.), *Deconstructing feminist psychology.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Rosen, Charles. (1977, November 10). The ruins of Walter Benjamin [Review of the book *The Origin of German Tragic Drama*]. *New York Review of Books, 24*(17), 30–40.

Scott, Joan W. (1992). Experience. In Judith Bulter & Joan W. Scott (Eds.), *Feminists theorize the political* (pp. 22–40). London: Routledge.

Spivak, Gayatri. (1976). Translator's preface. In Jacques Derrida, *Of grammatology* (pp. ix–xc). Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Storey, John. (1996). *Cultural studies & the study of popular culture: Theories and methods.* Athens: University of Georgia Press.

Ussher, Jane M. (1999). Eclecticism and methodological pluralism: The way forward for feminist research. *Psychology of Women Quarterly, 23*, 41–46.

Zita, Jacquelyn N. (1989). The premenstrual syndrome: "Dis-easing" the female cycle. In Nancy Tuana (Ed.), *Feminism & science* (pp. 182–210). Bloomington: Indiana University Press.

الباب الثاني

مقاربـات نسويـة

إلـى

المنهجيات ومناهج البحث

الفصل الخامس

عقد المقابلات النسوية المعمقة

شارلين ناجي هيسَي-بايبر

حكاية اللياقة البدنية

إعداد المشهد

الساعة تقارب الثالثة مساء في الجيمنازيوم (مركز التمارين الرياضية) في انتظار عقد مقابلة مع آنيت، مدربة اللياقة البدنية. وهو تعمل في مجال اللياقة البدنية منذ ما يزيد على العشرين عاما، كما تعمل مدربة للياقة البدنية بشكل شخصي لعدد من النساء وغالبية زبائنها من النساء الموثرات البيض. وتمثل هي نفسها صورة مثالية بالغة حد الكمال، إذ لا يحمل جسدها جراما من الدهون، وتسعى زبائنها للوصول إلى نفس هيئتها الجسدية، فطولها خمس أقدام وثلاث بوصات، وذراعاها مرسومتان بدقة، بطنها مستو وعضلاتها متناسقة في جسدها بأكمله. فكثيرا ما أسمع زبائنها يرددن بنبرة مازحة: "أريد جسدك"! وقد وافقت آنيت على الحديث معي بشأن تجاربها كمدربة، وأنا أعرفها منذ سنوات، إذ حضرنا تدريبات كثيرة معا وخاصة في اليوجا. ولدي ما يمكن تسميته بصداقة عابرة من خلال الجيمنازيوم، وتربطنا ما أعتبره معرفة أكثر منه صداقة. وقد أوضحت لها أني مهتمة بفهم قضايا صورة الجسد لدى النساء. وقد

انتقلنا إلى حجرة هادئة أعلى مركز التدريب، بعيدا عن الحركة والضوضاء في قاعة التدريب. وقد سمحت لي آنيت بتسجيل المقابلة على شريط كاسيت، وفيما يلي مقطع من مقابلة طويلة عقدتها مع آنيت واستغرقت حوالي ساعتين.

فما الذي تريده النساء منك حين يأتين إليك؟

آنيت: حسنا، تختلف النساء في ذلك تبعا للاختلافات فيما بينهن. فالكثيرات يردن التغيير التام. وأنا أحاول أن أجد في جسد كل واحدة موضعا تحبه، موضعا في جسدها تتفاعل معه بشكل إيجابي. وبعضهن يفتقدن حتى إلى موضع واحد يمكنهن التفاعل معه بشكل إيجابي. يردن تغييره تماما.

وكيف يكون ذلك؟

آنيت: يردنه أصغر حجما، يردنه أكثر تماسكا. كما تعلمين، يردن النقص، أو يردن الزيادة. ولكن الغالبية تريد النقص.

هل من مواضع معينة؟

آنيت: المؤخرة والأرداف.

حسنا، وهل تعتقدين أنهن سيحققن تلك الصورة المثالية؟

آنيت: لا تلك هي الخدعة الدفينة، فالنموذج المثالي مستحيل التحقيق، والأهداف غير ممكنة. ربما تبلغ النسبة 1 من 500. فكم عدد الأجساد المثالية بالغة الكمال طبقا للمعايير السائدة؟ وكم عدد الأجساد الجميلة والأشخاص بارعي الجمال فيمن ترينهم حولك؟ 1 من 500؟

فما الذي يجعلهن يأتين إليك؟

آنيت: أي شيء وكل شيء تقريبا. بل وإيذاء الآخرين لتحقيقه. إذ يحدث تعارك على جهاز المشي، وتعارك على الأماكن في قاعة الأيروبيك، وتعارك على المقاعد. أعني أن الأجواء العامة عصبية.

هل يمكنك أن تعطيني مثالا على نموذج متكرر لامرأة تأتي للتدريب معك؟

آنيت: يوجد مثال جيد مما حدث صباح اليوم. جاءت امرأة اليوم. وأنت تعلمين مقصدي، فأنا أحاول تعليم الناس الاستمتاع بالعملية بأكملها. فالغاية في الواقع غير قابلة للتحقق الملموس لأن تلك الغاية تكون في ذهنك وترغبين في تحقيقها. فبدلا من أن أقول لهن إنك لن تحققي ذلك أبدا، بما يحمله ذلك من شعور بالضآلة، فإنني أفضل التركيز على العملية والاستمتاع بالعملية نفسها. ولكن جاءتني صباح اليوم امرأة زائدة الوزن، وقد كانت أقل وزنا، ولكن كما تعلمين فكلما زاد وزنك كنت أقل وزنا في الماضي، وبالتالي فقد كنت أفضل حالا . . . . أعتقد أنها بذلت جهدا كي تأتي أصلا إلى الجيمنازيوم. وهي تريد أن تصبح أقل وزنا. تريد التخلص من المؤخرة والأرداف، فقد زاد وزنها في المؤخرة والأرداف. وهي تزن حوالي 200 رطل، وهي سبب كاف للقلق حتى من وجهة النظر الصحية. . . . وكانت تريد في الواقع تغيير جسدها. ولكني أخبرتها أنها لن تتمكن من تغيير البنية الوراثية لجسدها، ولكن يمكننا أن نزيد جسدها تماسكا، وأنها يجب أن تقوم بذلك دون عجالة. فهو ما فهمته منها، هي لم تخبرني بأنها تريد أن ترى النتيجة فورا، ولكني أدركته بالحدس، فهي قلقة من اقتراب الصيف، فماذا ستفعل حينها؟

إذن فقد جاءتك من أجل نوع من تغيير الجسد؟

آنيت: صحيح. إذا كنت -عموما- تحاولين تحقيق هدف محال، فإنك تكونين أيضا غير واقعية فيما يخصك أنت نفسك. أعني أنك لن تستطيعي أن تري نفسك كما أنت، وإنما ترين نفسك من منظور الأمر الذي أتى بك هنا. فإذا أتيت محملة بالكثير من الإحساس بالخلل، فسوف تنظرين إلى نفسك نظرة مليئة بالخلل.

النسوية وعقد المقابلات الشخصية

باعتباري نسوية أقوم بعقد مقابلات شخصية أهتم فيها بالتوصل إلى المعرفة المستضعفة لواقع النساء لنساء على تنوعهن، تلك المعرفة التي كثيرا ما تظل مخفية وغير معبر عنها. وأقوم بطرح أسئلة وتناول قضايا ذات اهتمام خاص بالنسبة لحيوات النساء، وأنا مهتمة بقضايا التغيير الاجتماعي والعدالة الاجتماعية من أجل النساء وغيرهن من الفئات المقهورة. وباعتباري نسوية أقوم بعقد مقابلات شخصية فإنني واعية بطبيعة علاقتي بالنساء اللاتي أقوم بعقد مقابلات معهن، وحريصة على فهم موقعيتي الشخصية والبحثية، والدور الذي ألعبه خلال المقابلة من حيث ما أتمتع به من سلطة في سياق المقابلة. فأنا أدرك، على سبيل المثال، في مقابلتي مع آنيت مدربة اللياقة البدنية، أنني أقوم بذلك من موقع كوني "من الداخل" و"من الخارج" (an "insider" and an "outsider")، فأنا جزء من عالم اللياقة البدنية لكوني عضوة في مركز آنيت لتمرينات اللياقة البدنية، ولكني أيضا باحثة تعيش في عالم اجتماعي مغاير لعالم آنيت. وأنا أطرح أسئلة معينة على آنيت، أي إن لي برنامجا وأجندة خاصة بي، فأنا أريد أن أعرف "شيئا ما". ولكني منفتحة في نوعية الأسئلة التي أطرحها على آنيت، فهي ليست أسئلة تتطلب إجابة بـ"نعم" أو "لا"، ولا أطرح أسئلة تتضمن مجموعة من الإجابات تختار هي من بينها. وأقوم بعقد المقابلة طبقا لما يصطلح عليه في المقابلات الشخصية بمصطلح المقابلة غير محكمة البناء (unstructured interview)، فأحيانا تأتي أسئلتي استجابة

لما تخبرني هي به، أو أقوم باستيضــاح أمر ما في إحـدى إجاباتها. ولكن مع ذلك لدي بعض التصــورات المحددة لما أريد التوصــل إليه، ولكني لا أحمل مجموعة محددة من عناصر الاستبيان أنطلق منها. وأنا أميل إلى "المضي مع مسار" المقابلة فأتركها تقودني إلى حيث تمضــي. ولكنــي في هذه المقابلة لا أتعمق في تتبع مشــاعر آنيت بشــأن قيامها بتمرينات مع هؤلاء النســاء تحديدا، وإنما تتبدى مشــاعرها تجاه النساء وأجسادهن من خلال الحوار الدائر بيننا.

إن عقد المقابلات الشخصية هو منهج بحثي (research method) ذو أهمية خاصة، يمكن للباحثات النسويات استخدامه لاكتساب معرفة عميقة بعالم المستجيبات للمقابلات. فهو منهج تســتخدمه نســويات يعملن في نطاق واسع من العلوم الاجتماعية والطبيعية، من علم الأنثروبولوجيــا حيث تقوم الباحثة بالعمل الميداني داخل ثقافة ما، مرورا بعلم الاجتماع حيث تسعى الباحثة النسوية إلى اكتساب منظور جديد بشأن حيوات المستجيبات ممن يعشــن في مجتمــع أو مجموعة ما، وكذلك مجــال التمريض والطب حيث ترغب المرضــات والطبيبات في فهم أثر بعض الأمراض وأســاليب العلاج على قدرة بعض المريضــات على التعامل مع حياتهن اليومية على ســبيل المثال. كما تتم الاســتعانة أيضا بالمقابلات الشخصــية بواسطة الباحثات النســويات في مجال الاستطلاعات ودراسات الســوق، على أمــل إمكانية تعميم نتائج أبحاثهن فيما يتعلق بقضــايا النســاء على قطاع أكبر من الســكان. وهكذا على سبيل المثال تهتم باحثات الاســتطلاع النسويات اهتماما خاصــا بفهم مواقف الرأي العام تجاه العنف ضــد النســاء، بصرف النظر عما إذا كان الرأي العام مؤيدا لزيادة مخصصــات الإنفاق على البحث في قضايا صحة النساء. إنها مجــرد أمثلة محــدودة على المجالات التي تلعب فيها المقابلات الشخصــية دورا مهما في التوصــل إلى فهم أفضل للأوضاع الإنســانية. وفي إمكاننا أن نرى أن نطاق المقابلات الشخصــية التي تقوم بها النســويات يمتد مــن تلك المقابلات غير محكمــة البناء والمعمقة انتهاء بمجموعة محددة من الأسئلة التي تنطوي ضمن إطار الاستطلاع.

أنواع المقابلات الشخصية

تتخذ المقابلات أشكالا متنوعة، ويمكننا أن نتصور منهج المقابلة الشخصية باعتباره "ممتدا" من "غير الرسمي" إلى "الرسمي". والمقابلة غير الرسمية (informal inter-view)، تعتمد على قدر قليل من البناء المحكم، ويتم استخدام هذا النوع من المقابلات عادة لبناء علاقة مع المستجيبين للبحث، ولاستكشاف ما يمكن أن يمثل موضوعات ذات صلة بالبحث لها أهمية بالنسبة لهم، وكذلك يستخدم للكشف عن الموضوعات التي قد يسهو عنها الباحث أو الباحثة. فعلى سبيل المثال، في حالة ما إذا كنت لم يسبق لي التعرف على آنيت، ولم أكن أعرف سوى القليل عن دور تمارين اللياقة البدنية في علاقتها بصورة الجسد لدى النساء، عندها كنت سأبدأ المقابلة بطرح مجموعة من الأسئلة لبناء قدر من الثقة بيني وبين آنيت، وكانت تلك الأسئلة ستسعى أيضا إلى إتاحة المجال لها للحديث عما تعتبره ذا أهمية، والتعبير عن مشاعرها بشأن التدريب عموما وقيامها بتمارين مع زبائن معينات. وكنت سأبدأ حينها المقابلة بالنوعية التالية من الأسئلة المفتوحة (open-ended questions):

- "هل لك أن تخبريني كيف أصبحت مدربة؟"
- "ما طبيعة العمل بالتدريب؟"
- "كيف حدث أن بدأت العمل بالتدريب في هذا النادي الرياضي؟"

أما المقابلات غير محكمة البناء (unstructured interview) فهي تماثل تلك التي عقدتها مع آنيت، بحيث يكون لدي خطة أساسية في ذهني للمقابلة، ولكني أتمتع بأقل قدر من التحكم في كيفية رد المستجيبة (respondent) على الأسئلة. وعادة ما أقوم في المقابلة بتتبع المستجيبين، فأتبعهم إلى حيث يريدونني أن أمضي معهم، مع احتفاظي بالموضوع بأكمله في ذهني. ومن هنا يمكنني حينها أن أطرح الأسئلة التالية:

• "هل تعتقدين أن لدي النساء توقعات غير واقعية بشأن ما يمكنهن عمله في أجسادهن؟"

• "ولماذا تعتقدين أن الأمر كذلك؟"

في هذا النموذج ينصب اهتمامي في المقابلة على الموضوع العام الخاص بالتصورات الموجودة لدى المدربات بشأن زبائنهن، وكيف يرين التوقعات حول التغير الذي يطرأ على أجسادهن خلال جلسات التمرين؟

أما المقابلة شبه محكمة البناء (semistructured) فتتم مع إعداد دليل خاص للمقابلة يتضمن قائمة من الأسئلة المكتوبة التي أحتاج إلى تغطيتها خلال مقابلة ما. ولا أكون حريصة على إتباع ترتيب تلك الأسئلة، وإنما يكون من المهم أن أغطيها خلال المقابلة. وأتمتع حينها بقدر من التحكم في كيفية صياغة بنية المقابلة وكيفية استجابة المستجيبة، ولكنني أظل مع ذلك مستعدة لطرح أسئلة جديدة خلال المقابلة. فيكون لي أجندة أو برنامج، ولكن دون أن يكون محكما مع ترك مساحة للتلقائية من جانب الباحثة والمستجيبة للمقابلة.

• "هل تعتقدين أن النساء اللاتي يأتين إليك لديهن توقعات غير واقعية بشأن تغير أجسادهن؟ ولماذا؟"

• "إلى أي حد تكون النساء غير واقعيات بشأن أجسادهن؟ أو واقعيات؟"

• "ولماذا تعتقدين أن الأمر كذلك؟"

• "هل تقبلين تدريب شخص ما تعتقدين في إصابتها باضطراب في الأكل؟ لماذا تقبلين أو لا تقبلين ذلك؟"

هذه بعض الأسئلة التي يمكن أن أحاول طرحها في مقابلتي مع آنيت (تعبر عن أجندتي)، ولكني لن أكون مهمومة بتوقيت طرحها. الأفضل ألا أقاطع مسار المقابلة وإنما أن أحاول تضمينها في اللحظة التي أشعر فيها بوجود مساحة جديدة لها خلال الحوار.

أما المقابلة محكمة البناء (structured) فهي تلك التي تتمتع فيها الباحثة بالتحكم التام في برنامج المقابلة، فيتم طرح الأسئلة نفسها وبنفس الترتيب على المستجيبين. وتكون الأسئلة أحيانا مفتوحة (open-ended)، كالأسئلة التي طرحتها على آنيت، ولكن الكثير منها يكون مغلقا (closed-ended) يتضمن مجموعة من الاختيارات الثابتة، كالآتي:

- "في المتوسط، ما عدد زبائنك ممن يعترفن بوجود مشكلة لديهن مع صورة أجسادهن؟

  'الكثير'، 'البعض'، 'القليل'، 'لا يوجد'؟"

- في المتوسط، ما عدد زبائنك ممن ترين أنهن يعانين من أحد اضطرابات الأكل؟

  'الكثير'، 'البعض'، 'القليل'، 'لا يوجد'؟"

- "أي مما يلي يصف مشاعرك الحالية تجاه صورة جسدك؟

  "سعيدة جدا'، 'سعيدة'، 'سعيدة نوعا ما'، 'غير سعيدة'".

وأطلب حينها من المستجيبة أن تختار واحدا فقط من بين تلك الاختيارات عند الإجابة على السؤال. ويمكننا استخدام السؤال الأول للتعرف على مدى تكرار ظهور تصرفات ما لدى زبائن آنيت، وبالتالي نصل إلى تصور عام لزبائنها من حيث تكرار صورة الجسد ومشاكل الأكل بين زبائنها ككل. ويمكننا أن نرى في النقطة الثالثة سؤالا عن المواقف بما يحدد مشاعر آنيت وإحساسها بصورة جسدها. وفي هذا السؤال أنا لا أطلب من آنيت أن تتحدث عن مشاعرها بالتفصيل، وإنما أريدها أن تستجيب إلى إجابة محددة الاختيارات. وأقوم بطرح الأسئلة في ترتيبها القائم هنا ولن أغير من الترتيب حين أبدأ في عقد مقابلات مع مدربات أخريات للياقة البدنية.

ويمكننا أن نرى هنا عددا من الأشكال المتنوعة لعقد المقابلات. فأيها الأفضل؟ تعتمد الإجابة على هذا السؤال على الأهداف الشاملة لمشروعك البحثي. إن الانتقال من الطرف غير الرسمي لعقد المقابلات إلى الطرف الأكثر إحكاما ورسمية هو انتقال

مـن هدف المشروع القائم على جمع المادة جمعا استكشـافيا والفهـم المتعمق، إلى ما هو أقرب إلى مجموعة أهداف لاختبار النظرية. وتقوم النسويات باستخدام هذين الشكلين من أشـكال المقابلات. وكما سـنلحظ في الفصـل العاشر (حول البحث الاستطلاعي)، فإن النسـويات يطلقن أسـئلة تتطلب مقابـلات محكمة البناء لاختبـار العلاقات الكامنة داخـل البيانـات، وهـي مقابلات محكمـة البناء تتطلـب مجموعات واسـعة المدى من البيانات تتضـمن نقاطا محددة الاختيارات. أما النسويات اللاتي يقمن بأبحاث تتضمن مناهج مختلطة (mixed-methods research)، كما سـنرى في الفصـل التاسع، قد يضـطررن أيضـا إلى الجمع بين هذين الأسـلوبين من مناهج عقـد المقابلات، على أن يقوم أحدهما بتسـليط الضوء على الآخر. فعلى سـبيل المثال، يمكن للنسويات اكتساب معلومـات وأفكار عميقة من المقابلات غير محكمة البناء، والتي يمكنها أن تكشـف لهن عن الأسـئلة المحددة التـي يحتجن إلى طرحهـا في بحث اسـتطلاعي، والنقاط محددة الاختيارات التي يجب أن يتضمنها الاستطلاع.

إن تلك الأساليب من المقابلات كثيرا ما يكمل أحدها الآخر أو حتى يتم دمجها معا في مشروع بحثي ما. أما ما يجعل كل أسـلوب من تلك الأسـاليب يتسم بالنسوية هو أنواع الأسـئلة التي تطرحها النسـويات. فمن القضـايا التي تهم الباحثة النسوية هي الأبحاث التي تصـل إلى فهم لحيوات النساء وغيرهن من الفئات المقهورة، والأبحاث التي تدعم العدالـة الاجتماعيـة والتغيير الاجتماعـي، والأبحاث التي تلتفـت إلى علاقة الباحثة-المبحوثة ومدى القوة والسلطة الكامنة في دور الباحثة. كما تمارس الباحثات النسويات المطاوعـة (reflexivity) علـى مدار المسـار البحثي، وهي ممارسـة تبقـي الباحثة أو الباحـث على درايـة بالموقعية الشخصـية للطرف الباحث والطرف المسـتجيب. كذلك تهتم الباحثات النسويات بقضايا التمثيل (representation) لدى المستجيبة، فيتم تمثيل الطـرف الذي تعقد معه المقابلة من ناحية والـذوات البحثية من ناحية أخرى تبعا لكيفية تأويل الباحثة وتقديمها لنتائج البحث، وهي القضايا التي ننتقل إليها فيما يلي.

عقد المقابلات المعمقة: منظور نسوي

سنركز في هذا الفصل على المقابلة المعمقة هي واحدة من الأنواع الثلاثة للمقابلات التي يتم تناولها في هذا الكتاب (وسنعرض في الفصل التالي التاريخ الشفاهي ومقابلات المجموعات المركزة). وتسعى المقابلة المعمقة إلى فهم "التجارب المعيشة" للفرد، ونحرص فيها على التوصل إلى الفهم "الذاتي" (subjective) الذي يضفيه الفرد على موقف ما أو حزمة من الأوضاع القائمة. والمقابلات المعمقة تتمحور حول موضوع ما (issue-oriented)، أي إن الباحث أو الباحثة قد يستخدمان ذلك المنهج لاستكشاف موضوع ما وللحصول من المستجيبين والمستجيبات على معلومات مركزة حول الموضوع. أما منهج المقابلات القائمة على التاريخ الشفاهي (oral history) فيعمل عادة على تناول قصة الحياة الكاملة للمستجيب أو المستجيبة. ومقابلات المجموعات المركزة (focus group)، فتقدم للباحث أو الباحثة فرصة اكتساب المعلومات من مجموعة من الناس في فترة زمنية قصيرة، كما يمكن للباحثة أو الباحث ملاحظة أنماط التفاعلات القائمة بين أعضاء المجموعة فيما يتعلق بموضوع ما.

المقابلة المعمقة

تحرص النسويات تحديدا على التوصل إلى التجارب التي عادة ما تكون مخفية. وتتيح المقابلات المعمقة للباحثة النسوية الوصول إلى أصوات الفئات المهمشة في المجتمع، ومنهم -على سبيل المثال- النساء، والملونون والملونات، والمثليون والمثليات، والفقراء. وتوضح شولاميت رينهارز (Shulamit Reinharz، 1992) كيف يمثل عقد المقابلات طريقة سعت الباحثات النسويات بها للوصول إلى المعرفة الخفية لدى النساء:

> إن عقد المقابلات يتيح للباحثات والباحثين الوصول إلى آراء الناس وأفكارهم وذكرياتهم كما يعبرون عنها بكلماتهم هم بدلا من كلمات الباحثة أو الباحث.

وهي ميزة تتسم بأهمية خاصة عند دراسة النساء لأن هذه الطريقة للتعلم من النساء تعالج قرونا شهدت تجاهل آراء النساء تماما أو قيام الرجال بالحديث نيابة عن النساء. (Shulamit Reinharz، 1992، 19)

إعداد خطة دراسة لمقابلة معمقة

- ما سؤال البحث؟

من الأهمية الإشارة إلى أن سؤال البحث سيحدد في الغالب منهجك البحثي. فلنفترض رغبتك في دراسة اضطرابات الأكل بين طلاب الجامعة من موقع نسوي. فإذا أخذنا هذا المنظور في الاعتبار يصبح هدفك البحثي هو فهم الموضوع من وجهة نظر المجموعة الخاضعة للدراسة. فيمكنك -على سبيل المثال- طرح الأسئلة التالية:

- ما "التجربة المعيشة" لعلاقة طالبات الجامعة بالطعام وصورة أجسادهن؟

إن القيام باستطلاع ذي أسئلة مغلقة مستقاة من أدبيات البحث حول هذا الموضوع لن تلتقط التجارب المعيشة لهؤلاء الطالبات. فالاهتمام هنا منصب على حكاياتهن. وقد نقرر البدء بمقابلة غير محكمة البناء للوصول إلى أقصى درجات الفهم للعملية التي تجعل قضايا الأكل وصورة الجسد مسألة متأثرة بالنوع (gendered)، بل وربما نبدأ في بناء آراء نظرية بشأن هذا الموضوع أثناء البحث.

إعداد عينة البحث

إن المنطق الذي يحكم البحث الكيفي (qualitative research) يهتم بالفهم المتعمق، وعادة ما يتضمن العمل مع عينات صغيرة. فالهدف هو تأمل "العملية" أو "المعاني"

التي يضـفيها الأفراد على الموقف الاجتماعي الخاص بهـم، وليس الهدف بالضرورة هو القيام بالتعميم. فعلى سبيل المثال، فإننا نتتبع مواقف النساء تجاه أجسادهن لا بهدف التعميم بشـأن عدد النساء اللاتي يعانين من مشاكل مع صورة الجسد، وإنما بهدف فهم كيفيـة معايشـتهن لتجربة زيادة الوزن في مجتمع نحيف مثلا. فمـا يهمنا هنا هو العملية التي تقوم بها النساء، أو التي يعجزن -من خلالها- عن التعامل مع صورة أجسادهن، والطريقة التي يتفاعلن بها مع الرسـائل التي يرسـلها المجتمع بشأن النحافة عبر وسائل الإعلام ومن يهمُّهن في حياتهن.

وعادة ما يهتم الباحثون والباحثات من مسـتخدمي منهج البحث الكيفي بانتقاء عينات عمديـة أو حكمية. وتعتمد نوعية العينة العمدية المختارة على سـؤال البحث مع الأخذ في الاعتبـار للموارد المتاحة للباحثة أو الباحث. وقد قام في الواقع مايكل باتون (Michael Patton، 2002، pp. 243-244)، بتحديد16 نوعا مختلفا من العينات العمدية (pur-posive samples)، مع إمكانية استخدام أكثر من نوع منها داخل بحث كيفي ما.

وبينمـا يتم عقـد العديد من المقابـلات الكيفية وجهـا لوجه، فإنه يمكـن عقد البعض بواسطة اتصال هاتفي بل وعبر الإنترنت. ولكن المقابلات التي يتم عقدها بصورة غير شخصـية تزيد من صـعوبة خلق ألفة بين الباحث أو الباحثة والمسـتجيبين للمقابلة، كما يفقـد الباحث أو الباحثة حينهـا أثر الإيماءات البصرية واللفظية، كالإيماءات الجسـدية أو التواصـل البصري. وسـوف نركز في هذا الفصـل على المقابلات الشخصـية رغم رغبتنـا في لفت الانتباه إلى تلك الخيـارات الأخرى كذلك. ويرى مايكل باتون أنه "لا توجد قواعد لحجم العينة في البحث الكيفي" (Patton، 2002، p. 244)، ويواصـل حديثه مشـيرا إلى أن جزءا من تحديد حجم عينتك يعتمد على سؤال البحث، ومواردك الاقتصـادية وعلى السـياق الذي يتم فيه مشروعك البحثي (والسؤال المطروح هنا: هل قمت بتغطية الظاهرة موضوع الدراسة؟ وفي حالة قيامك بتحليل لنظرية ما على أرض الواقع: هل أضـفت عينات جديدة بناء على المعلومات الناشـئة عن البحث؟). وفي حالة

قيامك بالبحث بتمويل من جهة خاصة أو حكومية، على سبيل المثال، فربما يكون لديهم معايير صارمة لما يعتبرونه عينة مقبولة الحجم لمشروع كيفي. وفيما يتعلق بحجم العينة يتركنا مايكل باتون مع النصيحة التالية:

> إن ملاءمة حجم العينة، مثلها في ذلك مثل كافة جوانب عملية البحث، هي مسألة تخضع للمراجعة والتحكيم العلمي، والتوافق في تأكيد صحة البحث، والحكم عليه. والأمر الأساسي هنا هو تقديم وصف وشرح وتبرير مفصل لإجراءات الاختيار والتعامل مع عينة البحث وما تتضمنه تلك العملية من قرارات، بحيث يتوفر لمستخدمي تلك المعلومات والمحكمين السياق المناسب للحكم على العينة. فيجب على الباحث أو مقيّم البحث مناقشة أثر العينة على نتائج البحث، وكذلك أوجه القوة والضعف في إجراءات التعامل مع العينة، وغيرها من القرارات المتصلة بالإعداد للبحث من حيث علاقتها بتأويل النتائج المذكورة وفهمها. ومما يزيل المخاوف حول العينات صغيرة الحجم هو توخي الحذر لعدم المبالغة في التعميم بناء على العينات العمدية، مع العمل على تحقيق أكبر قدر من مزايا التعامل مع العينات المعمقة والعمدية. (Patton، 2002، p. 246)

الحصول على موافقة واعية

من المهم الحصول على موافقة واعية (informed consent) لكل مستجيبة ومستجيب مقدما بعد شرح طبيعة مشروعك البحثي. فإذا كان مشروعك يتم برعاية جامعة أو مؤسسة ما، فسيكون لكل جهة منها في الغالب مجلس ما يقوم بمراجعة المشروعات والموافقة على الدراسة لضمان التزامك بالقواعد الأخلاقية التي تكون تلك الجهة قد حددتها مسبقا لحماية الذوات الإنسانية. ورغم ما يتم مسبقا من مناقشة الدراسة والمشاركة الواعية والتطوعية، فإنه من المهم الإشارة إلى ذلك الأمر قبل بدء المقابلة،

كما يجب منح المستجيبين والمستجيبات للمقابلة الفرصة الكاملة لطرح الأسئلة، وأن يشعروا أيضا بحرية عدم الإجابة على الأسئلة غير المريحة لهم.

متى يكون لي أن أستخدم دليلا للمقابلة؟

إذا كانت لديك مجموعة محددة من المسائل والقضايا التي ترغبين في مناقشتها مع المستجيبة، فقد تكون حينها الاستعانة بمقابلة ذات بنية أكثر إحكاما هي المنهج الأفضل لتحقيق أغراضك. وبكلام آخر، إذا كان لديك برنامج محدد ترغبين في استكشافه خلال المقابلة فقد يفيدك إعداد دليل للمقابلة (interview guide)، ويتضمن دليل المقابلة مجالات للموضوعات والأسئلة التي يود الباحث أو الباحثة من القائمين على المقابلة طرحها خلال المقابلة. ويقترح روبرت وايس (Weiss، 1994) أن يبدأ دليل المقابلة بـ"إطار ملموس" يتم استخدامه لإعداد دليل لعملية عقد المقابلة. وكثيرا ما يكون من المفيد التفكير في موضوعات محددة قبل إعداد واختيار الأسئلة المعينة التي تودين في طرحها خلال المقابلة، وهو الأمر الذي قد يجعل الجزء الابتكاري الخلاق في دليل المقابلة أبسط وأكثر تنظيما. أي يمكن إعداد دليل المقابلة بالبدء بالتركيز على مجالات البحث الأوسع والأكثر تجريدا، ثم صياغة سلسلة من أسئلة المقابلة. فابدئي بكتابة قائمة "أشياء يجب أن أتعرف عليها"، ثم تصبح تلك الموضوعات المختارة "خطا بحثيا" أو "مجالا بحثيا" يمكنك تتبعه خلال المقابلات. ثم يمكنك صياغة وتنظيم أسئلة البحث "للوصول إلى" المعلومات التي قد تتصل بتلك "الخطوط". وهكذا يصير دليل المقابلة في آخر الأمر قائمة بالموضوعات وقد يتضمن كل موضوع منها قائمة من الأسئلة المتصلة بـ"خطوط البحث" التي تم وضعها خلال الإعداد المبدئي لدليل المقابلة (Weiss، 1994، p. 48). إن عملية إعداد دليل المقابلة، حتى في حال عدم استخدامه مطلقا، هي أداة مهمة يمكن الاستعانة بها في التحضير للمقابلة، لأنها تساعد عادة في تحديد القضايا المحورية والتوقف أمام الأمور التي قد يرغب الباحث أو الباحثة في طرحها

على المستجيبين والمستجيبات. إن المقابلات الاستطلاعية (pilot interviews) تقدم فرصة للباحثات والباحثين لاختبار مدى فعالية دليل البحث:

- هل دليل المقابلة واضح ومقروء؟
- هل يقوم الدليل بتغطية كافة الموضوعات ذات الاهتمام بالنسبة لك؟
- هل هنالك موضوعات أو أسئلة عامة غائبة عن الدليل؟

وبناء على تجاربك الأولية مع دليل المقابلة، يمكنك لاحقا تعديل الدليل بما يلائم احتياجاتك بشكل أفضل.

ويتحدث ديفيد كارب (David Karp) عن إعداد أدلة المقابلات باعتبارها عملية تحليلية، كما يرد في المقطع التالي في "ما وراء الستار" (Hesse-Biber & Leavy، 2006):

ما وراء الستار مع ديفيد كارب

أبحث عن الأفكار الرئيسية التي أراها "مجالات للبحث". وهي لا تأتي بالطبع من لا شيء، وذلك لأني قد قمت بالكثير من العمل المبدئي مسبقا. وهو أمر بالغ الأهمية حقا، حيث إنه يغلب على الكثيرين ممن يقومون بعقد مقابلات معمقة أنهم ينظرون إلى عملية إعداد دليل المقابلة بمنطق "حسنا، يجب عليّ التخلص من تلك الخطوة وتنحيتها جانبا." بينما أرى أنا تلك المهمة الخاصة باكتشاف مجالات البحث باعتبارها خطوة تحليلية مهمة في مسار البحث، وإذا تحدثنا عن العملية برمتها، أي مرحلة الكتابة، وفي حالتي الخاصة كتابة الكتب أو المقالات، فإن العملية تنتهي بإغلاق دائرة مكتملة لأن كمية الوقت والطاقة التي أضعها في إعداد دليل المقابلة تمثل في الحقيقة صورة مبدئية لما سيتخذ شكل النصوص المحورية التي سأكتبها في نهاية الأمر. ولكنه في المحصلة النهائية

مجرد دليل، ولعل 60% من الأسئلة التي أطرحها خلال المقابلة ليست موجودة في ذلك الدليل. فأنت في حوار مع شخص ما، وتتمثل فنية القيام بتلك المقابلة المعمقة في معرفة متى يتم تتبع نقطة يقولها الشخص في لحظتها. وبانتهاء المقابلة أود التأكد من أنه قد تمت تغطية كافة الموضوعات التي أردت تغطيتها، ولكن حصولك على مجرد إجابات للأسئلة الموجودة في الدليل فقط إنما يعني فقدانك الكثير مما كان متاحا لك.

من المهم ألا تتسم أدلة المقابلات بزيادة في الطول أو التفاصيل، فالقصد منها هو أن تكون عاملا مساعدا للباحث، وألا يعتمد عليها بدرجة مبالغ فيها، لأن التركيز على دليل المقابلة نفسه قد يبعد الباحث أو الباحثة عن الانتباه التام إلى المستجيبين. فالقصد من دليل المقابلة هو وجوده بحيث يلمحه الباحث عند الحاجة أو أن يذكره في حالة السهو، دون استخدامه استخداما مباشرا. كما يمكن أن يستخدم دليل المقابلة باعتباره "قائمة" يراجع الباحث أو الباحثة محتوياتها عند نهاية المقابلة، للتأكد من طرح كل موضوعات البحث حتى وإن لم يتم الالتزام بترتيبها الوارد في الدليل. (Weiss، 1994، p. 48)

عقد مقابلة معمقة

يمكن أن تكون المقابلة المعمقة مفيدة تحديدا عندما ترغب الباحثة النسوية في التركيز على مجال ما في حياة الفرد، إذ تميل المقابلة إلى الاكتمال خلال جلسة واحدة، رغم احتمالية عقد جلسات متابعة متعددة للتوسع أو تطوير بعض الأفكار والآراء الواردة في الجلسة الأولى. إن الهدف من المقابلات المكثفة هو جمع بيانات وفيرة من منظور عدد من الأفراد المختارين بشأن موضوع ما. فعلى سبيل المثال، وفي بحثي حول صورة الجسد بين فئات مختلفة من السكان، تولد لدي اهتمام بطريقة حياة الشابات في مرحلة الدراسة الجامعية ومعايشتهن لاضطرابات الأكل خلال الدراسة الجامعية. ولنتأمل

مقطعا من مقابلة عقدتها مع أليسون، وهي طالبة جامعية بيضاء من الطبقة الوسطى في العشرين من عمرها. وينصب اهتمامي على معرفة المزيد عن تجارب أليسون مع اضطرابات الأكل خلال الدراسة الجامعية، وتحديدا كيف أثر انتقالها من المدرسة الثانوية إلى الكلية على تعاملها مع اضطرابات الأكل لديها. وهي أمريكية من أصول آسيوية، ويأتي ترتيبها الثانية بين خمس أخوات، إحداهما أخت غير شقيقة من زيجة والدها الثانية. وقد بدأت أليسون الشراهة والاستفراغ (binging and purging) منذ دراستها بالمرحلة الثانوية. وقد تزوج والدها زوجته الثانية وهي في السنة الدراسية الخامسة، ولكن طبقا لقولها "إنه الوقت الذي بدأت فيه تقريبا مشاكلي مع الأكل". وفي المقطع التالي تتحدث أليسون عن مشاكلها مع الأكل وبوادرها الحالية في حياتها كطالبة في كلية مشتركة تضم طلابا وطالبات. ووالدة أليسون تعاني من الشراهة القهرية (compulsive binge eater)، ويبدو أن اضطرابات الأكل لديها بدأت في أعقاب طلاقها من والد أليسون. وها نحن ندخل إلى الحوار حيث تبدأ أليسون في الحديث عن اضطراب الشراهة (binge-eating disorder) لديها، ومشاكل والدتها مع الأكل:

أليسون: لقد كانت والدتي تأكل بشراهة ليلا، فهي تعاني من الشراهة القهرية. وكنت أراها، وأعتبر الأمر عاديا. وكان الأمر يحدث على دفقات، فكانت تنهض ليلا من نومها فتأتي بوعاء كبير من طعام ما، ثم تلتهمه بأكمله. وأنا أذكر تلك الأصوات جيدا. ذلك إلى جانب أني كنت أعتبر نفسي سمينة بسبب كثرة ما آكله، وكانت معدتي تؤلمني وأشعر أني في حالة سيئة. كما تعلمين. . . كنت خاضعة لهاجس الطعام طوال المرحلة الثانوية. ولم أكن أستفرغ سوى، كما تعلمين، كمية كبيرة، ولكني لم أعتبر ذلك بوليميا. فلم يكن يحدث إلا مرة كل شهرين، أسبوعين، أو ما شابه ذلك.

فما الذي حدث حين انتقلت من المدرسة الثانوية إلى الكلية؟

أليســون: مضت السنة الأولى في الكلية بشكل حســن، وقد كنت خاضعة شيئا ما لهاجس الطعام كما كان حالي ســابقا، ولكني لم أســتفرغ مطلقا. وفي السنة الثانية، بعد، كما تعلمين، فقد أخبرتك عن صــديقي، ولم يكن هو موجودا هناك وإنما كنت أنا هناك. فكما تعلمين أصبح ذلك هو العكاز الذي أستند إليه، كما تعلمين، واستخدمته بالضبط كما يستخدم مدمن الخمر شرب الخمر. هذا هو ما كنت أفعله.

هل يمكنك أن تخبريني عن مشاعرك خلال تلك الفترة؟

أليســون: في ليلة جمعة كنت وحدي في غرفتــي داخل كلية لا تعجبني. تعلمين. لم يكن لي حياة اجتماعية متســعة. كانت لدي صديقة مقربة، ولكنها لم تكن كافية. كان لي الكثــير من المعارف، ومنها واحــدة مقربة حميمة وأهل للثقة، ولكني لســت أدري، لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى.

وعندما قلت "لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى"، ماذا كنت تقصدين؟

أليســون: كان موعــد تناول الوجبات صــعبا دائما لأني كنت دائما أفــرط في الطعام، وكانت المشــكلة تكمــن في أني كنت أحضر المحاضرات دائما من حوالي الســاعة 9 وحتى الســاعة 12، أو ما شابه ذلك، ثم كان أمامي بقية اليوم. وكنت أحب المدرســة الثانوية لأنه كان هنالك جدول من الســاعة كذا وحتى السـاعة كذا، ثم كان المفترض قيامك بأداء الواجبات، وكان عليك تنظيم وقتك ووضــع برنامج للعمل، ولكني لا أعلم ماذا أفعل، وأظل أفكر دائما هل أذاكر أكثر مما يجب؟ فأنا أشعر كما لو كنت أذاكر منذ الأزل، ولكني إن لم أفعل فسأشعر بالذنب. ولم أكن أدري ماذا أفعل بنفسي. ولكن الأمر أفضل الآن لأن لدي جدولا أكثر إحكاما.

فكنت تذهبين إلى البيت وتأكلين؟

أليســون: كنت آكل تقريبا وقت العشاء، ثم، كما تعلمين، في الدراسة ما قبل كلية الطب

يجب عليك المذاكرة طول الوقت، والوقت الوحيد الذي يمكنك أخذ استراحة فيه هو وقت تناول الطعام أو التمرينات الرياضية. ولكن في حالة الشراهة لا يكون الأمر هو تناول وجبة طعام فعليا. لا أدري. وكنت بعد العشاء، أقوم فقط، أعتقد أن الأمر أصبح مسألة جسدية بمرور الوقت. حقا لقد كنت مجبرة على النزول ثانية، كما تعلمين لدي بطاقة طعام. ويمكنني إضافة أي شيء على بطاقة الطعام. وبالطبع كنت فيما بعد أنفق الكثير من المال الذي لم أكن أملكه أصلا، ثم كنت أتوجه إلى الحمام، وهو حمام مشترك لسكان الطابق كله.

بمجرد انتهائك من الطعام؟

أليسون: نعم. وبعدها كنت أنا وصديقتي نشترك في جلسات المذاكرة. وكنت أعود حوالي الساعة العاشرة مساء، وكانت لدي ثلاجة في حجرتي، وكنت أشترى أشياء من البقالة، فكنت أعد لنفسي شطيرة خبز مع زبدة الفول السوداني والمربى، أو المربى والزبدة، أو أيا ما كان متوفرا لدي. وكنت أعلم بوجود آلة بيع في المبنى، فكنت أنزل وأعود، ثم أنزل وأعود. كذلك فإن صديقتي الحميمة التي كانت تسكن في الحجرة المجاورة لي كانت تذهب إلى بيتها في نهايات الأسبوع مرة شهريا أو ما شابه ذلك، وكنت أبقى أنا. وكنت أشعر بالوحدة. كان هناك أشخاص يمكنني الوجود معهم، ولكن لم يكن هناك أحد يعرفني جيدا، فكنت أذهب إلى آلات البيع، وأذكر أنني كنت أفكر بيني وبين نفسي "هذا لن يسعدني. ولن يجعل مساء الجمعة مثيرا، ولكن لم لا؟" وهكذا . . . كنت أمارس شراهة الطعام 4 مرات أسبوعيا. وأحيانا كنت أتوقف عن ذلك.

نعم. وإلى متى استمر ذلك؟

أليسون: خلال معظم دراستي في السنة الثانية، وقدرا كبيرا من صيف تلك السنة.

وكنت تمارسين شراهة الطعام عند عودتك إلى البيت أيضا؟

أليسون: أذكر حين عدت إلى البيت في إجازة الكريسماس أن شقيقتي . . . ياه، لقد كان الكريسماس هو الأسوأ في بيتنا. فهو المكان الذي ترجع إليه كل الذكريات. فقد سافرت أسرتي إلى فلوريدا. وبقيت في البيت مع شقيقي. كان هنالك البيت، والفراغ والطعام. كما تعلمين، كان هذا هو أسوأ شيء. كان الكريسماس شنيعا. كان صديقي يخرج مع فتيات أخريات، وكنت أنا في المدينة، ولم يكن قد تبقى لي أحد من الأصدقاء ممن ظللت على صلة بهم. لقد كان الأمر شنيعا فعلا. وأذكر أن شقيقتي ذكرت الأمر لي. سألتني "هل تعانين من البوليميا؟" فقد كانت تعلم أني أدافع عن طعامي. أخبرتها، قلت "نعم". فبدأت تبكي وانزعجت للغاية، وقالت "هلا بذلت جهدا أو ما شابه ذلك؟" وهكذا عندما عدت إلى الكلية توقفت عن البوليميا حوالي الشهرين.

عند تأمل نص المقابلة مع أليسون، يمكن تحديد عدة نقاط. أولا إن المقابلة المعمقة هي طريقة لاكتساب المعلومات والوصول إلى فهم من الأفراد عن موضوع معين. وقد انصب اهتمامنا في المثال السابق على فهم انتقال أليسون من المرحلة الثانوية إلى الجامعة، وتجربتها مع البوليميا. ثانيا، إن المقابلة المعمقة هي نوع محدد من التفاعل ونوع محدد من الحوار، فالحوار في المقابلة المعمقة يعتمد على قيام الباحثة أو الباحث بطرح سؤال ما أو السعي للحصول على توضيح أو استفاضة بشأن ما يقوله المستجيب أو المستجيبة. ودور الباحثة أو الباحث هنا هو الإنصات إلى حكاية المستجيبة أو المستجيب. فإذا تأملنا مجرد عدد الكلمات التي يتضمنها الحوار بين الطرفين فسنلحظ أن أغلب المحتوى صادر عن المستجيبة، وتسعى الباحثة عادة إلى اكتساب المزيد من المعرفة عن حياة المستجيبة بطرح أسئلة تتقصى بشكل حيادي المزيد من المعلومات والفهم. وتكون الباحثة مندمجة في الحوار مع المستجيبة، وهو ما يتبدى من خلال الإنصات والتعبير بإشارات تنم عن الاندماج في الحوار، وهي إشارات كالإيماء بالرأس أو الطلب من

المستجيبة توضيح نقطة أو مصطلح ما. ويمكننا اعتبار "التقصي" أداة جوهرية للمقابلة الفعالة، كما يمكن لأسئلة التقصي (probes) أن تكون أساسية في المقابلة الجيدة، ويجب عليك التمتع بالقدرة على التمييز بين اللحظة التي ترد فيها علامة تثير لديك الرغبة في الاستزادة، وبين اللحظة التي يتعين فيها عليك التقصي والتعمق في ردود المستجيبة. وتكون أسئلة التقصي مفيدة ومهمة خلال المقابلة المعمقة، فإذا كانت المقابلة ذات بنية تتطلب منك طرح أسئلة قليلة فسيكون من المهم بالنسبة لك التعمق في الموضوعات التي ترغب المستجيبة في مناقشتها. فأسئلة التقصي هي أسلوب الباحثة أو الباحث في جعل المستجيبين يواصلون الحديث، والإسهاب أو الاستطراد، ربما حتى بالاستعانة بأمثلة توضيحية. وأحيانا يكون سؤال التقصي مجرد علامة تشير إلى الفهم والاهتمام بما يقال ترسلها الباحثة للمستجيبة. ولنرجع الآن إلى مقطع من حديثنا مع أليسون لفحص مختلف أنواع التقصي التي يمكن استخدامها في هذا النوع من المقابلات.

فن التقصي

إن أسئلة التقصي (probing) تتيح للباحثات والباحثين دعم وتشجيع المستجيبات والمستجيبين دون الدفع بأجنداتهم الشخصية في الحوار. وفيما يلي بعض الطرق الشائعة التي يمكنك بها الاستعانة بالتقصي عند عقد مقابلاتك المعمقة:

التقصي الصامت: يتم من خلال التزام الصمت مع الإيماء بالرأس. كما يمكنك أيضا التعبير عن الاهتمام والتأييد بالحفاظ على التواصل بصريا بالنظر إلى عيني المستجيبة خلال حديثها.

التقصي بترديد الصدى: وهنا يمكنك تكرار ما قالته المستجيبة ومطالبتها باستكمال الحديث. والمثال على ذلك في حواري مع أليسون حين سألتها وعندما قلت "لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى"، ماذا كنت تقصدين؟ فيمكنك ملاحظة أنني كررت ما قالته هي قبل طلبي

توضيح ما قصدته بتلك العبارة. فقد سألت سؤالا جديدا ولكني تتبعت فيه اتجاه حديثها بطلبي المزيد حول تلك النقطة. وسؤال التقصي الحيادي لا يفرض مسارا جديدا، وإنما هو طريقة لمواصلة الحوار وتشجيع المستجيبة على الاستمرار تبعا لأجندتها الخاصة بها.

التقصي بنعم: وهو الذي يمكنك من تشجيع المستجيبة على مواصلة سرد حكايتها بالتعبير بصيغة تأييد مثل "نعم" أو "آه، أفهم". ويمكننا أن نجد مثالا على ذلك في مقابلتي مع أليسون، فبعدما أنهت حديثها قلت: نعم. وإلى متى استمر ذلك؟ وهو "سؤال تقص حيادي" بمعنى أنك لا تحاولين توجيه دفة الحوار في اتجاه معين، وإنما تشجعين المستجيبة لمواصلة سرد حكايتها. وهو مؤشر على إنصاتك وتأييدك لقيامها بسرد حكاياتها.

التقصي بتوجيه المستجيبة أو المستجيب: وهنا يمكنك التصريح بالتقصي، ورغبتك في توجيه المستجيبة أو المستجيب نحو سؤال بعينه أو التطرق إلى موضوع معين. ففي مقابلتي مع أليسون يمكنني طرح سؤال معين عن علاقتها بوالدتها.

- "هل حدث أن كانت والدتك تنتقد جسدك"؟
- "وإذا كان الأمر كذلك، فكيف كان ذلك؟"

وكان يمكنني مواصلة التقصي في نفس هذا الخط بطرح عدد آخر من الأسئلة على أليسون بناء على إجابتها. فإذا أخبرتني مثلا بأن والدتها كانت تنتقد جسدها وكيفية ذلك، فربما كان سيهمني أن أعرف مدى تكرار ذلك الأمر ومتى كان يحدث – في طفولتها المبكرة، أم على مدار طفولتها، وما إلى غير ذلك. فأنا أتناول حينها خيطا من خيوط المقابلة وأستتبعه بعدد من الأسئلة الأخرى التي أعتبرها مهمة لموضوع الحديث. وبهذا المعنى فأنا أتتبع أليسون إلى حيث تسوقني، ولكني أكون في الوقت ذاته واعية باهتماماتي وأجندة البحث فيما يتعلق بتوجه والدتها بشأن جسد أليسون.

معرفة موقعيتك بوصفك باحثة: المطاوعة خلال عملية البحث

إن منظـور الباحثة النسـوية المطاوعة ينطلق من إدراك أهميـة قيم المرء وتوجهاته في علاقتهـا بعملية البحـث، وهو إدراك يبـدأ قبل دخول ميدان العمـل. أما المطاوعة (reflexivity) فتعنـي تبني نظرة نقديـة إلى الداخل وتأمل واقع وتجارب حياة الباحثة ذاتها، وهي عملية تأمل ذاتي أو رحلة يمكن أن تساعد في العملية البحثية. فلنتوقف أمام الأسئلة التالية: كيف تؤثر سيرة حياتك على مسار البحث؟ وما الذي يشكل المسائل التي تختارين دراسـتها ومدخلك إلى دراسـتها؟ كيف يؤثر السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسـي الذي تعيشين فيه على مسـار البحث على كافة المستويات؟ إن المطاوعة هي العمليـة التي تقوم الباحثة أو الباحث من خلالها بدراسـة وفهـم والتعرف على الخلفية الاجتماعية والافتراضـات الشخصية من حيث كيفية تدخلها في المسار البحثي. فالباحثة أو الباحث، مثلهما في ذلك مثل المبحوثين أو المسـتجيبين، نتاج لبنى وهياكل مجتمعهم، فمعتقداتنا وخلفياتنا ومشـاعرنا جزء من عملية بناء المعرفة. وممارسـة المطاوعة تعني الاعتراف بأن "المعرفة كافة تتأثر بالأوضـاع الاجتماعية التي يتم إنتاجها في إطارها، وأنهـا تمتـد بجذورها في الموقـع الاجتماعـي والحياة الاجتماعية للمشـاهِد والمشـاهَد" (Mann & Kelly، 1997، p. 392). وفيمـا يلـي مقطـع من تأمـلات كتبتها حول كوني باحثة بيضـاء من الطبقة الوسـطى تقوم بعقد مقابلات مع مراهقات داخل مركز اجتماعي للسود في المدينة.

شارلين ناجي هيسي-بايبر:

هل يمكن لباحثة بيضاء من الطبقة الوسطى عقد مقابلة مع مراهقات أمريكيات ملونات؟

دخلت مركـزا اجتماعيا في قلب مجتمع الأفروأمريكيين في حي متوسـط الحجـم من أحياء المدينة يقع في منطقة شـمال شرق. وقد كان لدي موعد للقـاء مجموعة من المراهقـات الأفروأمريكيات البالغـة أعمارهن ما بين 13 و17 عامـا للحديـث معهن عـن تجاربهن في "تجـاوز الطفولة" في مجتمعهن وعن مواقفهن من المدرسـة وكذلك عن آمالهن وهمومهن بشأن المسـتقبل. وقد كنـت بالتأكيد أحتل موقعـا "خارجيا"، فقد كنـت الباحثة والشخصـية الوحيـدة البيضـاء الموجـودة في المركـز الاجتماعي في ذلك اليـوم. وقد تركـزت حرصـي على بـذل الجهد لعـدم الالتزام ببرنامج أو أجندة صـارمة - أي ألا أحمل حزمة من الأسـئلة المعدة مسبقا، والتي أطرحها عليهن جميعا فيما هو أشبه باستطلاع لا يتيح مجالا للإنصات إلى الأصوات خارج إطار أجندة الأسئلة المعدة سلفا. كذلك كنت أريد أن أجد طريقة لأشغل مكانا بحيث أستطيع بدرجة ما كسر السلطة الكامنة عادة في علاقة الباحث-المبحوث. وأذكر أول أيامي في المركز، فقد جمعتنا المديرة في حجرة كانت قد حجزتها لنا، وفي أعقاب المقدمات المبدئية قدمت بعض المعلومات المفصـلة عن نفسي فأخبرتهن بأني باحثة ومدرسة، وبأني لست خبـيرة بل هن الخبـيرات فيما يتعلق بحيواتهن. وقـد أردت تغيير محور التركيز ومسار الحوار تجاه همومهن وآمالهن، وأن أتحول إلى الدارسة التي تشهد على حيواتهن. فما الأمور التي تهمهن؟ وكيف كن يرين تطور حيواتهن في البيت؟ وفي المدرسـة؟ وفي أثناء المقابلة سألنني عدة أسئلة: ما الذي تقومين بتدريسـه؟ هل أنت متزوجة؟ هـل لديك أطفال؟ وأحيانا كن

يدعونني للانضمام إليهن في لعب كرة السلة أو لمشاهدة شيء رسمنه، فكنا نندمج في الحديث فيما بيننا. وقد تطوعت بيوم في الأسبوع للعمل في واحد من المراكز الاجتماعية حيث كنت أقوم بالتدريس لبعض الأطفال الصغار ومساعدتهم في حل الواجبات المنزلية. ولكني كنت أتساءل بيني وبين نفسي: عمَّ إذا كنت أنصت إلى الفتيات بما يشعرهن بأنهن مسموعات؟ فكيف أنصت إليهن عبر الاختلافات العديدة التي كانت تفصلنا – أي انتمائي العرقي والطبقي والعمري، وموقعي بوصفي باحثة؟

وتحتل المطاوعة موقعا في قلب المقابلة المعمقة، فهي العملية التي تتمتع فيها الباحثة بحساسية تجعلها على وعي بديناميكيات "الموقف" القائمة بين الباحثة والمبحوثة التي قد تؤثر على صياغة المعرفة. وفي سبيل فهم التحيزات التي تضفينها على البحث، وقدر السلطة والامتيازات التي قد تفرضينها على بحثك، يمكنك محاولة القيام بالتمرين التالي قبل البدء في البحث، وهي لعبة محاكاة ربما تكون ذات فائدة إذ تستعدين لبدء مرحلة المقابلات في مسار بحثك.

تمرين بحثي: تحديد موقعيتك البحثية

استقطعي من وقتك 10 دقائق لكتابة كيفية تأثير موقعك الاجتماعي على أسلوب ملاحظتك ورؤيتك للآخرين في حياتك اليومية.

- ما التحيزات التي تضفينها و/أو تفرضينها على بحثك؟
- وكيف يؤثر ذلك على أنواع الأسئلة التي تطرحينها خلال بحثك؟
- وكيف يؤثر ذلك على أسلوب البحث الذي تتبعينه؟

فكما رأينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب بشأن إبستمولوجيا الموقعية النسوية، نجد أن ساندرا هاردينج (Sandra Harding 1993) تقدم مفهوم "الموقعية القوية" وترى أن التوقف أمام الموقعية الشخصية خلال كافة مراحل مشروع البحث تحقق "أقصى موضوعية" للباحثة. وهو الأمر الذي يضمن أيضا تمثيل صوت المستجيبة والإنصات إليه وفهمه على مدار البحث. وتدعو ساندرا هاردينج الباحثات والباحثين إلى فحص الأسئلة التي يطرحونها خلال المقابلات، وتلحظ أن تلك الأسئلة ليست "خالية من القيمة" (value free) لما تعكسه عادة من قيم ومواقف وأجندات الباحثة أو الباحث. فالباحثات والباحثون الذين يمارسون "الموضوعية القوية" ربما يطرحون الأسئلة التالية:

- كيف تدخل قيمي ومواقفي وتوجهاتي طرفا في مسار البحث؟ وهل أطرح أسئلة تقتصر على منظوري الشخصي؟
- كيف تعمل أجندتي الخاصة على تشكيل الأسئلة التي أطرحها والنتائج التي أتوصل إليها؟
- كيف تؤثر موقعيتي على كيفية قيامي بجمع وتحليل وتأويل ما أجمعه من بيانات، وكيف تؤثر على المنظور الذي تعكسه؟

أهمية الإنصات

تدعو عالمة الاجتماع مارجوري ديفولت (Marjorie DeVault 2004) الباحثين والباحثات إلى الالتفات إلى اللغة التي يستخدمها المستجيب أو المستجيبة في التعبير عن واقعهم. ولا ينصب اهتمامها تحديدا على مجرد ما يقال، بل على ما لا يقال، أو ما قد يأتي يصل في صورة لغة "صامتة". فعلى سبيل المثال، في مقابلتي مع أليسون، نجدها تستخدم كلمة "تعلمين" عدة مرات. ولنتوقف أمام مقطع قصير من تلك المقابلة لتوضيح المعنى الذي تقصده مارجوري ديفولت:

أليسـون: في ليلة جمعة كنت وحدي في غرفتـي داخل كلية لا تعجبني. تعلمين. لم يكن لي حياة اجتماعية متسـعة. كانت لدي صديقة مقربة، ولكنها لم تكن كافية. كان لي الكثـير من المعارف، ومنها واحـدة مقربة حميمة وأهل للثقة، ولكني لسـت أدري، لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى.

ما قد يسـتوقف مارجوري ديفولت هنا هو التردد الذي يتضح في المقابلة مع أليسون من خلال اسـتخدام اللغة، وهو ما يبدو جليا تحديـدا حين تبدأ في الحديث عن وحدتها. فهي تسـتخدم كلمـة تعلمين حين تبدأ في وصـف الوحدة ليلة الجمعـة وهي في حجرتها بالسـكن الجامعـي. وأثناء نقل المقابلة من جهاز التسـجيل إلى النصـ المكتوب قد تقرر الباحثة في الواقع إلغاء كلمة تعلمين إذ تبدو غير ذات أهمية. إلا أن مارجوري ديفولت تشير إلى ذلك قائلة:

> أرى أن هذا الحديث المتقطع والمتردد وغير الحاسـم يشـير إلى مجال من التجربـة غير مكتملة التعبير، حيث تكـون فيها المفردات اللغوية قاصرة، وحيث تحاول فيها المستجيبة الحديث من واقع التجربة فتجد اللغة عاجزة.
> (DeVault 2004، p. 235)

وتدعونـا مارجوري ديفولت هنا إلى احـترام اللغة المترددة، وما يرد خلال المقابلة مـن كلمـات وعبارات مثل "تعلمـين". ولا يمكن أن يحدث ذلـك إلا بالاعتراف بتلك اللغة، لا في حين اسـتخدامها فقط خلال المقابلة، بل أيضـا حين يحين وقت تعبيرنا عن أصـوات المستجيبات والمسـتجيبين عند قيامنا بكتابة نتائج البحث. ونجدها تقدم شرحا لما قامت به في مقابلة وموقف شبيه:

> أومأت برأسي "آه.. أيوه" بحيث أجعل المقابلة مريحة، فقمت تجاه المستجيبة بما نقوم به نحن النساء عبر الزمان - أي التفاهم فيما بيننا. ولكن أخشى أن يكون ذلك من الأمور التي تتعرض للنسـيان عادة حين ننتقل كباحثات من

مجال حديث النساء إلى علم الاجتماع ، فنترك بالتالي المسكوت عنه خلف ظهورنا. وبشكل ما أو بآخر يعد ذلك خيانة للمستجيبة. وأنا أقول هنا بأنني أتفهم، ولكن في حالة تعرضي لاحقا "للنسيان" فإن حقيقة المستجيبة لا تكون ممثلة تمثيلا كاملا فيما أكتبه. (DeVault 2004 ، 236)

إن المنظور النسوي فيما يتعلق بالمقابلة المعمقة يستطيع رؤية عملية البحث باعتبارها صياغة مشتركة للمعنى. فيجب على الباحثة أو الباحث الحرص والحذر والإنصات بتركيز إلى ما يقوله المستجيب أو المستجيبة، فعلى الباحثة أو الباحث الاستعداد للتنازل عن أجندتهما وتتبع خطا المقابلة ذاتها. فالمقابلة والحوارات التي تتم مع المبحوثة أو المبحوث ستوجد أجندة مستقلة عن تلك التي يحملها الباحث أو الباحثة، ويتعين على الباحثين والباحثات التعامل مع تلك التغييرات، وهو أمر قد يصعب تحقيقه وهي المشكلة التي واجهتها كاثرين أندرسون خلال بحثها. فقد أرادت كاثرين أندرسون، وهي خبيرة في التواصل بالكلام، توثيق حيوات المزارعات في شمال غرب ولاية واشنطن ضمن "مشروع تراث نساء واشنطن" (1991). ولكن خلال مسار البحث، كثيرا ما كان تركيزها على توجهات ومشاعر المزارعات الريفيات يتأثر بأجندتها الخاصة، إذ كانت تأمل في التوصل إلى وصف معين لأنشطة حياة المزارعات بما يمكن استخدامه كمادة صالحة لمعرضها. وفي هذا الصدد نجدها تشير إلى الآتي:

بالعودة إلى تلك الفترة أستطيع أن أرى الآن كيف أنني كنت أنصت إلى ما يقال مع تركيز جزء من انتباهي على إنتاج مادة صالحة للمعرض - أي وصف التجارب التي يمكن أن تصاحب الصور المعبرة عن أنشطة النساء. وإذ أتصفح تلك المقابلات بعد مرور وقت كبير وقد تم تخزين مادة العرض بعد انتهاء المعرض، أدركت وبأسف بالغ قدر الفرص الضائعة التي تحرم النساء من تأمل الأنشطة والأحداث التي يصفنها وشرحها بقدر أشمل وبمفرداتهن الخاصة. (Anderson & Jack 1991 ، p. 13)

ولننصـــت إلى إحدى مقابلات كاثرين أندرســون ، إذ تعقد مقابلة مع امرأة مزارعة تدعى فيرنا والتي تناقش بصراحة مدى صعوبة حياتها كأم . وبينما نجد فيرنا تفتح قلبها لكاثرين أندرسون في المقطع التالي ، نلاحظ رد فعل كاثرين أندرسون لما تبوح به فيرنا من تعبير عن مشاعرها:

> [فيرنا:] لقد مرت بي أوقات كنت أتمنى الهروب من كل شـــيء. ومرت بي أوقات كنت أود لو آخذ الأطفال وأتركهم في مكان ما لأسـبوع -كلهم مرة واحدة- بحيث لا أضـطر إلى التفكـير فيهم. ولا أدري إن كانت تلك المشاعر قد عايشها أحد غيري ، ولكن مرت بي أوقات كنت أشعر فيها بأني في حاجـة للهروب مـن الجميع ، حتى من زوجي ، لفترة قصـيرة. كانت تلك أوقات لم أشـعر فيها سـوى بحاجتـي إلى الهروب. وكنـت حينها قد أتجول في الغابـة وأتأمل الزهور ، وربما أذهب لأجد بقرة عجوزا حقيقية ورقيقـة ، فأقترب منها وأربت عليهـا لفترة وجيزة - أي مجرد أن أهرب من كل شيء. كنت أشعر بحاجتي إلى ذلك ، ويبدو وكأن الأمر أحيانا . . .

[كاثرين أندرسون:] هل كان لك نشاط في الأندية؟ (Anderson & Jack 1991 ، p. 16)

يمكننا اسـتخدام هذا المقطع كمثال على كيفية إمكانية تأثـير أجندة الباحثة أو الباحث على مسار المقابلة. وتبين هذه المقابلة تتبع كاثرين أندرسون لأجندتها الخاصة ، ويمكننا أن نـرى هنـا أنها لم تكن فعلا "تنصـت" لحديـث فيرنا الخارج من القلـب ، وإنما نجد كاثرين أندرسـون تتتبع أجندتها الخاصـة وتعجز عن إدراك مشـاعر فيرنا القوية كما تعبر عنها. إن سـؤال كاثرين أندرسـون عن الأندية يقدم مثالا جليـا على كيفية قدرة الأجندات الخاصة على الوقوف حائلا أمام حميمية وتلقائية مسار المقابلات الشخصية.

إن المنظـور النسـوي في المقابلات المعمقة يكشـف عن أن المقابلة هـي أقرب لحوار بين طرفين مشـاركين فيها لا مجرد جلسـة تقوم على الأسـئلة والأجوبة. فالمعلومات تتـوارد بين طرفي المقابلة ، مع أهمية التأكيد علـى دور الباحثة في تلك العملية. فوظيفة

الباحثة الأساسية هي الإنصات بانتباه وتركيز لتعليقات المبحوثة، وقد يرغب الباحث أو الباحثة في طرح أسـئلة معينة متعلقة بمجال البحث، ولكن من المهم أن تنشأ تلك الأسئلة وتتطـور بحيث تخرج من حديث المبحوثة أو المبحوث، وهـو الأمر الذي يحول دون تركيـز الباحثـة أو الباحث على أجندتهما الخاصـة مع ترسـيخ دور الباحث أو الباحثة باعتبارهما مسـتمعين. ويقدم لنا كتاب كاثرين أندرسون ودانا جاك (Anderson & Jack 1991، p. 24)، دليلا لصقل مهارات "الإنصات" خلال المقابلات، وهو دليل مفيد تحديدا في الإنصات مع تجاوز الاختلافات:

- لتكن مقابلتك قائمة على أسلوب المقابلة المفتوحة بما يمكن الطرف الآخر في المقابلة من التعبير عن توجهاته ومواقفه ومشاعره.
- التقصـي لمعرفة المشـاعر لا الحقائق فحسب. على سـبيل المثال: كيف تفهم المستجيبة الأحداث؟ وما المعنى الذي تضفيه على مسار الأحداث في حياتها؟
- ما المسكوت عنه؟

كما يقترح الكتاب الرجوع إلى القائمة التالية قبل عقد المقابلات:

- كوني على وعي بأجندتك الخاصة.
- احملي معك "أحاسيسك ومشاعرك وردود أفعالك التي تنشأ من خلال الإنصات إلى الآخرين" (Anderson & Jack 1991، p.24).
- إذا اختلط عليك أمر ما فلا تخشي من متابعة موضوع أو مسألة ما.
- ماذا عن الأمور التي تقلقك، وكيفية إمكانية تأثيرها على سـياق المقابلة؟ هل يمكن لما يقلقك شخصـيا أن يقدم لك إشـارة ما بشـأن الاتجاه الذي يجب أن تأخذيه للنظر في "ما يقال" ومشاعر المستجيبة؟

كما أقدم هنا أيضـا "تمرين إنصـات" قد ترغبين في القيام به مع باحثة رفيقة (انظر/ي النص في الصندوق التالي).

تطوير مهارات حسن الإنصات

مقدمة

إن الأسلوب السليم لعقد المقابلات يبدأ بحسن الإنصات. والغرض من هذا التمرين مساعدتك على التدريب على مهارات الإنصات. والتمرين يتطلب وجود شخص يقوم بدور القائم بالمقابلة، وطرف آخر يقوم بدور المستجيب للمقابلة، وشخص ثالث يقوم بضبط الوقت. ويبدأ الطرف القائم بالمقابلة بطرح سؤال واحد على المستجيب، ومن المهم هنا ألا يفكر الباحث أو الباحثة في السؤال التالي (الأجندة الخاصة). يجب على القائم بالمقابلة التركيز على ما يقال ومحاولة الصمت خلال المقابلة ذاتها.

تمرين الإنصات

1. يتم تشكيل فريق مكون من باحثَين أو باحثتين.
2. يتم اتخاذ وضع المقابلة بحيث يجلس الطرفان وجها لوجه على مسافة مريحة لكليهما.
3. يتم استخدام القرعة (بواسطة عملة معدنية) لتحديد من يقوم بدور القائم بالمقابلة أولا، على أن يقوم الطرف الآخر بدور المستجيب.
4. على المستجيب أو المستجيبة الحديث لمدة 30 ثانية حول موضوع ما يحدده القائم بالمقابلة. ويجب أن يكون موضوعا على قدر من الحيادية مثل "مطعمي المفضل" أو "مكان الإجازة المفضل لدي".
5. يقوم الميسر أو الميسرة بالنداء بانتهاء الوقت بعد مرور 30 ثانية.
6. عندها يكون على الطرف القائم بالمقابلة تكرار ما قاله الطرف المستجيب للمقابلة.

7. ثم يتم قلب الأدوار.

8. عقب الانتهاء من ذلك يتم تزويد الوقت ليصل إلى 60 ثانية، ويجب حينها التطرق إلى أمور أكثر شخصية، مثل "الشيء الذي يقلقك عن نفسك" أو "أصعب تحدٍّ واجهك في العام الماضي".

9. ومن الأسئلة التي قد يتم التوقف أمامها: ما الاختلافات، إن وجدت، التي لاحظت حدوثها في المقابلة ما بين المقابلات صاحبة 30 ثانية، وتلك الممتدة إلى 60 ثانية؟ هل تغيرت لغة التعبير الجسدي؟ هل شهدت تلك المقابلات اختلافا في تواصلك بصريا مع الطرف الآخر؟ هل اختلفت تعبيراتك اللفظية؟ ما قدر ما أمكنك تذكره خلال المقابلات ذات 30 ثانية مقارنة بتلك الممتدة 60 ثانية؟ هل واجهت صعوبة في الإنصات؟ وكيف كان ذلك؟

التقاط "العلامات": استراتيجية للإنصات

العلامات هي معلومات قد تقدمها المستجيبة أو المستجيب خلال مناقشة أمر ما. ويقدم روبرت وايس فيما يلي شرحا للعلامة وظهورها:

> إشارة عابرة يقوم بها المستجيب عن شعور أو وضع ما مهم.... ونظرا لظهور العلامات خلال الحديث عن أمر آخر فقد تضطر إلى تذكرها ثم الرجوع إليها حين يمكنك ذلك بالقول "لقد ذكرت منذ دقائق...". ولكن يكون من المستحب التقاط العلامة كلما أمكنك ذلك، إذا كان الأمر المشار إليه ذا علاقة ما بدراستك. إن ترك العلامة تمر سيشير إلى المستجيب بأن المجال المذكور غير ذي أهمية لك، كما يمكنه أن يشير إلى أن اهتمامك مقتصر فقط على إجابات أسئلتك لا تجربة المستجيب الشاملة.... وأحيانا يقدم المستجيبون العلامات بالإشارة إلى حدوث أمور كثيرة أخرى لا يتحدثون

عنهــا في المقابلــة، فقد يقولون مثلا "لقد حدثت أمــور كثيرة في تلك الفترة"، ومن المفيد القول حينها "هلا حدثتني عنها؟" (Weiss 1994، p. 77)

ولنعد الآن إلى المقابلة التي تمت مع أليســون والتوقف أمام العلامات التي تظهر في ذلك النقاش. توجد لحظة في المقابلة تصــف فيها أليسون شعورها بالوحدة، وهي مسألة تتكرر عدة مرات خلال المقابلة. وفيما يلي مقطع قصير مما سبق وروده أعلاه:

أليسون: نعم. وبعدها كنت أنا وصديقتي نشترك في جلسات المذاكرة. وكنت أعود حوالي الســاعة العاشرة مســاء، وكانت لدي ثلاجة في حجرتي، وكنت أشــترى أشياء من البقالة، فكنت أعد لنفســي شــطيرة خبز مع زبدة الفول الســوداني والمربى، أو المربــى والزبــدة، أو أيا مــا كان متوفرا لدي. وكنت أعلــم بوجود آلة بيع في المبنى، فكنــت أنزل وأعود، ثم أنزل وأعود. كذلك فإن صــديقتي الحميمة التي كانت تســكن في الحجــرة المجاورة لي كانت تذهب إلى بيتها في نهايات الأســبوع مرة شــهريا أو ما شــابه ذلك، وكنت أبقى أنا. وكنت أشعر بالوحدة. كان هناك أشــخاص يمكننــي الوجود معهم، ولكــن لم يكن هناك أحد يعرفنــي جيدا، فكنت أذهب إلى آلات البيع، وأذكر أنني كنت أفكر بيني وبين نفســي "هذا لن يسعدني. ولن يجعل مســاء الجمعــة مثيرا، ولكن لم لا؟" وهكذا... كنــت أمارس شراهة الطعام 4 مرات أسبوعيا. وأحيانا كنت أتوقف عن ذلك.

نعم. وإلى متى استمر ذلك؟

في هــذا الحوار تحديدا ســمعت أليســون وهي تتحــدث عن مدى شــعورها بالفراغ والوحدة. وهي تذكر أعلاه ما يلي: " وكنت أشعر بالوحدة. كان هناك أشخاص يمكنني الوجــود معهم، ولكن لم يكــن هناك أحد يعرفني جيدا..". ومــن المهم للقائم بالمقابلة التقاط هذه "العلامة" بعد انتهائها من ردها. ولعل ردي لتتبع تلك العلامة كان ليأتي في صورة ســؤال "هلا أخبرتني المزيد عن شعورك بالوحدة؟" إن أليسون تذكر شعورها

بالوحـدة عدة مرات خلال المقابلـة، ولكنها لا تصف مشاعرهـا بالتفصيل، وإنما يبدو وكأن كل تلـك المشاعر مرتبطة ارتباطا وثيقا بسلوكها البوليمي. وإنك عند إنصاتك إلى تلـك العلامات إنما توضحين للمستجيبة أنك فعلا تنصتين بانتباه إلى الإشارات والمسائل ذات الأهمية بالنسبة لها.

ولننتقل هنا إلى ديفيد كارب من وراء الستار للحصول على لمحة من كيفية قيامه بعقد المقابلات والتعامل مع بعض القضايا التالية:

- كيف تجعل شخصا ما يبدأ في الحديث؟
- هل من الصعب أن تكون منصتا نشطا بينما تقوم بدور القائم بالمقابلة؟
- هل يرغب المستجيبون في الحديث عن حكاياتهم؟
- ما الذي يخرج به المستجيبون من تلك العملية؟

ما وراء الستار مع ديفيد كارب

حسنـا. أعتقد أنه يجب عليك تسهيـل الأمور على النـاس. يجب عليك البدء بطرح الأسئلة. يعني "ما الديانة التي نشأت في محيطها، ... إلخ؟" وعدم طرح الأسئلة التي تمثل تهديدا ما، ومنح الناس فكرة عما تقوم به؛ لأن ما يحاولون هم التوصـل إليه، مثلما يحدث في كل تعامل آخـر، هو: من يكون هذا الرجل؟ وما الـذي يسعى إليه؟ هل هو صادق؟ هل أغراضه حسنة؟ هل يحسن الإنصات؟ هل يبـدو مهتما بما أقوله؟ وحينما تقوم بعقـد مقابلة ما يجب أن تجعل الطرف الآخر -رجـلا كان أم امرأة- أنه الشخـص الوحيد في العالم الذي تتحدث إليه. وأنا لم يكـن في وسعي على الإطلاق القيام بأكثر من مقابلة واحدة في اليوم الواحد قط! وذلـك لأن قدر الطاقة المطلـوب للإنصات بحق، والانتباه بحـق هو قدر كبير للغاية، وكذلك معرفة الوقت الصحيح لطرح أسئلة كثيرة.

وجزء من مسألة إدارة المقابلة هو تحقيق توازن . . . . فلابد أن تحترم الحكاية التي يريد الشـخص الذي تعقد معه المقابلة أن يحكيهـا . وحين يدخلون عليك ، قد يريـدون في البدايـة الحديث عن الأذى الـذي لاقوه من تنـاول دواء ما ، أو ما إلى غـير ذلك . فهو الأمر الـذي يريدون فعلا الحديث عنه ، ويجـب عليّ أنا أن أساير هذا الحديث في البداية ، ولا أنفرهم مني ، فلا أقول "حسنا لقد كنت لا أنوي التطرق إلى هذه النقطة إلا بعد ساعتين من بدء المقابلة" . وأعتقد أن تحقيق التوازن بين إتاحة فرصـة الإنصات إلى الناس والحديث عن مختلف جوانب الحكاية التي يريدون هم الحديث عنها -وكل حكاية لها خصوصيتها- وبين معرفة -في الوقت نفسه- ما الذي تريد تغطيته قبل انتهائك من مقابلة ذلك الشخص .

وأجد أنك خلال مقابلة إن سألت السؤال الصحيح في بداية المقابلة ، فإنك حين تصـل فعلا إلى جوهر الموضـوع فإنك عادة لا تجد نفسـك مضطرا لطرح المزيد من الأسـئلة . ففي موضوع الاكتئاب يكون السؤال الأول الذي عادة ما أطرحه على الناس هو "لعلك لم تطلق عليه مسـمى الاكتئـاب ، ولكن قل لي عن اللحظة الأولى التي خطر على بالك بأن هنالك شيئا ما على غير ما يرام؟" وأحيانا لم أكن مضـطرا للحديث بعدها لمدة السـاعات الثلاث التالية . فقد كانت للناس طريقتهم في سرد حكاياتهم ، وكانوا بتلقائية يغطون كافة مجالات الدراسـة التي كنت أريد تناولها . والمسـألة الثانية التي أود الإشـارة إليها هي أن النسـاء حقا يريدن سرد حكاياتهـن ، ففي كل الحالات تقريبا كان الناس يشـكرونني في نهاية المقابلة على منحهم فرصـة سرد حكاياتهم ، وأن تأتي الأسئلة من عالم اجتماع . . . . وكثيرا ما كانوا يحصـلون على وجهة نظر جديدة بشـأن حياتهم ، وهو منظور ما كانوا ليحصـلوا عليه على مدار سـنوات من العلاج النفسـي؛ وذلك لأنني كنت أطرح أسئلة ما كان يطرحها سوى عالم اجتماع .

وجهات نظر نسوية حول "الاختلاف" في المقابلات الشخصية

تنظر الباحثات النسويات إلى الواقع الاجتماعي باعتباره معقدا ومتعدد الأبعاد، وهو منظور يعمل على تشكيل رأيهن في عملية عقد المقابلات الشخصية. فطرفا البحث يلتقيان في المقابلة بخلفياتهما المختلفة من حيث النوع والعرق والميول الجنسية. كما يمكن للوضع الطبقي وغيره من الاختلافات أن تؤثر في سير المقابلة وتواصلها.

وقلما يلتفت الباحثون والباحثات إلى مدى إمكانية تلك الاختلافات في التأثير أو تحديد المقابلة. ويميل الباحثون الوضعيون تحديدا إلى تجاهل تلك الاختلافات، إذ يتعامل البحث الوضعي التقليدي مع قضية الاختلاف بتقليل تأثيره إلى أقصى حد من التقليل. فالباحثون الوضعيون يحددون معالم مشاركتهم في المقابلة بتوخي "الموضوعية" أو "الاستبعاد المؤقت" لتلك الاختلافات في موقعيتهم بالنسبة للمستجيبين، بما لا يؤثر في مسار المقابلة ذاتها. وهو الأمر الذي يؤدي إلى التقليل من آثار الاختلاف إلى أقصى حد، ولكنه يعني أيضا أنه قلما يتم التوقف أمام أسئلة كالآتية:

- هل يمكن لباحث أعزب أبيض من الطبقة الوسطى عقد مقابلة مع أم سوداء من الطبقة العاملة؟
- هل يمكن لامرأة بيضاء من الطبقة الوسطى عقد مقابلة مع امرأة من العالم الثالث تعيش في الفقر؟
- هل يمكن لرجل من الطبقة الوسطى ذي ميول جنسية غيرية أن يعقد مقابلة مع رجل من الطبقة العاملة ذي ميول جنسية مثلية؟

وترى الباحثات النسويات أن "الاستبعاد المؤقت" للتوجهات ليس بالسهولة التي قد يبدو عليها، فمن الصعب تجاهل التوجهات والقيم الصادرة عن أي مزيج من علاقات الموقعية لشخص ما، بل إن الاعتراف بأوجه الشبه والاختلاف بين طرفي المقابلة يتيح

في الواقــع للباحثــة أو الباحث تقييم مــدى تأثير الاختلاف على المقابلة. كما أن مســائل الاختلاف تؤثر في كافة مراحل مســار البحث، من اختيار ســؤال البحث، وصــياغة فرضــية ما، وحتى عمليــة جمع المادة بأكملهــا. إن التحليل والتأويــل والكتابة النهائية لنتائج البحث تتأثر جميعها بإدراكنا للاختلاف.

من الداخل أم من الخارج؟

لقد وجد بعض الباحثين والباحثات طرقا لتجاوز تأثير الاختلاف على مســار المقابلة الشخصــية، وإحدى الطــرق لتحقيق ذلك تتمثل في "التوفيق" فيما يتعلق بالخصــائص الأكــثر أهمية (مــن حيث اللون أو الســن أو النوع أو الميل الجنســي) بحيث يمكنهم من الاســتعانة بالموقع من الداخل لتحقيق المقابلة. وهو الأمر الذي قد يســاعد أيضــا الباحثة أو الباحــث على تحقيق التعاون والتواصــل خلال المقابلة بما يعينهما على التوصــل إلى مزيد من فهم المستجيبين. ففي نهاية الأمر يكون الباحث أو الباحثة من الداخل ويكونان بالتالي على دراية بالفئة التي ينتمي إليها المستجيب أو المستجيبة. كما أنه من المهم تحقيق تــوازن في بعض تلك المؤشــرات المتعلقة بالفئة التي ينتمي إليهــا الطرفان، بما يقلل من إمكانيــة حدوث تفاوت ســلبي في ميزان القوى والســلطة بما يخــل بالمقابلة (Oakley 1981). فإذا كان ينظر إلى الباحثة أو الباحث باعتبارهما من الخارج، فمن المتعارف- عليه عامة- أن الاختلافات قد تصعب من توصلهما وتفهمهما لموقع "الآخر". ولكن هل يضــمن الموقع "من الداخل" عقد مقابلة أكثر مصــداقية ودقة؟ وكيف يمكن للاختلافات أن تؤثر على مسار البحث؟

وداخــل هذا المثال على الاختلاف يكمن الإدراك بأن- ومنذ بداية مشروعنا البحثي- الشخص وموضوع البحث يعتمد على تقديرنا للاختلاف. إن موضوع البحث وشخصه يؤثر على إدراكنا للاختلاف وعلى مواقفنا العامة من تلك المسائل. وإن تقديرنا للاختلاف

يتيح لنا طرح الأسئلة التالية: أي نساء؟ هل كل نساء العالم متماثلات؟ ما أوجه الاختلاف فيما بينهن؟ وما الاختلافات ذات الأهمية بالنسبة لسؤال البحث الخاص بي؟

كذلك يكون للاختلاف أهمية بالغة فيما يتعلق بمحيط المقابلة (interview situa-tion). فهل يمكن لباحث أو باحثة من بلدان العالم الأول تفهم معاناة النساء العاملات في أسواق العالم الثالث في ظل العولمة؟ ولنفترض أن الباحث رجل أبيض من الطبقة الوسطى ويقوم بمشروع بحثي، فكيف يمكن لانتمائه إلى نوع ولون وخلفية عرقية ووضع اجتماعي ما أن يؤثر في مسار المقابلة؟ هل يمكن للباحثين "تجاوز" الاختلافات بين القائمين بالأبحاث وبين الأشخاص موضوع البحث؟ وهل يرغب الباحث في "تجاوز" كافة تلك الاختلافات؟

إذا كان طرفا المقابلة الشخصية ينتميان إلى نفس النوع والطبقة والعرق، فمن السهل أن نفترض سرعة قيام حوار مفتوح بينهما، وهو موقف قد يتيح أيضا أكبر فرصة لسماع صوت المستجيب وتمثيله. وهي افتراضات ليست بعيدة عن المنطق، ففي بحثها الميداني بين نساء مجتمع "جولاه" وجدت جوزفين بيوكو-بيتس (Beoku-Betts 1994)، أن بحثها نال دفعة إلى الأمام حين أخبرت المشاركات في بحثها بأنها هي الأخرى قد نشأت في مجتمع ريفي تسوده ممارسات ثقافية شبيهة. فقد ساعدها هذا التصريح بموقعيتها وخلفيتها الاجتماعية في التواصل والحصول على البيانات التي ما كان لها أن تحصل عليها بشكل آخر. ونجد كاث ويتسون (Kath Wetson 2004) تتوقف أمام هويتها كمثلية وكيفية تأثير ذلك على ما تقوم به من بحث، فتشير إلى أنه بينما كانت ستختار دراسة الأسر المثلية فإن مشروعها كان سيختلف جدا في حال ما لم تكن مثلية. وهي تعترف أيضا بأن موقعها داخل المجتمع المثلي كان من الأسباب التي سهلت عليها العثور على مشاركات مثليات في بحثها، وهن مشاركات يبدون خافيات عن زملائها الرجال ممن كانوا يقومون بأبحاث حول الحياة والهويات الجنسية. وفي هذا الصدد نجدها تقول:

> في حالتـي كان كوني امـرأة مؤثـرا في كيفية عملي في الميـدان: فقد كنت أقضـي وقتا في أندية المثليات والمجموعات النسائية أكثر من بارات المثليين أو جمنازيوم الرجال. (Kath Wetson 2004، p. 202)

وأحيانا لا يكون الاشـتراك مع المسـتجيبين في بعض الخصائص كافيا لضمان نجاح الباحث أو الباحثة في الاستيعاب التام للتجارب المعيشة لمن يتم تناولهم بالبحث. فقد قامت كاثرين كولر ريسـمان (Catherine Kohler Riessman 1987) بدراسة سرديات الطـلاق، وقدمت مثالا على ذلك، إذ وجدت أن كونها امرأة لم يكن كافيا لفهم تجارب النسـاء المطلقات ممن تختلف خلفياتهن الطبقية والعرقية عنها، فموقعيتها كامرأة بيضاء من الطبقة الوسطى حاصلة على تعليم عال، وقف حائلا دون فهمها الكامل لخصوصية الطريقة التي كانت تقوم بها كل من هؤلاء المطلقات بصياغة سرديتها عن الطلاق (تبعا للمواقف لا الترتيب الزمني للأحداث). وقد أدركت الباحثة مدى التحدي الذي واجهته في الفصـل بين توقعاتها الثقافية من السرديات التي سمعتها من نساء من خلفيات عرقية وطبقية. وقد واجهت جوزفين بيوكو-بيتس (Beoku-Betts 1994) مسـارا شـبيها بذلك خلال بحثها الميداني بين نسـاء جولاه، فهي باحثة سـوداء، وقد ساعدها انتماؤها إلى السود في ضمان مكانة "من الداخل" في المجتمع الأسود الذي كانت تقوم بدراسته. وتذكر لنا كيف أن واحدة من المستجيبات أخبرتها بأنها "تفضل باحثة سوداء مثلي لتقوم بالبحث في مجتمعها لأن 'الباحثات أو الباحثين السـود لديهم حس بشـعبنا لأنهم عايشوا حياتنـا'" (Beoku-Betts 1994، p. 416). ولكنها وجـدت أن موقعها العرقي من الداخـل تداخل مع أوجه اختـلاف أخرى من حيث الخلفيات الطبقيـة والثقافية، وهي اختلافات أثارت قدرا من المقاومة داخل المجتمع تجاه ما تقوم به من نشاط ميداني:

> لقـد لعبـت خلفيتـي العرقيـة دورا أساسـيا في تمكيني من الوصـول إلى المشـاركات في البحـث، وفي تقليـل المسـافة الاجتماعيـة خـلال مرحلة مهمة من مسـار البحـث. إلا أنه تم تحديد هويتـي باعتباري من الخارج بواسـطة مجموعات فرعيـة أخرى داخل تلك الهوية. فعلى سـبيل المثال

كان لانتمائي إلى جنس دون الآخر ووضعي الاجتماعي (غير متزوجة) ومكانتي المهنية كباحثة جامعية كلها عناصر مؤثرة إما بشكل منفصل أو بالاشتراك مع انتمائي العرقي في تسهيل أو تعقيد مسار البحث. (Beok-Betts 1994، p. 420)

كما تقدم جوزفين بيوكو-بيتس توضيحا جليا للتعقيدات التي نشأت في البحث نتيجة للاختلاف، فقد أوجد وضعها الاجتماعي باعتبارها غير متزوجة بعض التوتر في أحد المجتمعات التي درستها، وهي تذكر هنا كيف أدى الاختلاف إلى حدوث المواقف التالية خلال عملها في الميدان:

في أحد المجتمعات قام أحد رجال المنطقة بزيارة للأسرة التي كنت أسكن عندها، وحين تم التعارف بيننا تذكر أنه كان قد سمع عني وأخبرني بالشائعة التي كانت تتردد في المجتمع بأني قد أتيت بحثا عن زوج. . . . وفي موقف آخر حدث في إحدى الكنائس في أحد أيام الأحد، أثار القس الأفروأمريكي موضوع جلسة استماع أنيتا هيل/كلارنس توماس وذلك في أعقاب تعريفي بنفسي لأبناء الكنيسة. وقد كان القس في البداية مشجعا ومرحبا بي في المجتمع باعتباري امرأة أفريقية أتت لدراسة أوجه من التراث التاريخي المشترك، ولكنه ما لبث أن انتقل إلى موضوع جلسات أنيتا هيل/كلارنس توماس، وشرع في الإشارة إلى أن أنيتا هيل كانت هي الأخرى امرأة متعلمة استخدمت تلك الميزة لتوجيه الاتهامات وإحراج كلارنس توماس (والتي كانت بلدتها لا تبعد كثيرا عن هنا). (Beoku Betts 1994، p. 428).

وقد وجدت جوزفين بيوكو-بيتس أن عليها التعامل والنقاش حول اختلافاتها إذا ما كانت تود عقد مقابلات مع المستجيبات، بما يعبر عن مشاعرهن الحقيقية تجاهها. ولم تتمكن من الوصول إلى الأشخاص ذوات بحثها إلا بعد انتهائها من مرحلة النقاش تلك، وعندها كان في وسعها البدء في العمل المشترك على خلق المعنى والفهم.

وبينمـا يكون من المهم التعرف على التحديـات الناجمة عن الاختلاف، فمن الجدير أيضا الإشارة إلى أن الوضع من الخارج قد يمثل في الواقع ميزة، وهو أمر يعتمد على مسـألة البحث والمجموعة البشرية التي اخترت دراسـتها، إذ إن عـدم الانتماء إلى فئة معينـة قد يجعلك تبدين أكثر حيادية تجاه المسـتجيبة أو المسـتجيب. كذلك فإن الموقع من الخارج قد يشـجعك على طرح أسـئلة حول أمور قد تعتبر محسومة باعتبارها "معرفة مشـتركة"، وبالتالي يمكنك ذلك الموقع من اكتشاف وجهات نظر فريدة لدى المشاركين والمشـاركات بشأن قضـايا معينة. وقد علق عالم الاجتماع روبرت وايس على قضايا الاختلاف بين القائم بالمقابلة وبين المستجيب وأوردها فيما يلي:

> يمكن صـياغة تلك المسـألة بطرح السـؤال عن مدى ضـرورة أن يكون القائم بالمقابلة من داخل عالم المسـتجيب، في سـبيل عقد مقابلة يتمتع القائم بها بالكفاءة. . . . ومن الصعوبة التنبؤ بالمزايا التي يتمتع بها القائم بالمقابلة والتي ستثبت أهميتها بالنسبة للمستجيب، ورد فعل المستجيب تجاهها. . . . فهنالـك العديـد من المزايـا المختلفـة للقائم بالمقابلـة والتي قد يسـتجيب لها المسـتجيب برد فعل مـا، بحيث نجد القائم بالمقابلة يبـدو بالضرورة وكأنه من الداخل بشـكل ما أو من الخارج بشكل آخر. . . . وقد وجدت عموما أنـه من الأفضـل أن يكـون الباحث من داخـل المجتمع الـذي يعيش فيه المسـتجيب، لأنه يكون من الأسهل لي حينها أن أوجد علاقة شراكة بحثية مع المسـتجيب. ولكن من بين أفضـل المقابلات التـي عقدتها هي مقابلات اعتمدت جودتها على كوني من الخارج، واحتياجي للإرشاد داخل نطاق حياة المستجيب. (Robert Weiss 1994، p. 137)

وتجدر الإشـارة إلى أن موقع من الداخل/من الخارج هو موقع حدوده غير قاطعة ويمكـن أن يتغير حتـى أثناء المقابلة الواحدة. فقد يوجد اشـتراك في دورك/مكانتك مع المسـتجيبة أو المستجيب فيما يتعلق ببعض المسـائل، ولكنك قد تكتشفين وجود اختلافات

جلية فيما يتعلق بنقاط تفصيلية أخرى في سؤال بحثك أو موضوع حوارك. ونجد مثالا جيدا علـى ذلك الموقف في البحث الذي قامت به روزاليند إدواردز (Rosalind Edwards 1990)، وهي امرأة بيضـاء متعلمة من الطبقة الوسـطى مهتمة بعقد مقابلات غـير محكمة البناء مع الأمهات الأفروكاريبيات البالغات ممن هن في مرحلة الدراسـة الجامعيـة، وكانت ترغب في فهم التجارب المعيشـة لهؤلاء النسـاء فيما يتعلق بمسـائل التعليـم والعمـل والحياة الأسرية، ولكنها واجهت صـعوبة في الوصـول إلى تلك الفئة البشريـة وإلى الحصـول علـى ثقتهن في مسـارات المقابلات الشخصـية. وقد اعترف الطرفـان أخيرا بالاختلافات القائمة بينهما خلال نقاش عام، وحينها تمكنَّ من مناقشـة تجاربهن بصراحة. فقد عايشـت روزاليند إدواردز تجربة أشـبه بمشاعر المد والجزر في تحولهـا مـا بين الموقع من الخارج إلى الموقع من الداخـل، وهو التحول الذي حدث خلال مناقشتها مختلف القضايا مع المستجيبات. وتشير إلى أنها شعرت بكونها أقرب إلى أن تكون من الداخل حينما تركزت المناقشـة على الأمومة: "لقد أشـارت النساء السود إلى وجـود قدر من التفاهم والموقع المشـترك بيننا"، ثم حدثت نقلة واضـحة عند تحول المناقشة إلى مجال أكثر "عمومية" مثل التجارب التعليمية، ومع أن روزاليند إدواردز شـاركتهن أيضا في موقعية الأم البالغة والطالبة الجامعية، فإن الحوار تحول إلى مجال "كانت النساء السود أقل رغبة في الحديث معي حول أكثر ما كان يجمعنا" (Rosalind Edwards 1990، p. 488).

المطاوعة والاختلاف

يكتسب مفهوم المطاوعة (reflexivity) أهميته مرة أخرى حين نتطرق إلى الدراسة عبر الاختلاف. ويمكن للمطاوعة أن تكون أداة مهمة تتيح للباحثات والباحثين إدراك موقعياتهـم ونوعهـم وعرقهم وطبقتهم وغيرها مـن العوامل التي قد تثبـت أهميتها في مسـار البحث. ويمكننا الاسـتعانة بالمشروعات البحثية سـابقة الذكـر لتأمل كيفية تأثير

أوجه التشـابه والاختلاف على مسـار المقابلة الشخصـية. فقد اسـتوجب الأمر من كل من الباحثات والباحثين المذكورين أعلاه مواجهة مدى التشـابه والاختلاف بينهم وبين المجموعـة التي تم بحثها، ثم كان عليهم توجيه تلك العوامل وتوظيفها داخل الدراسـة. إن ممارسة المطاوعة أدت في الواقع إلى تمكين طرفي البحث داخل محيط المقابلة. فتأمل الاختـلاف أتاح لكل مـن جوزفين بيوكو-بيتس وروزاليند إدواردز وكاثرين كولر ريسمان وكاث ويتسـون وروبرت وايس أن يقوموا بالتعامل والتفاوض بشأن أوجه الاختلاف والشبه مع المستجيبين والمستجيبات للوصول إليهم وللحصول على المادة التي ما كان لهم أن يتوصـلوا إليها بدون ذلك. كما تمكنوا أيضـا من اكتسـاب رؤى جديدة بشـأن المادة المجموعة من منظور الاختلاف. فالمطاوعة التي مارسـتها كاث ويتسون بشأن هويتها المثلية وتأثيرها على بحثها أتاحت لها سهولة الوصول إلى مجتمع المثليات. واعـتراف روزاليند إدواردز بأوجه الشـبه والاختلاف بينها وبـين الأفروكاريبيات منحها فهما أعمق لكيفية حديث تلك المجموعة من البشر عن المسـائل العامة والخاصـة. كذلك أدرك كل من روبرت وايس وروزاليند إدواردز عدم وجود حدود فاصلة بين الموقع من الداخل والخارج، والذي يمكن أن يشهد تحولا تبعا لموضوع بحثي ما والتيار الذاتي الذي يحكم المقابلة الشخصية.

وتذكرنـا المطاوعـة أيضـا بأهميـة دور الاختـلاف في مشروعنا البحثـي بأكمله، فالاختـلاف يدخل في كل وجه من أوجه المسـار البحثي، فهو يوجـه المشروعات التي نختارها، ويؤثر في الأسـئلة التي نطرحهـا، ويوجه الطريقة التي نجمع ونحلل ونكتب ونـؤول بها المـادة. ويجـب تتبع الاختلافـات ودراسـتها واحتضـانها، لأن تجاهلها والاستهانة بها قد تترك تداعياتها السلبية على المادة وعلى المشروع بأكمله.

تحليل مادة المقابلة الشخصية وتأويلها

سـأقدم في هذا البـاب بعض المفاهيم العامة المفيدة خلال قيامـك بتحليل مادة المقابلة.

ويقدم عــالم الاجتماع ديفيد كارب مدخلا من الخطوات (الــواردة لاحقا) والتي يمكن تتبعهــا عند البــدء في تحليل مادة المقابلة، حيث يؤكد علــى أهمية الشروع في التحليل في مرحلة مبكرة لأن التحليل الكيفي للمادة هو عملية مكررة من الجمع والتحليل معا، وهما عمليتان يجب أن تتما آنيا. ويقترح ديفيد كارب كتابة المذكرات القصيرة (memoing) أثناء مسار البحث وذلك لتتبع مدى التجانس القائم بين المادة المجموعة، فكتابة المذكرات القصيرة سيساعدك على تتبع ما يطرأ على البحث من تقدم كما أنه يتيح فرصة تسجيل أية هواجس وأفكار قد تساورك خلال البحث بشأن الصلات بين مختلف المواد المجموعة. ويمكن تأمل اللحظات الفاصــلة في البحث من خلال تدوين المذكرات القصــيرة، ولكن تلك النصوص القصيرة ستساعدك أيضا على المزيد من المطاوعة بشأن موقعيتك ومدى تأثيرها على البحث. كذلك يؤكد ديفيد كارب أهمية الســعي بحثا عن "الحالات السلبية" التي لا تتجانس تماما أو التي تخلق مشــاكل داخل البحث، وهي حالات يمكنك التوصل إليها من خلال طرح السؤال التالي على نفسك: ما الذي لا يتماشى مع تأويلي؟

نصائح ديفيد كارب من أجل تحليل ناجح لمادة مقابلاتك المعمقة

فلتتذكــر أن التحليل الذي تقوم به على مدار البحث هو بنفس القدر من أهمية جمع المادة. ولا تلجأ أبدا إلى التعامل مع مهمة جمع المادة باعتبارها مسألة أدنى مرتبة من التفكير وتحليل المادة. إن مصدر القوة التي تتمتع بها مناهج كالمقابــلات المعمقة إنما يرجع إلى القدرة على القيام في نفس الوقت بجمع المادة وتحليلها، وهما عمليتان يجب أن تفيد إحداهما الأخرى.

ولتبدأ بكتابة المذكرات القصــيرة مع أول مقابلة. واترك المجال للمواد التي تجمعها منذ البداية أن تخبرك بما هي الأفكار السليمة وتلك التي تحتاج إلى إعادة تقييم. وفي البداية تحديدا ستســمع من يقول لك أشــياء لم تكن قد خطرت على بالك من قبل، فابحث جيدا عن الاتجاهات الأساســية التي لم

يخطر على بالك تتبعها. إن إيقاع كتابة المذكرات القصيرة يكون كبيرا في بدايــة العمل، وأنا أدعو إلى كتابة مذكـرات "الفكرة" أو "المفهوم" والتي تمهد لنشأة فكرة ما، وهي مذكرات تمتد صفحة أو صفحتين.

قــم بإعادة تقييم دليـل المقابلة الذي تسـتخدمه بعد عقـد 10 مقابلات، فعشــر مقابلات تقــدم معلومات كافية بما يتيح تقييم مــا تتعلمه أو ما تعجز عن تعلمه. وربما تمثل نقطة جيدة لتأمل أسـئلة بحثك والأفكار الأساسـية الآخذة في التطور.

إذا كنت تعتقد أنك كنت قادرا على التوصــل إلى فكرة محددة، فقد حان الوقــت لكتابة مذكــرة "بيانات"، وهي مذكــرة تدمج الفكــرة بالمادة وكل الأدبيات ذات الصــلة. إن ما أعنيه بمذكـرة البيانات هو أقرب إلى ما يبدو كورقة بحث مبدئية، ويجب عليك فيها اسـتخدام مادة تفوق ما ستسـتخدمه فعليـا حــول نقطة مــا في ورقة البحــث. فإذا كانــت لديك نقطــة عامة ما، ووجدت بأنك تملك 10 نقاط فرعية من المادة البحثية التي تتماشى مع النقطة العامة، ضــعها جنبا إلى جنب وتأملها ثم اســتخدمها لاحقا. وتأكد أيضا من أنك تستعرض ما يقوله الأشخاص ممن لا يتماشون مع النسق العام لبحثك.

وبمجرد أن تبدأ الأفكار في التطور والتشـكل اتبع طريقا مختلفا للعثور على حالات لا تتماشــى معها. يجب أن تسـعى بأقصى قدر ممكن لإثبات خطــأ ما توصــلت إليه مــن أفكار. ولا تخشــ من التعقيـد والغموض في الأفــكار، فالعــالم معقد ولابد لكتابتــك من أن تعكس هــذا التعقيد. ويميل الباحثون في العلوم الاجتماعية إلى وصــف الأنماط والأنســاق المتجانسة والمتماسكة، وهو أمر يقلل من التعقيد الكامن في الأشياء، فلا تقع في غرام النظريات الأولية والممكنة.

بعد عقد 20–15 مقابلة قد يكون من المفيد إيجاد فئات للترميز، وتتمثل المهمة هنا في البدء في إيجاد أكبر قدر ممكن من الفئات، والترميز هو سبيل

آخر من سبل "الاقتراب من المادة" وإفصاحها لك عما تعرفه. ويمكنك في النهاية استخدام تلك الرموز أثناء مراجعتك للمادة قبل كتابة المذكرات.

قم بكتابة مذكرة كاملة نسبيا كلما اتخذ البحث مجرى جديدا (مثل حدوث تغيير في إجراءات اختيار العينة)، مع تقديم شرح واف للتغيرات في اتجاهات التحليل. ويمكن لمذكراتك أن تشكل "مسارا" يمكن للآخرين تتبعه. وعلى من يقومون بالبحث الكيفي تحمل المسؤولية الكاملة عن الإجراءات المتبعة بنفس القدر الذي ينطبق على من يتبعون إجراءات محددة ومستقرة.

إذا كنت ترى أن لديك فكرة راسخة بما يتيح كتابة ورقة بحث للنشر، قم بذلك فورا. إن نشر أوراق البحث أمر يؤكد سلامة المسار ويصقل الأفكار. ولا يجب عليك الانتظار حتى تكتمل مادة البحث كلها قبل أن تشرع في كتابة ورقة بحث، وستجد أن بعض أوراقك ستمثل "عينة فرعية" ضمن عينة أشمل.

ومن آن لآخر قم بكتابة خطوط عامة لما يمكن أن يبدو عليه كتاب أو رسالة أكاديمية أو تقرير مبني على المادة العلمية. وقم بإعداد خطط مبدئية، واعمل كما لو كنت على وشك البدء في كتابة كتاب، فهو تمرين جيد يتطلب منك رسم صورة متكاملة.

لا تكون مهووسا بالحصول على بيانات متطابقة من كل المستجيبين، فستجد أن كل مستجيب يتميز بشيء من التفرد. وأثناء الكتابة لابد من الإشارة إلى الحكايات الفريدة هنا وهناك. ولعل من الصائب أن تكتب ملخصا طوله صفحة تقريبا بحيث يصف الأفكار الأساسية الواردة في كل مقابلة شخصية.

اختبر فرضياتك من خلال المستجيبين، قم بدمج فرضياتك داخل أسئلتك ("أتعلم أن الكثيرين ممن تحدثت إليهم أخبروني أن... ؟ فهل

ترى في ذلك منطقا ما؟") فلا داعي لإخفاء الفرضيات والأفكار والمفاهيم.

انتبه إلى الحالات المتطرفة لأنها تحمل عادة الكثير من المعلومات. وكن حريصا دوما على عمل "تحليل الحالات السلبية".

إن المقابلات الشخصية المعمقة تلتقط تجارب الحياة التي يعيشها الفرد، وتضفي الباحثات النسويات منظورا فريدا على ممارسات المقابلات المعمقة نظرا لإدراكهن -عادة- بمسائل القوة والسلطة التي قد تؤثر في مسار البحث. وهؤلاء الباحثات حريصات على التوقف أمام موقعياتهن، فالباحثات النسويات قادرات على تحديد كيفية تأثير قيمهن وتحيزاتهن الشخصية في عملية البحث في كافة مراحل المسار البحثي، وهو ما يتضمن أنواع أسئلة البحث التي يتم طرحها وكيفية جمع المادة البحثية وتحليلها وتأويلها. إن الباحثات النسويات ملتزمات بالوصول إلى المعرفة التابعة التي تقبع -عادة- مخفية عن عملية بناء المعرفة السائدة. والباحثات النسويات مهتمات تحديدا بقضايا العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي من أجل النساء وغيرهن من الفئات المقهورة.

وسننتقل في الفصل التالي إلى أشكال أخرى من البحث النسوي، والتي تتضمن عقد المقابلات كوسيلة لجمع المادة. وسوف نتوقف أولا أمام أبحاث التاريخ الشفوي النسوي، ثم ننتقل إلى عقد المقابلات في مجموعات مناقشة (focus groups). وسنركز على كيفية إمكانية الاستعانة بهذه المناهج في خدمة القضايا النسوية.

المراجع

Anderson, Kathryn, & Jack, Dana C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analyses. In Sherna B. Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.

Beoku-Betts, Josephine. (1994). When black is not enough: Doing field research among Gullah women. *NWSA Journal, 6*, 413–433.

DeVault, Marjorie. (2004). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. In Sharlene Hesse-Biber & Michelle Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 227–250). New York: Oxford University Press.

Edwards, Rosalind. (1990). Connecting methods and epistemology: A white woman interviewing black women. *Women's Studies International Forum, 13*, 477–490.

Harding, Sandra. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In Linda Alcoff & Elizabeth Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49–82). New York: Routledge.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.

Mann, Susan A., & Kelley, Lori R. (1997). Standing at the crossroads of modernist thought: Collins, Smith, and the new feminist epistemologies. *Gender & Society, 11*(4), 391–408.

Oakley, Ann. (1981). Interviewing women: A contradiction in terms. In Helen Roberts (Ed.), *Doing feminist research* (pp. 30–61). London: Routledge and Kegan Paul.

Patai, Daphne. (1991). U.S. academics and Third World women: Is ethical research possible? In Sherna Berger Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 137–153). New York: Routledge.

Patton, Michael Q. (2002). *Qualitative research and evaluation methods* (3rd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.

Reinharz, Shulamit. (1983). Experiential analysis: A contribution to feminist research. In Gloria Bowles & Renate Duelli-Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 162–191). New York: Routledge.

Reinharz, Shulamit. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.

Riessman, Catherine K. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and Society, 1*, 172–207.

Stacey, Judith. (1991). Can there be a feminist ethnography? In Sherna Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 111–119). New York: Routledge.

Weiss, Robert S. (1994). *Learning from strangers: The art and method of qualitative interview studies.* New York: Free Press.

Weston, Kath. (2004). Fieldwork in lesbian and gay communities. In Sharlene Hesse-Biber & Michelle Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 198–205). New York: Oxford University Press.

الفصل السادس

ممارسة التاريخ الشفاهي النسوي ومقابلات مجموعات النقاش

باتريشا لينا ليفي

في المقطـع التالي من "ما وراء الستار"، تتيح لنا الباحثة النسوية ماكسين بيرتش الدخول وراء ستارة عملها البحثي، فتتناول بالدراسة القضايا المتعلقة بفكرها النسوي في ممارسة البحث الكمي. وهي تصف كيفية قيامها بالتفاوض بشأن بعض المسائل المعقدة التي تواجهها الباحثات النسويات خلال عملية بناء العلاقات في الميدان وأثناء المقابلات الشخصية، وهو الأمر الجوهري في ممارسات التاريخ الشفاهي، والذي يتطلب درجات عالية من التفاهم والثقة وروح العمل المشترك. وينصبّ حديث ماكسين بيرتش (Maxine Birch) في جوهره على السؤال التالي: "هل يمكنك التعرف على 'النسوية' في الميدان؟"

* ملحوظة: بعض أجزاء هذا الفصل مأخوذة بموافقة المصدر التالي:
Hesse-Biber and Leavy (2006), The Practice of Qualitative Interviewing, Sage Publications, Inc.

ما وراء الستار مع ماكسين بيرتش

إن الدور البحثي الذي أتبناه عند إجراء مقابلة أو المشـاركة في سـياق بحثي يسـعى إلى أن يبدو "عاديا" بقدر المسـتطاع ، وهو دور ندين به لتراث علم الإثنوجرافيا وكثير من المساهمات المنهجية التفاعلية والنسوية. ويتيح البحث الكمي الفرصـة أمام الحوارات لتجاوز المعاني العامة والمعممة، بما يشـجع علـى مزيد من التعبـير الحميمي والخاصـ. وأرى أن الباحثـة أو الباحث اللذيـن يختلطـان بالناس وبالسـياق الاجتماعي للبحث قـادران على بلوغ أعماق المعنى اللازم للبحث الكمي المقبول والموثوق به. وأشـعر أنا بالراحة عند القيام بدور البحـث الطبيعي (naturalistic research)، إذ أسـتمتع بالوقت الذي أقضـيه مـع الناس وفي التعرف عليهم، كما أميل إلى دراسـة السـياقات الاجتماعيـة المحيطة بي، حيـث تتجانس تجاربي الشخصـية مع تجارب الآخرين. إن الوجود في الميدان يشعرني بأنه امتداد لحياتي اليومية.

ولسـت على يقين من مصدر فضولي العميق لفهم الناس المحيطين بي، فأنا أذكر طفولتي باعتبارها مرحلة خالية من أي وعي سياسـي أو ثقافي، فقـد كانـت أسرتي وأصـدقائي يعيشـون- كغيرهـم- دون التوقف أمام حياتهم بالتفكير أو التسـاؤل. وفي سبيل فهم مصدر نشأة اهتمامي بالبحث يتعين عليّ أن أتناول كيفية تشـكيل النسوية لما أنا عليه. فكوني امرأة شابة خلال السـبعينيات مـن القرن العشرين اسـتوعبت الكثير مـن الروايات الأدبية النسـوية، ثم اتجهت لدراسة النسـوية في العلوم الاجتماعية خلال الثمانينيات. وقد كانت الحكايات النسـوية تحمل تفسـيرا لتجاربي وتأكيدا على كون التجربة الشخصـية فعلا سياسـيا، مما أدى إلى نشأة تلك الهوية النسـوية القوية التي تجعلني الآن أعتبر نفسـي نسوية. ولكن هل أنا باحثة نسـوية؟ لقد أطلقت على نفسـي هذا المسمى في نصـوص أكاديمية، ولكن

التوقف العميق أمام علاقتي بالمشاركين والمشاركات في الميدان يكشف عن أني لا أعترف بهويتي النسوية أثناء بناء علاقات بحثية.

وأنا أقوم هنا بتناول ذلك الأمر من حيث ما إذا كان بسبب شعوري بعدم الراحة إزاء الإعلان عن نفسي باعتباري نسوية في الميدان؟ أم بسبب ما تتطلبه علاقات البحث من حساسية خاصة تجاه مدى رد فعل الطرف الآخر تجاه تلك المعلومة؟

وفي "الدراسة العلاجية" استخدم الكثيرون من المشاركين الذكور العلاج الجماعي (group therapy) لفهم تجاربهم مع العلاقات الشخصية مع النساء. وفي سبيل تشجيع المشاركين الذكور على التعبير لي عن مشاعرهم، نشأت لدي حساسية معينة للتعرف على نظرتهم تجاه النساء، والتي كثيرا ما كانت تتعارض مع قيمي الشخصية والأكاديمية بشأن النساء والفكر النسوي بأنواعه. ولم أعارض قط أيا من الافتراضات التي كانت لديهم عني، وكنت آمل في أن يعتبروني امرأة "عادية"؛ لأني كنت أرى في ذلك أمرا ييسر كشفهم عما في أنفسهم. وقد كنت على قناعة بأن الإعلان الصريح عن أية آراء نسوية خلال هذه العلاقة البحثية قد يؤدي إلى تغيير الافتراضات تلك يحملونها تجاهي مما قد يغير بالتالي ما يحكونه لي. ولذا احتفظت بهويتي النسوية لنفسي كما لم أصرح بأثر الفكر النسوي على صياغة خطتي البحثية. ومن ناحية أخرى كثيرا ما كانت النساء المشاركات في هذه الدراسة يعبرن عن قيم نسوية شبيهة بقيمي، وبالتالي كانت هويتي النسوية تظهر على السطح، فكان اعتباري امرأة "عادية" في نظر هؤلاء النساء يشمل التعبير عن الكثير من الآراء النسوية عن الرجال عامة وبشأن كيفية تشكيل بنية العلاقات الشخصية. وهكذا كان إحساسي بذاتي النسوية عاملا مساعدا في تشجيعهن على التكلم معي عن مشاعرهن وتجاربهن. ومع ذلك لم أتطرق في مناقشاتي معهن إلى

كيفيـة تأثير الفكر النسـوي على موقعي البحثي. وفي دراسـة أخرى عن "الشـباب وسرديات التدخين" كنت في حاجة إلى إثارة وعيي بالسياقات المختلفة والعلاقات الاجتماعية القائمة في حيوات الشباب، فقد كان الشباب يعتبرونني "عادية" من منطلق كوني "محلية" و"أمًّا" و"مدخنة سـابقة"، ومـن هذا الموقع كانوا يشـعرون بأني قادرة على تفهـم أوجه متنوعة من حياتهم. وقد أدى ذلـك إلى خلق علاقة بحثية تمتعت فيها بتلقي الكثير من الحكايات الشخصية والحميمية عن حيواتهم.

وهكذا فحين أتأمل مختلف العلاقات البحثية التي أدخل فيها وأبنيها ولا أندمـج فيها، فإنني أشـعر بأني أتعامل فيها على سـجيتي مع وجود حدود تتلاءم مع الحدود التي تتطلبها مهنية البحث. إن الإعلان عن كوني باحثة نسـوية أثناء خلق علاقة بحثية يبدو أمرا غير حيوي ومسألة إضافية، فأنا أقـوم طواعية بالإفصـاح عن جوانب خاصـة بذاتي في سـبيل بناء قاعدة مشـتركة في الحوار لأنه يشجع الآخرين على الكلام معي. ولكني أحتفظ بأجـزاء مـن ذاتي لنفسـي، وهي جوانب شخصـيتي التي قـد تعتبر فائقة الاختـلاف أو التبايـن أو التعارض مع الآخرين، فالطرف المشـارك في البحـث ليس منوطـا بالتفاعل مع ما قد أكون عليـه في جوانب أخرى من حياتي. نعم، أنا أقوم بتشكيل البحث، وأقوم بتوجيه المسار والمشاركة في صياغة الروايات التي يتم سردها، ولكني لست العامل المحفز. نعم، أقوم بالـرد على الأسـئلة المطروحة عني، في حين وفي حـال طرحها، ولكن أي إضـافة مني إنما تسـعى لاكتشـاف المزيد عما يقوله الطرف الآخر أو عما يحدث. ويمكنني أن أشـبه هذا الدور بدور المعالج النفسي الذي يتبنى مدخـل التركيـز علـى الشـخص (person-centered approach)، وباعتباري باحثة؛ فإني أتبنى التركيز على المسـتجيبة أو المسـتجيب (re-spondent-centered). فدوري في الميدان لا يقوم على الكشـف عن كيفية تفهم الشـخص لتجاربـه أو تجاربها، وإنما تيسـير الزمان والمكان

للكشف واستيعاب الآراء والتفسيرات التي قد تنشأ عن تلك التجارب.

وفي نطاق الأبحاث التي قمت بها فإن الحكايات الشخصية والمعاني التي توصلت إليها من الملاحظة المباشرة هي تنتج داخل العوالم الشخصية التي ينتمي إليها المشاركون والمشاركات، والعالم البحثي الذي أحدده أنا هو جزء من حياتهم اليومية. فالمشاركات والمشاركون يفهمون قصص حياتهم بطريقتهم، كما يشيرون في الوقت نفسه إلى كيفية إمكانية تأمل بعض جوانبها على المستوى السياسي. وهم ليسوا في حاجة لي كي أشير إلى ذلك الأمر بدلا منهم. وختاما فإن الدور البحثي الذي أتبناه ليس مخادعا بسبب عدم انزعاجي الشخصي من الإفصاح عن نفسي كباحثة نسوية، وإنما يتيح لي ذلك العمل نحو تحقيق دور أكثر أصالة وانسجاما بما يتماشى مع الموقع الذي يرغب المشاركات والمشاركون في وضعي ضمنه. وأحيانا تتطور تلك العلاقة البحثية إلى شيء من الحميمية والراحة، كلما ازداد الكشف عن التجارب وقصص الحياة. وفي أحيان أخرى يؤدي ذلك إلى فضول الوعي بالاختلاف والغرابة في إطار من الاحترام. إن تلك العلاقة البحثية القائمة على "التعارف" والتفاعل والبناء وعدم التعامل مع شخص آخر يمكن أن تنتهي من آن إلى آخر بمشاعر البعد وعدم الاستلطاف، ولكن نادرا ما تنتهي أية علاقة بحث دون الكشف عن أمر مهم للمشروع البحثي.

إن نصوص البحث النسوي تنبهنا إلى أشكال التفاوت الذي ينشأ بين الإنتاج الأكاديمي للمعرفة وبين ما تم في الميدان، كما تقدم لنا تلك النصوص استراتيجيات منهجية، مثل كتابة السيرة الذاتية، لمواجهة ذلك التوتر القائم. وأنا أرى وجود حاجة لهذا التوتر للحفاظ على أكبر قدر من القرب و"الحقيقة" في هذا اللقاء البحثي، وهو توتر يتغير تلقائيا عند انتهاء التعامل بين طرفي العلاقة البحثية. إن النسوية هي جزء من مفهومي عن هويتي، وأنا أعلن عن ذلك في الظروف الملائمة، وهو إعلان قد يفرض

علـى الطرف الآخر إحساسـا قويـا بـ"من أنـا" قبل منـح العلاقة الوقت الـكافي لتطورها، فعلاقات البحث تتطلب الوقت لحمايتها من هذا الشـكل من الفرض والإجبار. إن المسـألة الشخصية هي أمر سياسي، والباحثات الكميات النسويات على علم جيد بالموقع المتميز الذي يتمتعن به، بما يجعل عمليات تسييس الأمر واضـحة ومرئية. ولم يسبق لي أن دخلت سياقات بحثيـة حاملة نية سياسـية صريحـة لدعم التغيير الاجتماعـي عبر العلاقة البحثيـة، إذ يتعين عليّ أن أتيح للمشـاركات والمشـاركين تفهم رواياتهم واستيعابها خلال مسـار البحث، وهو ما يتطلب مني أن أتحمل المسؤولية الأخلاقيـة لاختياري مكان وزمان وكيفية التعبير عما لدي من معرفة أو قيم أو قناعات خلال اللقاء البحثي. كما يتطلب مني أيضـا أن أتحمل نتيجة الخطوة التالية حين يصـبح في وسعي تسـييس الروايات الشخصية لإنتاج معرفة أكاديمية. ولذا فسـأظل أطلق على نفسي مسمى الباحثة النسوية بما أن تلك هي المعرفة الأكاديمية التي اخترت أن أقوم بإنتاجها، وسأواصـل في الميدان تبني دور التخفي على أمل أن يعكس ذلك كيفية قيام المشـاركين والمشاركات بتفسير الأمر بأنفسهم.

ويشـير الكثـير من تجاربـي في الحياة إلى كيفيـة التغير الـذي يطرأ على الحوار عندما أعلن عن تمسـكي ببعض المبادئ والقيم النسـوية، ومن هنا فعنـد "قيامـي بالبحث" يكون اختيـاري قائما على التحكـم في كيفية تقديم مفهومي الشخصـي للنسـوية والمعرفـة بالفكر النسـوي الأكاديمي، وهو تحكم يتكيف مع الطريقة التي أحدد بها موقعي باعتباري باحثة نسـوية في اللقاءات البحثية المتنوعة وفي إنتاج النص البحثي.

ملحوظة

أتقـدم بالشـكر والامتنان لكل من ريبيكا جونز ونينا نيسـن، وهما زميلتان نسـويتان ساعدتاني في تطوير أفكاري المعروضة هنا.

وبشـكل عام، فإن التاريخ الشـفاهي هو منهج مركز في عقـد المقابلات وذو جذور أنثروبولوجيـة، كمـا يكثر اسـتخدامه أيضـا بواسـطة علمـاء الاجتمـاع والمؤرخين والمؤرخات، وكيرا ما يرتبط بالنسـويات. وتشرح إيلين كلارك أن التاريخ الشفاهي "يقع في المسـاحات ما بـين الإثنوجرافيا وعلم الاجتمـاع والتاريخ" (Eileen Clark 1999، p. 3). وهنالـك جانب يتسـم بالأداء التمثيلـي (performative) في التاريخ الشفاهي، لأن الحكي يشتمل دوما على الأداء:

> في إشـارتها إلى الأداء التمثيلـي في الحكـي، تؤكد فينيجـان على أن هذه العلاقـة الديناميكيـة هي مـا يمكّن الحكائين مـن اختيار الزمـان والمكان الأنسب لتحقيق أقصى تأثير، وصياغة الصور المجازية، وإضافة التأكيد، واسـتخدام الإيقاع لبناء المعنى الدرامي والقوي في كل مرة يتم فيها حكي حكايـة مـا. وقد واجهت هـي بقوة ميـل الباحثين إلى اختـزال الحكايات الأفريقيـة في مجـرد نص، كما واصـلت تأكيدها على القيمـة الأدبية لفن الحكي. (Schneider 2002، p. 50)

وبينمـا يمكـن القيـام بالتأريـخ الشـفاهي مـن أي منطلق مـن المنطلقـات النظرية والإبسـتمولوجية العديدة، فإن التاريخ الشـفاهي يعتبر بحق بالنسـبة لبعض النسويات هو أداة مناسـبة لاكتسـاب المعرفة عن تجارب الحياة من النساء وغيرهن. إن للتاريخ الشفاهي- كما هو الحال بالنسبة للفكر النسوي- أجندة سياسية (Turnbull 2000، p. 16)، كما يقوم بدمج النسـاء في البحث الأكاديمي (Sangster 1994، p. 5). ويعتمد التاريخ الشفاهي على تراث طويل من الانتقال الشفاهي للمعرفة، ويعتمد على التواصل القوي والحكي. وتختلف روايات التاريخ الشـفاهي من المقابلات الشخصـية المعمقة في أنها بطبيعتها أطول وتتوغل في الحوار، حيث يقوم الباحث والباحثة تجاه الطرف الذي يمثـل الذات في المقابلة (interview subject) بدور المسـتمع النشـط والميسر. ويمكن لمقابلات التاريخ الشفاهي أن تصل إلى درجة العمق التي تجعل الباحث أو الباحثة يعقدان

جلسـات عديدة مع نفس المستجيبة أو المسـتجيب، بل ويحدث أحيانا أن يعمل الباحث أو الباحثة مع مستجيبة أو مستجيب واحد أو أكثر على مدار شهور أو سنين. وكثيرا ما نجد أن المشروعات التي تسـتخدم منهج التاريخ الشفاهي تجمع المادة من عدد من المستجيبين أو المسـتجيبات أقل من عددهم في مشروع يسـتخدم المقابلات الشخصية المعمقة، ولكن الباحثة أو الباحث يكتسبان فهما أعمق لتجارب المستجيب أو المستجيبة، وعادة ما يكون ذلك على مدار فترة طويلة في حياتهم.

- لماذا تستخدم النسويات منهج التاريخ الشفاهي؟
- ما الصلات القائمة بين منهج التاريخ الشفاهي والاهتمامات النسوية؟
- كيف تسـتخدم النسويات التاريخ الشفاهي وكيف يحملن تصورا مختلفا بشأنه مقارنة بالباحثات والباحثين الآخرين الذين يستخدمون نفس المنهج؟

يكثر اسـتخدام النسويات للتاريخ الشفاهي كسـبيل لكسب مادة كمية وفيرة من أناس قلما تم تضـمين تجاربهم ضمن أجندات البحث. وفي هذا الصدد يكون التاريخ الشفاهي أداة للتوصـل إلى المعرفة المسـكوت عنها أو المسـتبعدة، وذلك من أجل الكشف عن تلك المعرفـة "الغائبـة" والحفاظ عليها. فعلى سـبيل المثال نجد كتاب روشـيل سـايدل بالغ الأهمية، عن النسـاء اليهوديات في معسـكر تعذيب رافينسبروك (Rochelle Saidel 2004 The Jewish Women of Ravensbrück Concentration Camp)، يسـتخدم التاريخ الشفاهي ضمن غيره من المناهج لتسـجيل التاريخ الذي سبق السكوت عنـه بشـأن اليهود الذين عانوا في معسـكر رافينسـبروك، وخاصـة تجارب النسـاء اليهوديات اللاتي عانين بأشـكال لها خصوصـيتها. فهو جزء مـن التاريخ تم تجاهله. كما يكثر اسـتخدام التاريخ الشـفاهي أيضا بواسطة النسـويات لدراسة تجارب القهر أو الانتماء لفئة مقهورة. فيقدم التاريخ الشـفاهي للنسـويات أداة للوصـول إلى التجارب الشخصـية مع القهر. فعلى سبيل المثال، نجد أن دراسـة سباركس (Sparkes 1994) قامت على مشروع مقابلات للتأريخ الشـفاهي مع مدرسـة مثلية للتربية الرياضية من

أجل دراسة كيف شكّل التمييز والتحيز للجنسانية الغيرية (heterosexism) تجاربها في مكان العمل. وتشعر بعض النسويات بأن شخصنة تجربة القهر تحصل على دفعة فريدة من نوعها من خلال التاريخ الشفاهي، كما أن منهج التاريخ الشفاهي يتيح أيضا للنسويات، الملتزمات -بالتركيز على أصوات النساء- فرصة مواجهة ما يحملنه من أساليب تفكير مسبقة وتصنيف للتجارب، كما يفسح المجال أمام أصوات النساء وغيرهن من الأصوات على تنوعها وتعددها للظهور. ويتم تسليط المزيد من الضوء على هذا الجانب من بحث التاريخ الشفاهي النسوي عند تناول دور الباحث أو الباحثة باعتبارهما مستمعين، وباعتبار المشارك أو المشاركة في البحث حكاءين.

إن الارتباط العضوي القائم بين التاريخ الشفاهي والفكر النسوي يتجاوز مسألة تضمين معرفة النساء ودراسة القهر، كما يتطرق إلى طريقة تصور الفكر النسوي للتجربة. وبصورة أكثر تحديدا، فإن ذلك الارتباط العضوي يتطرق إلى طريقة تصور كثير من النسويات للعلاقة بين الفاعلية (agency) والبنية (structure)، أو الفرد والمجتمع. وبما أن النسوية هي منظور سياسي بالضرورة، وأن قهر النساء وثيق الصلة بالتشكيل الاجتماعي للواقع، فإن حيوات النساء وتجاربهن متصلة ببنى رمزية ومؤسسية أشمل. ويتم استخدام التاريخ الشفاهي عامة بواسطة النسويات كطريقة لتجاوز الفجوة بين السيرة الشخصية للنساء وبين السياق الاجتماعي الذي تتم فيه كتابة هذه السيرة. فالتاريخ الشفاهي يصرح بإتاحة المجال أمام تسييس التجربة الفردية، وبالتالي يكون عميق الصلة بمشروع النسوية. وإذا نظرنا إلى الأمر بشكل مختلف قليلا فإننا نجد أن التاريخ الشفاهي قادر على الدمج بين العام والخاص، بين الفردي والمجتمعي، مع توضيح الزيف الكامن في تلك البنى الثنائية، والعلاقة بينها في الواقع المعيش. وتقدم أبحاث كريستين هيوارد (Christine Heward 1994) مثالا إمبيريقيا على كيفية استخدام النسويات للتاريخ الشفاهي كوسيلة لتحديد موقع الفرد داخل السياق البنيوي. وقد قامت بالتأريخ الشفاهي لامرأة أكاديمية بغرض دراسة عدم تمثيل النساء بالقدر الكافي من أجل تتبع ظاهرة "السقف الزجاجي" في المجال

الأكاديمي (الذي يشير إلى ظاهرة إيقاف المسار العملي الأكاديمي للنساء وعدم تمثيلهن بالقدر الكافي في المناصب العليا، . . . إلخ). ومن خلال منهج التاريخ الشفاهي تمكنت كريستين هيوارد من منح صوت لتجربة فردية تظل صاحبتها في بؤرة السرد، بينما تقوم في الوقت نفسه بدراسة مفهوم السقف الزجاجي، على سبيل فهم الظروف البنيوية التي تعمل النساء الأكاديميات في إطارها. ومن الأمثلة الأخرى على استخدام التاريخ الشفاهي لفهم تجارب الحياة الفردية داخل السياق الاجتماعي الأشمل هو ما نجده في أبحاث ريتشيل سليتر (Rachel Slater 2000) حيث قامت بالتأريخ الشفاهي لأربع نساء في مدينة كيب تاون بجمهورية جنوب أفريقيا. وتشير أبحاث ريتشيل سليتر إلى فائدة التاريخ الشفاهي في فهم كيف يتعرض الأفراد لقيود مختلفة من منطلق سياقاتهم الاجتماعية والاقتصادية. كذلك ترى ريتشيل سليتر إلى أن أبحاث التاريخ الشفاهي يمكن أن تفيد الباحثات والباحثين في التنمية والمهتمين بفهم أثر التغير الاجتماعي على سير الحياة الفردية. وتستعين بعض النسويات بالتاريخ الشفاهي لتوثيق كيفية اختلاف تشكيلات النساء وتمثيلاتهن للتاريخ مقارنة بالروايات الموثقة عن الرجال. ويمكن أن تأتي النتائج بمفاجآت، ويجب على المؤرخات الشفاهيات النسويات الاستعداد للتخلي عن افتراضاتهن المسبقة. وقد توصلت كاباساكال آرات (Z. Kabasakal Arat 2003) إلى ذلك بشكل مباشر في دراستها للتاريخ الشفاهي، إذ اكتشفت أن النساء التركيات روين أحداثا معينة من الماضي بشأن التعليم بنفس الطريقة التي رواها بها الرجال. وهو الأمر الذي قد يقلب بعض الفرضيات رأسا على عقب فيما يتعلق بغياب العدالة بين الجنسين في هذا السياق تحديدا، أو قد يكون مؤشرا على تغلغل الفكر الذكوري.

ويمكن أن تتخذ الافتراضات عدة أشكال، بل وكما رأينا عبر صفحات هذا الكتاب، فإن النسوية نفسها قد تشكلت بفعل افتراضات مختلفة في لحظات زمنية مختلفة. وتتحدث الباحثة النسوية شيرلي هيل عن إقصاء النساء الأفروأمريكيات عن النسوية حين نشأتها، كما تتطرق بالحديث إلى الطرق التي يؤثر بها هذا التاريخ وقضايا الاختلاف بشكل أعم في أبحاثها القائمة على المقابلات. فلننضم إذن إلى د. شيرلي هيل (Shirley A. Hill) فيما وراء الستار.

ما وراء الستار مع شيرلي هيل

العثور على صوتنا

إن عقودا من البحـوث في العلوم الاجتماعية التي عملت على تحقير و/أو تهميش الأفروأمريكيين واجهت تحديا كبـيرا خلال الستينيات من القرن العشرين بظهور سيل من الباحثات والباحثين الجدد الذين أصروا لا على إتاحة المجال للسود كـي يتحدثوا عن أنفسهم فحسب بل كذلك على احترام رؤى السود وتجاربهم المعيشــة. وقد برزت النساء السود من بين هؤلاء المطالبـين بالتغيير، إلا أن أصواتهن كانت كثيرا ما توضع في مرتبة أدنى من الرجال السود والنساء البيض. إن الادعاء السياسي السائد بأن النساء السـود يتمتعن بالقـوة و"الأمومة الحاكمة" خضـع للرفض الصريح من قبـل الزعماء الأفروأمريكيين، بينما كان يتـم استدعاء نفس التصور عن النســاء السود لإسكاتهن وتشجيعهن على تبني وضع غير قيادي في حركة الحقـوق المدنية. وقد أدى ذلك إلى نشأة تصـور "ذكوري" متزايد للقهر العنصـري باعتبار الرجـال السود هم ضحاياه الأساسيـين. إن سياسات الجنـدر الشنعاء السائدة بين الأفروأمريكيين سايرت السياسات العنصرية الواضحـة في النسويـة الليبرالية. فقد جـاءت الموجة الثانية مـن النسوية مخاطبة في الأساس هموم النساء البيض من الطبقة الوسطى، كما حاولت أحيانا بشكل مقصود تجنب تلويث أجندتها بتناول قضايا القهر العنصري.

وقـد قاومـت النســاء الأفروأمريكيـات هـذا التهميش الواقـع عليهن في حركـة تحـرر الســود والحركة النسويــة، ونتيجـة للجهـود البالغة التي بذلتهـا باحثات، مثـل بولا جيدينجنـز وجاكلين جونز، أخـذت حكايات

حيـاة النسـاء الأفروأمريكيـات في الظهـور التدريجي. وقـد جاء كتاب باتريشـا هيل كولينـز الصادر عـام 1990 عن "الفكر النسـوي الأسود: المعرفـة والوعي وسياسات التمكين" (Patricia Hill Collins، Black Feminist Thought: Knowledge، Consciousness، and the Politics of Empowerment)، بمثابـة عمل محوري في وضع إطار نظـري لتجارب النساء السـود. فقد رأت باتريشـا هيل كولينز أن النساء الأفروأمريكيات يتمتعـن بموقعية تتشكل بفعل موقعهن الاجتماعي وتراثهن الثقـافي وأوضاعهن المادية؛ مما مكنهن من رفض التقييم السلبي لحياتهـن والمتداول في المجتمع السائد. ولكـن التعبير عن هذا الموقع كثيرا ما كان صعبا، فقد أصاب الإحباط الباحثات والباحثين الأوفروأمريكيين الذيـن حاولوا تحقيـق ذلك، بسبـب الضغـوط القائمة عليهـم بضرورة استخدام الأدوات والنظريات ولغـة المجموعة المهيمنة، على الأقل إذا ما كانوا يريدون لأبحاثهم أن تلقى قبولا في الأوساط الأكاديمية. أما بالنسبة للكثيريـن من السـود، فقد جاءت نضـالات الحياة اليوميـة وصراعـاتها تاركـة مجالا ضئيـلا لتطويـر و/أو التعبير عن موقعية محـددة قاموا هم أنفسهم بتحديدها وتوصيفها.

وقـد تطور التنظـير النسوي تطـورا ملحوظا، كمـا أنه يدعـم تبني فهم للتداخـل في أنظمـة القهر على أساس اللون والطبقة والنـوع. كما تقدم النسويـة إبستمولوجيات ومنهجيات كثيرا ما ساعـدت على منح الصوت لتلك الموقعية النسوية السوداء المميزة، وما زال هنالك خطاب مستمر دائر حول ما الذي يصوغ البحث "النسوي"، إلا أن من أهم أهدافه المحورية هو الإطاحة بالمسعى الوضعـي صوب "الحقيقة" الموضوعية، وذلك بالدعوة لاستخدام نطاق أوسع من مناهج البحث وخاصة تلك القادرة على تسهيل المسـارات الاجتماعية. كذلك قامت النسويات بنقد العلاقة التراتبية القائمة

عادة بين الباحثة أو الباحث وبين موضوع البحث، مع سعيهن للتوصل إلى أساليب تضفي مزيدا من الديمقراطية على مسار البحث. ويعني ذلك لبعض الباحثات- وأنا منهن- التأكيد على استخدام البحث الكيفي، وخاصة المقابلات والملاحظة بالمشاركة.

إن المدخل النظري الأساسي في عملي البحثي يقوم على مذهب التفاعلية الرمزية (symbolic interactionism)، وهو مذهب يدفع الباحثين والباحثات إلى التغلغل داخل مسارات حياة الناس الذين يسعون لدراستهم وفهمهم. وتتصل بذلك المقاربات التي يشار إليها على أنها تقوم على التشكيل الاجتماعي أو التأويل، أي التي ترى أوجه الواقع والمعنى باعتبارها خاضعة للتشكيل الاجتماعي عبر التفاعل الإنساني. كما اعتمد أيضا على نظرية التقاطعات (intersectionality theory) لتوضيح كيف أن قضايا اللون والعرق والطبقة والنوع تعمل على تشكيل صياغة المعنى، فعلى سبيل المثال سعيت في بحثي عن: كيف تعامل الأسر السوداء أطفالها المصابين بمرض فقر الدم المنجلي؟ (sickle cell disease) سعيا للتعرف على مسائل مثل الرعاية الأسرية والقدرة على الحصول على رعاية طبية، والسياسات العنصرية والأساطير التي تحيط بالمرض. فقمت بعقد مقابلات معمقة مع الأمهات اللاتي تم تشخيص أطفالهن بالمرض، وقضيت وقتا في حضور اجتماعات الدعم والمؤازرة الجماعية. كما قمت بمقابلات مع عاملين في مجال الرعاية الصحية والخدمة الاجتماعية وقمت بملاحظة أوجه تفاعلهم مع هؤلاء الأطفال وأسرهم. وقد مكنتني المادة التي جمعتها في هذا الصدد من فهم الاختلافات القائمة في التصورات الخاصة بالمرض من الناحية الطبية وفي المفهوم الدارج لدى العامة، كما فهمت كيف تؤثر قيم كالأمومة في القرارات الإنجابية وكيف يؤثر النوع -أي نوع الطفل من ذكر أو أنثى- في الرعاية.

وقد عقدت ما يتعدى ربما 100 مقابلة ضمن عملي في مشروعات بحثية متنوعة، وتكون لدي تقدير لمزايا وعيوب عقد المقابلات والعمل الإثنوجرافي. ومن المشاكل التي أدركتها دوما، هو أن أتوجه إلى أشخاص ممن يعيشون حياة مزدحمة وموترة بطلب منحي شيئا من وقتهم للجلوس معي ومشاركتي تجاربهم، وأن يسمحوا لي بدخول المساحات الخاصة في حياتهم. ومن الأمور ذات العلاقة بالموضوع هو المقابل الذي يحصلون عليه نظير ما يمنحونني من وقت، ففي أحد المشروعات قدمت لكل مستجيبة ومستجيب مبلغ 10 دولارات؛ تعبيرا عن امتناني، فقبلها البعض شاكرا، بينما تردد آخرون في قبولها أو قالوا بأنهم سيتبرعون بها لإحدى الجهات التي تجمع تبرعات لمرضى فقر الدم المنجلي. وعادة أجد في نوعية الأبحاث التي أقوم بها أن المستجيبات والمستجيبين يطلبون مني (وإن كان ضمنيا) النصيحة و/أو الدعم، وهو ما أحاول تقديمه باهتمام وحذر. فمن أهدافي دوما أن أكون مستمعة مهتمة ومنصتة لما يقال، وأن أقبل بشرعية قيمهم، وأن أصارحهم بآرائي حين يطلب مني ذلك. إن تطوير موقعية ذاتية محددة هي مسألة تضفي على الفرد قوة، وأرى أن أفضل طريقة لتشجيع تلك الموقعية هي إعطاء الناس الفرصة لتأمل مواقفهم الحياتية والتعبير عن آرائهم والاعتراف بصحة تلك الآراء. وهو ما أرجو أن أنجح في تقديمه للمستجيبات والمستجيبين مقابل ما يقدمونه لي من عون.

النسوية وحسن الإنصات في مقابلات التاريخ الشفاهي

خلال مسار مقابلة التأريخ الشفاهي تقوم الباحثة أو الباحث بدور المستمع الفاعل، فنوعية الإنصات الذي يستدعيه هذا المنهج البحثي يتطلب استعداد الباحثة للتخلي عن رغبتها في السيطرة على مسار الحوار والإنصات الكامل والتام مع الالتزام والانتباه

لـكل ما يحيط بالحديث، مقارنة بطريقة الاستماع للحديث الجاري في المواقف العادية. وتوضـح باحثة التاريـخ الشفاهي النسوية دانا جـاك أن علينا أن "تنغمسـ في المقابلة" (Anderson & Jack 1991، p. 18) للتوصـل إلى المعنـى من منظـور المستجيبة أو المستجيب. فإننـا باعتبارنا باحثي التاريخ الشفاهي نستمع إلى الكثير من الأشياء بما فيها كيفية قيـام الراوي أو الراوية بخلق المعنى. فالمؤرخـة الشفاهية لا يقتصر دورها على جمـع المادة الموجودة مسبقا، وإنما هي جـزء من عملية صياغة وبناء المعنى التي تحدث أثناء قيام الراوية بحكي قصتها.

> في التراث الشفاهي فإن القرار بحكي قصة ما وطريقة حكي القصة وفهمها يكـون عمليـة ديناميكية حيويـة تتضمن الانتبـاه المتواصل لمـا "يدور في أذهانهم." ويمكننا أن نحصل على خلفية للموضوع تساعدنا على فهمه من خـلال الحوار والاستجابة وتكرار أمور معينة في أماكن وأزمنة مختلفة، وبما فيها من اختلاف في أسباب الحكـي. وتخضع تأويلاتنا للاختبار مع ازدياد معرفتنا بالحكاء أو الحكاءة، وكيفية استخدام كل منهما للحكاية على سبيل "صياغة المعنـى" (negotiate meaning) في كل مرة من مرات الحكـي. إن مفهوم صياغـة المعنى خلال الحكي في الـتراث الشفاهي هو مفهوم معروف لدى الفولكلوريين. (Schneider 2002، p. 51)

إن الباحثـات النسويـات اللاتي يوظفـن التاريخ الشفاهي في خدمـة الحصول على معلومـات من المستجيبين والمستجيبات، وفي الأطر المرجعية الخاصة بهؤلاء المستجيبين والمستجيبـات هـن باحثـات أقرب مـن غيرهـن إلى محاولـة الإنصـات إلى حكايات الآخريـن، لا بالتركيز على الكلمات فحسب وإنما على المسافات الفاصلة بين الكلمات، وعلى المعاني وعمليات صياغة المعاني، وعلى المشاعر بل وعلى الصمت.

إن لحظات الصمت هي ذات أهميـة خاصة للباحثات النسويات وذلك لعدة أسباب. والسبب الأساسي هو أن النسويات حريصات على الوصول إلى الصوت المخفي، وهو

سبـب أساسي يجعل الباحثـة تستعين بالتاريخ الشفاهي من منطلـق نسوي . فمن خلال الوصـول إلى الأصوات المخفية والتجـارب المقصية تحاول الباحثـات النسويات عادة الربـط بين سير الحياة الفردية وبين السياقات الثقافيـة والمؤسسية الأشمل، والتي تمثل خلفية لتلك التجارب الفردية، طبقا لما تؤكده باتريشا هيل كولنز (Patricia Hill Collins 1990). وفي هـذا الصـدد نجـد أن الالتفات إلى ما هو غائب عـن حكاية الراوية يمكـن أن يشير للباحثة إلى مـا عايشته الراوية من نضال وصـراع . فعلى سبيل المثال يمكـن لمواضع الصمت أن تشير إلى الاختلافات القائمـة بين مواقف الراوية الصريحة والضمنية، وهي المواقف الناجمة عن العلاقة بين السياق الثقافي العام وبين شيرة حياتها بالإضافة إلى عملية إعادة سرد سيرة حياتها تلك. إن الحذف الصريح -مثلا- قد يشير إلى وجود فجوة بين ما تؤمن به المستجيبة وبين ما تشعر بأنه يجوز لها حكيه، وقد يأتي ذلـك نتيجة لتصورها عن المعايير والقيم الاجتماعيـة أو لشعورها بأن آراءها تتعارض مع الأفكار والمشاعر والسلوك المتعارف عليه، والذي قد يتصل بدوره بقضايا التشكيل الثقافي للنوع . إن المشروع البحثي في نظر الباحثات النسويات قائم على نية الوصول إلى الأصوات المهمشة وإلى رؤى فئة من الناس تم إقصاؤها إلى أطراف النظام الاجتماعي القائـم على أساس النوع . كذلك فإن الإنصات إلى مواضـع الصمت قد يشير أيضا إلى أن الفئـات والتصـورات المتاحـة لتأويل تجارب حياتنـا وتفسيرهـا لا تعكس في واقع الأمر النطـاق الكامل من التجارب الموجودة في العالم، كتجـارب النساء، والملونين، والمستبعدين على أساس الجنس. فالباحثة النسوية التي تتبنى مقاربة ما بعد حداثية مثلا، والمهتمة بالمنظومة الخطابية التـي تتحرك في إطارها، قد تستشعر أن الصمت يشير إلى أمر ما بشأن الثقافة عامة ووجود فجوة بين طرق تأطير التجربة وبين التجربة الخاصة بفرد خاضع لوضع معين على أساس الجنس أو النوع . وكما أوضح لنا البحث النسوي، فـإن المجتمع لا يوفر بالضرورة لـكل أفراده الأدوات الملائمة التـي يمكنهم بها التعبير الحـر الكامل عن المعنى الذي يحمله شيء مـا بالنسبة لهم. وهو سبب من الأسباب التي تجعـل الباحثات النسويات أميل إلى استخدام منهج التاريخ الشفاهي حين يلائم أهدافهن البحثيـة. إن الإنصات العميق لأصوات الأفـراد، وخاصة أولئك الذين طالما تعرضوا

للإقصاء من عملية إنتاج المعرفة، هو مسألة ضرورية لإنتاج قاعدة معرفية تكون أكبر حجما وأكثر تنوعا بشأن التجربة الإنسانية.

إن عمليــة تحولنــا إلى منصتــين حسني الإنصات، بـلا ميل منا لفرض الأحكام، ومنفتحـين على أمور كثيرة، هي عمليــة تتطلب مرونة من جهة الباحثة أو الباحث وقد تتضمـن التشكيك في المفاهيم والفئـات التي سبق تمسكنا بها، والتـي تشكل فهمنا للواقع الاجتماعي (Hesse-Biber & Leavy 2006).

وتستعـين الباحثـة النسوية أنطوانيـت إرانـت (Antoinette Errante) بتجربتها البحثية الشخصية لإلقاء الضوء على تلك القضايا في المقطع التالي من "ما وراء الستار". ففـي ذلك النص التأملي القوي تتحدث أنطوانيت إرانـت بالنقد والصراحة عن تشككها هي في الافتراضات التي سبق لها تبنيها، وهي تقوم بذلك من منطلق كونها باحثة نسوية وفي خضـم قيامها بمشروع في التاريخ الشفاهي وعلم الإثنوجرافيا. ومستعينة برحلتها التأمليـة المطاوعـة، تطالبنا لا بسمات التاريخ الشفاهي النسـوي، بل كيف يمكن للمرء تأمل ممارسة التاريخ الشفاهي دون أن تكون ممارسة نسوية.

ما وراء الستار مع أنطوانيت إرانت

التجربة والتاريخ الشفاهي

في الأول من يونيو/حزيـران 2001، وصلت ممتلئة بالحماس إلى مدينة بيرا في موزمبيق، حاملة أمتعة بحوالي 100 كيلوجرام من الوزن الزائد، ومستعدة لقضاء شهر في رحلة في وسط موزمبيق للقيام بالتأريخ الشفاهي لتجـارب الموزمبيقيـين التعليمية الكولونياليـة ومابعـد الكولونيالية. وقد دفعت مقابل أحدث أجهزة العمل من جهاز الفيديو ماركة سوني، وأجهزة

التسجيل ماركة مارانتــز ، وحامل الكاميرا والبطاريات والأشرطة مبلغا يماثل ثلاثة أضعاف ثمن تذكرة الطيران ، ولكن بدا لي الأمر يستحق تلك التكلفة نظرا لقضائــي حوالي ستة أشهر في الإعداد لتلك الرحلة، وحوالي عشــرة أعوام وأنا أحلــم بها. وكنت قـد قضيت الفترة منـذ شهر أكتوبر عــام 2000 في العمل الميداني تحضـيرا لكتاب عن التعليـم الموزمبيقي في فترة الاستعمــار ومابعد الاستعمار. وقد كانت فـترة ميمونة، إذ كنت قد حصلـت على منحة للقيام بذلك، كمــا أن موزمبيق كان يسودها السلام، وهــو ما كان يعني أنها أول مرة لي منذ رحلتي الأولى إلى موزمبيق عام 1989، والتــي يتــاح لي فيها الوقت الكافي والفرصــة المواتية للتنقل عبر المناطق الريفية بالسيــارة في أمان. وكنت آمل في جمع المزيد من التاريخ الشفاهي وخاصة مــن النساء. وقد كان معدل معرفة القراءة والكتابة بين الموزمبيقيــين السود يبلــغ 2% عند استقلال موزمبيق عــن البرتغال عام 1975، وبالتالي كان مقدار الحاصلين على تعليم مدرسي مؤسسي صغير نسبيــا. أما النساء فكانت فرصهن أقل مــن ذلك. ومع ذلك كنت حريصة علــى الحديث مع النساء عن "مرحلة التكويــن" والتي تشير أيضا في اللغة البرتغاليــة إلى التعليم أو النشأة بمعناهــا الأوسع. فقد أردت التعرف على كيفية معايشتهن للاستعمار والثورة والسنوات التي أعقبت الاستقلال.

وهكذا كنت متحمسة جدا ومتطلعة إلى لحظة وصولي إلى بيرا، حيث كنت سألتقي هناك بسائقي والمترجم/المرشد. وقد كان مرشدي رجلا متقدما في السن على معرفة واسعة بجغرافية ولغات الجزء الأوسط للبلاد بالإضافة إلى معرفتــه بكل الزعماء والقادة المحليين. وقـد كان بالغ الأهمية بالنسبة لي لأنني كنت بحاجة لشخص موضع ثقة الزعماء والسكان المحليين ليقوم بدوره بتعريفــي عليهم وضمان أمانتي. وقد كان في نيتي قضاء حوالي 4 أسابيع متنقلة بصحبته في شمال وسط موزمبيق ووسطها.

ومــع خروجي من مطار بيرا محملة بأمتعتــي التي يزيد وزنها على 100 كيلوجــرام قابلت الشخص الذي كنت على صلــة مسبقة به بشأن ترتيباتي في موزمبيق، فأخبرني بكل أسى أنه تم نقل مرشدي إلى المستشفى في الليلة السابقــة على وصولي مصابا بالتهــاب في الزائدة الدودية. وهكذا وجدت نفســي بلا مرشد ومترجم، وبلا رحلــة برية. وبذلت قصارى جهدي في العثــور على مرشد آخر أو وسطاء آخرين، ولكن دون جدوى. وبسبب تكلفة الزيادة في وزن أمتعتي كنت قد اشتريت تذكرة سفر بسعر مخفض، بمــا يعني عدم قدرتي على الرحيل مــن بيرا قبل مرور 3 أسابيع. ونظرا للنفقــات والوقت الذي كنت قد قضيتــه مسبقا في الإعداد لهذه الرحلة كنت أعلم بأنه سيصعب علي تنظيم رحلة أخرى.

فمــا العمل؟ حملت نفسي التعسة وتوجهت إلى بار يطل على الشاطئ الذي يواجه الشقة التي أقمت فيها في ضيافة أحد الأصدقاء. وقد كان البار مكانا شعبيــا معروفا، وكنت قــد زرت صديقي عددا من المــرات يكفي لتعرفي على بعض الوجوه الأليفة. فكنا نجلس، ونتأمل غروب الشمس، ونتبادل على مدى ساعات الضحكات والحكايات.

فقــد أدركت فجأة أنني إذا كنت أرغب في محادثة الناس فهنالك الكثيرون منهم حولي، وهكذا استدرت نحو الشابة الجالسة إلى جواري قائلة "أهلا، أنــا أنطوانيت". ومن هنا بــدأت "مقابلات شاطئ بــيرا" مع أي شخص مستعــد لمبادلتي الحديث. فمنهم ندلاء البار، ومنهــم أصدقاء لرفاق البار ممــن أخبروا أصدقاءهم بكــوني محل ثقة. ونحيت جانبــا جهاز التسجيل الكبير الحديــث ليحل محله جهاز التسجيل الصغير ماركة سوني، فلم يكن هنالــك مكان علــى المناضد لجهاز التسجيل ماركــة مارانتز جنبا إلى جنب أطباق الدجاج المشوي.

وقد كانت معظم النساء اللاتـي تحدثت إليهن من سكان المناطق العشوائية المحيطـة بمدينة بيرا، ولم تتمكـن غالبيتهن من تجاوز السنـة الرابعة من التعليـم الأساسي. وقد تحول برنامج الحديث مـدة ساعتين إلى حوارات مدتهـا 5-4 ساعـات. وكان يمتد بنا الحديث إلى العصـر. ومن بين من التقيـت "دينـا"، ولم تكن تتذكر مـن الثورة سـوى أن والدتها ماتت قبل الثورة بفـترة قصيرة وأن مدرستهـا البرتغالية الحبيبـة، والتي صارت أقـرب إلى أم بديلة بالنسبة لها، اضطرت إلى الرحيل عائدة إلى البرتغال بصحبـة زوجها الرجل العسكري. "الثـورة لا تعني لي سوى أني فقدت والدتـين." قالتها وهي تهز كتفيها. وكانت والدتها قد أصبحت زوجة من الدرجة الثانيـة لشقيق زوجها بعد وفاة والد دينـا، كما تذكرت كيف أنها هربت من حياة الخدمة في بيت عمها إذ كانت تهرب مع رجال، منهم من كان يضربها ومنهم من كان يسرقهـا. وأخبرتني بوضوح عن اختيارها مواعـدة الرجال البيض فقـط، وعما كانت تحصل عليـه منهم وما كانوا يحصلون عليه منها. وكانـت من بينهن جوانا، وهي امرأة كانت والدتها أفريقية ووالدها يونانيا متزوجا مـن خالتها ووالدتها، وتذكرت كيف أن والدتهـا أخفت عـن والدها قيامها بفرض كافة الطقوسـ التقليدية الخاصة بالانتقـال من الطفولة إلى ما بعدها عليهـا. كما وصفت طفولتها باعتبارها عالما ضبابيـا غير مرئي سوى للنساء المقيمات في مجمـع عائلتها السكني. وتعرفت على الاختـلاف القائم بين تعدد الأزواج في المدن (وهي الخيانة الزوجية الناتجة عن خيلاء الرجال) وبين تعدد الأزواج في الريف (وهو نظـام عملـي واقتصادي). ولم تقتصـر هؤلاء النساء علـى سرد قصص حيواتهن، بل بذلن جهدا في شرحها لي - أي التنظير حول حيواتهن.

وكنت كل يـوم أرسل تحياتي للزائدة الدودية التـي أعيت مرشدي. وقد

فرض علي الوضع مواجهة غـروري الشخصي، رغم ميولي النسوية، فمـاذا غير الغـرور يجعلني أندهش مـن قدرة هؤلاء النسـاء على التعبير عـن نظريات بالغة العمق والتعقيد حول تجاربهن المتصلة باللون والعرق والطبقـة والنـوع؟ فمن الواضح أننـي كنت أحمل في أعماقـي قناعة بأن النظريات تتشكل في رحاب الجامعات وبواسطة حاملي الدرجات العلمية الرفيعـة، وأن "المصـادر المحورية مـن الأشخاص" يصنعـون التاريخ (وأننـي أعرفهم) وأن علمـاء الاجتماع يحتكرون عمليـة تعريف أو فهم العـالم. وقد علمت في بيرا أن الأحـداث التاريخية الكبرى، كالثورات، ليسـت بالضرورة من الأشياء التي تغير حيـوات الناس، فبالنسبة لغالبية مـن قمت بعقد مقابلات معهـم كانت الثورة والاستقـلال غير ذات أهمية قصـوى. فحتى ذلـك الحين كانت معظم مصادري مـن الأشخاص ممن وقـع اختياري عليهم بناء علـى تجاربهم في المدارس الاستعمارية أو ما بعـد الاستعمار، ولكن في بلـد لا يعرف فيه القـراءة والكتابة سوى 2% مـن إجمالي السكان عند الاستقلال (عـام 1975)، كانوا جميعا "مصادر محوريـة" من حيث مشاركتهم الفاعلة في الثـورة. أما عينة شاطئ البحر العشوائيـة فقد كشفـت لي إلى أي حـد كان منظوري مائـلا بفعل المنطق المتواتـر القائل: المصادر المحورية هـم الأشخاص المحوريون في حدث ما (الثورة) والـذي اعتبرته أنا حدثا محوريا. وهكـذا كفانا نظريات كبرى حول الثورة.

فكيف لهـذه الحكاية الخارجة من العمل الميـداني أن تعكس منظورا نسويا للتاريـخ الشفاهي؟ إن السؤال الصعب بالنسبـة لي ليس في كيفية تصورنا لممارسـة التاريخ الشفاهي مـن منظور نسوي، وإنما هـو كيفية تصورنا لممارسة التاريخ الشفاهي ممارسة غير نسوية؟ فالتاريخ الشفاهي عضوي

وحميم، ويكشف في نفس الوقت عن سلطة الفرد الواحد وسلطة الجمع، ومدى ما في تجاربنا الفردية من تفرد بالإضافة إلى طرق الارتباط القائم بين تجاربنا معا. ويمكن لدراسة تاريخ شفاهي جيدة أن تضمن لك النشر، بل وربما تجعلك من ضيوف برنامج "جود مورنينج أميريكا" (صباح الخير يا أمريكا). ولكنَّ هنالك ناتجا معينا من ممارسة جيدة للتاريخ الشفاهي وهو تعريفك بأشخاص يعلمونك الكثير، لا باعتبارك باحثة أو باحثا فحسب، وإنما باعتبارك من البشر. فكل منهم سيساهم في سيرة حياتك أنت وفي الحكايات التي قد تحكيها يوما ما في حال تم عقد مقابلة شخصية معك في إطار مشروع للتاريخ الشفاهي يقوم به غيرك.

لقد كنت على علم بكل ذلك عند وصولي إلى بيرا، ولكني رحلت عن بيرا حاملة درسا أدى إلى تعميق تقديري لتعددية الأصوات وأساليب معرفة العالم، وهو درس مفاده: لا تدعي نظرياتك وسنوات دراستك تتدخل في قدرتك على تقدير سلطة التجربة - تجربتك وتجارب الآخرين. فالعمل الميداني لا يمضي أبدا في الاتجاه المتوقع، ولكن قومي بالعمل الميداني في كافة الأحوال.

وكما نرى في هذا المقطع، فإن التاريخ الشفاهي النسوي يتطلب إنصاتا معينا وشاملا من قبل الباحثة أو الباحث. وترى دانا جاك أشياء معينة يجب على المؤرخة الشفاهية النسوية الإنصات إليها. أولا، يتعين على الباحثات النسويات تحديدا التوقف أمام "اللغة الأخلاقية" (Anderson & Jack 1991، 19) لدى المستجيبين والمستجيبات، وهي اللغة التي تشير إلى تعليقات تكشف عن تقييم الذات:

على اختلافها في نبرة الحديث، إلا أن تلك المقولات التي تقيم الذات

أخلاقيا تتيح لنا فرصة تأمل العلاقة بين تصور الذات وبين المعايير الثقافية، والعلاقة بين ما نراه نحن ذا قيمة وبين ما يراه الآخرون ذا قيمة، والعلاقة بين ما يفرضونه علينا من تصرفات وبين إحساسنا بأنفسنا حين نقوم أو نمتنع عن القيام بما يفرضونه علينا من تصرفات. (Anderson & Jack 1991، p. 20).

إن ما تشير إليه دانا جاك بمسمى اللغة الأخلاقية قد يشير بالنسبة للمستمع الجيد إلى مجموعة من القضايا، ولكن موضع الاهتمام النسوي يتمثل في المقولات التي ترد على لسان المستجيبة في المقابلة الشخصية، وهي تلك المقولات التي تشير إلى السياق الثقافي الذي تعيش فيه. فعلى سبيل المثال فإن الشعور بالحرج عند الحديث عن بعض مكونات الجنسانية قد تكشف أشياء عن الثقافة العامة. وبصورة أكثر تحديدا، فإن المرأة التي تتحدث عن عدم الرضا الجنسي في علاقتها برفيقها، وهو شعور ربما لم يكن ينتابها في علاقتها بعشيقها، قد يعبر عن السياق الأبوي الذي يحيط بالجنسانية، والأنماط والمعايير الجنسية التي تؤكدها الصيغ الذكورية الجنسية الغيرية لمفهوم الجنسانية.

كما نجد دانا جاك تشجع أيضا الباحثات النسويات على الإنصات لسماع "المقولات العليا" (Anderson & Jack 1991، p. 21) أو تلك اللحظات التي ترد في المقابلة الشخصية حيث تتراجع فيها المستجيبة للمقابلة عن كلامها لتتوقف متأملة بشكل نقدي ما سبق لها قوله:

> المقولات العليا تنبهنا إلى وعي الفرد بالتناقض داخل الذات المستجيبة للمقابلة عن العناصر التي تستخدمها في مراقبة أفكارها، كما يتيحون فرصة ملاحظة كيف يقوم الشخص بتوفيق المشاعر والأفكار بما يتواءم مع معايير اجتماعية معينة. (Anderson & Jack 1991، p. 22).

إن مثل هذه المقولات يمكن أن تكـون ذات أهمية تحديدا بالنسبة للباحثات النسويات في معرض دراستهن للتحيز الجنسي والتفرقة العنصرية أو جانب من جوانب الحياة في عـالم يسوده تمييـز على أساس النوع أو العرق واللون. فعلـى سبيل المثال يمكن لأحد التصريـح بمقولـة يراها فيما بعد عنصريـة أو متحيزة جنسيا أو تعبر عـن فوبيا المثلية. ويمكــن للشخص حينها التوقف أمام المقولة لتوضيحها أو مراجعتها أو وضعها في سياق معين، وهي لحظات قد تكشف للباحثـة النسوية المنتبهة ليس فقط مشاعر المستجيبة تجاه أمـر ما، بل ورأيها فيما يفترض أن تكون عليـه مشاعرها في إطار المعايير الاجتماعية السائدة.

كذلـك تدرك النسويات أن اللغة تساعد علـى تشكيل التجربة الاجتماعية وبلورتها، بـل إن اللغة قد قامت في الواقـع بتشكيل كل منا. ولذا فإن اللغة التـي تستخدمها النساء في سـرد حكاياتهـن تكشف عن جانبين، فـلا تقتصر فقط على سـرد قصص حيواتهن الشخصية بل وكيفية تشكل قصة الحياة الشخصية بالواقع الاجتماعي.

وبالإضافـة إلى مضمون المقابلة الشخصية يتعين علـى الباحثات والباحثين الالتفات إلى الشكل الذي يتم به سرد المضمون. فالناس على اختلافهم يتحدثون بطرق مختلفة، وبالتـالي فإن الإنصات إلى الطريقة التي تصـوغ بها المستجيبة حكايتها يمكن أن يكشف أيضـا عن معلومات مهمة. فعلى سبيل المثال نجد أنه في المجتمع الأبوي يتم جعل أشكال التواصـل الذكوري هي المعيار السائد، وبالتـالي تؤثر في كيفية سرد الناس لحكاياتهم. فيجب علـى الباحثات والباحثين الانتباه لأساليب التفكـير والمعايير والحديث الذكورية جنبـا إلى جنب اللغة المتحيزة جنسيا. كذلك يتعين على الباحثات النسويات الانفتاح على أساليب التواصل النابعة من أساليب التفكير والمعرفة النسائية.

> علـى الرغم من تكيف بعض الراويـات من النساء مع نظام عقد المقابلات الشخصية الذكوري، والذي يتعين علـى المؤرخات الشفاهيات اكتسابه،

فإننا لـن نحسن الإنصات إلى ما تعتبره النسـاء جوهريا بالنسبة لحيواتهن إلا إذا اعترفنا بشرعية وجود سياق للتواصل الاجتماعي النسائي في إطار التأريـخ الشفاهي. . . . فلن نتمكن مـن الإنصات لما تعتبره النساء ذا قيمة ولا تأويله إن لم نعرف كيف نتأمل وكيف ننصت وكيف نتحدث مع النساء باعتبارهـن نساء. إننا في حاجـة أولا إلى الإدراك الواعي بكيفية تواصل النساء بشكل شخصي وفيما بينهن. (Minister 1991، p. 31-32)

كمـا أنه من الضروري علـى الباحثات النسويات المنخرطـات في أساليب المقابلات الشخصية في التاريخ الشفاهي عدم تكرار أشكال التحيز القائمة داخل البحث النسوي من خلال إضفاء سمات الجوهرية على تجربة النساء. ومن المهم عدم افتراض وجود نوع معين من الحديـث تشترك فيه النساء بنفس القدر الذي لا يجب علينا أن نفترض وجود تجربـة أو منظور واحد مشـترك. ومن هذا المنطلق يتعين علـى المؤرخات الشفاهيات النسويات الانتبـاه إلى الطرق المختلفة التي تصوغ بهـا الراويات المختلفات تجاربهن، وبمعنـى آخر يجب علـى المؤرخـات الشفاهيات النسويـات تأمل الأمـور عبر صور الاختلاف والانفتـاح على أساليب التواصل المختلفة إذا كنـا بصدد الكشف عن مواطن المعرفـة التي سبق خضوعها للاستبعاد. والنسويـات اللاتي يكثر عملهن من منظور ما بعد حداثي ومتعدد الثقافات ومنظور العالم الثالث شغوفات بفهم تجارب الفئات المهمشة في المجتمع. فكيف أثر وضعهن داخل ثقافة ما على تجارب حياتهن كما يؤولنها؟ وكيف أثرت تلك التجارب بدورها في أسلوب السرد لديهن؟

يمكـن لأنماط الحديـث في الرواية الشفاهية أن تكشف عـن المكانة الاجتماعية وعن العلاقـات ما بين الأشخاص، والتصورات عن اللغة والذات والعالم. وفي حالة النساء السود يجب أن نسأل أنفسنا عما تكشفه أنماط السرد لديهن بشأن حيواتهن. فكيف تؤثر تجاربهـن الفريدة علـى الطريقة التي يسـردن بها قصص حياتهـن؟ (Etter-Lewis 1991، pp. 44-45).

وعنــد عقــد مقابلة شخصية في إطار التاريخ الشفاهي، نجــد أن من بين ما قد تتوقف أمامه الباحثات النسويات ما يلي:

- ما الذي تشير إليه مساحات الصمت في حديث المستجيبة؟ ما الذي لا تقوله، ولماذا؟
- مــا أنــواع الأحــكام الأخلاقيــة التي تنتمــي إلى كيفية حديــث المستجيبة عــن حياتها وتجاربها؟ وهل تتوقف لتأمل التعليقات أثناء حديثها وسردها لحكايتها؟
- ما الفئات التي تستخدمها والتي تمثل أساسا لطريقتها في التفكير والحكي؟ فعلى سبيل المثال، مــا الأفكار بشأن المعايــير الطبيعية والجنسانية والنــوع وغيرها التي تشكل طريقة تفكيرها؟
- كيف تعمل الأعراف والمعايير الاجتماعية بشأن النوع على تشكيل طريقة تفكيرها؟
- ما أسلوب حديث المستجيبة؟ هل تستخدم اللغة الدارجة أو لغة أحتاج إلى استيضاحها؟ هل تتحدث بترتيب زمني للأحداث أم في شكل سلسلة من الحكايات المنفصلة أم تتبع بنية سردية أخرى؟ وما الذي يكشفه أسلوب حديثها عن منظورها؟
- مــا إحساسي تجاه ما تقوله المستجيبة؟ ما الذي تخبرني به أدوات استشعاري الداخلية عن لحظات الصمت ومواضع الحذف والتأكيد وما شابه ذلك؟

وبينمــا دأبــت الباحثات النسويــات على استخــدام التاريخ الشفاهــي كمنهج لسماع حكايــات النساء، ففي المقطع التــالي من "ما وراء الستار" تحملنــا كريستين أندرسون لنتأمــل من منظورها كيفيــة استخدامها للتاريخ الشفاهــي في دراسة مجموعة معينة من الرجــال الذين تختلف هي عنهم من عدة جهات. وتتنــاول كريستين أندرسون في هذا المقطــع المليء بالتحديات قضايا مثل ديناميكيات النوع والسلطة في العمل البحثي، وبناء المعرفة عبر الاختلاف، والتحديات الكامنة في مراجعة الافتراضات المسبقة.

ما وراء الستار مع كريستين ل. أندرسون

تنظر النسويات منذ فترة طويلة إلى التاريخ الشفاهي باعتباره وسيلة لإتاحة فرصة الحديث أمام من خضعوا للإسكات. فما المعنى إذن من وراء استخدام هذا المنهج مع من يتم اعتبارهم فعليا، من وجهة النظر النسوية، بأنهم القائمون بإسكات الغير؟ هذا هو السؤال الصعب الذي واجهته أثناء قيامي بمقابلات تاريخ شفاهي مع رجال صدرت عليهم أحكام بحضور برامج للتأهيل والعلاج بسبب الأذى الذي أوقعوه برفيقاتهم أو زوجاتهم. هل كان في استطاعتي الإنصات إلى حكايات رجال قاموا بأفعال تثير اشمئزازي وخوفي؟ وما الذي يمكنني تعلمه من تاريخ حياتهم؟

وقبل أن أبدأ في المقابلات الشخصية كنت أتوقع أن تسود المقابلة ديناميكيات النوع (بوصفي امرأة تعقد مقابلات شخصية مع رجال)، وأذكر اليوم بشيء من الخجل كيف أني وضعت في إصبعي خاتم زواج "زائف" خلال المقابلات الأولى بسبب خوف -في غير موضعه- من أن يدعوني أحد المستجيبين للخروج معه. ولكني وجدت أن قضايا اللون/العرق والطبقة والسلطة المؤسسية كانت هي الأهم في ديناميكيات الحوارات التي عقدتها مع هؤلاء الرجال. فقد كنت أنا أتعامل مع جهاز التسجيل واستمارة الموافقة على المقابلة المطبوعة على ورق مبهر. وكنت أنا التي ألقي بالأسئلة، كما كنت أنا الممسكة بمبلغ 30 دولارا التي قدمناها لهم على سبيل "المكافأة" (أي "الحافز") مقابل المشاركة في الدراسة. وقد كان الرجال الذين تحدثت إليهم، في معظمهم، يصارعون البطالة والفقر وتناول المخدرات. وقد كنا نتحدث وبيننا اختلافات قوية من اللون/العرق وفي بعض الحالات كانت الاختلافات في اللغة الأم. وهي اختلافات كانت لها تبعاتها.

وقد تعلمت من هـذه الحوارات أن السلطة معقـدة. فالنسويات يناضلن على مـدار الثلاثين عاما الماضية من أجل فهم العلاقـة بين هياكل السلطة، وفهـم التفاعلات (وأحيانا التناقضات) في أنظمة السلطة الأبوية والعنصرية والطبقيـة وتلك المتعلقـة بالجنسانية الغيريـة. وكان الدرس الأكثر أهمية بالنسبـة لي هو أنه يمكن للبشر أن يتمتعوا بالسلطة المؤسسية أو الهيكلية دون أن يدركـوا ذلك، ففـي اتصالاتي التي تمت مع العديد مـن هؤلاء الرجال كنـت أتمتع بامتيازات هيكلية بفعل انتمائـي للطبقة الوسطى ولوني الأبيض وموقعي المرتبط بالمؤسسة الجامعية، وهي امتيازات ساعدتني على الشعور بالراحـة والتحكـم في مسار المقابلـة الشخصية. أما الرجـال الذين تحدثت معهـم فكانوا كثيرا ما يبدون مترددين وغير واثقين من أنفسهم وحريصين على مساعدتنـا في مشروعنا. وحين تأملت كيـف أن تجربة عقد المقابلات الشخصيـة جـاءت مختلفة عـن توقعاتـي، بدأت أفكـر في السلطـة الذاتية والموضوعيـة، وكيـف يفوتنا إدراك تعقيدات السلطة عنـد التفاتنا إلى نوع واحد فقط مـن السلطة. فما الذي جعلني أظن بدايـة أنني سأشعر بالضعف بالنسبـة لهؤلاء الرجال؟ فحين ركزت على التحليل على أساس النوع كنت حينها أفكر في نفسي باعتباري امرأة بالنسبة لرجال يتسمون بالعنف. وحين ركزت على التحليل القائم على أساس الطبقة أو اللون، أدركت حينها أنني أشعـر بالقـوة والسلطة خلال تلك المقابلات لأني كنـت فعليا في حمى سلطة مؤسسات أعلى طبقيا. وكانت المقابلات مع الرجال الذين يضربون النساء تعقـد أثناء ساعات النهار في مكاتب مقـار برامج علاج العنف المنزلي، في وجـود موظفي البرنامج على مقربة منـا. وعلى الرغم من أنه لم يكن "في مكان خاص بي" فإنه كان مكانا أشعر فيه بالأمان والراحة، وهو ما لم يكن ينطبـق على غالبية الرجال الذين عقدت مقابلات معهم ممن كانوا مجبرين على حضور برامج العلاج والتأهيل تلك.

وهو نفس الدرس الـذي تعلمته من حكايات هؤلاء الرجال عن العنف في علاقاتهـم، فهـم لم يكونوا مدركـين للسلطة التي يتمتعـون بها بفضل ذكورتهـم، فقـد كانـوا ينظـرون إلى أنفسهم علـى أنهم ضعـاف تتحكم نساؤهـم فيهم وضحايـا لنظام القضاء الجنائي المتحيـز. إن هذا الإحساس الذاتـي بالضعف وانعدام السلطة أعماهـم في حالات كثيرة عن قيامهم هم أنفسهم باستغلال السلطة التي يتمتعون بها عند اعتدائهم على نسائهم. ولم يروا وضعهـم المميز في سياق علاقاتهم الشخصيـة إلا من خلال المنظور النسـوي بما أضفاه مـن إشكالية على العلاقة بين مسألـة النوع والعنف. ولكن في نفس الوقت فإن الملاحظات النسوية بشأن كيفية عدم إمكانية فهم مسألة النـوع بعزلة عن أنواع أخرى من السلطـة ساعدتني على إدراك أن تجـارب هؤلاء الرجال مع السلطة كانـت تختلف تبعا لمواقعهم الطبقية والعرقيـة. وهكـذا تعلمت في نهاية الأمـر أن الملاحظـات النسوية بشأن التعقيدات الكامنة في السلطة من حيث تشكيلها لحيوات النساء هي تعقيدات يجب استخدامها أيضا لمساعدتنا على فهم حيوات الرجال.

العمل المشترك والسلطة والتمكين في التاريخ الشفاهي النسوي

يعتمـد التاريخ الشفاهي على البناء المشترك للمعرفة ما بين الباحثة أو الباحث والراوية أو الـراوي، إلا أن مـدى تحقق العمـل المشترك في مراحل مختلفة مـن المشروع البحثي وبالتالي فالمعرفة الناتجة عنه تكمن في الأسس الإبستمولوجية المعرفية للمشروع. ونجد أن الباحثـات النسويات يوجهن اهتماما خاصـا إلى تلك المسائل لاهتمامهن بتجليات السلطة في المسـار البحثي ودور علاقات القوى في تشكيل عملية بناء المعرفة. ويقدم التاريخ الشفوي للباحثـات النسويـات أسلوبا لخلخلـة مركزية السلطـة تبعا لخطة عمل الدراسـة البحثية،

وهـي خلخلة تلقى صداها لدى كثيرات من الباحثـات النسويات، وخاصة أولئك المهتمات بالإمكانيات التحررية وظروف التمكين في الممارسة البحثية والبناء المشترك للمعرفة.

فكيف ترى النسويات اللاتي يمارسن التاريخ الشفاهي المسائل التالية:

- هـل تمتد عملية المشاركـة في تشكيل عملية جمع المادة العلميـة فتستمر خلال عمليتي التحليل والتمثيل؟
- من يضع بصمته النهائية على الحكاية التي تتبلور وتنتج عن تلك العملية؟
- من يملك السلطة على الرواية؟
- مـا الذي تعنيه "السلطة المشتركـة" في الممارسة العملية؟ وهل هي ممكنة الحدوث أو حتـى مرغوبة دائما؟ ومـا الاعتبارات الأخلاقية التي تلعـب دورا عند تحديد مدى التشـارك في العمل البحثي؟ وما أثر ذلك التعاون المشترك على الباحثة والراوي أو الراوية والبحث نفسه؟
- مـن يملـك السلطة على المادة العلميـة؟ وكيف نتوقف أمام صياغـة المعنى والتعاون المشترك في بناء المعرفة؟

إن الإمكانيـات الكامنة في التعاون المشترك في التاريخ الشفاهي ليست مجرد اختيار للمنهجيـة المتبعة، وإنمـا تحمل معها حزمًا مـن السياسات ومجموعة مـن الاعتبارات الأخلاقيـة المتصلة بتمكـين كل ذات في البحـث بالإضافة إلى الجانـب السياسي للبحث النسوي. إن مسألتي العمل المشترك والسلطة تتناولان في نهاية الأمر كيفية بناء الرواية، ومـن هو الطرف الذي يملك تلك الرواية وكيفية تمثيلهـا. وأثناء عملية السرد والحكي تتـم صياغة المعنى من خلال قيـام الباحثة أو الباحث بحسن الإنصـات وسبر الأغوار (probing). ويمكن للعمل المشترك أن يستمر خلال التحليل والتمثيل، وهو أمر يتعين علـى المؤرخات والمؤرخين الشفاهيين التوقف أمامه. ونجد أن بعض النسويات يضعن

مسألة التأليف المشترك للنص باعتباره أولوية خلال كل مراحل المشروع البحثي نظرا لالتزامهن بالالتفات إلى "صوت" المشاركين والمشاركات في البحث واسترجاعه، وكذلك لالتزامهم بمواجهة العناصر والفئات والمفاهيم والتصورات التي يستخدمنها في صياغة المعنى. ومن هنا فإن جينيفر سكانلون تدعو لأبحاث تتم مع النساء لا عن النساء باعتبارها وسيلة لتمكين الراويات، كما ترى أنه يجب على الباحثات النسويات خلق منهجية تقوم حقا على "الأخذ والعطاء" يتم فيها توفير الوقت أو المال أو غيرها من الإمكانيات مقابل مشاركتهن في البحث (Jennifer Scanlon 1993، p. 640).

وهنالك نسويات أخريات، ممن يرتكز اهتمامهن على تسييس تجارب الأشخاص المهمشين، ربما يجدن قيمة كبيرة في الحفاظ على الصوت السلطوي في عملهن، بما يمكنهن من تناول النص المروي ضمن مناقشتهن للهموم النسوية. ومن المهم في هذا الصدد أن نفهم نقطتين مفادهما الآتي. أولا: إن العمل المشترك يتم في صورة خط ممتد ومتواصل، فكل مشروعات التاريخ الشفاهي تتطلب عملا مشتركا، ولكنَّ هنالك درجات وطرقًا متنوعة يمكن لهذا التنوع أن يظهر بها. وثانيا: إن النسويات تحديدا، والملتزمات منهن باسترجاع تاريخ النساء والتغيير الاجتماعي والسياسي، يعانين من التوتر الحقيقي القائم بين منح الصوت والسلطة للروايات مع قيامنا في الوقت ذاته باستخدام نظرتنا النسوية وعناصر الفهم النسوية في محاولة لإحداث تغيير اجتماعي إيجابي. كما تذكرنا آن ماري تيرنبول أيضا بأن العمل المشترك والرقابة عنصران متداخلان فيما بينهما تداخلا يصعب فصله:

> عند الإعداد لمقابلات التاريخ الشفاهي والقيام بها يكون العمل البحثي منذ بدايته واقعا في شرك قرارات معقدة فيما يتعلق بالرقابة والعمل المشترك. إن كمية ونوعية المعلومات الخاصة بالبحث، والتي سيتم تناولها مع الطرف الآخر من المقابلة الشخصية قبل عقدها، قد تتباين تباينا بالغا بين مشروع وآخر. ومن الأمور التي قد يكون لها تداعيات مهمة في هذا

الصـدد هو مدى المعلومـات التي تعتبر ذات أهميـة لتبادلها مع المشاركين والمشاركات في البحث بشأن المعرفة بالأصول الفكرية للبحث أو التفاصيل الدقيقـة للمنهجية المتبعة فيـه. إن الإعداد للمقابـلات الشخصية ومحتواها وتوقيتهـا هي مسائل تثير في حد ذاتها مسألتين أخريين، أولاهما هي كيفية التعامل مع موضوع المقابلة قبل وأثناء المقابلة الشخصية، وثانيهما هي إلى أي مـدى قام أحد طـرفي المقابلة الشخصية بصياغة شـكل المقابلة وتوزيع الأدوار فيهـا مـن حيث -علـى سبيل المثـال- موقعها وزمانهـا واختيار مضمونهـا أو التأكيـد علـى جوانب بعينهـا في محتواهـا. (Annmarie Turnbull 2000، p. 19).

فكما هو واضح، فإنه عنـد التفكير في المسائل المتعلقة بالعمل المشترك نجد أنفسنا أمام اعتبـارات أخلاقية واعتبـارات عملية واعتبـارات سياسية، بالإضافـة إلى القرارات العديدة التي يتم اتخاذها أثناء المسار البحثي والتي قد لا يدرك الباحث أو الباحثة قيامهما بها أو قد لا يعتبرانها ذات أهمية.

وتقدم لنا دراسة كاثرين بورلاند مثالا ممتازا ونموذجا أعتبره كلاسيكيا على التوتر القائـم بين الرؤية النسوية المكتسبة والرغبة في بناء معرفة تعبر بصدق عن فهم الراوية لقصة حكايتها الذاتية. فقد قامت كاثرين برولاند بمشروع مقابلات شخصية في التاريخ الشفاهـي عقدتها مع جدتها. وقد مرت بتجربة صراع داخلي في مرحلة التأويل إذ إنها شاركت جدتها في تأويلاتها الأولى للمقابلات. فقد قامت الباحثة هنا بقراءة حكاية جدتها من منظور نسـوي معاصر، وبالتالي اهتمت اهتماما نقديـا بالخلفية الأبوية لقصة حياة جدتها. ولكن المستجيبة، جدتها بياتريس، لم يسعدها أن ترى حكايتها مؤولة باعتبارها نضـال امرأة من أجل الاستقلالية في بيئة ذكوريـة، وكتبت رسالة لآن ماري تخبرها بـأن حكايتها ضاعت وأن آن ماري قد استحوذت علـى الحكاية وأوّلتها إلى الحد الذي جعـل الحكاية الآن مملوكـة لآن ماري وليست ملكا لبياتريسـ. وهكذا فإن "الصراع التأويلـي" يلقـي بالضوء على كثير مـن القضايا التـي تواجهها النسويـات، إذ يحاولن

الموازنــة بين رغبتهن في تحري الصدق والأمانة تجاه راوياتهن وبين رؤيتهن النسوية المكتسبة بما فيها من إمكانيات سياسية وبما فيها أيضا- بلا شك- من قصور.

وليس من الصعب أن نفهم كيف يكون لتشارك السلطة من أثر في تمكين الراوية، فالناس قطعا أميل إلى الشعور بالتمكين عندما يتم تضمينهم تضمينا كاملا وعندما تلعب قيمهم أدوارا متساويــة. كذلك فباعتبــار النسوية منظورا سياسيا مكتسبا، فـإن الحفاظ على ملكية المعرفة الناتجــة بحيث تخدم أهداف العمل النسوي هو قيمة لهــا أهميتها لكثيرات من الباحثات ومن يشاركهن العمل في المشروع البحثي. فلكل حــزم الخيارات المتنوعة اعتباراتها الأخلاقية، وليست أي منها مجرد صحيحة أو خاطئة، أفضل أو أسوأ، أكثر أو أقل "نسوية".

حفظ المعرفة المستضعفة: أرشفة التاريخ الشفاهي

إن أرشفــة النســخ المفرغــة لمقابــلات التاريخ الشفاهــي هي جزء مهم مــن النظرية والممارســة النسوية (feminist praxis) والتي تسعى في جوهرها إلى استعادة تجارب النساء وتضمينها في السجل التاريخي. إن الكلام الذي تدلي به المستجيبات اللاتي يحكين قصصهــن يجب أن تخضع للأرشفة وإتاحتها لأجيــال المستقبل، وهو الأمر الذي يمثل جــزءا من الممارسة الأخلاقية عامــة، كما أنه قد يرتبط لدى النسويــات بقضايا العدالة الاجتماعيــة. إن أرشفة تلك المادة وإتاحتها هي مسألة بالغة الأهمية في الممارسة النسوية لأنهــا تتيح سماع الأصوات التي خضعت تاريخيا للإسكات، كما يجب نقل تلك المعرفة وبثها وإتاحتها بحيث تصبح جزءا من السجل التاريخي، وبالتالي نضمن حفظها.

ويجــب على الباحثات التفكير في كيفية تعامل الآخرين مستقبلا مع النسخة المفرغة، وإلى أي مدى ستترك الباحثــة بصمتها على النص النهائي. إنها اعتبارات تدور حول ما إذا كان النص الذي تم تفريغه سيخضع لمراجعة في الصياغة وكيف يتم ذلك، وهو ما قد تتطرق إليه عملية التحليل والحفظ. ويجب على الباحثات التفكير فيما يلي:

- هــل ستقومين بصياغة وتحرير النص الذي تم تفريغه؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف ستقومــين بذلك؟ ما الافتراضات والأهداف التي ترشدك في اتجاه اختياراتك؟ وهل الراوية جزء من هذه العملية؟
- هــل "ستنقحــين" النص مــن الوقفات وتعبــيرات مثل "يعني" وغيرهــا مما يرد في الحديث الدارج؟ وهل ستصوبين اللغة طبقا لقواعد النحو؟
- هل ستغيرين خصائص أسلوب الكلام؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يؤثر ذلك على المعنى؟ وكيف تعكس تلك التغييرات السمات النسوية؟
- هل ستقومين بتعديل نقاط التأكيد لنقل المعنى؟ وإذا كان الأمر كذلك فنقل المعنى سيتم مــن أي منظــور: منظورك أنت، منظــور الراوية، أم تأويلك للمعنــى الذي تنقله الراوية؟ وكيف تتأثر تلك الخيارات بالقاعدة النسوية التي يرتكز عليها عملك؟
- كيــف تتأثر تلك الخيارات بالطبقة الاجتماعية والعرق والنوع والجنسانية والجنسية وغيرها من الخصائص؟
- ما تداعيات قيامك بتغييرات أو إضافة تفسيراتك الشخصية لما يرد من مفردات عامية أو دارجة قد تكون نتاجا لخلفية عرقية معينة وغيرها من الخصائص الاجتماعية؟

إن التعامل مع النصوص المفرغة هي مسألة بالغة الأهمية لإنتاج بحث نسوي أخلاقي لأن الصياغــة والتحرير يرتبطان بعملية صياغــة المعنى، وكذلك لأن النسويات يعلمن بأن تلك الاختيارات وثيقة الصلة ومتداخلة مع السلطة الاجتماعية وإنتاج المعرفة:

> من السمات المهمة للعلاقــات الاجتماعية في مقابلات التاريخ الشفاهي هي علاقــات القوى بين القائم بالمقابلة وبين الــراوي. ويدخل النوع والطبقة والعرق وغيرها من الاعتبــارات الاجتماعية بدرجة ما أو بأخرى طرفا في سيــاق المقابلــة الشخصيــة. وهي اعتبــارات تؤثر في عمليــة الصياغة

> والتحريـر من خلال رؤى الراوي والقائـم بالمقابلة/المحرر وتصوراتهم عن أوجه الشبه أو الاختلاف في المكانة الاجتماعية فيما بين طرفي المقابلة، بمـا يعمل بدوره علـى تشكيل فهمهما لدوريهما في المقابلـة. وتكمن أهمية ذلـك بالنسبة للصياغـة والتحريـر في الطريقة التي تتداخـل بها علاقات القـوى مـع التجـارب المتباينة تجـاه الكلمـة المكتوبـة. إن كـون الرواة يحملون تجـارب متباينة تجاه الكلمـة المكتوبة، وعـالم الطباعة والنشر، والأرشيفـات البحثية، والمكتبات، ومـا إلى غير ذلك، هو أمر يؤثر على قرارات الصياغة والتحرير التي نتخذها، وعلى من يتخذ تلك القرارات، وأسبابها. (Wilmsen 2001، pp. 75-76)

وتعتـبر الباحثـات النسويـات قضايـا الاختـلاف وعلاقـات القـوى البحثية جزءا مـن النظريـة والممارسة الأخلاقيـة، ويقمـن باختياراتهن بما يتماشى مـع التزاماتهن الأيديولوجيـة والأطر النظرية وأهداف البحث العملية. إن المدى الذي تقوم به الباحثة بتحديد أولوياتهـا بشأن السلطة والتعاون المشـترك، أو الإمكانيات السياسية للاحتفاظ بسلطة على النص، يرتبـط ارتباطا وثيقا بالقرارات الخاصة بالتحرير وصياغة المعنى وحفظ نصوص التاريخ الشفاهي المفرغة.

الممارسة النسوية في أبحاث مقابلات مجموعات النقاش

إن مجموعـات النقاش (focus groups) تختلف عن المقابـلات الشخصية المتعمقة (in-depth interviews)، والتاريخ الشفاهي في أنها تضم عددا من المستجيبين والمستجيبات ممـن يتم مقابلتهـم معا في شكل مجموعة. وبينما تطور أسلـوب مجموعات النقاش من أبحـاث السوق لجمـع بيانات عن المستهلكين، فـإن هذا المنهج الفريـد للمقابلات يلاقي حاليا رواجا كبـيرا في العلوم الاجتماعية، والرعاية الصحية، والتعليم. ويتم استخدام

مجموعات النقاش عموما في البحث الأكاديمي في ثلاثة أنواع من المشروعات البحثية: 1) الأبحاث التقييمية. 2) الأبحاث الاستكشافية. 3) مشروعات البحث متعددة المنهج. وقبل أن أتطرق إلى شرح موجز لكيفية الاستعانة بمجموعات النقاش الواردة في النقاط السابقة، أود الإشارة إلى أن مجموعات النقاش، مثلها في ذلك مثل غيرها من مناهج المقابلات الشخصية التي تناولناها في هذا الفصل من الكتاب، يمكنها أن توفر مادة وصفية ويمكن استخدامها لتوليد النظريات.

ويتم توظيف مجموعات النقاش في الأبحاث التقييمية (evaluation research) عند الحاجة إلى فحص برنامج أو بناء مؤسسي ما. وكثيرا ما يتم تقييم البرامج التعليمية الجديدة، وبرامج التدخل المبكر (Brotherson 1994) والبرامج المجتمعية (Matoe-sian & Coldren 2002). كما أن مجموعات النقاش كثيرا ما تلائم أيضا الأبحاث الاستكشافية عند توفر القليل من المعلومات عن موضوع ما، وهو منهج يتيح للباحثات والباحثين جمع بيانات عن المواقف والأفكار والمشاعر والتجارب الشخصية من عدد من المستجيبات والمستجيبين في المرة الواحدة. وهو أمر قد يساعد في توجيه الأبحاث المستقبلية بشأن موضوع لا يتوفر حوله سوى القليل من المعلومات. كذلك فإن البيانات التي يتم جمعها في هذا النوع من الأبحاث الاستكشافية قد تقدم معلومات مهمة عن موضوعات أساسية أو أساليب لغوية غير رسمية داخل مجموعات بعينها، وهذه من الأسباب التي تجعل مجموعات النقاش ملائمة لخطط البحث متعددة المنهج. فبينما يجب أن تساير خطة البحث دوما أهداف البحث، فإنه يكثر الاستعانة بمجموعات النقاش جنبا إلى جنب المقابلات المتعمقة واستطلاعات الرأي الكمية (حيث تساعد البيانات الناتجة عن مجموعات النقاش في تطوير الأسئلة الاستطلاعية المناسبة أو في تقديم تفسير كيفي لنتائج الاستطلاعات). والآن وقد عرضت بعض التطبيقات العامة لمجموعات النقاش، سأنتقل لأتناول مجموعات النقاش النسوية مع تسليط الضوء على بعض أهم ملامح هذا الأسلوب من أساليب جمع البيانات.

• كيف يمكن للباحثات النسويات استخدام مجموعات النقاش؟

• كيف تخدم مجموعات النقاش المبادئ النسوية؟

• كيف يمكن للباحثات النسويات التفكير بشأن قضايا خطة البحث، كاختيار العينة وتحديد المعايير وتحكم القائم بدور التيسير؟

النسوية ومجموعات النقاش

عادة ما تقوم النسويات بدراسة الموضوعات والمجموعات السكانية المعرضة للتجاهل من قبل المجتمع البحثي الأوسع، وبالتالي قد يوظفن مجموعات النقاش في الأبحاث الاستكشافية. إلا أنني أعتقد أن أكثر العوامل جاذبية إلى هذا المنهج بالنسبة للنسويات تتمثل في قدرة القيام بالبحث داخل المجموعات المستبعدة والقدرة على الوصول إلى "الأصوات المستضعفة".

ويتضح لنا أن مقابلات مجموعات النقاش تساعد بشكل خاص في جمع البيانات من مجموعات سكانية "صعبة" (Kitzinger 1994، p. 112)، والمقصود بكلمة "صعبة" هو الإشارة إلى البشر الذين قد يشعرون بالاستبعاد وعدم الأمان، أو ممن قد يكونون غير متحمسين للمشاركة في دراسة بحثية، كالأشخاص المصابين بأمراض تناسلية أو ممن يتعاطون المخدرات (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 197). كذلك تكون مجموعات النقاش مفيدة في التوصل لمعرفة التوجهات والمشاعر والتجارب الشخصية لمجموعات تتعرض للتهميش أو الإسكات داخل المجتمع، وتتضمن النساء والأقليات الجنسية، والأقليات العرقية، وغيرها من المجموعات التي تهم الباحثات النسويات.

• كيف تكون مجموعات النقاش مفيدة في اكتساب المعرفة من المجموعات المستبعدة أو المهمشة؟

إن نوعيــة التفاعــل الجماعــي والروايــة متعددة الأصــوات التي تتــم في مقابلات مجموعات النقاش تجذب الباحثات النسويات المهتمات بالكشف عن المعرفة لدى الفئات المستضعفــة. وينتــج عن مقابــلات مجموعات النقاش مــا يشار إليــه بمسمى "الحدث" (happening) (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 199)، والــذي يشــير إلى الحوار الذي رغم إعداده المسبق و"تركيز النقاش" من قبل الباحثة، إلا أنه يظل عملية سرديــة ديناميكية. ففي وجود سياق محدد يقوم أعضاء المجموعة بالتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم وتجاربهم بشروطهم الخاصة.

> يضمــن العمل الجماعي منح الأولوية لترتيب الأمور تبعا لأهميتها بالنسبة للمستجيبــات وللمستجيبين من حيث لغتهــم ومفاهيمهم الخاصة، وأطرهم الفكرية الخاصة لفهم العالم.... إن أشكال التواصل اليومية... قد تكشف لنــا عن الكثير، إن لم يكــن كشفها عن قدر أكبر ممــا نعرفه عما "يعرفه" الناس. ومــن هنا فإن مجموعات النقاش "تتوصــل إلى تلك الجزئية التي لا تستطيع المناهج الأخرى الوصول إليها" - بما يكشف عن أبعاد عادة ما تظل غائبة عن الفهم عند استخدام المناهج الأكثر تقليدية كالمقابلة الشخصية الفردية أو الاستبيان. (Kitzinger 1994، pp. 108-109)

وبالنسبــة للباحثات النسويات اللاتي يعملن مع فئــات سكانية مستبعدة و/أو يحاولن الوصــول إلى المعرفة عن الواقع الاجتماعي والتي طالما سبــق إسكاتها قد يعتبر الحدث الجماعي سبيلا مثمرا لبناء المعرفة. فلنقل مثلا إننا مهتمون بتجارب الأمهات العاملات في الموازنــة اليومية بين العمــل والأسرة، فنجد في الاستطــلاع أو المقابلة المكثفة غياب بعضــ تفاصيل التجارب اليومية، بالإضافــة إلى كيفية استيعاب النساء لتلك التجارب. أمــا في الحــوارات الجماعيــة فقد يتــم التعبير عن تلــك الجوانب المهمة مــن المعرفة من خــلال الإفصاح عن التجارب ومقارنتها. فعلى سبيل المثال قد تتحدث إحدى النساء في المجموعــة عن السرعة التي يجب عليها أن توصل بها طفلها إلى الحضانة ثم التوجه إلى

عملها، وفي تلك اللحظة قد تقول امرأة أخرى شيئا من قبيل: "هذا إلى جانب الإحساس بالذنب حين يريدني أن أبقى بينما أكون مضطرة إلى الذهاب"، وهي عبارة قد تثير مزيدا من التعبير عن المشاعر والتجارب المشابهة والتي تؤدي إلى المزيد من المعلومات المتعمقة من المستجيبة الأساسية بالإضافة إلى النساء الأخريات في المجموعة. كذلك نجد أن النساء يشرحن تجارب حياتهن اليومية بالاستعانة بمفاهيمهن وأطرهن الخاصة في فهم تجاربهن، ومنها مصطلح الذنب المحمل بالمعنى الوارد في المثال السابق.

وتستخدم النسويات مجموعات النقاش بأشكال عديدة مختلفة ضمن سبل الوصول إلى المعرفة لدى المجموعات المهمشة. وفي المقطع التالي من "ما وراء الستار" تتناول كل من ليسا دودسون وليا شمالزباور وديبورا بياتيللي تجاربهن في القيام بمشروعات بحثية تقوم على مجموعات النقاش مشبعة بالنسوية (feminist-infused)، تدخل فيها المشاركات في مستويات عدة من عملية بناء المعرفة. وقد قامت الباحثات الثلاث بكتابة ذلك النص في صورة حوار أقرب إلى أسلوب النص المفرغ الناتج عن مجموعات النقاش.

ما وراء الستار مع ليسا دودسون وليا شمالزباور وديبورا بياتيللي

حوار حول مجموعات النقاش التأويلي

نقوم في هذه الصفحات بعرض موجز لحوار متواصل بشأن ممارسة منهجية نسوية تقوم على المشاركة، مع التركيز على مرحلة التأويل في البحوث الاجتماعية. وكغيرها من الأبحاث "feminist infused" القائمة على المشاركة (Lykes & Coquillon 2006) يسعى عملنا البحثي إلى تفاعل المشاركات والمشاركين تفاعلا ذاتيا يقوم على المطاوعة في أعمال بحثية تعتمد على التعاون المشترك، وتتعامل مع التجارب المعيشة

باعتبارهـا مسألة محورية في بناء المعرفـة. ونحن نتناول في مجمل عملنا البحثـي الغياب التاريخـي للنساء والملونين وغيرهم مـن المجموعات التي تعرضت للتجاهل بل وأحيانا التشويه في إطار ما نعرفه عن العالم. وبينما نقوم بتوظيف مناهج متنوعة من مناهج المشاركة، فإن من ضمن ما نركز عليه هو "أخلاقيـات تأويل" المادة المستقاة من حيوات الآخرين. وقد قمنا من وراء الستار، ومؤخرا بشكل مباشر وصريح، باستخدام منهج يطلق عليه مسمى "مجموعات النقاشـ التأويلي" (IFGs: interpretive fo- cus groups)، الساعيـة للحفـاظ على وضع المعرفـة المحلية والعالم من منظور "الذوات" في بؤرة تحليل المادة المجموعة.

إن "مجموعـات النقاش التأويلية" تضم مجموعة ممن يعيشون أو يعملون عموما في نفس الوضع الاقتصـادي الاجتماعي الذي تنتمي إليه مجموعة الأشخاص "الخاضعين للدراسة"، وذلك للمساعدة في تحليل المادة العلمية (للمزيـد انظر/ي: Dodson & Schmalzbauer 2005). ويطلب من المشـاركات في هذه اللقاءات تحليل أنواع متنوعة من البيانات والمعلومات مثـل: المفردات، والحكايات القصـيرة (vignettes) والأفكار والتسلسل الرقمـي (numeric trends) والمناقشـات المسجلة وغيرهـا من أشكال التعبـير، كما يطلب منهم القيام بالتعاون معا في تأويل "المعنى في سياقه". وهـم بالتالي يشتركون في الكشف عن المعاني الكامنة وراء القوى المباشرة التي تؤثر على الحيوات اليومية للمستجيبين والمستجيبات.

حكي قصص الحياة

ليسا دودسون: لقد بدا واضحا لي منذ فترة مبكرة من مراحل عملي البحثي أن معظم الأبحاث التي تتناول الحياة في الأجزاء الفقيرة من أمريكا كانت أبحاثـا تركز على خطوط التماسـ (fault lines) الاجتماعية. وقد كنت

حينذاك، ضمن عملي في مجال الصحة العامة، أساعد في دراسات معقدة تتناول بالبحث مشاكل الإنجاب لدى المراهقات والأوضاع الصحية للأمهات والأطفال. وبينما كان هنالك جهد نظري مهم يتم في صياغة فرضيات البحث وإعداد عينات البحث ومناهج جمع المادة العلمية، فإنني وجدت نفسي أتساءل: عمَّ يجعلنا نتخيل أن "ذوات" البحث أي الأمهات المراهقات والأمهات من أصحاب الدخول المنخفضة سوف يخبرننا بما نريد أن نعرفه؟ فمن خلال عملي في منظمات مجتمعية في أحياء منخفضة الدخل أدركت إشارة مشتركة مفادها أنه من الحماقة بشكل عام أن نتصور قدرتنا على استخلاص روايات دقيقة عن الحياة اليومية، بل وقد لا يقتصر الأمر على الحماقة بل قد يتعارض مع مصالح الفرد المادية المباشرة، بل وقد يعتبر في بعض الحالات أمرا يحمل قدرا من الخطورة. فمن المقولات المتكررة "إنني أحتفظ بشؤوني لنفسي" وهي مقولة نسمعها في الحالات التي يعايش فيها الناس تهميشا اقتصاديا وعنصريا وغيره من صور التهميش. فأكثر أسئلة البحث الموجهة للأمهات المراهقات "حيادية"، وهما سؤالان: "أين تعيشين؟" و"ما دار الرعاية أو الحضانة التي تستعينين بها عند ذهابك إلى المدرسة؟"، يحملان معهما عددا من المراقبين وصورا محتملة من العقاب. ففي الجزء الثامن (من برنامج دعم المسكن الفيدرالي) توجد قواعد بشأن المشاركة في المسكن (cohab-itation)، ومجرد كسر تلك القواعد قد يؤدي إلى فقدان هذا المسكن. وتقوم الولاية بتتبع أماكن وجود الآباء سعيا للحصول منهم على مقابل للدعم والرفاهة، وبالتالي فإن تحديد مكان أحد الآباء الشباب والذي قد يقوم بتوفير الرعاية الضرورية للطفل، دون تمكنه من توفير المال، قد يسبب له المشاكل إن لم يكن يعرضه للسجن. وهي أمور لا تكشف سوى عن القليل من الوضع الملتبس الذي يشغله الناس عندما لا يملكون الدخل الكافي لإعاشة أنفسهم، أو حين يحاولون الحصول على مزيد من الحق في

كوبونات الطعام والتأمين الصحي ليشمل عددا أكبر من الأفراد، أو حينما يوجدون في الولايات المتحدة الأمريكية بصفة "غير شرعية"، أو يكونون قـد تعلموا بشكل ما إخفاء حقيقتهـم الاجتماعية. وتبدو وعود الحفاظ على سرية المعلومات في أحسن حالاتهـا غير مضمونة على مستوى معظم هذا المجتمع.

وعلى مدار سنوات من تأمل مشكلة السعي للحصول على معلومات يكون لأصحابها أسبابهـم الوجيهة في عدم الإفصاح عنها، قمت بتطبيق نموذج للبحث يقوم علـى مقاربة تشاركية نسويـة (feminist participatory approach)، يقـوم على إشـراك الناس الخاضعـين للدراسة في إعداد ومراجعة بل وحتى القيام بالبحث. ومع ذلك كنت على ثقة من أن اكتساب قدر أعمق من الفهم يتطلب إشراك الناس المنتمين إلى "مجتمع" البحث في تحويـل البيانات والمادة العلميـة إلى المعنى، أو خـلال مرحلة التأويل في مسار البحـث الاجتماعي. وقد بدأت منذ ما يزيـد على العشر سنوات في إشـراك الناس بشكل منهجي باعتبارهم خبراء في تحليل عالمهم، ولكني لم أقـم سوى بالإشارة إلى الممارسة نفسها. وفي الوقت الذي بدا بوضوح أن مجموعات النقاش التأويلـي (IFGs) تيسر الوصول إلى الروايات الخفية عن الحيـاة والمجتمع، فإن هذه المقاربة لم تنل حظهـا من حسن الاستقبال والتلقي في منابر البحوث التقليدية.

ومنـذ عدة سنوات، عندما بدأت المناقشات بيني وبين ليا حول بحثها الذي يتنـاول المهاجرات والمهاجرين مـن هندوراس في مدينـة بوسطن (وهو المسار الذي مضى في نفس الاتجاه بعد ذلك بعامين مع ديبورا) أرادت ليا معرفـة المزيد عن مجموعات النقاش التأويلية وما يتصل بها من منهجيات تتناول "عادات إخفاء" المعلومات عن الحياة اليومية.

توضيحات: الإنصات طلبا للحقيقة المتأصلة مع المهاجرين من هندوراس

ليا شمالزباور: لقد قمت في رسالتي الجامعية بمشروع يتناول استراتيجيات البقاء لدى العائلات عبر القومية المهاجرة من هندوراس، وهم العائلات المقسمة بين الولايات المتحدة الأمريكية وهندوراس. وقد جاءت الغالبية من أعضاء العائلات التي تناولتها في البحث من المهاجرين الفقراء وغير الموثقين ممن يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي يعيشون فيما أسماه -بحق- الباحث الأنثروبولوجي ليو شافيز Leo Chavez) 1998) حياة "الظلال" (the shadows). واستلهاما بقدر كبير لجهود ليسا البحثية كنت قد عزمت منذ البداية على القيام بأبحاث تتسم بتأصلها في المجتمعات الصغيرة وتعتمد على المطاوعة والتعاون المشترك - أي أبحاث نسوية تشاركية (feminist participatory research). وقد نلت في هذا المشروع الدعم والمشورة من ليسا وديبورا، حيث كثيرا ما تناقشنا حول كيفية نقل الخطاب النسوي من الكتب الدراسية إلى ميدان البحث، وما يمثله ذلك من كفاح فريد من نوعه حينما يكون ميدان العمل مكانا بالغ التهميش.

ومنذ ولادة الفكرة الأولى للبحث واجهتني تحديات عملية وعاطفية تتصل بمكانتي باعتباري شخصية تتمتع بامتيازات وآتية من خارج المجتمع الهندوراسي. فأنا أكاديمية بيضاء من الطبقة الوسطى. وأنا أتحدث اللغة الإسبانية وعملت لعدة سنوات في حركة تضامن أمريكا الوسطى، ولكن رغم التزامي الشخصي تجاه ذلك المجتمع، فإنه لم يكن ولن يكون في وسعي أبدا الادعاء بأني على دراية تامة بـ"الحقيقة المتأصلة" (ground truth) (Dodson 1998) التي يعايشها أهل أمريكا الوسطى في حياتهم اليومية. وكنت على علم بأن قضاء عدة سنوات في البحث الميداني ليست

كفيلة بتغيير ذلك الأمر مهما تكن درجة صرامة مناهجي البحثية. وبالتالي قضيت ساعات طوال في تأمل المسائل الخاصة بالتمثيل والمشاركة مع محاولة صياغة منهجية يمكنها أن تساهم في نضالات المهاجرين من أجل العدالة الاجتماعية دون أن أتسبب في أي أذى بسبب سوء التمثيل. كما كنت على يقين أيضا من رغبتي في القيام بعمل بحثي يقوم على العمل المشترك مع المجتمع بحيث يتعاون المجتمع معي ثم يوجهني ويرشدني في تحليل المادة العلمية وتأويلها، فلم أكن أرغب في أن أكون مجرد متحدثة بلسان هذا المجتمع. فقررت الاستعانة بمنهج الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات الشخصية المعمقة، ومجموعات النقاش التأويلي.

وبعد قضاء عام من الملاحظة بالمشاركة في منظمة قاعدية لحقوق المهاجرين بدأت في عقد مقابلات معمقة مع أفراد من المجتمع. وقد جاء ذلك بعد فترة قصيرة من أحداث 11 سبتمبر، بما شهدتها تلك الفترة من خضوع مجتمعات المهاجرين بطول البلاد وعرضها لثقافة الخوف: الخوف من الترحيل، والخوف من التمييز، والخوف من العنف. وعلى الرغم من شعوري بثقة المجتمع بي فإنني كنت أستشعر أحيانا وجود خوف كامن في عقول وقلوب المستجيبات والمستجيبين.

وكان هذا الخوف الكامن يتكشف لي حين كنت أطلب من المستجيبات والمستجيبين الحديث عن تصورهم للفرص المستقبلية المتاحة لهم في الولايات المتحدة، فقد كانوا يحكون في مقابلة تلو الأخرى حكايات عن التمييز في مكان العمل، وعن الحنين إلى الوطن، وعن العنصرية والمعاملة المجحفة والمؤذية التي يلقونها من أصحاب العمل. ولكن حين سألتهم عما إذا كانوا يشعرون بوجود حواجز وموانع للحراك الاجتماعي والاقتصادي في الولايات المتحدة، لم يجب على ذلك السؤال بالإيجاب

إلا عـدد قليل جدا منهم. وقد أربكني ذلك فطرحـت الموضوع للنقاش في مجموعة نقاش تأويلية تضم مهاجرات ومهاجرين من هندوراس، وعدد من أصحاب الخدمات، ومن العاملين في المجتمع.

وقد أدت مجموعة النقاش التأويلي بي إلى تعديل تحليل المادة، فقد علمت من أبناء المجتمع الهندوراسي كيفية قراءة وتفسير شفرات الأدب والأمان التي يتسم بها موضوع "الفرصة المستقبلية" لكثير من المهاجرين والمهاجرات، وخاصـة غير الموثقين منهم (the undocumented). كما اكتسبت فهما أعمق لما تحمله مكانتي من حيث اللون والعرق والطبقة والجنسية من تأثير كامـن في تواصلي مع المستجيبيـن والمستجيبات. وأخـيرا، وربما الأمر الأكثر أهمية هو أنني شعـرت خلال ذلك المسار البحثي بتحول في ميزان القوى حين قام أبناء المجتمـع أنفسهم بدور الخبراء المحللين بينما تراجعت أنا إلى دور الطالبة أو الدارسة. وهو تحول في القوى أتاح قدرا أكبر من الوضوح والدقة في تحليل المادة كما قام بتغيير علاقتي مع المجتمع.

وأنـا أعلم من واقع حواراتي مع ليسا وديبـورا أنهما قد اكتسبتا معلومات وأفـكارا من خلال ما عقدتاه من مجموعات نقاش تأويلي، بينما ما زالت أنا أستلهم تجاربهما.

التعديل: الكشف عـن "عادات الإخفاء" لدى المجموعات السكانية المتميزة بشأن الخطاب العنصري

ديبورا بياتيللـي: لقد شرعت ضمن إعدادي لرسالـة الدكتوراه في توثيق التحديـات التي تواجهها شبكة السلام والعدالـة لأبناء الطبقة الوسطى من البيضـ وذلك من خـلال سعي تلـك الشبكة إلى تحويل نفسهـا إلى حركة

متعـددة الثقافات. وكنت قد استشعرت منـذ فترة مبكرة من عملي البحثي أن هنالك أبعادا أعمق فيما يتصل بكيفية تناول الناس مسألة التنظيم مقارنة بما كنـت قد لاحظته أو سمعت عنه. وقد كنـت في حاجة لاكتشاف طرق تتسـم بقدر أكبر من الإبداع عن الأشكال التقليدية للمشاركة في النصوص المفرغة للمقابلات الشخصية والتأويلات التي يتم التوصل إليها بالاشتراك مع المشاركات والمشاركين في البحث نحو تأويل المادة العلمية. ومن خلال القراءة والحوارات مع ليسا وليا بشأن أبحاثهما، جذبتني الإمكانيات التي تتيحهـا مجموعات النقاش التأويلي في تحفيز وتضمين الخبرة المجتمعية في عملية التأويـل. وقد استخدمت مجموعات النقاشـ التأويلي في المرحلتين المبكرة واللاحقة من مسار البحث، ووجدت في هذا المنهج فائدة في الكشف عن الخطابات الخفية لدى الفئات المميزة داخل تلك الشبكة. كما كشفت لي مجموعات النقاش التأويلي أيضـا عن خطوط جديدة في البحث بالإضافة إلى ما وفرته من سبيل لإشراك أفراد المجتمع في البحث.

وقد جمعت الحوارات حول اللون والطبقة بين سمات التحدي والصعوبة. فعنـد التحاور مع الناس حول تجاربهم في التعامل عبر أوجه الاختلاف، استكشفنـا الصعوبات القائمة في العمـل ضمن بناء اجتماعي محمل بعنصر اللـون، وكان مما أثار دهشتي هو الصراحة التـي اتسمت بها الحوارات مع الملونـات والملونين بشأن قضايا اللون. وقد جـاءت حواراتنا مباشرة وصريحـة ومريحـة، إذ تحدثـوا عـن أهمية فهـم "القضايـا الحقيقية"، والإحساس بقيمة "العمل المجتمعي باعتباره عملا سياسيا"، ومعرفة معنى "أن تضع نفسك مكاني". وقد ذكر شخص تحديدا، وهو كين، أنه كثيرا ما كان يشعر بالتعرض للإسـكات عندما يكون وسط أشخاص من البيض، فقال: "الناس البيض لا يريدون الدخول في حوارات لأنهم لا يرغبون في

التعامل مع العنصرية والطبقيــة، والعنصرية بالذات. . . فالناس البيض ببساطــة لا يريدون الدخول في تلك المساحة. . . بل ولا أعتقد أنهم يرونها أصلا." وقد كانت تجربة الحوار مع البيض مختلفة للغاية وصعبة للغاية، فقد جاء الحوار مع الكثيريــن متوترا وغير مريح ومبهما ومتناقضا. وقد واجهـت لحظات صمت غريبة ومحاولات لتحويل دفة الحوار إلى وجهة أخــرى - أي ســاد إحساســ عام مــن التوتر. وقد تذكــرت كلا من ليسا وليا وهما تحكيــان عن تجارب شبيهة بذلك عنــد تطرقهما مع المشاركات والمشاركــين في البحث إلى موضوعات تثير مخاوف الكشف عن المخفي. فعند التطرق إلى موضوعات عن العنصرية، كثيرا ما كان الناس البيض ينخرطــون في خطاب يتسم بعمــى الألوان، فكانوا يؤكــدون على أهمية بنــاء حــركات متعددة الثقافات ولكــن عندما كنت أسألهــم عن سبب عدم وجــود أي ملونين ضمن مجموعتهم كانــوا يقولون: "إنهم غير منظمين، ويفتقدون إلى التسييس"، وإنه "أمر بالغ الصعوبة ويتطلب قدرا بالغا من الوقت كي نبني تلك العلاقــات". ولكن الأمر كان مختلفا عند التعامل مع غيرهــم من البيض، فكانوا يعترفون بما يتمتعون به من امتيازات وكانوا يؤكــدون على أهمية العمل مــع الملونين ومع الفئــات منخفضة الدخل في تنــاول "الأمور اليومية التــي تعرضهم للقهر" بدلا مــن "مطالبة الملونين بالانضمــام إليهم." وقــد قالت امرأة اسمها بولــين "إذا كنا نحارب الظلم هنــا في هــذا البلد [جنبا إلى جنــب العراق]، فلابد لنا مــن أن نتوقف أمام كيفيــة مساهمتنا، نحن البيض، في ذلــك الظلم. والكثيرون من البيض لا يريدون القيام بتأمل ذلك."

وقد تساءلت عن سبب ذلك التباين البالغ فيما بين بعض البيض في الآراء، وإذا كان الناس ملتزمين بالعمل عبر الاختلافــات؛ فلماذا لم يتحقق ذلك

على أرض الواقع وخاصة في مجتمعات تتسم بالتعددية والتنوع؟ حملت تلك الألغاز إلى مجال مجموعات النقاش التأويلي حيث قمنا بمناقشة الأفكار التي تبلورت من خلال تلك الحوارات. وقد أدت مجموعات النقاش التأويلي تلك، والمكونة من ثلاثة إلى أربعة أشخاص من البيض، إلى الكشف عن أن مفاهيم الناس بشأن السلام والتنظيم هي نتاج لا للتجارب السياسية المختلفة فحسب وإنما للتجارب المعيشة والبنى المختلفة في المجتمع المحمل بعناصر اللون والطبقة والنوع. وقد كان الجو العام خلال تلك الجلسات مريحا بقدر أكبر مما كان عليه في المقابلات الشخصية، وقد أدى ذلك في بعض الحالات إلى تأملهم وطرحهم الأسئلة بشأن ما يتمتعون به من امتيازات وما يحملونه من قناعات. وقد كان الناس أكثر انفتاحا في الحديث عن مسألة اللون والامتيازات عند تأويل أصوات غيرهم من البيض مقارنة بتأويل أصواتهم هم أنفسهم، وذلك لوجود مسافة تبعدهم عن تلك الامتيازات بما يتيح حيزا آمنا.

متطلبات ومآزق مجموعة النقاش التأويلي: هل الأمر يستحق ما يتطلبه من جهد؟

ليسا دودسون: لقد واجهت على مدار السنين قدرا من النقد لتلك الاستراتيجية التأويلية، وهو نقد يقع عادة في واحد مما يلي. إن مقاربة مجموعات النقاش التأويلي هي مقاربة بنائية (constructuvist) (Charmaz 2000) وتقوم في جوهرها على المشاركة، وبالتالي لا يمكن تكرارها بنفس الشكل تماما. كما يستدعي هذا المنهج العمل المشترك بين الباحثين والباحثات من ناحية والمستجيبات والمستجيبين من ناحية أخرى، بالإضافة إلى أفراد من المجتمع الذي ينتمي إليه المستجيبون. وكما تكشف لنا كل من ليا وديبورا، فإن هذه المقاربة التأويلية تحتمل التوضيح

والتعديل، حتى ولو تطلب ذلك قدرا من الجهد، وخاصة عند الانتهاء من كل مراحل جمع البيانات والمادة العلمية الأخرى. ويشعر بعض الباحثين والباحثات بعدم الراحة تجاه "التلقائية المنهجية" نظرا لصعوبة تكرارها في خطوات منظمة ودقيقة.

أما وجه النقد الآخر الذي واجهته فيتمثل في أن مجموعات النقاش التأويلي تعمل على إحداث تحول في عملية الاكتشاف -أي تأويل المعنى بغرض ادعاء المعرفة- وهو تحول الباحثة أو الباحث إلى شخصين ليسا من المتخصصين في البحث، وهو ما أشارت إليه ليا عند حديثها عن وجود لحظة شهدت "تحول السلطة" في قاعة النقاش. وقد لاحظت - أنا - أنه بينما تلقى مناهج التشاركية النسوية بالقبول نظريا (على الأقل في أوساط كثير من الباحثات والباحثين الاجتماعيين) فإن مفهوم فتح مجال لحظات الوعي الفكري في المسار البحثي تعتبر أقرب إلى الممارسة غير المشروعة، فالمجال الأكاديمي يضفي قيمة كبيرة على "أصحاب الفكر الجديد"، فأولئك الذين يسارعون في استعراض المساحة الفكرية التي يشغلونها هم الأكثر نجاحا أكاديميا. فيتم تدريب طلاب الدراسات العليا على العثور على الأفكار الجديدة وامتلاكها بشكل صريح دون مشاركة مع الآخرين، بل مع التأكيد على الفردية الفكرية، إن لم يكن التفوق الفردي. كذلك فإن الباحثات والباحثين الاجتماعيين، سواء كانوا يعملون في الجامعات أم لا، يعلمون أن حصولهم على الدعم المستمر لجهودهم يرتبط ارتباطا وثيقا بهويتهم باعتبارهم خبراء متخصصين. فهي مجتمعات نخبوية تقوم -منذ زمن- على تعليم الحرص والتمسك بالملكية الفكرية وهوية الخبرة والتخصص، بينما نجد أن مقاربة مجموعة النقاش التأويلي تتعارض مع ذلك. فإننا وجدنا أن ما يفتح المجال أمام أفراد المجتمع في حمل المعرفة

ومشاركتنا في صياغة المعنى يتمثل تحديدا في طلب الحكمة من الآخرين مع الاعتراف بما لدينا من قصور والكشف عنه. كما تشير تجربتنا إلى أنه- مع ما تعكسه مجموعات النقاش التأويلي من مبادئ نظرية التشاركية النسوية، - يقوم هذا المنهج على مواجهة السلطات التقليدية في تأويل الظواهر الاجتماعية ويمكنه أن يساهم في إحداث تحول فيما يتصل بكيفية "معرفة" مجتمع ما.

ليا شمالزباور: ومع استمرار بحثي داخل مجتمع هندوراس عبر القوميات اتضحت لي أهمية توظيف المناهج التشاركية (participatory meth-ods)، عامة ومجموعات النقاش التأويلي خاصة. إن النقطة المنهجية التي تشير إليها ليسا تحديدا حين أثارت مسألة النقد الموجه إلى مجموعات النقاش التأويلي، أي "فتح مجال لحظات الوعي الفكري في المسار البحثي"، هي النقطة التي أرى أنها تجعل بحثي حيويًا ومهما - أي إن عملي المشترك وتوجيه "الآخرين" ممن لا يملكون مؤهلات البحث التقليدي هو الذي شكّل ما أقوم به من تحليل وتنظير تشكيلا بالغ الأهمية.

ويرى بعض الأكاديميين أن مجموعات النقاش التأويلي (IFGs: In-terpretive Focus Groups)، لا تختلف عن مجموعات النقاش التقليدية (traditional focus groups)، ولكنني أؤكد أنهما منهجان حقا مختلفان، فهما مختلفان اختلافا مهما من حيث نقل السلطة بجعل العمل المشترك عنصرا أساسيا في مسار البحث منذ بدايته، ومن حيث دمج أفراد المجتمع في هذا المسار باعتبارهم "خبراء" في مرحلة التأويل. وبالتالي أعتبر مجموعات النقاش التأويلي أداة مفيدة إن لم تكن ضرورية لتعزيز صحة التحليل ودقته عندما يضرب البحث بجذوره في المجتمعات المهمشة.

وسأظـل طوال حياتـي أكافح في تعاملي مع المـآزق المتصلة بالبحث الكيفي داخـل المجتمعات التي لا أستطيع الادعاء بانتمائي إليها، ولكني لا أرى هذا الكفاح سلبيا، إذ إن مد جذور عملي بحيث يكون متجذرا ومتأصلا في إطار نسوي تشاركي يضمن لي الإدراك الدائم لأوجه الضعف والعرضة للأذى والمجازفة الكامنة في عملي البحث، بما يفرض عليّ دوام المطاوعة ومتابعة علاقـات القوى والسلطـة. إن تناولي للمناهج التشاركيـة، وتحديدا منهج مجموعات النقاش التأويلي، سهل لي أيضا الالتزام بعمل مشترك متواصل مـع مجتمع المستجيبـات والمستجيبين. وإذا كنت قد انتهيـت من أطروحتي الجامعية فـإن العملية التي منحـت بحثي الدفعـة الأولى مستمرة، وعلاقة الشراكـة مع المجتمع الذي درسته هي علاقة تزداد قوة. وأنا أرى أنني لن أستطيع المشاركة في خلق معرفة جديدة في المستقبل دون تلك القاعدة القائمة على القوة والثقة – نحو معرفة نبعت من الهوامش لا من المركز.

ديبـورا بياتيللي: لقد وجـدت في أبحاثي أن الرغبـة في إقامة علاقة بحثية تشاركية ليست كافية لجعل الأمر حقيقة واقعة. فالمأزق الذي واجهته تمثّل في تجاوز جو عام من انعدام الثقة وعدم الراحة تجاه الأغراب، بالإضافة إلى القناعـة بأن البحث الأكاديمي لا علاقة لـه باحتياجات النشطاء، وهو المأزق الذي واجهته عند دخولي الميدان. فقد كافحت على مدى شهور قبل اكتسابـي الاحترام والثقة اللازمين؛ لإثبـات التزامي بإنتاج بحث مفيد يتم معهـم ولهم، لا مجرد كونه عنهم. وقد نجحت مجموعات النقاش التأويلي في إشـراك الكثيرين في البحث وتسليـط الضوء على طرق مهمة يمكن بها دمـج نتائج البحث في عملهم. وقد فتحت مجموعات النقاش التأويلي الباب أمـام بناء علاقات تشاركيـة، وتعزيز المزيد من الثقـة والقبول لوجودي داخـل الشبكـة. إن محاولة الحديث إلى مجتمع غـير راغب في الاشتراك

وإقناعه بالمشاركة في مشروع تشاركي، أو التوجه إلى الناس بطلب تأويل المادة هي محاولة كانت تبدو غير ملائمة، وبالتالي فمن خلال استثمار ساعات في أعمال تهمهم وفي التعامل مع أفراد المجتمع باعتبارهم هم حاملي المعرفة القيمة، أخذ هذا المشروع البحثي في التشكل ليصبح مشروعا تشاركيا. وقد وفرت مجموعات النقاش التأويلي سبيلا أمام الناس للتوقف أمام ما مروا به من مسارات وما يحملونه من قناعات، ولكي يقرروا بمحض إرادتهم مدى فائدة هذا البحث بالنسبة لهم وشكل تلك الفائدة.

وكما هو الحال بالنسبة لكل من ليا وليسا، فأنا أرى أيضا أن مجموعات النقاش التأويلي تثبت التجارب المعيشة وتعترف بأن المشاركين في عملنا البحثي هم من حاملي المعرفة. وعلى الرغم من أن مجموعات النقاش التأويلي تستنفد الكثير من الوقت، وكثيرا ما تقودنا إلى مساحات غير معلومة، فإنه منهج يوفر لنا قدرا أكبر من العمق والفهم لما نقوم به من جهد، كما يعزز وجود أساليب أقل تراتبية وطرق تشاركية لبناء المعرفة.

ولننتقل إلى مثال آخر لتوضيح كيف يمكن للنسويات توظيف مجموعات النقاش كوسيلة للوصول إلى المعرفة المستضعفة.

إن الحدث المحيط بمجموعة النقاش قد يكون أداة مفيدة للغاية في فهم تجربة القهر – وهي التجربة اليومية التي قد تبدو ثانوية بالنسبة للأفراد؛ وبالتالي قد تغيب جزئيا عن الأنظار أو الدراسة. فعلى سبيل المثال قد تظل التجربة اليومية المتعلقة بالعنصرية أو رهاب المثلية أو التحرش الجنسي تجارب غير مرئية بدرجة كبيرة بالنسبة لمن يتمتعون بامتيازات ثقافية في المجتمع، وبالتالي قد تتعرض التجارب اليومية والأفكار والمشاعر للكبت أو سرعة النسيان من قبل أبناء الأقليات ممن تعتبر تلك التجارب جزءا عاديا

متكـررا في حياتهم اليومية. وقد يؤدي ذلك "الغياب المـزدوج" إلى صعوبة الوصول إلى تلك المعرفة المهمة، إلا أن ذلك الحدث الجماعي قد يسمح للباحث أو الباحثة بالكشف عن شيء من تلك المعرفة المخفية. فحين تعبر عضوة من أعضاء المجموعة عن الصعوبة التـي تلقاها في العثور على كتاب لطفلها أو طفلتها يمثـل "أسرتهم البديلة" (مثل الأسرة المكونـة من أحد الوالدين فقط أو من والدين مثليـين)، فقد يشجع ذلك أفرادا آخرين في المجموعة ممن تعاملوا مع مسائل عديدة شبيهة بذلك على التعبير عنها إذ لم يتح لهم مسبقا مجال للربـط بين تلك المسائل أو ربما يكونون ببساطة سينسـون التطرق إليها. وهكذا فـإن ديناميكيـات تفاعل المجموعة قد تنتج مادة غنية للغايـة، ولكن يمكن للتفاعل داخل المجموعـة أن يتسم بالتعقيد، كما تلعـب اختيارات الباحث أو الباحثـة في إعداد البحث دورا مهما في مدى تحقيق المقابلة لأهداف الباحث أو الباحثة:

- كيف تتطور ديناميكية المجموعة؟
- ما اختيارات إعداد البحث التي تواجه الباحثات النسويات؟

لقـد شاع إطلاق مصطلح "الأثر الجماعي" علـى ديناميكيات المجموعة التي تتطور داخـل مجموعات النقاش (Carey 1994; Morgan 1996; Morgan & Krueger 1993). ويمكن للأثر الجماعي أن يأتي بنتائج إيجابية وسلبية، وبطرق أساسية بالنسبة للممارسـة النسوية تحديدا. فمن الجانب الإيجابي يمكن لديناميكيات المجموعة أن تؤدي إلى فتـح الحـوار حول موضوع صعب وإثـارة نقاش مهم وتحقيق الفهـم، بل وإثارة نقاش جدلي بين عدد من المشاركين والمشاركات، سواء من المتشابهين أو المتنوعين فيما بينهـم. فعلى سبيل المثـال وجدت فرانسيس مونتيـل (Frances Montell 1999) في ديناميكيات المجموعة أهمية محورية في نجاح دراستها حول النوع والجنسانية والوسائط الإعلامية. فقد أوجد الجو الجماعي مستوى من الراحة فيما يتصل بموضوعات شخصية بالغـة الخصوصية وذلك لعدم شعور أي من المشاركات بـأن كل الانتباه موجه نحوها فقـط. كذلك فإن التفاعل الجماعي أتاح المجـال لمواجهة بعض القناعات والافتراضات وبالتالي عدم اعتبارها طبيعية، وهو جانب مهم من جوانب البحث النسوي.

يمكــن للمشاركات والمشاركين مساعدة بعضهم البعض في التوصل إلى ما تعنيــه الأسئلة بالنسبة لهم، ويمكن للباحثة أو الباحث التوقف أمام كيف قد يسمع مشاركون مختلفون أسئلة قد تتسم بالغموض أو الالتباس. وهو أمر مهم عند دراسة الجنس والنوع نظرا لأن هذين الأمرين يتم التعامل معهما باعتبارهما مسألتين "طبيعيتين" إلى درجة وجود صعوبة بالغة في التعرف على ما يحمله المرء من مفاهيم مسبقة، وهو الأمر الذي يفوق في صعوبته مواجهة ما لدى الآخريــن من افتراضات مفروغ منها. إن توسيع نطاق الأدوار المتاحة للنساء في المقابلة الجماعية، بحيث يتجاوز الفصل الصارم بين "الطرف القائم بالمقابلــة" و"الطرف الخاضع للمقابلة"، يفسح المجال للتعامــل والتفاعل بما يؤدي في الغالــب إلى الكشف عن تلك الافتراضات المفروغ منها بل ومواجهتها. (Mortell 1999، p. 49)

وبينمــا يمكن لـ"الأثر الجماعي" أن يساعد في تيسير بناء المعرفة النسوية، فإنه أيضا قد يعرقله بجعل الهموم النسوية مرئية. وقد يقوم بعض أعضاء المجموعة أحيانا بإسكات آخرين من أعضاء المجموعة من خلال السيطرة على مسار الحوار أو جعله من الصعب علــى الآخرين التعبير عن آرائهم بيســر. وفي مجموعات النقاش التي يتمتع فيها بعض الأعضاء بموقعية الأغلبية بينما للبعض الآخر موقعية الأقلية، قد يحدث تكرار لعلاقات السيــادة الاجتماعيــة (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 214)، وهــو ما يحدث بسبــب ما يتــم عادة من "إســكات" (muted) أصوات الأقلية ضمــن الأغلبية (Kitz-inger 1994، p. 110). فعلى سبيل المثال ففي مجموعة نقاش تضم كلا من الرجال والنساء قد نجد ميل الرجال إلى السيطرة، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى إنتاج معرفة من موقع الفئة المتمتعة بالامتيازات، وهو مــا لا يتماشى مع النسوية. فالباحثات النسويات يتوقفن طويلا أمام تلك المسائل في مرحلة وضع خطط أبحاثهن، حيث تتوقف النسويات تحديدا لتأمل مسألة اختيار العينة، وتوحيد المعايير، وأدوار الباحثة باعتبارها ميسّرة.

مقاربات نسوية لإعداد خطة البحث

يشـير مفهـوم اختيـار عينـة البحـث (sampling) إلى مـن هم أعضـاء مجموعة النقاشـ الخاصة بالبحث. فمن المهم اختيـار الأشخاص من المهتمين بالموضوع، وتميل النسويـات إلى اختيار أفراد من المجموعات المهمشـة أو المستبعدة (marginalized or disenfranchised)، التـي قد تكون معتـادة على معايشة الظلـم الاجتماعي. وفيما بعـد اختيـار العينة يتعين على المـرء توحيد المعايير عبر المجموعـات، وهو قرار دقيق بالنسبـة للباحثات النسويـات. ويشير توحيد المعايـير (standardization) إلى ما إذا كان أفـراد المجموعة سيتسمـون بالتشابه أم عدم التشابه فيما بينهـم؟ فالمجموعات التي يتشابـه أعضاؤها من حيث سمات معينـة (مثل النوع أو الجنسانيـة أو اللون أو الطبقة الاجتماعيـة) هي مجموعات يطلـق عليها كونهـا متجانسـة (homogeneous)، أما المجموعـات التي لا يتشابـه أعضاؤها فيما بينهم فيطلق عليهـا كونها متباينة (hetero-geneous)، وهـي مجموعات تقدم مادة علمية حول كيفيـة استجابة نطاق متباين من الناس لموضوع معين. وبينما يوجد هنالك بالتأكيد مساحة لهذا النوع من خطط البحث، فـإن الباحثات النسويات هن الأقرب إلى اختيار المجموعات المتجانسة حيث تخلق أوجه الشبه بين أفراد المجموعة حالة من الراحة، وحيث يميل أعضاء المجموعة إلى الإفصاح عن سمات الانتماء للأقلية، وحيث تنال أصوات الأقلية الامتياز لا الإسكات. باختصار فإن التجانس يخدم ديناميكيات المجموعة بطريقة محورية ضرورية للبحث النسوي.

والتقسيـم إلى شرائح هـو استراتيجيـة شائعة تستخدمهـا النسويـات لتحقيق أقصى فوائـد التجانس في الوقت الذي يتم فيه دمج بعد مقـارن في المشروع البحث. والتقسيم إلى شرائـح (segmentation) يعنـي وجود عدد من مجموعـات النقاش في الدراسة الواحـدة، بحيث تتكون كل مجموعة نقاش من أعضاء متشابهين فيما بينهم، مع وجود اختـلاف عبر المجموعات. فعلى سبيل المثـال، في دراسة تتمركز حول قضايا النوع، وهـو ما يتمثـل في غالبية الأبحاث النسوية، قد نجد مجموعتـي نقاش مكونتين من نساء ومجموعتـين أخريـين مكونتين من رجـال، وذلك ضمـن إجمالي أربـع مجموعات

متجانسة تم تقسيمها إلى شرائح بناء على النوع. وهي آلية مهمة بالنسبة للباحثات النسويات لأنها تتيح لنا مقارنة المجموعات ذات الموقع المختلف داخل الثقافة الواحدة من حيث كيفية تفكيرها ومعايشتها لنطاق واسع من الموضوعات، بينما تقلل الخلل في موازين القوى إلى أدنى حد.

وأخيرا فإن الباحثات والباحثين يتبنون دورا معينا خلال مقابلات مجموعات النقاش، وهو دور "الميسرة أو الميسر". ويرتبط أسلوب التيسير بسؤال البحث، كما يتصل أيضا بالإطار النظري والموقع الإبستمولوجي للباحثة أو الباحث. وبالتالي تلعب النسوية دورا مهما في معدل التيسير المفروض في البحث. ويشير التيسير (modera- tion) إلى درجة التحكم التي يمارسها الطرف القائم بالمقابلة، وهو تحكم يتخذ عدة صور بما في ذلك توجيه دفة الحوار، وإتاحة مجال الحديث أمام الناس كما يريدون أو ضمان قيام كل شخص بالرد على سؤال معين، وتوحيد المعايير (من حيث مدى التزام كل مجموعة بنفس دليل المقابلة). إن الباحثات النسويات المهتمات بالتوصل إلى المعرفة المستضعفة الدفينة قد يملن إلى ممارسة معدل منخفض من التيسير حيث يتمتع المشاركون والمشاركات بتحكم أكبر في تركيز الحوار على موضوعات تهمهم وبلغتهم الخاصة وتبعا لإيقاعهم. إلا أن الباحثة النسوية القائمة ببحث تقييمي، بشأن برنامج جديد في التربية الجنسية أو برنامج للتدخل في العنف المنزلي، قد تختار درجة أعلى من التحكم وتوحيد المعايير لتحقيق درجة أكثر فاعلية في التعبئة لوضع البرامج التعليمية أو تغيير السياسات. ويمكننا أن نرى هنا كيف تلعب أسئلة البحث المعينة والإبستمولوجيا النسوية (مثل الموقعية أو الإمبيريقية) دورا في إعداد خطط مجموعات النقاش.

وختاما، فإن مجموعات النقاش هي واحدة من ثلاثة أشكال أساسية من أشكال المقابلات التي تستخدمها النسويات. وفي هذا الشكل المحدد من أشكال المقابلات يقوم عدد من المشاركين والمشاركات بإنتاج سردية متعددة الأصوات تفوق مجمل أجزائها. ومثلما تتنوع الإبستمولوجيات النسوية كذلك تتنوع أساليب توظيف النسويات لمجموعات النقاش عند دراسة نطاق متسع من القضايا الاجتماعية.

المراجع

Anderson, K., & Jack, D. C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.

Arat, Z. Kabasakal. (2003). Where to look for the truth: Memory and interpretation in assessing the impact of Turkish women's education. *Women's Studies International Forum, 6*(1), 57–68.

Borland, K. (1991). That's not what I said: Interpretive conflict in oral narrative research. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 63–75). New York: Routledge.

Brotherson, M. (1994). Interactive focus group interviewing: A qualitative research method in early intervention. *Topics in Early Childhood Special Education, 14*(1), 101–118.

Carey, M. (1994). Forms of interviewing. *Qualitative Health Research, 5*(4), 413–416.

Charmaz, K. (2000). Grounded theory: Objectivist and constructivist methods. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative methods* (pp. 509–535). Thousand Oaks, CA: Sage.

Chavez, Leo. (1998). *Shadowed lives: Undocumented immigrants in American society.* New York: Harcourt Brace.

Clark, Eileen. (1999). Getting at the truth in oral history. *Social Research and Social Change, 6,* 1–18.

Collins, Patricia Hill. (1990). *Black feminist thought: Knowledge, consciousness, and the politics of empowerment.* Boston: Unwin Hyman.

Dodson, Lisa. (1998). *Don't call us out of name: The untold lives of women and girls in poor America.* Boston: Beacon Press.

Dodson, Lisa, & Schmalzbauer, Leah. (2005). Poor mothers and habits of hiding: Participatory methods in poverty research. *Journal of Marriage and Family, 67,* 949–959.

Etter-Lewis, G. (1991). Black women's life stories: Reclaiming self in narrative texts. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 43–58). New York: Routledge.

Hesse-Biber, S. N. & Leavy, P. (2006). *The practice of qualitative research.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Heward, C. (1994). Academic snakes and merit ladders: Reconceptualising the glass ceiling. *Gender & Education, 6*(3), 249–262.

Kitzinger, J. (1994). The methodology of focus groups: The importance of interaction between research participants. *Sociology of Health & Illness, 16*(1), 103–121.

Lykes, M. Brinton, & Coquillon, Erzulie. (2006). Participatory and action research and feminisms: Towards transformative praxis. In Sharlene Nagy Hesse-Biber (Ed.), *Handbook of feminist research: Theory and praxis.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Matoesian, G., & Coldren, J. (2002). Language and bodily conduct in focus group evaluations of legal policy. *Discourse & Society, 13*(4), 469–493.

Minister, K. (1991). A feminist frame for the oral history interview. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 27–41). New York: Routledge.

Montell, F. (1999). Focus group interviews: A new feminist method. *NWSA Journal, 11*(1), 44–70.

Morgan, D. (1996). Focus groups. *Annual Review of Sociology, 22,* 129–152.

Morgan, D., & Krueger, R. (1993). When to use focus groups and why. In D. Morgan (Ed.), *Successful focus groups: Advancing the state of the art* (pp. 3–19). Newbury Park, CA: Sage.

Saidel, Rochelle G. (2004). *The Jewish women of Ravensbrück concentration camp.* Madison: University of Wisconsin Press.

Sangster, Joan. (1994). Telling our stories: Feminist debates and the use of oral history. *Women's History Review, 3,* 5–28.

Scanlon, Jennifer. (1993). Challenging the imbalances of power in feminist oral history: Developing a take-and-give methodology. *Women's Studies International Forum, 16*(6), 639–645.

Schneider, W. (2002). *. . . So they understand: Cultural issues in oral history.* Logan: Utah State University Press.

Slater, R. (2000). Using life histories to explore change: Women's urban struggles in Cape Town, South Africa. *Gender and Development, 8*(2), 38–46.

Sparkes, A. (1994). Self, silence, and invisibility as a beginning teacher: A life history of lesbian experience. *British Journal of Sociology of Education, 15*(1), 93–119.

Turnbull, Annmarie. (2000). Collaboration and censorship in the oral history interview. *International Journal of Research Methodology, 3*(1), 15–34.

Wilmsen, C. (2001). For the record: Editing and the production of meaning in oral history. *Oral History Review, 28*(1), 65–85.

الفصل السابع

ممارسة الإثنوجرافيا النسوية

إيلانا د. بوتش

كارين م. ستالر

إن مـن أوجـه صعوبة تعريـف الإثنوجرافيا النسوية هـو أن أشـكال الإثنوجرافيا النسوية تـكاد تتباين عند ممارستها بقدر تنوع الإثنوجرافيـات النسويات أنفسهن. ولا يعنـي ذلك أن أنواع الإثنوجرافيا النسوية لا تشترك في نواح كثيرة، وإنما المقصود أن أنـواع الكتابات الإثنوجرافية التي تقوم بها النسويات تعكس نطاقا واسعا من النظريات والأخلاقيـات النسوية المعروضة في أجـزاء أخرى من هذا الكتـاب. إن الإثنوجرافيا شكل مـن أشكال البحث يتسم بالمرونة ويعتمد علـى الاستجابة ورد الفعل، والتكرار، وهو ملائم للإجابة على كثير من الأسئلة التي تهم النسويات.

إن الإثنوجرافيا بمعناها العام هي شكل من أشكال البحث، يطرح أسئلة عن الممارسات الاجتماعيـة والثقافية لمجموعات بشرية. وتشير شيري أورتنر إلى أن "(الإثنوجرافيا) تعني -دوما بإيجاز وتصغير بالغ- محاولة فهم دنيا أخرى بواسطة الذات -بأكبر قدر ممكـن من الذات- باعتبارها هي أداة المعرفة" (Sherry Ortner 1995، p. 173). وهنالـك جزئيتان مهمتان في هذا التعريـف "الموجز المصغر" لمصطلـح الإثنوجرافيا، وتتمثـل الجزئيـة الأولى في "محاولة فهم دنيـا أخرى"، وبالتالي فـإن الإثنوجرافيين يدرسـون التجارب المعيشـة والأنشطة اليومية والسياق الاجتماعـي للحياة اليومية من

منظـور المدروسين من أجل تفهم دنياهـم. فالدراسات الإثنوجرافية تطرح فهما شاملا لحيـاة البشر اليومية، بما يعني أن الإثنوجرافيين يسعون إلى توصيف وتحليل الروابط المنهجة القائمة بين مجالات الحياة كالدين والاقتصاد والقرابة.

أمـا الجزئيـة الثانية فتتمثـل في أن الإثنوجرافيـين يكتسبون تلك المعرفـة "بواسطة الـذات- بأكبر قدر ممكن مـن الذات"، فهم يقومون بأبحاثهم عـن طريق الذهاب إلى البيئـات أو الأماكن الطبيعية حيث تتبدى الحيـاة وعن طريق الانغماس في تلك البيئات لفـترات زمنية طويلة للتوصـل إلى فهم لممارسات البشر الثقافيـة. ومن الأهداف التي يصبو إليها الإثنوجرافيون هو النظر إلى العالم بعيون غير مألوفة، وهو ما يعني أنه بدلا من إدراك أنشطة الحياة اليومية عبر الحدس فإن الإثنوجرافيين يرون حتى التصرفات والعقائـد والقناعات العاديـة الشائعة باعتبارها غير معتادة وجديـرة بالتحليل الواسع. باختصار فـإن "البحث الإثنوجرافي يهدف إلى الوصـول إلى فهم عميق لكيفية إدراك الأفراد في مختلـف الثقافات والمجموعات الثقافية لواقـع حياتهم" (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 230).

والإثنوجرافيا ملائمـة تماما لدراسة الحياة اليومية في المناطق المحلية، وذلك مع أن الإثنوجرافيين يقومون -مؤخرا- بتطويـر مناهج لدراسة المسارات العالمية والمترابطة في أماكـن متعددة. ومثلها مثل كل أشـكال البحث تتسم الإثنوجرافيـا أيضا بأوجه من القصور، فمن الصعـب القيام بتعميمات واسعة بناء على العمل الإثنوجرافي نظرا لأن الإثنوجرافيـا لا تستخدم عينـات عشوائية أو ممثلة، وإنما يمكـن الاستعانة بالدراسات الإثنوجرافيـة بشكل مقـارن للتعرف على ما هو مشترك وما هـو فريد في المجتمعات. ورغـم ما يقدمه الإثنوجرافيـون عادة من تفسيرات لأحـداث أو عمليات ما، فإنه من الصعب إثبـات علاقات السببية بالنسبـة لأحداث بعينها بواسطـة الإثنوجرافيا، وذلك لأنهـا لا تختـبر الدرجة التي تؤثر بها العوامل المختلفة علـى النتائج. كما أن الدراسات الإثنوجرافيـة تـكاد تكون مستحيلة التكـرار والتثبت من صحتهـا (verify)؛ لأن قدرا

كبيرا من العمل الإثنوجرافي يعتمد على التفاعل الشخصي بين الباحثة الإثنوجرافية والمجتمع الذي تدرسه.

ومع أن الإثنوجرافيا وثيقة الصلة بالأنثروبولوجيا، فإن الباحثين والباحثات قد استخدموا الإثنوجرافيا كثيرا في الأفرع المعرفية كعلم الاجتماع والعمل الاجتماعي والصحة العامة والدراسات النسائية والعلوم السياسية وعلم النفس والتمريض والتربية بل وحتى في مجال إدارة الأعمال. وقد وجد الباحثون والباحثات ممن يجمعون بين خلفية في العلوم الإنسانية وفي العلوم الاجتماعية أن الإثنوجرافيا مفيدة في جمع المعلومات عن الحياة الاجتماعية وتحليلها في كافة أرجاء العالم.

وعادة ما يمكن تتبع أصول المنهج الإثنوجرافي وإرجاعها إلى بدايات القرن العشرين عندما سعى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى فهم أساليب الحياة التي تختلف اختلافا بالغا عن أساليب حياتهم. إلا أننا نجد أن شولاميت رينهارز (Shu-lamit Reinharz 1992)، تقوم بتوثيق جهود النساء، مثل هارييت مارتينو، وأليس فليتشر، وهيلين ميريل ليند، وفيث ويليامز، وإسهاماتهن في بواكير العمل الميداني وأسس المنهج الإثنوجرافي. فقد كان لمناهج البحث الجديدة التي ابتكرتها هؤلاء النساء دور في التأكيد على أهمية ذهاب الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين فعلا إلى الميدان، كما اعتمدت تلك المناهج على عقد المقابلات وملاحظة السكان المحليين للتعرف على معتقداتهم وعاداتهم. ففي خضم الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة بقائه الشهيرة والممتدة في جزر تروبرياند (Trobriand Islands)، قام برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) بمزيد من التطوير لما يعتبر حاليا قاعدة الارتكاز في المنهج الإثنوجرافي، أي الملاحظة بالمشاركة (participant observation). وقد أكد مالينوفسكي على الآتي:

> إن طرح سؤال مباشر على أحد السكان المحليين عن عادة ما أو معتقد ما لا يؤدي أبدا إلى الكشف عن موقفهم الفكري بنفس الدقة التي تحققها مناقشة

الحقائـق المتصلة بالملاحظة المباشرة لعادة مـا أو حدث متكرر معين الذي يشـترك فيـه كلا الطرفين بشكل مادي ملموسـ. (cited in Stocking، 1983، p. 97).

وقد ارتبطت الإثنوجرافيا تقليديا بأهل الغرب المسافرين والمرتحلين للقيام بأبحاث في قرى صغيرة في أماكن بعيدة وغريبة مع بشر ينتمون إلى خلفيات مختلفة جدا عن الباحثة أو الباحـث الإثنوجرافيين. والإثنوجرافيون المحليـون (native ethnographers) يقومـون بأبحاثهـم في أماكـن مألوفة بالنسبة لهـم، وبالتالي فبينما كانـت الإثنوجرافيا التقليدية تسعى إلى وصف أساليب الحياة الغربية بحيث يعتبرها القراء الغربيون مألوفة، فإن الإثنوجرافيين المحليـين يعملون من أجل إزالة سمة الطبيعية عن الجوانب المفروغ منهـا في عالمهم الاجتماعي، مع الكشف عادة عن تفاعـلات القوى الخفية أو الأعراف الاجتماعيـة المشتركة. أما الإثنوجرافيـا الحضريـة (urban ethnography) فتقوم بدراسـة جوانب من الحيـاة الاجتماعية في المدن. وتسعـى الإثنوجرافيا متعددة المواقع والإثنوجرافيـا العالميـة (multisited and global ethnography) إلى وصـف كيفيـة ارتباط الناس في أماكن متعـددة فيما بينهم من خلال المسـارات العالمية. ويقوم الباحث أو الباحثة في الإثنوجرافيا النقدية و الإثنوجرافيا التطبيقية (critical ethnog- raphy and applied ethnography)، بتضمـين المجتمـع في البحث للمساعدة في حـل مشكلة ما أو تقييم سياسـة معينة. وطبقا لكل من روبـرت تروتر وجين شينسول فـإن الهدف الذي يصبو إليه الباحـث الإثنوجرافي التطبيقي هـو "القيام بالبحث بحيث يمكـن استخدام النتائج المترتبة علـى البحث في التدخل المباشر أو قد يؤدي إلى توصيات لتغيـير السياسـات" (Robert Trotter and Jean Schensul 2000، p. 691). أمـا في الإثنوجرافيا الذاتيـة (autoethnography) يقوم الباحث أو الباحثة باستخدام التجارب الذاتية المعيشة كمصدر أولي للمادة الإثنوجرافية.

وكثـيرا ما استعانـت الباحثـات النسويات في السبعينيـات والثمانينيـات من القرن العشريـن بمزايا علـم الإثنوجرافيا وغـيره من أشـكال البحث الكيفي لمـا تتمتع به من إمكانيات لصياغة فهم تأويلي ومتفاعـل ذاتيا (intersubjective) للحياة الاجتماعية. "إن المناقشـات المتصلـة بالمنهجية النسوية تهـدد عامة العلاقات التراتبيـة القائمة على الاستغـلال التي يتسم بهـا البحث التقليدي، إذ تدفع تلك المنهجيـة الباحثات النسوية إلى السعـي لتتبع مسار بحثي عادل يتسـم بالأصالة والعلاقة المتبادلـة والتفاعل الذاتي بين الباحثة والذوات الواردة في بحثها" (Stacey 1991، p. 112). والمعرفة القائمة على التفاعـل الذاتي (Intersubjective knowledge) هي تلك المعرفة التي تتم من خلال جهـد مشترك بين الباحثة ومن تتناولهم بالبحث، وهـي أشكال من المعرفة كانت تعتبر أكـثر التزاما بتوجهات النقد النسوي للمعرفة المبنية على الخبرة، وتعكس وتعزز سلطة النخبة الأكاديمية على الخاضعين للبحث والدراسة (Stacey 1991). وباعتبارها عملية تفاعليـة تعتـبر الإثنوجرافيا عـادة موفرة لوسيلة أكـثر عدالة في توليـد المعرفة والفهم مقارنـة بغيرهـا من مناهج البحث الأخـرى. وقد قامت الإثنوجرافيـات النسويات في مرحلة لاحقـة بتفنيد الفرضية القائلة بأن المناهج الإثنوجرافية تتسم -بالضرورة- بقدر أكـبر من العدالة والتفاعـل الذاتي، كما كشفن عن قدر أعمق مـن الوعي بكيفية التزام الإثنوجرافيـات النسويات بالحس تجاه قضايا السلطة والسيـادة في ممارساتهن البحثية (Patai 1991; Reinharz 1992; Stacey 1991).

إن ما يحول الإثنوجرافيا إلى إثنوجرافيا نسوية (feminist ethnography) يظل مسألة غير محسومة، وهي ما نراه فيما يلي:

> يوجـد نطاق من المقاربـات النسوية في علم الإثنوجرافيـا وذلك بناء على المنظـور التخصصي المعين والموقـف النظري والأهـداف السياسية لدى الباحثـة الإثنوجرافيـة النسويـة. وإن ما يوحد تلك المقاربـات هو وجود التزام عميق بفهـم قضايا النساء وهمومهن من منظورهن الشخصي، مع

الالتفات تحديدا للأنشطة و"مايدور" للنساء في زمان البحث ومكانه.
وقد قامت الجهود المبكرة للإثنوجرافيات النسويات بالكشف عن الكثير من الجوانب "الخفية" لأدوار النساء في السياق الإثنوجرافي. (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 237).

وهنالك ثلاث طرق أساسية يمكن بها تمييز الإثنوجرافيا النسوية (feminist ethnography)، عن غيرها من المقاربات الإثنوجرافية، إذ تتضمن الإثنوجرافيا النسوية مايلي:

- بحثًا إثنوجرافيًا يركز على حيوات النساء وأنشطتهن وتجاربهن.
- مناهج إثنوجرافية أو أساليب كتابة تقوم على النظريات والأخلاق النسوية.
- تحليلا إثنوجرافيًا يستخدم منظورا نظريا نسويا و/أو يوجه انتباها خاصا نحو التفاعل والتداخل بين مسألة النوع وغيره من أشكال السلطة والاختلاف

وفيما يلي نتوقف سريعا أمام بعض الأمثلة على كل مقاربة من المقاربات السابقة.

بحث إثنوجرافي يركز على حيوات النساء وأنشطتهن وتجاربهن

إن من أوائل الأبحاث الإثنوجرافية الأكاديمية التي تضمنت وصفا وتحليلا تفصيليا لأنشطة النساء هو كتاب أودري ريتشاردز عن "الأرض والعمل ونظام التغذية في شمال روديسيا" (Audrey I. Richards، Land، Labour and Diet in Northern Rhodesia 1939/1995). وقد كانت أودري ريتشاردز من بين طلاب مالينوفسكي، وتأتي دراستها لنظام الزراعة والتغذية لدى قبيلة بيمبا ضمن أولى الدراسات التي تقدم عرضا مفصلا لأعمال النساء ومسؤولياتهن المنزلية. كما قامت في دراسة لاحقة (Richards 1956) بتقديم إضافة لما ورد عن طقوس تكريس (initia-

tion)، الأولاد حين نشرت واحدة من أولى الدراسات الإثنوجرافية عن احتفالات تكريس البنات في تناولها بالوصف لاحتفالية "تشيسونجو" عند قبيلة بيمبا.

وفي كتابها "هل صرت نحيفة بالقدر الكافي؟" (Hesse-Biber، Am I Thin Enough Yet، 1996) تستخدم المؤلفة المناهج الإثنوجرافية لدراسة أثر المثال الثقافي للجسد الأنثوي على الفتيات والشابات. وترى المؤلفة أن "النحافة" ظاهرة (cult) تسود ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية، كما اتضح لها أنه يتم تعزيز مثال الجسد الأنثوي بواسطة التصورات والبنى الأبوية للنساء باعتبارهن أدوات ديكورية تجميلية، مدعومة بمصالح المؤسسات القائمة على أنظمة التغذية واللياقة البدنية. وتستخدم المؤلفة المقابلات الشخصية والبحث الإثنوجرافي في دراستها للنساء في المرحلة الجامعية لتوضيح أثر "ظاهرة النحافة" على حياتهن وللتوصية باستراتيجيات ممكنة لتحسين حيوات النساء.

مناهج إثنوجرافية وأساليب كتابة تقوم على النظريات والأخلاق النسوية

تقوم روث بيهار في دراستها الإثنوجرافية النسوية (Ruth Behar، Translated Woman، 1993)، الكلاسيكية والمثيرة للجدل بنسج قصة حياة إسبيرانزا، وهي بائعة متجولة مكسيكية، في خيوط متداخلة مع تجارب الباحثة نفسها باعتبارها امرأة مهاجرة وأكاديمية. ونجد أن المقاربة التي تنتهجها روث بيهار تجاه عملها الميداني مع إسبيرانزا، نوع الكتابة وأسلوبها الذي اختارته الباحثة يتسم بعمق الجانب الشخصي فيه كما يكشف عن الطرق التي تتشارك بها إسبيرانزا وروث بيهار في تجارب الغضب والسلطة والخلاص (redemption). إن قيام روث بيهار بتضمين حكايتها الشخصية يدعم الأجندة النسوية القائمة على هدم الحدود التحليلية الفاصلة بين تجارب النساء عبر استخدام كتابة تتسم بالتفاعل الذاتي الصريح.

وتستخدم بيلي إيسابيل (Billie Isabell 1995) شكل المسرحية الدرامية لنقل الحوار القائم بين نساء العائلة في وصفهن للتجارب المؤثرة الناجمة عن الهجرة من

قـرى الأنديز الصغيرة إلى مدينـة ليما في بيرو. وترى بيلي إيسابيـل أن استخدام هذا النوع من النص الحـواري لالتقاط أصوات النساء يعمل جزئيا على نقل سلطة التأويل من الباحثة الإثنوجرافية لتعود السلطة مرة أخرى إلى من تقوم هي بتوصيف حياتهن.

تحلـيل إثنوجـرافي يسـتخدم منظـورا نظريا نسـويا و/أو يوجه انتباها خاصـا نحو التفاعـل والتداخل بين مسألة النوع وغيره من أشكال السلطة والاختـلاف

قامت إلين ليوين (Ellen Lewin 1993) بدراسة تجارب الأمهات المثليات، وذلك لفهـم مدى تشابه أو اختلاف تجارب الأمومـة لديهن عن الأمهات الغيريات. وتعكس تلك الدراسة النظرية النسوية التي تعترف بأشكال السلطة والاختلاف القائمة بين النساء وفيما بينهن وكذلك بين النساء والرجال.

كما قامت بيريت هونداجنو-سوتيلو (Pirette Hondagneu-Sotelo 2001) بعقد مقابلات شخصية إثنوجرافية والملاحظة بالمشاركة مع خادمات المنازل من أصول أمريكية لاتينيـة في مدينـة لوس أنجلوس. فقد قامت بدراسة العلاقة المشـدودة بين النساء الغنيات اللاتي يقمن بتوظيف الخدمة المنزلية وبين نساء الطبقة العاملة اللاتي يعملن وأحيانا يعشن بينهـن. وتقدم الباحثة في هذه الدراسة وصفا وتحليلا تفصيليا لعلاقات اللون والطبقة فيما بين النساء وكذلك بين الخادمات من أصول أمريكية لاتينية والمجتمع الأوسع.

ونجد شولاميت رينهارتز، وهي من الرائدات في تناول المناهج النسوية في الأبحاث الاجتماعيـة، تقول الآتي بشأن الإثنوجرافيا النسويـة: "إن رأيي في هذا الموضوع هو أنـه لا يوجد تعريـف متفق عليه للنسوية، بل يوجد عدد كبير ممـن يطلقن على أنفسهن اسم النسويـات وممن يتبع بحثهن الإثنوجرافي تعريفهـن الشخصي للنسوية" (Rein-harz 1992، p. 74)، وقـد يكـون هذا في نهاية الأمر هو أفضـل طريقة للتفكير في

الإثنوجرافيـة النسوية والحكم عليها. فبـدلا من محاولة صياغة تعريف واحد أوحد من الأفضـل احتضان نطاق متنوع مـن المقاربات - فيمكننا بالتالي تقييـم الباحثة والبحث تبعـا لفهمنا كيـف تحدد الباحثة موقعهـا الشخصي وكيف تقوم بتضمـين آرائها النسوية في مقاربتهـا المنهجية. وتختم شولاميت رينهارتز قولها بـأن الإثنوجرافيا في حد ذاتها لا تكـون نسويـة وإنما "وجـود الإثنوجرافيا بين يدي النسويات هـو الذي يضفي على الإثنوجرافيا سمة النسوية" (Reinharz 1992، p. 48).

كيف يمكننا القيام ببحث إثنوجرافي نسوي؟

كمـا رأينا في الأمثلة السابقة فإن الإثنوجرافيا النسوية منهج مفتوح ومرن، إذ تقوم كل باحثـة إثنوجرافية بتوجيه اختياراتها المنهجية بمـا يعكس اهتماماتها النظرية والقيود المفروضـة علـى أسئلة البحث ومجاله الـذي تختاره. وعلى الرغم مـن تنوع الطرق التي يمكـن للمرء بها القيام بعمـل إثنوجرافي نسوي، فإن غالبيـة الباحثات والباحثين الإثنوجرافيـين يتبعـون نفسـ الخطـوات ويواجهـون خيـارات متشابهة علـى مدار مســار البحث الإثنوجرافي. ونقـوم في هذا الجزء بعرض الخطـوات التالية في العمل الإثنوجـرافي: اختيار مسألـة إثنوجرافية للبحث، اختيار ميـدان العمل، الوصول إلى الميـدان، اتخاذ القرارات بشأن الأدوار والعلاقـات، جمع المادة الإثنوجرافية، تحليل المادة الإثنوجرافية، كتابة التقارير الإثنوجرافية.

ولا يمكننا أن نجد فصلا في كتاب تعليمي يخبرنا بآلاف القرارات التي تواجه الباحثة أو الباحـث الإثنوجرافيـين؛ لأن تلك القرارات تتأثر في نهايـة الأمر بمواقفك النظرية والأخلاقيـة. ويمكـن للنظرية النسويـة أن تؤثر علـى أسئلة البحـث المختارة، وعلى طريقـة تعاملـك في العمل الميداني، والعلاقـات التي تنشأ بينك وبـين الناس الخاضعين للدراسـة، وعلى الأدوات التحليليـة المستخدمة في البحث لتفسير المـادة الإثنوجرافية،

وتحليلـك وتوصيفك النهائي. ويقـوم الإثنوجرافيـون والإثنوجرافيات على اختلافهم باستخـدام النظرية في مراحل مختلفة من العمل الإثنوجرافي، ومن هنا فإن هذا الفصل مـن الكتاب يهدف إلى مساعدتك على الاستعـداد للبحث الإثنوجرافي بتقديم الجو العام المحيط بالاختيارات والمشـاكل الشائعة والتي تواجهها غالبية الإثنوجرافيين، بالإضافة إلى الاستراتيجيات والآليات المتداولة في جمع الأدلة الإثنوجرافية وتحليلها.

ما المقصود بموضوع البحث الإثنوجرافي؟

إن كل مشـروع بحثـي ينطلق من سـؤال أو تساؤل أو أمر يثـير فضول الباحثة أو الباحث. وطبيعة السؤال وطريقـة صياغته تعتمد بالطبع على مادة الموضوع، وكثيرا ما لا يبدأ الباحثون بسؤال محدد ثابت، وإنما يميلون إلى الانطلاق من مجالات اهتمام متسعـة ومتداخلة. وهي مجالات قد تتضمن اهتماما بأنواع معينة من البشر أو الأماكن أو العـادات أو الممارسات أو التوجهات وما إلى غير ذلـك. فعلى سبيل المثال، اهتمت بيـث مونتيمورو (Beth Montemurro 2005) بالتغيرات في الأدوار لدى الجنسين والممارسـات الاجتماعية، وبالتالي قامت بدراسة ما يحدث حين يتم إشراك الرجال في احتفـالات "ليلة الحنة"، وهو طقسـ كان يقتصر تاريخيا على النسـاء. كما تهتم إيلانا بوتشـ (Elana Buch) بالطـرق التي تقوم بهـا التحولات في نظـام العمل والأسرة بالتأثـير على نساء الطبقة العاملـة، وبالتالي تقوم حاليا بإعداد دراسة عن النساء اللاتي يقمـن برعاية المسنين بمقابل مالي وذلك للتعرف على كيفية تأثير ذلك الشكل من أشكال العمـل على أسرهن وعلى أسر المسنين. ومن خلال مسار البحث الإثنوجرافي كثيرا ما تبـدأ تلك الموضوعات العامـة في فتح المجال أمام أسئلة بحـث أكثر تحديدا. وفي الواقع فـإن الباحثات والباحثـين كثيرا ما يستخدمون المناهـج الإثنوجرافية لوضع أسئلة بحث صالحـة، وبالتالي يمكـن استخدام البحث الإثنوجـرافي لتناول أوسـع وتطوير أفضل لأسئلة بحث تكون أكثر تنوعا ودقة وحساسية.

وكثـيرا ما تقوم النظرية بتوجيه اختيار الباحثـة أو الباحث بشأن موضوع البحث، فالخلفيـة النظرية للباحثة عادة ما توجهها لدراسة مجـالات معنية وطرح أسئلة بعينها. وعنـد تحديد موضوع البحـث تعتمد غالبية الباحثـات على النظريـة لمساعدتهن بشكل مباشـر أو غير مباشر على اتخاذ القرار بشأن مجالات الحيـاة الاجتماعية التي يرغبن في دراستهـا. ونجد أن النظريات الشخصية أو غير الرسمية بشأن مسار العالم تأتي في الغالب من واقع فهم الباحثة الإثنوجرافية لتجارب حياتها اليومية – أي حسها الشخصي وتقديرهـا للأمور. وهي نظريات عـادة ما تؤثر في كيفية اتخـاذ الباحثة الإثنوجرافية لقراراتهـا فيما يتعلق بجوانب الحياة الاجتماعية التـي تجذبها للقيام بدراستها على مدار فترة زمنيـة مطولة، وهي نظريات غير رسمية يمكـن أن تفيد في تحديد مشكلة البحث وتعريفها، وعلى الباحثة أن تتوقع لتجاربها الميدانية أن تتعارض مع الفرضيات الثقافية التي كثـيرا ما تكمـن وراء النظريات الشخصية غـير الرسمية. فالنظريـات الرسمية تقـدم تفسيرات أو تأويلات صريحة للعلاقـات القائمة بين مجالات الحياة الاجتماعية، وعــادة ما تأتي من خـلال أعمال الباحثات والباحثين الآخريـن، ولكن أحيانا ما يقوم الباحثـون والباحثـات بصياغـة مشكلات البحث بطـرق تسعى إلى مواجهـة أو صقل وتحسين النظريات الرسمية والإسهام في تطوير النظرية بالإضافة إلى تقديم المعلومات عن البشر أو الظواهـر التي لم يسبق دراستها. وهنالك باحثون آخرون يعتمدون على النظريـة الرسمية لاكتشاف مدى إمكانية تطبيقهـا على موقف ما معين، وعند ممارسة الإثنوجرافيـا التطبيقية يستخـدم الباحثون والباحثات النظرية بحيـث تساعدهم في فهم الظاهـرة الاجتماعية التي يدرسونها ولتوجيه تفكيرهم بشأن البرامج أو المداخلات التي قد تفيد من يعملون معهم. ونظرا لما تتضمنه الإثنوجرافيا عادة من عملية إعادة وتكرار (iterative process)، تؤدي المادة الإثنوجرافية فيها إلى جعل الباحثة تقوم بصقل أو إعادة صياغة أفكارها النظريـة فيكون من المفيد للباحثات الإثنوجرافيات دخول ميدان العمل محملات بوعي بالتنوع القائـم في النظريات الرسمية وغير الرسمية التي يمكنها أن تساعدهن على فهم ما يواجهنه في الميدان.

وتقوم النظريات النسوية في الغالب بتوجيه الباحثات الإثنوجرافيات نحو طرح أسئلة عـن سياق حيوات النساء، والطـرق التي تعايش وتقاوم بها النسـاء الأعراف المتعلقة بالنـوع، وكيفية انتظام الاختـلاف على مستوى النوع واللـون والطبقة والجنسانية. فعلـى سبيل المثال نجد أن كتاب إيميلي مارتن عن "المـرأة في الجسد" (Emily Martin 1992، The Woman in the Body)، متأثـر بالنظريـات النسويـة عن كيفية قيـام الخطاب الطبي الشعبي بتشكيل النـوع وصياغة الأفكار عن أجساد النساء. ويبين هـذا العمل الإثنوجرافي كيف تلتزم النساء وكيف يقومن الخطابات الطبية السائدة (التي يضعها الأطباء الذكور) والتي تعمل على إبعاد وتغريب أجساد النساء من خلال وصفها باعتبارها آلات إنجابية. وفي دراستها الإثنوجرافية لدورة تدريبية في الدفاع عن النفس قامـت كريستين دي ويلد بوضع إطار عام للدراسة باستخـدام "نظريات نسوية تركز علـى قوة وفاعلية النساء" مع استخدام منظور نسوي يساعدها على "استخلاص نتائج عـن البيانات والمادة العلمية (Kristine De Welde 2003، p. 248)، وبالتالي فإن منظور هـذه الباحثة النسوي أثر على كيفية إعدادها لخطـة البحث منذ بدايتها، ثم على كيفية قيامها في النهاية بتأويل مادة البحث.

ويحـدث أحيانا أن تواجـه الأفـكار والاهتمامـات النسوية بالمقاومـة في الأوساط الجامعيـة وتوضع في مرتبة أدنى من غيرها من الأبحاث الأكاديمية الجادة. وقد قامت فريدا فورمان بطرح أسئلة مهمة حـول "معنى الجسد الأنثوي وتجاربه بالنسبة للنساء المتقدمـات في السن -اليهوديـات في معظمهن- وذلك في سياق مجتمـع محب للشباب ويسوده الرجال" (Frida Furman 1997، p. 5)، وذلك من خلال دراستها لمركز تجميـل تتردد عليه غالبية من النساء اليهوديات المتقدمات في السن. وقد ذكرت الباحثة الآتي عن اهتمامها المبدئي بتلك الدراسة، قائلة:

> أتذكر حـين سألت إحدى الصديقات، وهـي أكاديمية مهتمة هي الأخرى بالعمل النسوي، "هل تعتبرينه على قدر كاف من الجدية؟" ومن الواضح أني كنـت قد استنبطـت القيم السائدة وكنـت أشعر بانزعـاج حيال نظرة

المؤسسة الأكاديمية لمثل ذلك النوع من العمل. وقد شجعتني صديقتي فقطعت أشواطا سريعة في العمل، ولكن ثبت أن تكهناتي لم تكن بلا أساس من الصحة، فسرعان ما اكتشفت أن دراسة تتناول مراكز التجميل التي تتردد عليها نساء يهوديات متقدمات في السن لم تكن بالدراسة التي تؤخذ مأخذ الجد من قبل الجميع، بل كانت بالنسبة للبعض موضوعا مسليا. فعلى سبيل المثال عندما رددت يوما على هاتفي المنزلي جاءتني كلمات أحد الزملاء قائلا: "هل هذا صالون فريدا فورمان للتجميل؟"... كذلك حين أخبرت أحد زملائي في علم الاجتماع بأن الدراسة أكد لي ضاحكا أنه يعرف كل شيء عن ذلك الجيل من النساء اليهوديات، مشيرا في ذلك بشكل غير مباشر إلى والدته. كما بدا لي زميل آخر من المتخصصين في علم الاجتماع مهتما بالموضوع ومشجعا، إلا أنه كان يضحك واصفا "الشعر الأزرق" على رأس النساء اليهوديات المتقدمات في السن، موحيا بأن نمط تصفيف الشعر لديهن -وبالتالي هن أنفسهن يعشن في "منعطف زمني". (Frida Furman 1997، p. 4)

وعلى الرغم من أن الإثنوجرافيات النسويات (كغيرهن من الباحثات النسويات) قد يتعرضن للمقاومة داخل المؤسسة الأكاديمية حول شرعية ما يقمن به من أبحاث، فإن النسويات يملن إلى الاتفاق على أن مثل تلك المقاومة إنما تشير إلى أهمية أبحاثهن وضرورتها، بدلا من أن تدفعهن إلى التراجع عنها. فهذه المقاومة قد تمثل في حد ذاتها مشكلة بحث إثنوجرافي مثيرة!

اختيار ميدان العمل

بمجرد أن تقرر الباحثة الإثنوجرافية المجال العام لدراستها يتعين عليها اتخاذ قرار بشأن المكان الذي ستتوجه إليه للدراسة والبحث. ويشير الميدان (field) إلى المجتمع أو

المؤسسة أو المكان الذي ستذهب إليه الباحثة لدراسة المسألة التي تهمها. فيمكن القيام بالعمل الميداني في حي حضري، وقرية ريفية، وصالون تجميل، ومحل للملابس، ومعسكر للمهجّرين، وما إلى غير ذلك. ويتشكل الميدان في الإثنوجرافيا متعددة المكان (multisited ethnography) من خلال تتبع كيف يمكن للعمليات التي تتم على نطاق واسع أو انتقال الأشياء عبر الأماكن أن تربط بين البشر في أماكن متنوعة. فعلى سبيل المثال استخدمت جانيت فين (Janet Finn 1998) مدخلا متعدد المكان لدراسة مشاركة النساء في النشاط العمالي في مناجم النحاس المملوكة لنفس الشركة في كل من مدينة بوت في مونتانا بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي مدينة تشوكويكاماتا في تشيلي. كذلك استخدمت راينا راب (Rayna Rapp 2000) نفس المدخل لدراسة كيف يؤدي استخدام التقنية الطبية المعروفة باسم الأمنيوسينتيسيز (اختبار السائل الأميني للجنين-amnio centesis) إلى وضع النساء في مساحة غير معروفة تتضمن موقفا أخلاقيا. وفي كل من الدراسات الإثنوجرافية متعددة المكان وأحادية المكان (single-sited) يكون الميدان مكانا طبيعيا يحتوي البشر والعمليات التي تهم الباحث أو الباحثة الإثنوجرافيان. فبدلا من إحضار البشر إلى أماكن محايدة كالمعامل تقوم الباحثة الإثنوجرافية بالانتقال إلى الأماكن التي يوجد فيها البشر الذين ترغب في دراستهم. وهكذا فمن أولى القرارات التي يتعين عليك اتخاذها كباحثة إثنوجرافية هو مكان البحث.

وهنالك عدة معايير قد تؤثر على اختيار الباحثة أو الباحث لميدان العمل، ومنها جوانب تتصل مباشرة بمجال البحث وتجيب على السؤال التالي: "أين لي أن أذهب لرؤية الظاهرة التي أهتم بها؟" فإذا أخذنا في الاعتبار اهتمام فريدا فورمان (Furman 1997)، بتجارب النساء مع التقدم في العمر في مجتمع يميل إلى عبادة الشباب، فقد كان من المنطقي جدا اختيار صالون تجميل تتردد عليه نساء متقدمات في السن كمكان تستهل به بحثها. وكذلك عندما حددت الباحثة الإثنوجرافية النسوية كريستين دي ويلد اهتمامها بمجال "تراث النسويات اللاتي يعدن تصور السلطة ويضعن فاعلية النساء

ومقاومتهن في المقدمة" (De Welde 2003، 249)، كان من المنطقي أن تختار ميدان عملها البحثي ليكون مكانا متخصصا في تدريب النساء على الدفاع عن النفس.

وترى شولاميت رينهارز أن الإثنوجرافيا النسوية هي الآتي:

> بحث تقوم به نسويات يركزن على قضايا النوع في تقاليد أنثوية متجانسة (female-homogeneous traditions) أو في أماكن غير تقليدية، وكذلك في أماكن غير متجانسة تقليدية وغير تقليدية. وفي الإثنوجرافيا النسوية تقوم النساء بالبحث، وتكون ميادين العمل أحيانا أماكن تخص النساء، وتكون المصادر الرئيسية للبحث من النساء. (Re-inharz 1992، p. 55).

وهكذا فإن اختيار الميدان يكون في كثير من الأحيان-ولكن ليس دائما- جزءا من المقاربة النسوية للمشروع الإثنوجرافي. ولنتوقف أمام الاختلافات بين ماريسا كورادو (Marisa Corrado 2002) التي قامت بدراسة أحد محال ملابس الزفاف، وبين دراسة مونتمورو (Montemurro 2005) التي تناولت حفلات ليلة الحنة. ويبدو في الظاهر أن كليهما تتماشيان مع توصيف شولاميت رينهارز لما أسمته "التقاليد الأنثوية المتجانسة" وأماكنها. ولكن ماريسا كورادو كانت مهتمة بكيفية تحكم البائعين والبائعات في سلوكيات الزبائن، فاختارت أحد محال فساتين الزفاف كميدان يمكنها فيه دراسة تلك "العملية الاجتماعية العامة" لأنها تقدم "مكان مبيعات غير مألوف"؛ وبالتالي موقعا فريدا يمكن فيه مشاهدة التعاملات بين الزبائن والبائعين. وتنفي ماريسا كورادو تحديدا وجود اهتمام لديها بدراسة "النوع في عمليات بيع فساتين الزفاف وشرائها"، فاختارت دراسة العمليات الاجتماعية العامة في هذا الصدد. وعلى النقيض من ذلك تتناول دراسة مونتمورو احتفالات ليلة حنة العروس تحديدا بغرض التوقف أمام مسألة النوع في هذا الطقس الاجتماعي، وقد اهتمت تحديدا بتزايد حضور الرجال ليلة حنة العروس للتعرف عما إذا كانت تلك الممارسة "مؤشرا على التلاقي بين الجنسين أو ما إذا كانت احتفالات ليلة حنة العروسين تعيد الأدوار التقليدية للجنسين" (Mon-

(temurro 2005، p. 7، فقامـت بدراسة إحدى التقاليد الأنثوية المتجانسة (ليلة حنة العروس) في مكان غير تقليدي (احتفالات ليلة الحنة بمشاركة الجنسين).

كذلـك هنالك عدة اعتبارات عملية تتضمنها عمليـة اختيار الميدان، فطبقا لشولاميت رينهارز "إن القيام بعمل إثنوجرافي مكثف كثيرا ما يتطلب القدرة على تعليق الالتزامات تجـاه الحياة الشخصية والعمل، ويتطلب السفـر أو تعريض النفس للمخاطر" -Rein) harz 1992، p. 73). ويتطلب القيام بالأبحاث الإثنوجرافية قدرا كبيرا من الوقت، يبلغ في أحيان كثيرة عـدة سنوات، كما تستدعي الملاحظة المباشرة، وبالتالي فإن توفر الوقـت والمال من الأمور العملية التي يجب أخذهـا في الاعتبار عند اتخاذ قرار اختيار الميـدان. ومن المسائل العملية المهمة الأخرى التمتع بالمهارات اللغوية لأن الإثنوجرافيا تعتمد بشدة علـى التعامل المتواصل بين الباحثة الإثنوجرافية وبين من تقوم بدراستهم، فمـن الصعب جدا القيـام بعمل ميداني بين بشر دون إجادة لغتهـم. ويمكن لبعد المسافة ومـدى توفر المواصلات ووسائل الانتقـال أن تكون من الاعتبارات العميلة المهمة عند اختيـار الميدان. كذلك فإن الموقعية والمكانـة الاجتماعية من الاعتبارات ذات الأهمية، كمـا تولي الإثنوجرافيات النسويات اهتماما بالغا بقضايا السلطة والاستغلال عند اختيار الميـدان (Nader 1988; Spivak 1988). ومن المهم التوقـف أمام هويتك الشخصية مـن حيث مدى تأثيرها على أنواع المعلومات التي يمكنك جميعها في ميدان عمل معين: فكيف يمكـن لطبقتك الاجتماعية أو نوعك أو لونك أن يؤثر في كيفية تعامل الناس معك في الميدان؟ وإلى أي مدى يمكن لوجودك في الميدان أن يسبب مشاكل لمن يعملون معك؟

ويجـب على كل باحثة أو باحث إثنوجرافي أخذ عامـل الأمان باعتباره من الأمور العمليـة والخطـيرة الجديرة بالاهتمام قبـل اختيار الميدان. وفي ذلـك تكتب شولاميت رينهارز قائلة:

> يتضمن الكثير من الكتابة الإثنوجرافيـة النسوية نقاشا صريحا مطاوعا حول تلـك المشـاكل، وخاصة التحرشـ الجنسي والخطر الجسـدي والتنميط على

أساس الجنس. ففي مجتمع منحاز لعناصر السن والجنس ويتسم بالغيرية الجنسية قد تجد الباحثة الشابة نفسها وقد تم تعريفها باعتبارها موضوعا جنسيا قابلا للغواية بواسطة الذكور الغيريين. (Reinharz 1992، p. 58)

وهكذا فإن الأمان النسبي لموقع ميدان العمل هو من الاعتبارات العقلانية والمهمة، ويمكن للأماكن التي تبدو آمنة أن تفتقد أحيانا إلى الأمان. وقد يختار الباحثون الإثنوجرافيون دراسة معسكرات اللاجئين بدلا من الحروب نظرا لأن المعسكرات أكثر أمانا. ولكن هنالك إثنوجرافيون آخرون قاموا بدراسة موضوعات عرضتهم للأذى، مثل ثقافات المخدرات، أو العصابات، أو الدعارة، أو الأوبئة. وعند تقييم كيفية تأثير عوامل الأمان على اختيارك للميدان فمن الأهمية التوقف أمام مدى توفر طرق أكثر أمانا لدراسة أسئلة البحث أو ما إذا كان الخطر جانبا كامنا في أسئلة البحث (مثل دراسة أحد الأمراض أو الحروب). ما مقدار المجازفة التي أنت على استعداد للتعرض لها مقابل المعرفة المكتسبة؟ وبصرف النظر عن توقعاتك بشأن مدى خطورة الميدان، فمن الأمور الجوهرية التفكير مسبقا في خطط احتياطية وطرق للخروج من الميدان في حالة تعرضك لعدم الأمان. كذلك من الأهمية التفكير في أنواع التدريب أو المعرفة المسبقة التي قد تعينك على البقاء في أمان داخل الميدان.

وباختصار فمن الأمور بالغة الأهمية للباحثة الإثنوجرافية اختيار الميدان بحرص شديد. فكري في كل مواقع الميادين الممكنة التي يمكنك أن تتصوري وجود تقاطعات فيها بين مجالات الحياة التي تثير اهتمامك، ثم اطرحي على نفسك الأسئلة التالية:

- من أنا؟
- كيف يمكنني القيام بالدراسة في أمان؟
- ما المجازفات الشخصية التي أنا على استعداد لها؟
- ما المزايا التي أفترضها عند التفكير في إمكانية وصولي للميدان؟
- كيف يمكنني أن أجيب بنجاح على أسئلة البحث؟

الوصول إلى الميدان

إن مجـرد اتخاذ الباحثة الإثنوجرافية قرارها بأن موقع ميدان ما هو المكان الأفضل لقيامهـا بالدراسة، لا يعني أنها تتمكن تلقائيا مـن الوصول إلى الميدان. إذ إن الوصول إلى داخـل الميـدان قد يكون أحيانا أصعـب وعملية تستغرق وقتا أكـثر مما هو متوقع. وتميز بروك هارينجتون بين مفاهيم الوصول والدخول والتواصل (access، entry، and rapport). فهـي تـرى أن "الوصول" يرتبط بـ" الأهـداف العلمية الاجتماعية للإثنوجرافيـا" وخاصـة إمكانية الوصـول إلى المعلومات. كما تشـير إلى أن الدخول يشير عامـة إلى "بداية دخول الميدان أو الحصول علـى موافقة المشاركات والمشاركين في البحـث علـى البـدء في الدراسـة" (Brooke Harrington 2003، p. 599). وأخـيرا يشير التواصـل إلى "نوعية العلاقـة نفسها بين الباحثـة والمشاركة، وعادة ما يتـم تشبيهه بالصداقـة" (Harrington 2003، p. 599). فعلـى سبيل المثال نجد أن جينيفـر لويس التي قامت بدراسة فريق تطوعي للبحـث والإنقاذ في الجبال تقدم وصفا لكل واحدة من تلك الأفـكار في الجزئية الخاصة بالمنهجية، وذلك رغم عدم استخدامها للمصطلحات التي توردها بروك هارينجتون. وقد بدأت جينيفر لويس عملية الوصول عـن طريق التطوع في مجموعـة البحث والإنقاذ، فكانت تحضـر "اجتماعين أسبوعيا عن العمل، وجلسة تدريـب أسبوعيا، وعدة ساعات من التفاعل الاجتماعي في البار، والقيـام ببعض المهام"، وذلك على مدار عـدة أشهر قبل قيامها بمفاتحة مجلس الإدارة بشـأن إمكانية قيامها بمشروع بحثي (Jennifer Lois 2001، p. 136). وقد حصلت بعدها على موافقة مجلس الإدارة وبالتالي أمكن لها دخول الميدان. وأخيرا، فقد قضت خمس سنوات ونصفًا في متابعة البحث والخروج في مهام إنقاذ بصحبة المتطوعين، بما جعلها تبني علاقة تواصـل معهم بمرور الوقت، وهي العلاقة التي ظلت تساعدها على تعميـق إمكانية الوصول إلى المعلومات. إن عملية الوصول إلى الميدان وإلى المعلومات هي عملية متعددة الملامح ومستمرة.

كذلك تصف لنا كريستين دي ويلد تجاربها في الوصول إلى موقع عملها الميداني، وهو دورة تدريبية للنساء في الدفاع عن النفس، وهي تجربة امتدت فترة زمنية وشهدت تطورا في علاقتها بمن كانوا في موقع الميدان:

> بدأ دخولي المكان مع بداية الدورة التدريبية في شهر يوليوعام 1998، ثم التحقت بالمدرسة كدارسة لرياضة فن الدفاع عن النفس. وكونت صداقة حميمة مع صاحبة المدرسة، إيلين، وكذلك بعضوات أخريات في المكان. وبعد حوالي سنة من حضور فصول التدريب بدأت في مساعدة إيلين في تنظيم دورات الدفاع عن النفس وذلك لأغراض شخصية وبحثية. وقد أتاح ارتباطي بالمدرسة سهولة المشاركة في فصول الدفاع عن النفس بما مكنني من انتهاز الفرصة للقيام بالبحث (opportunistic research: Reimer 1977). وعلى الرغم من وجود قائمة بدور المدربة المساعدة، والتي تأسست سابقا على يد عضوة أخرى من أعضاء المدرسة، وهي ماري، فإنه تعين عليّ إيجاد دور المدربة المساعدة الثانوية، وهو دور لم يكن له وجود من قبل. وقد جاء كوني امرأة ومشاركتي المسبقة في المدرسة بمثابة مزايا مكنتني من الوصول إلى المكان (Warren 1988) إذ إن الدورة قاصرة على النساء كما أنني كنت مندمجة في المدرسة مسبقا كدارسة. ومع تحولي إلى عضوة كاملة في المكان (Adler and Adler 1987، علت مكانتي كدارسة وكمعلمة. وقد أخذت أبني على تلك الأدوار في الوقت نفسه الذي كنت أعمل فيه على تقوية صداقتي بالمدرسة إيلين. (De Welde 2003، p. 252).

كثيرا ما تشير الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون إلى الأفراد الذين يملكون مراكز تجعلهم يمسكون بمفاتيح المكان، سواء كان هذا الإمساك بزمام الأمور رسميا أو غير رسمي داخل المكان، والذين يساعدون الباحثة أو الباحث على الوصول إلى البشر والمعلومات، فيطلق عليهم مسمى حراس الأبواب (gatekeepers). وفي دراسة

كريستين دي ويلد كانت -بلا شك- حارسة للأبواب. وقد نجحت الباحثة في العبور إلى داخل المكان عن طريق مصادقة إيلين وغيرها، ومن خلال تحولها إلى مشاركة كاملة في المكان، إلا أن حراس الأبواب يشاركون أحيانا في وظيفة حراسة الأبواب بما قد يستبعد أو يعوق الباحثات والباحثين بدلا من تسهيل وصولهم إلى المكان، إذ يمكنهم أن يتحدوا الباحثة أو الباحث في المشاركة في اختبارات أو استعراضات عامة ضمن محاولاتهم إيجاد طريق إلى داخل المجتمع، وهو الأمر الذي قد يؤدي في نهاية المطاف إما إلى إعاقة أو تيسير وصول الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين إلى الميدان. فعلى سبيل المثال تعرضت ألكسندرا ميرفي لاختبار على يد مدير نادي التعري (strip club) الذي كانت تقوم بدراسته، وهو ما تذكره فيما يلي:

> خلال تلك الزيارات المبدئية، كنت أشعر بالغرابة وعدم الراحة، وكأننى دخلت عالما خياليا نمطيا خاصًا بالرجال، حيث تدور مباراة لكرة القدم على شاشة تليفزيونية عملاقة ملاصقة للساحة المركزية؛ حيث تتراقص النساء عاريات الصدور حول عامود مليء بالمياه المتدفقة. وقد جاءت زيارتى الرابعة للمكان بمثابة نقطة تحول فى دراستى. ففى لحظة ما خلال ذلك المساء، اقترب منى بوب، مدير النادي، وطلب منى أن أجلس على كرسي أتى به من طاولة مجاورة. ووجدت أمامى امرأة شقراء لا ترتدى سوى ملابس داخلية سوداء، حاملة صينية عليها شراب مسكر فى كؤوس أقرب إلى أنابيب الاختبار الصغيرة، فسألنى بوب: "أي شراب تريدين: علاقة حميمة على الشاطئ؟" بينما أخذت أحاول فهم ما يجرى حولى. فأجبته قائلة: "علاقة حميمة على الشاطئ لا بأس بها"، غير واعية تمامًا بما تحويه إجابتى من إيحاءات. فإذا بالمرأة تحمل إحدى أنابيب الاختبار من الصينية وتصب محتوى الأنبوبة فى حلقها. وقد انحنت برأسها إلى الخلف، ثم عادت فانحنت إلى الأمام وطرف الأنبوبة ما زال فى فمها، ومالت علىّ لتدفع بالمشروب من طرف الأنبوبة

> الآخر رأسًا إلى حلقى عبر فمى. وسمعت تبادل الأمانى وأنا أبتلع جرعة المشروب ولم أعد حينها متفرجة على المشهد، بل كنت قد صرت جزءًا منه. وأدركت لاحقًا أهمية تلك الجرعة، فلو كنت قد رفضت تلقيها لكنت أعلنت موقفى الرافض لممارسات أعضاء تلك المجموعة التى كنت أحاول فهمها ودراستها. ومنذ ذلك المساء صرت أتمتع بحرية الحركة داخل النادى. (Alexandra Murphy 2003، p.332)

لا تقتصر جهود الوصول إلى الميدان على كونها قد تستهلك الكثير من الوقت بل قد تكون مزعجة أيضا، إذ إنها قد لا تؤدي أحيانا إلى دخول الميدان. فقد تثبت صعوبة الوصول إلى بعض المواقع، وأحيانا يكون ذلك لأسباب غير متوقعة. فعلى سبيل المثال ما زالت بوتش تواصل جهودها للعثور على طريقة للوصول إلى عاملي الرعاية الذين ترغب في دراستهم في المستقبل، ويرجع ذلك أساسا إلى سمة اللامركزية السائدة في هذا السياق الوظيفي وفي تردد مكاتب الرعاية في السماح للباحثات والباحثين بدراسة موظفيهم. وكثيرا ما يضطر الباحثون والباحثات إلى بذل جهد كبير لزرع الثقة لدى من يرغبون في دراستهم، حيث قد تكون دوافع ونوايا الباحثات والباحثين غير واضحة، كما تشتبه بعض المجتمعات في كون الباحثين الإثنوجرافيين يعملون جواسيس أو مصادر معلومات لأصحاب مصالح عليا. فعلى سبيل المثال من الأسباب التي قد تحول دون موافقة مكاتب الرعاية تلك على السماح لبوتش بدراسة العاملين التابعين لها هو قلقهم من قيامها بتقييم سلبي للعاملين والعاملات، أو الرعاية التي يوفرونها، أو العمل الإداري بتلك المكاتب. كما قد لا يرغب العاملون أنفسهم في التعاون مع بوتش خوفا من أن تقوم بالكشف عن ممارساتهم غير المقبولة وإخبار المشرفين عليهم بها بما قد يهددهم في وظائفهم.

ولتسهيل الوصول إلى الميدان يعتمد الباحثون الإثنوجرافيون أحيانا على حراس الأبواب من الأصدقاء أو الأقرباء أو غيرهم من المعارف ممن قد ييسرون الوصول إلى الميدان. إلا أن هنالك بعض المخاطر المتصلة بهذا الأسلوب، وهي مخاطر جديرة بإدراكها منذ البداية، فبينما تبدو الاستعانة بشخص من داخل الميدان وكأنها مسألة

توفـر الوقت والمشقـة، إلا أنها قد تخلق أنواعا أخرى من المشـاكل، فقد تزداد صعوبة الوصـول إلى أشخاص يحملـون وجهات نظر معارضــة إذا تم النظـر إلى الباحثة أو الباحــث باعتبارهمــا مقربين من شخص مــا. فعلى سبيل المثال حاولـت كارين ستولر (Karen Staller 2002) القيام بدراسة إثنوجرافية في إحدى وحدات الشرطة اعتمادا علــى "موافقة" من صديق يعمل شاويشا في الوحدة. ووحدات الشرطة، مثلها في ذلك مثـل الوحدات العسكرية وبعض جهات العمل الأخـرى، تتسم بالتراتبية الشديدة، فما حـدث في دراسة كارين ستولر هـو إحجام ضباط دوريات الشرطــة عن التعاون مع هــذا المشروع البحثي خوفا من رد فعل ملازم الوحدة الذي كان يحتل درجة أعلى من الشاويش الذي أتاح لها الوصول. وبالتالي فإن العمل من خلال شخص -من الداخل- ذي سلطــة ظاهرية مــا يتيح الوصول إلى داخــل الميدان لا يضمن في حــد ذاته إمكانية النجاح في القيام بالدراسة.

وتماشيا مع الاهتمــام النسوي بديناميكيات السلطة وتفاعلاتهــا، يتعين على الباحثة الإثنوجرافية دوما الوعــي بديناميكيات السلطة، بما في ذلك من علاقات رسمية وغير رسميــة قائمة فيما بين من ترغب في دراستهم. وبالطبع قـد لا يكون من الممكن التمتع بقدر متساوٍ من حيث الوصول إلى كل أعضاء المجتمع في كافة الظروف، فالدخول عن طريق مجموعة من اللاعبين الأساسيين في مؤسسة قد يؤدي إلى إعاقة أو الحيلولة دون الوصول إلى مجموعة أخرى من الأفراد لديهم معلومات مغايرة، وهو ما تبين في فشل كاريـن ستولر في الوصــول إلى ضباط دوريات الشرطة. ومــن هنا يجب أن تفكري جيـدا في كيفية الوصول إلى الميدان لأنه قد يؤثـر تأثيرا مباشرا في نوعية المعلومات (أو "البيانات") التي ستتوفـر للتحليل وبالتالي "النتائج" التي يمكن عرضها فيما بعد. فإن التباين في كيفية الوصــول إلى مستشفى، -إذ يتم عبر موظف إداري أو أحد الأطباء أو هيئة التمريض أو من مساعدي التمريض أو أحد أفراد الخدمة الاجتماعية أو من حرس المستشفــى أو أحد المرضــى- فمن المرجح أن تجدي نفسك أمام أنــواع متباينة تماما من

التجارب والتأويلات. وبينما ترغبين في الحصول على مختلف الرؤى فإن اختيارك نقطة دخول بعينها قد تؤدي إلى إعاقة أو تقليص إمكانية الوصول إلى أصحاب الرؤى الأخرى. ولذا فمن المفيد التوقف أمام مزايا وعيوب أساليب الدخول إلى ميدان عمل ما وإدراك القيود التي يفرضها ذلك على المعلومات والبيانات التي سيتم جمعها. كذلك يجب التعرف على العلاقات الاجتماعية الرسمية في المجتمع أو المؤسسة الخاضعة للدراسة والعلاقات غير الرسمية القائمة. باختصار، يجب عليك الوعي منذ البداية بأن الطريق المستخدم لدخول المجتمع يمكن أن يؤثر تأثيرا مباشرا في نوعية المعلومات التي سيتم جمعها خلال مسار عملك الميداني.

وتتضمن الأسئلة التي يجب طرحها قبل دخول الميدان ما يلي:

- ما علاقتي بالمجتمع؟
- ما الطريق الذي سأتبعه للوصول إلى الميدان؟
- ما مزايا ومخاطر الطريق الذي اخترته؟
- كيف للأساليب التي سأستخدمها في الوصول إلى الميدان أن تؤثر في المعلومات والبيانات التي سأتمكن من جمعها؟
- ما خطتي الاحتياطية في حال لم تمض الأمور تبعا للخطة أو في حال ما إذا وجدت نفسي في موقف يهدد أمني؟

الأدوار والعلاقات: الباحثة والمراقبة والمشاركة

من القرارات الأخرى التي يجب عليك اتخاذها هو القرار الخاص بدورك في المجتمع ومقدار تفاعلك معه. إذ يتعين على الباحثات والباحثين الإثنوجرافيين اتخاذ قرار بشأن نوع الدور الذي سيلعبونه، وذلك قبل شروعهم في البحث، وذلك على الرغم مما قد يطرأ على هذا الدور من تطور خلال الوقت الذي سيتم قضاؤه في الميدان.

وكما سبقت الإشارة، كان مالينوفسكي هو أول من صاغ مفهوم الملاحظة بالمشاركة (participant-observation)، وهـي المقاربـة الإثنوجرافية الأكثر استخداما رغم وجـود نطاق من الأدوار التي يمكن القيام بهـا في إطار هذه المقاربة. ومن معايير هذا التنوع القائم في الأدوار التي يمكن للباحثة أو الباحث الإثنوجرافي أداءها هو المعيار الذي يقيـس درجة اندماج الباحثة أو الباحث في الأنشطة اليومية للبشر والمؤسسات الخاضعة للبحـث. ويتم أحيانا وصف مختلـف أدوار الباحثة أو الباحـث (researcher roles) بمسميات الملاحظ الكامل (complete observer)، الملاحظ كمشارك (observer-as-participant)، المشارك كملاحظ (participant-as-observer)، والمشارك الكامل (complete participant) (Hesse-Biber & Leavy 2006، pp. 245-251)، وتجـدر الإشارة إلى أن ذلك يغطي نطاقا يبدأ من الملاحظ الكامل المنفصل عن، بالمشـارك الكامل المندمج تمامـا في المجتمع. ومن الوارد أن تعتمـد الاختيارات بشأن كيفية الموازنة بين المشاركة في مقابل الملاحظة على أسئلة البحث الخاصة بك من ناحية، وعلـى موقفك النظري مـن ناحية أخرى، وعلى ما يمكن تحقيقـه في الميدان من ناحية ثالثـة. والتوازن بين تلك الأدوار لن يتحقـق بنفس القدر في كافة المواقع أو في الإجابة علـى كافة الأسئلة. فعلى سبيل المثال نجـد الباحثة (Murphy 2003) في دراستها التي تتنـاول أندية التعري (strip club) وقـد اضطرت إلى المشاركة بقدر صغير لاكتساب الثقة، ولكنها ظلت في موقع الملاحظة (مع أن البعض قد يرى أنها "شاركت" باعتبارها من رعاة النادي). وعلى الجانب الآخر أصبحت الباحثة (Lois 2001) مشاركة كاملة في البحـث وفي فريق الإنقاذ. ويمكن القول بأن دور الباحثة (De Welde 2003) في دراستها عن دروس الدفـاع عن النفس قامت بدور يقع بين هذين الطرفين إذ أوجدت لنفسها دورا لم يكن قائما قبل مشاركتها.

وفي كثير من الأحيان يشهد دور الباحثة تطورا مع زيادة اقترابها وتآلفها مع ميدان العمـل، ومع تزايد ما تلقاه من قبول من جهـة مصادرها، فعلى سبيل المثال تغير دور الباحثـة (Corrado 2002) بمرور الوقت مع ازدياد تقاربها وتآلفها مع المجتمع. ففي

دراستها عن محل أزيـاء العروس كانت بدايتها كملاحظة كاملة، ولكن بمرور الوقت وتعرفها على الفاعلين الاجتماعيين وعلى مجال العمل التجاري نفسه شرعت في القيام بدور "المساعدة" لمديرتي المحل، فبدأت في القيام بمهام مثل "جلب وإعادة الفساتين التي يحتاجهـا العاملـون" (Corrado 2002، 38). وبقيامها بذلـك أصبح دورها بطبيعته أكـثر اتساما بالمشاركـة، إلا أنها لم تصبح قط موظفة تعمل كل الوقت في المحل الخاضع لدراستها، وبالتالي لم تبلغ مكانة "المشاركة الكاملة".

ويجدر التوقف أمام بُعد آخر للأدوار يتعلق بمستوى المشاركة، وهو الخاص بمدى كون الباحث أو الباحثة من داخل أو خارج (insider or outsider) المجتمع الخاضع للدراسة. وقد اختارت الباحثة (Murphy 2003) ألا تصبح واحدة من المتعريات أثناء دراستها لنادي التعري، وبالتالي ظلت باحثة من الخارج. أما الباحثتان (Lois 2001; De Welde 2003)، فقد أصبحتا من الداخل ولعبتا أدوارا فاعلة كل في المجتمع الذي تدرسـه. وكثيرا ما نجـد أن الاختيار الخاص بمدى كون الباحثـة من الداخل قد يحمل جوانب أخلاقيـة أو قانونية أو خلقية معقدة، فالتوقف أمـام مختلف اختيارات الأدوار والعلاقات يثير عددا من الأسئلة الشائكة: إذا أردت دراسة النساء بلا مأوى، فهل يجب أن تصبحـي أنت نفسك بلا مـأوى؟ وإذا كنت تدرسين العاملات متدنيات الأجور ممن يذهـبن إلى أعمالهن بوسائل المواصلات العامة، فهل يجـب عليك التخلي عن استخدام سيارتـك؟ وإذا كنت تدرسين استخدام المخدرات، فهـل يجب عليك تجربة المخدرات؟ إن اتخاذ تلك القرارات، مثل قرارك بشأن من تستعينين به للوصول إلى ميدان العمل الـذي ناقشناه أعلاه، هو أمر لـه بالطبع تأثيره المباشر على البيانـات والمعلومات التي سوف تتاح لك، وهو ما يتطلب موازنة البدائل بقدر من الحذر والحرص والتفكير.

والبعد الآخر الجدير بالتوقف أمامه هو ذلك المتعلق بسمات الباحثة نفسها والخصائص التـي قد ينسبهـا المجتمع إليها. وهكذا بينما قد تدخل الباحثـة الإثنوجرافية الميدان ولديها فكرة عامة عن الدور الذي تود أن تلعبه في المجتمع محل الدراسة، فإن أعضاء المجتمع أنفسهـم كثيرا ما تكون لديهم آراء أخرى حـول الأدوار الملائمة للباحثة. وحينما تقوم

امرأة بدور الباحثة ففي الغالب سيتوقع أعضاء المجتمع أن تقوم بأدوار شبيهة بتلك التي تقوم بها النساء في المجتمع، وهو ما قد يتضمن دور الابنة أو القائمة بالرعاية والعناية. وكما ورد في المناقشة أعلاه، فمن الشائع جدا أن تتعرض النساء غير المتزوجات القائمات بالعمل الميداني للملاحقات بعروض الزواج أو الرفقة أو العلاقات الجنسية. وكما يتضح مـن الأمثلة السابقة فإن قرار قبـول أو رفض الأدوار التي تجـد الباحثة الإثنوجرافية نفسهـا فيها قد يؤثر تأثيرا كبيرا في مدى وصول الباحثـة الإثنوجرافية للميدان ونوعية تواصلهـا مع المجتمع. كذلك لابد مـن توجيه الاهتمام الواعي نحو العمليات التي تتصل بقيـام المجتمع بوضـع الباحثة الإثنوجرافيـة في أدوار اجتماعية بعينهـا، إذ يمكن لتلك العمليـات الاجتماعية أن تسلط الضوء علـى الأدوار القائمة على أساس النوع وغيرها من الأدوار السائدة في حياة المجتمع.

وفي أثناء قيام الباحثة الإثنوجرافيـة بتناول والتعامل مع كل تلك القرارات الصعبة والمعقدة بشأن دورها في الميدان، نجدها تُواجَه بعدد من المسائل الأخلاقية بالغة الأهمية بـل والصعبـة في أحيـان كثيرة، وهــي مسائل تتعرض لهـا أثناء وجودهـا في الميدان (وبعـد تركه أيضا). ومن تلـك القضايا الأخلاقية ما يتعلق بمستـوى التدخل أو العون الـذي تكونــين على استعداد لتقديمه، فعلـى سبيل المثال إذا كان مــن تقومين بدراستهم يستخدمـون وسائل المواصلات العامة بشكل يومي للوصـول إلى أعمالهم، فهل يتعين عليـك عرض القيام بتوصيلهـم بسيارتك في يوم بارد يتساقط فيه الثلج؟ وماذا لو طلبوا هم منك أن توصليهم؟ إن هذا التدخل بما يبدو عليه من براءة هو تدخل يؤدي إلى تغيير بيئـة وتجارب من هم محل دراستـك. وماذا لو شهدت فعلا عنيفـا، كالعنف المنزلي، أو الإسـاءة إلى كبار السن، أو الإساءة إلى الأطفـال؟ أو ماذا لو كنت تدرسين عصابة من المراهقين تخطط للقيـام بنشاط إجرامي؟ فباعتبارك باحثة، هل يجب عليك التدخل باستدعاء الشرطة؟ أو الإبلاغ عن الحالة لسلطات رعاية الأطفال؟ أو اصطحاب الضحية إلى إحـدى دور الإيواء؟ أو تحذير الضحايا المستهدفين؟ ومـن المهم الوعي بالتداعيات القانونيـة والأخلاقية والبحثية التــي تترتب على كيفية إجابتك على هـذه الأسئلة. فعند

اختيـارك مثلا القيام بتوصيل شخص ممن تعملين معهـم، فإنك تقومين بإحداث تغيير في التجربــة محل الدراسة، ولكن هل هو تغيير كبير ومهم؟ إذا شهدت شكلا من أشكال الأذى فقـد تجدين نفسك مضطرة إلى الموازنة بين اتفـاق سرية المعلومات الذي أبرمته مع الأشخاص محل الدراسة، وبـين متطلبات الإبلاغ القانونية (والتي قد تنطبق أيضا على الباحثات والباحثين في مجالات الصحـة والتعليم والعمل الاجتماعي، وغيرها)، وبين موقفك الأخلاقي الشخصي.

ومن المعضلات الأخلاقية الأخرى ما قد ينجم عن العلاقات الشخصية الناشئة خلال فترة عملك الميـداني. ففي كثير من الأحيان نجد أن الأشخاص محل "الدراسة" ينسون أنهـم محل "البحث" الذي تقومين به. فعملية الوصـول إلى المجتمع لا تنتهي بالعلاقات المبدئيـة، إذ إن وجود الباحثـة الإثنوجرافية في الميدان لفترات زمنيـة طويلة وتعرفها باستمـرار على أشخاص جدد في مواقـف جديدة يحملها باستمـرار مسؤولية التعريف بنفسها وبمشروعها لكل من هم محل دراستها. فكم مرة عليها أن تذكرهم بذلك؟

إن دور الباحثـة في الميـدان يرتبـط دوما بـإدراك ووعي متواصـل بالأخلاقيات وبالممارســة الأخلاقيـة. وهي أمـور تحمل أهمية خاصــة للنسويات، وهو مـا تناقشه جوديث بريسل (Judith Preissle) بالإضافة إلى تجارب أخرى ترد في المقطع التالي من "ما وراء الستار".

ما وراء الستار مع جوديث بريسل

أوجه ندم إحدى دعاة تحرر النساء

لقد قالت ابنة أختي مرة إنها تحسدني على مرحلة شبابي – حركة الحقوق المدنيـة، وحركة الاحتجاج المناهضة للحرب، وحركة تحرير النساء. فقد رأت فيها فترة زمنية مثيرة وجوا من التضامن التقدمي. أما أنا فأرى كل

مــا تبقى لنا من عمل وأشعر بإحباط السعــي لتحقيق أهداف دائمة التغير. ومن تلك الأهــداف رؤى النسويات وتصوراتهــن لمجتمع يضيف الكثير للفتيات والنســاء، ورؤى الباحثات النسويــات وتصوراتهن لأخلاقيات البحث أي وجود إطار أخلاقي للقيام بما يصح في المجال البحثي. والنقطة الثانيــة هي المهمــة التي أصبحت شاغلــي الشاغل في السنــوات الأخيرة، وسأتوقف هنا لأتأمل المعضلات البحثية الأخلاقية من منظور علم أخلاق البحــث النسوي الآخــذ في التطور. وكما سأوضح لاحقــا فقد ندمت على بعضــ الاختيــارات التي قمت بها على مــر السنين، ولكنــي أعذر نفسي بإدراكي أن المثل العليا الآخذة في التطور ما كان لها أن تنشأ سوى بفضل تلك الخطا المضطربة والأخطاء في الحكم على مجريات الأمور.

فمــا أخلاقيات البحث النســوي؟ هي في رأيي أطر واعيــة لسبل اتخاذ القــرار الأخلاقي – أي الأطر التي تساعد في تحديد ما إذا كانت القرارات صحيحــة أم خاطئة مــن منطلق القيــم والمعايير النسويــة. ويتمثل الجزء الشائــك هنا في أنه مــن المرجح وجود أطــر أخلاقية نسويــة مختلفة بقدر تعــدد التوجهات النسوية. وبالنسبة لي يتضمن هذا الإطار العدالة للنساء، والعناية بالعلاقات الإنسانية، والالتزام بإيجاد الجانب السياسي في الأمر الشخصــي. إن أخلاق البحث النسوي لدي تطلــب مني التوقف أمام كل العناصــر في صياغتــي لأهداف البحــث، وفي الأدوار التــي أتخذها أثناء البحــث وكيفية قيامي به، وفي كيفية تمثيلــي للآخرين، وبخاصة النساء، في تقاريــري البحثية. إن الإطار الأخلاقــي يتطلب مني أن أتغير قبل أن أفترض إحداث تغيير لدى الآخرين. وقد خيبت أنا نفسي آمالي الشخصية في تحقيق تلك القواعد الأخلاقية كافة.

إن دراستــي في مرحلــة الدكتــوراه علــى مــدار 4 سنــوات في بداية السبعينيــات من القرن العشرين تركزت على دراسة علم الأنثروبولوجيا

وعلم التربية في جامعة إنديانا، مدعومة برئيستي لجنة الإشراف: دوروثي سكيل (Dorothy J. Skeel) المتخصصة في علوم التربية في الدراسات الاجتماعية، وجوديث فريدمان هانسن (Judith Friedman Hansen) المتخصصة في علم الأنثروبولوجيا. أما اجتهاداتي في القراءة الحرة فتمثلت في المقرر الأساسي لحركة تحرير النساء: الكاتبات فريدان (Friedan)، دي بوفوار (de Beauvoir)، جرير (Greer)، فايرستون (Fire-stone)، ومجلتي "ذا ويمنز روم" "حجرة النساء": (The Women's Room)، و"مز ماجازين" (Ms. Magazine). وباعتباري معلمة ومواطنة وفردا من أفراد أسرة، كنت أعلم موقعي وما أصبو إليه من قيم. ولكن باعتباري باحثة ناشئة، واجهت صعوبة في التوصل إلى كيفية دمج قيمي السياسية القوية في العمل البحثي الذي كنت أود أن يتسم بالتوازن والتفتح والتشكك. ومع إلحاح رفيقتي في السكن كارول هان (Carole Hahn) وهي متخصصة في علوم التربية والدراسة المقارنة في الدراسات الاجتماعية في جامعة إمروي، قمت مع جوديث بإعادة التفكير ومراجعة كيفية تمثيلنا للباحثات والباحثين، وذلك في مقال اشتركنا في كتابته في السبعينيات عن الآراء النظرية في أنثروبولوجيا التربية (Goetz & Hansen 1974). فبدلا من استخدام البدائل الجمعية الشاملة اعتمدنا في التعميم على صيغة الاسم المفرد العام (the anthropologist، the observer، and the educational researcher) [وهي صيغة غير محددة النوع من حيث التذكير والتأنيث في اللغة الإنجليزية] وأشرنا إليها جميعا بصيغة الضمائر المذكرة (he and him) مع ندرة استخدامنا لصيغة "هو أو هي" منثورة هنا وهناك لتطييب خاطرنا النسوي الناشئ. إنه أول أمر أندم عليه.

فمـا الجانـب الأخلاقـي في استخـدام الضمائـر؟ ونجـد أن "دليل نشر الجمعيـة الأمريكية لعلم النفس" يـرد فيه حاليا ما يلـي: "إن المعاملة العادلة للأفـراد والجماعات . . . تتطلب من المؤلفات والمؤلفين المشاركين بالنشر في إصدارات الجمعيـة أن يتجنبوا ترسيخ التوجهات والفرضيات غير الحيادية والمنحـازة عند الكتابة عن البشـر" (The Publication Manual of the American Psychological Association [APA] 2001، p. 61).

فتغيـير أنماط الكتابة استغرق الكثير من الوقت وتطلب كثيرا من الممارسة، ولكنـي أتوقـف الآن بقـدر أكـبر من الوعـي أمام كيفيـة قيامـي بتصوير المجموعـات والأفـراد، وكيف أكتب عـن الجنس والنوع وتقـديم النساء. ولكن تظل أولى كتاباتي في الأنثروبولوجيا والتربية قائمة أمام أعين طلبتي وزميلاتي وزملائي بما فيها من استخدامي المشين لصيغة المذكر.

عنـد انتهائي مـن إعـداد رسالة الدكتـوراه حول النظـام الاجتماعي والمعـاني المشتركة بين مجموعة من تلاميذ الفصـل الثالث الابتدائي وبين معلميهـم، وهي دراسة لم تتطرق إلى قضايا النوع، توقفت أمام الرسالة وتساءلـت عن كيفيـة إمكان مساهمـة عملي البحثي في خلـق عالم أفضل للنسـاء والفتيات. ولكـن ذاتي الباحثة، مثلها في ذلك مثـل ذاتي الكاتبة، كانت مستغرقة في عالم مـن الفرضيات والانحيازات المفروغ منها بشأن النـوع، وبالتـالي فإن "رؤيـة" تلك الأنماط هـي مسألـة استغرقت هي الأخـرى بعض الوقت والممارسـة. وكنت أقرأ كل ما أجـده من أدبيات حينـذاك تتناول الاختلافات بين الجنسين وأصولهـا. وأثناء إشرافي على مدرسي المرحلة الابتدائية خلال فترة التدريب قبل تعيينهم، وذلك في الحي الواقـع في إحدى الضواحي الحضرية حيث مقـر جامعتي، بدأت ألاحظ -"أرى"- أن الأطفال يتم تربيتهم على أن يكونوا "بنات" و"أولاد" من خلال التعامل فيما بينهم، ومع المعلمين وفي المدارس.

وفي نفس الوقت كنت أعد نفسي للشروع في أول دراسة إثنوجرافية أقوم بها في منطقة وسط الغرب الأمريكي (Midwest)، وذلك بدراسة تتناول السلوك الاجتماعي في فصلين من فصول السنة الأولى من المرحلة الابتدائية في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة مدارس ريفية حيث كنت أقوم بالعمل مشرفة. وهنالك جانبان أخلاقيان أندم عليهما مما حدث في أثناء قيامي بتلك الدراسة. فنتيجة لعرض قمت به للأبحاث والدراسات التي تتناول ثقافات أدوار الجنسين في المدارس، وهو العرض الذي أعددته من قراءاتي الواسعة (Goetz 1978) طلب مني أن أشارك بكتابة فصل عن ثقافة أدوار الجنسين بناء على أبحاثي وملاحظاتي. وقد تركزت همومي على الغرض من البحث وأداء البحث ودوره. فأولا كان لدي الكثير من الملاحظات -من المادة الإثنوجرافية، ومواقع الإشراف، والموقع الريفي الجديد- ولكن لم أحصل سوى على القليل من الموافقات على نشر المادة. فبسبب قيامي بجمع المادة من موقع وسط الغرب الأمريكي دون نية تحليلها من جانب أدوار الجنسين، أو ما نطلق عليه حاليا الأدوار على أساس النوع، وبسبب عدم وجود أية اتفاقات على قيامي بدراسة في مواقع عملي مشرفة، فقد كانت مسألة استبعاد تلك المادة قرارا أخلاقيا سهلا. وكنت بالطبع قد تأثرت بتلك التجارب، وخاصة فيما يتصل بما اتضح لي كتفرقة مبالغ فيها بين البنات والأولاد في ذلك الحي في ضاحية حضرية. وحين أتأمل الموقف من موقعي الحالي فلعلي كنت قد سعيت للحصول على موافقة للقيام بدراسة "تفضح" تلك الممارسات، ولكن الأنماط القائمة في الموقع الريفي، بعمقها وتعقيدها، بدت لي أكثر أهمية وتشويقا لتوثيقها، وكنت قد التزمت فعليا بالقيام بدراستي هناك.

وقد بـدت مسألة إعادة صياغة الأهداف تبعا لهـذا الموقع أمرا بسيطا، وكنـت قد حصلـت على موافقـة لدراسة ما تقـوم معلمـات السنة الأولى بتدريسـه، ومـا يتعلمه تلاميذ السنـة الأولى، وكيف يتـم وضع الأطفال وكيـف يقومون هم بوضع بعضهم البعض في إطار دور تلاميذ المدرسة. وقد كانت مديـرة المدرسة والمعلمات على علم باهتمامـي بتاريخ المدرسة وتركيبتها السكانية، وكانت جوانب اللون والطبقة الاقتصادية الاجتماعية والنوع جزءا من ذلك كله، ولكن مجال التركيز في البحث كان مفتوحا. وفي تلـك الفـترة كان نظـام المراجعـة المتخصصة للدراسـات والأبحاث من خـلال مجلس المراجعـة المؤسسيـة (IRB: institutional review board)، وهو ما نعتمـد عليه الآن عند اتخاذنا مثل تلك القرارات، كان نظاما في بداياته في جامعتي وكان المجلس مستغرقا في مرحلته التجريبية. ولا أعتقد أنني كنت حينها حتى قد سمعت عن مثل تلك المجالس.

فتمثلـت ورطتـي حينـذاك أولا في كم المعلومـات التي أعلنهـا لمديرة المدرسـة والمعلمات حول تحديد نطاق البحـث وتضييقه، وكانت المعضلة الثانيـة حول مـدى إشراكي لهن في موضوع البحـث. ومع سعيي لخلق تواصـل معهن ونجاحي في ذلك بما يتيح لي حرية الحديث بصراحة حول قضايـا اللـون والطبقة، تساءلت حـول مدى الصراحة التـي يمكنني بها الانتقال إلى موضوع الجنس؟ وقـد كنت أرى وقتها أنه يجب عليّ إخبار كل هـؤلاء النساء الـودودات أن الأطفال في مدارسهـن يبدون بحق أقل تعرضا لضغوط للقيام بأدوار على أساس الجنس مقارنة بتلاميذ المدارس في المناطـق المجاورة، وهـو أمر كنت أراه إيجابيـا، وسعيت للتأكيد على هذا النمـط. ولكني خشيت من هذا القدر مـن الصراحة. وتساءلت: ماذا لـو لم تكن تلك البيئة مقصودة؟ ماذا لو شعرن بالخديعة من أهداف البحث المبدئية الواسعة؟ ماذا لو وجدوا في تأويلي للموقع مجالا للاعتراض عليه؟

فتوقفت. وقامت واحدة من معلمات السنة الأولى عن قصد بجعل الأطفال يتساءلـون عن الأدوار التقليديـة للجنسين، أما المعلمـة الأخرى فلم تتبن موقفـا محددا. ولم أبـدأ في الكشف عن اهتمامي بهـذا الموضوع إلا قرب مرحلـة الانتهاء من العمل الميداني، وحين عرضت الدراستين اللتين قمت بهما عن ثقافة أدار الجنسين في المدرسة (Goetz 1981a، 1981b) لم تبد المعلمات ولا مديرة المدرسة إلا القليل من الاهتمام بالموضوع.

إن وجود غرض بحثي نسوي، أي استكشاف ما يتم في المدارس لتقييد البنـات والأولاد، بدا أمرا أكثر أهمية بالنسبـة لي مقارنة بأهميته لهؤلاء النسـاء الثلاث. كذلك فإن مفهومهن لتبادل الأدوار كان مختلفا تماما عن مفهومـي، فقد كانت لديهـن أهدافهن وأغراضهن في هـذا الصدد. أعتقد أنه كان مـن الممكن لي أن أكون أكثر صراحة منـذ البداية بشأن اهتمامي بتربيـة الأطفال لاكتساب أدوار تقليدية للجنسـين، ولكني أظن أن معلمة واحـدة فقط كانـت ستهتم بتتبع تلك النقطـة والتعاون معـي بشأنها. وأنا نادمـة على عدم أمانتـي وصراحتي وعلى أننـي لم أمنحها تلك الفرصة. وأعتقـد أنها ربما كانت ستجد في مجال اهتمامي هـذا دعما لموقفها. إن ما أراه الآن باعتباره مسألة أهمية الوضوح بشأن الأغراض والسعي للعمل المشترك والتعاون مع المشاركات في البحث هو من الدروس الصعبة التي تعلمتهـا باعتباري واحدة من دعاة تحرير النساء التي تحولت إلى نسوية. والأمر الأكـثر أهمية هو التأكيد من خلال تأملات كهذه كيف أن قناعاتي الأخلاقية النسوية كانت دوما متطورة وحيوية بدلا من أن تكون ساكنة، وأننـي أعتمـد في كل لحظة على ما أتعلمه من الممارسـة البحثية ومن غير مـن الباحثات والباحثين. إن أوجه النـدم يمكن أن تكون طريقنا لإدخال ممارستنا في حوار مع نظريتنا، وأن نتعلم تغيير كليهما.

جمع المادة الإثنوجرافية

عنـد القيام بـــ "الملاحظة بالمشاركــة" تنخرط الباحثــة في الحياة اليوميــة لمن تقوم بدراستهم، بينما تقوم في نفس الوقت بملاحظة التفاصيل الخاصة بالتفاعلات والأنماط الاجتماعية التي تقابلها. وعادة ما يجمع الباحثون الإثنوجرافيون بين الملاحظة بالمشاركة وبين المقابلات الشخصية (interviews) والمنتجات الاجتماعية (social artifacts)، وذلك للتعــرف على ما يقوله النــاس والوثائق التي ينتجونهــا ومقارنتها بالطرق التي يتصرفــون ويتحدثون بها في بيئاتهم الطبيعية. وباختصــار فإن الإثنوجرافيين يميلون -علــى الأرجح- إلى الاعتماد على ثلاثة أشكال رئيسية من الأدلة الإمبيريقية. أولها: الحديث الإثنوجــرافي (ethnographic talking) مع المصــادر (informants) أو الناس الموجودين في الميدان. ويمكن القيام بجمع المادة عبر الحديث مع الناس من خلال المقابــلات الشخصية المنظمة، ولكنها تتضمن -على الأرجح- حوارات غير رسمية تتم أثنــاء وجود الباحثــة أو الباحث الإثنوجرافيــين في الميدان. وعادة مــا تعتمد الباحثات والباحثــون الإثنوجرافيــون على بعضــ المصــادر الرئيسية في الميدان ممــن يقدمون معلومــات مهمة، ولكنهم نادرا ما يقتصرون على المعلومــات التي يحصلون عليها من هؤلاء الأفــراد. والباحثات والباحثــون الإثنوجرافيون ملاحظــون دقيقون للأماكن الاجتماعيــة، فهم يراقبون كيفية قيام الناس بأمور حياتهم اليومية وكيف يتعاملون فيما بينهــم، من خلال جمــع الملاحظــات (observations). وهم يفعلــون ذلك عادة من خلال مشاهدة الأنشطة اليومية بالإضافة إلى الطقوس والمناسبات الخاصة ذات الأهمية والدلالــة المعينة. أما الشكل الثالث من أشــكال الأدلة الإمبيريقية هو المنتج الاجتماعي، والمنتجــات الاجتماعية هــي الأشياء التي تنتج عن البشر مثــل الوثائق والصور وقوائم المشتريات واليوميات.

ويستخــدم معظــم الباحثــات والباحثــين الإثنوجرافيــين توليفــة كبيرة مــن الأدلة الإمبيريقيــة، فعلى سبيل المثال قضــت الباحثــة (Corrado 2002) ساعات طويلة في

ملاحظة التعاملات بين الباعة في محل أزياء العروس وبين العرائس والمخطوبين ووصيفات العروس والأمهات وغيرهم في محل واحد من محال أزياء العروس. كما قامت الباحثة أيضا بعقد مقابلات شخصية رسمية شبه محكمة البناء مع مساعدات المبيعات، كما زارت خمسة محال أخرى شبيهة في منطقة البحث باعتبارها زبونة، واستعانت بالمصادر الثانوية مثل مجلات العروس وأشرطة الفيديو وتعليقات لوحة الأخبار الإلكترونية، والتي ساهمت جميعها في فهم تجارب الناس في مجال أزياء العروس. كما قضت الباحثة (Lois 2001) خمس سنوات ونصف السنة متطوعة ضمن فريق إنقاذ جبلي كانت تقوم بدراسته، وقامت بتسجيل ملاحظات ميدانية (field notes)، مفصلة عن تجاربها، بالإضافة إلى جمع بطاقات شكر من الضحايا، وكذلك القيام بمقابلات معمقة مع أعضاء فريق الإنقاذ. وعقدت الباحثة (Martin 1992) مقابلات شخصية مع نساء في منطقة بالتيمور، ثم قامت بتحليل نصي للعديد من الوثائق بما في ذلك كتب دراسية طبية، ومقالات بحثية متخصصة، وكتب رائجة عن صحة النساء الإنجابية. وإلى جانب ما قامت به الباحثة (Furman 1997) من الملاحظة بالمشاركة المكثفة في مركز تجميل تتردد عليه نساء يهوديات متقدمات في السن، استخدمت الباحثة أيضا الاستنباط من الصور الفوتوغرافية كأداة بحثية؛ لأنها اكتشفت "أن الطلب من النساء تأمل التجاعيد على وجوههن وغيرها من علامات التقدم في العمر مسألة فيها تطفل وترهيب"، فطلبت منهن اختيار صور لهن من مرحلة الشباب ومنتصف العمر والفترة الحالية، ثم سألتهن عن حياتهن وعن ما يرينه بشأن مظهرهن، وأشارت قائلة: "بالتعامل مع الصورة الفوتوغرافية باعتبارها نوعا من المنتجات تمكنت المشاركات في البحث من وضع مسافة بينهن وبين الصورة مما قلل لديهن من الشعور الواعي بالذات" (Furman 1997، p. 10).

إن أنواع الأدلة الإثنوجرافية اللازمة لمشروعك ستعتمد بقدر كبير على مشكلة وأسئلة بحثك. وكثيرا ما تجد الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون أنفسهم في أماكن غير متوقعة، أو يجدون أنفسهم يجمعون أنواعا غير متوقعة من المعلومات أثناء تعرفهم على

صـلات وإمكانيات جديدة في موقعهم الميداني. ومـن المهم التفكير بشكل متسع وخلاق عـن الطرق التي يمكنـك الحصول بها على الأدلة، ونوعيـة الوثائق أو الملاحظات أو المقابلات التي يمكن اعتبارها معلومات تجيب على أسئلتك.

وبينمـا يتم الحصول على الأدلة الإثنوجرافية الأوليـة من خلال الحديث مع الناس وملاحظتهـم، فمن المهـم أن تخضع تلـك الأدلـة الإثنوجرافية للجمـع والحفظ المنظم والدقيق. وهكذا تعتمـد الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون علـى الملاحظات الميدانية للحفـاظ على ملاحظاتهم يومـا بيوم. ويجب تدوين الملاحظـات الميدانية بأسرع وقت ممكـن بعـد انقضاء التجربة، فيجـب أن تكون الأحـداث حاضرة في ذهـن الباحثة أو الباحـث الإثنوجرافيين. وهو أمر صحيح حقا؛ لأن التحليل والكتابة الإثنوجرافية تعتمد علـى الوصف الواضح والمفصل للحياة اليومية، وهـي التفاصيل التي يسهل نسيانها في حالة عدم تدوينها الفوري.

وعادة ما يتم كتابة الملاحظات الميدانية ضمن عملية تتم على مرحلتين. فأثناء الوجود في الميدان يقوم الكثير مـن الباحثين والباحثات بكتابة نقاط سريعة موجزة (jottings) في مفكـرة أو كراسة صغيرة أو على وريقات متناثرة؛ لمساعدتهم على تذكر كلام فريد أو تفاعلات يقومون- لاحقا- بوصفها وتوضيحها في الملاحظات الميدانية. وتساعد كتابة النقاط الموجزة الباحثة أو الباحث على تسجيل التجارب الميدانية حين حدوثها وبأسلوب دقيـق. وكثيرا ما قـد لا تتضح أهمية حوار معين أو حدث ما عند لحظة حدوثه، وقد لا تتضح أهميته إلا خـلال عملية مراجعة التجربة الميدانية بأكملها. وهكذا فإن الملاحظات الميدانية تقدم سجلا زمنيا شاملا يحمل رأي الباحثة أو الباحث في كل ما حدث في الميدان، ويمكن أن تكون كتابتها مرهقة للغاية كما لا تتضح أحيانا الأمور الجديدة بالتركيز فيها. وعادة ما تقضي الباحثات والباحثون يوما طويلا في الميدان ثم يعودون لقضاء ساعات أخرى من الليل في كتابة كل ما حدث أثناء النهار.

ويمكن للملاحظات الميدانية أن تكون وصفية أو تحليلية. فقد تقوم بتسجيل ملاحظات الباحثة أو الباحث (من كان موجودا، ماذا كانوا يرتدون؟ماذا حدث؟) أو قد تتضمن أيضا بعض التأويلات أو الفرضيات أو التوقعات عما يحدث. وقد تبدأ الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيان بتدوين تأويلات مبدئية (ربما فرضيات أولية) بعد قضاء يوم في الميدان، ولكنها قد تتغير بمرور الوقت. وهكذا فإن عملية التحليل الإثنوجرافي تبدأ على الفور وتظل متواصلة. كذلك فإن الباحث أو الباحثة الجيدين سيظلان يتحديان تأويلاتهما هما نفسيهما مع انقضاء مزيد من الوقت في الميدان.

فعلى سبيل المثال تدون الباحثة (Murphy 2003) الآتي في ملاحظاتها الميدانية عن نادي التعري:

مباراة في كرة القدم على شاشة تليفزيون كبيرة وأمامها سلويت لامرأة نصف عارية تتراقص أمام صف من رجال يهتفون. تتجول النادلات في أرجاء النادي مرتديات ملابس داخلية من الدانتيلا البيضاء لا تغطي سوى منطقة العورة من الأمام. تسألني إحداهن عما أريد تناوله من شراب. اسمها إيلونا وتتحدث بلكنة إسبانية خفيفة. مبلغ 4.50 دولار ثمن "ميللر لايت"! "ضع الأخضر في المشهد" عبارة أسمعها بصوت مكبر يعلو فوق صوت مادونا وهي تغني أغنية "لايك أ فيرجين" (كالعذراء). "هيا أيها **السادة، فهؤلاء النساء لا يحصلن على راتب من هذه المؤسسة، بل يعتمدن على كرمكم فيما تدفعونه من بقشيش!"** ومع ما يتعرض له الزبائن من إثارة بصرية إلا أنهم يخضعون لسيطرة الصوت. تقوم راقصة برقصة على الطاولة لرجل جالس إلى جواري. يجلس وحيدا. واسمها هي "ملكة بولينيزيا". في هذه الحجرة المظلمة الممتلئة بالدخان يمكنه أن يدعي أنه ملكها. نهداها يبدوان مستديرين بدرجة مبالغ فيها. هل هما طبيعيان؟ لا يبدو عليه الاهتمام بهذا الأمر. يراقب جسدها متراقصا على إيقاع أغنية جانيت جاكسون "ناستي جيرل" (فتاة سيئة). تميل إلى الأمام وتضغط نهديها المتلاصقين في وجهه. تنحني إلى الأسفل وتضع رأسها في حجره. شعرها يغطي الشيء الذي لا تفعله – فيما

يبـدو كما لو كان ممارسة جنسية. تستدير. تنحني مـرة أخرى مولية ظهرها للرجل. هذه المرة أرى وجهها. تبدو غير مهتمة بالأمر. يبدو هو مبهورا. تبهرني قدرتها على المشـي مرتديـة كعبا طوله 4 بوصات. يعلـو صوت إيقاع الموسيقـى فيهتز لها الكرسي الذي أجلسـ عليه. "مرحبا في الدمى الورقية" إعلان علـى اللوحة في المدخل. "أكثر العروض إثارة على وجه الأرض." (Murphy 2003، p. 306)

إذ تكتـب الباحثة تلك الملاحظات فإنها تقـوم بوصف كبير لما تلاحظه، فنحصل على إحساسـ بما يمس حواس الرؤية والسمع في المكان. وتجدر الملاحظة أن الباحثة تسجل هنا ملاحظات واقعية، مثل ثمن علبة مشروب "ميلر لايت"، ولكن باستخدامها علامة التعجب تسجل أيضا تأويلها ورأيها وردود فعلها لهذا الثمن. وتجدر ملاحظة ما أضافته إلى تأويلهـا بـأن الزبائن يتعرضـون "لإثارة بصريـة" ولكنهم "يخضعـون لسيطرة الصوت" فتعبر عن سيطرة الصوت باستخدام خط بارز في ملاحظاتها الميدانية. كذلك فلنلحظ كيف تقدم تأويلا لردود أفعال ثلاثة أفراد مختلفين في نفس اللحظة، إذ تكتب أن الراقصـة "تبدو غير مهتمة" والزبون "منبهـر"، وتشير إلى الفكرة التي خطرت على بالها عن المهارة اللازمة للمشي "مرتدية كعبا طوله 4 بوصات."

وتستعـين الباحثات والباحثـون الإثنوجرافيون بالملاحظات الميدانيـة أيضا في تأمل مواقفهـم الشخصية في الميدان، وهو ما قـد يتضمن التوصيف والقيـام بالتحليل المبدئي بشأن كيفية تأثير المنهج المستخدم في الوصول والتواصل في الميدان على تجارب الباحثة والباحـث. ويمكن للملاحظات الميدانية كذلـك أن تسجل الأدوار التي تم وضع الباحثة فيهـا أو تلك التي اختارت القيام بها في الميدان، وكيفية تأثير ذلك على أنواع التفاعلات والتعامـلات التي تستطيـع ملاحظتها والمشاركة فيها. إن هذا النـوع من التأمل لسلطة الباحثة وموقفها وتأثيرها على الميدان يعرف بمصطلح المطاوعة (reflexivity). فعلى سبيـل المثال نجـد أن الباحثة (Furman 1997) في دراستهـا للنساء المتقدمات في السن وثقافة مراكز التجميل تقوم بتسجيل ما يلي في ملاحظاتها الميدانية:

> ما مصدر الأمان هناك؟ هنالك شيء ما بخصوص ثقافة التسوق التي تذكرني بطفولتي من حيث بعض اللحظات الإيجابية - الوقت في صحبة الجدات والخالات والعمات؟ ما مصدر الراحة والرضا في الحديث عن التخفيضات في أسعار المعاطف؟ أو في تبادل آخر أخبار أمراضنا الجسدية في حالة أشبه بالتنافسية؟ هنالك أمر ما بالغ الإيجابية، كما لو كان المرء يشعر بتلقي العناية دون الاضطرار إلى تقديم مقابل سوى العناية بالآخرين، تلك العناية والرعاية التي تحدث بشكل طبيعي ومقصود. ما الذي يجعل التعبير عن هذا الاهتمام مصدر إحساس بالدفء؟ (Fur-man 1997، p. 1).

ومن الجدير بالملاحظة أن الباحثة تستخدم المطاوعة هنا للربط بين مشاعرها أثناء وجودها في الميدان وبين تجارب من طفولتها. وهذه هي الطريقة التي تسعى هي بها لفهم تجاربها الميدانية، إلا أنها تطرح أيضا على نفسها أسئلة مهمة من قبيل: "ما الذي يجعل التعبير عن هذا الاهتمام مصدر إحساس بالدفء؟" وهو سؤال سيدفع بمسار بحثها إلى الأمام، فسوف تواصل سعيها للحصول على إجابات لهذا السؤال، وبالتالي مسعاها نحو فهم أفضل للثقافة التي غرست نفسها فيها.

والإثنوجرافيات النسويات يملن إلى الالتفات والانتباه للتجارب الذاتية لمصادرهن، بالإضافة إلى إدراكهن لعلاقات القوى القائمة وتقاسم سلطة التأويل. فعلى سبيل المثال تقول الباحثة (De Welde 2003): "بالاتساق مع مناهج عقد المقابلات النسوية (Re-inharz 1992)، تضمنت المقابلات الشخصية تناولا عميقا للتجارب الذاتية للنساء المشاركات في البرنامج، كما أتاحت لهن فرصة التفاعل مع العملية البحثية والنظرية الناشئة عنها" (De Welde 2003، p. 253). كذلك استعانت الباحثة بتجاربها الشخصية باعتبارها إحدى الدارسات في فصول الدفاع عن النفس، ودونت ملاحظاتها بأسلوب المطاوعة قائلة:

لقد تغلغلت تجاربي الشخصية في البرنامج وتأثيره المتواصل على البيانات والمادة العلمية. فقد دخلت مشاعري وآرائي ضمن التجربة البحثية (Coffey 1999). وباعتباري "باحثة عضوة كاملة" تمكنت من تسليط الضوء على ملاحظاتي اللاحقة بشأن استراتيجياتي المستخدمة في البحث وصراعاتي العاطفية وهويتي وجسدي. (De Welde 2003، p. 253)

ولعل أهم ما يجب أن نتذكره بشأن قيام الإثنوجرافيين بجمع المادة هو أن عملية جمع المادة هي عملية إيجابية لا سلبية، إذ يجب على الباحثة الإثنوجرافية الملاحظة والانتباه -على الدوام- لكل ما يدور حولها، فيجب عليها باستمرار النظر بعين نقدية تحليلية حتى أثناء مشاركتها في الحياة الاجتماعية اليومية. فعليها دائما أن تتذكر أو أن تدون في نقاط سريعة موجزة ما يدور من حوارات خلال وجودها في الميدان. فلابد من الحفاظ على وجود عملية متواصلة ما بين المشاركة والملاحظة. فالعمل الإثنوجرافي يتطلب نوعا خاصا جدا من "الوجود في المكان" يتجاوز مجرد الوجود في المكان.

التحليل الإثنوجرافي

إن تحليل المادة الإثنوجرافية يبدأ، كما أشرنا أعلاه، يبدأ كجزء مصاحب لعملية جمع المادة. فالإثنوجرافيون الجيدون يبدأون في طرح الأسئلة على أنفسهم بشأن ما يرونه ويمرون به، فيشرعون بالتالي في عملية التأويل. ولكن تأتي لحظة على كل الإثنوجرافيين يواجهون فيها اقتراب موعد رجوعهم للتعامل مع كل المادة التي جمعوها (والتي قد تتضمن سنوات من الملاحظات الميدانية وتدوين النقاط الموجزة، وآلاف الصفحات من نصوص المقابلات الشخصية وما جمعوه من أشياء بما فيها وثائق وصور وما إلى غير ذلك)، وأن يخرجوا من كل تلك المادة بشيء منطقي. ويعتبر هذا الجزء من العملية الإثنوجرافية جامعا بين التأويل والتحليل. ويتم أحيانا الاستعانة بآليات التحليل (analysis technologies) من مجالات النقاشات المنهجية الأخرى،

فعلى سبيل المثال يستخدم البعض النظرية الموثقة، بينما يستخدم البعض الآخر تحليل الروايات الشفاهية، في حين يستعين كثيرون بمقاربة تعتمد على موضوعات البحث.

إن التحليل عادة ما يتضمن في قاعدته الأساسية بعض الخطوات التي يشترك فيها مع غيره من أشكال البحث الكيفي، مثل الترميز (coding) وتتبع الأنساق أو الأفكار، والمقارنة لكشف التشابه والاختلاف، ووضع المواقف والخبرات في سياقات اجتماعية وسياسية أوسع. إن الترميز (coding) هو عملية تقوم من خلالها الباحثة بمراجعة المادة المجموعة ووضع رمز لها (كلمة أو وصف موجز) بما يمثل شيئا تراه في المادة. أما تحليل النسق أو الموضوعات (pattern or thematic analysis) فيشير إلى عملية تحديد كيفية تكرار بعض المسارات أو الآراء العامة المتشابهة وظهورها في المادة. أما المقارنة (comparing and contrasting) فيمكنها أن تشير إلى عمليات تتبع أوجه الشبه والاختلاف بين مختلف الأطراف الفاعلة في الميدان، بالإضافة إلى أوجه الشبه والاختلاف بين كيفية التعامل مع بعض المواقف أو المعاملات في الميدان. وعادة ما تقوم الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون بمقارنة أوجه الشبه والاختلاف في الأفكار خلال عملية التحليل للتوصل إلى أنواع السلوك والتصرفات أو الأفكار المتشابهة والمتباينة مقارنة بغيرها من التصرفات والأفكار. ويتضمن التحليل النسوي في علم الإثنوجرافيا عادة الالتفات المتواصل لكيفية تأثير الجنس و/أو النوع على أوجه الشبه والاختلاف تأثيرا ممنهجا ومنظما. وتشير عملية وضع المواقف والخبرات في سياقها (contex tualizing)، إلى أسلوب التحليل الذي يربط بين طرق تنظيم ومعايشة مجالات الحياة الاجتماعية في الميدان وبين التيارات الاجتماعية والسياسية في الأمة أو على مستوى العالم. وعادة ما توجه الإثنوجرافيات النسويات اهتماما خاصا بالطرق التي تساهم بها أو تتأثر بها السياقات الاجتماعية والسياسية بنظام الاختلاف بين الجنسين وغيره من أنواع التمييز.

وقد اهتمت الباحثة (Lois 2001) بكيفية تعامل المتطوعين في جهود الإنقاذ في الجبال مع المشاعر والعلاقات المتصلة بالضحايا وأسرهم في سياق مهام الإنقاذ. وقد توصلت

في تحليلها لهذا السياق إلى فكرة "الإحكام" (tightness) التي تعرفها بوصفها "أسلوب إدارة الأمور الشخصية المتبادلة في الإشارة إلى المواقف التي تتطلب من القائمين بإدارة الأمور إلزام المتحكمين في المشاعر بتوجيه المشاعر" (Lois 2001 ، 139) للتوقف أمام كيفية إدارة مشاعر الضحايا ، بينما حددت الباحثة من ناحية أخرى مشاعر أسر الضحايا بوصفها تدار بواسطة "التسيب" (looseness) . إضافة إلى ذلك فقد حددت الباحثة أن "الإحكام" في إدارة مشاعر الضحايا يتضمن تحييد مشاعر الحرج والتخفيف من مشاعر القلق ومنع حدوث انهيار سايكوسوماتي . ومن جانب آخر ، تتضمن إدارة مشاعر الأسر إدراك الإحساس بالذنب وإحداث توازن بين مشاعر الأمل والأمر الواقع . وعلى الرغم من عدم قيام الباحثة بتفسير استراتيجيتها في التحليل فإنه يمكننا فهم المسار الذي اتبعته بفضل قيامها بتقارير واضحة عن أسلوبها في التحليل . فعلى سبيل المثال نجدها قد قامت بترميز البيانات بتحديد مواقف معينة (كاستخدام الفكاهة أثناء عمليات الإنقاذ) ، وهو ترميز ربما يكون قد جعلها تجد أنساقا أوصلتها إلى أفكار مثل تحييد الشعور بالحرج . ومن خلال المقارنة لاحظت في نهاية الأمر وجود اختلاف في كيفية قيام المنقذين بإدارة مشاعر الضحايا وأسرهم ، استنتجت منها نتيجة مفادها "الإحكام" في إدارة مشاعر الضحايا و"التسيب" في إدارة مشاعر أسرهم . ثم قامت في نهاية المطاف بوضع دراستها في سياق أوسع من الكتابات حول الجوانب الاجتماعية- العاطفية (socioemotional economy) . ومع أن الباحثة لم تضع نفسها في دور الباحثة "النسوية" فإنها التفتت إلى الاختلافات القائمة بين المنقذين من الرجال والنساء . فنجدها على سبيل المثال تكتب قائلة "يتم منح النساء نفس القدر من الفرص المتاحة للرجال للقيام بالمهام التي تتطلب جهدا بدنيا ، ولكن فيما يتعلق بالتحكم في العواطف ، يتم تنميط النساء باعتبارهن أضعف من الرجال وبالتالي أقدر قدرة على القيام بالمهام الصعبة" (Lois 2001 ، 175) . وعلى الرغم من أن الباحثة لم تبدأ بحثها بمشكلة بحث تنطلق مباشرة من النظرية النسوية ، فإنها التفتت إلى قضايا ترتبط بالجندر في تحليلها وتسجيل نتائج بحثها .

ومـن الأفكار التقليديـة الشائعة بين باحثي الأنثروبولوجيـا فيما يتصل بترتيب مادة البحـث الإثنوجرافي استخـدام بطاقات البحث المثقوبة بما يحمـل رموزا موضوعية أو نظريـة، ثم تجميعها باستخدام خيط يمر بالثقوب. وقد تم في السنوات الأخيرة استبدال بتلـك الأساليب البسيطة بصيغ إلكترونية للترميـز والتصنيف باستخدام برامج كمبيوتر حديثـة. وينضم بعض الباحثـين والباحثات الإثنوجرافيـين إلى غيرهم من مستخدمي البحث الكيفـي في الاستعانة ببرامج كمبيوتر للتحليل الكيفي بما يساعدهم في التعامل مع الكميـات المهولة من البيانات وتحليلهـا. ويمكن لبرامج الكمبيوتـر أن تقدم كونا كبيرا في الحفـاظ على كميات كبيرة من البيانات وترتيبها وتصنيفها، إلا أنه من المهم جدا أن نتذكـر بأنه على النقيض من برامـج التحليل الكمي (التي يقوم فيهـا الباحث أو الباحثة أساسا بتغذية الكمبيوتر بالبيانات الرقمية، على أن يقوم البرنامج بوظيفة حسابية يعقبها تحليـل النتائج) فإنه لا توجد أية خطوات آليـة في عملية التحليل الكيفي، وبالتالي فيتعين علـى الباحثات والباحثين الإثنوجرافيين ممن يستخدمـون برامج الكمبيوتر في التحليل الكيفي أن يكونوا باستمرار في حالة تفاعل مع البيانات والتفسيرات.

ومع استمرار تعامل الباحثين والباحثات الإثنوجرافيين مع البيانات وتكرار العودة إليها ومراجعتها كثيرا ما يجدون أنفسهم يحسنون ويجودون في الأسئلة التي يطرحونها ويجيبـون عليها. وبينما قد يكـون دخولهم الميدان حاملين مساحـة واسعة متقاطعة من نقـاط الاهتمام، فـإن تلك الأفـكار تتحول خلال عمليـة التحليل لتصبـح أكثر تركيزا وتحديـدا وتعقيدا بل وفي أحيان كثيرة أكثر تشويقا. والأمل دوما في أن تقترب الأفكار والأسئلـة النابعة مـن العمل الميداني الإثنوجـرافي لتعكس بقدر أكبر تجـارب ومفاهيم الأشخاص الخاضعين للبحـث لا آراء الباحثين والباحثات المسبقـة. ويرى البعض أن الغرض مـن الدراسات الإثنوجرافية ليس مجرد الإجابة علـى بعض الأسئلة في ذهن الباحث أو الباحثة بل أيضا معرفة القدر الكافي لطرح أسئلة أفضل وأكثر تعقيدا وتنويعا في نهاية البحث.

وقد أكدت الباحثة رينهارتز على الآتي:

> إن المنظـور النسـوي في تحليـل البيانات يتضمن عددا مـن المكونات مثل فهـم النساء في سياقاتهن الاجتماعية واستخـدام لغة النساء وسلوكهن لفهم العلاقة بين الـذات والسياق. كما يتضمن مسألـة إيجاد سبيل لعدم حذف صوت أي شخص مع القدرة على صياغة نص معقول الطول. ويتضمن أيضا استخدام النظرية النسوية لتحليل المادة. (Reinhartz 1992، 71)

وباختصار فمـن المشروعات الكبرى التي تتم أثناء التحليـل هو الانتقال من مرحلة وجود أكوام من البيانات المرتبة ترتيبا زمنيا ومن الأفراد والأحداث، إلى مرحلة إعادة ترتيـب تلك البيانات تبعا للموضوع والفكرة وبما يجعلهـا قابلة للتفسير والتأويل. وهو أمـر كثيرا ما يتطلب عمليـة أليمة من اختزال المادة بما يستدعي مـن الباحثة أو الباحث تنـاول معلومـات غنية ومعقـدة ومتصلة بسياقاتها ثـم اختزالها في حـزم مصغرة من الأفـكار التي يمكن عرضها على جمهور من القراء. وهي عملية اتخاذ قرار تشير إليها الباحثـة بوتش باعتبارها عملية اختيار "الخيط الذي ستقوم بجذبه" للتعامل مع دراستها ثـم عرضها بعد مواجهة نسيـج كامل متداخل من الأفكار. ويكـون هنالك دائما الكثير من الخيوط التي يتعـين الاختيار من بينها، وبالتالي يواجـه الإثنوجرافيون -كغيرهم مـن الباحثـين والباحثات- اتخاذ قـرارات بشأن الحكايات التي يتـم حكيها، كما توجد دائما أوجه سياسية عند اتخاذ تلك القرارات، وعادة ما تختار الإثنوجرافيات النسويات الحكايات التي يروينها بما يعكس مواقفهن النسوية النظرية والأخلاقية.

كتابة التقارير الإثنوجرافية: التمثيل والعرض

إن الهـدف الذي يصبو إليه أي باحث أو باحثـة إثنوجرافية، كأي مشروع بحثي، هو كتابـة تقرير سردي مشوق ودقيـق لما تم التوصل إليه في البحـث (مع وجود خلافات بشـأن مفهـوم الدقة). وتزهـو الباحثات والباحثـون الإثنوجرافيون بمـا يقدمونه من

الوصـف الكثيف للحياة الاجتماعية بما يتضمنه مـن تفاصيل لسياقاتها مصحوبا بالتحليل الواضح (Geertz 1972). وهو أمر الحديث يكون عنه أسهل من تطبيقه، وقد يتوقف الإثنوجرافيون والإثنوجرافيات أمام أسئلة مثل الآتي:

- كيف أحكي رواية مشوقة ودقيقة؟
- كيف يمكنني تمثيل أصوات ووجهات نظر من أقوم بدراستهم؟
- مـا التداعيات السياسية والأخلاقية المترتبة على قيامي بسرد الرواية بالطريقة التي أقوم بها؟
- ما قدر السيطرة التي يجب أن تتاح للمجتمع على التأويل النهائي؟
- ما قدر السيطرة التي يجب أن تتاح لي على التأويل النهائي؟

إنها أسئلة تتناول أساسا كيفية تعامل الباحثة الإثنوجرافية مع مسألة تمثيل المشاركات والمشاركين في البحث ومجتمعهم ضمن عرضها النهائي للبحث.

وفي ذلك تكتب أورتنر قائلة:

> مهمة الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين والمؤرخة أو المؤرخ تمثيل حيوات الناسـ الأحيـاء منهم أو من كانـوا أحياء في يوم مـا، وفي أثناء محاولتنا الدفع بهؤلاء الناس داخل ثنايا نصوصنا نجدهم يدفعون بأنفسهم في الاتجاه المعاكسـ. ويأتـي النص النهائي نتاجا لهذا الشـد والجذب ولا يوجد نص خال من آثار هذا التجاذب مهما كانت قوة هذا النص وسيادته. (Ortner 1995، 189).

وقد ناضلت الإثنوجرافيات النسويات تحديدا بشأن مناهج تمثيل الأشخاص موضوع أبحاثهن بأساليب تسعى لإيجاد توازن بين رؤى المؤلفات ورؤى الأشخاص موضوعات أبحاثهـن. وفي هذا الصـدد كان للإثنوجرافيات النسويات الريادة في طرح مناهج بديلة في كتابـة النصوص الإثنوجرافية ومنها ما يقترب من أسلوب الكتابة في العلوم الإنسانية

(كالشعــر والرواية والسيرة) أكثر من أسلوب الكتابة العلميــة التقريرية التقليدية. وهي أنــواع من النصوصــ الإثنوجرافية تركز علــى الجوانب الذاتيــة والمتبادلة في تجارب البشــر، وتسعــى إلى التحكم في ذلك بواسطــة استخدام لغة محملة بالذاتيــة والعاطفة لا معتمــدة على الكتابة النثرية التحليلية أو غير المتأثرة بالعواطف. وعلى أية حال فإن هذه الأشكال مــن الكتابة الإثنوجرافيــة تشترك مع غيرها في الهدف وهــو تصوير تجارب وخبرات الناس في سياقاتهم الاجتماعية، على تنوع تلك التجارب وثرائها.

وفي نهايــة الأمر نجــد أن التقرير الإثنوجــرافي يستخدم التحليــل الموصوف أعلاه لوضــع نتائــج البحــث في سياقــات اجتماعيــة وسياسية وتاريخيــة. وتتســم الكتابات الإثنوجرافيــة بالتشويق لأنها تحكي روايات عن البشــر والأماكن والأحداث بما يمنح القــراء صورة من الداخــل لمجتمعات قد لا تكــون مألوفة. وحتــى في حالة المجتمعات المألوفــة فإن الكتابــات الإثنوجرافية عادة ما تقدم وتحلل جوانب من حياة المجتمع بما قد يخالــف الأفكار الدارجــة عن هؤلاء البشر وتلك الأماكن. وبالطبــع فإن أفضل وسيلة للتعرف على "كتابة" البحث الإثنوجرافي تتمثل في قراءة بعض الدراسات الرائعة التي أنتجتهــا النساء تاريخيا وحاليا، ولا يرد فيه هذا الفصل سوى وصف لعدد قليل من مثل تلك الدراسات.

الأخلاقيات والمسؤوليات

يتطلــب البحث الإثنوجرافي النسوي قيام الباحثة بتوجيــه اهتمام خاص بممارساتها ومسؤولياتهــا الأخلاقيــة عند جمــع المادة ونقل نتائــج دراستها. وهنــاك نطاق واسع مــن الأسئلــة الأخلاقية التــي تظهر على السطــح في كل مرحلة مــن مراحل المشروع الإثنوجرافي. وكثيرا ما لا يتم تناول تلك المشاكل الأخلاقية تناولا جيدا من قبل مجالس المراجعــة المؤسسية بالجامعــات (IRB: institutional review board) والتي عادة مــا تضع القضايا الأخلاقية في إطــار منظومات بحثية مغايرة. وهكــذا نجد أن المسائل الحساســة مثل الوصول إلى المشــاركات والمشاركين في البحــث وإخبارهم بالمعلومات والحصــول على موافقتهم والاعتمــاد على الصداقات وحمايــة الخصوصية وسياسات

عرض النتائج تظل مسائل غير محسوسة في حالات كثيرة حتى بعد الحصول على موافقة مجلس المراجعة المؤسسية على القيام بالبحث. ويمكن لمسألة حل القضايا الأخلاقية في العمل البحثي أن تمثل تحديا تحديدا عندما تتوقف الباحثة النسوية أمام مواقع السلطة النسبية بينها وبين الأشخاص الذين تقوم بدراستهم. وترى دافني باتاي أنه إذا كان لفكرة النسوية أن تعني شيئا

> فيجب عليها أن تتضمن مراجعة نقدية للمفاهيم والبنى التقليدية التي همشت النساء ماديا ونفسيا، في العالم بل وحتى في أرواحهن.... ونظرا إلى أن الفكر النسوي قد واجه موقف الحياد والموضوعية الذي طالما سيطر على العلوم الاجتماعية الوضعية، فقد دفعنا إلى تمحيص ممارساتنا كباحثات... [عما إذا كان] من الممكن -لا على المستوى النظري بل في الوضع الفعلي للعالم الحقيقي اليوم- الكتابة عن المقهورين دون أن نتحول إلى واحد من القاهرين. (Daphne Patai 1991، 138)

وتضيف دافني باتاي قائلة إن النسويات عادة ما يقعن في خطأ التصور أن المشاركة البسيطة في خطاب النسوية يحميهن من احتمالات استغلال غيرهن من النساء حتى عند قيام ممارساتهن البحثية على قاعدة من التمتع بالوضع المتميز. فبصرف النظر عن مواقفك النسوية من الضروري أن تتوقفي أمام علاقات القوى بما فيها من علاقات تراتبية على أساس الطبقة والأصل والتعليم والقدرة على الوصول إلى الآخرين، ومدى تأثيرها جميعا على حيوات من تقومين بدراستهم. ونجد أن الكثيرات من الإثنوجرافيات النسويات، مثل بالي (Paley 2001) ينظرن إلى الأشخاص موضوع دراساتهن باعتبارهم خبراء فيما يتصل بحيواتهم ومجتمعاتهم، وبالتالي يعتبرنهم مشاركين فاعلين في المشروع البحثي لا مجرد موضوعات بحث سلبيين. ويختلف رد فعل النسويات تجاه اختلافات علاقات القوى وذلك تبعا لمواقفهن النظرية والأخلاقية، وكثيرا ما تكون الحلول للمآزق الأخلاقية حلولا صعبة وغير مناسبة. وهكذا يصبح من المهم تحديدا أن نهتم بتحركاتنا الواعية تجاه القضايا الأخلاقية التي تظهر لنا خلال مسار البحث.

يقضـي الإثنوجرافيون وقتـا طويلا بصحبة الناس الذين يعملـون معهم في الميدان بما يجعل معظم الإثنوجرافيين والإثنوجرافيات راغبين ومضطرين لمواصلة العلاقات المهمة التـي نشأت في ميدان البحث واستمرارها لسنوات. ومـن المهم جدا الوعي بكيفية إمكان تأثير البحث المكتـوب والمنشور على من قمت بالعمل معهم واحتمال عودتك للعمل معهم ثانيـة في المستقبل. وقـد فوجئ بعض الإثنوجرافيين برد الفعل الـذي قابلوه عند عودتهم للمجتمعـات التي سبق وقضـوا فيها وقتـا طويـلا (Ellis 1995; Scheper-Hughes 2000). بل إن أكثر الإثنوجرافيين اتساما بحسن النوايا يقومون أحيانا بوصف المجتمعات أو البشـر بصور يعتبرهـا الطرف الآخر من البحث ظالمـة أو مسيئة، ويكون ذلك عادة لأسبـاب لم تتوقعها الباحثة أو الباحـث الإثنوجرافيان. وفي أحيان أخرى قد تجد الباحثة الإثنوجرافيـة نفسها تنقد بصـورة مقصودة ممارسـات السيطرة أو التمييـز أو الإجبار القائمـة في المجتمع. ويكون على الباحثة الإثنوجرافية اتخاذ قراراتها بشأن ما تنشره من مادة قـد تحمل تحليلا مسيئا للمجتمع محل الدراسة. وتؤكـد الكثيرات من الباحثات على أهميـة الالتـزام والمسؤولية عند اتخاذ القرار بشأن ما ينشرنـه، ويرين أن قدرتهن على القيام بالعمل البحثي كانت تعتمد (وسوف تعتمد في المستقبل) على المساهمات والمشاركات التطوعية لمن يقمن بدراستهم، فبدونهم لن يتوفر للباحثة ما تكتب عنه.

وتتفـق معظم الباحثات على أنه من المهم عدم نشر المـواد التي قد تجعل من يعملون معهـن عرضة للعنف أو الصعوبات الاقتصاديـة أو الأذى العاطفي البالغ، كما نجد أن كثيرا مـن الباحثات والباحثـين الإثنوجرافيـين يعرضون نتائج أبحاثهـم على المجتمع موضـوع البحـث قبل قيامهم بنشر أي منهـا وذلك للحصول علـى رأي المجتمع بشأن دقة الصـورة المقدمة عنه وبخصوص المخاطر التي قـد يتعرض لها المجتمع جراء نشر البحـث. وبصرف النظر عـن كيفية اختيارك للتعامل مع التحديـات الأخلاقية العديدة المتصلة بالعمل الميداني الإثنوجرافي، إلا أنه من المهم الوعي بأن ما تقومين به في الميدان ومـا تكتبينه لاحقا يمكـن أن يحمل تداعيات خطيرة على البحـث ومن تعملين معهم في الميدان. وهي مسألة ذات أهمية محورية بالنسبة للنسويات.

المراجع

American Psychological Association. (2001). *Publication manual of the American Psychological Association.* Washington, DC: Author.

Behar, R. (1993). *Translated woman: Crossing the border with Esperanza's story.* Boston: Beacon Press.

Coffey, A. (1999). *The ethnographic self.* London: Sage.

Corrado, M. (2002). Teaching wedding rituals: How bridal workers negotiate control over their customers. *Journal of Contemporary Ethnography, 31*(1), 33–67.

De Welde, K. (2003). Getting physical: Subverting gender through self-defense. *Journal of Contemporary Ethnography, 32*(3), 247–278.

Ellis, C. (1995). Emotional and ethical quagmires in returning to the field. *Journal of Contemporary Ethnography, 24*(1), 68–95.

Finn, J. (1998). *Tracing the veins: Of copper, culture, and community from Butte to Chuquicamata.* Berkeley: University of California Press.

Furman, F. K. (1997). *Facing the mirror: Older women and beauty shop culture.* New York: Routledge.

Geertz, C. (1972). *The interpretation of cultures.* New York: Basic Books.

Goetz, J. P. (1978). Theoretical approaches to the study of sex-role culture in schools. *Anthropology and Education Quarterly, 9*(1), 3–21.

Goetz, J. P. (1981a). Children's sex-role knowledge and behavior: An ethnographic study of first graders in the rural South. *Theory and Research in Social Education, 8*(4), 31–54.

Goetz, J. P. (1981b). Sex-role systems in Rose Elementary School: Change and tradition in the rural-transitional South. In R. T. Sieber & A. J. Gordon (Eds.), *Children and their organizations: Investigations in American culture* (pp. 58–73). Boston: Hall.

Goetz, J. P., & Hansen, J. F. (1974). The cultural analysis of schooling. *Anthropology and Education Quarterly, 5*(4), 1–8.

Harrington, B. (2003). The social psychology of access in ethnographic research. *Journal of Contemporary Ethnography, 32*(5), 592–625.

Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet? The cult of thinness and the commercialization of identity.* New York: Oxford University Press.

Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (2006). *The practice of qualitative research.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Hondagneu-Sotelo, P. (2001). *Domestica: Immigrant workers cleaning and caring in the shadows of affluence.* Berkeley: University of California Press.

Isabell, B. (1995). Women's voices: Lima 1975. In D. Tedlock & B. Mannheim (Eds.), *The dialogic emergence of culture.* Chicago: University of Illinois Press.

Lewin, E. (1993). *Lesbian mothers: Accounts of gender in American culture.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Lois, J. (2001). Managing emotions, intimacy, and relationships in a volunteer search and rescue group. *Journal of Contemporary Ethnography, 30*(2), 131–179.

Martin, E. (1992). *The woman in the body: A cultural analysis of reproduction.* Boston: Beacon Press.

Montemurro, B. (2005). Add men, don't stir: Reproducing traditional gender roles in modern wedding showers. *Journal of Contemporary Ethnography, 34*(1), 6–35.

Murphy, A. G. (2003). The dialectical gaze: Exploring the subject-object tension in the performances of women who strip. *Journal of Contemporary Ethnography, 32*(3), 305–335.

Nader, L. (1988). Up the anthropologist—Perspectives gained from studying up. In J. B. Cale (Ed.), *Anthropology for the nineties* (pp. 470–485). New York: Free Press.

Ortner, S. B. (1995). Resistance and the problem of ethnographic refusal. *Comparative Studies in Society and History, 37*(1), 173–193.

Paley, J. (2001). *Marketing democracy: Power and social movements in post-dictatorship Chile.* Berkeley: University of California Press.

Patai, D. (1991). U.S. academics and Third World women: Is ethical research possible? In S. B. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history.* New York: Routledge.

Rapp, R. (2000). *Testing women, testing the fetus: The social impact of amniocentesis in America.* New York: Routledge.

Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research.* Oxford, UK: Oxford University Press.

Richards, A. I. (1956). *Chisungu: A girls' initiation ceremony among the Bemba of Northern Rhodesia.* London: Faber & Faber.

Richards, A. I. (1995). *Land, labour and diet in Northern Rhodesia* (2nd ed.). Munster-Hamburg: LIT with the IAI. (Original work published 1939)

Scheper-Hughes, N. (2000). Ire in Ireland. *Ethnography, 1*(1), 117–140.

Spivak, G. C. (1988). Can the subaltern speak? In C. Nelson & L. Grossberg (Ed.), *Marxism and the interpretation of culture* (pp. 271–316). Basingstoke, UK: Macmillan Education.

Stacey, J. (1991). Can there be a feminist ethnography? In S. B. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 111–119). New York: Routledge.

Staller, K. M. (2002). Working the scam: Policing urban street youth. *Qualitative Inquiry, 8*(5), 550–574.

Stocking, G. W., Jr. (1983). Fieldwork in British anthropology. In G. W. Stocking Jr. (Ed.), *Observers observed* (pp. 70–120). Madison: University of Wisconsin Press.

Trotter, R., & Schensul, J. J. (2000). Methods in applied anthropology. In H. Russell Bernard (Ed.), *Handbook of methods in cultural anthropology* (pp. 691–735). New York: AltaMira Press.

الفصل الثامن

الممارسة النسوية في تحليل المضمون

باتريشا لينا ليفي

مـن خلال اكتشاف الأنساق القائمة بـين الوثائق الموجودة والمفقودة، ومن خـلال علاقات السلطـة/ النوع في المجتمع في ذلـك الزمان، ومن خـلال لفـت انتباه الناس في يومنا هـذا إلى تلك المواد، يتـم خلق روابط جديـدة تساعـد على فهـم العلاقة الحاليـة القائمـة بين النـوع والسلطة، ومنـح بعض المجموعات قدرا أكبر من الإحساس بتاريخهم. ولإيضاح تلـك العلاقة بجـلاء، تقوم بعضـ النسويـات بإعادة طباعـة النصوص والصور الفوتوغرافية كي تتمكن مجموعات أخرى من صياغة تأويلاتها وروابطها. (Shulamit Reinharz 1992، p. 163)

إن التدخـل النسوي في الثقافـة الجماهيرية قد يقـدم للسياسات النسوية استراتيجيـة براجماتية لإحداث تحول في موازيـن القوى وتمهيد الطريق أمـام التغيـير، وبالتـالي المساعدة في إحـداث تحول في المجتمـع. ونظرا إلى كـون الثقافة الدارجة موقعا مهما للنضال حـول المعنى، بما تقدمه من تعريفات سائدة في الثقافة للنساء والرجال، فلذا من الضروري التدخل في التيار السائد لجعل المعاني النسوية جزءا من الفهم الشائع في الحياة اليومية. (Suheyla Kirca 1999، p. 105)

إن الثقافــة هي موقع تتم فيه الصراعات على المعنى، وهي الموقع الذي يتم فيه لاحقا تضمــين تلك الصراعات في عدد كبير مــن المواد الثقافية كالنصوصــص والمنتجات. وقد تؤدي صراعـات ثقافية معينة حول المعنى إلى إنتاج ذاكرة جماعية أو وطنية لحدث أو زمــن ما، أو قد تكــون النتيجة أكثر رحابة في شكل حزمة مــن الأفكار بشأن مجموعة أو فئة ما. إن مستــودع المواد الثقافية (artefacts) الذي يتضمن هذه الرؤى والأفكار قد يتضمــن أيضا تناقضات كامنــة أو صريحة. ويمكن بدراسة الثقافــة عموما والثقافة الجماهيريــة (popular culture) تحديــدا الكشف عن الروايــات والصور والأفكار والتمثيلات النمطية السائدة وكذلك مواجهتها.

فعلــى سبيل المثال، استخدمت بعض النسويــات تحليل المضمون (content anal-ysis)، لدراســة فكرة "مــا بعد النسوية" (postfeminism) التــي أخذت في الانتشار في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياتــه. وقد لاحظت إحدى الدراسات (Hall and Rodriguez 2003)، أن وسائــل الإعــلام الجماهــيري (popular media) في الولايات المتحدة الأمريكية ادعت قيام عصر جديد من "ما بعد النسوية"، وقامت بتحليل مضمون للخروج بتعريف "المنظور ما بعد النسوي" (postfeminist perspective) وتحديــد نوع الأدلــة الإمبيريقية الدالة على هذا المنظور. وقــد قامت الدراسة السابقة، بواسطــة تحليل المضمون، من رفض وتفنيد تلك الادعاءات القائلة بوجود اتجاه ما بعد نسوي، وأكدت على أن هذا المفهوم أو تلك الأيديولوجيا ساهمت في الواقع في زعزعة وإضعاف الجهود الرامية لتحقيق الوحدة النسوية (feminist unity)، وبالتالي فقدت النسويــة بعضــ الدعم العام بدءا مــن الثمانينيات وحتى التسعينيــات. فقد تم النظر إلى النسويــة باعتبارها أقل ارتباطــا بالواقع، وأن ما بعد النسوية تتمتع بمزيد من الاقتراب من جانب بعض الشابات، وأن النسوية نفسها لم تتطور متخذة صورا جديدة بما ينطبق مــع ما يوحي به مصطلح ما بعــد النسوية. ويرد في الدراسة السابقة ما يلي: "إن مجرد وجــود منظور ما بعد نســوي في الخطاب العام هــو أمر يحدث تغيــيرا بالغا في المشهد

الاجتماعـي الـذي تتم فيه نقاشات حـول ما يجب عمله من أجل تحسـين وضع النساء" (Hall and Rodriguez 2003، p. 884).

وتوضـح هذه الدراسـة كيف يمكن للمنظور النسوي في الثقافـة أن يواجه كثيرا من الأيديولوجيات السائدة، بما فيها الأيديولوجية النسوية ذاتها.

وتحتـل النساء موقع الصـدارة في التناول النقدي للنصوص والمنتجات التي تكوّن الثقافة، وذلك لمقاومـة المفاهيم الأبوية للواقع الاجتماعي التي تدفع النساء وغيرهن من الفئـات المهمشة إلى أطـراف ثقافتهم وعمليات التأويل الاجتماعـي. إن قيام النسويات بطرح المنظـور النسوي والهموم النسويـة، مثل وضع النساء، والمسـاواة، والعدالة الاجتماعيـة، داخـل دراسـات الثقافـة الماديـة (material culture) أي المنتجات، والثقافـة الرمزيـة (symbolic culture) أي الصور والتمثيـلات متعددة الوسائط، يجعل الباحثـات النسويات يستخدمن تحليل المضمون بأساليب فريدة ويطرحن أسئلة ما كان ليتـم تناولها. كذلك، فمن منطلق كـون الثقافة موقعا يتم فيه خلق الأفكار ونشرها واستهلاكهـا (بما في ذلك الصور المبالغ فيها والنمطية)، إلا أن النساء صاحبات مصلحة خاصـة في الكشف عن النصوص والمنتجات التي تصير مكونا أساسيا من مكونات كيفية النظـر إلى النسـاء والرجال. ويقدم تحليـل المضمون للباحثات النسويـات منهجا يتسم بالمرونـة واتساع المدى في تفاعلهن مع هذه العملية الفكريـة والسياسية. ونظرا إلى أن الثقافـة واسعة المدى للغاية فليس من الممكن تناول كافة الطرق التي يمكن بها للنسويات دراستهـا دون عوائـق في الطريق، ولـذا فالهدف من هذا الفصل هـو تعريفك ببعض القضايا والممارسات القائمة في هذا المجال.

وكمـا يتضح لك مما سبق فإن تحليل المضمون مجال متسع، وبالتالي للبدء من نقطة انطلاق راسخة فلنبدأ بأسئلة البحث:

- كيف يتم تمثيل النوع في الأفلام الجماهيرية؟

• وكذلك، كيف يكون لتمثيل النوع في الأفلام الجماهيرية أثر على كل من "الجمهور الموضوعي" وعلى الأفراد الذاتيين؟

• هل من الحقيقي أن الثقافة الجماهيرية تقوم بإعادة تدوير (recycle) للصور النمطية على أساس النوع، وإذا كان الأمر كذلك فما طبيعة هذه الصور النمطية؟

وقد كانت هذه هي الأسئلة التي أرشدت مارك هيدلي (Mark Hedley 2002) في بحثه الذي قام فيه بتحليل مضمون استقرائي لعينة من الأفلام الجماهيرية من الفترة ما بين عام 1986 وعام 2000. واستنادا إلى النظريات النسوية والنقدية يرى الباحث الآتي:

> لقد استطاعت الثقافة الجماهيرية في عصر الحداثة تحديد ما ينتمي إلى الواقع، وذلك من خلال تطبيقها لأشكال التقدم التكنولوجي. إن عالم النظام (system–world) القائم على التحكم التكنولوجي قد حل بالتالي محل عالم الحياة (life–world) القائم على التجارب الأصيلة باعتبارها المصدر الأساسي للمعنى. كذلك فإن من يتحكمون في الإعلام المعني مدركون للقوة والسلطة التي يمنحها لهم هذا التحكم (Mark Hedley 2002، p. 202).

إن استخدام الباحث هنا تحليل المضمون النابع من البحث النسوي يوضحه لنا بقوله:

أستكشف كيفية تمثيل الصراع بين الجنسين كما يتم توصيله، بدءا من الأنظمة النفسية للأفراد القائمين بعمل الأفلام وحتى الأنظمة النفسية لمن يعايشون الأفلام عبر النظام المجتمعي الخاص بصناعة الأفلام في الولايات المتحدة الأمريكية (Mark Hedley 2002، p. 202)

إن النتائج التي يتم التوصل إليها في تحليل المضمون الواسع الذي يقوم به مارك هيدلي هي نتائج متعددة الأوجه والسمات. أما النتيجة الشاملة فهي أن "وجهة النظر

القائمــة على أساس النوع" (gendered point of view) في تلك الأفلام على تنوعها تبــين وجود "تفضيل عام لرؤى الرجــال" (Hedley 2002، p. 211)، وهي نتيجة مهمــة في مغزاها إذ نحاول فهم من هم أصحاب الــرؤى التي يتم تسليط الضوء عليها، ومن هم أصحاب الرؤى والأصوات في العالم الذين يتم إسكاتهم أو تهميشهم في الأفلام المعاصرة. كذلك تكشف دراسة مارك هيدلي الأنماط العديدة داخل الأفلام الجماهيرية التــي بوسعها أن تساعدنا على التوصل إلى فهــم أفضل لكيفية تصوير النوع والعلاقات الجنسية الغيرية (heterosexual relationships). فعلى سبيل المثال وجد هيدلي أن الشخصيــات النسائية يتم تصويرها على الدوام باعتبارها أكثر تميزا من حيث "الوضع الأخلاقــي" مقارنــة بالشخصيات الرجالية، في حــين يتم تمييز الشخصيــات الرجالية مــن حيث "السلطة الاجتماعيــة" مقارنة بالشخصيات النسائيــة (Hedley 2002، p. 207). كمــا وجد الباحــث أن العلاقات الثلاثية التي محورها الرجــل يتم فيها استدعاء خلفيــة أخلاقية تقوم على ثنائية السيــدة البتول/العاهرة، بينما في العلاقات الثلاثية التي محورهــا المرأة تعتمد الخلفية الأخلاقية على ثنائية البطل/الشرير أو الأمير/الصعلوك. كما اتضح في البحث وجود صراع شامل بين الرجال والنساء في تلك الأفلام، بما يجعل الصــراع بين الجنسين يبدو وكأنه أمر عادي. وقد جــاءت طبيعة هذا الصراع عموما رومانسية و/أو جنسية، وعادة ما أتت في سياق منافسة جنسية، لتشير بالتالي إلى كونها قاعــدة واسعة للعلاقات بــين الرجال والنساء. إن مثل هــذا التحليل المتنوع، والذي لا يمكن تحقيقه من خــلال تحليل مضمون منهجي للنصوص الثقافيــة يحمل أهمية بالنسبة لفهمنا للاختلاف القائم في تمثيل الرجال والنساء في الثقافة الأمريكية. إن دراسة هيدلي تتجاوز مرحلة مساعدتنا على فهم الأفكار التي يتم من خلالها التعبير عن قضايا النوع، فتقــدم لنا نطاقا من القضايــا التي يمكن تناولها في أبحاث مستقبليــة إذا ما أردنا الانتقال بهذا التحليل نحو تحقيق الأهداف النسوية من أجل العدالة. ويقترح هيدلي على الباحثين والباحثات مواصلة هذا النوع من الأبحاث من خلال طرح الأسئلة التالية:

> ما أنواع المشاركة النسائية الأهم من أجل تجاوز المعايير السائدة في النظام القائـم؟ وما قدر تلـك الأنواع مـن المشاركة الضرورية لتجـاوز النظام القائم؟ ما السياقات التي تمنع مشاركة النساء بأي شكل أو قدر في مواجهة الأنمـاط المعتادة؟ وما السياقـات التي تسمح بمشاركـة الرجال في طرح التحديـات ومواجهة النظام حتى في حال ضآلة أو غيابها مشاركة النساء؟ (Mark Hedley 2002، p. 213).

إن دراسـة مـارك هيدلي حول النـوع في الأفلام الجماهيرية هي مثـال على كيفية إمـكان دمج تحليل المضمـون مع الهموم والمبـادئ النسوية لتناول نطـاق من القضايا الخاصة بالتشكيل الثقافي للنوع والاختلاف على مدى واسع.

ويمكـن للنسويات استخدام تحليل المضمـون لدراسة مدى حضور الفكر النسوي في نطـاق من المواد والمنتجات الثقافية. وهنالـك مثال آخر في دراسة تحليل مضمون لعدد 11 من الكتب الإرشادية (self-help books) للتعرف على مدى كون مضمون تلك الكتـب نسويا أو غير نسـوي (Shindler Zimmerman، Holm and Starretls 2001). وقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن أكثر الكتب مبيعا (best-selling books) أصبحـت أقل نسوية بمرور الوقـت. إن هذا النوع من الأبحاث ربما ينجح في مواجهة التصورات الجماهيرية الرائجة بشأن حضور الفكر النسوي في الثقافة الجماهيرية.

إن تحليـل المضمون يقدم منهجا في الكيفية التي يمكن بها للباحثة النسوية تناول أسئلة البحث، ومنها ما يلي:

- من صاحب وجهة النظر الممثلة في الثقافة الجماهيرية والتجارية؟
- كيف يتم تمثيل الاختلاف في الثقافة؟ فعلى سبيل المثال، كيف يتم تمثيل النوع في الثقافة؟ وكيف يتم تمثيل الجنسانية؟ وتمثيل الأصل والعرق؟
- كيف يتم نشر الرسائل إلى الناس عن طريق الثقافة الجماهيرية؟

- كيف يتم تشكيل الأفكار الخاصة بالذكورة والأنوثة، وإعادة تشكيلها، ومواجهتها داخل الثقافة عبر النصوص التي يتم إنتاجها داخل الثقافة؟
- من أصحاب الرؤى التي يتم إسكاتها أو تهميشها داخل مواد ومنتجات ثقافية معينة؟
- مـا الذي تكشف لنا عنه دراسة النصوص التي يتم إنتاجها في ثقافة معينة، وذلك بشأن كيفية إضفاء قيمة على الرجال والنساء؟

تحليل المضمون: عرض عام

إن تحليـل المضمون (content analysis) هو الدراسة المنهجية للنصوص وغيرها من المنتجـات الثقافية أو أشـكال المواد غير الحية. والمادة المستخدمـة في مثل هذا النوع من البحـث تكون موجودة بصـورة مستقلة عن مسار البحث. بمعنى آخـر فإن الباحثة أو الباحـث لا يقومان بخلق أو المشاركة في خلق المادة الخام من خلال استطلاعات الرأي أو العمـل الإثنوجـرافي أو المقابلات الشخصيـة، وإنما يقومان بجمع المـادة الموجودة مسبقـا، كالصحف والكتـب والمجلات والصـور والبرامج التليفزيونيـة وغيرها. إن طبيعة تلك المادة تضفي عليها خاصيتين فريدتين وهما: أولا، المادة توجد مسبقا وبالتالي تكون طبيعية (naturalistic)، وثانيا، تكون المادة غير تفاعلية (noninteractive) (Reinharz 1992، p. 147). إن هاتـين الخاصيتـين تمنحان المادة مستوى جوهريا مـن الأصالـة (Reinharz 1992، p. 147; Hesse-Biber & Leavy 2006). ونجد أن مستوى الأصالة الذي تتمتع به المواد والمنتجات مسبقة الوجود هو مسألة بالغة الأهميـة للباحثات النسويات اللاتي تطاردهـن أسئلة حول قيمة البحث وصحته من قبل المجتمع العلمي والبحثي الواسع الذي يقلل من قيمة البحث النسوي: "فمن خلال استخدام مثـل تلك الوثائق تقوم الباحثات النسويات بتحديـد المعايير الاجتماعية السائدة (social norms)، دون استخـدام مناهـج تفاعلية قـد تؤثر في المعايير التي يسعـين لدراستها" (Reinharz 1992، p. 151).

كذلك يمكن توظيف تحليل المضمون كميا وكيفيا، ومن أي موقع نظري أو إبستمولوجي، بما فيها العديد من أنواع النسوية. فيمكن للباحثات النسويات توظيف تحليل المضمون الكمي (quantitative content analysis) من أجل "تحديد الأنساق الواردة في التأليف والموضوع والمناهج والتأويل" (Reinharz 1992، p. 155). إن هذا النوع من المقاربات يمكنه أن يبني مادة علمية قابلة للاستخدام من أجل الدفع بالتغير الاجتماعي في مجالات السياسة العامة أو التعليم. فعلى سبيل المثال، قد يكشف تحليل المضمون الكمي النسوي عن أنساق ذات أهمية إحصائية بشأن التحيز على أساس النوع أو الأصل في الاختبارات الوطنية الموحدة (national standard-ized tests). ويمكن للباحثات والباحثين استخدام نتائجهم في التعبئة من أجل التغيير. ومن جانب آخر فإن تحليل المضمون الكيفي يمكنه مساعدة الباحثات النسويات على تفسير وتأويل وثيقة ما بأكملها أو في أجزاء (Reinharz 1992، p. 159)، وعادة ما يتم ذلك بمقاربة تنطلق من قاعدة نظرية حيث "تخرج الفئات التحليلية" من المادة نفسها (Reinharz 1992، p. 161). وتحت مظلة هذه المقاربة النسوية الكيفية يمكن للباحثات والباحثين على سبيل المثال استخدام مفردات بشكل مباشر من النص المدروس لإعداد فئات التحليل، وهي مقاربة تنتج تحليلا للأفكار يتضمن مادة وصفية غنية يمكن استخدامها في توليد النظرية.

وإلى جانب التطبيقات الكمية والكيفية العامة لتحليل المضمون، تقوم كثير من النسويات أيضا بتطبيق ما بعد الحداثة (postmodern) وما بعد البنيوية (poststruc-tural)، من حيث النظرية والمبادئ التي تحكمها، في مشروعات تحليل المضمون. وبينما يمكن للباحثات النسويات الاستناد إلى نطاق من النظريات خلال إعداد خطط الأبحاث المعتمدة على تحليل المضمون، إلا أنني أرى من الأهمية الربط بين ما بعد الحداثة وبين تحليل المضمون النسوي الذي أراه ممارسة بحثية متزايدة داخل البحث النسوي. فكما رأينا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، لقد شهدت العقود الأربعة

الماضية طفرة في تطور الإبستمولوجيا والنظرية النسوية ما بعد الحداثية، وهي طفرة لم تظهـر من فراغ بل ترتبط بالتزايد العـام في الدراسات الثقافية داخل المجال الأكاديمي (Hesse-Biber & Leavy 2004).

فعلـى مـدار العقـود القليلة الماضية فـإن ظهور مفاهيـم جديدة بشـأن طبيعة الواقع الاجتماعـي وطبيعـة البحث الاجتماعـي قـد أدى إلى تزايد استخدام تحليـل المضمون والتوسع فيه داخل مجال الدراسات الثقافية ذي السمة البينية (interdisciplinary). وعلـى وجـه الخصوص نجد أن المراجعـات النقدية (critiques) ما بعـد الحداثية وما بعد البنيوية الموجهـة إلى بناء المعرفـة (knowledge construction) قد أثرت على ممارسـة البحث بشكل غير ملحوظ من خلال تغيير المنظـور النظري الذي ينطلق منه كثير من الباحثين والباحثات في ممارسة تلك المنهجيات. فقد استندت الباحثات النسويات إلى التطـورات الكبرى في هذا المجـال للدمج بين الهموم والممارسـات ما بعد الحداثية والنسوية، والتي نتج عنها تزايد في تحليل المضمون النسوي. وتحديدا نجد أن الكثيرات من الباحثات النسويات يقمن بالتحليل النصي (textual analysis) من منظور تفكيكي (deconstruction perspective) يتـم فيه تحليل النصـ لا للتعرف على ما يحتويه وإنمـا أيضـا لمعرفة أوجه النقصـ أو الإسكات أو الغياب فيـه. إن الهدف من مثل هذا النوع مـن البحث ليس لإيجاد تخمينات بشأن ما يجب توفـره فيه، وإنما تفكيك النص لمعرفـة ما يكشف عنه وما يخـرج منه وما ينشأ من مقارنـات بالتجاور (juxtaposi-tions).

• كيف نشأ وتطور تحليل المضمون؟

إن تحليـل المضمـون، وبصورة أشمـل، المناهج التي تتم بدون علـم الطرف الخاضع للدراسة (unobtrusive methods)، نشأت من الافتراض بأن في إمكاننا أن نتعرف علـى مجتمعنا من خـلال دراسة الأشياء المادية التي يتم إنتاجهـا داخل الثقافة. وبمعنى

آخـر يمكننـا أن نتعلم أشياء عن الحيـاة الاجتماعية، مثـل المعايير السائـدة، أو القيم، أو التعامـل الاجتماعـي، أو الشرائـح الاجتماعية عبر تناول النصوص التي ننتجها، والتـي تعكس العمليـات الاجتماعيـة الشاملـة (macrosocial processes) ورؤيتنا للعـالم. كذلك فإن المواد والمنتجات الثقافية لا تعكس ببساطة المعايير والقيم الاجتماعية، وللنصوص أهمية محوريـة في معرفة كيفية تشكل المعايير والقيم (Reinharz 1992، p. 151). إن النصوص والأشيـاء التي تقوم المجموعات البشريـة بإنتاجها تحمل في داخلها الأفكار الأشمل التي تعتنقها تلك المجموعات، سواء كانت مشتركة بينهم أو مثيرة للجـدل، مثل الأفـكار المتصلة بالجنس والنوع. إن تلك المناهـج تختلف عن غيرها من مناهـج البحث التي نتناولها في هذا الكتاب من حيـث كونها تستخدم النصوص وغيرها من المواد غير الحية كنقطة انطلاق لمسار البحث، وهي مسألة تميز تحليل المضمون عن الاستطلاعـات والمقابلات والبحث الإثنوجرافي، وهـي كلها مناهج تعتمد على الأفراد الذيـن "تطبعـوا" بالمعايير والقيـم المجتمعية كنقطـة انطلاق مبدئية لبنـاء المعرفة. "إن أبحاث العلوم الاجتماعية عليها مواجهة بعد من أبعاد النشاط الإنساني لا يمكن احتواؤه في وعـي الذات المنعزلة. وباختصار فـإن عليها أن تنظر إلى ما هو قائم ما وراء العالم المكون من الأفراد فرادى" (Prior 2004، p. 318).

فالباحثـات والباحثـون لا يتطفلون على الحيـاة الاجتماعية عـبر الملاحظة أو عمل الاستطلاعـات أو عقد المقابلات الشخصية، وإنما يقومون بدراسة النصوص بلا تفاعل مباشـر بين الطرفين، بما يجعل مسـار البحث يتم بدون علم الطـرف الخاضع للبحث (unobtrusive process). ويمكن دراسة العديد من أنواع النصوص والمواد الثقافية المختلفة التي تتضمن ولا تقتصر علـى الوثائق التاريخية والصحف والمجلات والصور الفوتوغرافيـة والكتب واليوميـات والأدب والموسيقى والسينمـا والتليفزيون والمواقع الإلكترونية.

وتنظـر الباحثات النسويات إلى المواد الثقافية عـبر إطار معين والذي يميل إلى لفت انتباههـن إلى المواد الثقافية ذاتها ككل و/أو في أجزائهـا المنفصلة، بالإضافة إلى جذور نشأتهـا وإنتاجها. "تميل الباحثـات النسويات المعاصـرات المتخصصات في النصوص الثقافيـة إلى اعتبـار المعنى صادرا عـبر وسيط مـا، وبالتالي يملـن إلى دراسة النص والمسارات التي أدت إلى إنتاجه" (Reinharz 1992، p. 145).

وتدرك النسويات أن النصوصـص لا تنتج داخل فراغ وإنما هي نتاج لزمان ومكان معـين بكل ما يتضمنه مـن تقنيات الإنتاج وإعـادة الإنتاج، وإلى التفـاوت في إمكانية الوصـول إلى هذه التقنيات، وإلى المعايير والقيم الثقافيـة التي توجه كافة مناحي الحياة الاجتماعية. فعلـى سبيل المثال، من المرجح في المجتمع الأبـوي أن تحتوي النصوص التـي تم إنتاجها في أماكن بـارزة داخل هذا السياق على آثار للأفـكار متأثرة بعلاقات القـوى بين الجنسين فيما يتعلق بالواقع الاجتماعي. "إن المواد الثقافية هي نتائج للنشاط الفردي، والتنظيم الاجتماعي، والتكنولوجيـا القائمة والأنماط الثقافية" (Reinharz 1992، p. 147).

ومثلما يمكن للنصوص أن تكون جزءا أساسيا في خلق النظام السائد والحفاظ عليه، كذلـك يمكن لهـا أيضا أن تساعد في مواجهـة المعتقدات والممارسـات الراسخة. فيمكن للنصوصـص أن تكون مصادر للمقاومة، بمـا في ذلك المقاومة النسوية، والتي يمكنها أن تكون جزءا من مشروع للتحليل النصي النسوي.

وفي هـذا الصدد تقـوم بعض الباحثات بتوظيف التفكيـك (deconstruction) من منظـور نسوي. فتطرح لوسي أيريجاراي (Luce Irigaray 1985) التفكيكية كمنهج "تنصهر فيه الآلة النظرية" من خلال الكشف عما هو غائب في التمثيل (representa-tion)، ومـا يتم اعتباره أمرا مفروغا منه، وما يحتل موقعا مركزيا مقابل ما يتم دفعه

عنـوة إلى الهوامش. إن هـذه الجهود لا تركز دوما على التمثيـلات السائدة ولكنها قد تتضمن نصوصـا مقاومة، فمثلما تكون الثقافة الجماهيريـة موقعا للصراع على المعنى كذلـك هنالـك آثار للمقاومة يمكـن تتبعها في أنـوع كثيرة من التمثيـلات. والنسويات مهتمـات بدراسة الصـور المتنوعة التي تنشأ بهـا المقاومة والـرؤى النسوية في أشكال تمثيلية مختلفة.

وبينما تشتمل المناهج التـي تتم بدون تفاعل بشري على نطاق واسع من الإمكانيات المنهجيـة، فـإن "تحليل المضمـون" كان تاريخيا منهجا أساسيا من تلـك المناهج. وكان تحليـل المضمون يشير تقليديـا إلى دراسة النصوص المكتوبة، وقـد كانت هذه الممارسة في أصولها كيفيـة بطبيعتها، فكان الباحثون والباحثات يتتبعـون أمرا محل اهتمامهم، كالمصطلحـات المتصلة بالنـوع أو الأصل، ما من حيث ظهـوره في صحيفة ما. ولكن الكثيرين من الباحثين والباحثات الآن لا يتوقفون أمام فكرة الكيفي والكمي عند التفكير في تحليـل المضمـون، إذ يقوم تحليل المضمون بدمج هاتين الفئتـين؛ ولذا يمكن اعتباره منهجـا "هجينا" (hybrid). ويمكن تصور تحليل المضمـون باعتباره في أساسه منهجا مختلطا يمزج بين المناهـج في التحليل، أو باعتباره منهجا يتضمن دوما إمكانية التطبيق الكيفـي والكمي. وتشـير دراسة بـاور (Bauer 2000) إلى تحليـل المضمون بوصفه "أسلوبـا هجينا" كان على الدوام، حتى عند القيام بـه كميا، مقاربة تكمن فيها سمات التهجين في البحث، وهو ما يرد في الآتي:

> بينمـا نجد أن معظـم دراسات تحليـل المضمون التقليدية تبلـغ ذروتها في التوصيفـات العددية لبعضـ سمات العمـل النصي، فإنه يتـم توجيه قدر من التفكـير صوب "الأنـواع" و"الصفات" و"الفـروق" في النص قبل القيـام بأي تصنيف عددي. وبذلك يقوم تحليـل المضمون ببناء جسر بين الشكلانيـة الإحصائية (statistical formalism) وبـين التحليل الكيفي

للمــواد. إن الفاصل بين ثنائية الكم/الكيــف في الأبحاث الاجتماعية يكون تحليــل الخطاب أسلوبــا هجينا قادرا علــى الوساطــة (mediate) في هذا الخلاف غير البناء حول الفضائل والمناهج (Bauer 2000، p. 132).

وبصرف النظر عن المدى الــذي نصل إليه عند التفكير في تحليل المضمون باعتباره هجينــا أو منهجــا ذا قدرات استقرائية واستنباطية، فإنه ما مــن شك أن علماء الاجتماع ساهموا بواسطة هذا المنهج في المعرفة ككيان عام وذلك بطرق مهمة تحمل قوة إحصائية ووصفية.

إن العمليــة التــي يختارها الشخص عنــد استخدام منهج تحليــل المضمون تعتمد على ســؤال البحث، والأســاس الإبستمولوجي، والمقاربة المنهجيــة، ومدى كون مشروع البحــث استقرائيا أم استنباطيا (أو كيفيا أو كميــا). إلا أن تحليل المضمون يتطلب عموما عينــة من المــادة البحثية التي يتم تقسيمهــا إلى "وحدات التحليل" (مثــل سطور النص، أو مشاهــد الفيلم، وغيرها). ثم يتم تكويد المادة، بمعنــى تصنيفها ضمن فئات مسبقة أو مستنبطــة، والتــي قد تكون إما حرفية/محــددة أو أكوادا عامــة (metacodes) أشمل وذات طبيعــة ذهنية. أما نتائج التكويد فتتمثل بطــرق عديدة. ويبين الشكل التوضيحي لتحليل المضمون التالي (Content Analysis Flowchart)، والمقتبس من كتاب عن ممارسات البحث الكيفــي (Hesse-Biber & Leavy، The Practice of Qualitative Research، 2006)، نمــاذج متعارف عليها لتحليل المضمون من المنظورين الكمي والكيفي.

الشكل التوضيحي لتحليل المضمون*

النموذج الكمي (الاستنباطي)

1. سؤال البحث والفرضية. (research question and hypothesis)

↓

2. التصور الذهني. (conceptualization)

(ما المتغيرات المستخدمة؟ وكيف يمكن تعريفها؟)

↓

3. الإجراءات التنفيذية. (operational measures)

(تستهدف اكتساب صدق داخلي وصدق ظاهري)

أ. وحدة التحليل

ب. القياس

يمكن للتصنيفات أي تكون: مستنفذة

ومنفردة مقصية لغيرها

أو

"افتراضية".

4. التكويد (coding)

↓

5. اختيار العينات (sampling)

(اختيار عينة عشوائية كمجموعة جزئية من المضمون)

↓

6. الثبات المنهجي. (reliability)

يمكن استخدام: كودين للتثبت ما بين الأكواد

أو

برنامج كمبيوتر للتحقق

↓

7. إذا تم التثبت يدويا؛ (الخطوة رقم 6)

فيتم تطبيق اختبار إحصائي. (statistical check)

↓

8. العرض في جداول توضيحية والتمثيل (tabulation and representation)

---

* مصدر الشكل التوضيحي *The Practice of Qualitative Interviewing, adapted from Neuendork, K. Reprinted with permission*

النموذج الكيفي

(الاستقرائي)

6
ضبط الأكواد

5
ملاحظات

7
تحليل

3
توليد الأكواد

1
مجال الموضوع

2
تحليل المجموعة

8
التمثيل

4
إعاد تحليل المادة
تحليل المادة
الإضافية

التأويل المتجسد

تتعدد مزايا تحليل المضمون بالنسبة للباحثات النسويات من أوجه متنوعة. فقد تستخدم الباحثات النسويات تحليل المضمون لدراسة مدى تناول قضايا النساء والمنظور النسوي في وسيط ثقافي ما، وكذلك طبيعة المضمون (كتب التاريخ الدراسية، والمسلسلات الاجتماعية، والأدبيات الطبية، . . . إلخ). كما قد تهتم النسويات باستخدام تحليل المضمون لتناول التنوع والاختلاف في وسيط ثقافي ما.

- إلى أي مدى تكون النساء، أو أي فئة مقهورة، مرئية أو غير مرئية في وسيط ما؟
- كيف يتم إضفاء النوع على اللغة في وسيط ما؟ وكيف تستند التمثيلات إلى صور نمطية على أساس النوع أو الهوية الجنسية أو الأصل العرقي؟

هذان مجرد مثالين على الأسئلة التي قد تطرحها محللات المضمون النسويات عند التفكير في استخدام هذا المنهج عند جمع المادة البحثية.

وإذا أخذنا في الاعتبار أنواع القضايا التي قد تهتم بها الباحثات النسويات، فكيف استخدمت الباحثات النسويات هذا المنهج الفريد؟ وكيف يمكن للباحثات النسويات استخدام المواد غير الحية لدراسة العالم الاجتماعي؟ وكيف يمكن للنصوص- بأشكالها المتنوعة- أن تستخدم كنقطة انطلاق لفهم العمليات الاجتماعية ولتوليد نظريات عن الحياة الاجتماعية من منظور نسوي؟ وما فوائد استخدام مواد غير حية في الممارسة والتطبيق النسوي؟

التحليل النصي النسوي

لقد استخدمت الباحثات النسويات تحليل المضمون لأشكال الوسائط الإعلامية المتنوعة لتناول نطاق من الموضوعات التي تقع في القلب من فهمنا للنوع والاختلاف، بالإضافة إلى الأبحاث التي تستهدف إحداث فعل اجتماعي. وفي الواقع قامت الباحثات

النسويـات باستخدام تحليل المضمون لدراسة مدى تناول الهموم النسوية بالبحث داخل المجال الأكاديمي.

وهناك تصور طال أمده في أوساط الباحثات النسويات بأن الهموم النسوية تتعرض للتهميشـ داخل المجال الأكاديمــي، وأن البحث النسوي لا ينال التمويل وفرص النشر بالمعدل الذي تناله الأبحاث غير النسوية، بما يدفع الباحثات والباحثين إلى النشر خارج إطار الدراسات النسوية. وللأسف فإن كثيرا من هذا الانتقاد ينقصه ما يدعمه إمبيريقيا. وفي هذا الصدد قامت دراسة بتحليل مضمون لأدبيات علم النفس المجتمعي (commu-nity psychology)، لمعرفة مدى وشكل تناول الهموم النسوية في الدراسات المحكّمة في هذا المجــال (Angelique and Culley 2000). وباختصار كانت الدراسة تبحث عن المضمون النسوي، وكان القصد من هذا البحث ملء الفجوة القائمة في المعرفة حاليا بالاستنــاد إلى سلطة النصوص الموجودة مسبقا. ونظرا إلى أن المادة البحثية هنا تكونت من النصوص المكتوبة فإن هذا النوع المحدد من تحليل المضمون يشار إليه أيضا بمسمى التحليل النصي (textual analysis).

وقد قامــت تلك الدراســة على تحليل مضمــون 2178 مقالة منشــورة في دوريتين محكّمتــين في مجال علم النفس المجتمعي. وقامــت الباحثتان بتعريف المضمون النسوي (feminist content) تبعــا لثلاثة مكونات وهي كالآتــي: "1) الوعي بقضايا النوع. 2) الخلــل في موازيــن القوى على أســاس تراتبية النوع. 3) التحليــل السياقي متعدد المستويــات". (Angelique and Culley 2000، p. 797). وقــد أشارت الدراسة إلى وجــود أوجه تقدم ومساحات مثيرة للقلق. فعلى الجانــب الإيجابي، اتضح وجود ميل نحو مزيد من الاهتمام بالقضايا "المتعلقة بالنساء" والنسوية، ولكن مع ذلك اتضحت كــثرة الصور النمطية للنساء وغيرهن من المجموعات المهمشة، وعلى الرغم من زيادة المقالات التي تدور حول النساء فقد كان وجود النساء عامة غير مرئي في أحيان كثيرة.

إن هــذه الدراسة تقدم نموذجا لكيفية استخدام الباحثــات النسويات لتحليل المضمون مــن أجل تنــال التقدم والمشاكل القائمــة في مجال الأبحاث المتصلــة بالنساء. كذلك فإن استخــدام تحليل المضمون سمح بإنتاج مــادة إمبيريقية تحمل داخلها بعدا من الأصالة في مجال طالما ظل إلى حد كبير في نطاق التخمين.

كذلــك تستخــدم الباحثات النسويــات التحليل النصــي أيضا في تنــاول القضايا ذات الأهميــة المحورية في حيــوات النســاء - أي القضايا التي تم وضعهــا تاريخيا في مكانة غير مرئية داخل الأدبيات الأكاديمية. وفي دراسة تحليل مضمون طولية (longitu-dinal (content analysis)، Hall and Shepherd Stolley 1997) للــزواج والأسرة في الكتب الدراسية في الفترة ما بين عام 1950 وعام 1987 تم تتبع كيفية تمثيل الإجهاض والتبني في هذا النوع من النصوص، وكيفية تغير التمثيلات بمرور الزمن. ومن خلال استخدام استراتيجيات التكويد الكمية والكيفية في آن، قامت الدراسة بتناول مدى التغطية التي تمت لهذيــن الموضوعين في تلك النصوص، كما تمت تحليل للأفكار الرئيسيــة (thematic analysis) لتتبع نوع التغطية. وقد ورد شرح لأهداف البحث مفــاده: "إن هذا البحــث يسعى لتحديد ما إذا كانت أنــواع التصوير التي نجدها على مر الزمــن تعكس التغيرات في المضمون المجتمعي للإجهاضــ والتبني باعتبارهما قضيتين اجتماعيتين" (Hall and Shepherd Stolley 1997، p. 74).

إن إدمــاج المنظــور النسوي وتوظيفــه في هذا البحــث أثر في أنــواع الموضوعات والأفكار الرئيسية التي خرجت من المادة البحثية. فقد أشارت الدراسة إلى أن موضوع الإجهاض لاقى تغطية أكثر بقدر ملحوظ من موضوع التبني، ولكن العنصر الكيفي في هذا البحث ساعد على تسليط الضوء على أن طبيعة تصوير الإجهاض اختلفت بعد جعل الإجهاض قانونيا. كما اتضح في البحث أن المنظور النظري الوظيفي (functional-ist)، يســود تلك النصوص، وهو منظور كثــيرا ما يحذف أصوات النساء والتجارب الشخصيــة، مع إعلاء مثــل الأسرة النووية بينما يقدم صورة سلبيــة للأسر "البديلة"،

ويتعامل مــع الإجهاض باعتباره انحرافا. إن التحول الذي حدث بعد قضية Roe v. Wade)، مع تأكيد المنظــور الوظيفي، يشير إلى أن القوى الاجتماعية والعقابية فاعلة وبالتــالي تعمل على تشكيل المنظور الذي يتم من خلاله تأليف تلك الكتب. ومن الأمور ذات الأهمية الخاصة بالنسبة للباحثات النسويات هو مدى تهميش المنظر النسوي في تلك الكتــب، وهي مسألة بالطبع جديرة بالملاحظة مــن منطلق كون تلك الموضوعات تعتبر موضوعات ترتكز على النساء. وفي هذا الصدد نجد الآتي:

> إننـــا نرى أن النظرية الوظيفية (functionalism) قد أصبحت جزءا من ظواهــر الحيــاة الأسرية ذاتها بدلا من أن تكون مجــرد منظور واحد من بــين العديد منها المستخدم عند دراسة الحيــاة الأسرية. إن اعتبار المنظور الوظيفي أمر مفروغ منه يميل إلى تقليص إمكانيات إدخال أكثر من منظور متنوع إلى دراسات الأسرة (family studies). وقد تم في التخصصات التــي تمتد بجذورها في المنظور الوظيفي دمــج المنظور النسوي والمنظور متعدد الثقافات (multi-cultural)، ولكنهما أقرب إلى التعرض للعزلة والتقييــد . . . أو التهميش. . . . ومع أن المنظور النسوي والمنظور متعدد الثقافات بشأن الحياة الأسرية هما منظوران متاحان بالفعل، فإننا نعتقد أن تأثيرهما علينا كباحثات وباحثين وكمدرسات ومدرسين ربما يظل قاصرا ومحــدودا إلى أن تتطور النظريات النقدية التــي تواجه صدارة "الأسرة التقليديــة" لدى الوظيفيين لتصبح أكثر انتشارا وقبولا واعترافا بها Hall) and Shepherd Stolley 1997، p. 81).

وبالإضافة إلى شــرح كيفية تعرض المنظور النسوي في هذا المجال للتهميش، سعت الدراسة أيضــا إلى تسليط الضوء على التفاعل القائم بين الــرؤى النظرية والممارسات البحثية.

ويوجـد العديـد من الأمثلـة على النسويـات القائمـات بالتحليل النصـي للنصوص الجماهيرية لدراسة المنظـور الذي يتم تأكيده أو تهميشه في نصوص معينة. فعلى سبيل المثـال قامت دراسة مضمون طولية بتحليل مجلـة سفنتين (Seventeen Magazine) الصادرة في الفترة ما بـين عام 1945 وعام 1995، وذلك لتحديد أثر الحركة النسوية على هذه المطبوعة في لحظات مختلفة من الزمن (Schlenker، Caron and Halt-man 1998). كذلـك قامت دراسة بتحليل مضمـون للكتب الدراسية عن تاريخ العالم لبحـث عدة جوانب من المضمون الذي يتنـاول النساء (Commeyras and Alver-mann 1996). وهنالـك دراسة لتحليل مضمون الكتب الدراسية الأمريكية في مدخل إلى العمـل الاجتماعـي، وذلك لتتبع مـدى احتوائها علـى أبحاث نسويـة وراديكالية ومناهضة للعنصرية.

إن التحليـل النصي النسوي منهج مهم لأن الباحثات والباحثين يميلون عند استخدام منظـور نسوي إلى طـرح أسئلة بحث مختلفـة ويتناولون المادة البحثيـة بشكل مختلف ويستخدمون النتائج المعرفية لإحداث تغيير فكري واجتماعي وسياسي.

وتتناول الباحثة سهيلة كيركا شرودر (Suheyla Kirca Schroeder) بعض تلك القضايـا، بما في ذلك النظر إلى النساء باعتبارهـن منتجات للثقافة الجماهيرية لا مجرد مستهلـكات لها، بالإضافة إلى موضوعات حيوية أخرى نتعرف عليها في المقطع التالي من "ما وراء الستار".

ما وراء الستار مع سهيلة كيركا شرودر

مقاربة منهجية لدراسة النسوية والثقافة الجماهيرية:
حالة المجلات النسائية

لا يوجد اتفاق متعارف عليه بشأن الأمر الذي يشكل النسوية بوصفها نظرية وممارسة، أو الأمر الذي يشكل البحث النسوي. إذ نجد مقاربات متنوعة لدراسة ومواجهة عدم المساواة في النوع في العالم الاجتماعي. وبما أن عملي البحثي ينتمي إلى مجال الدراسات الثقافية، فإنني أقوم بتوظيف مقاربة الدراسات الثقافية لمدرسة برمنجهام في دراسة النوع والإعلام والثقافة المعاصرة. فطبقا لهذا المنظور يتم النظر إلى النصوص الإعلامية باعتبارها مواقع مركزية للتفاوض حول النوع، كما أنها تتسع للتمثيلات الثقافية المتناقضة للنوع، وحيث يتم تعديل تلك التمثيلات وإعادة تشكيلها وإعادة إنتاجها. وتعتبر النصوص الإعلامية مجالا للصراع والخلاف. فإذا تبنينا هذا الموقف فإن النصوص الثقافية تبدو مهمة بالنسبة للتحليل النسوي لقربها من عمليات إنتاج المعاني السائدة وتعزيزها بشأن فئتي الرجل والمرأة والاختلاف الجنسي. إلا أن أوجه الخلاف حول تلك المعاني لا يمكن النظر إليه كمجرد تمثيلات نصية لعلاقات النوع في أشكال معينة من الثقافة الجماهيرية، وإنما هي تحمل أهمية أيضا "في حيوات النساء والرجال الذين يستهلكونها ويستخدمونها ويستوعبونها في سياقات ممارساتهم وعلاقاتهم الاجتماعية اليومية" (Roman & Christian-Smith 1988، p. 4). إن الأشكال الثقافية تبدو بالتالي مصادر مهمة لتوفير السياقات التي تضم علاقات القوى المتصارعة التي تتعرف داخلها النساء والرجال على أدوارهم في إطار عملية التحول إلى الأنوثة والذكورة.

فكيـف يمكننـا دراسة هـذه النصوصـص الثقافية التـي تتضمن تمثيلات متعارضـة ومتناقضـة للرجـال والنسـاء؟ أرى أن علينـا الاقتراب من الموضـوع بشكل يمكننا من دراسة الكيفية التي يتم بها إعادة إنتاج الذوات على أساس النوع، ومعرفـة الطرف الذي يقوم بإعادة إنتاجها، والجهة التـي يحقـق ذلك مصالحهـا، وكيفية تشكيلهـا. وأود أن أطـرح منهجية لدراسة تمثيلات هويات النوع التقليدية وكذلك الصور والقيم النسوية التي يتـم التعبير عنها وتشكيلها و(إعـادة) تعريفها في شكل ما من أشكال الثقافة الجماهيرية، أي المجلات النسائية. (ملحوظة: لقد استخدمت، في الواقع، هـذه المنهجية في إحدى دراساتي التـي قمت فيها بتتبع التبادل الحيوي بين السياسيـات النسويـة ومصالح النسـاء السائـدة أو الاستهلاكية، وفحص العلاقة بـين مفهومي النسوية (feminism) والأنوثة (femininity) في المجلات النسائية المعاصرة. (انظر/ي: Kirca 2011).

إن المنهجيـة مشتقة مـن النظرية النقدية النسويـة والدراسات الثقافية، وهـي في الأساس كيفية بطبيعتها وتتضمـن السيميولوجيا (semiology) وتحليـل الخطاب والتحليـل النفسي والمقابـلات محكمة البنـاء. كما أقوم بتطبيق تحليـل المضمون علـى النصوص المكتوبـة. إن السبب من وراء القيام بتحليل المضمون يتمثـل أولا في التعرف على الموضوعات الواردة في المجـلات النسائية ومدى تكرارها. والأمر الثاني وهو الأهم واكتشاف كيـف تعمل هـذه الموضوعـات كأنظمـة دالـة (signifying systems) وحاملة لأيديولوجيـا معينة، وكيف تتعامل تلـك الأيديولوجيا مع تشكيل الأنوثـة والمفاهيم والصور النسويـة المعاصرة. إن هـذه المنهجية تتيح لنا دراسة الطرق المختلفة التي يتم بها إدماج القيم النسوية والنقاشات الأوسع عـن الأدوار غير التقليدية للنساء، وتناولهـا في المجلات النسائية الوطنية التي تتسم بارتفاع معدلات التوزيع.

وبينما يلقى تحليل المضمون قبولا في مجال العلوم الاجتماعية، فإنه لا توجد قواعد ثابتة تحدد إطاره. إذ تتنوع الأشكال والوحدات ومستويات التحليل ما بين نص وآخر، بناء على الهدف من البحث. وما أقصده أنا من استخدام تحليل مضمون المجلات النسائية هو إنتاج قاعدة كمية للتحليل الكيفي. فهو يقوم بتجميع مواضع التكرار في خصائص المضمون المختلفة -من مفردات أو نصوص- وبالتالي يحدث على المستوى السطحي. وهو منهج يساعد في التعرف على القضايا التي يتم تناولها أو تجاهلها في مجلات بعينها. أما المنهج الكيفي، على الجانب الآخر، فيتيح دراسة مستويات أعمق من المعنى ويهتم بصورة أكبر بالمضمون كوسيط أو عاكس للظواهر الثقافية الخفية. كذلك فإن هذا المنهج الكيفي يسمح بتحليل أعقد للأفكار الرئيسية على مستوى النص الفرعي (sub-textual). ولكن هنالك تداخلا ما بين المنهجين، وهو الأمر الذي نأمل في أن يأتي بنتائج جديدة.

إن المعلومات الإحصائية بشأن عدد الدوريات النسائية الحالية ومعدلات توزيعها هي من الأمور التي يتم أخذها هي الأخرى في الاعتبار. فهي أرقام تمكننا من رسم صورة لحجم السوق وموقع المجلات التي نحن بصددها داخل النطاق الواسع الذي يضم كافة المجلات النسائية المتاحة الأخرى. إن التوقف أمام النصوص القائمة داخل أسواق بعينها وآليات إنتاجها قد يساعدنا "في توضيح السمات وآثار النصوص التي قد تغيب عن التحليل النصي أو يتم تقليل أهميتها فيه" (Douglas Kellner 1995، p. 9). إن إنتاج وتوزيع وبنية السوق هي الأمور التي عادة ما تحدد نوع النصوص الثقافية التي يتم إنتاجها والحدود الموجودة في بنيتها.

ولا يمكن تحليل أي منتج ثقافي أو تمثيلات إعلامية بمعزل عن السياق

الأعــم للملكية والسيطــرة التحريرية على المنتجــات الإعلامية. ومن هنا يتم عقــد مقابلات مع محررات المجــلات النسائية ليقدمــن آراءهن حول المجلات النسائية والقضايا النسويــة. ويتم استخدام المعلومات الواردة في المقابــلات جنبا إلى جنــب التحليل النصي للمجــلات النسائية؛ لمعرفة مدى التداخل بــين ما تقوله المحررات والمضمون الفعلــي للمجلات، بالإضافة إلى مــدى تأثيرهن في صياغة مضمون المجلات وما الذي يمكن أن تحمله خصائصهــن واستراتيجياتهن من دلالة على مستقبل المجلات النسائية من منظور السياسيات النسوية.

إن المنهجية المقترحة هنا تشير إلى قضية مهمة للغاية في النظرية النسوية. فتراث التحليل النصي وتحليــل الاستجابة (reception analysis) يضع النساء في موضع المستهلكات للثقافة الجماهيرية، وبالتالي فإن هذه المقاربة لا تقتصر على دفع النساء المتزايد نحو قضايا المتعة والاستهلاك وإنما تحافظ أيضا على الفجوة القائمة بين الأنوثة والذكورة: "هنالك عدد لا نهائي من النقــاد... ممن يصرون علــى معادلة الأنوثة الاستهــلاك والقراءة من جانب، والذكورة والإنتاج الكتابة من جانب آخر" (Modleski 1986، p. 41). وفي سبيــل مواجهة هذه الثنائيات أو التأسيس لعلاقة مثمرة بين النساء والمنتجات الثقافية، فمن الضروري للنقد النسوي التفكير في تجارب النساء باعتبارهــن ينتجن المعاني الثقافية. إن هذه المقاربــة النسوية للثقافة الجماهيرية والنوع تساعــد في فتح نصوص الثقافة الجماهيرية أمام نقاش أوســع، من خلال تحويــل التركيز من الاستهــلاك إلى الإنتاج بما يسمح بقيــام طرق أكثر فاعلية في توصيل السياسات النسوية وتطوير النظريات التي تتناول تجارب النساء باعتبارهن منتجات ومستهلكات في آن للمعاني الثقافية.

تحليل المضمون البصري النسوي

- ما تحليل المضمون البصري؟
- ما الذي تكشف عنه الصور بشأن كيفية النظر إلى النساء والرجال في زمان ومكان معين؟

إن تحليل المضمون البصري (visual content analysis) يتضمن دراسة الصور المرئية. وأنواع الصور التي يمكن أن تقوم بدور المادة البحثية متنوعة وتتضمن الصور الفوتوغرافية والفنون والصور المصنوعة بالكمبيوتر. إن للثقافة نطاقا مرئيا واسعا من الصور التي يمكن من خلال تزايد تقنيات الإنتاج وإعادة الإنتاج أن تتسرب إلى مساحات ثقافية عديدة. ويمكن لدراسة هذه الصور أن يساعدنا في فهم التمثيل المتباين (differential representation). فعلى سبيل المثال يمكن للصور التي تتم بواسطة وسائل الإعلام، كتلك الموجودة في المجلات، أن تكشف عن الكثير من أنواع الجسد المثالي بالنسبة للنساء والرجال في مختلف المجموعات العرقية. فإذا كان لنا كنسويات أن ندرس مجلات تربية الأطفال للتعرف على كيفية تمثيل البنات والأولاد، فإذا كنا مهتمات بدراسة مجلات الموضة للتعرف على كيفية تمثيل النساء، فقد نتوقف أمام بعض الخصائص التالية: الوقفة، والموقف، والبروز في الصورة، والأدوار، والملابس، والهيئة، ومركزية كل شخص، والأصل العرقي وما إلى غير ذلك. وبالنظر إلى بعض الأمثلة على تحليل المضمون البصري النسوي يمكننا أن نكتسب فهما أعمق لأسباب وكيفية دراسة النسويات للصور البصرية.

وقد اهتمت دراسة بالتغطية الفوتوغرافية الصحفية للاعبات واللاعبين الرياضيين في المدارس الثانوية. وقد وضعت الدراسة تصورا بأن الإعلام والرياضة هما "المؤسستان الاجتماعيتان الأعلى مكانة والأكثر هيمنة" (Pederson 2002، p. 304). وقد سعت الدراسة إلى مقارنة أخبار التغطية الرياضية للرياضات التي يقوم

بها الرجـال والنساء وذلك لدراسة مدى تصوير الذكورة المهيمنة في التغطية الرياضية بالصحف. وقد استعانت الدراسة بعدد 827 صورة فوتوغرافية من عدد 602 صحيفة تم اختيارها بشكل عشوائي، ثم دراسة كمية الصور وأنواعها المستخدمة في تغطية الأخبار الرياضية للرجال والنساء. واستخدمت الدراسة "التحليل الوصفي" للصور للتحقق من المعلومـات من حيث ما إذا كانت الصـور تنقل لحظة ثبات أم حركة، وهي مسألة بالغة الأهميـة في دراسة النـوع والتمثيل الإعلامي. وقد توصلـت الدراسة إلى وجود عدم مسـاواة في التغطية الرياضية عبر حدود النوع، وأكدت على أن التغطية الفوتوغرافية تعـزز الذكـورة المهيمنة. وقد أتاح تحليـل المضمون البصري في هـذه الدراسة طرح أسئلـة وإجابات بحث عن عدم المساواة الاجتماعية في شكل ما كان ليمكن الوصول إليه باستخدام منهج مغاير.

ونقـدم هنا مثـالا على كيف يمكـن استخدام الصـور الإعلامية كنقطـة انطلاق في البحـث. فحين قيامـك باتخاذ قرار بشـأن موضوع الدراسة والمـادة المستخدمة تصبح خطة البحث بالغة الأهمية في إطار ممارسة الدراسات البصرية. إن عملية التحليل على وجه الخصوص تتضح جليا في هذا النوع من مشروعات البحث. وتوجد استراتيجيات كيفية عديدة يمكن للباحثين والباحثات استخدامها في تكويد المادة البصرية، فكما رأينا في الدراسة أعلاه (Pederson 2002)، إن الأكواد مثل "لقطة ثابتة" أو "لقطة متحركة" قابلة للتطبيق، كذلك فيمكن للباحثات النسويات المهتمات بمسألة تمثيل الاختلاف وضع أكواد لكل من النوع والأصل والجنسانية وغيرها من السمات الاجتماعية. وهو مسار يمكـن أن يتم من خلال مقاربة استقرائية حيث تنشأ الأكواد وتتطور من التحليل نفسه، أو مقاربة استنباطية يتم فيها الاستعانة بأكواد مسبقة للفئات المتنوعة.

ويكـثر استخدام تحليـل المضمون البصري من خلال منظـور نسوي لدراسة تمثيل النـوع في كتب الأطفال والكتب المدرسية، وهما عنصران تعترف النسويات بأهميتهما في التربيـة وبناء الهوية. وقد قدمت هذه الدراسة أدلة إحصائية ووصفية تثبت أن كتب

الأطفال بالفعل كثيرا مـا تعتمد على تنميط الجنسين. ونجد أن دور النشر هي الأخرى تأثـرت بالتحليـل النسوية، وهو مـا نراه في قـول دور نشر ماكميـلان: "الأطفال لا يتعلمـون مجرد الحساب والقـراءة، وإنما هم يتعلمون أيضـا، وأحيانا بشكل ضمني، نظرة المجتمع إلى بعض المجموعات البشرية" (Britton & Lumpkin، quoted in Evans & Davies 2000، p. 256).

- إذا كانت الصورة الواحدة أكثر تعبيرا عن ألف كلمة، فما أنواع الصور الحاملة رسالة عن النوع والتي يتعرض لها الصغار خلال فترة بنائهم لهوياتهم الذاتية؟

> وفي بحـث تناول تمثيـل الذكورة والأنوثـة في الكتـب المدرسية للمرحلة الابتدائية، قامت الدراسة على ثلاثة أهداف مبدئية: لقد انطلقنا في بحثنا هذا للإجابة على ثلاثة أسئلة. أولا: هل يتم تصوير الذكور في الكتب الدراسية بصورة يتخطـون فيها الحدود التقليدية للذكـورة؟ وبمعنى آخر، هل يتم تصويـر الذكور حاملين الخصائصـص النمطية للذكـورة والأنوثة؟ أم هل يتـم -على الأرجـح- تصوير الذكور في كتب القـراءة المدرسية للمرحلة الابتدائية حاملـين خصائص ذكورية فقط؟ ثانيا: هـل يوجد اختلاف بين اثنتـين من كبريـات دور النشر في كيفية تصوير الذكـور في إصداراتهما مـن الكتب المدرسيـة؟ وهل يمكن أن يكـون أحد الناشريـن يقدم الذكور في صـورة أكثر تنميطا مقارنة بالآخر؟ ثالثـا: هل يوجد تنوع في تصوير خصائص الذكورة والأنوثة تبعا للسنة الدراسية؟ (Evans and Davies 2000).

ونتائـج هـذه الدراسـة ذات أوجه متعددة، كمـا أنها توضح مجالا مـا زال يتطلب إحـداث تغيـير اجتماعي فيه - تغيير يمكن الدفع به من خلال نتائـج الدراسات الشبيهة بتلك التي بين أيدينا:

بالرغـم من أن نتائج بحثنا تشـير إلى عدد أكبر من المسـاواة العددية بين الذكور والإناث المصورين في الكتب المدرسية مقارنة بالدراسات السابقة، فـإن الصـورة التي يتم بها تصويـر الذكور والإناث مـن خلال السمات الشخصيـة ما زالت تحمل تمييزا جنسيا. إذ يزيد بقدر بالغ تصوير الذكور حاملـين سمات العدوانية والمجادلة والتنافـس، بينما يميل تصوير الفتيات إلى تقديمهن حاملات سمات العاطفية والتعبير عن المشاعر والسلبية. وهي نتائــج تتعارض مع التوقعات التي وضعتها تعليمات دار النشر تلك ضمن جهودهـا لخلق كتابة لا تحمل تمييزا جنسيـا في الكتب الدراسية. (Evans & Davies 2000، pp. 268-269).

وتوضح هذه النتائج مدى أهمية مواصلة البحث النسوي مساره في أي مجال كان، إذ إن "اكتشـاف" ما تحويه كتب الأطفال المدرسية من تمثيلات بها تمييز جنسي لم يكن كافيـا لتغيير الوضع بأكمله، ولا يتحقق ذلـك من خلال "تعهد" الناشرين بالقضاء على هـذا الاختلاف. ومن هنا تتضح الأهمية البالغـة لمواصلة البحث النسوي القابل للتطبيق في القضايـا الاجتماعيـة. كذلك توجد أنـواع أخرى من الكتـب الدراسية التي تتضمن صورا فوتوغرافية يمكن تناولها بمنهج تحليل المضمون. فعلى سبيل المثال قامت دراسة بتحليل مضمون الصور الفوتوغرافية لمعرفة كيفية تصوير النساء فيما يتصل بالجنسانية والزواج في الكتب العائلية. (Low and Sherrard 1999) (family textbooks). وقـد ركزت الدراسة تحديدا على الصور البصرية الواردة في الكتب الدراسية لما تحمله من سلطة، إذ قد ينظر إليها القراء باعتبارها لقطات من الواقع.

تحليل المضمون السمعي-البصري النسوي

إننا نحيا في مشهد ثقافي عام تتدفق فيه باستمرار الروايات السمعية-البصرية (audio-

visual narratives)، الآتية من أجهزة التلفاز وشاشات السينما. ويتبدى لنا مضمون تلك الروايات من تفاعل أو تداخل العناصر البصرية والسمعية والنصية. وإذا أخذنا في الاعتبار الطبيعة الاعتيادية للمواد السمعية-البصرية في حيوات الناس اليومية، فإننا نجد أن للنسويات مصلحة حقيقية في دراسة كيف تقوم الأنواع الفنية المختلفة من برامج التليفزيون والأفلام بتصوير النساء والملونين والملونات والأقليات الجنسية.

- كيف يتم تصوير البنات والنساء في أخبار المساء أو الحلقات الاجتماعية أو المسلسلات الدرامية؟
- ما الذي تشير إليه اللقطات البصرية وحركة الكاميرا وزاوية التصوير والحوار بشأن الشخصيات من الإناث في مقابل الذكور؟
- هل توجد قطيعة بين الحوار والصورة، وفي تلك الحالة ما طبيعة الرسائل المختلطة التي تصلنا منها؟

إن الأسئلة السابقة هي مجرد خطوة أولى لمعرفة الأسباب التي قد تجعل الباحثات النسويات مهتمات بتحليل مضمون النصوص السمعية – البصرية. فللمادة السمعية-البصرية خصائصها المعينة التي تجعل تناولها ذا خصوصية وأهمية بالنسبة للباحثين والباحثات، بما فيهم بالطبع الباحثات النسويات، ممن يحملن همومهن الخاصة إلى مشروع البحث.

فالمادة السمعية-البصرية فريدة لأنها تتضمن مكونات متعددة، كل في وسيطها أو لغتها الخاصة، بما في ذلك الجانب البصري والصوت والحوار. كما يتزايد تعقيد المادة نظرا لكونها متحركة (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 304). وقد قامت دراسة روز (Rose 2000) بتصور النصوص السمعية-البصرية باعتبارها "مجالات متعددة" لأنها تتضمن أشكالا نصية مميزة ومتداخلة (السمعية والبصرية والرواية النصية/الحوار). وإن تحديد وحدة التحليل واستراتيجية التكويد هما القضيتان الأساسيتان اللتان تظهران على السطح عند تناول المادة البحثية المعقدة الموضحة أعلاه.

وتشـير وحدة التحليـل (unit of analysis) إلى كل جزئية (segment) من المادة السمعية–البصرية التي سيتم دراستهـا وتكويدها. ولا يوجد منهج واحد يناسب الجميع في تعريـف وحدة التحليـل، ولكن منها تغيير المشهد أو تغيـير الكاميرا. فكما هو الحال دومـا، يجب على الإجـراءات المتبعة أن تناسـب أهداف البحـث. والنسويات اللاتي ينصـب اهتمامهن علـى طريقة تصويـر أجساد النساء (مـن حيث الزوايـا والإضاءة والتجـزيء، . . . إلخ) قد يجدن في تغيير الكاميرا نقطـة فاصلة مناسبة لجزئيات المادة البحثيـة، إذ يقـوم التحليل بتتبع الكامـيرا على مستويات عدة. وعنـد التوقف أمام هذا الجانـب من خطـة البحث، سيكون عليـك أيضا صياغـة تعريف عملـي للمقصود من مصطلحات "تغيير المشهد" أو "تغيير الكاميرا" في دراستك تحديدا.

إن تكويـد المادة السمعية–البصرية يحمل تحديـات وأمورا كثيرة بسبب طبيعة المادة متعددة الحقول (multifield). ومن الأمور التي يتعين التوقف أمامها ما يلي:

- هل سيتم تكويد كل "الحقول" (الصوت والصورة البصرية والحوار)، أم ستكون الدراسـة أكثر تركيزا وتحديدا لمجالها؟ وماذا عن اللون، والحالة المزاجية؟ جودة الفيلم/قوامه؟ وغيرها من أجزاء المادة الأكثر "تجريدا"؟
- هل سيتم النظر إلى المادة في مجملها قبل تكويد كل وحدة تحليل، وإذا كان الأمر كذلـك، فهل ستؤثر هـذه الخطوة المبدئية علـى فئات التكويد؟ وهـل سيتم تدوين ملاحظات موجزة؟
- هل سيتم وضع "الحقول" المتعددة تحت رمز كودي واحد مثلما تظهر في النص؟ أم سيتم تكويدها منفصلة؟ وما الإجراءات التي ستلي ذلك؟
- كيف سيتم تكويد النوع والاختلافات الجنسية والعرقية؟

وبالإضافـة إلى التعقيـد القائـم في المادة، لابـد للمرء من تحديد مدى كـون التكويد استنباطيا أم استقرائيا. وتستخدم النسويات مقاربات تتراوح ما بين تلك بالغة الاستنباط

وبين بالغة الاستقراء تبعا لأهداف البحث والموقف الإبستمولوجي. وبينما تقوم الباحثات النسويات بأبحاث ذات بعد سياسي واجتماعي، ويسعين إلى إدخال أنفسهن كطرف فاعل داخل مشروعاتهن البحثية، فإن اختيار أسلوب التكويد يتأثر بأمور عدة. فعند التفكير في إجراءات التكويد الاستنباطي والاستقرائي يكون من المهم إدراك أنه ليس قرارا يقوم على أساس إما/أو، لأن مقاربات الاستنباط والاستقراء موجودان على خط واحد طويل وممتد (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 306)، وهو ما تناولناه في هذا الكتاب ضمن الجزء الخاص بالإبستمولوجيا. كذلك فإنه يمكن استخدام مقاربات الاستنباط والاستقراء "بدرجات" متنوعة أو بالمزج بينهما.

وتعتمد مقاربات الاستنباط (deductive approaches) على فئات التكويد المسبقة، فعلى سبيل المثال إذا افترضنا اهتمامك بمراجعة موضوع بحثي ما سبق وأن خضع للدراسة، فتكون المراجعة لمعرفة ما الذي يكشف عنه المنظور النسوي بشأن موضوع ما قد سبق تناوله بالدراسة بواسطة باحثين غير نسويين، و/أو لرغبتك في معرفة كيف تتغير مسألة ما بمرور الزمن. ولنأخذ تصوير النساء في تسجيلات الفيديو الموسيقية (music videos) على سبيل المثال. فقد أوضحت دراسة تمت في بداية التسعينيات من القرن العشرين وجود عدة أنماط لكيفية تصوير النساء في تسجيلات الفيديو تلك، بما فيها ودون أن تقتصر على تجزيء أجساد النساء: التصوير من زاوية سفلية أو عليا، ولقطات الكاميرا الأفقية الواسعة، والنساء المرتديات أنواعًا معينة من الملابس، بما في ذلك الملابس الداخلية، وتصوير النساء في أدوار بعينها بما في ذلك المغنيات الإضافيات البديلات، وصديقات الفنانين الموسيقيين، والعاهرات، والنساء المسيطرات، وعارضات الأزياء (Jhally & Bartone 1991). إن الباحثة النسوية، وربما الإمبيريقية النسوية، المهتمة بكيفية تصوير النساء في نفس المجال الفني ولكن بعد 10 سنوات، قد تقوم بإعداد قائمة تصنيفات الأكواد بناء على الأبحاث السابقة (أكواد استنباطية) وربما معها بعض التصنيفات الإضافية (الاستنباطية أيضا) من منطلق البحث

النسوي، ثم تقوم بتكويد عينة من تسجيلات الفيديو تبعا لعدد المرات التي يرد فيها كل كود. والباحث أو الباحثة الاستنباطيان المهتمان بالنتائج "غير المتوقعة" قد يضيفان تصنيفات استنباطية إضافية تظهر على السطح خلال عملية التكويد، وقد تتبع التكويد الاستنباطي بمقاربة استقرائية لمعرفة كيف تختلف التصنيفات فيما بينها.

أما المقاربات الاستقرائية للتكويد، والتي عادة ما يتم استخدامها من منظور قاعدة نظرية ما، فتتيح للباحثة أو الباحث تطوير تصنيفات مشتقة مباشرة من المادة البحثية خلال عمليتي التكويد والتحليل. وبمعنى آخر فإن التصنيفات تظهر من خلال غربلة المادة البحثية، هي مقاربة تسمح للباحثات والباحثين استخدام لغة النص نفسه والمساهمة في خروج المادة، وهي سمة تعجب النسويات اللاتي يجذبهن الجانب الطبيعي القائم في النصوص الموجودة مسبقا. كذلك تتماشى المقاربات الاستقرائية مع الباحثات النسويات اللاتي يواجهن المقاربات الوضعية تجاه بناء المعرفة، ومنهن الباحثات اللاتي ينطلقن من منظور ما بعد الحداثة النسوية والموقعية النسوية.

وكما سبق ذكره في بداية هذا الجزء، توجد لدى الباحثات النسويات أسباب عديدة للقيام بتحليل المضمون السمعي-البصري. ومن الأسباب العامة لهذا النوع من الجهد هو اهتمام النسويات بما يطلق عليه "الإبادة الرمزية" للنساء في التليفزيون (والسينما) (Tuchman، Daniels، and Benet 1978). وهو وصف يشير إلى الإقصاء العام للنساء والتمثيلات المشوهة والنمطية التي يتم فيها تغييب منظور النساء. ومن منطلق الاهتمام بالتغيرات في "الإبادة الرمزية" للنساء في فترات ذروة المشاهدة التليفزيونية، قامت دراسة تحليل مضمون طولية لبعض أبرز الشخصيات التليفزيونية في برامج أوقات الذروة (prime-time) في الفترة ما بين عام 1967 وعام 1998 (Signo- relli and Bacue 1999)، وقد أشارت الدراسة إلى بعض التغيرات الإيجابية في التمثيل (representation) مع استمرار مشكلة قلة التمثيل أو سوء التمثيل. فقد تزايد عدد النساء على شاشة التليفزيون، ولكن عددهن ما زال أقل من عدد الرجال، كما

أن النساء يبدون أصغر سنا من الرجال، ولكن قل ظهور النساء يقمن بأعمال "أنثوية" تقليديا، وصرن يظهرن بدرجة أكبر في أعمال "ذكورية" أو محايدة من حيث النوع. إن هذه النوعية من الأبحاث المطولة مهمة لتعارضها مع التصور السائد لدى الجمهور العام بحدوث "تغير كبير"، في حين أنها تتيح لنا التعرف بدقة عما تحسن بالفعل وما الذي ما زال يتطلب المزيد من التحسين.

الخاتمة

إن تحليل المضمون منهج فضفاض يمكن استخدامه من منظومات كمية أو كيفية، ومن نطاق المنظر النظري، بالاستعانة بخطط أحادية المنهج أو متعددة المناهج، وبحيث تخدم مجالا واسعا من أسئلة البحث وأهدافه. ففي المساحة المتسعة لتحليل المضمون، يلعب البحث النسوي دورا مهما للغاية في كيفية القيام بدراسة العالم الثقافي وفهمه. وتستخدم النسويات تحليل المضمون من أكثر من منظور، ولكن بصرف النظر عن تعدد المشروعات التي يمكنهن استخدام تحليل المضمون فيها يظل المنظور النسوي في قلب العمل البحثي. إن تحليل المضمون الذي تقوم به النسويات ألقى بالضوء على أبعاد النوع في الثقافة عامة والثقافة الجماهيرية تحديدا. وتطرح النسويات أسئلة عن التمثيل، والتنميط، والصور المبالغ فيها، واللغة، وغيرها الكثير، من أجل فهم العلاقة بين حيوات النساء والرجال والبيئات النصية (textual environments) التي يخلقونها ويسكنونها. ونظرا لاهتمام النسويات أساسا بالنساء وغيرهن من الفئات المهمشة، فنجدهن يطرحن أسئلة خاصة بالثقافة الجماهيرية بأشكال ما كان في الإمكان طرحها من منظور سوى المنظور النسوي. وكما تشير العينة البسيطة من الدراسات المذكورة في هذا الفصل، فإن المعرفة المشتقة من تلك الجهود البحثية أضافت الكثير إلى فهمنا لعدم المساواة بين الجنسين، والسلطة الاجتماعية، والفرضيات التي تعتبر أمرا مفروغا منه بشأن الأنوثة والذكورة.

وبالإضافة إلى اكتشاف التمثيلات السائدة للنوع والتي تتدفق من داخل البناء الاجتماعي الأبوي والنظرية الأبوية للعالم، يمكن للنسويات استخدام تحليل المضمون لدراسة أو الكشف عن إمكانيات المقاومة في الثقافة الجماهيرية. إن الصور المبالغ فيها التي تقوم بتنميط النساء، وغيرهن من الأقليات، والتعامل معها على أساس جنسي وعنصري وتناولها باعتبارها أشياء، هي الصور التي تحتل دورا بارزا في الثقافة الجماهيرية المعاصرة وتلقى قدرا من الاهتمام من الباحثات النسويات، إلا أن النسويات وغيرهن من الباحثات والباحثين النقديين، مثل أولئك العاملين في مجال الدراسات الثقافية، يقومون هم أيضا بالكشف عن مدى إمكانية أن تكون الثقافة الجماهيرية موقعا لمقاومة القوى الأبوية وغيرها من القوى الهدامة. فعلى سبيل المثال، نجد أن حملة شركة مستحضرات التجميل "دوف" (Dove) المسماة "حملة الجمال الحقيقي" قد لاقت اهتماما إعلاميا ملحوظا كحملة إعلانية تهدف إلى تغيير معايير الجمال الأنثوي المستحيلة عبر صور تتسم بقدر أكبر من التعددية والواقعية. وهو مجرد مثال واحد صغير على إمكانيات المقاومة التي تحملها الثقافة الجماهيرية: وهو مجال يمكن فيه الكشف عن الأفكار السائدة بشأن الأنوثة والجنسانية والأصل، وكذلك مواجهة تلك الأفكار وتغييرها.

- إن التطورات التكنولوجية، بما في ذلك ظهور الإنترنت ومكوناته المتزايدة باستمرار (البورنوجرافيا الافتراضية، وخدمات المواعدة الإلكترونية، والغرف النقاشية (chat rooms)، والمنتديات (message boards)، والصور الإلكترونية (clip art) وغيرها)، بالإضافة إلى الصور الرقمية وما شابه ذلك، أدت كلها إلى تغيير الحيز الثقافي وبالتالي وفرت فرصا مهمة لنشأة صور وروايات جديدة قد تواجه الأبوية أو تعززها. وتتناول دراسة مثلا كيف أصبح للصور المولدة بالكمبيوتر وجود متزايد في بيئات العمل التجاري والتعليم. (Seidman Milburn، Carney and Ramirez 2001). فعلى سبيل المثال يكثر استخدام الصور الإلكترونية (clip art) حاليا في عرض المحاضرات لتزيين المعلومات المعروضة. وقد قامت الدراسة السابقة

بتحليل مضمون كمي لتصوير البشر في الصور الإلكترونية الجماهيرية من أجل دراسة كيفيـة تمثيل هذا الشـكل الجديد من الصور الجماهيرية للنـوع والأصل العرقي (مثلا، مـا إذا كانت الصور النمطيـة مستخدمة، أم ما إذا كان هذا الوسيط الجديد يحمل صورا أكـثر مساواة). وقد كشفت هذه الدراسة الرائـدة أن الصور الإلكترونية تعكس غيرها مـن الوسائط من حيث قلة تمثيل النساء والملونين والملونات، وأن النساء عادة ما يقدمن باعتبارهـن يقمن بأنشطـة سلبية وأدوار الرعايـة والعناية، بينما عـادة ما يتم تصوير الرجال في حالة من الحركة والنشاط وفي سياقات غير متصلة بالرعاية والعناية كالعمل أو النشـاط الرياضي. وتشير هذه الدراسة- من بين ما تشير إليه- إلى أهمية ما يتم من تحليل المضمون النسوي في المستقبل من حيث بحث الوسائط الجديدة ودراستها.

وسيظـل تحليـل المضمـون النسـوي وتقـديم منظـور وأداة لدراسـة التطـورات التكنولوجية، والطرق المعقدة التي قد تؤدي إلى خنق و/أو دعم العدالة من أجل النساء. وفي هـذا الصـدد، ومع ما يحدث للثقافة من تغير ونمو وتحـول، فسيحدث الأمر ذاته بالنسبة للأسئلة التي تطرحها النسويات بشأن الثقافة عبر منهج تحليل المضمون.

المراجع

Angelique, Holly L., & Culley, Marci R. (2000). Searching for feminism: An analysis of community psychology literature relevant to women's concerns. *American Journal of Community Psychology, 28*, 793–813.

Bauer, M. (2000). Classical content analysis: A review. In M. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image and sound* (pp. 131–151). London: Sage.

Commeyras, M., & Alvermann, D. (1996). Reading about women in world history textbooks from one feminist perspective. *Gender and Education, 8*(1), 31–48.

Evans, L., & Davies, K. (2000). No sissy boys here: A content analysis of the representation of masculinity in elementary school reading textbooks. *Sex Roles: A Journal of Research, 42*, 255–270.

Hall, E. J., & Rodriguez, M. (2003). The myth of postfeminism. *Gender & Society, 17*(6), 878–902.

Hall, E. J., & Shepherd Stolley, K. (1997). A historical analysis of the presentation of abortion and adoption in marriage and family textbooks: 1950–1987. *Family Relations, 46*, 73–82.

Hedley, Mark. (2002). The geometry of gendered conflict in popular film: 1986–2000. *Sex roles: A Journal of Research, 17*, 201–217.

Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (Eds.). (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice.* New York: Oxford University Press.

Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (2006). *The practice of qualitative research.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Irigaray, L. (1985). The power of discourse and the subordination of the feminine. In *This sex which is not one* (pp. 68–85; C. Porter & C. Burke, Trans.). Ithaca, NY: Cornell University Press.

Jhally, Sut. (Producer), & Bartone, Joe. (Director). (1991). *Dream worlds II* [Motion picture]. United States: Media Education Foundation.

Kellner, D. (1995). Cultural studies, multiculturalism and media culture. In G. Dines & J. M. Humez (Eds.), *Gender, race and class in media* (pp. 5–17). Thousand Oaks, CA: Sage.

Kirca, Süheyla. (1999). Popular culture: From being an enemy of the "feminist movement" to a tool for women's "liberation"? *Journal of American Culture, 2*(3), 101–107.

Kirca, Süheyla. (2001). Turkish women's magazines: The popular meets the political. *Women's Studies International Forum, 24*(3/4), 457–468.

Low, J., & Sherrard P. (1999). Portrayal of women in sexuality and marriage family textbooks: A content analysis of photographs from the 1970s to the 1990s. *Sex Role: A Journal of Research, 40*(3–4), 309–318.

Modleski, T. (1986). Femininity as mas(s)querade: A feminist approach to mass culture. In C. MacCabe (Ed.), *High theory/low culture: Analysing popular television and film* (pp. 37–52). Manchester, UK: Manchester University Press.

Neuendorf, K. A. (2001). *The content analysis guidebook.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Pederson, P. M. (2002). Examining equity in newspaper photographs. *International Review for the Sociology of Sport, 34,* 303–318.

Prior, L. (2004). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In S. N. Hesse-Biber & P. Leavy (Eds.), *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 317–333). New York: Oxford University Press.

Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research.* New York: Oxford University Press.

Roman, L., & Christian-Smith, L. K. (1988). Introduction. In L. Roman, L. K. Christian-Smith, & E. Ellsworth (Eds.), *Becoming feminine: The politics of popular culture* (pp. 1–34). London: Falmer Press.

Rose, D. (2000). Analysis of moving images. In M. W. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image, and sound* (pp. 246–262). London: Sage.

Schlenker, J., Caron, W., & Halteman, W. (1998). A feminist analysis of *Seventeen Magazine:* Content analysis from 1945–1995. *Sex Roles: A Journal of Research, 38*(1–2), 135–149.

Seidman Milburn, S., Carney, D. R., & Ramirez, A. M. (2001). Even in modern media, the picture is still the same: A content analysis of clip art images. *Sex Roles: A Journal of Research, 44,* 277–294.

Shindler Zimmerman, T., Holm, K., & Starrels, M. (2001). A feminist analysis of self-help bestsellers for improving relationships: A decade review. *Journal of Marital and Family Therapy, 27*(2), 165–175.

Signorielli, N., & Bacue, A. (1999). Recognition and respect: A content analysis of prime-time television characters across three decades. *Sex Roles: A Journal of Research, 40,* 527–540.

Tuchman, G., Daniels, A. K., & Benet, J. (Eds.). (1978). *Hearth and home: Images of women in the mass media.* New York: Oxford University Press.

Wachholz, S., & Mullaly, B. (2000). The politics of a textbook: A content analysis of the coverage and treatment of feminist, radical, and anti-racist social work scholarship in American introductory social work textbooks published between 1988 and 1997. *Journal of Progressive Human Services, 11*(2), 51–76.

الفصل التاسع

مقاربات نسوية
إلى البحث متداخل المناهج

دينيز ليكينبي

شارلين ناجي هيسي-بايير

حكاية متداخلة المناهج

> زو، وهــي مراهقة بيضاء من سكان الضواحي، متحدثة عن الجنسانية والرغبة: "لا أعلم إن كان في استطاعتك الإحساس بها (الرغبة) في حال حدوثها مع شخص لا تحبينه."

بيفيرلي، مراهقة أفروأمريكية، متحدثة عن الجنسانية والرغبة: "إن أردت فعل شيء فافعليه. وإن لم تريدي فلا تفعليه. . . . جسدي كان يقول نعم ولكن فمي كان يقوم لا."

المصدر: (Tolman and Szalacha 1999، 114-115)

الفتاتــان زو وبيفــيرلي مراهقتــان تختلفان من حيــث الطبقة الاجتماعيــة والأصل والخلفية العرقية، وتعبران عن جوانب مختلفة من تجاربهما حول الجنسانية (sexual-ity)، والرغبــة (desire). ولنفترض أن لديك اهتمامًا بدراسة تجارب المراهقات في الجنسانية والرغبة، ولديك اهتمامًا بالتعرف على كيفية معايشة المراهقات لجنسانيتهن،

ورأيهـن في أجسادهن، وكيف يتعاملن مع الاختيارات العديدة التي يتعين عليهن القيام بهـا باعتبارهن كائنـات جنسية؟ ولنفترض أن في مجال تخصصـك البحثي، ولنقل إنه علم النفس، تجدين أن الكثـير من الدراسات الإمبيريقية السائدة هي دراسات بطبيعتها كمية[1](quantitative)، تستخدم أبحاث المسح الاستطلاعي[2](survey research). والصـورة التـي تقدمها تلـك الدراسات، علـى أهميتها في مجال بحثـك لفهم الصورة الأوسـع للجنسانية والنشاط الجنسي لدى مجموعة معينة مـن الفتيات، لا تبدو مشتملة علـى التفاصيل الدقيقـة والعميقة التي تتوقعين وجودها في حيـاة الفتيات اللاتي تريدين دراستهـن. كما تشعرين أنها منهجيا[3] لا تتضمن تفاصيل المعلومات والمعاني التي يعجز البحـث الاستطلاعي عن الإمساك بها، حيث تحمل -من وجهة- نظرك صورة صماء وأبوية داخل إطار البحث الوضعي الدارج.

ولنفترض أيضا أنك نسوية، من حيث المنظور الإبستمولوجي المعرفي[4] النقدي الذي يساعـدك في تناول عملك ومـن حيث منظورك السياسي. فأنـت تريدين إنتاج أبحاث مـن أجل النساء والفتيات، لا عن النساء والفتيات. ويقدم لك منظورك النسوي حزمة مـن الأدوات التي تساعدك علـى نقد المناهج الكميـة وتفنيدها، وخاصـة الطرق التي كثـيرا ما يتم استخدامها في الأبحـاث عن النساء والفتيات وغيرها مـن الفئات التابعة. إن هـذه التفرقة مهمة بالنسبـة إليك لأن المنظور النسوي الـذي تنظرين إلى عملك من خلالـه وكذلك نيتك من العمل هي إنتاج أبحـاث قد تفسح مجالا للتغيير الاجتماعي. إن نظرتـك للعالم تشجعك على القيـام باستكشاف لما تقوم به النسويات الأخريات من عمل داخل مجال تخصصك وخارجـه. وتكونين مدركة لعدد من الدراسات التي قامت بها باحثات نسويات حول جنسانية الفتيات والنساء، والتي تنطلق من أرضية تراث البحث الكيفـي. (Fine 1988; Welsh، Rostosky، & Kawaguchi 2000; White، Bondurant، & Travis 2000). تشعرين أن الأبحاث الكيفية التي تتناول تجارب الفتيات والنساء بشأن جنسانيتهن تعالج إحدى أهم مشاكل البحث الكمي حيث لا تختزل

أفعــال الفتيات وسلوكهن ككائنات جنسية ضمن تصنيفات "صالحة" أو "سيئة"[5] (Tol-man & Szalacha 1999، 8). وتركـز الأبحــاث الكيفية على المعاني الذاتية وتأمل التجارب وعلى قدر كبير من التأمل الاستكشافي لجنسانيات الفتيات والنساء.

وعنــد تأمل الخيارات المنهجية المتاحة أمامك تجدين نقاط قوة في كل منهما، فالمناهج الكميــة ملائمــة تحديدا عند النظر إلى علاقــات السببية "السبــب والنتيجة" بين عدد من العوامــل التي يتم الإشارة إليها بمفهوم المتغـيرات (variables). كما تساعدك المناهج الكميــة في اختبــار الفرضيات والفحصــ الاستنباطي للنظريات القائمــة بشأن جنسانية الفتيــات. وهنالك كثرة في المواقــف النظرية داخل تخصص علــم النفس والتي تجعلك تشعرين بوجودها الكامن وراء سؤال بحثك والمجموعة البشرية موضوع البحث. ومن جانب آخر فإنك تجدين أن الكثير من البحث الكمي والنظرية السائدة في مجال تخصصك تقدم صــورة بالغة التبسيط لسلــوك الفتيات وأفعالهن. فالنظــر إلى العالم عبر منظور نســوي يجعلك أكــثر اهتماما بتمثيل النســاء والفتيات في البحث، ومنظــورك السياسي يجعلــك أكثر وعيا بأن دعاة السياســات العامة ومؤسسات التمويل والحكومة بل وحتى المؤسســات التعليمية تستخدم كلها قــدرا كبيرا من أبحاث العلوم الاجتماعية الكمية حول جنسانيــة الفتيات. كما تدركين أن البحث الذي يدور عــن الفتيات يؤثر على حياتهن. إن مصــدر القوة الكامــن في البحث الكمي يدفعك للتوقف برهــة، فتنظرين بإمعان إلى الأبحــاث التي تتم في مجال تخصصك. فقد تلاحظين مثــلا في بحث استطلاعي ما عن جنسانيــة المراهقات وجــود "استبيان كمية" قد يسأل الفتاة مــا إذا كان قد سبق لها القيام بممارســة جنسية، ويكــون لهذا السؤال إجابتان محتملتان: إمــا نعم أو لا. وباعتبارك نسويــة فــإن ما يهمك أيضا هــو ما تم تجاهله عنــد صياغة السؤال بهــذه الطريقة، ففي مثــل هــذا الاستبيان على سبيــل المثال ما الإجابــة التي يمكن للفتــاة أن تختارها حين لا تكون هي نفسها متيقنة مما إذا كان قد سبق لها القيام بممارسة جنسية؟ وما الإجابة التي يمكــن للفتاة أن تختارها إن لم تكن ذات هوية جنسية غيرية ولكنها في نفس الوقت تقوم

بممارســة جنسية؟ وما الإجابة التي ستختارها الفتــاة إذا كانت قد قامت بممارسة جنسية ولكنهــا لا تستخدم موانع للحمل؟ ومــا النتائج المترتبة على السياسة العامة من هذه المادة الاستطلاعية؟

تشعر الكثيرات من الباحثات النسويات أن المادة الكمية الناتجة في موضوعات كهذه قــد "أطرت وحددت للفتيات الأسئلة والإجابــات المحتملة والملائمة لما هو مهم في تطور حياتهن الجنسية"[6] (Tolman & Szalacha 1999 ، 8). إن أنماط الأسئلة المطروحة التي تتلاءم مع إطار الاستطلاع هي ببساطة أسئلة لا تلتقط المسائل التي تريدين فهمها. وبسبــب بعض أوجه هــذا القصور الموجــودة في مناهج البحث الكمــي مثلت الباحثات النسويات قوة دفع محورية في استكشاف مناهج بحث كيفية جديدة تتلافى ثغرات البحث الاستطلاعــي. فعلى سبيل المثال نجــد أن كتاب جويس لادنر عــن "غد الغد" (Joyce Lardner ، Tomorrow's Tomorrow ، 1971)، يقــدم دراسة كيفية جديدة من نوعها في تناولها للفتيات السود وأفكارهن ومواقفهن وتجاربهن في الانتقال من الطفولة إلى الأنوثــة، بمــا يوضح الأثر الذي يمكــن أن يحققه تحطيم ما هــو "صالح" و"سيئ" في مســار العمل البحثــي. وتشير جويس لاردنــر إلى أن الأفــكار الخاصة بالعلاقات الجنسيــة قبل الزواج السائدة بــين النساء كانت أفكارا محددة تقليديــا بـ"المعايير المنظمة للسلوك الجنسي" والنابعة مــن آراء المجتمع الأمريكي بشأن معايير السلوك. (Lard-ner 1971 ، 196). وتقتبس جويس لاردنر عن إيرا رايس قولها: "تتضح ازدواجية المعايير بشأن السلوك الجنسي قبل الزواج في معاييرنا التي ترى أن العلاقة الجنسية قبل الزواج خاطئة للنساء كافــة وبالتالي فالنساء اللاتي يمارسنها هن نساء سيئات السلوك" (Lardner ، 196). وتتجنب جويس لاردنر عن قصد هذا التداخل بين الآراء المجتمعية البيضاء السائدة بشأن السلوك الأخلاقي وبين البحث الذي تقوم به، مشيرة إلى أن مثل هذه المقــولات الأخلاقية تستند إلى ثنائية قوية وهــي "ثنائية الأخلاقي-غير الأخلاقي" (Lardner ، 198). وقد أدى تأثــير مثل تلك العناصر والثنائيات إلى تصنيف الفتيات

السود باعتبار أخلاقهن متسيبة ويقمن بسلوك غير شرعي بما يضعهن ضمن فئة أصحاب السلـوك "السيئ" دون التعمق في أفكارهن ومواقفهـن. إن الدراسات كتلك التي تمت في هـذا الصـدد (Lardner 1971; Tolman & Szalacha 1999) تسعى إلى تجنب الغرضـ الأخلاقي الذي يشكل نتائج البحث لتندرج تحت فئات سرية منحرفة من جهة وطبيعيـة من جهة أخرى[7]. وعلى الرغم مـن أن جويس لاردنر (Lardner 1971) استخدمـت المقابلات الشخصية الكيفية والأدوات الإثنوجرافية دون غيرها، فإن بحثها تطـرق إلى الحـدود التي سبق أن كانـت تفصل جنسانية الفتيـات وتضعها في صناديق محكمة مـن الأحكام الأخلاقيـة. كما اصطدم بحثهـا مع المنظومـات النظرية الداعمة لنمـاذج الانحـراف في جنسانية الفتيات. وقـد فتحت أعمالها البحثيـة مساحات ما كان يمكـن للتحليل الكمي المباشـر للنشاط الجنسي أن يقترب منها، إذ وجـدت أسبابًا عديدة ومعقدة لقيام الفتيات بعلاقات جنسية قبل الزواج بما اعتبرته مؤديا إلى تزايد في النضج و"مساعـدا في عملية الانتقال إلى كيان المـرأة" (Lardner 1971 ، 211). وقد قامت دراساتهـا، جنبا إلى جنب المناهج الكيفيـة الأخرى التي تم تناولها في الفصول السابقة، بالمساعـدة في طرح أسئلة إمبيريقية جديدة في مجـال العلوم الاجتماعية، بما يؤدي إلى توليد أنواع جديدة من المعرفة عن تجارب وخبرات النساء والفتيات.

ولتتخيلي أنك أثنـاء استكشافك لأدبيات مجال بحثك تجدين أن دراسات كيفية- مثل مـا قامت به جويس لاردنر- تساعـد في تجنب الافتراضات النمطيـة أو الأيديولوجية التـي ترينها متسربة إلى كثير من الدراسـات الكمية في مجال تخصصك المعرفي، كتلك الموصوفـة أعلاه، والتـي تصنف الفتيات بصـور مختزلة دون الالتفـات إلى ذواتهن أو سيـاق حيواتهـن. ومع ذلـك وبالرغم من قـدر التعقيد الكبير الـذي يوفره البحث الكيفـي، فإنك قد لا تكونـين متيقنة تماما مـن أن الدراسة الكيفية ستحقـق كافة أهدافك البحثية. كذلك تتضمن أهدافك البحثيـة حرصا على استخدام بيانات قابلة للتقدير الكمي لاستكشـاف الاختلافات المهمة إحصائيـا بين مجموعات الفتيات بما قـد يساعد صانعي

السياسـات والمربين والمربيات في تطبيق خبراتهم ومـا لديهم من تمويل في التعامل مع القضايـا والاحتياجـات القائمة لدى مجموعة مـن الفتيات[8]. كما يهمـك أيضا استخدام المناهـج الكيفية في تحديد القضايـا المعنية في موضوع بحثك والتـي ستؤثر على صياغة أسئلـة البحث الاستطلاعي بحيث تقيـس بدرجة أفضل ما تسعين لفهمه. فإذا كان الأمر كذلك فقد ترين المزج بين منهجي البحث الكمي والكيفي.

وسـوف يتناول هـذا الفصل الطرق التـي تستخدم بها النسويـات المناهج المتداخلة، (mixed methods) وكيـف يمكن للمناهج المتداخلة أن تعمـل على توسيع أو تضييق القـدرة على بناء المعرفـة النسوية؟ وبعد اكتساب المعرفة بنطـاق خطط البحث متداخلة المنهج (mixed–methods designs) نعود إلى مسألة دراسة الفتيات. وسننظر لاحقا في هـذا الفصل إلى الشرائح الجديدة مـن الأسئلة الإبستمولوجية والمنهجية التي تطرحها الباحثات النسويات في مقدمة قراراتهن بشأن استخدام المناهج المتداخلة من عدمه.

ما البحث متداخل المناهج؟

بصفـة عامة نجد أن الباحثات والباحثين الذيـن يستخدمون المناهج المتداخلة يوظفون نوعا من خطـة البحث (research design) تستخدم الجمع والتحليـل الكمي والكيفي للبيانات وذلـك في الإجابة علـى سؤال أو حزمة من الأسئلة في خطـة البحث الواحدة. (Lackey & Moberg 1998; Tolman & Szalach 1999; Wesmarland 2001). ويـرى بعض الباحثين والباحثات أن تداخل المناهج قد يشير أيضا إلى استخدام منهجين أو أكثر من المناهج الكيفية في دراسة بحثية واحدة، أو كذلك استخدام منهجين أو أكثر من المناهج الكمية في دراسة بحثية واحدة. كما يتفاوت توقيت جمع المادة بأنواعها المختلفة في البحث متداخل المناهـج. فعلى سبيل المثال قد يقـوم الباحث أو الباحثة بعملية "جمع المـادة الكمية والكيفية علـى مراحل (متتابعـة)،" أو قد يقوم الباحـث أو الباحثة بعملية "جمعهـا في الوقت نفسه

(آنيـا)" (Creswell 2003، p. 211). ويقـوم الباحثون والباحثـات، النسويات وغير النسويات، باستخدام البحث متداخل المناهج بأشكال متنوعة تجمع بين الابتكار والإبداع.

ومثلـه في ذلك مثـل كل المناهج التي يتناولها هذا الكتاب، فـلا يوجد منهج يتسم بأنه نسوي أو غير نسوي على وجه الخصوص[9]. فالمناهج أدوات تستخدم في أيدي الباحث أو الباحثـة، بحيث يمكن لـه أو لها استخـدام أو عدم استخدام تلـك المناهج من منطلق نسـوي، أو من منظور نسوي. فالأبحـاث متداخلة المناهج ليست في حـد ذاتها نسوية بطبيعتها، وإنما يمكننا التعرف على بعض الأساليب التي تمزج بها الباحثات النسويات بـين المناهج. وعلى الرغـم من تزايد الربط بـين الباحثات النسويـات ومناهج البحث الكيفي، فإن الباحثات النسويات لا يحصرن أنفسهن في نطاق المناهج الكيفية تماما. فكما يتضح جليا في الفصول السابقة من هذا الكتاب، أن الباحثات النسويات أكثر التفاتا، على المستـوى الإبستمولوجي والمنهجي، إلى قضايا السلطة والاختلاف والصوت والصمت والتعقيدات القائمة في المجتمع القابل للمعرفة. ويتم الدفع بالتجديدات التي تطورت من خلال استخدام المناهج الكيفية قدما إلى نطاق المناهج المتداخلة، وذلك بأساليب لافتة تلقي أضواء وتطرح بالتساؤلات حول مواقع قوة كلا المنهجين، في الوقت ذاته الذي يتم فيه التركيز على منظور نسـوي (Deem 2002; Manfredi، Lacey، Warnecke، & Balch 1997; Reinharz 1992). فلنتأمـل الأساليـب التي تستخدم بها النسويات البحث متداخل المناهج.

وضع البحث متداخل المناهج قيد الممارسة: خطط البحث متداخل المناهج

تقـدم دراسة ديفيد مورجـان (David Morgan 1998) مجموعـة من خطط البحث للقيام بدراسة متداخلة المناهج، فيطرح خطة بحث رباعية المنهج (four-method re-

search design)، اعتمادا على التتابع (الترتيب الزمني) والأهمية النسبية (الأولوية) الخاصة بكل منهج. ويرى مورجان أن يطرح الباحث أو الباحثة الأسئلة التالية خلال إعداد الخطة متداخلة المناهج:

- ما منهج البحث الأولي، وما المنهج الثانوي (التكميلي)؟
- ما المنهج السابق؟ والمنهج اللاحق؟

إن إجابتـك على كل من هذين السؤالين يـؤدي إلى إمكانية وضع أربع خطط بحث متداخل المناهج، كما هو موضح أدناه (الجدول 9.1).

ولنتوقـف أمام نماذج لأبحاث أفادت فيها الباحثات النسويات من تداخل المناهج بناء على نموذج ديفيد مورجان لخطة بحث متداخلة المناهج.

الجدول 9.1	الجمع بين المنهجين الكيفي والكمي
الخطة الأولى	الكيفي يعقبه الكمي*
الخطة الثانية	الكمي يعقبه الكيفي
الخطة الثالثة	الكمي يعقبه الكيفي
الخطة الرابعة	الكيفي يعقبه الكمي

المصدر: مقتبس عن كتاب ديفيد مورجان (David Morgan 1998).

* الكلمـات التـي تحتها خط تشير إلى المنهـج الأولي، والكلمات المكتوبة بخط عـادي تشير إلى المنهج الثانوي.

كيفي يعقبه كمي

خطــة البحث الأولى (كيفي يعقبه كمي) تتضمن البدء بالجزء الكيفي من مشروع البحث مــع احتفاظه بمكانة ثانوية (المكتوبة بخط عادي) ضمــن أهداف البحث. ويكون المنهج الكمــي (الذي تحته خط) هو المنهج الأولي، على أن يتم تنفيذه كمتابعة للدراسة الكيفية. إن استخــدام خطة كيفية قبل الكمية يوفر للباحثة أو الباحث غير الملم بالموضوع الفرصة لتوليد أفكار أو فرضيات تمكنه وتمكنها من تناول الموضوع بشكل أكثر تحديدا في الجزء الكمــي من المشروع. ولدينا مثال توضيحي على ذلـك في خطة البحث متداخل المناهج المستخدمــة في المشــروع البحثي لكل مــن لاكي وموبــيرج (Lackey and Moberg 1998). فقــد اهتمــا بفهم جنسانية المراهقــين الأمريكيين في المناطــق الحضرية. وبدءا بحثهمــا بمجموعات مناقشــة مبدئيــة (prefocus groups) في 10 منظمات محلية مع التركيــز على الشباب وأولياء أمورهم، وطلب منهــم "تحديد الموضوعات التي يرون ضــرورة دراستها"؛ كأساس لبث موسع (كمي) يشمل عدد 593 من الشباب وعدد 95 مــن أولياء أمورهم. كذلـك تم التوجه إلى عدد 13 مجموعة (كيفية) أكثر إحكاما تشتمل علــى عدد 10-6 من الشباب، بعضهم في مجموعات مختلطة الجنسين بينما جاء بعضها في مجموعات غير مختلطة، وطلب منهــم جميعا وصف تجاربهم في سياقات معروف عنهــا تأثيرها علــى سلوك المراهقين . . . ووصف نوعيــة الرسائل (إن وجدت) والتي تعكسهــا تلك السياقات عــن المعايير والممارســات الجنسيــة (Lackey and Moberg 1998، p. 494). وقــد مكنت النتائج، التي تم التوصــل إليها من مجموعات المناقشة المبدئيــة والمحكمة (الكيفية)، كلا من الباحثــة والباحث من صياغة بنود الاستبيان ضمن استطلاع (كمي) واسع يعكس تجارب المجتمع، وخاصة ذلك البند الذي تناول "تعرض الشباب لوسائل الإعــلام والثقافة الجماهيرية، والوقت الذي يقضونه بصحبة رفاقهم، وكذلـك العوامــل البيئيــة" (Lackey and Moberg 1998، p. 495). وفي الواقع فــإن نتائج البحث التــي تم التوصل إليها من الاستطلاع (الكمــي) كشفت عن أن العديد

مـن المتغيرات التي طرحتهـا المجموعات النقاشية "شكلت معـدلات مهمة" في الدراسة الاستطلاعية (Lackey and Moberg 1998، p. 499).

كمي يعقبه كيفي

نجـد في خطـة البحـث الثانية -الكمـي يعقبه الكيفـي- أنه يتـم استخدام البحـث الكمي باعتبـاره ثانويـا (كمي)، بينما يتم استخـدام البحث الكيفي باعتبـاره هو البحث الأولي (كيفـي). وفي هذه الحالة يتم استخدام البحث الكمي مـن أجل تحديد مجموعات سكانية أو موضوعـات محددة مما يتطلب تناولها بمزيد مـن التعمق. وتتكامل الدراسة الكمية مـع الكيفية (كيفي)، ولدينا مثال جيد على ذلك في عمل باحثة علم الجغرافيا كيم إنجلاند (Kim England 1993)، حيـث تتبنى "فكـرة الحصار المكاني" (spatial entrap-ment thesis)، كتفسـير لتقسيـم القـوى العاملـة، وتحديدا وقوع النسـاء في شراك نطاقـات "العمل الوردي" (pink-collar ghettos) [وهو مصطلح يشير إلى العمالة النسائيـة في الأعمال الخدمية]، فقد أشارت الحكمـة التقليدية لدى باحثي علم الجغرافيا آنـذاك إلى قيام الشركات بتوظيف النسـاء في العمل الوردي (pink-collar wom-en) في الضواحي للاستفادة من الحصار المكاني للعاملات، فقيام النساء بدور مزدوج كزوجـات وأمهات حرمهن من الاستفادة من فرص العمل الأوسع، إذ تظل العاملات محصـورات داخـل نطاق العمـل الـوردي في الضواحي. فقـد توصلـت الدراسات الجغرافية المبكرة، حول الوقت الذي يقضيه العمال والعاملات الأمريكيون في التنقل، إلى أن العاملات في الوظائف المكتبية يقطعن مسافات أقصر مقارنة بالرجال العاملين في نفس النوع من الوظائف، لأن التزامات النساء الأسرية قلصت من قدرتهن على اتخاذ وظائـف أبعد مسافة من أماكن سكناهن. وقد سعت الباحثة كيم إنجلاند إلى اختبار فكرة "الحصـار المكاني" من خلال دراسة حالة لمدينة كولومبوس في أوهايو بأمريكا، وهي الولاية التي تتسم صناعاتها بـ"الاعتماد الكبير على العمالة الوردية" (Kim England

(228 .p ،1993 . وقــد قامت فيها ببحث متداخل المناهج باستخدام المادة الكمية (كمي) لتحديـد الفترة الزمنية التي يقضيها كل من الرجال والنساء في التنقل بين المسكن والعمل في نطاق ضواحي مدينة كولومبوس، وذلك عن طريق جمع البيانات بشأن التنقل بين أماكن السكن والعمل المدونة في سجلات العاملين، واستبيان استطلاعي، ودليل أرقام هواتــف المنازل في الضواحي. وقد وجدت أنه في الوقت الذي توضح فيه تلك البيانات أن النســاء أكــثر خضوعا للحصار المكاني مقارنة بالرجــال، إلا أن ذلك ينطبق بدرجة أقــل على النســاء اللاتي ينتمين إلى أسر مكونة من شخصــين بالغين وأطفال يعولونهم! وقد وجهتهــا نتائج بحثها الكمي للقيام بدراسة كيفية (كيفي). وتقوم فيها بعقد سلسلة من المقابــلات المعمقة مع مديري شؤون العاملين داخل شركات تقع في الضواحي، وكذلك مع النساء في نطاق العمل الوردي. ومن منطلق كونها باحثة نسوية اهتمت كيم إنجلاند بالتجارب المعيشة للنساء العاملات. وتشير قائلة:

> إن الغرضــ الأساســي مــن البحــث الــذي أقوم بــه ليســ التوصل إلى تعميمــات إمبيريقيــة، بل تطوير فهــم متعمق لموقع محــدد للتقاطع المحلي للجغرافيــا المتغيرة لمواقع المكاتب، وتقسيم العمــل بين الجنسين، وأسواق العمــل الحضري، والقائمة على قاعدة من تقبــل الناس باعتبارهم فاعلين عارفــين. وقد أتاحت لي المقابلات الشخصية تحديــدا أن أطور فهمي بناء علــى مرجعية الشخصية التي قمت بمقابلتهــا، وأن أستكشف موضوعات معينــة داخل سيــاق مجموعة المعــاني التي تحملهــا الشخصية التــي أقوم بمقابلتها. (England 1993، p. 227)

وفي مقابلاتهــا الشخصية مع مديــري ومديرات شؤون العاملــين أرادت الباحثة تقييم الأسبــاب التي جعلت الشــركات تنتقل إلى الضواحي، وتتبع مــا إذا كان دافع المديرين من ذلك هــو الاستفادة من العامــلات والعاملين المحاصرين. وقــد تم اختيار المديرين والمديــرات من دليل الشــركات في مدينة كولومبوس، وتم عقــد مقابلات شخصية مع

مديـري ومديرات شؤون العاملـين في عدد 10 شركات خاصة تضـم عددا كبيرا من القـوى العاملة في وظائف مكتبيـة. وقد قامت بعقد 30 مقابلـة شخصية مع نساء ضمن عينـة كمية تشتمل علـى 200 امرأة اختارتهـن من دليل الضواحـي، (وقد شكلت تلك البيانات السكنية لعدد 200 امرأة في الأصل جزءا من دراستها الكمية لتقييم الزمن الذي يتـم قضاؤه في الانتقال من المسكن إلى العمل). وقد شكلت هؤلاء النساء عينة هادفة من القاطنات في مدن ذات ضواح باعتبارها "أماكن رائجة في انتقال الشركات إليها"، وقد بذلـت الباحثة جهدا في اختيار نساء "يكون تنقلهن بين المسكن والعمل ممثلا لعينة أكبر" (England 1993، p. 234).

عند قيام كيم إنجلاند بدراساتها الكيفية فإن أسئلة البحث تنبع مباشرة من نتائج دراستها الكمية: لماذا لم تنطبق فكرة الحصار المكاني على النساء اللاتي يقمن بعمل مزدوج؟ كيف تتعامـل النساء مع التنقل بين المسكن والعمل في سيـاق أسرهن وحياتهن العملية؟ وعند صياغـة هذه الأسئلة تفترض الباحثة وجود درجة من الفاعلية لدى النساء، وهي مسألة لا توجـد ضمن فرضية الحصار التقليدية بما فيها مـن افتراضات بشأن التقسيم التقليدي للعمـل بين الجنسين. إن مـا تكشفه نتائج دراستهـا الكيفية في الواقع هـو وجود فاعلية إنسانيـة في قلب فهـم البنى الأكبر، مثل أنساق التنقل بـين المسكن والعمل. إن التركيز على سياق حيوات النساء هو وحده ما يمكن للباحثة أن تفهمه بصورة أفضل، وأن تبدأ في تفتيـت الصور النمطية للمادة المتصلة بالتنقل بين المسكن والعمل على مداها الواسع. وتخلـص الباحثة إلى نتيجة مؤداها أن العاملات لسـن "ضحايا سلبيات للبنى المكانية"، وإنمـا يقمن عند اتخاذ قراراتهـن بشأن مسافة التنقل بين العمـل والمسكن بالموازنة بين عـدد من العوامل المتصلـة بالعمل (مثل سلم الترقي الوظيفـي، والطموحات الوظيفية) وبالأسـرة (مثل ترتيبات رعاية الأطفـال وتوفر المدارس الجيـدة في منطقة السكن)، وفي ذلـك تشير قائلة: "يجب إعـادة التفكير في المسافات التي تقطعهـا النساء إلى العمل باعتبارها جهدا مبذولا من هؤلاء النساء في التوفيق بين أدوار وعوامل مكانية متعددة، متداخلة ومتناقضة في أحيان كثيرة" (Kim England 1993، p. 237).

كمي يعقبه كيفي

الخطـة الثالثـة، أي البحث الكمي يعقبه الكيفـي، تعتمد على كـون الدراسة الكمية هي الأولية، بينما تكون الدراسة الكيفية ثانوية. وتستخدم خطة البحث هذه عادة عند وجود حاجـة للإسهاب وتوضيح نتائج البحث الكمية. وتساعد الدراسة الكيفية على فهم أمور مثل النتائـج السلبية وما يطلق عليه "النتائج الخارجية" (outliers)، وهي النتائج التي لا تبدو متسقة مع الفرضية العامة أو المنظور النظري. ومن حيث المبدأ، يمكن استخدام المادة الكيفية باعتبارها مكملة للمادة الكمية وذلك لمساعدة الباحثة أو الباحث الكميين على "إنقاذ" المادة البحثية من خلال فهم "النتائج الخاطئة" في المادة الاستطلاعية (Wein- holtz، Kacer، and Rocklin 1995). ونجـد مثالا على هذا النوع من الدراسات في البحـث الذي قامت بـه الباحثة في علم النفس بولا نيكلسـون (Paula Nicholson 2004)، التـي قامت بتتبع الدراسـات الإكلينيكية حول اكتئاب مـا بعد الولادة. وهي ترى أن الأبحاث التي تمت في هذا المجال هي أبحاث تكون تقليديا أبحاثا كمية وكثيرا ما تستخـدم الأبحاث الإكلينيكية من خلال تقسيـم المستجيبات للبحث تقسيما عشوائيا ضمن فئات تتضمن مجموعة ضابطة. وبناء علـى هذا النموذج الإكلينيكي، والمعروف باسم التجربة الضابطـة العشوائيـة (RCT: Randomized Control Trial) يتم توزيع النساء اللاتي يعانين من اكتئاب ما بعد الولادة توزيعا عشوائيا على مجموعة تجريبية، مثـل مجموعـة اللاتي يتناولـن مضادات للاكتئـاب، أو علاجا ذا تأثـير الغفل (pla- cebo). كذلـك يتـم تشكيل مجموعة ضابطة لنفس الدراسة. وعـادة ما يتم تمويل هذه المناهـج البحثية بواسطة الحكومـة الفيدرالية أو شركات الأدوية، في سبيل اختبار مدى نجـاح بعض الأدويـة في علاج حالات معينـة. وفي حالة البحث الـذي قامت به بولا نيكلسون، كانت تقوم باختبار مدى قدرة مضادات الاكتئاب على علاج اكتئاب ما بعد الـولادة. ويبحث الباحثـون والباحثات عن طريقة "كمية" لقياسـ مدى فعالية العلاج الدوائـي للاكتئـاب. ولكن مـا يتضح لنا من البحـث الذي قامت به بـولا نيكلسون هو

غيـاب "الإنصات" إلى هموم الأمهات. فبدلا من الشروع في القيام بدراسة عشوائية، قــررت بولا نيكلسون البدء بمشروع استطلاعي مع الأمهات اللاتي يعانين من اكتئاب مـا بعد الولادة. فقامت بمقابلات شخصية كيفية مع عينة صغيرة من هؤلاء النساء على أمـل فهم تجاربهن. فعقدت مقابلات شخصية مع عـدد 17 امرأة، بمعدل أربع مرات علـى مدار ستة أشهر بدءا من الولادة. وقد كشفت هذه الدراسة الاستطلاعية أن القيام بدراسـة كيفية في أعقاب الدراسة الكمية (كمي يعقبـه كيفي) تضفي مزيدا من المصداقية علـى الجزء الكمي من البحث. كما لاحظت أيضـا وجود عدد من الفوائد المهمة التي قد يضفيها الجـزء الكيفي على المشروع البحثي بأكمله، وتشـير إلى أن الباحث أو الباحثة يـزدادان تمكنا مـن اتخاذ قرار بشأن متى "يجب تقييم نتيجـة" ما. وترى الباحثة بولا نيكلسـون من واقـع تتبع النساء على مـدى طويل تجاوز الستة أشهـر أنه "رغم تشابه السلـوك والمـزاج بعد ثلاثـة وستة أشهر مـن الولادة، فـإن بناء التجـارب ومعناها يختلف"، وتشير إلى أن لذلك تداعياته المهمة بشأن "متى وماذا يخضع للتقييم" (Paula Nicholson 2004، p. 224). كمـا يقدم الجزء الكيفـي أيضا سياقا لنتائج البحث، فعلى سبيل المثال إذا أظهرت النتائج الكمية أن العامل المتغير الخاص بـ"العلاقة الزوجية الضعيفة" كان مرتبطا ارتباطا وثيقا باكتئاب ما بعد الولادة، وأن الجزء الكمي قد يقدم فكـرة راسخة بشأن ما يعنيه هذا المتغير في سياق حياة الأم. كما يتيح ذلك الفرصة أمام الباحثات والباحثين للتوصل إلى فهم أعمق لدى تقييم المستجيبات أنفسهن لتدخل دوائي ما، بالإضافـة إلى تقييمهن لتجربة البحث نفسها وبرمتها، بما يقدم للباحثات والباحثين معلومات قيمة سوف "تؤدي إلى إجراءات تدخلية ووقائية أكثر فاعلية" (Paula Ni-cholson 2004، p. 226).

وتتبنى أبحاث بولا نيكلسون مقاربة نفسية نسوية إلى موضوع اكتئاب ما بعد الولادة، وذلك بالتركيز على التجارب المعيشة للأمهات اللاتي يعانين من الاكتئاب. ومن خلال تأكيدهـا على أهمية استخدام مقاربة متداخلة المناهـج، تجمع بين المادة الكمية والكيفية،

نجـد أن الباحثة هنا تنتقد الاعتماد فقط علـى مقاربة التجارب الضابطة العشوائية والتي تراهـا مقاربة تؤكد على ميل الممارسين الإكلينيكيين إلى "التعامل مع جسد وعقل النساء مـن منطلق المرض، دون التفات إلى تجارب النساء مع رعاية الأطفال والسياق الذي تتم فيه تلك الرعاية" (Paula Nicholson 2004، p. 210).

كيفي يعقبه كمي

الخطـة الرابعة، أي البحث الكيفـي يعقبه الكمي، تكون الدراسـة الكيفية أولية (كيفي) وتعقبها الدراسة الكميـة (كمي). ويمكن للدراسة الكمية أن توضح أو تضيف إلى نتائج الدراسة الكيفية، أو أن تستخدم لاختبار النتائج على مجموعات مختلفة للتأكد مما إذا كانت النتائـج الكيفية "تنتقل" إلى مجموعات سكانية أخـرى (Morgan 1998، p. 370). ونجد بحثا بدأ عام 2003 (Cuyvers، Wets، Zuallaert، and Van Gils 2003) كجـزء من مشروع بحثـي مستمر تدعمه هيئة السياسة الاجتماعيـة الفيدرالية البلجيكية (Belgian Federal social Policy Office)، وتتمثـل رؤيـة الباحثـين والباحثات لدراستهم باعتبارها دراسة بينية (interdisciplinary study) ويشيرون إلى أنها تقع "عنـد تقاطع تخصصين عِلمين حديثين آخذين في التطور السريع، وهما: علم اجتماع الطفولة و"البعد الاجتماعي) لعلوم المرور" (the sociology of childhood، and the sociological dimension of traffic sciences). إذ يصل الأطفال في الفترة العمريـة 10-13 عامـا إلى مرحلة أكثر استقلالية فتتسم حركتهـم "بالتزايد الملحوظ في الاستقلاليـة." ومـع ذلك توجد ندرة في الأبحاث التي تتنـاول رأي الأطفال في مسألة التنقـل، ومدى خبراتهم فيما يتعلق باستقلالية التنقل أو اعتمادهم على الغير فيه. ويقوم منظـور الباحثـات والباحثين في هذا المشـروع على وضع هموم الأطفـال في قلب هذا العمل البحثي، ويتبنون منظورا تأويليا في فهم جوانب تطور الأطفال، وتحديدا تجربة التحول من الاعتماد على الغير إلى الاستقلالية في التنقل. ويقوم البحث على تناول تلك

الأفكار مـن منظور تصورات الأطفال بشأن تحركاتهم: كيف يرى الأطفال التحرك؟ مـا احتياجاتهم؟ ماذا يفضلون؟ مـا الممارسات الفعلية التي يقوم بهـا الأطفال بالتحرك والتنقل في حياتهم اليومية؟ إلى أي مدى تعتبر الاستقلالية في التحرك مسألة ذات أهمية بالنسبـة للأطفال؟ وما العوامـل التي يرونها عائقا أو عاملا مساعـدا على استقلاليتهم؟ كما يمكن لنا أن نرى هذا البحث مشروعا تحرريا ونسويا بمعنى أن الأطفال، وهم فئة كثيرا ما لا تُسمع أصواتهم في مثل هذا النوع من الدراسات، تتاح لهم فرصة الإفصاح عـن أنفسهم، كما أن أغراضـ الباحثين والباحثات من هذا البحـث تتوجه نحو السعي لاتخـاذ أفعال وإحداث تغيير اجتماعي. إذ تسعى مجموعـة هؤلاء الباحثين والباحثات إلى ترجمـة احتياجات الأطفال وهمومهم إلى مبـادرات للسياسة الاجتماعية المتبعة عند التخطيط لسياسات المواصلات والتخطيط المدني المستقبلية. ويشتمل ما تم جمعه من مادة أوليـة على مقابلات شخصية ومجموعات نقاشية تضم فتيانا وفتيات في المرحلة العمرية 10–13 عامـا، ممن يقطنـون بيئات حضرية وريفية. وقد أعقـب ذلك إعداد دراسة كميـة لعينة ممثلة تضـم 5000 من الأطفال، في مقاطعة فلانـدر بشمال بلجيكا، وذلك "لمراجعة النتائج التي تم التوصل إليها في المرحلة الكيفية" وكذلك "لقياس العوامل التي تم تحديدها خـلال البحث الكيفي باعتبارهـا ذات صلة بالموضـوع." ويأمل الباحثون والباحثـات في أن يعقب دراستهم جزء بحثي فاعل يتـم في منطقتين ريفيتين ومنطقتين حضريتين، وذلك بهدف تشجيع الأطفال على المشاركة في مشروعات التحرك والتنقل داخل مجتمعاتهم (Cuyvers et al. 2003).

ولكـن مع ذلك هنالك عدد كبير من خطط البحـث الأخرى التي تجمع بين المنهجين الكيفـي والكمي باستخدام فئات ومعايير مختلفة. فبعضـ الخطط متداخلة المناهج تجمع بـين المناهج آنيا، مع الحفاظ على الفارق أولي/ثانوي (انظر/ي: Creswell 2003). أمـا خطة مورجان (Morgan 1998) فتتوقف أمام الدراسات المتتابعة زمنيا، أي تتلو إحداها الأخرى. بينما يقوم بعض الباحثين والباحثات الآخرين بأبحاث متداخلة المناهج

تعتمد على التزامن بين المناهج، مع وضع كلا المنهجين على درجة واحدة دون تمييز بين منهج أولي ومنهج ثانوي (Creswell، Fetters، and Ivankova 2004). وهو الأمر الذي يبدو مستخدما في خطة تداخل المناهج التي استخدمتها أبحاث تولمان وشالاكا (Tolman and Szalacha 1999) والتي سنقوم بتناولها بعمق أكبر في الجزئية التالية من هذا الفصل. ونجد باحثات وباحثين آخرين يقومون بتضمين منهج واحد (كيفي أو كمي) "داخل" المنهج الآخر، وفي هذه الحالة يكون المنهج المتضمن عادة هو الأقل أولوية. وقد يقدم هذا المنهج حلا لسؤال بحثي مختلف، ولكن كلا المنهجين يستخدم لتحليل المادة (Creswell، Plano Clark، Gutmann، and Hanson 2003، p. 229). كما توجد أيضا إمكانية المزج بين دراستين كيفيتين ودراستين كميتين في بحث واحد.

دراسة حالة لاستخدام بحث متداخل المنهج: دراسة جنسانية الفتيات

تقدم الباحثتان ديبورا تولمان ولورا شالاكا مثالا توضيحيا ومبتكرا لنوعية البحث الذي يتبلور عند استخدام البحث متعدد المناهج من منظور نسوي. ونعود الآن إلى المثال الذي قدمناه في بداية هذا الفصل، مع ما أضيف لهذا المثال الآن من معرفة حول نطاق الخطط متداخلة المناهج التي استخدمتها النسويات ودوافعهن للانخراط في أبحاث متداخلة المناهج.

وقد سعت الباحثتان (Tolman and Szalacha 1999) إلى تقديم صورة لجنسانية الفتاة المراهقة، وذلك باستخدام نقاط القوة الكامنة في كلا النوعين من مناهج البحث. فقد تأملنا بعمق أنواع الأبحاث التي يتم العمل بها في العلوم الاجتماعية، مع التركيز تحديدا على علم النفس، كما بحثنا عن الحكايات التي تحكيها تلك الدراسات عن جنسانية المرأة. وقد توصلنا إلى منظور قوي وموضوعي ومتفرد نسبيا بشأن جنسانية الفتيات،

نظـرا لوجود "إنكار تاريخي وحط مـن قدر جنسانية المراهقات (صـ8)."[10] ومثلها في ذلـك مثل المراجعات النقدية للدراسات البحثية التي قامت بها جويس لاردنر، فإننا نجد أن البحث الكمي يميل إلى وضع الفتيات ضمن فئتين وتصنيفهن إما باعتبارهن صالحات أو طالحـات. ولم يسبق لتلك الأصوات الموضوعية والأبوية أن حكت أبدا حكايات عن الفتيات اللاتي يعشن حيوات معقدة، ممن لسن من الصالحات أو الطالحات. وقد رأت الباحثتان ديبورا تولمان ولورا شالاكا أن كل تلك الأبحاث القائمة كانت تفتقد إلى العمق والتعقيد والدقة. ومن منطلق يتمركز داخل المنظور النسوي رأت كل من ديبورا تولمان ولـورا شالاكا أن السبيل الوحيد لتقديم رواية متعددة الأوجه بشأن جنسانية الفتيات هو الجمـع بين استخدام المناهج الكيفية والمناهج الكميـة في الدراسة الواحدة. وقد استخدمتا "التكامل التتابعي" للمناهج وسعتا لخلق فهم واضح ومركب عن تطور جنسانية الفتيات، وقـد أوصلهمـا ذلك إلى مساحة أدركتـا فيها أن "التحدي القائـم في التعامل مع المشاكل الاجتماعية المتزايدة في التعقيد . . . يتطلب منا مزيدا من الفحص للإمكانيات الكامنة في الجمع بين مناهـج البحث الكيفية والكميـة" (Tolman and Szalacha، p. 8). إن هـذا الالتزام بالسعي للوصول إلى المناهج التي تعكس العالم المعقد ومتعدد الأوجه الذي يحيـط بنا واستخدام تلك المناهـج يدعم استخدام تداخل المناهـج. وتتأكد أهمية استخدام تداخـل المناهج، بالنسبة لبعض الباحثـات النسويات، عندما يدركن مدى قدرتهن على الوصول بطرق واعية إلى أصوات وتجارب النساء والفتيات باستخدام تداخل المناهج.

ومثلهما في ذلك مثل الكثيرات من الباحثات النسويات، نجد أن ديبورا تولمان ولورا شـالاكا (Tolman and Szalacha 1999) وضعتا مصالحهما وأسئلتهما أمامهما على الطاولـة قبل البدء في تحديد منهج البحث الضروري للتعامل مع تلك المسائل، وطرحتا ما تحملانه كنسويتين من منظور سياسي وإبستمولوجي، إصرارا منهما على الإنصات إلى أصوات الفتيات وحكاياتهن. ويقع سياق خطتهما البحثية داخل المجال الذي يسوده المنهـج الكمـي، وحيث يمكن لمد جسر بين البحث الكيفي والكمـي أن يلقي بالضوء وأن

يـثري النظريات القائمة بالفعل عـن جنسانية الفتيات. كذلك فـإن السياق الذي تصبو إليـه الباحثتان يقع داخـل مساحات الفـراغ الكائنة في الأبحاث القائمـة. وقد تمكـنت الباحثتـان – من خلال المادة البحثية الكيفية والكمية وبواسطة التحليل الدقيق– من خلق روايـة حيوية ومتآزرة لحكايات الفتيات عن أجسادهـن ورغباتهن وجنسانياتهن. إن هـذه الفكرة القائمة على بنـاء جسر بين منهجين في مشروع بحثـي واحد، مع التمسك بالأهـداف الخالصة للبحث النسوي الساعية للوصـول إلى تجارب النساء والفتيات هي فكـرة تمنحنا أول مثـال لما يمكن أن يكون عليه البحث النسـوي متداخل المنهج. ومثلما نجد أن القصد في استخدام منهج بعينه، كالتاريخ الشفاهي، يتطلب نوعا معينا من أسئلة البحث، كذلك فإن الرغبة في استخدام تداخل المناهج لا تأتي للنسويات من لا شيء.

وعلى الرغم من النقص في كثير مـن الدراسات الإمبيريقية في مجال تخصصهما، وأملهما في استخدام مناهج البحث الكيفي، فإن ديبورا تولمان ولورا شالاكا لم ترغبا في علاج المشاكل الناجمة عن الالتزام فقط بمنهجية كيفية، بل سعت الباحثتان إلى توضيح الطـرق التي يمكن لمجال تخصصهما ولبحثهما أن يستفيد بها من مقاربة تداخل المناهج، وقـد جاء نجاحهما في ذلك باهرا يفوق كافة التوقعات. وقد قامت الباحثتان–من منطلق كونهما نسويتين– بوضع الاهتمام النسوي في قلب عملهما البحثي، وهو الاهتمام بجعل أصـوات النساء في قلب العمل البحثي بينما إضافة المـادة الكمية الإمبيريقية التي "تمكننا مـن الإجابة على كل سـؤال يطرح نفسه، وجـاءت النتيجة بتداخـل انتقائي للمنهجين داخـل المنهجيـة النسوية، بما أدى في المحصلـة النهائية إلى نوع مـن الانتقائية النسوية (feminist eclecticism) في قلبهـا منظور هـؤلاء الشابات وتجاربهن" (Tolman and Szalacha 1999، p. 11).

فعلـى سبيل المثال انخرطت الباحثتان أولا في عقد مقابلات شخصية مكثفة، ووجدتا مـن خلال تحليلهما السردي وجـود أربعة أصوات ضمن تجـارب الفتيات مع الرغبة الجنسيـة: "صوت الذات، وصوت شبقي، وصوت الجسد، وصوت الاستجابة لرغبة

الـذات" (Tolman and Szalacha 1999، p. 14). ثـم تم بعدها إعادة تشكيل تلك الروايات الكيفية وترتيبها للمقارنة بين سياقات الحضر وسياقات الضواحي. وقد جاءت الفـروق الكيفية بين هاتين المجموعتين من الفتيات خاصة في الروايات التي تتحدث عن قابليتهن للتعرض لـلأذى، مما أدى إلى توجيه دفة البحث في مرحلته الثانية، حيث تم استخدام المنهج الكمي. وقد سعت الباحثتان -على وجه الخصوص- إلى دراسة "كيفية اختـلاف المتعة والقابلية للأذى بين هاتين المجموعتين من الفتيات .. [وكذلك] ... ما إذا كان هنالك تأثير متفاعل في الأذى أو العنف الجنسي" (Tolman and Szalacha، p. 17). وبانتقالهمـا مـن المقابلات الشخصية المكثفة مع ثلاثين فتـاة، قامت الباحثتان بإعادة صياغة وحدتهما التحليلية تبعـا لعدد الروايات الواردة في المادة البحثية وعددها مائة وثمانية وعشرون رواية، تم ترميزها وتصنيفها إلى فئتين: القابلية للأذى والمتعة، بما يتيح المجال أمام تتبع العلاقات الكمية. إن مثل هذه المقاربة التكاملية تتماشى جيدا مع الرؤيـة الإبستمولوجية الجدلية بشأن كيفية إمكان المزج بين المناهج.[11] إلا أننا يجب أن نتذكر أن الباحثات النسويات لا يرتحن جميعا إلى فكرة مناهج البحث المتداخل، ويرجع ذلـك جزئيا إلى رغبتهـن في تجنب استخدام منظومـة البحث الكمـي، إذ تشعر بعض الباحثات النسويات أن تلك المنظومة تتجاهل هموم ومصالح الفئات الأكثر تعرضا للقهر داخـل النظام الاجتماعي - أي النساء وغيرهن من الفئـات المقهورة. وهنالك باحثات نسويـات أخريات يؤكدن علـى أن المزج بين المناهج يعني تخطـي بعض الافتراضات الإبستمولوجيـة الأساسيـة فيمـا يتعلق بطبيعـة الواقع الاجتماعي في حـد ذاته - أي ما يمكـن معرفته ومن هو الطرف الذي يقوم بالمعرفة، وهي القضايا التي ننتقل إليها وإلى غيرهـا في هذا الجزء من الفصل. ففـي المقابلة الشخصية الـواردة في جزئية "ما وراء الستار" تتحدث الباحثة الكيفيـة المتميزة، جانيس مورس، إلى عالم الاجتماع، سيزار سيسنيروس-بوبيلا (Cisneros-Puebla 2004). جانيس مورس هي مؤسسة المعهد الدولي للمنهجية الكيفية بجامعة ألبيرتا في كندا، وفي هذا المقطع تقدم ملاحظات مهمة في مشاكل وإمكانيات البحث متداخل المناهج.

ما وراء الستار مع

سيزار سيسنيروس-بويبلا وجانيت مورس

البحث متداخل المناهج و"الدافع النظري"

سيزار سيسنيروس بويبلا: كيف ترين تطور البحث متعدد المناهج (mul-timethods)؟ وكيف ستتعامل الباحثات والباحثون الكيفيون مع مثل هذه التعددية والتنوع؟

جانيت مورس: أعتقد أن هذا النوع من البحث سيدخل في حالة من الارتباك الرهيب، ولكنه سينتظم في نهاية المطاف.

سيزار: ما نوع "الارتباك الرهيب" الذي تتحدثين عنه؟

جانيت: أعتقد أن الناس يفتقدون المهارات التحليلية اللازمة للتعامل مع البيانات والمادة الكيفية والكمية. ولا أعتقد في وجود قدر كاف من الأبحاث حول تطوير النظرية، وأعتقد في عدم وجود حتى قدر كاف من الناس الراغبين في القيام بالتطوير النظري، وهم يكتفون بما يقومون به من توصيف. أعتقد أن الضغط في اتجاه القيام ببحث متداخل المناهج، والحصول على التمويل، هي ضغوط تطغى على أهداف البحث الكيفي. وأعتقد أن جهات التمويل تقول إنها تمول البحث الكيفي بينما تعني تمويلها البحث متداخل المناهج، وهو ما يضع البحث الكيفي في مكانة أدنى.

سيزار: ما التداعيات الإمبيريقية لاستخدام البحث متداخل المناهج؟ أعني

أن في مواجهــة التعقيد القائم في العــالم الواقعي يكون كل واحد منا بالتأكيد أكثر احتياجا للمناهج المتداخلة والمتعددة.

جانيت: لا أعتقد أننا جميعا مضطرون للرضوخ لتلك الضغوط. أشعر أني أستخدم البحــث متعدد المناهج حين يكون ضروريا في خطة البحث لا لمجرد إرضاء جهات التمويل.

سيــزار: وهل ذلك لأننا في حاجة إلى هــذا النوع من البحث متعدد المناهج لإنتاج المعرفة؟

جانيت: كلام فارغ. فالمعرفة الأساسية تأتي أيضا من إجراء البحث الكيفي وحده.

سيزار: ولكن البحث الكيفي يحتاج إلى بحث متعدد المناهج. أليس كذلك؟

جانيت: كلا، إنه لا يحتاج إلى بحث متعدد المناهج، وإنما جهات التمويل تحتاج إلى البحــث متعدد المناهج، وبعض أسئلــة البحث تحتاج إلى بحث متعدد المناهج.

سيزار: استخدام البحث متعــدد المناهج ليس سؤالا مرتبطا بالبحث الكيفي – وهــل البحث متعدد المناهج يقدم في رأيــك إجابة بالنسبة لجهات التمويل؟

جانيت: كلا، إنك تطــرح أسئلة ملغمة. فأنا لم أقل أيا مما تقوله! أعتقد أن أكــثر قدر من التقدم يمكن أن يتحقق مــن المعرفة المشتقة من البحث الكيفــي. وهنالك مشــاكل تميل في حلهــا إلى بعضــ خطط البحث متداخلــة المناهج. فلماذا لجهات التمويــل أن تواصل تمويل البحث الكيفي إن لم يكن بوسعه الوقوف وحده على قدميه؟

سيزار: وما رأيك فيما يدور من نقاش معاصر حول البحث متعدد المناهج؟

جانيت: لا أعتقد أن من يكتبون عن المناهج المتعددة يلمُّون بمفهوم الدافع النظري (theoretical drive)، وأعتقد أن الأدبيات تفتقد إلى الإرشادات عن كيف ومتى وأين يجب على المرء ترجمة البيانات الكيفية إلى بيانات رقمية، كما تفتقد إلى إرشادات جيدة لتجميع النتائج.

المصدر: تمت إعادة النشر بموافقة من: Forum: Qualitative Social Research

المناهج: المزج أم عدم المزج؟

ما القضايا؟

سيتناول الجزء الثاني من هذا الفصل الطريقة التي تتفاعل وتوظف بها المنظومات الإبستمولوجية البحث متداخل المناهج. وهنالك أكثر من منظور إبستمولوجي لا يقبل بالمقاربات متداخلة المناهج، في حين تتبناها الأخرى ضمن خياراتها. وسيتم في هذا الفصل تناول الاختيارات المتعلقة بالمنظومات والتي يقوم بها الباحثون والباحثات في سبيلهم لمزج مناهج البحث. أما الجزء الثالث فسيتناول الأسباب التي تدعو النسويات إلى مزج المناهج. ويأتي الجزء الأخير لينظر إلى كيفية تعامل النساء مع النتائج التي تجيء أحيانا غير مرتبة عند مزج المناهج. إن البحث متداخل المناهج الذي يتم فيه المزج بين المناهج المتنوعة يعتبر مجالا صاعدا في مناهج البحث، وقد شهدت العقود الماضية الأساليب المبتكرة والناشئة في النقاش الدائر حول البحث متداخل المناهج وفي تطويره وتوظيفه. ونجد أن تلك المناهج تكتسب مقاصد مختلفة وتطرح أسئلة مختلفة على أيدي النسويات، إذ يتم استخدامها في خدمة طرح أسئلة ساعية إلى تمكين النساء أو إفساح مساحات من الإمكانيات. فهي تسعى لإيجاد إجابات على الأسئلة التي تهم النساء، وخاصة تلك التي تتناول الحدود القائمة بين الأصل واللون، والطبقة، والنوع

الاجتماعي. كذلك فإن تأمل البحث متداخل المناهج من منظور نسوي يمكنه أن يساعدنا في دراسة الصلات بين النظرية والمنهج حيث تتداخل الإبستمولوجيا والمنهجية والمنهج تداخلا عميقا في الجهود الساعية للتعامل مع تلك الموضوعات. إن استكشاف تلك الصلات يقترب بنقاشنا هنا إلى مجال التحديات الإبستمولوجية التي تواجه استخدام البحث متداخل المناهج.

التحديات الإبستمولوجية – منظومات المقاربات إلى تداخل المناهج:

النقائي، والبراجماتي، والجدلي (Purist، Paradigmatic، and Dialectical)

هنالك نطاق واسع من البحث النسوي وغير النسوي يواجه تحديا في استخدام تداخل المناهج. فهل يجب استخدام البحث متداخل المناهج؟ ومتى؟ إن هذين السؤالين وغيرهما يشكلان قاعدة لأحد المواقف المعارضة لاستخدام البحث متداخل المناهج، حيث تنشأ تلك التداعيات من عدة رؤى إبستمولوجية بشأن ما إذا كان يجب استخدام تداخل المناهج أم لا. ولا تتمسك النسويات بمنظور إبستمولوجي أوحد، ولا يشتركن في موقف موحد حين يتعرضن للسؤال القائل: "كيف يمكننا أن نتعرف على العالم من حولنا؟" إن النسويات يتجاوزن كافة الحدود الإبستمولوجية، كما أن أصواتهن على تعددها تتحدث من داخل إبستمولوجيات وضعية، ومابعد وضعية، ونقدية، وبنائية، وما بعد بنيوية (Lincoln & Guba 2000). وإن كلا من تلك المواقع الإبستمولوجية، والتي تم تناولها مسبقا في فصول هذا الكتاب، تحمل منظورا متباينا بشأن قدرة الباحثة أو الباحث (الفرد) على توظيف تداخل المناهج. ويتركز السؤال الآن على أي المنظومات هي الأكثر استيعابا للاعتراف بالبحث متداخل المناهج والتعرف عليه وتوظيفه. وتميل منهجيات البحث الكمي إلى الاعتماد على منظومة وضعية أو مابعد وضعية حيث يكون البحث مدفوعا بالفرضية وقائما على الاستنباط. ويسعى البحث الإمبيريقي الخاص

بالمنظومــة الوضعية أو ما بعد الوضعيــة إلى الوصول إلى المعرفة الموضوعية عن العالم الــذي يحيط بنا. وكثيرا ما يعتمد البحث الكيفي على منظومــة نقدية أو تأويلية أو بنائية أو مــا بعد بنيوية حيث يكون البحث استقرائيا ومنطلقا من تجارب الأفراد والمعاني التي يضفونهــا على العالم المحيط بهم.[12] ولكن يجــب إدراك أن بعض الباحثات والباحثين الكيفيــين يكونون وضعيين أو ما بعد وضعيــين في مقارباتهم الإبسمولوجية. وكثيرا ما يتــم وضع قطبــي الإبستمولوجيا باعتبارها في حالة تعارض، وهــو وضع سيتم تناوله بالمزيــد لاحقا في الجزئية التاليــة من هذا الفصل. ويتطلب المزج بــين المناهج تجاوز ما كان يطلق عليه تقليديا فجوة المنظومة (paradigmatic chasm) في تناول نوعين من المناهج. إن أمورا مثــل الإنصات إلى أصوات النساء، واستكشاف وتمكين تجاربهن، ودراسة العلاقات بين السلطة والمعرفة، أدت جميعها إلى مراجعة نقدية قوية للمنظومة الوضعية للعلوم. وقــد جاءت النسويات المتخصصات في العلوم الاجتماعية في صدارة تلك الجهود النقدية، كما توجد جهود عديدة لتطوير أكثر من منظور إبستمولوجي نقدي جديد، بما في ذلك ما تم تناوله في الفصول السابقة من هذا الكتاب. إن الطرق المتنوعة والحيويــة التي قامت بها النسويــات بالتعامل مع المنظــور الإبستمولوجي على تعدده، والطــرق التي تفاعلت بها سياساتهن مع اختياراتهن المنهجية، تلقي جميعها الضوء على كثير من التحديات المنظومية التي يتم التعامل معها من قبل عديد من الباحثات والباحثين ممن يستخدمون البحث متداخل المناهج.

المقاربة المنظومية: النقائية

إن التقاطع مع كل منظور منظومي بشأن طبيعة المعرفة وطرق معرفتنا بالعالم يؤدي إلى ســؤال مهم مفاده: هل تسمح عدستنــا الإبستمولوجية بتداخل المناهج؟ ويلخص كتاب جينيفر جريــن وفاليري كاراتشيللي المقاربات الإبستمولوجية الثلاث الرئيسية في تطبيق واستخدام تداخل المناهج، وأولى هذه المقاربات هي المقاربة "النقائية" (purist approach).

> يرى أنصار الموقف النقائي أن الأطر أو المنظومات البحثية المختلفة تجسد -في أساسها- افتراضات مختلفة وغير متماشية بشأن الطبيعة الإنسانية والعالم وطبيعة مطالب المعرفة، وما يمكن معرفته، كذلك أن تلك الافتراضات تشكل كيانا كاملا متصلا لا يمكن تقسيمه مع الحفاظ على المعنى. وبالتالي فمن غير الممكن ولا المعقول المزج بين منظومات بحثية مختلفة داخل دراسة أو مشروع واحد. (Greene and Caracelli 1997، p. 8)

ولعل دعاة النقائية هم أكثر الشخصيات المؤثرة في خلق الفجوة الإبستمولوجية والمنهجية بين المناهج الكيفية والكمية. وهم يؤكدون على أننا إما أن نكون وضعيين نستخدم المناهج الكمية أو أن نكون بنائيين نقديين (critical constructionists) نستخدم المنهجيات الكيفية. وهم يرون عدم وجود حدود تسمح باستخدام تداخل المناهج مع الحفاظ في الوقت نفسه على موقف أمين ومطاوع فيما يتصل بمسألة الإبستمولوجيا.

إن استخدام مقاربة نقائية في المثال الذي سبق أن قدمناه بخصوص جنسانية الفتيات سيتطلب من الباحثات والباحثين الاختيار ما بين المنهجيات الكيفية أو الكمية، وهو منظور إبستمولوجي سيتناول سؤال البحث إما من موقع وضعي يستخدم معايير قياس موضوعية قابلة للتحديد الكمي والتي يتم تعميمها على مجموعة محددة من البشر، أو موقع نقدي يرى جنسانية الفتيات قابلة للتناول بمناهج البحث الكيفي. فلا مجال في المقاربة النقائية لما هو "بين اثنين" ولا مزج. ويتشكك أنصار النقائية تماما في محاولات تجاوز الفجوة بين المنهجيتين ويرون تداخل المناهج غير متوافق مع الحس القوي بالمنظور الإبستمولوجي، فيرى المؤمن بالنقائية أن الباحثة أو الباحث يتجنبان عندها طرح أسئلة حول طبيعة متطلبات المعرفة وينحيان جانبا الأسئلة عن كيف يمكن للبشر معرفة العالم المحيط بهم. ويضطر أنصار النقائية إلى اختيار جانب واحد من جانبي تلك الفجوة وأن يتناولوا عملهم البحثي بالتالي تبعا للجانب الذي اختاروه، فلا يمكنهم استخدام الجانبين أو توليفات من الجانبين في مقارباتهم لدراسة سؤال البحث.

وتجيب النقائية الإبستمولوجية (epistemological purism) على السؤال المطروح حول جنسانية الفتيات بالتركيز على واحدة فقط من المقاربتين. فالباحثة أو الباحث النقائيان الكيفيان (qualitative purist) سيتناولان سؤال البحث من منطلق منظور نقدي أو بنائي أو تأويلي منفتح على كل البيانات والمادة والمعاني التي تتيحها المقابلة الشخصية الكيفية أو مجموعة النقاش، وسيؤكد أن البحث الاستطلاعي الذي يختبر بالاستنباط الفرضيات المطروحة بشأن جنسانية الفتيات هو بحث يعجز عن الإمساك التام بتفاصيل الواقع المعقد المبنية على التجربة والمحملة بالمعاني. أما الباحثة النقائية الكيفية التي تجمع إلى جانب ذلك كونها نسوية فقد تؤكد على أن البحث الاستطلاعي قد يؤدي بطبيعته إلى عدم تمكين الفتيات بإسكاتهن وتسطيح تجاربهن في شكل إجابات ثنائية البعد وقابلة للدراسة الكمية. وعلى الجانب الآخر فمن المرجح أن تؤكد الباحثة أو الباحث الكميان أن مناهج البحث الكيفي تتطلب رؤية لجنسانية الفتيات لا تمثل جهدا علميا سليما ولا تساعد في بناء معايير بحثية مهمة وموضوعية. ويرى هؤلاء أن البحث النقائي والصحيح والمضمون والموضوعي الذي يصف نتائج بحث قابلة للتعميم هو أهم جانب من جوانب بناء المعرفة، فالباحثون النقائيون يرون أن البحث يحتاج إلى التعميم بحيث يمكن طرح مقولات عن المجموعة السكانية بأكملها. وأحيانا ترتبط النقائية الكمية أيضا بالبنى التنظيمية والمؤسسية والانضباطية التي تساعد في الحفاظ على استخدام مناهج البحث الكمي بشكل متسق مع فرضها وتشجيعها. فعلى سبيل المثال تشير دراسة ديبورا تولمان ولورا شالاكا (Tolman and Szalacha 1999)، إلى أنه داخل تخصص علم النفس البحثي (research psychology) نجد أن المقاربة السائدة في الإجابة على الأسئلة هي مقاربة كمية خالصة. كذلك فإن فرض الموقع النقائي الكمي يعتبر هو تراث الوضعية الطويل في العلوم الاجتماعية الذي تم تناوله في الفصول السابقة من هذا الكتاب. فبالنسبة لأنصار النقائية من المنهجين الكيفي والكمي لا يمكن التنازل عن الاختلافات الفلسفية بشأن طبيعة الواقع الاجتماعي، فالمزج بين المناهج يمثل بالنسبة لبعض أنصار النقائية انتهاكا للمعايير الفلسفية والإبستمولوجية.

وعلـى الرغم مـن الموقف القوي الذي يتبنـاه النقائيون فإن هـذا الموقف قد تعرض للنقـد من داخل الدوائـر النسوية وخارجها على السواء. فقـد أكدت النسويتان جووي سـبراج وماري زيمرمـان أنه في واقع الأمـر "كثيرا ما جاءت البدائـل المنهجية التي قدمتهـا النسويات مجرد صورة متطابقة مـع الوضعية" (Sprague and Zimmer-man 2004، p. 39)، وتؤكدان على أن الالتزام الوضعي والنسوي تجاه إما النقائية الكمية أو الكيفية يخدم عملية إعادة بناء وإعادة تدعيم الثنائيات (dualisms) الراسخة، وتواصلان حديثهما كالآتي:

ينتظـم كل من المقاربـة الوضعيـة والمقاربة النسويـة الشائعة حول أربـع ثنائيات: الموضوع/الذات، العقلاني/العاطفي، المجرد/المحدد، والكمي/الكيفي، ولكن المقاربتين تختلفـان في أي نصف من الثنائية يتم التركيز عليه وتقييمـه باعتباره المعيار السائد. إذ تدعـي الوضعية وجود واقـع موضوعي، قابل لـلإدراك بشكل مستقـل عن التجربة الذاتيـة، كما يعلي من قيمة ما هو عقلاني ومجـرد وكمي. وعلى النقيض من ذلك نجد أن النسويات يمنحـن الأولوية للتجربة الذاتية الخاصة بالأطـراف الفاعلة، مع التأكيد على الجوانب العاطفية للحياة الاجتماعية الراسخة في التجارب اليومية المحددة. ويرين أن البيانـات والمادة البحثية يجـب أن تكون كيفية من أجل الكشـف عن تلك الجوانب. (Sprague and Zimmerman 2004، p. 39)

إن اهتمامهمـا بالطبيعـة الثنائيـة الكامنة داخـل المقاربـة النقائية تجاه تلـك الأسئلة الإبستمولوجيـة تنقلنا إلى المقاربة الأولى التـي تجد مساحة للمزج بين المناهج، ألا وهي مقاربة البراجماتيين الذين يتجنبون الترتيب الثنائي الاستقطابي لمنهج فوق الآخر وإنما يسعون إلى المناهج الأكثر ملاءمة لتناول سؤال البحث المطروح.

المقاربة المنظومية: البراجماتية

إن المجموعة الثانية من المقاربات، وهي الموقف البراجماتي (pragmatic)

> يرى وجود اختلافات فلسفية بين منظومات البحث المختلفة. ولكن الباحثة أو الباحث البراجماتيين يعتبران تلك الافتراضات الفلسفية مستقلة استقلالا منطقيا وبالتالي يمكن مزجها والجمع بينها، مقترنة بالاختيارات المتاحة بشأن المناهج، وذلك من أجل الوصول إلى التركيبة الأكثر ملاءمة للمشكلة البحثية المعنية. (Greene and Caracelli 1997، p. 8)

وبمعنى آخر، فإن ذلك المنظور الإبستمولوجي للبحث متداخل المناهج يتطلب وجود مقاربة مرنة تعتمد تماما على احتياجات خطة البحث. وبشكل ما أو بآخر فإن هذه المقاربة البراجماتية تعكس صورة الباحثة أو الباحث اللذين يقيمان ويقبلان بالتعبير عن موقف إبستمولوجي، ولكن فيما يتعلق بالقيام بالبحث تكون تلك الافتراضات الفلسفية منفصلة عن المطلوب للقيام بالبحث في سبيل الإجابة على أسئلة الباحث أو الباحثة.

وقد تقترب الباحثة أو الباحث البراجماتيان من المثال الذي يتكرر ذكره هنا، ويتم طرح السؤال التالي: "ما المطلوب للإجابة على الأسئلة التي أطرحها حول جنسانية الفتيات؟" وللإجابة على هذا السؤال لا تتوجه الباحثة أو الباحث البراجماتيان إلى منظور كل منهما الإبستمولوجي للاسترشاد به، وإنما يتوجهان إلى أسئلة البحث ويسعيان إلى أفضل منهج أو مناهج لحل سؤال البحث. وتسعى الباحثة البراجماتية إلى تناول موضوع الدراسة من كافة الزوايا الممكنة مستخدمة كل الأدوات المتاحة لها للحصول على أكمل إجابة لسؤال بحثها. إن المقاربة البراجماتية للبحث متداخل المناهج تتماشى جيدا مع الأدوات المتنوعة والمعقدة التي تستخدمها الإمبيريقيات النسويات عندما تمتلئ أهداف البحث الجيد بمعايير موضوعية للإجراءات التي تستدعي من خطة البحث أن تكون مدفوعة بأفضل السبل لتناول فرضية ما.

فكيف للبراجماتيين أن يتناولوا أسئلة البحث في مقاربتهم بالنسبة لمثال جنسانية الفتيات؟ لعل مركز اهتمام الباحثات والباحثين ينصب على المقارنة بين نوعين من برامج التربية الجنسية في حي مدرسي معين. إن الدراسة الدقيقة والشاملة لمضمون مقرر التربية الجنسية قد تستدعي من هؤلاء الباحثات والباحثين استخدام تحليلات كيفية، مثل الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات الشخصية، ودراسات الحالة التفصيلية. ويكون قصدهم الأساسي في ذلك الجانب من خطة البحث هو فهرسة وتوصيف واستكشاف الاختلافات الكيفية بين هذين النوعين من برامج التربية الجنسية. أما الجانب الثاني من خطة البحث فقد تتضمن استطلاعا كميا يقيم التغيرات السلوكية لدى التلاميذ فيما يتعلق بالتجربة الجنسية والمعرفة التي يكتسبونها في كل برنامج من هذين البرنامجين. وقد يختار هؤلاء الباحثون والباحثات إدماج أبحاثهم متداخلة المناهج في نص تحليلي نهائي يوجد ترابطا بين مضمون وناتج تلك البرامج التربوية بالنسبة لجنسانية الفتيات. فإذا ركزت هؤلاء الباحثات والباحثون الافتراضيون الاهتمام على فاعلية أنواع معينة من برامج التربية الجنسية، وما يشتمل عليه محتواها ونتائجها، فيمكن لهم استخدام المقاربة البراجماتية في مزج المناهج للحصول على أكثر الإجابات شمولية. إن الدراسة التي سبقت الإشارة إليها- كمثال على الكيفي يعقبه الكمي- (Lackey and Moberg 1998) تتماشى جيدا مع الموقف الإبستمولوجي البراجماتي، إذ يندمج بحثهما مع الجهد البحثي الأكبر في تناول طرق الوقاية من مخاطر السلوك الجنسي لدى المراهقين والمراهقات. وقد رأت الدراسة السابقة أن معظم الباحثين والباحثات "يقصرون أبحاثهم وتحليلاتهم على عوامل مسبقة كالمهارات الفردية، والعلاقات الأسرية، وضغوط الرفاق" (Lackey and Moberg 1998، p. 491). إلا أن الباحثين وجدا في هذه الدراسة أن تلك العوامل غير فعالة في الكشف عن الحكاية الكاملة للمجازفات المتصلة بالحياة الجنسية، فمثلهما كغيرهما ممن يستخدمون مقاربات براجماتية نجدهما قد سعيا ببساطة للوصول إلى "أفضل" طريق يمكنهما من الإجابة على سؤالهما، وذلك بدلا من التعامل مع الفجوات الإبستمولوجية التي تتفاعل مع النقاشات المنهجية الأخرى. فقد سعيا للوصول

إلى فهـم وقياس أكثر صحة وأكثر تعقيدا لانخراط المراهقات والمراهقين الأمريكيين في الحضـر في الممارسات الجنسية، إلا أنهما لم يحصرا نفسيهمـا في تحليل يتسم بقدر أكبر مـن الإحكام في بنيته، والذي نشـأ من الأبحاث الاستطلاعية التي تمت في الماضي. بل اختار الباحثان استخدام مقاربة تداخل المناهج التي تعترف بأهمية عوامل البنى الفردية والأسريـة والمتصلة بمجموعة الرفاق، بينما تقوم في الوقـت ذاته بتضمين فهم متنوع للإطـار الثقافي الذي يتم التوصل إليه من خـلال المناهج الكيفية. إن الجانب الذي يميز المقاربـة البراجماتية عن غيرها من المقاربات الإبستمولوجية للبحث متداخل المناهج هو أن الباحثـات والباحثين الذين يستخدمونه لا يشعرون بالحاجة إلى وضع تحليل لموقفهم الإبستمولوجـي. وهـم يسعون إلى الإجابـة عن السؤال المطـروح بأكبر قدر وقصد، دون أن يتوهـوا- من وجهة نظرهم- في النقاش والجـدل الإبستمولوجي. وبشكل ما يكـون من الأيسر علـى البراجماتيين والبراجماتيات المزج بين المناهـج، إذ إنهم ليسوا مقيديـن بالجـدل الإبستمولوجي الذي قـد ينخرط فيه النقائيـون والجدليون، وإنما هم يهتمون بالنتائج التي يتوصلون فيها في بحثهم. إلا أن بعض الباحثات والباحثين يمكنهم الحصول على فوائد كثيرة من الاعتراف بالاختلافات القائمة بين المناهج التي يتم المزج بينهـا، إذ يرى البعضـ أن هنالك تداعيات سياسيـة وإبستمولوجية مترتبة على اختيار تداخل المناهـج وأن مزج المناهج يجب أن يكون أمرا يتسم بالصعوبة ويحمل تحديات. ويـرى بعض الباحثين والباحثات وجـود مصدر قوة كبيرة فيما يكشفون عنه من تنافر وتجانس في مزج المناهج، وخاصة أولئك الملتزمين بالمقاربة الجدلية.

المقاربة المنظومية: الجدلية

أمـا المقاربـة الثالثة التـي يعرضها كتاب جينيفـر جرين وفالـيري كاريتشيللي فهي الموقف الجدلي (dialectical position) الذي

يـرى أن الاختلافـات بين المنظومـات الفلسفية لمنطق التبريـر في أبحاث العلوم الاجتماعية ليست قائمة بالفعل فقط وإنما هي مهمة. وهي اختلافات لا يمكـن تجاهلها أو التصالـح معها، وإنما يجـب احترامها بطرق تحافظ على اتسـاق المنظومات المتباينة. وكذلك يجـب استخدام تلك الاختلافات عـن قصد داخـل الدراسات وعبرها نحو التوصـل إلى كشف جدلي للفهم المتطـور ومعـان ورؤى جديـدة وخاضعة للمراجعـة. (Greene and Caracelli 1997، p. 8).

هنا نجد أن الموقف الجدلي يخلق حوارا حلزونيا بين المنظومات الإبستمولوجية والمناهج ذاتها. فداخل تلك المساحات الحلزونية (spirals) يميل الباحثون والباحثات إلى فحص جانـب العمل البحثي، سعيـا للتعبير والكشف عـن المكاسب والخسائـر المتعلقة بالمناهج ونتائـج المزج بينها. إن خطة البحث تتضمن لحظات يتحاور فيها المنهجان، متجاوزين وجهات النظر الإبستمولوجيـة دون هدمها، وهي وجهات النظر التي تضع المنهجيات الكيفيـة والكميـة في وضع تنفصل فيـه الواحدة عن الأخرى. إنه مثـال لعبور الحدود يتضح فيه التوتـر القائم بين المناهج من ناحية وبين عمليات المزج بينها، وكثيرا ما تنشأ عنـه أفكار مفيدة. إن الأطر التأويلية والبنائية التي يقوم عليها البحث الكيفي تؤثر أيضا على أنواع المقاييس الكمية المستخدمة، ووجهات النظر الوضعية وما بعد الوضعية التي تبني منهجيات كمية تهدف إلى صياغة محتوى قابل للتعميم في جوانب البحث الكيفية.

إن هذه المقاربة الجدلية تتناسب أكثر ما تتناسب مع القصد والناتج الخاص بالمشروع البحثـي لدى ديبـورا تولمان ولورا شـالاكا، إذ قامت الباحثتـان بتضمين خطة بحثهما "ثـلاث إعادات تنظمهـا ثلاث أسئلة بحـث منفصلة ومتآزرة، والتي نشـأت بالتتابع استجابـة للنتائـج المتولدة عن تتبع سؤال البحث السابـق" (Tolman and Szalacha 1999، p. 13). ففـي كل مرحلـة من هذا البحث، وعند كل تحـول في بؤرة اهتمام البحـث، واصلتا توجيه نتائج البحث إلى بؤرة الجدل الحلزوني. فقد قامتا ببناء صورة

متعـددة الطبقات لجنسانية الفتيات بدأت بإطار كيفي يركـز على السؤال التالي: "كيف تصف الفتيات تجاربهن الخاصة بالرغبة الجنسية؟"

ومثلهمـا في ذلك مثـل العديد من الباحثـين والباحثات ممن يعتمـدون على السؤال الإبستمولوجـي بشـأن عمـا إذا كان في وسع المرء مـزج المناهج وكيفيـة القيام بذلك، توجهت الباحثتان ديبورا تولمان ولورا شالاكا إلى عوامل القوة الكامنة في كلا المنهجين. وبدلا من الابتعاد بمشروعهما البحثي عن الأسئلة الفلسفية المتعلقة بالمشروع،[13] وهو ما نـراه لدى بعض البراجماتيين، نجدهما تتعامـلان مباشرة مع القضايا الفلسفية القائمة، وفي ذلك تعقبان قائلتين:

> كثـيرا ما يتم فهم المقاربات الكمية والكيفيـة باعتبارهما منظومتين بحثيتين منفصلتـين، بينهمـا افتراضـات ومتطلبـات وإجـراءات مختلفـة جذريا تضـرب بجذورهـا في إبستمولوجيات مختلفة تمامـا. إذ يرى موقف من هـذا الجدل الفلسفـي أن الدمج بـين المنظومتين الكميـة والكيفية مستحيل؛ لأنهمـا تمثـلان رؤيتين منفصمتين للعـالم. أما الموقف الآخـر القائم على أسس فلسفية وبراجماتية فيرى أن كلتا المنظومتين يمكن الجمع بينهما على مستـوى الممارسة البحثيـة الفعلية، وأنه يجب الجمـع بينهما على مستوى الافتراضات المنهجية لعلم الاجتماع، ويرجع ذلك إلى أن تلك الاهتمامات تسبقهـا في الأهمية الأغراض السياسية بشأن كيفية استخدام نتائج البحث.
> (Firestone 1993; Tashakkori & Teddlie 1998 cited in Tolman & Szalacha 1999، p. 9).

إنهما توجهان تركيزهما التام إلى بناء جسر بين المناهج الكيفية والكمية للوصول إلى مزايـا كلا المنهجين والتفاعل معهمـا، بدلا من احتلال مواقـع متعارضة على النقيض من أحدهمـا الآخر. إن النقـاط الإبستمولوجية المشتركة التي تعرضهـا ديبورا تولمان

ولـورا شالاكا تقوم على مقدمة منطقيـة وهي أن "التحدي القائم في التعامل مع المشاكل الاجتماعيـة المعقدة، وخاصــة تلك التي تواجه علم النفس التطبيقــي الناشط كعلم النفس النسـوي، تتطلب مزيدًا من الفحصـ للإمكانيات الكامنة في الجمع بـين المناهج الكمية والكيفية" (Tolman & Szalacha 1999، p. 10). وترى الباحثتان أن الإمكانيات الكامنة لتوحيد هذين الشكلين من مناهج البحث، بالتلاحم والتفاعل، هي وحدها القادرة على جعـل تعقيدات عالمنا الاجتماعي في بـؤرة الإدراك. وتسعى هاتان الباحثتان إلى معرفـة أمر ما عن العالم، وهو أمـر شعرتا أنه قابل إبستمولوجيًّـا للتحقيق عن طريق واحد وهو التوحيد بين هاتين المنهجيتين وبناء جسر بين هاتين المنظومتين.

أمـا الأسئلة حول هل وكيف ومتى يجب الجمع بين المناهج فهي أسئلة تنطلق مباشرة مـن المنظـور الإبستمولوجي، فالجـدل القائم حول تلـك الأسئلة يتسـم بالحيوية داخل الدوائـر المنهجيـة. كما أن الحدود بين المواقـف الإبستمولوجية: النقائيـة والبراجماتية والجدلية فيما يتصـل بالبحث متداخل المناهج هي مواقف، مثلها في ذلك مثل غيرها من التصنيفـات، تتسم بقدر مــن الضبابية. وكما تشير الباحثتـان يوجد في بعض الحالات كثـير مــن الباحثين والباحثات ممــن يستشعرون الحاجـة إلى تجاهل النقاشـ السياسي والإبستمولوجــي ويواصلـون ببساطـة البحث متداخـل المناهج باعتبـاره يلائم سؤال البحث المطـروح. إلا أن هذا افتراض يصعب على الكثـيرات من الباحثات النسويات تبنيـه لقناعتهن بأن المناهج المعنية لها تأثـير حقيقي وقوي ودائم على العالم الذي يسعين إلى التفاعل معه وفهمه.

حوارات منهجية عبر الحدود:

لماذا تختار النسويات البحث متداخل المناهج؟

نظـرا لقـدرة البحـث النسـوي علـى تنـاول أو تجنـب الفخـاخ النظريـة والسياسية والإبستمولوجيـة التي وضعتهـا العلوم الكيفيـة الوضعية، فقد أصبـح البحث النسوي

وبشــكل متزايد مرادفــا للبحث الكيفي، كمــا أخذت الكثيرات من الباحثــات النسويات في الدفــع باستخدام منهجيــات البحث الكيفي والكمي على الســواء؛Brannen 1992) Devine & Heath 1999; Maynard & Purvis 1994). إن النقاشات والجدل، بما يحمله من قوة بيان وبلاغة تعبير تؤدي إلى انقسامات بالغة داخل المجتمع النسوي، جعلت الكثيرين مترددين في فرض مثــل تلك الثنائيات، وقد عملت التنازلات المتبادلة والجســور المقربة بين هذين المنهجين (الكيفــي والكمي)، بالإضافة إلى الضرورة الملحة لتناول ســؤال البحث، أدت جميعها إلى تضييق الهوة القائمــة بين المناهج. إن التعامل مــع المناهج وحدودها، والتعامل مع الثنائيات المتصلة (Fine 1994) تلقي بالضوء على التعقيــدات الكامنة في الاختيارات المنهجية. فالتعامــل مع الثنائيات المتصلة (working the hyphen)، في سيــاق تداخل المناهج يبني جسورا تزيد من مساحة الإجابات التي يمكــن الوصول إليها عند طــرح الأسئلة بشأن ما الذي يمكننا تأكلــه؟ وكيف يمكننا فهم حقائق عالمنا؟ إن التعامل مع الثنائيات المتصلة يمكنه أن يلائم برنامج العمل النسوي الذي "يطــرح منهجية نسوية جامعة مبنية على المقدمة المنطقية القائلة بأن البحث الاجتماعي يجمع بين كونه جمعيا ومساريا" (Sprague & Zimmerman 2004، p. 39). وفي خضم الروح المنهجية الخاصة بالجمع بين تلك الثنائيات، نجد أن تفكيك ثنائية إما/أو قد يتضمــن المزج بين المنهجين الكيفي والكمي. ويتضمن بناء الجسور توسيع مجال المعنى الــذي يمكن الوصول إليه داخل نطاق البحث الواحــد. ونجد أن الأسباب والأغراض المتصلة بقرار اختيار الاستعانة بالبحث متداخل المناهج تتنوع بتنوع الباحثات والباحثين وموضوعــات البحث. إلا أنه يمكننــا في بعض المناهج المتداخلة التــي تم تناولها في هذا الفصــل أن نتوقف أمام عدد من الأسباب التي قد تجعــل الباحثة النسوية تختار التعامل مع الثنائيات المتصلة والمزج بين مناهج البحث.[14]

وقــد ترى بعض النسويات اختيار البحــث متداخل المناهج لنفس الأسباب التي تراها الباحثــات والباحثــون غــير النسويين، وهي الأغراضــ الخاصة بما يلــي: الدحض، واستخــدام ثلاث أدوات بحــث (triangulation)، وفحص الإجراءات، ومد شباك

البحـث إلى أوسع مدى، والتراث الملتـزم بالتخصص الواحـد. وإلى جانب الأسباب العامـة لاستخدام تداخل المناهج تميل الباحثـات النسويات إلى إضافة طبقات جديدة من التفسـير المنطقي للاختيـارات التي يقمن بها في بداية إعداد خطـة البحث، وهي أسباب تتضمـن إحساسا بازدواج الوعي، والاهتمام بالمعرفـة الخاضعة والأصوات المعرضة للإسكات، وكذلك تمكين كل من الباحثة والمشاركة في البحث.[15]

الدحض

إن تنـاول الأسباب التي قد تجعل الباحثة أو الباحث يتبعان مقاربة تقوم على تداخل المناهـج توصلنا إلى الهدف المتمثـل في السعي إلى دحضـ (falsification) أو اختبار فرضيـة ما. وهو ما يتضح في أعمال كل من جويس لادنر (Ladner 1971) وديبورا تولمان ولـورا شـالاكا (Tolman and Szalacha 1999). فنجـد أن خطتي البحث السابقتـين تنطلقان بغرض دراسة ودحض المفاهيم السائـدة القائلة بأن النشاط الجنسي للمراهقـات هو سلوك منحـرف أو غير سوي. كمـا توضح لنا ديبـورا تولمان ولورا شـالاكا أيضـا أن بوسع البحث متداخـل المناهج بناء جسور بين حـزم النظريات الكلية والجزئيـة (macro and micro sets of theories) عن الجنسانية، فتقوم الباحثتان بتطويـر مقاييس جزئية (micromeasures) جديدة تنطلق من المادة الكيفية لأصوات الفتيـات عن الجسد والرغبـة. ثم تقوم الباحثتان بتوضيح كيـف يمكن التوحيد بين تلك المقاييس الجزئية بطرق جديدة للفهم، ودراسة البنى الكلية (macrostructures) التي تشكل النظريات الخاصة بالانحراف والجنسانية.

استخدام ثلاث أدوات بحث

إن استخـدام ثـلاث أدوات بحث هو سبب آخر مـن الأسباب التي قـد تدفع بالباحثات والباحثين إلى اتباع تداخـل المناهج. واستخدام ثلاث أدوات بحث (triangulation)

يشـير عموما إلى استخدام منهجين للوصول إلى حزمة بيانات مفردة تجيب على سؤال معـين. وعلى الرغم من أن هذا المفهوم يحمل معـاني تختلف من باحثة إلى أخرى فإنه يمكننـا التوقف أمام الأسبـاب التي قد تجعل استخدام ثـلاث أدوات بحث أمرا ذا أهمية بالنسبـة للباحثـة النسوية في معرض نقاشنا هنا.[16] ويمثـل استخدام ثلاث أدوات بحث بالنسبـة للباحثة أو الباحث البراجماتي مبررا قويا لتبني البحث متداخل المناهج، فتكون الباحثـة أو الباحـث البراجماتي حريصين حرصا بالغا على توضيـح الأمور باستخدام الصـور، فقـد أوضح جيل لاكي وبـول موبـيرج (Lackey and Moberg 1998) هـذا الأمر في محاولتهما لجمع أكثر قدر ممكن من حزمـة البيانات المكتملة حول مسألة جنسانية الفتيات. وبالنسبة للباحثات النسويات:

> يعكس استخدام المناهج المتعددة هوية كثير من الباحثات النسويات من حيث تعدد أوجهها. فنحن متعددات الأوجـه لأننا نعمل في عصر نهضة نسوية تتجـاوز حدود التخصصات العلمية وتتحدى كثيرا من قدراتنا في آن. إن هـذه التعددية التي نتسم بها تجعل البحث أحادي المنهج يبدو مسطحا وغير ملائم للكشف عن تعقيـدات حيوات النساء والتعبـير عنها. (Reinharz 1992، p. 202).

ويعكـس منظور شولاميت رينهارتـز بشأن أسباب مزج المناهـج عن رغبة الكثيرات مـن النسويات في خلق أكثر قدر ممكن مـن التعددية والتعقيد في عرض تحليل البيانات والمادة العلمية.

فحص إجراءات البحث

كثـيرا ما تستخـدم الباحثـات النسويات وغـير النسويات تداخـل المناهج في فحص إجراءاتهـن وتحسينهـا في جمـع المـادة (interrogating research measures)، فتقـوم بعضهن بتطوير أسئلة استطلاع الرأي بعـد قيامهن بجمع مكثف للمادة العلمية،

ويستخدمـن القضايا واللغـة والمصطلحات التي تظهر في المـادة الكيفية في صياغة أسئلة استطـلاع الـرأي . ونجـد أن جيل لاكي وبـول موبـيرج (Lackey and Moberg 1998 ، يقدمـان لنا مثالا على مزج المناهـج "للكشف عن آراء المشاركات والمشاركين بغيـة استخدام تلك الآراء لتطويـر واختبار أداة ما على عينة مـن مجموعة بشرية ما" (Creswell 2003 ، p. 100) . وقد بدأت جيل لاكي وبول موبيرج بحثهما بمجموعة نقاشيـة كيفيـة ، أدت بالتـالي إلى قيامهما بإضافة أسئلـة استطلاعية تلتفـت إلى القضايا المذكـورة في تلـك المجموعات النقاشيـة وتقيسها . أمـا غالبية الإضافات التـي أضافاها على استطلاع الـرأي فتتناول "الاتصال بالإعلام والثقافـة الرائجة" (Lackey and Moberg 1998 ، p. 495) . وقـد اكتشفـا وجود فكرة بالغة الشيوع ظهرت لهما من خلال المجموعات النقاشية ، وهي الفكرة الخاصة بانتشار الرسائل الداعية إلى الممارسة الجنسيـة في وسائـل الإعلام والثقافـة الرائجة . وقـد دفعتهما تلك الفكـرة من منطلق براجماتي إلى إضافة إجراءات البحث الاستطلاعي وتعديلها . [17]

مد شباك البحث

من الأسباب الأخرى الدافعة إلى مزج المناهج والتي يتم عادة ربطها باستخدام ثلاث أدوات بحـث هو السبب الذي تبينه شولاميت رينهارتز التي تصف الباحثات النسويات اللاتي يستعن بكل من المناهج الكمية والكيفية

> مـن أجل مد الشباك إلى أوسع مدى ممكـن بحثا عن فهم للقضايا الملحة في حيـوات النسـاء . إن المقاربة متعـددة المناهج زودت مـن إمكانية توصل هؤلاء الباحثات إلى فهم لما يدرسونه ، وما سيمكنهن به من إقناع الآخرين بصـدق نتائج بحثهن . ويعمل تعدد المناهـج على تحسين الفهم ، وذلك من خـلال إضافة طبقات من المعلومـات ، وباستخدام نوع واحد من البيانات لتأكيد صحة البيانات الأخرى وصقلها . (Reinharz 1992 ، p. 201)

إن مد شباكنا إلى أوسع مدى هو سبب قوي وبراجماتي لاستخدام تداخل المناهج. إن القصد عند ترك كافة الأبواب مفتوحة هو عملية مقصودة وقوية تحرر الباحثة والباحث أمـام اختيار المنهج الذي قد يحسن أوضاع النساء، أو قد يجيب على سؤال مهم. فقدرة النسويـات على اختبار وتحسـين مناهجهن المختارة عبر التفاعل مـع المناهج الآتية من منهجيات أخرى هو مبرر آخر مهم لتداخل المناهج.

أطر التخصصيات المعرفية

هنالك جوانب للمنظور المنهجي تعتمـد ببساطة على إطار التخصص المعرفي (dis-ciplinary framework)، الـذي تعمل الباحثة النسوية مـن داخله. وفي ذلك ترى شولاميـت رينهارتـز أن "النسويـة تضيـف إلى المنظور، والتخصصـات تضيف إلى المنهـج. والباحثة النسويـة تقع عنـد تقاطعاتهـا" (Reinharz 1992، p. 243). أما بالنسبة لديبورا تولمان ولورا شالاكا فإن علم النفس، باعتباره تخصصا معرفيا، يفضل ويشجـع منهجيات البحث الكمـي. في حين أنه بالنسبة للباحثـات والباحثين الآخرين، ممن تتقبـل تخصصاتهم المعرفيـة استراتيجيات البحث الاستقرائـي والكيفي، فقد تتيح مناهج البحث الكيفي القاعدة الأساسية لخطة البحث متداخل المناهج.

الوعي المزدوج

حين يتصل الأمر بفهم الأسباب التي تجعل النسويات راغبات في مزج المناهج يمكننا أيضـا القول بإيجـاز بأن البحث النسوي يمكنه تحديدا إتاحـة مساحة لاستكشاف تداخل المناهـج. فقد عكفت الباحثات النسويـات منذ فترة طويلة على مناقشـة الطرق المتعددة لاكتسـاب المعرفة والمواقـع المتعددة للرؤية والتأمل التي تمكـن النساء من معرفة العالم

عمومـا. والأسباب التي تدفع إلى تفكيك وتجنب الثنائيـة المتعارضة الزائفة بين المناهج الكيفية والكمية هـي أسباب تتضمن أهدافا تخصصية نسوية تهدف إلى تجنب التراتبيات وتمييز المنهجيات الكمية بدون وجه حق.[18] وربما يتيح تداخل المناهج للنسويات مساحة جديدة للتعبير عن تلك الطرق العديدة للمعرفة واستخدامها. وتناقش باربرا دي بويس المقصـد العام من وراء البحث النسوي باعتباره مقصدا عاطفيا يهدف إلى "رؤية ما هو موجود هناك، لا ما تعلمنا أنه موجود هناك، ولا حتى ما قد نتمنى أن نجده، بل ما هو موجـود. فنحن لا نستطيع رؤية النساء من خلال العلوم والنظريات التقليدية" (Barbara DuBois 1983، p. 109–110). كما تشير إلى أن البحث النسوي:

> هـو مهمة جماعية لا فردية، حيث يتطـور لدى النساء "وعي مزدوج"، فتكون النسـاء داخل مجتمعنا ومن مجتمعنا، ولكنهن أيضا وبشكل ما مهم أيضا لسن "من" المجتمـع.... ونحن ندرك، حتى وإن كان ذلك بشكل بدائي غير مكتمـل، حقيقة رؤانا وتجاربنا، وندرك أن تلك الحقيقة كثيرا مـا كانت غير مسماة أو غير قابلة للتسميـة، ونفهم أن وضعنا غير المرئي وسكوتنـا يحملان بذور الجنون والقـوة في آن، وبذور الفناء والخلق في آن. (Barbara DuBois 1983، p. 111–112)

المعارف الخاضعة للتبعية والأصوات الخاضعة للإسكات

انطلاقا من أفكار باربرا دي بويس حول الوعي المزدوج (double-consciousness)، يمكننا التفكير في مدى قدرة تداخل المناهج على الوصول إلى المعارف الخاضعة للتبعيـة (subjugated knowledges) والأصوات الخاضعـة للإسكات (silenced voices). ومثلهـا في ذلـك مثل جويس لادنر وكل من ديبـورا تولمان ولورا شالاكا، تقترب باربرا دي بويس من الأهداف النسوية الساعية إلى تسمية الأشياء غير المسماة،

وتنــاول ما هو تقليدي غير مرئي في أنماط إنتاج المعرفــة التقليدية وجعله مرئيا. ومن الممكــن لاستخدام "الوعي المزدوج" لدى النساء ضمــن جهود توسيع وتوظيف تداخل المناهــج أن يتيح طرقــا ممكنة لخلق المعرفة. ومــن أجل تسليط المزيد مــن الضوء على الأبعاد والاهتمامات والسياقات التي تضيفها الباحثات النسويات إلى النقاش الدائر حول تداخل المناهج، سنعود إلى المثال الذي سبق أن طرحناه للبحث متداخل المناهج في تناول جنسانيــة الفتيات ونشاطهن الجنسي. إن المقاربة متداخلــة المناهج لباحثة أو باحث غير نســوي ربما تتفاعل بقدر أقل مقارنة بالباحثــة النسوية مع الافتراضات الإبستمولوجية والمنهجية التي يتطلبها البحث الكمي والبحث الكيفي على السواء. أما الباحث النسوي أو الباحثــة النسوية فتكون أقرب إلى الانطــلاق في البحث من منظور كيفي، وذلك نتيجة للاهتمــام بأصــوات النساء وتجاربهن. ومن هــذا المنطلق قد تعمل الباحثــة النسوية أو الباحث النسوي على وضع الإجراءات الكمية داخل خطة البحث براجماتيا، أو تضمين جانبي مناهج البحث المستخدمة جدليا.

وقد توجه العمل البحثي الذي قامت به ديبورا تولمان ولورا شالاكا بداية إلى أصوات الفتيــات من خلال عقد مقابلات شخصية مكثفة، ثم تمت إعــادة تناول روايات الفتيات بوضعهــا في سياق كمي للمقارنة بين البيئة الحضريــة والضواحي. وبعد ذلك تم تناول الروايات بمزيد من الدراسة الكمية لمقارنة جنسانية الفتيات في أبعادها العديدة من متعة، وقابليــة التعرض للأذى، وعلاقة ذلك بالعنــف أو الأذى الجنسي. إن مثل هذه المقاربة التكاملية تتماشى جيدا مع الرؤية الإبستمولوجية الجدلية لكيفية إمكان المزج بين المناهج.[19]

التمكين

إن البحــث النســوي بانخراطه في المنهج الكيفــي أو الكمي أو المتداخــل يرتكز دائما بصــورة أو بأخرى علــى السعي لتحســين أوضــاع الإنسانية عامة والنســاء خاصة.

وتضفـي الباحثـات النسويات على تداخـل المناهج تركيزا محوريا علـى قضايا النساء؛ اعتمـادا على اهتمامهـن السياسي بإلقاء الضـوء على المؤسسات والمشـاكل الاجتماعية التـي تؤثر على حيوات النساء. كذلك فإن الباحثـات النسويات، من كافة الاتجاهات، موجودات وحاضرات في مشروعاتهن البحثية، إذ يحددن موقعهن من خلال المنظور السياسـي المتبع في المسار البحثي، متعاملات ومتفاعلات مع منظورهن الإبستمولوجي والمنهجيـات المستخدمة والمناهج المتبعـة. ومن متطلبات البحث لديهـن وجود إحساس بالتكرار والتأمل المكثف للمناهج التي يخترنها في البحث. وتهتم الكثيرات من النسويات تحديـدا بالدور الذي قد تلعبه مناهجهـن البحثية في تغيير أو تفعيل علاقات القوى خلال مسـار البحـث، فنجدهـن يتساءلن: "هـل تداخل المناهـج مفيد من أجل تحقيـق أهدافي البحثيـة؟ وهل هو مفيد لي شخصيا؟" ويسعـين إلى المناهج التي تدعم وتمكن المستجيبات والمشـاركات والمشاركـين في البحـث، وكذلك مـا يدعم ويمكن البحـث نفسه. وتقوم الباحثـات النسويات ببنـاء جسور تتخطى الفجوة لقناعتهن بـأن الأمر يستحق العبور. والمنظور النسوي يتيح للباحثة أن تتفاعل وتتلاحم مع ثلاث لحظات من البحث بحيث لا تنفصـل أبدا عن بعضها البعض مثلما يكثر حدوثه في البحث غير النسوي.[20] إن البحث متداخل المناهج يعزز من التأمل العميق للمنهجية المتبعة؛ اعتمادا على نقطتي بداية المسار الممتد ونهايته، فهو يتيـح للباحثات النسويات تحقيق كثير من أهداف البحث بما في ذلك تقويض الانحيازات والعمل من أجل التغيير الاجتماعي والكشف عن أصوات النساء.

فعلـى سبيل المثال تميل الباحثـات النسويات إلى طرح التسـاؤلات حول إجراءات البحث الاستطلاعي الكمي الذي يقمن به، كما يدرسن مدى احتمالية عمل أسئلتهن على إسكات النساء وإضعافهن. ومن الوارد جدا أن تتوقف الباحثات النسويات أمام السؤال الاستطلاعـي القائل: "هل سبق أن أقمـت علاقة جنسية؟" باعتباره سؤالا إشكاليا. فمع حساسيتهن وانتباههن إلى قضايا القوة والنزعة الجوهرية، نجدهن أميل إلى الالتفات إلى أن الفتاة التي قد لا تعتبر نفسها غيرية الجنسية (heterosexual) قد تكون نشطة جنسيا

دون أن يقاس ذلك بدقة أو بصورة مناسبة عن طريق مثل هذا السؤال الاستطلاعي. وقد تقوم الباحثة النسوية حينها بإعادة صياغة استطلاع الرأي بحيث تطرح أسئلة محددة عن النشاط الجنسي بما يتضمن نطاقا أوسع من التفاعل الجنسي بين الأفراد. وبالتالي فإن الاستبيان البحثي الذي تقوم به باحثة نسوية أو باحث نسوي لن يقتصر في الغالب على مفهوم العلاقة الجنسية الغيرية.

وسنجد الإحساس بقضايا الفتيات من حيث التمكين والاعتداد بالنفس والسرية قائما في كل مراحل إعداد البحث، فعلى سبيل المثال نجد ديبورا تولمان ولورا شالاكا تناقشان الأسباب التي دعتهما إلى عدم جمع المعلومات عن الوضع الاقتصادي الاجتماعي (so-cioeconomic status) للمشاركات، وذلك لقلقهما من أن طرح سؤال عن الطبقة أو الدخل أو الوضع الأسري قد يؤدي إلى الصمت عن المعلومات الخاصة بموضوعات أخرى شائكة كالرغبة الجنسية والعنف الجنسي. وتذكر الباحثتان في كتابهما أنه نظرًا إلى أن ديبورا تولمان كانت "تطلب من الفتيات الحديث عن أمر هو في جوهره غير قابل للحديث عنه، ولذا فقد اختارت -بحرص- الأمور التي ستسأل عنها وتلك التي لن تتطرق إليها بما يؤدي إلى بناء الثقة" (Tolman and Szalacha 1999، p. 12). وقد وجدت الباحثتان في حالات كثيرة أن الوضع الاقتصادي الاجتماعي كان يطرح خلال المجموعات النقاشية، ولكن جاءت الاختلافات في المواقع ما بين الحضر والضواحي؛ لتكون هي في الواقع مؤشرا أفضل على الاختلاف فيما يتعلق بالرغبة الجنسية. فبدلا من البحث عن معلومات بشأن الوضع الاقتصادي الاجتماعي والاكتفاء بها في التحليل، جاءت أصوات الاختلافات ما بين الحضر والضواحي معبرة عن نفسها بقوة في المادة المجموعة:

> إن حجم الاختلاف الذي لاحظناه كيفيا كان في تجارب الرغبة لدى الفتيات بين الحضر والضواحي. كما تمكنا أيضا من إلقاء الضوء على: (هنالك علاقة بين مواقع هؤلاء الفتيات الاجتماعية وبين تاريخهن

الشخصـــي مع التعرض للانتهاكات الجنسية)، والذي اتضح جليا في كيفية معايشتهــن وإضفائهن المعنى على رغباتهن الشخصية، وخاصة في تحديد مــدى القيود المفروضة أو الدعم المقدم لهــن في تمكينهن من الربط بين ما يعايشنــه شخصيا من رغبة جنسية ومتعــة. (Tolman and Szalacha، 1999، p. 21).

ومن جانب آخر فإن منهجيات البحث الكمي غير النسوي التي تستخدم مناهج البحث الاستطلاعي، تميـل إلى عدم فحص البيانات الناجمة عن هــذا السؤال المطروح، فلن يتـم توجيه اهتمام كبير بالطريقة التي قد تتنــاول بها المستجيبة هذا السؤال ومدى تأثيره على الثقة. ففي سياق المقابلات الشخصية كانت الصراحة والثقة والاعتبارات العاطفية لمشاعــر المستجيبات من الجوانــب المهمة بالنسبة لديبورا تولمان ولــورا شالاكا، كما هو الحال بالنسبة لكثيرات من الباحثات النسويات.

فقــد توقفتا لتأمل مراحل منهجيتهمــا في البحث واستخدامهما لمناهــج بحثهما قبل بدء التعامـل مع المستجيبات. وقد أرادتا أن تشعــر المستجيبات بأكبر قدر ممكن من الراحة داخــل سياق البحــث، بحيث تتمكن المستجيبــات من الوصول إلى أكــبر قدر من الفهم لتجاربهن ومشاعرهن. فقد توقفت الباحثتان أمام اهتماماتهما الإبستمولوجية والسياسية التـــي قد تعمل على إسكات أصوات الفتيات إذا ما طرحتا عليهن أسئلة التقصي (prob-ing questions)، في استطلاع الــرأي. وقد تم تناول موضوع الجنسانية والنشاط الجنســي بقدر من الرقة والحرص والوضوح بهدف زيــادة سبل تمكين هؤلاء الفتيات وتقليل سبل إسكاتهن بفعل أدوات البحث والقائمتَيْن به.

وبينمــا نجد أن عددا قليــلا من الباحثــات النسويات هن اللاتي يتنقلــن بسلاسة عبر الحدود الإبستمولوجية، فإن هنالك تنويعات واهتمامات معينة تؤثر في تشكيل المنهجيات النسوية. فالالتفات إلى أصوات النساء، والاختلاف بين مجموعات النساء وداخل تلك

المجموعات، وتجـارب النساء المحددة والمرتبطة بالسياقات، وموقعية (positional-ity) الباحثـة أو الباحث، تمثل -عادة- جزءا مـن النقاشات النسوية حول المنهجيات المستخدمـة، سواء كانت كيفية أو كمية أو متداخلـة المناهج. وهي هموم تجعل استخدام النسويات لتداخل المناهج مغايرا للمقاربات غير النسوية. فالمقاربة متداخلة المناهج تلائم كثـيرا من أسس البحـث النسوي، وخاصة باعتباره سبيلا يفتـح اختيارات عديدة أمام الباحثـات، كما أن خطط البحث متداخل المناهج تستطيـع أن تحقق كثيرا من الأهداف التي تعمل على تمكين البحث النسوي إذا ما تم اختيارها بحكمة.

مزج المناهج: النسويات في غمار فوضى نتائج البحث متداخل المناهج

بالنسبـة للباحثـات النسويات يختصـ المنهج بالاختيـارات المتاحة، وعنـد القيام بتلك الاختيـارات تسعى النسويـات إلى الأدوات التي تمكنهن من القيـام بعملهن. ونجدهن يدرسن مدى التأثير الإبستمولوجي الفعال الذي يمكن لبحثهن أن يحققه. فما الذي يحدث عنـد مزج المناهج؟ مناهج جمـع المادة لا تحمل في حد ذاتها سياسات أو سلطة أو تركيزا براجماتيا، والمناهج تمنح الباحثـين والباحثات سبيلا للوصول إلى العالم المحيط بهم بما يتيح لهم التفاعل والإنصات وجمع المعلومات. ولا تحمل المناهج إمكانية إسكات أو تمكين العالم إلا تبعا لاستخدام الباحثة أو الباحث لها. وبالتالي نجد الباحثات النسويات منتبهات للقـدرة والقـوة التي تحملها المناهج عند تفعيلها في العـالم. إن كيفية مزج المناهج وكيفية تعامـل الباحثة أو الباحـث مع النتائج هي من السبل التي يتم مـن خلالها تفعيل المنظور الإبستمولوجـي والاختيار المنهجي، فالمناهج أدوات في أيـدي النسويات العاملات من أجل العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعـي. إلا أن تلك الطبقات والمستويات المتعددة والمعقدة تحمل أيضا بعض المخاطر، فكثيرا ما نجد أن المستويات المعقدة القائمة في البحث متداخل المناهج تكون متضاربة فيما بينها.

المزج بين الأوجه المتضاربة: ما تكشفه لنا المآزق والنتائج غير المرغوبة

إن مبررات مزج المناهج لا تؤدي على الدوام إلى نتائج متسقة وغير مثيرة للجدل، كما نرى في المثال الذي تناولته ديبورا تولمان ولورا شالاكا. والنسويات راغبات وقادرات تحديدا على مناقشة أوجه التعقيد الموجودة في مزج المناهج، فكثيرا ما أدى وعي الباحثات النسويات ومطاوعتهن إلى دراسة أوجه التضارب والمآزق (inconsistencies and dilemmas) الموجودة في البحث متداخل المناهج. إن الباحثات والباحثين غير النسويين الذين قاموا بأبحاث متداخلة المناهج وتوصلوا إلى نتائج متضاربة قد يميلون إلى تنحية نتائج البحث الكيفي جانبا، أما الباحثات النسويات فيتحركن عند حدود الصواب والخطأ ويقمن بتحليل معنى التضارب.

إن الدمج بين المناهج الكمية والكيفية في سؤال بحثي واحد شامل قد يؤدي إلى نتائج مرتبكة، ونجد أن الباحثات النسويات مؤهلات للتوقف عند الحقائق المتعددة الموجودة في خطة البحث الواحدة. وتعلق جووي سبراج وماري زيمرمان على الباحثات النسويات في محاولة الدمج بين مناهج البحث الكيفية والكمية بالقول: "عندما نواجه نتائج مختلفة ظاهريا بين كل من المنهجين، فلا يجب أن نفترض على الفور ضرورة رفض أحد المنهجين وقبول الآخر"[21] (Sprague and Zimmerman 2004، p. 53). ومن النماذج المعبرة عن الباحثين والباحثات ممن يلقون بالضوء على أوجه التجانس والتضارب في نتائج البحث هو الدراسة الجماعية التي تمت من خلال بحث استطلاعي ومقابلات ضمن مجموعات نقاشية بمشاركة نساء أفرو-أمريكيات، بهدف فهم الدوافع وراء التوقف عن التدخين أو الاستمرار فيه (Manfredi et al. 1997). فقد قامت الدراسة بفحص المعاني المختلفة المتصلة بالسياق والتي طبقتها النساء على تجاربهن كمدخنات. وقد توصلت الدراسة إلى نتائج متناقضة ما بين نتائج المنهج الكمي والكيفي، وفي ذلك يرد في الدراسة أن "الكثير من التضارب يصبح مفهوما فقط في السياقات التي يحدث فيها التدخين دون أن ينتج عن البيانات الواردة في الاستطلاع،

فبدون مرجعية السياق لم تعكس الإجابات على استطلاع الرأي بدقة اعتماد المستجيبات على التدخين للتعامل مـع ضغوط حيواتهن اليومية" .Manfredi et al. 1997، p) 796). إن التوصيفـات الكيفيـة للسياق الذي تختار فيه النسـاء التدخين، ألقى بالضوء علـى جوانب عادة مـا تكون مخفية وأحيانـا مستبعدة غير مرئيـة في عملية جمع المادة الاستطلاعية. إن السياقـات الموصوفة تحمل أصداء التجارب اليومية، وهي مساحات يتـم عادة إسكاتها في مناهج البحث غير النسويـة. إن تجارب الحياة اليومية التي تدور حول الروتين اليومي وأعمال المنزل ورعاية الأطفال أوجدت كلها معا سياقا من الضغط النفسي، أحاط بالمكان الذي اختارت النساء التدخين فيه، ولم تكن تلك التجارب اليومية جـزءا من أسئلة البحث الاستطلاعي وتم تغييبها تماما في إجراءات جمع المادة العلمية. "إن التدخـين في هذا السياق هو رد فعل محـدد للواقع، ينبع من الأحداث والسلوك، ولا تنتقل بالضرورة عبر عمليات معرفية تفترضها النماذج النظرية" Manfredi et) al. 1997، p. 796). ويتم تناول العمليات المعرفية والنماذج النظرية تناولا جيدا في مناهـج البحث الكمي. إن التوحيد بين منهجي البحـث الكيفي والكمي، على الرغم من النتائـج التي تأتي متناقضة أحيانا، يوضح بعض الأسباب المهمة والحيوية بشأن التفاعل مع البحث متداخل المناهج. وتبين الدراسة السابق ذكرها قدرة مؤلفيها على التفرقة بين أنواع جمع المادة التي اختاروا استخدامها في البحث وأشكال تحليلها.

إن جمـع المادة الاستطلاعية ليس مصمما من أجـل تقييم أهمية الموضوع، وإنما هو يفترضـ تلك الأهمية. والمعنـى السياقي لا يظهر في الاستطـلاع وإنما يجب أن يكون متضمنـا داخل بنية الاستبيان، ويتم بناء أسئلة الاستطلاع وتصميمها بحيث تقوم بتقييم العموميـة والتغايـر (generality and covariation). ومن جانبها تكون المجموعة النقاشيـة كيفية ومفيـدة في تحديد المنظور أكثر مـن تقييم قابليته للتعميـم، فالمجموعات النقاشيـة تقيس وجهة النظر الذاتيـة للمشاركة في البحث وذلك في سياق يتشكل بواسطة الطـرف الفاعل، وهو بدوره أمر قد يبالـغ في أهمية بعض الموضوعات بسبب علاقتها بسياق المجموعة المعنية (Manfredi et al. 1997، p. 798).

إن الباحثـات والباحثين في هذا المثال لا يتناولون بحثهـم بقصد تقديم مراجعة نقدية لمنظومة أو منهجية ما، وإنما يقتربون من موضوع البحث مما يبدو مقاربة براجماتية، وبشـكل ما موقفـا جدليا يهدف إلى تقـديم أفضل عمل بحثي وبنـاء أدق معرفة ممكنة. وهم يرون الدمج بين البحث الكيفي والكمي أمرا مفيدا، لا في إطار تخصصهم المعرفي فحسب وإنما في مجالات الصحة والسياسات العامة أيضا والتي يمكنها الاستفادة من تلك النتائج بمستوياتها المتعددة.

وهنالـك مثال آخر على النتائـج المتضاربة ما بين المنهجيـات الكيفية والكمية، وهو مثـال يقع داخل أساليب النساء في تسميـة (naming) تجاربهن التي كثيرا ما تتعرض للإسكات أو التغييب في البحث الاستطلاعي. وقد قامت نيكول ويستمارلاند باستطلاع للرأي وعقدت مقابـلات شخصية مع سائقات لسيارات الأجرة بشأن التحرش الجنسي والعنـف الذي يواجههـن في عملهن. وقد وجـدت أن سائقات سيـارات الأجرة "قلما قمـن بتسميـة تجاربهن بمسمى "العنـف" في الاستطلاع، ولكن مقابـلات المتابعة غير محكمـة البناء كشفت أن النسـاء كثيرا ما يقللن من أهمية تجـارب العنف التي يتعرضن لها ويتعاملن معهـا باعتبارها أمرا طبيعيا" (Westmarland 2001). ونجد أن بحثها الاستطلاعـي لم يقم بقياس ما سعت منذ البدايـة لدراسته؛ لعدم رغبة النساء أو قدرتهن علـى تصنيف تجاربهـن باعتبارها تجارب تتضمن العنـف إلا إذا تضمنت هجوما ماديا ملموسا. أما الأشكال الأخرى من العنف والتي سعت نيكول ويستمارلاند إلى دراستها فلـم يكن يتـم تعريفها بوصفها عنفـا بواسطة النسـاء في إجاباتهن علـى أسئلة استطلاع الرأي. وقد واجهت الباحثة هنا تحديا من التضارب المعقد القائم في نتائج بحثها، ونجدها تطـرح السؤال التالي: "أي تعريف يجب عليّ استخدامه؟ إن استخدمت تعريفي للعنف فهـل يوحي ذلك بـأن تعريفي للعنف هو التعريـف الأكثر دقة (الأكـثر صدقا) مقارنة بتعريفـات سائقات سيارات الأجـرة أنفسهن للعنف؟ وهل سأكـون عندها أقوم بتسمية تجاربهـن بالنيابة عنهن؟" ثـم تواصل الباحثة طرح مزيد من التسـاؤلات حول نفسها

كباحثـة وحول منهجها في الاستطلاع من خـلال النتائج التي تتوصل إليها فيما تقوم به من مقابلات شخصية مكثفة[22]. ومرة أخرى تقودها مقاربتها النسوية إلى أن تكون هي نفسها مشاركة ذات حضور فكري في تحليلها. وتعتمد مقاربتها على خطة البحث الكمي التي تتكامـل وتتحاور مع إجراءات المقابلات الشخصيـة المكثفة والمصغرة، وذلك من أجل زيادة صحة نتائجها وقدرة بحثها الاستطلاعي على قياس ما تسعى هي لقياسه.

وكذلـك تحاول ديبورا تولمـان ولورا شالاكا إضفاء الصـوت والتجربة على سؤال البحث الإحصائي والقابل للتحديد كميا.

> إن الاعـتراف بإمكانيـة الفاعليـة والرغبة والمتعة والخيـال الجنسي لدي المراهقات، وذلك من خلال القيام بطرح أسئلة عن أنواع تلك التجارب، يحـول تلك المقاربـة إلى منهج بحث نسـوي. فهو منهـج يبتعد عن خطة استطـلاع الـرأي، إذ يتيـح الفرصـة للفتيـات أن يعبرن عـن تجاربهن بالكلمـات وأن يسمين تجاربهـن، كما يطرح أسئلة عـن مجال حيواتهن الذي يظل مسكوتـا عنه في الثقافة العامـة. (Tolman and Szalacha 1999، p. 13).

وعندمـا توجد اختلافـات بين النتائج المنهجيـة وفيما بينها، فإن وجـود منظور نسوي يساعـد -عـادة- في علاج وإعـادة تأويل والدمج بـين أوجه التضـارب والأصوات الـواردة في المـادة العلمية. ويقوم الباحثـون والباحثات في كافة المجـالات باختيارات بشأن مـا يعتبرونه أهم وأقوى والأكثر تشويقا في نتائج البحـث. ولكن بالنسبة للباحثة النسويـة فإن الإجابة على تلك الأسئلة، والتي تطـرأ عند ظهور تناقضات، تتطلب أن يكون المنظور النسوي جزءا من عملية حل التناقضات.

الخاتمة[23]

تقوم الباحثات النسويـات بتمكين أنفسهن في المجالات الكيفية والكمية لجمع المادة وذلك من خلال تناول تناول الأسئلة بسبل مبتكرة. إن موضوعَ أو سؤالَ تناوُل جنسانية المراهقات -على سبيل المثال- يكون متعدد الأوجه، ومتعدد الأبعاد، ومعقدا بالدرجة التي تجعل مجـرد وصف جزء ضئيـل منه أمرا قد يتطلـب مقاربة بينيـة (interdisciplinary) ومتداخلـة المناهج. وبالتالي فإن الخطط متداخلة المناهـج تتيح تمكين الباحثة أو الباحث من تناول القضايا المعقدة التي تتبدى على مستويات متعددة – فردية ومجتمعية.

وإلى جانب ذلك، يمكن للبحث متداخل المناهج تحسين صحة ومصداقية مشروعات البحـث الكيفية والكميـة في آن. فعند استخدام المنهجين يضيـف الباحث أو الباحثة قدرا مـن التلاحم في مشروع البحث (مثلا: بتعزيز الصحة من خلال استخدام ثلاث أدوات بحـث)، مع تعويض النواقص الموجودة في غيره. وهنالـك فكرة مفادها أنه باستخدام تداخل المناهج "يصبـح الكل أكبر من مجموع أجزائه." إلا أن هنالك أيضا نذيرا يتعين الالتفات إليه عند استخدام خطط تداخل المناهج التي تمتد من المجال الفكري إلى العملي، إذ إن تداخـل المناهج يعتم الحد الفاصل بـين المنظومات البحثية، ومن غير الواضح إلى أي مـدى يجب على الباحثـين والباحثات الانتباه إلى ذلك الأمـر. فكما أوردنا سابقا، يدعو "البراجماتيون" إلى استخدام المناهج التي تحقق نتائج دون التفات كبير إلى قضايا الإبستمولوجيا والمنهجية، أما "النقائيـون" فيعتبرون تخطي الحد الفاصل بين المنهجين الكيفـي والكمي مسألة مربكة تهز أسس الفكر العلمـي. وآخرون يحتلون مواقعهم بين هذين الموقعين المتقابلين على طرفي مسار بناء المعرفة.

إن تداخل المناهج ليس بمثابة شراب سحري يعالج كل داء يمكن إضافته إلى الدراسة البحثيـة لضمان القيام بمشروع ناجح، فتداخـل المناهج عبارة عن حزمة من الأدوات للشـروع في بناء المعرفـة. والأكثر ليس بالضرورة هو الأفضل. بل نجد في الواقع أن المقطـع الـوارد في "ما وراء الستار" تشـير فيه جانيس مورس- وهـي الباحثة الكيفية المتميزة-إلى أن مزج المناهج ليس بديلا عن الجهد الشاق الخاص بالتفكير والتحليل.

كمـا توجد أيضا بعض القيـود الاقتصادية التي تستدعي التوقـف عندها لأن تكاليف القيـام بمشروع متداخل المناهج والتدريب اللازم للقيام بـه قد ترفع الميزانية الإجمالية لمشروعـك البحثـي. كذلـك لدينا المسائـل الخاصة بمدى تمكـن الباحثـة أو الباحثة من المنهجـين في نفسـ الوقت. فهـل يمكن أن تكـون العيوب أكـثر من المزايا عنـد القيام بمشروع متداخل المناهج في حال عدم حصول الباحثات والباحثين على القدر المطلوب من التدريب وإجـادة استخدام كلا المنهجين؟ وتثير جانيس مورس قضايا إضافية نابعة مـن توقعات الجهات المانحة، والتـي قد تضع ضغوطا على الباحثـين والباحثات لتنفيذ خطة بحث متداخل المناهج بصرف النظر عما إذا كانت مشكلة البحث تستدعيه.

إن النقطة التي تركز عليها جانيس مورس هي أننا كباحثات وباحثين يجب ألاّ ننسى الإسهـام الذي تقدمه المناهج الكيفية في شكلها النقـي الخالص (pure form) بما تضفيه على فهمنا لطبيعة الواقع الاجتماعي.

إن تداخل المناهج قد يحمل مخاطر، إذ تجازف الباحثات النسويات بالجهد المبذول، ويجازفن بمواجهـة الفجوات الإبستمولوجيـة الصعبة، وباحتمـال التوصل إلى نتائج متضاربـة، ضمـن جهودهن للفكاك مـن الثنائية الفاصلـة (dichotomy) بين مناهج البحث الكيفي والكمـي. والباحثات النسويات يجازفن باحتمال إخضاع عملهن البحثي لمكانـة ثانوية من قبل النقائيات النسويـات (feminist purists)، ممن ينادين بالمناهج الكيفيـة. وهن يجازفـن أيضا باحتمال بقـاء المسائل الإبستمولوجيـة قائمة بما قد يعوق أي نسويـة من تبنـي مقاربة إبستمولوجيـة جدلية ربما تتضمن انتهـاكات للبحث الجيد مـن منظور النقائيـين. كذلك تجازف الباحثـات النسويات باحتمال أن تـؤدي النتائج المتضاربة إلى ضغوط تدفـع إلى الاعتماد على النتائج الكمية على حساب الكيفية. ومع ذلـك فإن تلك المخاطـر والمجازفات يوازنهـا ويتفوق عليها أحيانـا العمل على الحدود بجوانبه العاطفية والإبداعية والمبهجة.

الهوامش

1- تشير ليونور تايفر إلى أن "الاستبيان واستطلاع الرأي والدراسات التجريبية، على سبيل المثال، والتي تمثل الكم الأكبر من أبحاث الجنس النفسية يمكن اعتبارها تراثا تطور عندما ميز علماء النفس أنفسهم عن الفلاسفة في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين في أوروبا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية" (Leonore Tiefer 2000، p. 84-85).

2- تقوم الأبحاث الاستطلاعية الكمية بجمع المادة التي يمكن اختزالها في قيم عددية، ثم يقوم الباحثون الكمّيون باستخدام تلك المادة للقيام بتحليل رياضي وإحصائي للأنماط والعلاقات الموجودة في المادة والبيانات. ويتمتع علم النفس البحثي بتراث طويل من استخدام وتطوير مناهج البحث الكمي، وذلك مع عدم استبعاد المناهج الكيفية. للاطلاع على عرض عام للموضوع، انظر/ي: (Glynis M. Breakwell، Sean Hammond، and Chris Fife-Shaw 2000).

3- عند الحديث من منطلق المنهجية (methodology) فإننا نشير إلى مجموعة الأفكار والممارسات التي تساعد الباحثين والباحثات في التعبير عن أسئلة البحث واتخاذهم القرار بشأن الأدوات والمناهج التي سيستخدمونها.

4- عندما نتحدث عن الإبستمولوجيا (epistemology) فإننا نشير إلى مجموعة النظريات التي تؤثر في كيفية تفكير الباحثة أو الباحث في طبيعة المعرفة والحقيقة.

5- إن هذه التصنيفات إلى ما هو "صالح" و"سيئ" هي مسألة تتوقف عندها الباحثات النسويات من ناحيتين. أولا، من ناحية المنظور الأخلاقي والإبستمولوجي والسياسي تهتم الباحثات النسويات تحديدا بالطرق التي يتم بها تمثيل الفتيات في عمليات البحث وبناء المعرفة، وهو ما سبق تناوله في الفصول السابقة. إن اختزال أفعال وسلوكيات الفتيات والنساء في تصنيفات ثنائية فاصلة ثابتة يتجاهل سياق تجارب الفتيات والنساء. ثانيا، إن "الصالح" و"السيئ" يشكلان ما هو معروف باعتبارها متغيرات اسمية (nominal variables). وبمعنى آخر هي أنواع المتغيرات الكمية التي تمثل حكما قاطعا دون أن تمثل أي شيء كميا أو عدديا. ومن المنطلق الإحصائي لا يمكن لما هو صالح وسيئ أن يمثل قيما عددية بنفس الطريقة التي قد يمثلها الطول أو سنوات التعليم في التحليل الكمي.

6- والموضوع هنا شبيه بإشارة باميلا ريد وفانيسا بينج إلى أن سياقات البحث النفسي وكذلك الثقافة الدارجة "تمثل النماذج الأصلية الكلاسيكية (classical archetypes) النساء على أساس

خصائصهـن البيولوجية والنفسية. فهي إما صالحة أو سيئة. ويتـم تمثيل المرأة الصالحة بيولوجيا باعتبارها عذراء (أي إنها طاهرة وبريئة وساذجة)، ونفسيا على وأنها الأم المتفانية والمضحية. أما المرأة الشريرة فتُمثل في صورة العاهرة، فهي ماكرة وطموحة ولديها ذكاء الغواية" (Reid and Bing 2000، p. 144). وتضيـف الباحثتان على هذا التصنيـف معلقتين بأن تلك الافتراضات والصور النمطية محملة على وجه الخصوص بصور نمطية عنصرية وطبقية.

7- تطلـق دراسة ديبـورا ويلش وآخرين على ذلك مصطلح "مقاربـة تناول المشاكل" (problem-oriented approach)، حيث "المفاهيـم الدارجة بشأن المراهقات الحوامل، وبالتالي الجنسانية باعتبارهـا وباء منتشـرا في البلاد ويهدد أجيـال المستقبل، أطلقت سيلا مـن الدراسات والبرامج المعـدة بهدف إلقـاء الضوء على 'المشكلـة' والقضاء عليهـا" (Welsh et al. 2000، p. 112). وتضيـف الدراسة أن تلك المقاربة الموجهة صوب "المشاكل" في تناول جنسانية المراهقات تبتعد في واقع الأمر عن نظريات التطـور النفسية. إن المنظرين لعلم التطور النفسي "قاموا دوما بتعريف الجنسانية باعتبارها جانبا أساسيا من جوانب الهوية الشخصية والتي يعتبر تشكلها من أهم المهام في تطور مرحلة المراهقة" (Welsh et al. 2000، p. 112).

8- فعلى سبيل المثال سعت دراسة جيل لاكي وبول موبيرج إلى النظر إلى المعاني والممارسات الجنسية لدى المراهقين والمراهقات "الكامنة في الممارسات الثقافية" (Lackey and Moberg 1998، p. 491). إذ تم عقـد عدد 13 مجموعة نقاشية، والقيام باستطـلاع رأي مستعرض (cross-sec-tional survey)، لعدد 593 من الشباب وعدد 95 من أمهاتهم وآبائهم؛ للنظر إلى الطرق التي يتم بها إضفاء بريق على النشاط الجنسي في الثقافة الأمريكية الدارجة. وقد جاءت دراستهما لتؤكد أن "الفرد والأسرة والرفاق والبنى البنيوية لها تأثير مهم على جنسانية المراهقات والمراهقين، ولكن مـن الأفضل تناولها ضمن نموذج ثقافي متكامـل" (Lackey and Moberg 1998، p. 491-492). وتنتهي دراستهما بمقترحات وتوصيات لبرامج الشباب الاجتماعية والتعليمية، بالإضافة إلى مجموعات من المجتمع لتناول النشاط الجنسي ومخاطره في أوساط المراهقين والمراهقات. كما تؤكـد الدراسة على أن استخدام مقاربة تداخل المناهج في تناول سؤال البحث مكنهما بشكل أفضل من التوصل إلى المقولات والتوصيات. وهو بحث سيتم تناوله لاحقا في هذا الفصل من الكتاب.

9- تعلق باربرا ريزمان وجووي سبراج وجودي هاورد في دراستهن بالقول:

يجب على السؤال أن يحدد المنهجية، ولا يوجد أي منهج أكثر نسوية مقارنة بغيره مسبقا. والنسويات الكميات لسن بالضرورة من الأكثر نخبوية أو تطلعا لحياتهن العملية أو تعرضا للاضطهاد بما يحول دون استخدامهن للأساليب الأكثر راديكالية، وهي أساليب قد تكون ببساطة غير ملائمة للسؤال المطروح. فبعض الأسئلة النسوية تتطلب إجابات كمية. (Barbara Risman، Joey Sprague، and Judy Howard 1993، p. 608).

10- تشير ديبورا تولمان ولورا شالاكا إلى أن مجال علم النفس تناول السلوك الجنسي لدى الإناث مثلا: (DeLameter & MacCorquodale 1979; Lees 1986; Levinson 1986; Scott-Jones & Turner 1988)، وكذلك تاريخ التنظير لتطور الجنسانية مثلا: (Benjamin 1988; Freud 1905; Jordan 1987)، ولكنهما تشيران إلى "عدم وجود دراسات تتضمن مسألة رغبة الفتيات الجنسية" (Tolman and Szalacha 1999، p. 8).

11- وهو ما أحسن جون كريسويل التعبير عنه قائلا: "التوصل إلى فهم أفضل لمشكلة البحث من خلال الجمع (أو استخدام ثلاث أدوات بحث) بين الاتجاهات العددية العامة في البحث الكمي وبين تفاصيل البحث الكيفي" (Creswell 2003، p. 100).

12- للاطلاع على مناقشة مفيدة لدعاوى المعرفة ومقاربة البحث وعدة استراتيجيات بحثية، انظر/ي: (John Creswell 2003، chap. 1).

13- المقصود بالابتعاد هنا هو الموقع الثانوي الذي تحتله القضايا الإبستمولوجية عند تبني الباحثين أو الباحثات مقاربة براجماتية. فبدلا من القلق بشأن التداعيات السياسية والإبستمولوجية المترتبة عن اختيار المنهج المتبع، يقوم البراجماتيون بإبعاد تلك الأسئلة من مسار العمل. أما أصحاب المواقف الجدلية فيميلون إلى ربط سؤال البحث بالمنهج مع الرجوع باستمرار إلى قضايا الإبستمولوجيا والمنهجية والمنهج.

14- يجب أن نشير هنا إلى أن الموقف الإبستمولوجي الذي تحتله الباحثة أو الباحث يلعب في الأغلب دورا في تشكيل أسباب اختيار كل منهم استخدام تداخل المناهج.

15- الباحثات النسويات اللاتي يقررن مزج مناهجهن يطرحن عددا كبيرا من الأسئلة حول الواقع الاجتماعي. وهن يسعين إلى طرق للوصول إلى المعرفة الثانوية عبر حدود العرق والطبقة والنوع الاجتماعي، وعادة ما تهدف أسئلتهن إلى إحداث تغيير اجتماعي. كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن البحث متداخل المناهج الموجه صوب خلق تغيير اجتماعي يسعى عادة إلى الحصول

على تمويـل مؤسسي. وتقوم بعض الباحثات النسويات بتوظيـف تداخل المناهج ضمن جهودهن لتجـاوز الحدود الفاصلة التي طالما أدت إلى بقاء البحـث الكيفي الدائر حول النساء بلا تمويل وبلا دعم (Spalter-Roth & Hartman 1999).

16- يمكـن أن يشير مفهوم استخـدام ثلاث أدوات بحث (triangulation) إلى تلك المنهجية التي يتم فيهـا استخدام عدة مناهج لدراسة سؤال بحثي واحد. كما يمكن أن يشير أيضا إلى مفهوم استخدام ثلاث أدوات بحث من البيانات (data triangulation) حيث يتم استخدام مجموعات متعددة من المادة والبيانات من أجل الإجابة على سؤال بعينه. إن دمج نظريات عدة ضمن خطة بحثية واحدة قـد يتطلب من الباحثة أو الباحث طرح عـدة تفسيرات ورؤى متعددة النظريات، تتعامل جميعها مـع سؤال واحد. وأخـيرا فقد يشير مفهوم استخدام ثلاث أدوات بحـث أيضا إلى استخدام ثلاث أدوات بحث نظرية (theory triangulation)، حيث يتم استخدام أكثر من منظور أو اختباره ضمن مجموعة واحدة من البيانات (Janesick 2000، p. 391). للاطلاع على مناقشة متنوعة للنقاش الدائر حول مفهوم استخدام ثلاث أدوات بحث وتداعياته على أبحاث العلوم الاجتماعية، انظر/ي: (Udo Kelle 2001).

17- تحـدد دراسة جون كريسويل أيضا الغرض العكسي مـن الانخراط في البحث متداخل المناهج، والمتمثـل في الحصول "من العينة على نتائج إحصائية كمية، ثم المتابعة من خلال عدد من الأفراد يقومـون بمزيد من التقصي أو الاستكشاف لتلك النتائج بمزيـد من التعمق" (Creswell 2003، p. 100).

18- قـد يبـدأ البحـث متداخـل المناهج في العمـل كمساحة يمكـن القيام فيهـا بأبحاث بينيـة ومتعددة التخصصـات، مع مد مزيد مـن الجسور وعقد مزيد من الحوارات فيما بـين الباحثات النسويات ممن قد لا تتاح لهن مجالات التعاون والعمل المشترك إلا في تلك المساحات.

19- وهـو ما أحسـن جون كريسويل التعبير عنـه قائلا: "التوصل إلى فهم أفضـل لمشكلة البحث من خلال الجمع (أو استخدام ثلاث أدوات بحث) بين الاتجاهات العددية العامة في البحث الكمي وبين تفاصيل البحث الكيفي" (Creswell 2003، p. 100).

20- يصـف جون ماككيندريك مقاربـات البحث متعدد المناهج في دراسة الجغرافيـا السكانية، فيأتي بمنظور وسؤال بشأن فهمنا لتداخل المناهج كما يتم توصيفه في هذا الفصل. فيقدم لنا تنويعة نجد من الضروري- بناء على هذا المقصود في هذا الفصل- ذكرها في الهوامش، إذ يقول:

من الممكن التأكيد على أن استخدام أكثر من مشروع بحثي واحد هو بمثابة استخدام بحث متعدد المناهج (multimethod). إلا أنــه من الممكن التأكيد أيضا على أنه بينما قد تتضمن مثل تلك المشروعات أكـثر مــن منهج فإن ذلـك لا يعتبر كافيا لتصنيـف البحث باعتبـاره متعدد المناهــج. إن الانتشار التكتيكـي يتبع ممارسة -لا مبادئ أو روح- البحث متعـدد المناهج، وقد يكون من الأدق التفكير في المثـال الممتد للبحث باعتباره سلسلة من المشروعات المتفردة تتبع مناهج مختلفة بدلا من برنامج واحد متجانس متعدد المناهج. وأن رد الفعل البراجماتي، مع اعتماده على المناهج المختلفة، يكون متعدد المناهج بالمصادفة لا تبعا للخطة المتبعة. ويتم التأكيد هنا على أن الانتشار التكتيكي ورد الفعل البراجماتي يقدمان مثالين على البحث متعدد المناهج إذ يتضمنان مواقف يتم فيها تطبيق منهج واحد بالرجوع إلى منهج آخر لتحقيق برنامج بحثي ما (McKendrick 1999، p. 42).

كذلـك فـإن البحث الـذي يدرس حيوات النسـاء قد لا يكون بالضـرورة نسويـا في غرضه وروحه وخطتــه، فالبحــث متعدد المناهج أو متداخــل المناهج قد يمزج فنيا بين المناهــج، ولكنه قد لا يكون متداخــل المناهج في روحـــه أو خطته. وتتعمق مقالة جــون ماككيندريك داخــل بعض المقاربات الإبستمولوجية والمنهجية المتنوعة تجاه البحث متعدد المناهج أو متداخل المناهج. وفي ذلك انظر/ي إلى الجدول الذي يقدمه بشأن كيف تؤثر الإبستمولوجيا على الاستراتيجية المنهجية.

21- تحــدد دراسة جووي سبراج وماري زيمرمان المساحات التي يمكن للنساويات فيها التعامل مع أوجــه التضــارب. وتؤكد الباحثتان على أنه بوسعنا أن نرى- عندمــا يتضمن كل منهما الاختيار والتأويــل- احتمالية أن تكون "كل نتيجة 'حقيقة جزئية' تحتاج إلى نسجها معا من أجل تمثيل أكثر اكتمالا" (Sprague and Zimmerman 2004، p. 53-54).

22- علــى الرغــم من عدم قيــام نيكــول ويستمرلانــد بمناقشة أي نقــاط تالية قد تتوقــف عندها في مشروعاتهــا البحثية مستقبلا، فإنه يمكننا أن نتوقع قيامها بمراجعة الاستبيان الذي قامت بإعداده. إن تحسين إجراءات استطلاع الرأي هو أحد الأسباب أو النتائج المترتبة على مزج المناهج كما هو موصــوف أعلاه. وقد يبدو أنها قد استخدمت مادتها الكيفية لتحسين الإجراءات التي تستخدمها في الاستبيان الاستطلاعي وذلك لتحقيق قياس أفضل للعنف والحديث عنه بشكل أفضل مع المستجيبات في بحثها.

23- أجــزاء من هذه الخاتمة مشتقة من دراسة شارلين ناجــي هيسي-بايبر وباتريشا ليفي (Hesse-Biber and Leavy 2006).

المراجع

Benjamin, Jessica. (1988). *The bonds of love.* New York: Pantheon Books.

Brannen, Julia. (1992). *Mixing methods: Qualitative and quantitative research.* Aldershot, UK: Avebury.

Breakwell, Glynis M., Hammond, Sean, & Fife-Schaw, Chris. (2000). *Research methods in psychology* (2nd ed.). London: Sage.

Cisneros-Puebla, César A. (2004). "Let's do more theoretical work . . .": Janice Morse in conversation with César A. Cisneros-Puebla. *Forum Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research,* 5(3), Art. 33. Retrieved February 26, 2006, from www.qualitative-research.net/fqs-texte/3-04/04-3-33-e.htm

Creswell, John W. (2003). *Research design: Qualitative, quantitative, and mixed methods approaches.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Creswell, John W., Fetters, Michael D., & Ivankova, Nataliya V. (2004). Designing a mixed methods study in primary care. *Annals of Family Medicine,* 2(1), 7–12.

Creswell, John W., Plano Clark, Vicki L., Gutmann, Michelle L., & Hanson, William E. (2003). Advanced mixed methods research designs. In Abras Tashakkori & Charles Teddlie (Eds.), *Handbook of mixed methods in social and behavioral research* (pp. 209–240). Thousand Oaks, CA: Sage.

Cuyvers, Rob, Wets, Geert, Zuallaert, Jos, & Van Gils, Jan. (2003). *Transportation dependence and transportation autonomy of children (aged 10 to 13).* Research Project CP/61. Belgian Federal Science Policy Office (FEDRA). Retrieved February 26, 2006, from www.belspo.be/belspo/fedra/proj.asp?1=en&COD= CP/61

Deem, Rosemary. (2002). Talking to manager-academics: Methodological dilemmas and feminist research strategies. *Sociology, 36,* 835–855.

DeLameter, John, & MacCorquodale, Patricia. (1979). *Premarital sexuality: Attitudes, relationships, behaviors.* Madison: University of Wisconsin Press.

Devine, Fiona, & Heath, Sue J. (1999). *Sociological research methods in context.* London: Macmillan.

DuBois, Barbara. (1983). Passionate scholarship: Notes on values, knowing and method in feminist social science. In Gloria Bowles & Renate D. Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 105–117). London: Routledge & Kegan Paul.

England, Kim. (1993). Suburban pink collar ghettos: The spatial entrapment of women? *Annals of the Association of American Geographers, 83*(2), 225–242.

Fine, Michelle. (1988). Sexuality, schooling, and adolescent females: The missing discourse of desire. *Harvard Educational Review, 58*(1), 29–53.

Fine, Michelle. (1994). Working the hyphens: Reinventing self and other in qualitative research. In Norman Denzin & Yvonna Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 70–82). Thousand Oaks, CA: Sage.

Freud, Sigmund. (1905). The transformations of puberty. In Sigmund Freud, *Three essays on the theory of sexuality* (pp. 73–96). New York: Basic Books.

Greene, Jennifer C., & Caracelli, Valerie J. (Eds.). (1997). *Advances in mixed-method evaluation: The challenges and benefits of integrating diverse paradigms.* San Francisco: Jossey-Bass.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research.* Thousand Oaks, CA: Sage.

Janesick, Valerie J. (2000). The choreography of qualitative research design: Minuets, improvisations, and crystallization. In Norman K. Denzin & Yvonna S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 379–400). Thousand Oaks, CA: Sage.

Jordan, Judith. (1987). Clarity in connection: Empathic knowing, desire and sexuality. *Work in progress/Stone Center for Developmental Services and Studies* 29. Wellesley, MA: Wellesley College, Stone Center for Developmental Services and Studies.

Kelle, Udo. (2001). Sociological explanations between micro and macro and the integration of qualitative and quantitative methods. *Forum Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research,* 2(1). Retrieved July 8, 2004, from www.qualitative-research.net/fqs-texte/1–01/1–01kelle-e.htm

Lackey, Jill F., & Moberg, D. Paul. (1998). Understanding the onset of intercourse among urban American adolescents: A cultural process framework using qualitative and quantitative data. *Human Organization, 57,* 491–501.

Ladner, Joyce A. (1971). *Tomorrow's tomorrow: The black woman.* Garden City, NY: Anchor Books.

Lees, Sue. (1986). *Losing out: Sexuality and adolescent girls.* London: Dover.

Levinson, Ruth. (1986). Contraceptive self-efficacy: A perspective on teenage girls' contraceptive behavior. *Journal of Sex Research, 22,* 345–369.

Lincoln, Yvonna S., & Guba, Egon G. (2000). Paradigmatic controversies, contradictions, and emerging confluences. In Norman K. Denzin & Yvonna S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 163–188). Thousand Oaks, CA: Sage.

Manfredi, Clara., Lacey, Loretta, Warnecke, Richard, & Balch, George. (1997). Method effects in survey and focus group findings: Understanding smoking cessation in low-SES African American women. *Health Education and Behavior, 24*, 786–800.

Maynard, Mary, & Purvis, June. (Eds.). (1994). *Researching women's lives from a feminist perspective.* London: Taylor & Francis.

McKendrick, John H. (1999). Multi-method research: An introduction to its application in population geography. *Professional Geographer, 51*, 40–50.

Morgan, David. (1998). Practical strategies for combining qualitative and quantitative methods: Applications to health research. *Qualitative Health Research, 8*, 362–376.

Nicolson, Paula. (2004). Taking quality seriously: The case for qualitative feminist psychology in the context of quantitative clinical research on postnatal depression. In Zazie Todd, Brigitte Nerlich, Suzanne McDeown, & David D. Clarke (Eds.), *Mixing methods in psychology: The integration of qualitative and quantitative methods in theory and practice* (pp. 207–23). New York: Psychology Press.

Reid, Pamela T., & Bing, Vanessa M. (2000). Sexual roles of girls and women: An ethnocultural lifespan perspective. In Cheryl B Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society and feminism* (pp. 141–166). Washington, DC: American Psychological Association.

Reinharz, Shulamit. (1992). *Feminist methods in social research.* Oxford, UK: Oxford University Press.

Risman, Barbara J., Sprague, Joey, & Howard, Judith. (1993). Comment on Francesca M. Cancian's "Feminist Science." *Gender & Society, 7*, 608–609.

Scott-Jones, Diane., & Turner, Sherry L. (1988). Sex education, contraceptive and reproductive knowledge and contraceptive use among black adolescent females. *Journal of Adolescent Research, 3*, 171–187.

Spalter-Roth, Roberta, & Hartmann, Heidi. (1999). Small happinesses: The feminist struggle to integrate social research with social activism. In Sharlene N. Hesse-Biber, Christina Gilmartin, & Robin Lyndenberg (Eds.), *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader* (pp. 333–347). New York: Oxford University Press.

Sprague, Joey, & Zimmerman, Mary K. (2004). Overcoming dualisms: A feminist agenda for sociological methodology. In Sharlene Nagy Hesse-Biber & Patricia Leavy (Eds.), *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 39–61). New York: Oxford University Press.

Tiefer, Leonore. (2000). The social construction and social effects of sex research: The sexological model of sexuality. In Cheryl B. Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society and feminism* (pp. 79–107). Washington, DC: American Psychological Association.

Tolman, Deborah L., & Szalacha, Laura A. (1999). Dimensions of desire: Bridging qualitative and quantitative methods in a study of female adolescent sexuality. *Psychology of Women Quarterly, 23*, 7–39.

Weinholtz, Donn, Kacer, Barbara, & Rocklin, Thomas. (1995). Salvaging qualitative research with qualitative data. *Qualitative Health Research, 5*, 388–397.

Welsh, Deborah P., Rostosky, Sharon S., & Kawaguchi, Myra C. (2000). A normative perspective of adolescent girls' developing sexuality. In Cheryl B. Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society and feminism* (pp. 111–140). Washington, DC: American Psychological Association.

Westmarland, Nicole. (2001). The quantitative/qualitative debate and feminist research: A subjective view of objectivity. *Forum for Qualitative Social Research, 2*(1). Retrieved June 19, 2006, from www.qualitative-research.net/fqs-texte/1-01/1-01 westmarland-e.htm

White, Jacquelyn W., Bondurant, Barrie, & Travis, Cheryl B. (2000). Social construction of sexuality: Unpacking hidden meanings. In Cheryl B. Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society, and feminism* (pp. 11–34). Washington, DC: American Psychological Association.

الفصل العاشر

البحث الاستطلاعي النسوي

كاثي ماينر-روبينو

توبي إبستين جايارانتي

ما وراء الستار مع

كاثي ماينر-روبينو وتوبي إبستين جايارانتي

إننـا عالمتا نفس نسويتان، نركز برامجنا البحثية علـى المادة الكمية، مستخدمتين في الأساس مناهج الاستطلاع، بهدف استكشاف القضايا ذات الأهمية بالنسبة للنساء وذات توجه نحو العدالة الاجتماعية. ومن هذا المنطلق فنحن على وعي بأن بعض النقد النسوي يتجه إلى البحث الاستطلاعي (survey research) والبحث الكمي عموما. ويدعي كثير من هذا النقد أن مثل هذا البحث يتعارض مع الأهداف النسوية. ونحن نحمل رؤية معارضة لذلك؛ إذ نعتبر البحث الكمي منهجا من مناهج الدراسة يمكنه تحقيق إسهام بارز نحو تعزيز الهدف النسوي الخاص بتحسين حيوات النساء. فما الذي دفعنا لتبني هذا المنظور ودمج قيمنا النسوية مع تخصصنا كباحثتين كميتين؟

بالنسبة لي، أنا كاثي، لم يبدأ الأمر تماما بالجمع بين النسوية والبحث الكمي. لقد كنت نسوية بالفعل قبل فترة طويلة من البدء في القيام بأبحاث كمية. فخلال

مرحلة المراهقــة بدأ وعيي بما تواجهه النساء من ظلم، وقد أغضبني ذلك الوعي أشــد الغضب. فقد كنــت أغضب لقيام والدتــي بأعمال الطهــي والغسيل، بينما كان والــدي يجلــس في كرسيه الوثير يشاهــد التلفاز. وكنــت أغضب لحصول شقيقتــي على أجــر مقابل عملها ضمن فريق إعداد التقاريــر في الجريدة المحلية، وذلــك مقارنة بزميلها الــذي يحمل نفس مؤهلاتها، ويجلــس في المكتب المجاور لهــا. وكنت أغضب حين كان الرجال يصفــرون لي بينما أمر بهم في الطريق، ثــم يشتمونني حين آمرهــم بالتوقف عن الصفير. كنــت أغضب لكثرة تركيزي على مــا آكله والكميات التي أتناولها بدلا من التفوق في المدرسة أو التعرف على الأحداث العالمية. ولما التحقت بالجامعة أدركت- لأول مرة- وجود اسم لما أشعر به: النسوية. لقد كان للنسوية معناها بالنسبة لي وصارت جزءا من هويتي.

وفي الجامعــة أدركت أيضا أن هناك أناسا يدرسون أشكال ذلك الظلم دراسة منظمــة. وقد تسمرت حين علمت بأن في وســع الباحثات والباحثين تقديم "مادة علمية ملموسة" (hard data)؛ لتوثيق ما كنت ألاحظه حولي. وتظل ملاحظاتي حينــذاك تــتردد أصداؤها في ذهنــي: النساء يقمــن بقدر من الأعمــال المنزلية، ورعايــة الأطفال أكــثر كثيرا مما يقوم به الرجال في العلاقــات الجنسية الغيرية (heterosexual relationships) Bianki، Milkie، & Sayer 2000)، والنســاء البيض لا يحصلن سوى على نسبة 76% مــن أجر الرجال البيض عن نفــس العمل، وتنخفض هذه النسبة في حال النساء الملونات (National Com-mittee on Pay Equity 2005)، وأن نسبــة 54 % مــن طالبــات الجامعات مــررن بتجربــة ما مــن تجــارب الأذى الجنسي (مثــل الاغتصــاب أو محاولة الاغتصــاب: Koss، Gidycz، & Wisniewski 1987)، وأن نسبــة 56% مــن المراهقات يعانين من أنماط غذائيــة مضطربة (Croll، Neumark-Sz-tainer، & Story 2002)، وأن 55 % مــن الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن مــا بــين 8 إلى 10 سنوات يشكــون من زيادة الــوزن (Wood، Becker، & Thompson 1996). لقــد أثرت فيّ هذه المعلومات الإحصائية كما تؤثر في كل من أنقلها لهم. فعندما يسمــع الناس هذه الإحصائيات يتأثر معظمهم بها بشكل ما

أو بآخـر. وفي أغلب الأحيان تكشف تلك الأرقام بوضوح تام الظلم الاجتماعي الملتصق بدور النساء في المجتمع.

ومع ازدياد تمكني من علم الإحصاء، ازداد فهمي للقصة التي تحكيها الأرقام وقوتها في التعبير عـن حيوات النساء - لا مجرد من حيث نسبة النساء المتأثرات بهـذا أو ذاك، وإنما التداعيات المترتبة عن تلك التجارب. فعلى سبيل المثال، أنا أركـز في برنامج البحـث الذي أقوم به حاليا على التداعيـات بالنسبة للموظفات اللاتـي يلحظـن سلوكا وقحا أو فوقيـا أو متحرشا تجاه النسـاء في أماكن العمل. وحـين أتحدث عن هذا البحث لا أشير فقط إلى مدى تكرار تلك السلوكيات وإنما تداعيـات تلك الملاحظات، (مثل الانخفاض الملموس في درجة الرضا عن العمل والصحـة النفسية بالنسبة لمن يلاحظ تلك السلوكيـات). وسرعان ما أدركت أن النـاس الذين لا يطلقون على أنفسهـم صفة النسوية (بل وفي الواقع يقاومون تلك الصفة بشـدة) أنصتوا إليّ حين أوضحت النتائج بشكل كمي. لقد أنصتوا بالفعل. وسواء شئنا أم أبينا، فإن الناس يستجيبون للبيانات الكمية. فالأرقام كفيلة بإلهام بعض النـاس كي يصبحوا ناشطين اجتماعيا، ويمكنهم التأثير على المشاركين في صياغـة السياسة العامة بحيـث يقومون بتفعيل القوانـين والتشريعات بما يحسن حيـوات النساء. ومن هـذا المنطلق جـاءت ولادة باحثة استطلاعيـة كمية. إن تطلعـي إلى العدالة الاجتماعية للنساء وإدراكي أن الأرقام تحرك الناس جعلاني أريد القيام بأبحاث كمية بالنيابة عن النساء ومن أجلهن.

أنـا، اسمي توبي، نشأت خـلال فترة الحقوق المدنية في أسرة نشطة في الدفع ببرنامـج سياسي تقدمي. وتعلمت منذ سن مبكرة أهميـة فهم العوامل التي تدعم سياسـات الظلم، وذلك من أجـل مواجهة مثل تلك الممارسـات. وقد أتيحت لي الفرصة -خـلال دراستي الجامعية- أن أساعد في دراسـات تتناول عدة قضايا اجتماعية، وذلك في معهد أبحاث تابع لجامعتي. وكان من أعمل معهم، وكذلك الكثـير من الباحثات والباحثين المتخصصين في المعهد، يقومون بأبحاثهم بغرض توثيق غياب العدالة وتحديد أكثر السبـل الفعالة لتعزيز العدالة الاجتماعية. وقد

كانت الأجواء ملهمة بالنسبة لي في أن أجد نفسي محاطة بمن أوقفوا حياتهم العملية كلها من أجل هـذا العمل. وفي أغلب الحالات كان هـؤلاء الباحثون والباحثات يستخدمـون مناهج الاستطلاع. ونظـرا لارتفاع مستـوى أبحاثهم والاحترام الذي كانت تلقاه من الآخرين، جاءت نتائج دراساتهم مؤثرة بقوة في الدفع نحو التغيير الاجتماعي.

مـع أخذ نشأتي في مجال العمل الاجتماعي في الاعتبار، كان اكتسابي الهوية النسويـة مسألة سهلـة في ستينيات القـرن العشرين. ومع مـا تلقيته من تدريب وتخصـص في البحـث الاستطلاعي، رأيـت أن بوسعي توظيف مـا تعلمته من مهارات كمية خـلال سنواتي بالجامعة في دراسة كيفيـة حدوث التمييز الجنسي (sexism) في مجتمعنا، واستكشـاف أفضل الوسائل لتحقيق الأهداف النسوية. وبمجـرد أن بدأت في القيام بأبحاثـي الاستطلاعية وجدتها أسلوبا فعالا في إقناع الآخريـن بالحاجة إلى دعـم القضايا النسوية المتنوعة. ولكـن بعد سنوات قليلة، وأثنـاء مشاركتـي في مؤتمر للدراسـات النسائية، واجهتني إحـدى المشاركات بنقـد مناهج البحث الاستطلاعـي التي أستخدمها قائلة: إن مثـل تلك المناهج ليس بـالأدوات الملائمة للباحثات النسويات. وكرد فعل لذلك قمت بتطوير عين نقدية أستطيـع بها الحكم على المناهـج التي أستخدمها، ووعيت بقيمـة الاستراتيجيات البحثيـة الكيفية البديلة على تنوعها. إلا أنه بدلا من رفض المناهج الكمية برمتها، أصبحـت علـى قناعة بأنـه من المهـم للباحثات النسويـات البقـاء منفتحات تجاه استخـدام إحدى تلك المناهج (أو كليهما)؛ لأنها تجيب على أنواع مختلفة من أسئلة البحـث. وباعتباري باحثة في العلوم الاجتماعية يركز موضوع بحثها الأساسي على التداعيات السياسية المترتبة على التفسيرات الوراثية لدى الرأي العام بشأن مـا يراه مـن اختلافات على أسـاس الجنس والطبقة والعـرق، وهو ما يدعوني لمحاولة تتبع تلك المقولة. وأنا أستخدم المناهج الكيفية عندما أسعى لجمع معلومات مبدئيـة عن قضية ما أو لتطوير فهم أعمق لموضوع ما. ومع ذلك فعندما أدرس نمـاذج فكرية معقدة أو أختبر بعض النظريات، فأنا أستخدم حينها مناهج (كمية) إحصائيـة؛ لأنها هي الأفضل لتحقيق هذا الغرضـ. إن تجربتي المهنية ساعدتني

على إدراك أنه لا يوجد أسلوب بحثي أوحد يكون هو الأفضل في الإجابة على كل سؤال، وإنما كل عملية استكشاف بحثي جديد تتطلب تقييما فكريا نقديا لاختيار استراتيجية بحثية.

على الرغم من أننا سلكنا طرقا مختلفة أوصلتنا إلى مواقع متشابهة، فإن كلينا يعترف بتأثير خبراتنا الدراسية على تطور منظورنا البحثي. فالتوجيه الذي تلقيناه خلال تلك المرحلة، علمنا أن نلاحظ كيف يؤثر سياق البحث على كافة أوجه ما نقوم به من عمل بحثي، وأن نحافظ على وعينا بالقضايا الأخلاقية والسياسية المتعلقة والناجمة عن البحث الذي نقوم به. أما الأمر الأهم فهو أننا قد تعلمنا خلال سنوات الدراسة أن نفكر في مشروع البحث باعتباره رحلة سعي من أجل المعرفة في خدمة التقدم الاجتماعي، وهي الفكرة التي حملناها باعتبارنا نسويتين وباعتبارنا متخصصتين في البحث الاستطلاعي.

إن أهداف هذا الفصل من الكتاب هي تقديم توصيف لعملية البحث الاستطلاعي، وتوضيح كيف يمكن تطبيقها عند استكشاف القضايا النسوية، وتوضيح أسباب كون هذا النوع من الأبحاث موردا مهما وقيما للباحثات النسويات. وعلى مدار التاريخ وكذلك في الفترات القريبة نجد أمثلة عديدة لكيفية تأثير نتائج البحث الاستطلاعي على حيوات النساء وغيرهن من البشر المهمشين. وسنقدم وصفا لبعض تلك الأمثلة عبر صفحات هذا الفصل، وسنشير إلى الآثار الفريدة والفعالة التي يمكن للبحث الاستطلاعي أن يحملها من أجل فهم القهر القائم على أساس النوع والتخفيف من حدته.

إننا إذ نكتب هذا الفصل من الكتاب فإننا نقترب منه بخلفياتنا المتخصصة في معايير البحوث السائدة في العلوم الاجتماعية ونحمل تقديرا لما في بحوث الاستطلاع الكمي من فوائد. إلا أننا باعتبارنا نسويتين، فنحن على وعي أيضا بأشكال النقد النسوي الموجهة للبحث الكمي، وهو وعي يضيف إلى جهدنا في تعزيز العدالة الاجتماعية من أجل

النساء. وبالتالي فمن خلال بناء جسر بين علوم الدراسات النسائية (women's stud-ies)، وعلم النفس، نحن نرى أنفسنا باعتبارنا باحثتين في العدالة الاجتماعية من منظور نسوي، نجتهد في استخدام البحث الاستطلاعي كوسيلة للدفع قدما بالبرنامج النسوي.

ويركـز الجزء الأول من هذا الفصل على عدد من القضايا الواسعة المتعلقة باستخدام المناهـج الكمية عموما، والبحث الاستطلاعي تحديدا، وذلـك في تناول نسوي يتضمن الآتي: (1) التطـور التاريخي للبحث الاستطلاعي. (2) الانتقـادات النسوية الأساسية تجـاه المناهج الكمية. (3) الاختلاف بين البحث الكمي والكيفي. (4) المزايا الفريدة التي يتمتع بهـا البحث الاستطلاعي الكمـي لتحقيق أهداف نسوية. أمـا في الجزء الثاني من الفصـل فسوف نقدم المكونـات الأساسية للبحث الاستطلاعي، مـع تسليط الضوء على القضايا البارزة التي يتعين تناولها عند القيام ببحث استطلاعي نسوي جيد.[1]

تاريخ البحث الاستطلاعي

لعل من أوائل أنواع المسح الاستطلاعي (survey) وأكثرها شهرة هو الإحصاء السكاني (census) والذي بدأ في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1790، وتقوم به كل عقد من الزمـان الحكومـة الفيدراليـة (U.S. Census Bureau 1989). ويسعى الإحصاء السـكاني إلى وصـف خصائصـ (مثل النوع ومتوسـط عدد أفراد الأسـرة) مجموعة سكانيـة كاملة (مثلا في الولايات المتحـدة الأمريكية). وقد تم القيام بآخر إحصاء سكاني [حتـى صدور هذا الكتـاب] في عام 2000، وتم فيه استطلاع رأي ما يزيد على عدد 281 مليـون شخص أمريكـي (U.S. Census Bureau 2005). إن تلك الفرصة الحديثة لتأمـل الأمريكيين والأمريكيات قدمت معلومات مهمة تخص عددا من الهموم النسوية، كعدد النساء اللاتي يعانين من الفقر، وعدد النساء العاطلات، وعدد الأمهات اللاتي يربين أبناءهن بلا زوج. وهي كلها معلومات بالغة القيمة بالنسبة للنسويات لأنها تخبرنا عن أوضاع النساء الحالية.

وكان الغرض الآخـر من هذه الاستطلاعات في بداياتها هـو اكتساب فهم للمشاكل الاجتماعيـة، وبالفعل حتى النسويات أنفسهن استخدمن مثـل هذه المناهج آنذاك. فعلى سبيـل المثـال، قامـت النسويات في جامعـة شيكاغـو، في نهايات القـرن التاسع عشر وبدايـات القرن العشريـن، بإعداد استطلاعـات وتطوير تقنيـات إحصائية للمساعدة في جهود الإصـلاح الاجتماعـي (Deegan، cited in Spalter-Roth & Hart-mann 1996). إن هذا الجيل الأول من باحثات الاستطلاع النسويات استخدمن نتائج الاستطلاعات لتوعية الرأي العام والتأثير على التشريعات الداعمة لحزمة من القضايا التقدمية كتقليل معدلات الفقر والبطالة وعمالة الأطفال.

وقد جاءت الحرب العالمية الثانية لتقدم دفعة قوية لتطور البحث الاستطلاعي السائد، إذ كانت الحكومة الفيدرالية مهتمة بتقييـم آراء ومواقف الأمريكيين والأمريكيات تجاه الحـرب وغيرها مـن القضايـا الاجتماعيـة (Groves et al. 2004). وقد كانت تلك فترة حاسمة في تطور تلك المناهج؛ لأن الباحثين والباحثات في مناهج الاستطلاع بدأوا يتعلمون أهمية كيفية صياغة السؤال، وتقنيات جمع المادة والبيانات، وتدريب القائمين بالمقابـلات الشخصية، وإجراءات اختيار العينة (Converse 1987; Groves et al. 2004)، وكيف يمكن لتلك العوامل التأثير في نتائج الدراسات. وتحديدا وجد الباحثون أن بعض المناهج أثبتت كونها أفضل من غيرها في جمع المادة وتحليلها؛ نظرا لأنها كانت تعكس بدقة أكبر آراء ومواقف الرأي العام.

وخـلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين تم تدريب جيل ثان من باحثات وباحثـي الاستطـلاع النسـوي. ومثلهم كمـن سبقهـم كان لديهم حرص علـى الدفع بالسياسـة العامـة إلى الأمام، وكانوا ناشطين وناشطات يملؤهـم الشغف سعيا من أجل إحداث تغيير اجتماعي للنسـاء (Spalter-Roth & Hartmann 1996). ولكن هذا الجيـل كان عموما ينتقد العلوم التقليديـة لأن العلم يفترض إمكانية التثبت من "الحقيقة" بالملاحظة والتجربة. وقد لعبت هؤلاء النسويات دورا مهما في توضيح كيف أن عوامل

معقدة (وأحيانا غير معقدة) استمرت في جعل البحث العلمي متحيزا لصالح "المنظور الذكوري". وقد تناولت كثير من الأبحاث الاستطلاعية السائدة تلك الهموم، وبالتالي تحسنت مناهج البحث الاستطلاعي نتيجة لذلك. ومع ذلك تظل أصداء بعض تلك المراجعات النقدية مسموعة حتى يومنا هذا، وكذلك الحوار المتصل حول أفضل الطرق للقيام ببحث استطلاعي لأنه عملية دائمة التطور. وهكذا فإن الباحثات الاستطلاعيات أثرن ضمن الجهود الواسعة لتطوير معايير القيام بالبحث الاستطلاعي بما يساعد على تقليل التحيزات وتحقيق نتائج تعكس الظواهر الاجتماعية بأكبر قدر ممكن من الدقة.

الانتقادات النسوية للبحث الكمي ومنهج البحث الاستطلاعي

بينما شهد استخدام الاستطلاعات وتعقيدها طفرة سريعة، فإن بعض المتخصصات النسويات واجهن انتقادات لمنهج البحث الاستطلاعي كشكل من أشكال البحث الكمي. وقد تم تناول ذلك النقد الإبستمولوجي والمنهجي في الفصل الثاني من هذا الكتاب، وبالتالي فلن نتعمق في شرحها هنا. ولكننا نشير إلى عدة قضايا ذات أهمية خاصة للباحثات والباحثين المتخصصين في الاستطلاع النسوي. فعلى سبيل المثال، وكما سبق تناوله، فإن النقد الإبستمولوجي الأساسي الموجه للبحث الاستطلاعي كان بشأن انطلاقه من تراث الفكر الوضعي (positivism) وهو منظور يعلي من قيمة العلم الموضوعي المتحرر من القيمة (value-free). وقد تم عرض بعض مشاكل التراث الوضعي في الفصول السابقة.

ومن اللافت للانتباه أن بعض الباحثات النسويات دعون في الواقع لمزيد من الموضوعية الشديدة على سبيل دمج المبادئ النسوية في أبحاثهن، وهي استراتيجية تم إطلاق مسمى الوضعية النسوية (feminist empiricism) عليها (Harding 1987، 1998). وتقوم الوضعيات النسويات (feminist empiricists) بتعزيز الموضوعية

التقليدية ، ويؤكدن على أنه من الممكن القضاء على التحيز الذكوري (male-centered bias) ، في العمليــة البحثية شريطة الالتزام التام بمبدأ الموضوعية الوضعي . كما يؤكدن علــى أن الالتزام بمفهوم الموضوعية سيــؤدي في الواقع إلى أن تكــون المادة المجموعة أكثر ، لا أقل ، تمثيلا لتجارب النساء لأن مسار البحث لا يكون متأثرا بمنظور معين .

وكثــيرا ما يتــم افتراض أن الباحثــات الكميــات النسويات هن باحثــات وضعيات نسويــات مخلصــات يتبنين ذلك الموقــف الإبستمولوجي المحــدد (أي الوضعية) . ولكن الأبحــاث الكمية النسوية تحمل بالفعل رؤى عديدة مختلفة بشأن الإبستمولوجيا . ونحن نــرى أن الافتراض بأن كل الباحثات والباحثــين النسويين يشتركون في نفس المنظور الفلسفــي هو خطأ يماثل الافتراضــ بأن كل الباحثات والباحثــين الكميين يشتركون في منظــور واحد معين . وعلــى الرغم من أننا نقــوم بأبحاث منية تضــرب بجذورها في الــتراث الوضعي ، فإننا أيضا نميــز أنفسنا عن ذلك التراث في أننــا لا نتفق مع الأسس الفلسفيــة للوضعية والتي ترى وجود حقيقة "هناك" يمكن حقــا الوصول إليها . كما أننا لا نــرى أن البحث العلمي قادر أو يجب أن يكــون محايدا تماما . وفي نفس الوقت فإننا نعترف أيضــا بأهمية القيام بالبحث بأسلوب يقلل (خطــأ) الانحياز بأقصى قدر ممكن ، ســواء صدر هذا الانحياز عن منظور نسوي أو تمييز جنسي (أو أي موقف أيديولوجي آخــر) . وبمعنى آخر فإذا كان لنا أن نفهــم بوضوح كيفية حفاظ البناء الاجتماعي (وهو مــا سيتيح لنا تحديد أفضــل الطرق لتغييره من أجل تحقيق العدالــة الاجتماعية) ، يجب علينا أن نحاول إزالة الانحيازات من أبحاثنا ، وهي مقاربة تم مؤخرا إطلاق مصطلح الموضوعيــة القوية عليها (strong objectivity) (Harding 2004) ، كما كان يطلق عليها مسبقا اسم الموضوعية النسوية (feminist objectivity) (Haraway 1988) ، والتي تم إيجازها باعتبارها

> المعرفــة والحقيقة الجزئية ، والمحــددة بموقع ما ، والذاتيــة ، والمحملة بعلاقات القــوى ، والعقلانية . وتتضمن هــدف الموضوعية التقليدية ، أي القيام بأبحاث خالية تماما من التأثــير الاجتماعي أو القناعات الشخصية ،

> بنـاء على الواقع القائـل بأنه ليـس في وسع أحد تحقيق هـذا الهدف . . . كمـا تعترف بعـدم إمكانية ممارسـة الموضوعيـة إلا داخل إطـار القيود التي تفرضهـا قناعات العلماء وتجاربهـم الشخصية. (Hesse-Biber، Leavy، and Yaiser 2004، p. 13).

ومـن هذا المنطلق، الذي يعترف بـأن المعرفة محددة بموقع معين، تبلغ الموضوعية في الواقع أقصى مداها. فهكذا على الرغم من قيامنا بأبحاثنا داخل منظومة أكثر تقليدية فإننـا نفعل ذلك باستخدام الموضوعية النسويـة، وهدفنا الأسمى هو تحقيق فارق حقيقي في حيوات النساء.

وإلى جانـب القضايـا الإبستمولوجيـة قامت النسويـات أيضا بالتعبير عـن المشاكل المنهجيـة في البحـث الاستطلاعي الكمي. فعلى سبيل المثـال، رأت النسويات أحيانا أن استخـدام المناهج الكمية يؤدي بالباحثات والباحثـين إلى اختزال الناس في مجرد أرقام مـع تجاهل حيواتهم في السياقات التي يعيشونها. وهو الأمر الذي يؤدي بالنسويات إلى خلاصـة مفادهـا أن مناهج البحث الكيفـي "أفضل" و"أكثر نسويـة" من مناهج البحث الكمي. وفي الواقع فإن الجدل الدائر حول مناهج البحث الكيفي والكمي صار من أكثر النقاشات الحيوية الدائرة في الدراسات النسوية، كما أن بعض الباحثات يرين أن القيام ببحث نسوي قد يستلزم استخدام المناهج الكيفية مثلا: (Condor 1986; Landrine، Klonoff، and Brown-Collins 1992; Marecek، Fine، and Kidder 1997; Sherif 1979; Smith 1987). ونحـن نرى أن كلا من مناهج البحث الكيفي والكمـي مفيـد في البحث النسوي، وأنه يتعـين على الباحثات والباحثـين اختيار منهج البحـث الأكثر فاعلية في الإجابة علـى أسئلة البحث بدلا من اختيـار المنهج الذي يعتبر "الأكثر نسوية". وللقيام بهذا الاختيار يكون من المهم معرفة الاختلافات الأساسية بين مناهج البحث الكمي والكيفي.

الاختلافات بين المناهج الكيفية والكمية

حينما تقوم الباحثة أو الباحث بجمع المادة الكمية، يتم تحويل خصائص وتجارب المشاركات والمشاركين في البحث إلى فئات رقمية، وذلك بناء في العادة على تعريف مسبق تقدمه الباحثة أو الباحث، وتقييمه باستخدام التحليلات الإحصائية. فعلى سبيل المثال حين تهتم الباحثة أو الباحث بالأصل العرقي للمشاركات والمشاركين في البحث فقد تختار الباحثة أو الباحث تضمين عدد من الفئات التحليلية التي يكون في إمكان المشاركات والمشاركين توصيف أنفسهم تبعا لها: مثل الأصل الأوروبي-أمريكي أو الأفرو-أمريكي أو الأصل الهسباني-الأمريكي أو الآسيوي-الأمريكي. كما يكون من الشائع بين هؤلاء الباحثات والباحثين استخدام فئات تحليلية عند تقييم الميول الجنسية مثل الهوية الجنسية الغيرية، والمثليات، والمثليين ومزدوجي الجنسانية والمتحولين من نوع إلى آخر (heterosexual، LGBT: lesbian، gay، bisexual، transgen-dered). ثم يتم بشكل عشوائي تحديد رقم لكل فئة تحليلية (مثلا: أبيض=1، أفرو-أمريكي=2) لاستخدامه في التحليل. كما قد يرى الباحثون والباحثات طرح سؤال على المشاركات والمشاركين؛ لمعرفة درجة رفضهم أو موافقتهم على بعض المقولات مثل "يجب أن تستطيع النساء اتخاذ قرارات بشأن أجسادهن"، أو "النساء أفضل من الرجال في تربية الأطفال" أو "كثيرا ما أشعر بالقلق" بحيث يبدأ المقياس مثلا من الرقم 1 (أرفض بشدة) انتهاء بالرقم 5 (أوافق بشدة). وفي هذه الحالة يتم استخدام الأرقام التي يختارها كل مشاركة ومشارك في التحليل الإحصائي.

وتجدر الإشارة إلى أنه في تلك الأمثلة الأخيرة سيتطلب الأمر من المشاركات والمشاركين في البحث تقييم مواقفهم أو قناعاتهم تقييما عاما، دون إمكانية تقديم معلومات إضافية (مثل: متى ومع من يشعرون بأكبر قدر من القلق). كما قد يكون من الصعب على هؤلاء المشاركات والمشاركين ممن يجيبون على الأسئلة الخاصة بالأصل العرقي أو الميل الجنسي أن يضيفوا معلومات معينة مثل تعدد الأصل العرقي، أو عدم ثبات ميولهم الجنسية وتغيرها بمرور الوقت. وهكذا يتم تعريف بعض الفئات التحليلية

تعريفـا ضيقا مع قيام الباحثـين والباحثات مسبقا بتحديد قـدر التفاصيل الممكن ورودها في الإجابـات، وهـي قرارات لا تأتي بصـورة عشوائية، وإنما تعتمـد على عديد من العوامل العملية الخاصة بالمشاركين والمشاركات مثل السن والمستوى التعليمي والحاجة لتحديـد الفترة الزمنية التي يستغرقها الشخص في استكمـال استمارة استطلاع الرأي. إن استخـدام فئات مسبقة التعريـف لا يتيح للمشاركات المشاركين مجـالا كبيرًا للتأثير في المعلومـات الخاضعة للتحليـل (Jayaratne & Stewart 1991). كذلك فنظرا إلى التعريف المسبـق للفئات يكون على الباحثات والباحثين معرفة قدر كاف من المعلومات عـن الظاهـرة؛ ليتمكنوا من تضمـين فئات شاملة (وهـو ما يسعى إليـه غالبية الباحثين والباحثـات). ومـن الجديـر الإشارة إلى أن البحـث الكمي لا يتم كله بهـذه الطريقة، فأحيانا يقـوم الباحثون والباحثات بجمع المادة دون حصرها ضمن فئات مسبقة التحديد (مثـل السؤال عن الأصـل العرقي بإطلاق الإجابـة في صورة أسئلـة تتطلب الإجابة بمـلء الفراغات)، ثم يتم تحويـل تلك الإجابات إلى فئات كميـة تستخدم في التحليلات الإحصائية (مثل دمج الإجابات من فئات مختلفة).

وعلـى نقيض جمع المـادة الكمية فإن المـادة الكيفية (كالمعلومات الـواردة في صورة مفـردات لغوية بدلا من الأرقـام العددية) يتم تقييمها عموما عـبر استخدام موضوعات أو فئـات تتضـح بعد جمع المادة (مع أن تلك الممارسة ليسـت عامة وقائمة في كافة المناهج الكيفية). ويمكن لهذه العملية أن تزيد من إمكانية قيام الباحثة والباحث بالأخذ في الاعتبار بـكل التفاصيل والتنويعات الكامنـة في إجابات المشاركات والمشاركـين مع إتاحة فرصة اكتشاف عدد من التأويلات المختلفة لها. وهكذا، ولعدم وجود تعريف مسبق لموضوعات الفئـات كثيرا ما تتوفر للمشاركات والمشاركين حريـة الإجابة على أسئلة البحث بما يعبر عنهـم. ونتيجة لذلك تتضمن تلك البيانـات معلومات يعتبرونها هـم أنفسهم ذات أهمية. ويـرى دعاة مناهج البحـث الكيفي أهمية هـذا الجانب من البحث الكيفـي، ويتعين على المشاركات والمشاركين القدرة على وصف التجارب طبقا لما يرونه لا من خلال ما يحمله الباحثـون والباحثات مـن أفكار عن عالمهـم (Landrine et al. 1992; Marecek et

al. 1997; Wallston & Grady 1992). ولا يعنــي ذلك أن المادة الكيفية هي الأكثر دقة، بل إن البحث الكيفي هو أيضا خاضع حقا لتأويلات الباحثات والباحثين

> ففــي نهاية المطاف أنا من طرحت السـؤال، و أنا أقرأ النص بعد التفريغ، وأنا أختار المادة التي يتم وضعها في النص. . . . فأثناء محاولتي أن أحقق أكثر درجات الأمانة في تناول المعاني . . . أكون على وعي تام أن "منح الصوت" لغـيري ليس في النهاية أمرا بسيطـا. . . . فهو مليء بالتأويل.
> (Gorelick 1996، p. 38)

وهكذا كما هو واضح فلكل من منهجي البحث الكمي والكيفي عيوبه من حيث إمكانية تعديـل المعنى المقصود في إجابات المشاركين والمشـاركات. إلا أن مثل هذا التشويه قد يتكـرر بدرجة أقل في مناهج البحث الكيفي، وهذه هــي الميزة الأساسية لاستخدام تلك الأساليب.

مزايا المناهج الكمية

رغم قيام بعض النسويات بطرح إشكاليات البحث الاستطلاعي الكمي، فإنه يمكن لهذا المنهج أن يخدم كأداة فعالة لدعم الأهداف والفلسفة النسوية، كما يمكنه أن يقدم عددا من المزايا غير الموجودة في البحث الكيفي.

أولا: يمكن للبحــث الاستطلاعي الكمي أن يوفر وسيلة تقـوم النسويات من خلالها بتناول التمييز الجنسي (sexism) والتمييز العنصري (racism) والتمييز الطبقي (clas-sism)، والغيريــة الجنسية (heterosexism)، وغيرها من قضايا العدالة الاجتماعية وإدخالها ضمن النقاشات السائـدة (مثل مجال السياسات العامة والتشريع). ولعل هذه هي الميزة الكبرى لمناهج البحــث الكمي. ونظرا إلى أن أبحاث العلوم الاجتماعية مبنية

علــى مثال الموضوعية فقد يجد الباحثون المنتمون إلى التيار السائد والرأي العام أنفسهم غير مرتاحين لمناهج البحث التي يعدونها أقل موضوعية (كالبحث الكيفي). وإلى جانب ذلــك فإن مــن لا يدعمون القيم النسويــة بقوة قد يميلون تحديدا إلى عــدم الثقة في المادة الكيفيــة التي تحمــل رسالة نسوية، مدعين في ذلــك أن مثل تلك المــادة منحازة لأجندة سياسية معينة (رغم كون كل بحث يحمل أجندة ما). وقد يمثل البحث الكمي عامل جذب أكبر لتلك المجموعات من الأفراد، وبالتالي قد يجعلهم أكثر استعدادا للإنصات واعتبار البحث الكمي شرعيا (Spalter–Roth & Hartmann 1996). ولا يمكن المبالغة في تأكيــد أهمية تلك الفائدة، فمن أجــل حدوث تغيير اجتماعي لصالح النساء يجب علينا أن نستطيع من عرض نتائج بحثنا بشكل يجذب انتباه الناس ويقنعهم بالحاجة لحدوث تغيير اجتماعي. والأرقام والإحصائيات تتحدث عن نفسها، وبصوت عال ومقنع. إننا نريد حقــا لنتائــج بحثنا أن تكون مؤثرة بما يجعلها غير قابلــة للتجاهل من قبل غير النسويات وعموم الناس. والبحث الاستطلاعي الكمي قادر على مساعدتنا في تحقيق ذلك.

ثانيــا: إن الإيجاز الذي تتسم بــه الإحصائيات يجعلها سهلة التذكــر والفهم، وبالتالي سهلة التواصل مع الآخرين (Reinharz 1992). ومن أكثر النماذج المؤثرة هو ما حدث في الستينيــات مــن القرن العشرين عندما نقلت وسائل الإعــلام أن أجر المرأة يقدر بمبلغ 59 سنتا مقابل كل دولار يحصل عليه الرجل. وقد كان ذلك رقما إحصائيا بسيطا، ولكنه قام بــدور كبير في تعريف الجمهور العام بغياب المســاواة بين الجنسين في مكان العمل، وأصبح بصورة ما وسيلة حشــد للنسويات (فعلى سبيل المثال ظهرت ملصقات للسيارات ودبابيــس للملابس لا تحمل سوى عبــارة "59 سنتا"). وهكذا يمكــن للبيانات الكمية أن توصل أفكارا نسوية مهمة توصيلا مؤثرا على الجمهور العام بأسلوب بسيط ولكنه قوي.

ثالثا: تساعد المناهج الكمية في تحديد أفضل مسار للعمل على تحقيق التغيير الاجتماعي لصالــح النساء؛ لأن تلك الأساليب تساعــد في تحديد أنماط القهر على أساس النوع وفي الكشــف عن كيفية حدوث القهر. فعلى سبيــل المثال يمكن للبحث الاستطلاعي أن يوثق

التداعيات الاقتصادية والنفسية والمتعلقة بالصحة الجسدية ذات الصلة بالعنف المنزلي وغياب عدالة الأجور والاضطراب الغذائية وغيرها مما يتضح لدى مجموعات كبيرة من النساء. فإذا أوضحت نتائج البحث الاستطلاعي الكمي أن الآلاف (أو الملايين) من النساء يتشابهن في التأثر سلبيا بمثل هذه التجارب، فمن المرجح أن ينعكس ذلك على التشريعات أو السياسات المقدمة لصالح النساء.

وأخيرا: فإن المناهج الاستطلاعية تتيح للباحثات والباحثين تقييم تجارب أو آراء أعداد كبيرة من الأفراد (بدلا من أعداد أصغر كما هو الحال في البحث الكيفي). وبالتالي فإن مثل تلك المناهج تحمل إمكانيات توليد مادة يمكنها أن تمثل طيفا أوسع من الرؤى ووجهات النظر، فتنتج عنها مقاربة أشمل وتغيير اجتماعي أكثر انتشارا، وهو أمر مهم في البحث النسوي.

ونرجو أن يكون من الواضح أن هنالك فوائد لا يمكننا نكرانها فيما يتصل باستخدام البحث الاستطلاعي والمناهج الكمية في سبيل تعزيز التغيير الاجتماعي النسوي. وقد يطرأ التساؤل لديك الآن حول كيفية القيام فعلا بالبحث الاستطلاعي. وسنقضي بقية هذا الفصل في شرح كيفية قيامنا بالبحث الاستطلاعي حول القضايا النسوية. وسوف نشرح الإطار العام للقيام بمثل هذا البحث، ونصف المكونات والقرارات الرئيسية المتعلقة بكل مرحلة، مع تسليط الضوء على كيفية تأثر هذه العملية بكوننا نسويات.

كيف تكون بداية قيامك بمشروع بحث استطلاعي؟
إطار عمل البحث الاستطلاعي

قبل أن نبدأ العمل من المهم بالنسبة لك معرفة أن القيام بالبحث الاستطلاعي -عموما- يتضمن نفس المكونات والقرارات العامة سواء تم البحث بمنظور نسوي أو غير نسوي. وبمعنى آخر فإن الباحثات الاستطلاعيات النسويات ومن يقومون بالبحث

الاستطلاعـي السائد ينخرطون بشكل عام في أنشطة بحثية متشابهة. أما ما يميز البحث الاستطلاعـي النسوي عن غيره من الأبحاث الاستطلاعية فهو أن البحث الاستطلاعي النسـوي يتسم بالآتي: (1) أسئلة البحـث المبدئية التي يتم تناولهـا (أي الأسئلة الرئيسية التـي سيسعـى البحث إلى الإجابة عليها) تركز في حد ذاتها علـى قضايا تهم النسويات. (2) أن تأويـل النتائج وتطبيقها يتم بشكل يحـاول الدفع بالقيم النسوية. وهو ما يتماشى مـع الرأي القائل بأن المنظور النسوي هو الأكثر تطبيقا خلال نقطتين معينتين في مسار البحث، وهي: وضع أسئلة البحث وتأويل النتائج (Kelly 1978). وهما نقطتان تقعان -علـى الترتيب- في بداية مراحل البحث الاستطلاعي ونهايتها. ويمكن إدراك مسألة قابليـة المنظور النسـوي للتطبيق من خلال فكرة "طرفي الكتـاب" بالنسبة لمسار البحث الاستطلاعـي، إذ تجعل جوهر البحـث متماسكا فيما بينهما (أي "طـرفي الكتاب") كما تضفي على كل مكون من مكوناته شكلا وبنية ومعنى.

إن مكونـات منهج البحث الاستطلاعي، التـي تلي مرحلة وضع أسئلة البحث وتسبق تأويـل النتائـج (أي منتصف "الكتاب")، تتضمـن قرارات بشأن اختيـار أساليب معينة للبحـث الاستطلاعـي. فعلى سبيل المثال، هذه هـي المرحلة التي يجب فيهـا على الباحثة أو الباحـث اختيار نـوع الاستطلاع المستخدم، ومن سيتم عقـد المقابلات معهم، وإعداد استمـارة الاستطلاع، وكيفيـة جمع المادة، وكيفية تحليل المـادة. وعموما فإن الباحثات والباحثين الاستطلاعيين (النسويات وغير النسويين على حد سواء) يجب أن يتعاملوا مع القـرارات المتعلقة بتلك المكونات قبل بدء عملية البحـث الاستطلاعي فعليا. وهكذا فهناك الكثـير من العمل الذي يتم حتى قبل جمع المـادة! كما نود التأكيد على أنه من أجل ضمان بحث جيد القيمة فمن المهم للغاية أن تأتي القرارات الخاصة بالمكونات في المرحلة الوسطى مـن البحث معتمـدة على المبادئ العامة للبحث الاستطلاعـي (والتي تتسق تماما وبطرق عديـدة مع المبـادئ النسوية، كما سيتضح لاحقا). إن المرحلـة الوسطى من مسار البحث الاستطلاعي يجب -بالتالي- أن تتأثر على الأقل بالمنظور النسوي (أو أي منظور آخر)، لأن تلك المرحلة هي التي تتطلب اتباع بروتوكول البحث الاستطلاعي المتفق عليه.

المرحلة الأولى من البحث الاستطلاعي: صياغة أسئلة البحث وفرضياته

إن الخطوات الأولى في مسار البحث المتعارف عليه (ولا يقتصر على البحث الاستطلاعي) هي صياغة أسئلة البحث ووضع فرضياته. إن أسئلة البحث (research questions)، هي ببساطة مجموعة الأسئلة التي سيحاول البحث الإجابة عليها. وبالنسبة للنسويات فإن أسئلة البحث تنبع من الاهتمام بتحسين حيوات النساء وتحقيق العدالة الاجتماعية عامة. فعلى سبيل المثال، قد تطرح الباحثة النسوية السؤال التالي: "ما أفضل طريقة لجعل البيئات الأكاديمية أكثر دعما للطالبات المثليات؟"، أو "كيف تؤثر عدم المساواة في الأجر بين الجنسين في مكان العمل على الأطفال؟"، أو "لماذا يقوم بعض الرجال بضرب النساء؟" وهي بطبيعة الحال مجرد أمثلة على العديد من الأسئلة التي قد تهتم الباحثة بدراستها.

أما الفرضيات (hypotheses) فهي التنبؤات التي تقوم بها الباحثة أو الباحث بشأن نتائج الدراسة: أي ما يعتقدانه من إجابات لسؤال البحث. ويتم وضع الفرضيات بناء على تحليل للأبحاث والنظريات السابقة. فإذا أخذنا في الاعتبار أسئلة البحث المطروحة أعلاه، على سبيل المثال، فبناء على نتائج الدراسات السابقة، قد تفترض الباحثة أو الباحث أن تنفيذ السياسات الرافضة للتحرش بالطالبات المثليات يؤدي إلى بيئات تعليمية أفضل لهم، وأن عدم المساواة في الأجر بين الجنسين في أماكن العمل يقلل من تقدم الأطفال في الدراسة، أو أن بعض الرجال يعنفون النساء كوسيلة لفرض السلطة والسيطرة. ونجد في بعض الأبحاث السائدة أن أسئلة البحث تنطلق فقط من اهتمام بالنظرية دون تطبيق مباشر لحل المشاكل الاجتماعية. إلا أن النسويات هن الأقرب إلى طرح أسئلة (على شاكلة تلك الواردة أعلاه) ووضع فرضيات بصورة تجعل لنتائج البحث علاقة مباشرة بالتغيير الاجتماعي النسوي. وهكذا يؤثر المنظور النسوي على صياغة أسئلة البحث وكذلك على طريقة التعبير عن الفرضيات. فالغرض في الواقع من القيام بالبحث هو الإجابة على أسئلة البحث تلك.

الأسئلة التي يجب طرحها خلال المرحلة الأولى من مسار البحث الاستطلاعي تتضمن ما يلي:

- ما سؤال البحث، وما أهميته كقضية نسوية؟
- ما الفرضية التي أطرحها؟ وهل تعتمد على تقييم دقيق للنظرية القائمة والأبحاث الإمبيريقية؟

المرحلة الثانية من البحث الاستطلاعي: القيام بالبحث

لا يمكن للمرء التفكير في منهج البحث الذي يتعين اختياره إلا بعد صياغة أسئلة البحث وفرضياته. فما العوامل التي تؤثر على قرار استخدام منهج البحث الاستطلاعي؟ بشكل عام، إذا كان الهدف من البحث هو تطبيق النتائج على نطاق أوسع من المشاركات والمشاركين في البحث، أو التأثير في صانعي السياسات والرأي العام، أو اختبار بعض الفرضيات أو النماذج النظرية المعقدة، فقد يكون البحث الاستطلاعي اختيارا ملائما لذلك. فعلى سبيل المثال تم استخدام البحث الاستطلاعي لتقييم برنامج للتدخل (intervention programme)، تم إعداده للحفاظ على اهتمام تلميذات مرحلة التعليم المتوسط بالعلوم (Jayaratne، Thomas، and Trautmann 2003). وقد كان الهدف المحدد لهذا البحث هو تحديد فاعلية مختلف جوانب البرنامج بين الفتيات المنتميات إلى أقليات وغير المنتميات إلى أقليات. وتم اختيار البحث الاستطلاعي في هذا المشروع لأنه أتاح للباحثات ما يلي: (1) جمع الآراء من عدد كبير من الفتيات. (2) تعميم النتائج على الفتيات في التعليم المتوسط. (3) التأثير على صناع السياسات بشأن أهمية التدخل لصالح الفتيات في مجال العلوم. (4) القيام باختبار إحصائي للفرضيات القائمة بشأن الاختلافات الناتجة بين الفتيات المشاركات في برامج التدخل وأولئك غير المشاركات في تلك البرامج. وعلى الرغم من أنه قد تم التفكير مبدئيا في القيام بمقابلات

شخصيــة كيفية لما ستوفره من فهــم معمق لآراء الفتيات في البرنامــج ، فإن احتياجات الباحثــات ، الواردة أعلاه ، كانت تتطلب استخــدام الاستطلاعات بشكل أفضل مقارنة بغيرهــا من الاستراتيجيات . إن استخدام البحث الاستطلاعي يعكس منظورا نسويا من حيــث إن الهدف الأسمى هو توليــد معلومات يتم استخدامها في تطويــر برامج لزيادة مشاركة الفتيات من الأقليات وغير الأقليات في مجال العلوم .

أنواع استطلاعات الرأي

التصنيــف المتعارف عليه لاستطلاعات الرأي يعتمد علــى كيفية القيام به ، أي كيفية جمع البيانات . فالمناهج التقليدية تتضمن مقابلات تتم وجها لوجه (بحيث يقوم الباحث أو الباحثة شخصيا بطرح الأسئلة) ، والمقابلات الهاتفية (التي يتم خلالها طرح الأسئلة عبر الهاتــف) ، وأسئلة الورقة والقلم أو الاستبيانات المرسلة بريديا (وهي تلك التي يقوم فيها المستجيبون والمستجيبات بالإجابة في الورقة ثم إعادة الاستبيان إلى الباحثة أو الباحث) . أمــا المناهج الأحدث في القيــام بالاستطلاعات فتقوم علــى الاستعانة بالحاسب الآلي في عمليات جمع البيانات ، بما في ذلك الاستطلاعات الإلكترونية (Web surveys) والتي يستخدمها كثير من الباحثــين والباحثات حاليا بدلا من استبيانات الورقة والقلم التقليدية (Groves et al. 2004).

إن كل أسلوب من هذه الأساليب الاستطلاعية يحمل مزايا وعيوبا متنوعة . فالمقابلات وجهــا لوجه تميــل إلى ارتفاع تكلفتهــا ولكنها تتيــح التفاعل المباشر من قبــل المشاركين والمشــاركات في المقابلات الشخصيــة ، وهو بالتالي المنهج الأصلــح للاستطلاعات التي تتطلب تقصيــا متعمقا وتوضيحا للإجابات . ولكن حينما يكــون موضوع البحث حساسا بدرجة ما؛ فإن المــادة العلمية المجموعة من المقابلات القائمة وجها لوجه قد تحمل بيانات متأثرة بالرغبة في الرضــا الاجتماعي (social desirability) مثلما يحدث عندما يدفع

حضور الباحثة أو الباحثة بالمشاركين والمشاركات في البحث إلى الإجابة على الأسئلة بصورة تجعلهم يبدون "صالحين" في نظر القائمين بالمقابلة (انظر/ي:Campbell 1982; Rogers 1971). كما قد يقوم المستجيبون بالإجابة على الأسئلة بالإجابة التي يعتقدونها هي المفضلة للقائم المقابلة (أي بما يدعم فرضيات البحث). وهي مسألة من المهم التوقف أمامها عند القيام بأبحاث عن قضايا النوع أو الأصل أو الجنسانية، والتي قد تتضمن أمورا حساسة وخلافية. ومع ذلك فقد تم القيام بأبحاث نسوية عالية الجودة حول قضايا حساسة للغاية وذلك باستخدام مثل هذه الأساليب الخاصة بالمقابلات الشخصية. فعلى سبيل المثال نجد بحثا تناول قضايا النوع والأصل والجنسانية في الحياة الأكاديمية (Stewart and Dottolo 2005)، حيث يتم في هذا البحث عقد مقابلات شخصية مع مجموعات متنوعة من هيئة التدريس بالجامعات حول تجاربهم مع التمييز الجنسي، والتمييز العنصري والهوية الجنسية الغيرية في مكان العمل، وقد حملت المقابلات إجابات عميقة فكريا وأمينة. فالمقابلات التي تتم وجها لوجه يمكنها في حال القيام بها باحترام ومهنية أخلاقية يمكن أن تقدم كما غنيا من المعلومات عن موضوعات حساسة.

لقد اتضح أن المقابلات الهاتفية تأتي بنتائج شبيهة عموما مع مناهج المقابلات وجها لوجه (groves & Kahn 1979). ومع أن المقابلات الهاتفية تعتبر أقل تكلفة وتفرض نفسها بدرجة أقل على الطرف الآخر، فإن النتائج يمكن أن تتأثر أيضا بمسار المقابلة، وعادة تتأثر بما يقوله الطرف القائم بالمقابلة (أو بما لا يقوله) خلال المقابلة. ونجد في السنوات الأخيرة أن التطورات التي شهدتها أدوات أو خدمات مراقبة الاتصالات الهاتفية (أي خاصية التعريف الشخصي) أدت إلى انخفاض معدلات الاستجابة للاستطلاعات الهاتفية. وتبين الأبحاث عامة أن انخفاض تلك المعدلات لم يؤثر في إجمالي أنواع الأفراد الذين يجيبون على الاستطلاعات الهاتفية (Pew Research Center 2004)، إلا أنه يتعين على الباحثات والباحثين الوعي بتلك المسألة وكيف يمكنها أن تؤثر في المادة المجموعة.

ومـن المتعـارف عليـه أن استطلاعات الورقـة والقلـم أو الاستطلاعـات البريدية والاستطلاعـات الإلكترونية هي أقل تكلفة من الاستطلاعـات الهاتفية أو التي تتم وجها لوجه، ولكنها أقل تعرضا للتأثير في كيفية القيام بها نظرا إلى قيام المستجيبين والمستجيبات بملئها في ظروف غير معلومة. فعلى سبيل المثال قد يقوم المستجيبون والمستجيبات بإكمال الاستطلاع في مكان وزمان واحد أو على مدار عدة أيام أو بالاسترشاد بآراء الأصدقاء أو أفـراد الأسرة. كذلك فإن هذه الأنواع مـن الاستطلاعات قد تحمل معدلات إجمالية أقـل بسبب سهولة رفض الناس المشاركة فيها. ويمكـن للحوافز أن تساعد كثيرا في حل هذه المشكلة (كما يرد بالتفصيل في المصدر التالي: Dillman 1978)، كما يقوم كثير من الباحثين والباحثات بتعويض المشاركين والمشاركات عن الوقت والجهد المبذول (في كافة أنواع الاستطلاعات). ومن مزايا استطلاعات الورقة والقلم هو أنها تتيح قدرا أكبر من الخصوصيـة وعدم كشف الهوية، وبالتالي تساعد في تناول القضايا الحساسة. وهو أمر قد يوجد ميزة مهمة للباحثات النسويات لأن المشاركات والمشاركين قد يشعرون بدرجة أكـبر من الراحـة في موقف البحث وأن يفصحـوا عن أصواتهم في التعبـير عن آرائهم وتجاربهـم الحقيقية في ظل تلك الخصوصية. ومـن الواضح أن القرار الخاص باختيار نوع الاستطلاع هو قرار ذو أوجه متعددة، ولكنه قرار مهم من حيث تأثيره على كافة جوانب البحث ولما له من تداعيات كبيرة على جودة وقيمة ما تم جمعه من مادة.

اختيار المستجيبات والمستجيبين

بعـد اختيار نوع الاستطلاع يتعين على الباحثـة أو الباحث اتخاذ القرار بشأن كيفية اختيار المشاركات والمشاركين في البحث. ويشير مصطلح اختيار العينة (sampling) إلى اختيار أشخاص من بين مجموعة بشرية يتم عمل الاستطلاع من خلالها (Stangor 2004). أما مجتمع البحث (population) فيتم تعريفه بوصفه مجموعة الأفراد الشاملة ممن يرغب الباحثة أو الباحث في دراستهم. فعلى سبيل المثال، قد يتمثل مجتمع البحث

في كل النســاء الأفروأمريكيات ممن تزيد أعمارهن عــن 50 عاما في الولايات المتحدة الأمريكية، أو كل النساء السجينات في نيومكسيكو، أو كل النساء اللاتي وضعن أطفالا خلال دراستهن في جامعة يال. وعلى النقيض من ذلك فإن العينة هي مجموعة جزئية (subset) أصغــر عــددا تتضمن الأفراد المشاركين المشــاركات في البحث. فعلى سبيل المثال، وبنــاء على ما سبق، قد تتضمن العينة نساء أفروأمريكيات ممن تزيد أعمارهن عــن 50 عاما من المقيمات في المقاطعة التي تنتمي إليها الباحثة واللاتي يستجبن للإعلان المنشور في الصحيفة المحلية بشأن الحاجة إلى مشاركات في البحث، أو مجموعة صغيرة من النساء السجينات في كل مكان حبس في نيومكسيكو، أو النساء اللاتي وضعن أطفالا خلال دراستهن في جامعة يال ممن توجد قائمة بأسمائهن في دليل خريجات جامعة يال وخريجيها. وكثيرا ما يحرص الباحثون والباحثات على تطبيق نتائج البحث التي تمت على العينة بتوسيع الدائرة لتشمل المجموعة الأشمل أي مجتمع البحث، وذلك في عملية اسمها التعميم (generalization). وهــي مسألة مهمة تحديدا لأن نتائج البحث يصبح لها معنى لمجموعة أكبر من الأفراد ولا تقتصر على المشاركات والمشاركين في البحث. ومــع ذلك لا يكون التعميم ممكنــا إلا إذا كانت العينة ممثلــة (representative)، أي تتمتع بخصائص تكاد تماثل خصائص مجتمع البحث في جوانبها المهمة. وهذه هي أهمية اختيار العينة، فكيفية اختيار المشاركين والمشاركات في البحث هي التي تحدد ما إذا كان من الممكن تعميم نتائج البحث على مجتمع البحث بناء على العينة.

إن أفضل طريقة لضمان قابلية العينة للتعميم هي اختيار المشاركين والمشاركات بشكل عشوائــي من بين مجتمــع البحث، بما ينتج عينة احتماليــة (probability sample). وتوجــد أنواع كثيرة مختلفة من العينات الاحتمالية، ولكنها تتضمن جميعها نوعا ما من الاختيار العشوائي للمستجيبين والمستجيبات (Czaja & Blair 1996). فعلى سبيل المثال إذا كان اهتمام الباحثــة منصبا على تجارب السجينات في نيومكسيكو (مجتمع البحث)، ولكن تعذر القيام بالبحــث بالاستعانة بمجتمع البحث بأكمله يمكنها حينها الحصول على عينــة احتمالية لهؤلاء النساء. ويمكن القيام بذلــك عن طريق اختيار عشوائي لمجموعة

جزئية صغيرة من النساء مــن كل سجن للمشاركة في الاستطلاع ، وهو أسلوب سينتج علــى الأرجح عينة احتمالية ممثلة لمجتمع البحث من النســاء السجينات. ونظرا إلى أن اختيــار العينة الاحتمالية يتميز بتحقيــق نتائج قابلة للتعميم علــى مجتمع البحث المعني، وبالتــالي يكون مقنعا، فإن استراتيجية اختيار العينــة تكون مفيدة تحديدا إذا كان هدف البحث هو التأثير على السياسة العامة فيما يتعلق بقضايا النساء.

وعلــى الرغم من هذه الميزة الخاصة باختيار العينة الاحتمالية فإن الباحثة أو الباحث لا يكونــان قادرين أحيانا على استخدام هذا المنهج في اختيــار المستجيبين والمستجيبات. وهــو أمر قــد يحدث بسبــب صغر حجم مجتمــع البحث (مثــل النساء الملونــات اللاتي يشغلــن منصــب رئيس مجلس إدارة الشركــة)، أو بسبب صعوبــة الوصول إليه (مثل العاملــين في الاتجار بالجسد). كما قد يصعب الاستعانــة باختيار العينة العشوائية بسبب نقصــ التمويل، إذ إن أساليب تشكيل العينــة الاحتمالية تكون مكلفة أحيانا. فبسبب تلك الصعوبات يستخدم الكثير مــن الباحثين والباحثات عينات غير احتمالية (nonprob-ability samples)، في أبحاثهم.

والعينــات غير الاحتماليــة هي تلك العينات التــي لا تكون العينة فيهــا ممثلة لمجتمع البحث. وفي هذه الحالة يمكن للباحثة أو الباحث تطبيق نتائج البحث فقط على مجموعة معينــة من الأفراد الذيــن شاركوا في البحث، وذلك رغم أنهمــا قد يتأملان كيف يمكن للنتائــج أن تنطبق على مجتمــع البحث الأشمل. إن الميــزة الأساسية لاختيار عينة غير احتماليــة تتمثل في أنها قد لا تكون مكلفة نسبيا ويمكنها عادة أن تولد عينة كبيرة بسرعة تفوق استراتيجيات اختيار عينة احتماليــة (Biemer & Lyberg 2003). وللحصول علــى عينة غــير احتمالية تقوم الباحثة أو الباحث بتحديــد مجتمع البحث المعني (مثل كل النســاء الأفروأمريكيات ممن تزيد أعمارهن عن 50 عاما) مع الاقتصار في العينة على الأفراد الذين تنطبق عليهم بعض السمات الإضافية، مثل النساء القاطنات مدينة موسكو في أيداهو بالولايات المتحدة الأمريكية حيث تعيش الباحثة أو الباحث. إن مثل هذا النوع من العينات لن تمثل بالطبع مجتمع البحث بأكمله.

ومن أنـواع اختيار العينات غـير الاحتمالية الشائعة، وهي تلـك المذكورة أعلاه، هـو اختيار العينة الملائمـة (convenience sampling)، والذي يشير إلى الاستعانة بمشاركـين ومشاركات في أماكن يسهل الوصول إليها. فعلى سبيل المثال نجد أن الكثير مـن الأبحاث في علم النفـس الاجتماعي النسوي يستعين بعينـات من طلاب وطالبات الجامعـات التي ينتمي إليها الباحث أو الباحثـة (مثلا: Smith & Frieze 2003)، كما أن كثـيرا من الباحثين والباحثات يستعينون بعينات من المشاركات والمشاركين المقيمين في نطـاق سكنهم الجغـرافي. وبينما يمكن لاختيـار العينة الملائمـة أن يقدم ملاحظات عميقـة عن مجتمع البحث، فإنه علـى الباحثين والباحثات الحذر كـي لا يقوموا بتعميم نتائجهم خارج نطاق خصائص العينة. فعلى سبيل المثال إذا قام باحث أو باحثة بدراسة عن تجارب طالبـات الجامعة اللاتي وضعن أطفالا خلال الدراسة، وعند اختيار نساء للمشاركة في البحث ممن يدرسن في الجامعة التي ينتمي إليها الباحث أو الباحثة، فسيكون في الإمكان بـلا شك الحصول على معلومات قيمة عن تجارب هؤلاء الطالبات. ولكن لن يكون من الصواب تعميم النتائج على كل النساء اللاتي وضعن أطفالا خلال مرحلة الدراسـة الجامعية. إن قـرار اختيار استخدام عينة احتمالية أو غـير احتمالية يعتمد في نهايـة الأمر على الموارد المتاحة للباحثة أو الباحث، ومدى أهمية تعميم النتائج. ويجب علـى الباحثين والباحثات توخي الحرصـ والدقة في قرار منهج اختيار العينة بالموازنة بين مزايا الأساليب المختلفة وعيوبها في اختيار العينة.

إعداد الاستطلاع

قـد يكون مـن المفيد عنـد البدء في مرحلـة إعداد الاستطـلاع عقد مناقشـات معمقة (مجموعات نقاشية) مع الأفراد الممثلين لمجتمع البحث المعني، وهو أمر قد يساعد الباحثة أو الباحث في فهم الطريقة التي يتحدث بها الناس عن القضايا التي سيتناولها الاستطلاع وفي اختيار المفردات وصيغ الأسئلـة المناسبة. وهي مناقشات قد تطرح قضايا وهموما وصورا لتناول الموضوع مما لم يخطر على بال الباحثة أو الباحث (Fowler 1984).

وهكـذا يمكن لتلك المناقشـات أن تكون أداة قيمة لاكتساب المعرفـة، وخاصة حول فئة تابعـة. فعلى سبيـل المثال قامـت دراسة حـول السلوكيات والمواقـف المتصلة بمرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) بعمـل مجموعات نقاشية لعينتـين مجتمعيتين من النساء الحاصـلات على قـدر قليل من التعليم واللاتي عبرن عـن آرائهن حول هذا الموضوع (Quina et al. 1999). وقـد أتاح ذلك الأمر لمجتمـع البحث (أي النساء الحاصلات علـى قدر قليل من التعليم) المشاركـة في مسار البحث وأن يكون لهن صوت فيه. وهي كلها جوانب تحتل موقعا مركزيا ضمن المبادئ والقيم النسوية.

أمـا الخطوة التالية فهي مرحلـة عمل الاستطلاع، وتختص عمليـة تشكيل الاستطلاع وصياغته (survey construction) أولا بالقـرارات الخاصة بما توجد أهمية لقياسه (أي الأسئلـة التي سيتـم طرحها)، ثم كيفية طـرح الأسئلـة (Fowler 1984)، وهي قـرارات لابد أن تعتمد على المعلومات التي يجب توفرهـا لتقييم الفرضيات. إن تحديد الأسئلـة التي يتعين تضمينها في الاستطلاع يجب أن تكون عملية مباشرة إلى حد كبير. ولنفترض أن باحثـة ما مهتمـة بدراسة سلوكيـات المواعدة لدى المراهقـات المثليات، وتقـوم فرضيتها علـى أن الفتيات اللاتي ينتمـين إلى أسر تتقبل مثليتهـن سيكشفن عن تجـارب مواعـدة أكثر إيجابية مقارنة بالفتيـات المنتميات إلى أسر أقـل تقبلا لها. ومن الواضـح أن الباحثة يجب أن تضمـن في استطلاع الرأي أسئلة عن تجارب الفتيات مع المواعـدة ومستوى تقبل أفراد أسرهن لميولهـن الجنسية (بالإضافة إلى أي قضية أخرى ذات أهميـة). ومع ذلك يجب على الباحثة أيضا أن تقرر بالضبط كيف سيتم طرح هذه الأسئلة، وهي مهمة أكثر صعوبة من سابقتها. فكيف للباحثة أن تقوم بذلك؟

إعداد الأسئلة

عنـد وجود مقاييـس راسخة في أدبيـات البحث يكـون من المفضـل الاعتماد عليها في حـال ما إذا كان قد ثبتـت صحتها (Fowler 1984). والمقاييـس الصحيحة (valid

measures) ، هي تلك التي تم تقييمها إمبيريقيا وتعمل فعليا على تقييم ما يفترض قدرتها على الوصول إليه. فعلى سبيل المثال، يجب عند السؤال عن دخل الأسرة أن يوضح للمشاركة أن المقصود هو الدخل الإجمالي لكل أفراد الأسرة. فإن لم يتم توضيح ذلك من خلال صيغة السؤال سنجد أن المقياس يقيم هنا في الواقع دخل المشاركة وحدها، وبالتالي لن يكون مقياسا صحيحا لدخل الأسرة. فمسألة صحة السؤال هي مسألة جديرة بالاهتمام سواء عند استخدام المقاييس المعروفة أو إعداد مقاييس جديدة.

وفي حال عدم توفر المقاييس المعروفة والمضمونة، أو إذا جاءت صيغتها المضبوطة غير عملية، سيحتاج الباحث أو الباحثة إلى صياغة أسئلة أو تكييف مقياس ما قائم بالفعل وملائم لمجتمع البحث. أما القضايا الأساسية التي يجب تناولها عند إعداد الأسئلة فهي: الفهم (comprehension) أي درجة السهولة التي تقوم المشاركة أو المشارك بها بتفسير السؤال وفهمه)، والاستعادة (retrieval) أي درجة قدرة المشاركة أو المشارك على تذكر المعلومات اللازمة للإجابة على السؤال)، والرد (reporting) أي القدرة على صياغة إجابة ووضعها في الشكل المطلوب في الاستبيان (Groves et al. 2004). ومن الواضح أنه في حال عدم فهم المشاركة أو المشارك للأسئلة، فستأتي كل من الاستعادة والرد غير دقيقة.

ومن أمثلة البحث النسوي الممتازة والتي قامت بتكييف الاستطلاع بما يحقق مزيدا من الفهم هو الدراسة التي سبق ذكرها بشأن السلوكيات والمواقف المتعلقة بمرض الإيدز (Quinas et al. 1999). فخلال عملية تكييف الاستطلاع تبعا لمجتمع البحث، قام البحث بخفض مستوى القدرة على قراءة الاستطلاع من مستوى الفصل الثاني عشر من التعليم المدرسي (والذي كان قد تم أصلا إعداده تبعا له) إلى مستوى الفصل السادس من التعليم. وقد تحقق ذلك بناء على التعليقات وردود الأفعال التي تلقوها من مجموعات من النساء اللاتي يشبهن المجموعة المستهدفة من الاستطلاع (أي النساء ذوات القدرة المنخفضة على القراءة والكتابة). وقد سمحت تلك الاستراتيجية للنساء

في مجتمـع البحث المعني بإدراج أصواتهن في البحث الذي جاء في الأساس عنهن ومن أجلهن – وهي مسألة نسوية مهمة عند القيام بالبحث.

وتبـين لنا الأبحاث أن المستجيبات والمستجيبين قـادرون ويقومون أحيانا بتفسيرات مختلفـة لنفس الأسئلة، وخاصة حين تكون تلك الأسئلة غامضة أو متضمنة مصطلحات متخصصـة (Groves et al. 2004; Schwarz، Groves & Schuman 1998). ونتيجـة لذلك فمن المهم كتابة الأسئلة بحيث يميل المشاركـون والمشاركات إلى تفسيرها بصـورة متشابهـة (fowler 1984). وفي سبيل تقليل إمكانيـة اختلاف التفسيرات إلى أقصى مدى فمن المفيد استخدام لغة الحياة اليومية، غير المبهمة، والخالية من المصطلحات المتخصصة عند صياغة الأسئلة. كذلك، ومن منطلق اتباع مبادئ البحث النسوي، فمن المهـم الأخذ في الاعتبـار الاختلافات القائمة بين الفئات الاجتماعيـة (مثل العرقيات أو الطبقـات أو الثقافات المختلفة: Fowler 1984)، مع استخدام لغة خالية من الاضطهاد (أي لغـة تخلو من التمييـز الجنسي، والتمييز العنصـري) (Eichler 1988). وقد تم في أحـد الأبحاث دراسة تأويلات النساء البيض والسـود للمفردات والعبارات المتعلقة بالنـوع (مثل: "أنا ذات أنوثة"، و"أنـا سلبية"، و"أنا حاسمة")، فظهر أن النساء على اختلافهن أضفين معاني متباينة جدًا على المفردات المؤثرة على إجاباتهن (Landrine et al. 1992). فعلى سبيل المثال، بينما قامت النساء السود بتعريف كلمة السلبية باعتبارها تشـير إلى عدم الإفصاح عما يدور في الذهن، قامـت النساء البيض بتعريفها باعتبارها تعني التكاسل/التساهل، بما يكشف عن اختلافات في معنى السؤال وتأويله.

أنواع الأسئلة

يوجـد عامة نوعان مختلفان من الأسئلـة المستخدمة في البحث الاستطلاعي: الأسئلة المغلقـة (close-ended) والأسئلة المفتوحـة (open-ended). وتقدم الأسئلة المغلقة للمشاركـين والمشاركات قائمة بأسئلة تحمل اختيارات محددة للإجابات عليها، في حين

أن الأسئلة المفتوحة تفسح المجال أمامهم لتقديم إجاباتهم عليها (بما يشبه مناهج البحث الكيفي). وتكون الأسئلة المفتوحة في البحث الاستطلاعي شبيهة بالأسئلة التي تتطلب ملء الفراغات أو كتابة إجابات قصيرة، بينما الأسئلة المغلقة أقرب إلى شكل الأسئلة متعددة الإجابات للاختيار من بينها (Groves et al. 2004). فعلى سبيل المثال في حال اهتمام الباحثين والباحثات بتقييم المشاعر تجاه تجنيد المثليين والمثليات في الجيش، فقد يطلبون من المستجيبين والمستجيبات الاختيار بين اثنين في وصف آرائهم في هذا الموضوع (مثلا: "لا يجب السماح لهم بالخدمة العسكرية" أو "يجب السماح لهم بالخدمة العسكرية"). ويمكن للباحثة أو الباحث أيضا طرح نفس السؤال في صيغة سؤال مفتوح (مثلا: "ما رأيك في وجود المثليين والمثليات في الجيش؟").

ومن الأمثلة التي توضح استخدام الأسئلة المفتوحة والمغلقة، معا ما نجده في بحث تم على العنف ضد النساء (Smith 1994). وقد توصلت الدراسة إلى أن تضمين كلا النوعين من الأسئلة عند السؤال عن مدى تعرض المرأة الدائم للعنف على مدار حياتها ساعد كثيرا في التواصل بين طرفي البحث، مما أدى في نهاية الأمر إلى فهم أوسع وأكثر تنوعا لتجارب الضحايا. وأوضح الباحث في دراسته ضرورة استخدام الأسئلة المغلقة والمفتوحة معا عند تقييم التجارب الحساسة كالعنف من خلال الاستطلاع. وعلى الرغم من أن الأسئلة المغلقة قد تفرض قيودا على ثراء التجربة وتنوعها لأنها لا تسمح للمستجيبة أو المستجيب بالإجابة باستخدام مفرداتهم الشخصية، فقد تكون مفيدة أيضا لأنها عادة ما تكون أسرع وأسهل في الإجابة، بما يشجع الأفراد على الاستجابة والإجابة (Fowler 1984).

عقد اختبارات قبلية (pretesting)

بعد وضع تصميم مبدئي لأداة الاستطلاع، يكون من المفيد اختباره، أي اختباره على مجموعة صغيرة من الأفراد (يشبهون المجموعة التي سيتم تضمينها في العينة النهائية)،

وذلـك للتأكد ممـا إذا كان يتطلب مزيدا مـن المراجعة. ويطلب الباحـث أو الباحثة في مرحلة الاختبار القبلي من المستجيبين عدم الاقتصار على الإجابة على الأسئلة بل أيضا التعبـير عن آرائهم بشأن صيغ الأسئلة ذاتها (مثلا: مدى وضوح الأسئلة). وهي عملية يمكنهـا أن تحمل ملاحظات على كيفية تفسير وتأويل معاني الأسئلة (Schwarz et al. 1998)، وبالتالي قد تعمل على تحسين جودة المقاييس.

جمع المادة

يشـير مفهـوم جمـع المـادة (data collection) إلى عملية الحصـول الفعلي على المعلومـات (أي المواقـف والتجارب والأفـكار والمشاعر، وغيرها) والتـي تساعد في الإجابـة علـى أسئلة البحث. ومن المهم فهـم كيف يمكن للعوامل المختلفـة المتعلقة بجمع المـادة (مثل القائمـة أو القائم بالمقابلة، مـكان المقابلة وزمانها، الاختيـارات المتاحة في الإجابات، والظروف العامة غير المتصلة مباشرة بالمقابلة) أن تؤثر بشكل غير مقصود في المـادة وبالتالي يمكنها في نهاية الأمر أن تؤثـر في نتائج الدراسة. وقد كانت بواكير البحث الاستطلاعي تميـل إلى تجاهل أثر بعض تلك العناصر، بما ينتج عنه مادة كثيرا مـا كانت تتسم بعدم الحيدة والانحياز لرؤيـة الباحثة أو الباحث أو الخطاب الاجتماعي السائد. إن هذا الجانب من جوانب البحث الاستطلاعي التقليدي كان موضوعا محوريا أساسيـا تعرض لكثير من النقد النسوي لأنه كان يعنـي أحيانا تعرض المنظور النسوي للتشويه. فقد قامت دراسة ريسمان (Riessman 1987) على سبيل المثال بتوثيق كيفية تأثـير كل من الانتماء العرقي والطبقـة الاجتماعية على مسار المقابلـة، وبالتالي كيفية تأويـل المادة البحثية. فقد قامت في تلك الدراسة امرأة أنجلوأمريكية من الطبقة الوسطى بعقـد مقابلة مع امرأتـين إحداهما أنجلوأمريكية مـن الطبقة الوسطـى والأخرى امرأة بورتوريكيـة من الطبقة العاملة، وكان موضوع المقابلة الانفصال الزوجي والطلاق. وقـد جاءت روايتا المرأتـين مختلفتين تماما فيما بينهما عند وصـف تجاربهما، بما يمثل خلفياتهمـا المتباينة. وقـد توصلت الباحثة عنـد تقييمها لنصي المقابلتـين إلى أن تعليقات

القائمة بالمقابلة (بما تعكسه خلفيتهـا المنتمية إلى الطبقة الوسطى) أثرت في مسار المقابلة. وقـد أوضحت الباحثة في دراستها كيـف أن الانتماء إلى طبقـة اجتماعية مختلفة (رغم الاشـتراك في النوع) قد يغـير في المعنى الذي تحمله روايات المستجيبات، بما يمكنه من أن يزيد من معدلات الخطأ في المادة. إن أساليب البحث الاستطلاعي الحالية تؤكد على قيمـة تقليل تأثير الخطأ خلال جمع المادة (انظـر/ي: Groves et al. 2004). وهكذا فإن الباحثات النسويات والباحثين عموما يدعمون الوعي بكيفية تأثير سمات المستجيبين وسمات القائمين بالمقابلات على قيمة وجودة المادة البحثية.

التعامل بأخلاقيات المهنة مع المشاركات والمشاركين

للمبـادئ الأخلاقية علاقة بكثير من جوانب المسار البحثي (مثل الصدق في نقل المادة، والإشـارة إلى دور المشاركات والمشاركـين في البحث). إلا أن غالبية المناقشات الخاصة بأخلاقيـات البحث (research ethics) تميل إلى التركيز علـى كيفية المعاملة التي يلقاها المشاركـون والمشاركات في البحث من قبل الباحثة أو الباحث، وهو تركيز على الأرجح نـاتج عن الانتهـاكات التـي كان يتعرض لها المشاركـون والمشـاركات حتى وقت غير بعيـد. ولعل من أغرب الأمثلة وأكثرها شهرة هي دراسة الطاعة (obedience stud-ies) Milgram 1974)، ودراسـة مرض الزهـري (Tuskegee syphilis study Jones 1981)، إذ اعتمدت الدراسة الأولى على جعل المشاركين يعتقدون أنهم يقومون بصدمات تجاه الآخرين بغرض "تعليمي"، وهي عملية أزعجت الكثيرين من المشاركين إزعاجـا بالغا، بينما اعتمدت التجربة الثانية على دراسة حكومية لتطور مرض الزهري بـين الأفروأمريكيين الذكور دون إخبارهم عن المرض ولا علاجهم منه على الرغم من وجـود عقار البنسلين كعلاج ناجع للمرض. ومع أن هذين المثالين ليسا نموذجين للبحث الاستطلاعي في حد ذاته، فإن الوعي بمثل هذا الاستغلال أدى إلى قيام جهود واسعة لمنع سوء معاملة المشاركين والمشاركات في كافة الأبحاث التي تتناول البشر.

وقـد جاءت أصـوات الباحثات النسويات مـن ضمن الأصوات التـي تضمنتها تلك الحركة من أجل تنفيذ معايير صارمة للمعاملة الأخلاقية تجاه المشاركين والمشاركات في الأبحـاث. وفي الواقع فإن الكثير من الانتقـادات النسوية الأولى استهدفت هذا الجانب بعينـه من المسـار البحثي؛ نظـرا إلى أن استغلال المشاركين والمشـاركات في الأبحاث يتعارض مع القيم الإنسانية الأساسية التي تستند إليها النسويات. وهي انتقادات عادة ما دعت إلى الحد من أو القضاء على التفاوت في السلطة بين الباحثة والمبحوثة (Du Bois 1983; Fee 1983). فعلى سبيل المثال نجد باحثات نسويات (Reinharz 1979) يرين أن العلاقـة المتكافئة بين الطرفين ستؤدي -علـى الأرجح- إلى توفير معلومات تعكس واقـع حياة الطـرف المشارك لا واقع حياة الطرف القائـم بالبحث. كما دعت نسويات أخريـات إلى ضرورة إعادة تعريـف العملية البحثية بوصفها "بحثا يتـم مع" أو "بحثا يتـم من أجل" بدلا من "بحث يتم عن" شخص ما (Stanley & Wise 1983). وهكذا سعـت النسويـة إلى إعلاء قيمـة المشاركين والمشـاركات في البحث بدلا مـن اعتبارهم "موضوعـات" للبحـث. ومن نتائج هذه الجهـود لضمان المعاملـة الأخلاقية للذوات البشرية جاء تأسيس مجالـس المراجعة المؤسسية (Institutional Review Boards) والموجـودة حاليا في معظـم المنظمات البحثية، وهـي الجهة التي تقـوم بوضع المعايير الإجباريـة للقيام بالبحث، وهـي معايير عادة ما تحدد الآتـي: (1) احترام الأشخاص (بأن يتم الحصول على الموافقة بناء على معرفة الأشخاص بتفاصيل البحث، وحمايتهم من مخاطر الأذى). (2) الفائدة العامة (رفع الفائدة إلى أقصى حد وخفض المخاطر إلى أدنى حد). (3) العدل (العدالة في توزيع فوائد البحث، والمساواة في المعاملة). وبينما لا تضمـن تلك المعايير لكل الأبحاث التي تتضمن عناصر بشرية أن تكون ملتزمة بالمبادئ الأخلاقية، فإنها تقطع شوطا في دعم تلك الأهداف وتعزيزها.

إعداد المادة وتحليلها وتقييم الفرضيات

إعداد المادة للتحليل

بمجـرد جمع المادة يتطلب الأمر عادة القيام ببعض الإجراءات قبل إمكانية تحليلها، وهي إجراءات تتضمن إدخـال البيانات (data entry) أي إدخال المادة الرقمية الخام في ملفـات الكمبيوتر)، وعمل دليـل الأكواد (codebook) أي إعـداد دليل إرشادي يوثـق كافة الأسئلة والإجابات الاختيارية). وهي إجراءات روتينية تساهم في الحد من معـدلات الخطأ في المادة البحثية مع رفع كفاءة تحليـل المادة. ومن المصاعب التي تتسم بهـا مرحلة إعداد المـادة هي تكويد (coding) الأسئلة المفتوحـة وترميزها. ونظرا إلى أن الأسئلـة المفتوحة كثيرا ما تكون هي الأسئلة المفضلة بالنسبة للباحثات الاستطلاعيات النسويات، فسنتناول تكويد هذا النوع من الأسئلة بإيجاز أدناه.

إن الهـدف من وراء تكويد الأسئلـة المفتوحة هو تأويل الإجابـات وتصنيفها بحيث يمكـن إضفاء قيمة رقمية عليهـا استعدادا للتحليل الإحصائي للمـادة. والأسئلة المفتوحة ذات الاختيارات المحدودة أو التي تتطلب إجابات قصيرة ومبسطة والتي يسهل تأويلها (مثـل الحالة الوظيفية) يمكن تكويدها بطريقة مباشـرة من خلال تحديد كود رقمي لكل فئة. أما الإجابات المفتوحة الأكثر تعقيدا، كالآراء السياسية التي يتم التعبير عنها بلسان المشاركـين والمشاركات، فمن الضـروري الحرص والحذر في عمليـة التكويد. فمن ناحيـة، ونظرا إلى مدى إمكانية خضوع التأويل للجانـب الذاتي، فإن تطبيق المنظور النســوي (أو أي منظور آخر) عنـد التكويد قد يشوه المعنى المقصـود في الإجابة. ومن ناحيـة أخرى فقد ينظر إلى مثـل هذا التأويل باعتباره يستخـدم عدسة نسوية للنظر من خلالهـا إلى المادة ثم التعبير عن وجهة نظر نسوية (والتي قد تخضع للإسكات في وضع آخر). إن الجانب الجدلي الـذي يتسم به البحث الاستطلاعي النسوي يمثل قضية مهمة في البحـث النسوي، إذ تحـاول الباحثة الحفاظ على الموضوعيـة التقليدية بينما تمنح في

نفس الوقت صوتا للنساء أو لأية فئة مضطهدة أخرى. ويتم استخدام أساليب متنوعة من قبل باحثات الاستطلاع النسويات لتحقيق توازن بين تلك الأهداف. ومع ذلك لا يمكن لأي أسلوب بعينه أن يضمن حدوث تأويل دقيق للمعنى المقصود، وبالتالي تحتاج باحثات الاستطلاع النسويات (مثلهن ككل الباحثات والباحثين) إلى توخى الحذر والدقة عند تكويد الأسئلة المفتوحة.

تحليل المادة

إن التحليل الإحصائي هو أسلوب يستخدم في تلخيص وتفسير المعلومات التي يقدمها المشاركون والمشاركات في الاستطلاع (مثلا: نسبة مئوية أو متوسط قيمة شيء ما)، وهو جزء ضروري من أجزاء البحث الاستطلاعي لأن المعلومات التي يتم جمعها لا يسهل فهمها أو عرضها في شكلها الخام، ولأنها تمثل الآراء أو القناعات المتعددة والمتنوعة لدى كثير من الأفراد. فبدون التحليل الإحصائي قد يصبح تحديد معنى هذه المعلومات صعبا وخاضعا لنطاق واسع من التأويلات. كذلك فلأن الإحصائيات تسمح لنا لتحديد احتمالية أو إمكانية التوصل إلى نتائج مترتبة على المعلومات التي جمعناها، فهي تقدم لنا سبيلا للحكم على الفرضيات المتنوعة (Jayaratne 1983). فعلى سبيل المثال إذا قامت بعض النسويات بطرح استراتيجيتين مختلفتين ولكن على نفس القدر من الرجاحة لإقناع الناخبين والناخبات بدعم تشريع ما يقر بحق النساء في الاختيار، فإن التحليل الإحصائي للبيانات حول مواقف الناخبين قادر على توضيح الأسلوب الأكثر فاعلية في تحقيق هذا الهدف.

وتنتقد بعض النسويات استخدام الإحصائيات، ويرين أن تحويل التجارب الشخصية إلى قيم كمية لا يكشف بالقدر الكافي عن مدى الثراء القائم في حيوات النساء (مثلا: Marecek et al 1997; Wallston & Grady 1992)، وبالتالي يبدو على طرف النقيض من التراث النسوي. وبينما نتفق على أن استخدام الإحصائيات، كملخصات للمعلومات، يتضمن فقدانا لقدر من المعنى العميق، فإننا نرى أيضا أن مثل

هذا الاستخدام لا ينتهك أي مبادئ نسوية. كذلك، وكما سبق لنا ذكره، يمكن استخدام الإحصائيات لتدعيم الأهداف النسوية تدعيما فعالا. ونجد أن بعض الباحثات النسويات المتخصصات يؤكدن- بما يتفق مع رأينا- أن الاعتراض ليس موجها إلى الإحصائيات في حد ذاتها، وإنما إلى كيفية استخدامها داخل السياق الأوسع للأبحاث بما يحدد ما إذا كانت تنتهك المثل النسوية العليا (مثلا: Jayaratne & Stewart 1991; May-nard 1994; Peplau & Conrad 1989). وقد تم استخدام الإحصائيات بالطبع في تدعيم نظريات التمييز الجنسي أو العنصري (مثلا: Buss 1989; Herrnstein & Murray 1994)، ولكنها وثقت أيضا فوائد التمييز الإيجابي (affirmative action) وأثبتت فعاليتها في صياغة سياسات اجتماعية تقدمية (مثلا: Gurin، Dey & Hur-tado 2002). ومن هنا فإننا نعتقد أن الإحصائيات مفيدة في البحث النسوي.

ومن القضايا المهمة معرفة الأساليب الإحصائية الملائمة لإجابة سؤال بحثي معين؛ وذلك نظرا إلى أن استخدام إحصائيات غير ملائمة قد لا يؤدي إلا إلى تشويه نتائج الدراسة، بل وقد تؤدي في أسوأ الأحوال إلى نتائج على النقيض من تلك التي تعكس المادة البحثية بصورة دقيقة. ولذا فنحن نؤكد على أهمية فهم الإحصائيات حين القيام ببحث استطلاعي (أو تقييمه). وعلى الرغم من عدم قدرتنا على تفسير تلك الأساليب هنا (فهنالك مصادر مطولة سبق أن تناولت الاستخدام الملائم للإحصائيات، فإننا نود توضيح هذه النقطة من خلال مثال واحد. فلنفترض أن باحثة استطلاع نسوية أرادت توثيق ونشر مدى انتشار الفقر بين النساء في بلد ما، حيث يقل الأجر السنوي لغالبية النساء فيه عن مبلغ 1،000 دولار أمريكي سنويا، بينما توجد نسبة مئوية صغيرة من النساء يزيد أجرهن عن 50،000 دولار أمريكي سنويا. فإذا استخدمت الباحثة أو الباحث أسلوبا إحصائيا لتحديد "الوسط الحسابي" (mean value) أي القيمة المتوسطة بالنسبة للنساء كافة لوصف دخول النساء هناك، فسيبدو الأمر وكأن دخل المرأة في المتوسط يبلغ 10،000 دولار أمريكي سنويا. ولعل هذا الإحصاء سليم، ولكنه مضلل. ويوجد أسلوب إحصائي البديل وهو "الوسيط" (median) والذي يقوم على

تقسيـم توزيع دخول النساء إلى نصفين، بحيث يحتل نصـف هؤلاء النساء موقعا أعلى هـذا المستـوى، بينما يحتـل النصف الآخر موقعه أدنـاه، فقد يـؤدي إلى نتيجة مؤداها أن متوسـط أجر النساء حـوالي 1،500 دولار أمريكي سنويا. كذلـك يمكن استخدام "المنوال" (mode)، والذي يمثل معدل الدخل الأكثر شيوعا، وسيشير إلى أن الدخل السنـوي لغالبيـة النساء أقل مـن 1،000 دولار أمريكي. ويمكـن لأسلوبي الإحصاء الوسيـط والمنوال تقديم صورة أوضح كثيرا لدخول النسـاء مقارنة بالوسط الحسابي. ولكـن الطريقة الأفضل لنقل المعلومات تتمثل ببساطة في تقديم أسلوب "التوزيع النسبي المئـوي" (percent distribution) لفئات متنوعة مـن الدخل. إنه مثال يوضح قيمة التمتع -على الأقـل- بمعرفة بسيطة لعلم الإحصاء، وخاصـة في ضوء كثرة استخدام الإحصاء في البحث المتصل بالقضايا النسوية.

تقييم الفرضيات

عنـد اكتمـال التحليـل الإحصائـي، يستخـدم الباحثون والباحثـات النتائـج لتقييم الفرضيـات وتحديد ما إذا كان النتائج تدعمها. ومع ما يبدو عليه ذلك الأمر من بساطة فإنـه قلمـا يكون عمليـة مباشرة، فعلـى سبيل المثال ليـس من المستغرب علـى التحليل الإحصائي الانتهاء إلى نتائج ملتبسة، ففي بعض الأحيان تبدو حزمة من النتائج وكأنها تتناقض مع غيرها من النتائج. كما قد يحدث وأن تبدو نتائج البحث متعارضة مع المثل والمصالـح النسوية. وفي تلك الحالة قـد يكون من الجدير إعادة تقييم البحث لاستكشاف مـا إذا كانت تلك النتائج ترجع إلى خروج عن بروتوكـول أو خطة عمل البحث (مثل إساءة تأويل صيغة أحد الأسئلة). كما قد يكون من المفيد التساؤل عن السبب الذي يجعل نتيجـة ما تبـدو متعارضة مع المبادئ النسوية. وقد يؤدي ذلـك إلى أشكال أخرى بديلة لفهـم ظواهر المصالح التي لم يسبق التوقف عندهـا. وعلى الرغم من الإحباط الذي قد يصاحب عـدم وجود تقييم قاطع للفرضية، فإن الكثيريـن يجدون في دراسة الظواهر المعقدة دون وجـود إجابات محددة جزءا قيما وغنيا ضمن مسار البحث، كما أنه كثيرا

ما يولد أسئلة بحث إضافية تتطلب مزيدا من الدراسة.

وتتضمن الأسئلة التي يجب طرحها في بداية المرحلة الثانية من مسار البحث الاستطلاعي ما يلي:

- ما منهج البحث الاستطلاعي الأكثر ملاءمة للإجابة على سؤال البحث؟
- كيف يجب عليّ أن أختار من سيشاركون في الدراسة التي أقوم بها؟
- ما الأسئلة التي يجب أن أطرحها في الاستطلاع، وكيف يجب أن أصوغها؟
- كيف لي أن أضمن أن المشاركات والمشاركين في الدراسة يلقون معاملة أخلاقية؟
- ما الأسلوب الإحصائي الأفضل لاختبار فرضية البحث الذي أقوم به؟

المرحلة الثالثة من البحث الاستطلاعي: تأويل النتائج العامة وعرضها

في المرحلة الأخيرة من البحث الاستطلاعي (أي الطرف الآخر من الكتاب) يتم تأويل النتائج وعرضها. ونحن نعتبر المنظور النسوي قابلا جدا للتطبيق وضروريا في هذه المرحلة، لأنها تمثل النقطة التي يتم فيها تطبيق البحث على العالم الواقعي ويمكن استخدامه لتحسين حيوات النساء.

تأويل النتائج من منظور نسوي

إن الكيفية التي يؤول بها الباحث أو الباحثة النتائج العامة تمثل ذروة الجهد البحثي، بمعنى أنها تجيب على سؤال البحث الذي تم طرحه ضمن الخطوات الأولى لمسار البحث. ولكن بالنسبة لنسويات فإن الإجابة على سؤال البحث عادة ما تحمل أيضا معنى نسويا. فبخلاف تقييم الفرضيات باستخدام معلومات إحصائية (وهي عملية تتتبع ممارسات البحث الاستطلاعي المألوفة) يجب أن يخضع تأويل النتائج العامة للبحث من

منظــور نسوي. ولتوضيح المغزى المهم لتلك المسألــة، فلنفترض أن الباحثة أو الباحث قامــا بدراسة تستكشف الاختلافات بــين النساء الأمريكيات والرجــال الأمريكيين من حيــث القدرة الحسابيــة والرياضية، فأشــارت النتائج العامة للدراســة إلى أن الرجال يــؤدون أداء أفضل من النساء. وسنجد تأويلات كثيرة جدا لمعنى ذلك الأمر. فقد يرى المرء تلــك النتيجة كمؤشر يدعــم "الفرضية المنقوصــة" (deficit hypothesis)، أي إن النســاء بطبيعتهن أدنى مرتبة من الرجــال - وهي فكرة كثيرا ما تتردد في الأبحاث النفسيــة والاجتماعيــة المبكرة (وأحيانــا الحالية)، وتتعرض لكثير مــن النقد على أيدي الباحثــات النسويات (Eichler 1988; Jayaratne & Kaczala 1983). ومن جانب آخــر، يمكن للمرء تأويل هــذا الاختلاف باعتباره يعبر عن آثــار الصور النمطية على أساس النوع في تأثيرها على أداء النساء في الرياضيات (بما يزيد من معدل قلق الأداء وتوتره)، ويعبر أيضا عن النظام التعليمي الذي يضع قيودا على فرص النساء التعليمية في مجــال الرياضيات، أو كيف يقوم الآباء والأمهــات بتشجيع التفوق في الرياضيات لدى أبنائهم أكثر من بناتهم. وتشير كل التأويلات السابقة إلى الحاجة إلى إحداث تغيير اجتماعــي (تحســين الأوضاع التي تدعم وتعــزز أداء النســاء في الرياضيات) بدلا من قبول تراجع مستوى النساء في هذا المجال. كما تشير أيضا إلى وجود بعض الإمكانيات لإحــداث هذا التغيــير والذي من المرجح أكثر أن يتم بأيــدي النسويات لا ممن يفتقدون إلى الوعــي بما تتعرض له النســاء من قهر، أو ممن لا يدعمون الأهداف النسوية. كما تجدر الإشارة إلى أن الأبحاث الجيدة عموما كثيرا ما تطرح أيضا أفكارا جديدة وأسئلة بحثية جديدة بدلا من مجرد الإجابة على الأسئلة المطروحة فيها. وباختصار فإن المعاني النسوية التي نضفيها على نتائج أبحاثنا هي التي تجعل الجهد البحث مشروعا نسويا مميزا بما يعمل على تحسين حيوات النساء.

نشر نتائج البحث

ويمكن للخطوة الأخيرة في مسار البحث بأكمله أن تصبح جزءا يحقق قدرا بالغا من الرضا في رحلة البحث، لأنها خطوة تتعلق بالهدف الأساسي للبحث النسوي، ألا وهو

تحقيـق التغيير الاجتماعي لصالح النساء على أرض الواقع. إنها الخطوة الخاصة بنشر النتائـج والتي تشـير إلى عرض النتائج على الباحثـات والباحثين المتخصصين، وعلى الرأي العام ووسائل الإعلام وصانعي السياسات العامة، وذلك عن طريق إعادة ربط النتائـج بحيوات النساء، مع توفر فهـم لكيفية إفادة النساء بها. ومـن هذا المنطلق يقوم البحث بدور العامل المحفز للتغيير الاجتماعي. فكما سبق أن أكدنا، البحث الاستطلاعي النسوي يصلح تحديدا لتدعيم أوضاع النساء لأنه يستخدم عددا من مناهج البحث السائدة التـي مـن المرجح أن تلقى قبولا لـدى الأفراد الذين قد يتشككـون في النتائج المشتقة من مناهج أخرى بديلة.

ومـن الأمثلـة الممتازة علـى كيفية قابليـة البحـث الاستطلاعي للتطبيـق في التغيير الاجتماعـي لصالـح النساء على أرض الواقـع ما نجده في أحكام القضـاء العالي بشأن التمييـز الإيجابي في جامعـة ميشيجان. ففي عام 2003 قامت الجمعيـة الأمريكية لعلم النفس بتقـدم مذكرة إلى القضاء العالي داعمة سياسة جامعة ميشيجان في قبول الطلاب والطالبـات مع أخذ الأصل والنوع في الاعتبار عنـد القبول في مستوى التعليم العالي. وقـد قامـت الجمعية بتقديم مذكـرة بشأن قضيتـين مرفوعتين في المحكمـة (Gratz v. Bollinger 2003; Grutter v. Bollinger 2003). وقـد استنـدت المذكرة استنادا كبـيرا إلى البحث الاستطلاعـي لباحثة علم النفـس الاجتماعي باتريشـا جورين حول فوائـد التعددية والتنوع في الحيـاة الأكاديمية (والتي ترد موجزة في كتاب: Gurin et al. 2002). وقد جاء قرار المحكمة بإقرار مبدأ وضع الأصل والنوع في الاعتبار في سياسات القبول بالجامعات ليقدم مجرد مثال واحد يوضح كيف يمكن لنتائج بحث ما أن تصبح جزءا مهمًا ضمن جهود تغيير السياسات العامة.

وتتضمـن الأسئلـة التـي يتعـين طرحهـا خلال المرحلـة الثالثـة من مسـار البحث الاستطلاعي ما يلي:

- كيف أقوم بتأويل النتائج بطريقة يمكن استخدامها لتدعيم الأهداف النسوية؟
- كيف أقوم بنشر نتائج البحث لتصير تلك الأهداف حقيقة واقعة؟

الخاتمة

يتضمـن البحث النسـوي عديدا من المناهج، التي يمكن لكل منهـا سواء فرديا أو مع غيرهـا إحداث أثر على جهود التغيير الاجتماعـي من أجل تحسين حيوات النساء. وقد ركزنـا في هذا الفصل على منهج البحث الاستطلاعي والدور المهم الذي يمكنه أن يلعبه في هذا الصدد. ونأمل أن يقدم هذا الفصل من الكتاب للباحثات النسويات الناشئات فهما للكيفيـة التي يمكن لهذا المنهج أن يقدم بها أداة قوية في جهودهن لصالح النساء وغيرهن مـن الفئات المهمشة اجتماعيا. كما نتمنى أن نكـون قد أكدنا –بالقدر الكافي– على أهمية الالتفـات إلى تلك الجوانب من مسار البحث الاستطلاعي القادرة على توفير معلومات يمكنهـا أن تقف راسخة في مواجهة ما يوجه إليهـا من نقد. إن مثل هذه الأبحاث قادرة علـى الدفع قدما بالأهـداف النسوية. وبالطبع يوجد عدد لا نهائـي من القضايا النسوية التـي تحتاج إلى الدراسة الفاحصـة، وكثير منها يمكن تناوله بفاعليـة باستخدام مناهج البحـث الاستطلاعي أو غيرها من مناهج البحث المذكورة في هـذا الكتاب. وإننا نتمتع جميعا بإمكانيات المساهمة في الجهود البحثية نحو إفادة النساء أو غيرهن من مجموعات الأفـراد الذين يعانون من أضرار النظام الاجتماعي القائم حاليا. ومن منطلق الانتماء إلى المجتمع النسوي فإننا ندعوك إلى الانضمام إلينا في هذا المسعى.

الهوامش

1– علـى الرغم مـن أن هذا الفصل يقدم لـك مقدمة عامة للبحث الاستطلاعـي، فإننا نقترح في حال اهتمامـك باستخدام تلك المناهج أو التعرف على المزيد عنها بالرجوع إلى عدد من المصادر الممتازة بما تحمله من معلومـات إضافية: (مثلا: Alreck & Settle 1995; Czaja & Blair 1996; Dillman 1978، 2000; Groves 1989; Groves et al. 2004; Tourangeau، Rips & Rasinski 2000).

المراجع

Alreck, P. L., & Settle, R. B. (1995). *The survey research handbook: Guidelines and strategies for conducting a survey*. Burr Ridge, IL: Irwin.

Bianchi, S. M., Milkie, M. A., & Sayer, L. C. (2000). Is anyone doing the housework? Trends in the gender division of household labor. *Social Forces, 79,* 191–228.

Biemer, P. P., & Lyberg, L. E. (2003). *Introduction to survey quality*. Hoboken, NJ: Wiley.

Buss, D. M. (1989). Sex differences in human mate preferences: Evolutionary hypotheses tested in 37 cultures. *Behavioral and Brain Sciences, 12,* 1–49.

Campbell, P. B. (1982). Racism and sexism in research. In H. Mitzel (Ed.), *Encyclopedia of educational research* (5th ed., pp. 1515–1520). New York: Free Press.

Condor, S. (1986). Sex role beliefs and "traditional" women: Feminist and intergroup perspectives. In S. Wilkinson (Ed.), *Feminist social psychology: Developing theory and practice* (pp. 97–118). Philadelphia: Open University Press.

Converse, J. (1987). *Survey research in the United States*. Berkeley: University of California Press.

Croll, J. K., Neumark-Sztainer, D., & Story, M. (2002). Prevalence and risk and protective factors related to disordered eating behaviors among adolescents: Relationship to gender and ethnicity. *Journal of Adolescent Health, 31,* 166–175.

Czaja, R., & Blair, J. (1996). *Designing surveys: A guide to decisions and procedures*. Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.

Dillman, D. A. (1978). *Mail and telephone surveys: The total design method*. New York: Wiley-Interscience.

Dillman, D. A. (2000). *Mail and Internet surveys: The tailored design method*. New York: Wiley.

Du Bois, B. (1983). Passionate scholarship: Notes on values, knowing and method in feminist social science. In G. Bowles & R. Duelli Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 105–116). Boston: Routledge & Kegan Paul.

Eichler, M. (1988). *Nonsexist research methods: A practical guide*. New York: Routledge.

Fee, E. (1983). Women's nature and scientific objectivity. In M. Lowe & R. Hubbard (Eds.), *Woman's nature: Rationalizations of inequality* (pp. 9–27). New York: Pergamon Press.

Fowler, F. J. (1984). *Survey research methods*. Beverly Hills, CA: Sage.

Gorelick, S. (1996). Contradictions of feminist methodology. In H. Gottfried (Ed.), *Feminism and social change: Bridging theory and practice* (pp. 23–45). Urbana: University of Illinois Press.

Gratz v. Bollinger, 539 U.S. 244 (2003).

Groves, R. (1989). *Survey errors and survey costs*. New York: Wiley.

Groves, R., Fowler, F. J., Couper, M. P., Lepkowski, J. M., Singer, E., & Tourangeau, R. (2004). *Survey methodology*. Hoboken, NJ: Wiley.

Groves, R., & Kahn, R. (1979). *Surveys by telephone: A national comparison with personal interviews*. New York: Academic Press.

Grutter v. Bollinger, 539 U.S. 306 (2003).

Gurin, P., Dey, E. L., & Hurtado, S. (2002). Diversity and higher education: Theory and impact on educational outcomes. *Harvard Educational Review, 72*, 330–366.

Haraway, D. (1988). Situated knowledges: The science question in feminism and the privilege of partial perspective. *Feminist Studies, 14*, 575–599.

Harding, S. (1987). Introduction. Is there a feminist method? In S. Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 1–14). Bloomington: Indiana University Press.

Harding, S. (1998). *Is science multicultural? Postcolonialisms, feminisms, and epistemologies*. Bloomington: Indiana University Press.

Harding, S. (2004). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In S. N. Hesse-Biber and M. L. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 39–64). New York: Oxford University Press.

Herrnstein, R. J., & Murray, C. (1994). *The bell curve: Intelligence and class structure in American life*. New York: Simon & Schuster.

Hesse-Biber, S. N., Leavy, P., and Yaiser, M. L. (2004). Feminist approaches to research as a process: Reconceptualizing epistemology, methodology, and method. In S. N. Hesse-Biber and M. L. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 3–26). New York: Oxford University Press.

Jayaratne, T. E. (1983). The value of quantitative methodology for feminist research. In G. Bowles & R. Duelli Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 140–161). Boston: Routledge & Kegan Paul.

Jayaratne, T. E., & Kaczala, C. M. (1983). Social responsibility in sex difference research. *Journal of Educational Equity and Leadership, 3*, 305–316.

Jayaratne, T. E., & Stewart, A. J. (1991). Quantitative and qualitative methods in the social sciences: Current feminist issues and practical strategies. In M. M. Fonow & J. A. Cook (Eds.), *Beyond methodology: Feminist scholarship as lived research* (pp. 85–106). Bloomington: Indiana University Press.

Jayaratne, T. E., Thomas, N. G., & Trautmann, M. T. (2003). An intervention program to keep girls in the science pipeline: Outcome differences by ethnic status. *Journal of Research in Science Teaching, 40,* 393–414.

Jones, J. (1981). *Bad blood: The Tuskegee syphilis experiment.* New York: Free Press.

Kelly, A. (1978). Feminism and research. *Women's Studies International Quarterly, 1,* 225–232.

Koss, M. P., Gidycz, C. A., & Wisniewski, N. (1987). The scope of rape: Incidence and prevalence of sexual aggression and victimization in a national sample of higher education students. *Journal of Consulting and Clinical Psychology, 55,* 162–170.

Landrine, H., Klonoff, E. A., & Brown-Collins, A. (1992). Cultural diversity and methodology in feminist psychology. *Psychology of Women Quarterly, 16,* 145–163.

Marecek, J., Fine, M., & Kidder, L. (1997). Working between worlds: Qualitative methods and social psychology. *Journal of Social Issues, 53,* 631–644.

Maynard, M. (1994). Methods, practice and epistemology: The debate about feminism and research. In M. Maynard & J. Purvis (Eds.), *Researching women's lives from a feminist perspective* (pp. 10–26). Bristol, PA: Taylor & Francis.

Milgram, S. (1974). *Obedience to authority.* New York: Harper & Row.

National Committee on Pay Equity. (2005). Retrieved December 7, 2005, from www.pay-equity.org/

Peplau, L. A., & Conrad, E. (1989). Beyond nonsexist research: The perils of feminist methods in psychology. *Psychology on Women Quarterly, 13,* 379–400.

Pew Research Center. (2004). *Polls face growing resistance, but still representative survey experiment shows.* Retrieved April 14, 2005, from http://people-press.org/reports

Quina, K., Rose, J. S., Harlow, L. L., Morokoff, P. J., Deiter, P. J., Whitmire, L. E., et al. (1999). Focusing on participants: Feminist process model for survey modification. *Psychology of Women Quarterly, 23,* 459–493.

Reinharz, S. (1979). *On becoming a social scientist.* San Francisco: Jossey-Bass.

Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research.* New York: Oxford University Press.

Riessman, C. K. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender & Society, 1,* 172–207.

Rogers, T. F. (1971). Interviews by telephone and in person: Quality of responses and field performance. In E. Singer & S. Presser (Eds.), *Survey research methods: Scheduling telephone interviews.* Chicago: University of Chicago Press.

Schwarz, N., Groves, R. M., & Schuman, H. (1998). Survey methods. In D. T. Gilbert, S. T. Fiske, & G. Lindzey (Eds.), *The handbook of social psychology* (Vol. 1, pp. 143–179). New York: McGraw-Hill.

Sherif, C. W. (1979). Bias in psychology. In J. Sherman & E. T. Back (Eds.), *The prism of sex: Essays in the sociology of knowledge* (pp. 93–133). Madison: University of Wisconsin Press.

Smith, C. A., & Frieze, I. H. (2003). Examining rape empathy from the perspective of the victim and the assailant. *Journal of Applied Social Psychology, 33,* 476–498.

Smith, D. E. (1987). *The everyday world as problematic: A sociology for women.* Boston: Northeastern University Press.

Smith, M. D. (1994). Enhancing the quality of survey data on violence against women: A feminist approach. *Gender & Society, 8,* 109–127.

Spalter-Roth, R., & Hartmann, H. (1996). Small happinesses: The feminist struggle to integrate social research and social activism. In H. Gottfried (Ed.), *Feminism and social change: Bridging theory and practice* (pp. 206–224). Urbana: University of Illinois Press.

Stangor, C. (2004). *Research methods for the behavioral sciences.* Boston: Houghton Mifflin.

Stanley, L., & Wise, S. (1983). *Breaking out: Feminist consciousness and feminist research.* London: Routledge & Kegan Paul.

Stewart, A. J., & Dottolo, A. L. (2005). Socialization to the academy: Coping with competing social identities. In G. Downey, J. Eccles, & C. Chatman (Eds.), *Navigating the future: Social identity, coping and life tasks* (pp.167–187). New York: Russell Sage.

Tourangeau, R., Rips, L., & Rasinski, K. (2000). *The psychology of survey response.* Cambridge, UK: Cambridge University Press.

U.S. Census Bureau. (1989). *A century of population growth, from the first census of the United States to the twelfth, 1790–1900.* Baltimore: Genealogical Publishing.

U.S. Census Bureau. (2005). *Census 2000 demographic profile highlights.* Retrieved December 8, 2005, from http://factfinder.census.gov/servlet/SAFFFacts?_sse=on

Wallston, B. S., & Grady, K. E. (1992). Integrating the feminist critique and the crisis in social psychology: Another look at research methods. In J. S. Bohan (Ed.), *Seldom seen, rarely heard: Women's place in psychology* (pp. 307–336). Boulder, CO: Westview Press.

Wood, K. C., Becker, J. A., & Thompson, J. K. (1996). Body image dissatisfaction in preadolescent children. *Journal of Applied Developmental Psychology, 17,* 85–100.

الباب الثالث

البحث النسوي
في
الممارسة والتطبيق

الفصل الحادي عشر

التجميع والتركيب
ممارسة البحث النسوي وتطبيقه *

شارلين ناجي هيسي-بايبر

إن القاعدة الأساسية التـي يقوم عليها هذا الكتاب بأكمله تتمثل في تقديم تجربة عملية مباشـرة في القيام بالبحث من منظور نسوي. وقـد تناولنا أنا وشريكاتي وشركائي في تأليـف هذا الكتاب نطاقا مـن المناهج التي تستخدمها النسويـات في مشاريعهن البحثية، مـن البحث الاستطلاعي، والإثنوجرافيا، والمقابلات الشخصية المتعمقة، والمجموعات النقاشية، والتاريخ الشفاهي، وحتى البحث القائم على مزج المناهج. وأتركك مع مثال على تجميع أفكار البحث ووضعها قيد الممارسة، كما أقدم لك مثالا يوضح نشأة وتحليل مشروع البحث النسوي. وبينما لا يمكنني أن أتناول في هذا الفصل الأخير كافة المناهج التـي تعلمناها، فإننـى سأختار منهجا واحدا وأتتبعه بداية مـن أسئلة البحث الخاصة بك وانتهـاء بكيفية بدء تفكيرك في تحليل مادتك البحثية. كما سأتناول بعض القضايا العامة التـي قد تواجهك عند تأويل نتائج بحثك وكتابتها. وأخـيرا فسوف أقدم لك قائمة عامة بالأشياء التي يجب عليك التفكير فيها بمجرد اكتمال بحثك.

(*) يتم نشر أجزاء من هذا الفصل بموافقة من :
Hesse-Biber and Leavy 2006, The Practice of Qualitative Interiewing, Sage Publications, Inc.

وضع الأمر قيد الممارسة: القيام بمشروع بحثي

إعداد الساحة لمشروع البحث

إن المقاطـع التاليـة هـي أصـوات طالبات جامعيـات تم عقد مقابـلات معهن حول تصورهن عـن أجسادهن خلال السنة الأولى من دراستهـن بالجامعة، وتحديدا بشأن مشاعرهـن عن "15 رطلا السنـة الأولى" (Freshman 15) التي تشير إلى ما يتكرر ذكره لـدى النساء عن زيـادة أوزانهن 15 رطـلا خلال السنة الأولى مـن دراستهن الجامعية. وقبل التوقف أمام مسار البحث فلننصت إلى بعض تعليقاتهن:

بـام: أذكر عندمـا كنت في السنة الأولى أني بدأت الدراسـة وزاد وزني بذلك المعدل، وعندما عدت إلى البيـت لقضاء إجازة عيد الميلاد أذكر أن والدي أشار إلى أنني قـد ازددت سمنة وخاصة في مؤخرتي. وأعتقد أنـه كان من الأسباب الرئيسية التي جعلتني عند عودتي أبدأ بشدة في إنقاص وزني.

إميلـي: لقـد ازداد وزني بسرعة، فحين عدت إلى البيت لقضـاء إجازة عيد الميلاد كان وزني قد زاد 15 رطلا!

وهل لاحظ أحد تلك الزيادة؟

إميلي: نعم، أسرتي بأكملها.

وماذا حدث بعد ذلك؟

إميلـي: بعدها عدت من إجازة الفصل الدراسي، ولاحظت أن صديقاتي اللاتي التحقن بالدراسـة لم تزدد أوزانهـن. وقد لاحظ ذلك والداي وأخـواي. وهكذا عندما عـدت توقفت عن تناول أي طعام بـين الوجبات ونادرا ما كنـت أتناول طعام

الإفطـار. أخذت أركض مسافة ميلين كل يوم. . . . فقد أردت إنقاص وزني. ولتجنـب تناول الطعام ليلا كنت أذهب إلى المكتبة للمذاكرة هناك. هذا ما فعلته. المذاكرة في المكتبة، تعني أني لا أجلس في حجرتي. وعندما كنت أعود كنت أقول إن عليّ الذهاب للنوم لأني مريضة، وهكذا كنت أقصد الذهاب إلى النوم مبكرا.

جـودي: تعلمين، الوقت الذي كنـت آكل فيه أكثر من حاجتي كانـت السنة الأولى من دراستـي بالجامعة. وهي أكبر كميـة أكلتها في حياتي كلهـا. ولم أكن أستفرغها قط. لم أكن أعرف كيفية القيام بذلك. وقد كنت أقوم بذلك بشكل يمكنك اعتباره سريا نوعـا ما. فزميلتي في السكن، تعملين، كانـت نحيفة وعلى ما يرام وكان في إمكانهـا أن تـأكل ما تشتهيه. ولم تكـن تأكل أكثر من حاجتهـا. فكانت تأكل همبورجـر وبطاطـس في وجبة الغـداء. ولكنها ما كانت لتخـرج وتتناول آيس كريم وغيره زيادة على الوجبة. لقد كان هذه طبيعة الأيض عندها. وتأتي السنة الأولى ومعها النقاط والدكان والكعك والحلوى. ولم تكن والدتي تشتري لي كل ذلـك، وهو أمـر عظيم. فلم يكن أي من هذه الأطعمـة السريعة متاحا لنا. ومن آن لآخـر كانت والدتي تشتريه فنلتهمه سريعا، وقـد كان الآيس كريم متاحا لنا بكثرة، فلم أكن ألتهمه بنهم. لم أكن أحتاج إليه. وعندما ذهبت إلى الجامعة كنت أشتري الكعك والحلوى، وفي غيابها كنت آكلها كلها. كنت آكل وحدي.

مشروع البحث

ما التجربة التي تعيشها طالبات السنة الأولى في الجامعة بشأن تصوراتهن عن صور أجسادهن في الجامعة؟

إن هـدفي من هذا المشـروع ذو طبيعة استكشافيـة. فأنا مهتمة بفهـم المسائل المتعلقة بصـورة الجسد التي قد تعايشها طالبات السنـة الأولى من المرحلة الجامعية. وقد قرأت

بعض الأدبيات التي تتناول هذا الموضوع ، ولكنـي أود تعميق فهمي للتجارب الذاتية النسائيـة. ولدى بعض العناصر العامة التي أهتـم بها تحديدا ، مثل ما إذا كانت طالبات السنة الأولى في الجامعـة يعايشن ما درج على تسميته "15 رطلا السنة الأولى" والتي تشـير إلى الزيـادة بمقدار 15 رطلا من الـوزن التي يقال إن الكثـيرات من الطالبات يتعرضن لها خلال السنة الأولى من المرحلة الجامعية.

قررت القيـام باختيار عينة ملائمـة (convenience sample) من طالبات السنة الأولى في الجامعة التي أعمل فيها أستاذة. وسأقوم بدعوة الطالبات للمشاركة في البحث مـن خلال وضع إعلانات في مختلف أنحـاء الحرم الجامعي ، بما في ذلك مركز النساء المحلي. وأود الحصول على عينة عمدية ملائمة (purposive convenience sam-ple) ، مـن طالبات السنة الأولى من خلفيـات متنوعة ، إذ أني مهتمة بتمثيل عادل على أساس الأصـل والخلفية العرقية والطبقة الاجتماعية بقدر المستطاع . وأنا حريصة على الحصول على 25 مقابلة شخصيـة للوصول إلى نتائج تتعلق ببعض الاختلافات القائمة بـين النساء على أساس الأصل والعـرق والوضع الطبقي كلما أمكن ذلك. وقد حصلت علـى موافقة للقيام بهـذا البحث من مجلس المراجعة المؤسسيـة (IRB: institutional review board) ، في جامعتـي من خلال الالتـزام باتباع بعض الخطوات البسيطة. فبعـد كتابة مشروع بحث يتبـع إرشادات هـذا المجلس ، وبعد وضع عـدد من الأسئلة المفتوحة التي أنوي طرحها على المستجيبات ، يكون عليّ تقديم تلك الأوراق إلى المجلس مصحوبة باستمارة الموافقة المفصلة (detailed consent form) التي تحمل موافقاتهن علـى المقابلات ، إذ يجب أن تكون استمارة الموافقـة موقعة من المستجيبات ومتفقا عليها قبل بدء المقابلات الشخصية.

وقـد اخترت أن أبدأ كل مقابلة بعدد من الأسئلـة العامة المفتوحة بهدف التوصل إلى فهـم أعمق لحيـوات طالبات السنـة الأولى. وسأقوم فيها باتبـاع الإرشادات الخاصة بالمقابلات التي تم تناولهـا في الفصل الخاص بالمقابلات المتعمقة. وأنا مدركة إلى كوني

أحتل موقعا "من الخارج" وكذلك "من الداخل" في مجتمع جامعتي. فباعتباري أستاذة بيضاء من الطبقة الوسطى، أقوم بعقد مقابلات مع طالبات في جامعتي بما يحمله ذلك من علاقات قوى ضمنية في علاقتي بهن. وفي مقابلاتي مع الطالبات الملونات سيتعين الأخذ في الاعتبار الاختلافات القائمة على أساس انتمائي العرقي وربما وضعي الطبقي. ومن المهم بالنسبة لي في هذه المرحلة أن أسجل ملاحظاتي في "مذكرة البحث" (research memo) بشأن تلك الاختلافات ومدى إمكانية تأثيرها على موقف البحث. فكيف تصطدم اختلافاتي الفريدة مع الطرف الذي أقوم بعقد مقابلة معه؟ وما التحيزات التي أحملها معي إلى موقف البحث؟

وأقوم بجمع مادة بحثي باستخدام جهاز تسجيل رقمي وبموافقة من المستجيبة. وأنا حريصة في نهاية كل مقابلة على سؤال كل مستجيبة ما إذا كان هناك ما تود الحديث عنه ولم نتطرق إليه في المقابلة. كما أنني واعية بالمادة القيمة التي قد تظهر بعد انتهائي من التسجيل ومواصلة الحديث مع المستجيبة، فأحاول بمجرد انتهاء المقابلة أن أتذكر بأكبر قدر من الدقة ما ورد في الحديث بعد الانتهاء من التسجيل. كما أني حريصة على اتباع ما تعلمته بشأن أهمية خلق تواصل مع المستجيبة والحرص على حسن الإنصات إلى كل ما تقوله لي، مع الأخذ في الاعتبار لغة الصمت التي يتضمنها الحوار.

وأقوم بعد كل مقابلة بالغوص في المادة التي جمعتها من خلال إعادة الإنصات إلى التسجيل، ومع بداية قيامي بتدوين المقابلة كتابيا (transcribe) أشرع في تحليل مادة بحثي وتأويلها، أي إنني أدون الأفكار التي تخطر على ذهني (تدوين الملاحظات)، وتحديد الأفكار التي أجدها ذات أهمية خاصة. وبعد القيام بعدد من المقابلات أبدأ في البحث تحديدا عن خطوط وأنماط السلوك المشتركة التي تعايش بها المستجيبات أجسادهن داخل إطار ثقافة المجتمع الجامعي (college culture). وأحرص تحديدا على كتابة أفكاري في صورة مذكرات ملحقة بمادة البحث (data memos).

تحليل المادة*

إن المدخـل الأساسي لتحليل المادة هو البحـث عن المعاني الكامنة داخل مادة البحث. وتدوين الملاحظـات (memoing) والتكويد (coding) سبيـلان مهمان للتوصل إلى تلـك الرسائل والمعنى. وأقدم في الجـدول التالي مقطعا من إحدى مقابلاتي مع طالبات السنة الأولى بخصوص أنماط التغذية وعادات تناول الطعام غير المنتظمة.

تكويد مقابلة شخصية: مقطع من مقابلة مع بام، طالبة السنة الأولى بالجامعة

(النص/المقطع/الجزء)		الكود
كنت أريد دائما أن أكون الأنحف، الأجمل،	←	الأنحف، الأجمل
كنت أريد أن أبدو كالفتيات في المجلات،	←	أبدو كفتيات المجلات.
وسيكون لي عدد كبير من الأولاد الذين أواعدهم،	←	سيحبني الأولاد.
وسيحبونني ويعشقونني،	←	صورة إيجابية عن الجسد.
ولن أضطر إلى العمل،	←	يوفر إمكانيات اقتصادية
وسأجد من يعتني بي	←	منطق النحافة.
حتى آخر العمر.	←	النحافة كسبيل لتأمين المستقبل.
	←	الإعلام يخلق المعايير.

* تم اقتباس أجزاء من هذه النقطة، وتعديلها كليًا أو جزئيا، من المصدر التالى:
Hesse-Biber, Sharlene Nagy, and Leavy, Patricia, "Analysis, Interpretation, and the Writing of Qualitative Data" in Sharlene Nagy Hesse-Biber and Patricia Leavy (eds.) , *Approaches to Qualitative Research: A Reader on Theory and Practice,* New York: Oxford University Press, 2004, pp. 409-425.

وكمـا يتضح في هـذا المقطع، لقد قمـت بوضع "أكواد" للسطـور الأولي من إحدى المقابـلات باستخـدام الأكواد "الحرفيـة" التي تستخـدم المفردات الـواردة على لسان المستجيبة. وهي تصنيفات توصيفية. فإذا تتبعنا القائمة سنرى أن الأكواد تصبح "تحليلية" أكـثر، وعبارة صورة إيجابية عن الجسد هي مثال ممتـاز على ذلك التحول. فلا يرد هـذا مباشـرة على لسان المستجيبة في أي مكان من المقابلـة ولكن الباحثة هنا قادرة على توليـد كود نظري "صورة الجسد" بناء على كلام المستجيبة. وهو يبدو متناسبا مع قول المستجيبة "سيكون لي عدد كبير من الأولاد الذي أواعدهم، وسيحبونني ويعشقونني". وكلما واصلنا تتبع القائمة كلما أصبحت الأكواد "تأويلية" بشكل متزايد.

يجـب علينا أن نتذكر أن صياغة "الكود" تعني أخـذ جزء من النص ومنحه "اسما" أو أحيانا رقما ما. وتوجد أنواع عديدة لوضع أكواد لنص ما. وقد بدأت بوضع بعض الأكـواد "الحرفية" ثم سرعان ما انتقلـت إلى صياغة أكواد "مركزة". وتستخدم عالمة الاجتمـاع كاثي تشارمـاز (Kathy Charmaz 1995) مصطلح التكويد المركز (fo- cused coding)، وترى أن يتأمل الباحثون والباحثات كل المادة التي قاموا بتكويدها في المقابلة. وفي المثال الذي بين أيدينا، ستتوقف الباحثة أمام "صورة إيجابية عن الجسد" وتتأمل كل مقطع من النص مرتبط بهذا الكود في كل المقابلات. ثم تقوم الباحثة بمقارنة كل مقطـع بغيره للوصول إلى فكرة محـددة بدقة لما يعنيه مفهوم الصورة الإيجابية عن الجسد (Chamraz 1983، p. 117).

هـذا ويختلف التكويد المركز عن التكويـد "الحرفي" في عدم قيامك بإضفاء "عنوان" (label) على أمر ما لوصفه، وإنما يكون البحث عن توصيف للكود يسمح بخلق فهم أو تأويل لما تقوله المستجيبات عـن صورة أجسادهن. والقيام بالتكويد المركز يعني ترتيب الأكواد الحرفيـة ووضعها في تصنيفات أكثر تجريدا، وهي عملية تعديل في التصنيفات تنتقـل بالتحليل من المستوى الحـرفي إلى مستوى أكثر تجريدا. وهو منهج مهم في توليد الأفكار النظرية.

وقـد يبدأ العمل في هذا المسار بعد تكويد عدد مـن المقابلات مع طالبات السنة الأولى واسترجاع بعض النصوص المتصلة بأكواد معينة. ولنرجع في ذلك إلى الجدول الوارد أعلاه. فلنفترض أني قد استرجعت كل النصوص المتصلة بكود "نحيفة"، فحين أقرأ كل مقاطع النصوص المتصلة بهذا الكود أستطيع أن أرى أن المستجيبات يتحدثن في الواقع عـن النحافة بطرق متباينـة. فعلى سبيل المثال، وفي النص الـوارد أعلاه، ذكرت في نهايـة المقطع عبارة "النحافـة كسبيل لتأمين المستقبل" و"الإعـلام يخلق المعايير". عن "النحافـة كسبيل لتأمين المستقبـل" تحتوي ما تعبر عنه المستجيبة بقولها إنها تريد صديقا وحبـا ومـالا ورعاية، ولكنـه تعريف يختلف عـن "الإعلام يخلق معايـير النحافة". فلـكل فكرة عن النحافـة صوتها وتصورهـا، وسرعان ما وجـدت أن هناك مقابلات أخـرى تكشف عن نطاق من الأسبـاب وراء رغبة المستجيبـات في النحافة. فقد رأت بعضهـن أن "النحافة مصدر الصحة" بينما رأت أخريات أن "النحافة مصدر تمكين"، واستمرت الأسباب تتكشف من خلال المقابلات. وقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى قيام تصنيـف كودي أشمل أسميته "منطق النحافـة" الذي أصبح كود "النحافة كسبيل لتأمين المستقبـل" مجرد فئة جزئية. أما التصنيف الثـاني الأشمل وهو "الإعلام يخلق معايير السلـوك فقـد تطور بصورة شبيهة لما سبـق. وهكذا قمت في نهاية الأمـر بسلسلة كاملة مـن الأكواد التي عدلتها، ثم تحولـت إلى أكواد أكثر تجريدا. فعلـى سبيل المثال، فيما يتعلـق بالصورة الإيجابية عن الجسـد لدى طالبات السنـة الأولى، يمكننا أن نرى أن كود "الملابس المصنوعة للنحيفات" تطور ليصير تصنيفا كوديا هو "الملابس التي تناسب حجمنـا"، ثم تحول ذلـك الكود التصنيفي ليصبـح جزءا من كود أشمـل وهو "مراقبة الجسـد"، والذي يمثل فكرة قيام النساء على الدوام بمراقبة ومتابعة أجسادهن. ويمكن لـه أن يتضمن متابعة ما إذا كانـت ملابسهن تناسب أجسادهن، وملاحظة صورهن في المرايـا، والوقوف على الميـزان أكثر من مرة خلال اليوم الواحـد، بل وحتى مقارنة أجسادهـن بأجسـاد عارضات الأزياء في الإعـلام. إن هذا المثال يوضـح لنا كيف أن الأكـواد المبدئية تصبح جزءا من التصنيف الفكـري الأشمل الذي يتضمن أهمية المراقبة

كآلية "سيطرة وتحكم" تستخدم لتوجيه أجساد النساء صوب نموذج مثالي للنحافة ينطلق مــن الذات ومن المجتمع. يمكنك رؤية كيف ننتقل بالتحليل من المستوى الحرفي إلى فهم أكـثر تجريدا وتنظـيرا لهموم النساء بشأن صورة الجسد، كمـا أننا نبدأ في معرفة ما قد يمثـل بعض العوامل التي تساعدنا على فهم حاجتهـم إلى النحافة. وقد نبدأ حينها النظر إلى الاختلافـات القائمة بين المشاركات في العينـة من حيث ما إذا كانت النساء مختلفات فيما بينهن حول تلك المسائل من حيث الأصل والعرق وإن أمكن الطبقة.

تغير الأكواد المبدئية في دراسة صورة الجسد

من	إلى
ملابس مصنوعة للنحيفات	ملابس مناسبة حجما
نظام تخسيس محدود	التحكم في الجسد والأكل
المجلات	الإعلام يخلق المعايير
الرغبة في أن أكون دوما نحيفة	تؤمن بقيمة النحافة
1. النحافة كسبيل لتأمين المستقبل	الأربع نقاط مصنفة:
2. النحافة والصحة.	
3. النحافة جزء من الهوية	"منطق النحافة"
4. النحافة/الجمال مصدر تمكين	

المصــدر: (Hesse-Biber and Leavy، 2004، p. 412. Reprinted with permission of Oxford Uni-versity Press)

إن النظريــة الموثقة (grounded theory) تقدم نافذة لفهم المعنى في المادة البحثية، وهي منهج ونظرية في آن. وهي باعتبارها منهجا للتحليل تقدم طريقة لتطوير "تصنيفات فكرية تجريدية وتقدمية من أجل تجميع وتفسير وفهم" مادة البحث، (Charmaz 1995

p. 28). فإذا راجعنا المثال التحليلي الذي عرضته أعلاه يمكننا تمييز الخطوط العريضة للمنهج التحليلي. فالتحليل تبعا للنظرية الموثقة (grounded theory analysis) يبدأ بقراءة متعمقة للمقابلات، وتقترح دراسة كاثي تشارماز (Charmaz 1995) أن نبدأ من "التكويد المفتوح" (open coding) والذي يتكون من قراءة حرفية للمادة "سطرا سطرا" وتكويد كل سطر من النص. ومن الأسئلة التي يمكننا التوقف أمامها أثناء تلك العملية ما يلي (Charmaz 1995، p. 38):

- "ما الذي يحدث؟"
- "ما الذي يفعله الناس؟"
- "ما الذي يفعله الشخص؟"
- "ما الأمور التي تعتبر مفروغا منها في هذه الأفعال والأقوال؟"
- كيف تعمل البنية والسياق على تدعيم أو الحفاظ أو إعاقة أو تغيير تلك الأفعال والأقوال؟"

توجد علاقة تفاعلية حيوية بين تدوين الملاحظات والتكويد. وأنا أشتق أفكاري مباشرة من مادة بحثي، لا من نظرية عامة ما أنطلق منها حول صورة الجسد لدى النساء. ويتيح تدوين الملاحظات للباحثة والباحث "التناول التفصيلي للمسارات والافتراضات والأفعال" التي عادة ما تكمن في الأكواد (Charmaz 1995، pp. 42-43). كما أن تدوين الملاحظات يسمو بالكود الحرفي إلى مستوى "الفئة التصنيفية" (catego-ry). ويحتل التفاعل بين تدوين الملاحظات والتكويد موقعا في القلب من التحليل الموثق (grounded analysis)، لأني بهذه الطريقة أقوم حرفيا بتوثيق أفكاري وترسيخها انطلاقا من مادة البحث. ويجب أن تتم عملية تدوين الملاحظات على مدار كل خطوات من خطوات التحليل، إذ يمكن للملاحظات المدونة الدقيقة أن تساعد في توجيه دفة البحث. فمثلما نقوم بمراجعة نصوص المقابلات المكتوبة يجب على المرء أيضا قراءة الملاحظات المدونة وترتيبها. فمن بالغ الأهمية قراءة تلك الملاحظات ومراجعتها؛

لأنها خطـوات تساعدنا في تطوير وتفصيل الأفـكار والنظريات. والملاحظات المدونة تساعـد تحديدا فيما تتيحه لي من رؤية للعلاقات القائمة بين فئات التكويد وبين تخميناتي وإحساسـي بمـا قد يكون مخفيا داخل مـادة بحثي. والملاحظات غايـة في الأهمية لأنها خارطـة طريق لمعرفة ما تعنيه أكواد البحث، بل وقد تولد الأفكار المدونة أفكارا جديدة وتكشـف عن علاقات قائمة داخل مادة البحث. ومن هنـا تأتي الأهمية البالغة لمراجعة وإعادة قراءة ملاحظات البحث ومذكرات العمل الميداني.

وحينمـا نناقش مقاربة النظرية الموثقة، فمن المهـم أن نتذكر أن هنالك طرقا أخرى عديدة لتشريح مادة البحث وتطويرها. فقد يكون قرارك القيام بتحليل سردي (narra- tive analysis)، الـذي يدفعك للقيام بتكويد النص سطرا سطرا، ولكن قد يهمك أيضا تتبـع الأساليب التي تقـوم بها المستجيبة أو المستجيب بصياغـة المعنى في إطار الحكايات التـي يحكونها لك خلال المقابلة. وقد ينصب اهتمامك على دراسة بنية الرواية والتفكير في أسئلـة التقصي في تناول الحكاية التي يتم سردها. فهل ترتيبها يقوم بناء على حلقات أم يتبـع ترتيبـا زمانيا؟ وما معاني الحكايـات المعينة التي تحتويهـا المقابلة؟ وكيف تقوم المستجيبـة أو المستجيب بتمثيل واقعهما المعيش في إطار شكل قصصي؟ إنها جميعها أسئلة محورية، وهنالك مزيد لا نهائي ممـا يمكنه الكشف عن مساحات أعمق داخل المقابلة. إن الوحـدة التحليليـة في المقابلـة ليست هي السطـر الواحد، وإنما هـي بداية الحكايات ونهايتها التي تحتويها المقابلة.

وفي المقطـع التالي من "ما وراء الستار"، تدخلنـا الباحثة النسوية دانا كرولي جاك (Dana Crowley Jack) مـا وراء ستـار مسارهـا البحثي، متطرقـة إلى قضايا مثل التكويد، والنظرية الموثقة، وتحليل المادة بمساعدة الكمبيوتر.

ما وراء الستار مع دانا كرولي جاك

عن لحظات إعادة التركيز السريع وما يؤدي إليها

في مساء يوم بارد من أيام شهر نوفمبر، جلست مع مساعدتين من الطالبات نفحص المقابلات الشخصية المطولة، بالتركيز على روايات النساء لما يثير غضبهن وكيفية تعبيرهن عن الغضب. وكان الوقت آخذا في التأخر، بينما نحن مستهلكات ذهنيا وتكاد عقولنا تتوقف عن التفكير من مشقة تفاصيل إعداد دليل التكويد ومراجعته (coding manual) يستخدم منهج النظرية الموثقة (Strauss & Corbin 1990). وترى بعض الباحثات النسويات أن هذا المنهج يسهل التزامنا بالإنصات إلى المشاركات بشروطهن الخاصة بدلا من توظيف ما تقوله النساء بما يناسب النظريات القائمة. وكنت قد قمت بالمقابلات باستخدام مقاربة ارتباطية متمحورة حول الصوت (voice-centered relational approach)، تقوم على تتبع مسار حديث المستجيبة للمقابلة وطرح أسئلة حول تاريخ النساء وأفكارهن ومخاوفهن المتصلة بالغضب (Jack 1999).

فطبقا للنظرية الموثقة، المادة البحثية هي التي تقود الباحث أو الباحثة؛ أي إن الفئات والتصنيفات والنظريات تنبع من المادة البحثية. ومع استحالة تناول المقابلات دون أي منظومات مسبقة، فإن هذا المنهج ينجح في تصحيح التصورات الخاطئة لدى الباحثة أو الباحث، وخاصة حين تجبرنا المادة على ملاحظة الأطر الكامنة التي قد نحملها بدون وعي. كذلك فقد أوضحت النسويات أن النساء كثيرا ما يسكتن مشاعرهن ورؤاهن، وهو ما يجعلهن معرضات للقهر (Jack 1991; Lorde 1984; Rich 1979). ولتجاوز مساحات الصمت عن تجارب النساء، فإننا في حاجة إلى قراءة روايات النساء وإعادة قراءتها مع إدراكنا وجود جوانب مختلفة من التجارب التي يتم تناولها والإنصات إلى مناحي مختلفة من "صوت" المرأة. إن "دليل الإنصات"، وهو منهج تأويلي نسوي، يمكننا من سماع مساحات الصمت من خلال تركيز انتباه الباحثة على صوت الراوية

وعلى ردود أفعال المكودة (المنصتة) ، (Brown & Gilligan 1992; Brown، Tappan، Gilligan، Miller & Argyris 1989). وسأحاول في هذا العرض القصير أن أصف التصورات الخاطئة التي كانت عندي عن غضب النساء وكيف صححها المنهج والمادة البحثية.

فقد قمت استعدادا للدراسة التي تتناول الغضب بإدخال المقابلات في برنامج الكمبيوتر "إثنوجراف" (Ethnograph)، وهو برنامج موجه لأجهزة الكمبيوتر. وتم نزع كافة المعلومات التي تحدد هوية المستجيبة للمقابلة، وترقيم سطور نص المقابلة استعداد للتكويد.

وقد قمت مع الطالبتين المساعدتين لي في هذا البحث (Samya Clumpner and Athena Stevens)، باتباع المسار الآتي: (1) قراءة المقابلات كل على حدة؛ لمعرفة الأفكار الرئيسية التي تخرج منها. (2) مقارنة الأفكار فيما بينها، مع استخدام أمثلة من مادة المقابلات، واتخاذ قرارات بشأن الفئات التصنيفية التي تشتمل على الأفكار. (3) مراجعة فئات التصنيف وتطبيقها على بقية المقابلات لمعرفة ما إذا كانت الفئات/الأفكار الجديدة تتعارض مع ما تم التوصل إليه مسبقا. وكنا قد وصلنا إلى الخطوة الثالثة من تلك العملية في ذلك المساء المظلم المطير.

وفيما يلي ما حدث: كان قد استغرقنا العمل في تكويد التعبير عن الغضب لدى النساء باستخدام المصطلحات السائدة وهي "الإبطان" (internalization) و"الإظهار" (externalization)، وهما مصطلحان يسودان علم النفس واللغة المتداولة. وهما يوحيان بصورتين للغضب باعتباره مستوعبا داخل الشخص (حيث قد يغلي أو يزبد أو يحرق) أو باعتباره ينفجر خارج هذا الوعاء/الشخص بقوة وتداعيات متفاوتة في قوتها. وتقوم دراسة تتناول أبعاد الغضب الداخلي والغضب الخارجي (Charles Spielberger et al. 1985) باستخدام مقياس التعبير عن الغضب (Anger Expression Scale). ولكوني نسوية كنت أعلم أن النساء والرجال يواجهون ردود فعل متباينة لأشكال تعبيرهم المباشر عن الغضب، إذ تتعرض النساء لقدر أكبر من التداعيات الشخصية والاقتصادية

والقانونيــة مقارنــة بالرجال. وقد مــلأت النســاء في هذه المقابــلات الشخصية رواياتهن بحكايات عن ردود الأفعــال السلبية المتوقعة تجاه غضبهن، حتى عند التعبــير عن الغضب بنــبرة صوت معتدلة، كما وصفن بقدر مــن التفصيل كيفية استخدامهن للغضب بمثابة درع حماية في المواقف الخطرة. ولم أكن قد توصلت إلى طريقــة لتمثيــل الأساليب المعقدة التــي تقوم النساء بهــا بالتعبير عن غضبهن وأسبــاب قيامهن بذلــك، ولكني اعتمــدت على فئتــين قائمتين بالفعــل واسعتي الاستخدام، وهما الإبطان والإظهار، اللتان كانتا موجودتين في مجال النظرية واللغة وعقلي.

كنــا منهمكات في دراسة رواية إحدى النساء عن غضبها العارم من زوجها. فمــاذا عن سبب الغضــب؟ الأعمال المنزليــة؟ فتركت البيت، وركبــت السيارة وانطلقــت بها في حالة من الغضب العــارم، دون أن تظهر أي قدر من الغضب أمام زوجها. وعلى بعد عمارتين سكنيتين أوقفت السيارة وأخذت تضرب مقود السيــارة بيديها وتصرخ وتبكي من الغضب. وقد جــاء التصنيف الكودي لذلك بوصفه "إبطانًا"، ولكنه تجاهل الكثير من أفكارها، ولم يكن لينطبق مع الموقف. وأثنــاء نقاشنا حول تلك الحالة فجأة اتضحــت لنا الأمور، إذ انتقلت الصورة من الموقف ذاته إلى هموم تلك المرأة. فقد كان حرصها هنا على تداعيات غضبها على العلاقة. وسرعان ما انتقلت بؤرة تركيزي بتتبع آثار كلماتها، من التركيز على المــرأة باعتبارها وعاء للغضــب إلى التركيز على العلاقــة باعتبارها هي السياق المهم. فالمسألة المهمة تمثلت فيما إذا كانت على استعداد لإدخال غضبها في العلاقة أم حاولت كتمه عن طريق -مثلا- ضرب مقود السيارة بعيدا عن زوجها.

ومــن عناصر الغضب الواردة في قائمة مقياســ التعبير عن الغضب في كتاب سبيلبرجــر (Spielberger et al. 1985) "كــثرا ما أصفــق الأبواب". إن هذا العنصر غير المتصــل بالسياق لا يكشف عن مخاوف النساء بشأن التداعيات على العلاقــات الشخصية: وهناك فارق كبير بين مــا إذا كان صفق الباب يتم في وجه شخص ما، أم في بيت خال من البشر. فبدلا من أن يكون الشخص وحدة التحليل

(وعاء يتحرك الغضب فيه أو منه) أصبحت العلاقة هي وحدة التحليل الجديدة التي التفتنا إليها: ما إذا حاولت المرأة الاحتفاظ بغضبها خارج العلاقة؟ أم أدخلته داخل العلاقة؟ والغرض منذ ذلك، والسلـوك الذي لجأت إليه حينها. وهكذا صار من السهـل علينا، بالتركيز على هذه النقطة الجديدة، أن نصنف الطرق التي تعاملت بها النساء مع الغضب بالنسبة لعلاقاتهن الشخصية (Jack 2001).

وقـد احتفلنا بهذا الإنجاز بتنـاول القهوة وتبادل الضحـكات. إن هذه العملية الخاصـة بتوثيق كلمات النســاء عبر منظور كل واحدة منهـن -وهي مسألة تقع في قلب البحـث النسوي- تتطلب التمكن من نظريات علم النفس. ولكنها تتطلب أيضا أن نراجع الأساليب المألوفة في التأمل والاستماع، وأن ننصت إلى ما لم يتم احتواؤه في الفئات والتصنيفات والنظريـات القائمة. كذلك يمكننا الإنصات إلى المخـاوف ومساحات الصمت والحوارات الداخليـة التي تدور داخل المشاركات في البحث، حتى وإن تعارضت مع التفسيرات القائمة بالفعل.

والآن وقـد قدمت مثالا على عملية التكويد، فلننتقل إلى عملية التأويل والكتابة اللتين تم تناولهما جزئيا عبر صفحات هذا الكتاب.

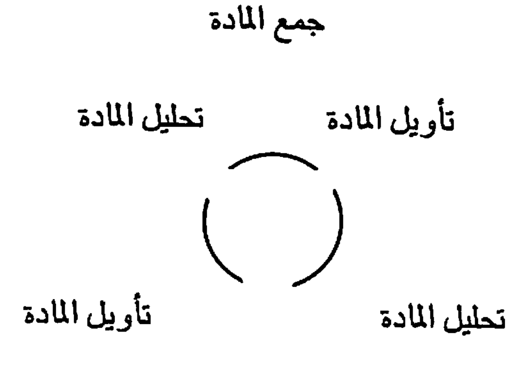
تأويل مشروعك البحثي وكتابته

سأقـدم في الأجزاء التالية عرضا عاما لما يتعلـق بالتأويل وكتابة مشروعك البحثي. وتشير دراسة نورمان دينزين إلى وجود "فن التأويل" قائلا:

> يمكن وصـف ذلك أيضا بأنه الانتقال من الميـدان إلى النص ثم القارئ. إن ممارسـة هذا الفن تسمح للعامل في الميدان كمجمع للأجزاء -field-work)

er-as-bricoleur) . . . تناول ما تعلمه وترجمته إلى كتلة نصية تنقل تلك المفاهيم إلى القارئ. (Norman Denzin 2000، pp. 313-314)

ولا يوجد طريق معين لتأويل مادتك البحثية، بل إن الباحثة أو الباحث يظلان في الواقع يتنقلان بين تحليل المادة وتأويلها، وهي رحلة تؤدي في نهاية المسار إلى جمع مادة مناسبة بدرجة أكبر. وهي ليست مراحل منفصلة في الجهد البحثي، وإنما يمكن أن نرى صورة توضيحية لتلك العملية في الشكل التالي (الشكل: 11.1).



الشكل 11.1: شكل توضيحي للعملية "التكرارية" (iterative process) في تحليل المادة البحثية وتأويلها
مقتبس من المصدر التالي: Hesse-Biber & Leavy، The Practice of Qualitative Interviewing، Sage Publications، 2006.

ويوضح الشكل التوضيحي أعلاه مرونة المسار البحثي إذ يظل الباحث أو الباحثة في حالة انخراط في جمع المادة وتحليلها وتأويل نتائج البحث بشكل حيوي. وكتابة الملاحظات والمذكرات يمثل رابطا بين التحليل. (ما توصلت إليه؟) وبين التأويل (ما معنى ما توصلت إليه؟). ويجب على الباحثين والباحثات استخدام الملاحظات والمذكرات التي سجلوها في مراحل مبكرة من البحث لتطوير عملية التحليل وإثرائها. وعليك العودة للتفكير في الأسئلة التي طرحتها في البداية: "ما معنى ذلك؟ وأي من

أفـكاري تجد ما يدعمهـا في المادة؟ وما الأسئلـة الإضافية التي أحتـاج إلى طرحها ولم يسبـق لي طرحها؟ ومن هـم الأشخاص الآخرون الذين يجـب أن أقوم بعقد مقابلات معهم؟ وما الذي لم أقم بمتابعته؟ وما المادة البحثية الجديدة التي يجب عليّ أن أجمعها؟" وقـد تساعد المذكرات المدونة في مراحل مبكرة في توجيه البحث في اتجاه جديد. ويشير ديفيـد كارب (David Karp) إلى الآتي فيما يتعلـق بكتابة المذكرات في مراحل مبكرة من البحث:

> سوف يكون في وسعك في بداية البحث على وجه الخصوص سماع أشياء لم يسبق لك التفكير فيها. عليك النظر الدقيق نحو الاتجاهات الأساسية التي لم يخطر على بالك تتبعها. ويجب أن يكون إيقاع كتابة المذكرات القصيرة مسألـة عظيمة خـلال بداية عملك. وإننـا ندعو إلى كتابـة المذكرات عن "الفكرة " أو "المفهوم" والتي تمثل مدخلا إلى ظهور الأفكار. ويتراوح طـول مثل هذه المذكرات عادة ما بين صفحتين وثلاث صفحات. (quoted in Hesse-Biber & Leavy، 2006، p. 142).

ويـرى ديفيد كارب أن ترتيـب مذكراتك وقيامك ببعض التكويـد الأساسي يجعلك في وضع جيد "للإمسـاك بفكرة رئيسية"، وهي اللحظة التي يجب البدء فيها فيما يطلق عليه كتابة "مذكرات المادة". وأعني بذلك مذكرة تجمع بين الفكرة والمادة وأي أدبيات متاحـة متعلقة بالموضوع. وتبدو مذكرة المادة (data memo) كورقة البحث، ولكنها تتضمـن مادة بحثية تفوق مـا يتم استخدامه فعليا في ورقة بحثية. فإذا توصلت إلى نقطة أو فكـرة عامـة ما وشعرت بـأن لديك 10 مقتطفات مـن المادة البحثيـة التي تدعم تلك الفكـرة، فاعرضيها كلها لمزيد من الفحص والاستخدام لاحقا. ويؤكد ديفيد كارب على أن الباحـث الجيد يجب "أن يتأكـد من عرض كلام الأشخاص الذيـن لا يتماشون مع النسق العام للبحث" (quoted in Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 143).

وهناك المزيد من الأسئلة التي تظهر على السطح عندما نشرع في تجميع الحكاية التي وجدناها خلال البحث. ونبدأ في ملاحظة قضايا ورؤى معينة في حكايات المستجيبات، التي توضح لنا كيفية عرض الفهم الذاتي وتمثيله لدى المستجيبات لتجاربهن المعيشة. والسؤال الذي يحتل موقعا مركزيا في هذه المرحلة من مراحل عملية البحث هو السؤال الخاص بالحكاية نفسها التي نقوم في الواقع بعرضها وتمثيلها: هل هي حكاية المستجيبة للبحث أم حكايتنا؟

إن الباحثات النسويات واعيات تحديدا بالقوة والسلطة (power and author-ity)، التي تتمتع بها الباحثات والباحثون، من حيث كيفية التعامل مع عرض وتمثيل نتائج البحث وتأويلاته. وقد رأينا العديد من أشكال تناول تلك القضايا عبر صفحات هذا الكتاب، ومنها على سبيل المثال: عند التفكير في صياغة نصوص التاريخ الشفاهي وتحريرها، وطبيعة العمل المشترك في البحث الكيفي، والمنظور ما بعد الحداثي في استخدام فئات مثل "المرأة" أو "تجارب النساء".

"ما الدور الذي يلعبه الباحث أو الباحثة في عملية تأويل مواد أبحاثهما؟"

"إلى أي مدى يسمح الباحث أو الباحثة بمشاعرهما للدخول في عملية التأويل؟"

"من صاحب وجهة النظر التي يقوم الباحث الإثنوجرافي أو الباحثة الإثنوجرافية في الواقع بتمثيلها بمواد أبحاثهما؟" (Van Maanen، 1995، pp. 16-17).

هذا وتدرك الباحثات النسويات مآزق السلطة عموما في العملية البحثية ككل، وهن يتناولن تحديدا علاقات القوة والسلطة في تأويل أصوات النساء وخاصة النساء اللاتي تعرضن للقهر على أساس النوع أو الأصل أو الطبقة أو العمر، وهلم جرا. ويمكن

للباحثـات النسويـات استخدام هذه التجـارب في استكشاف وتنـاول القضايا موضوع أبحاثهـن ، كمـا أن الفهم الشخصي لدى الباحثـة لتلك القضايا قد يعتـبر ميزة كبيرة في البحـث. وفي الواقـع ترى عالمـة الاجتمـاع النسويـة دوروثي سميـث (Dorothy Smith ، cited in Lemert 1999) ، أن علـم الاجتماع يعتـبر بالنسبة للنساء مجالا بحثيا يحتضن منظور "الآخر".

استخدام برنامج كمبيوتر في تحليل مادة بحثك وتأويلها : برامج الكمبيوتر والبحث النسوي

- هـل لي أن أستخـدم برمجيـات كمبيوتـر (computer software)؟ وما الذي ستحققه تلك البرامج في تحليل مادة بحثي وتأويلها؟

قد يطرأ تحسين على عملية التحليل التي تقوم بها الباحثة أو الباحث باستخدام حزم برامج الكمبيوتـر (software packages). وقد جاءت العقود الأخيرة بتطورات في برامج الكمبيوتـر التي أحدثت تحولا في عمل علمـاء الاجتماع والباحثين والباحثات (Field- ing & Lee 1998). ويمكن تصنيف برامج الكمبيوتر ضمن نوعين رئيسيين ، يتكون أولا مـن "البرمجيات النوعيـة" (generic software) التي لم تكن مصممة خصوصا للبحـث الكيفي. وتوجـد ثلاثة أنواع مـن البرمجيات ضمـن هذه الفئـة ، أولها أنواع "معالـج الكلمـات" (word processors) التي يمكن استخدامهـا في طباعة وترتيب المقابلات ومذكرات العمل الميداني بالإضافة إلى تطوير نظام لترتيب تلك المادة البحثية ، وثانيهـا هي مسترجعات النصوص (text retrievers) والتي يمكن استخدامها في فرز المـادة للوصـول إلى نسق أو "خيط" (string) من الحروف التي قـد تساعد الباحثة أو الباحـث في تحديد أفكار أو موضوعـات معينة داخل كم المادة البحثيـة ، أما ثالثها فهي البرامـج المسؤولة على تشغيل "قواعد بيانـات النصوص" (textbase managers) ، وهـي أنظمة قواعد البيانات الكبيرة التي تتيح استرجاع المعلومات المبرمجة برمجة شبه

مركبة (semistrucutred information) والتي يتم إدخالها في البرنامج من خلال "التسجيلات" (records) و"الحقول" (Fielding & Lee 1998) (fields).

ثانيا، توجد برمجيات تم تصميمها خصيصا لتحليل المادة الكيفية، وهي "حزم التحليل الكيفي المخصصة" (dedicated qualitative analysis packages). وهناك أربعة أنواع مـن البرمجيات التابعة لهذه الفئة. أولها برنامج "التكويد والاسترجاع" (code and retrieve)، والـذي يتيح تحديد كود لكل جزء من النص، وهي تسهل استرجاع فئـات أكواد جديدة عند استخدام الباحثة أو الباحث "وظائـف البحث البوليانية" المعقدة (sophisticated Boolean search functions). أمـا الحزمـة الثانيـة فتتكـون مـن "برامج بنـاء النظرية على أساس الكـود" (code-based theory building programs)، والتـي تتيح للباحثة أو الباحث تحليل العلاقـة المنهجية القائمة بين المادة والأكواد وفئاتها وتصنيفاتها. وتقدم بعض البرامج مقاربة منهجية على أساس القاعدة (rule-based systematic approach) تسهـل اختبار الفرضية، بينما تتيح برامج أخـرى التمثيـل البصري للمـادة. أما الحزمتـان الأخيرتان (الثالثـة الرابعة) من هذا النـوع المتخصص من البرمجيات فهما "بناء الشبـكات الفكرية" (conceptual net-work building) و"برمجيـة المسـح النصـي" (textual mapping software)، وتسمحـان للباحثـة أو الباحث بالربـط بين الأكـواد والتصنيفات القائمـة في البحث. ويمكن اعتبار هذه الخاصية مـن الخصائص "الإضافية" (add-ons) في "برامج بناء النظرية على أساس الكود" (Fielding & Lee 1998، pp. 9-11). وقد شهد مجال البرمجيـات الكيفية (qualitative software) تطورا ملحوظا بمرور الزمن، كما أن تلـك البرمجيات أثبتت كونهـا منتجات عادة ما تلقى القبول. وتشـير دراسة إلى تنامي مستخدمي البرمجيات واتساعهم على المستوى الوطني والعالمي.

وتحمل تقنيـات الحاسب وعودا بإحداث ثورة في أسلوب قيـام الباحثات والباحثين بتحليـل المادة البحثيـة، ولكنها تحمل أيضـا في الوقت نفسه عددا مـن المخاطر للقائمين بالبحث الكيفي. ويتعين على الباحثات والباحثين التجريب بالاستعانة بتلك البرامج من أجـل تقييم مواطن قوتها وضعفها، مع تأمل التداعيات المترتبة على استخدام برمجيات الحاسب الآلي في تحليل المادة الكيفية. ونحن نوصيك بتجربة هذه البرامج في مواضعها المناسبة والتعرف على مدى ملاءمتها لك لأبحاثك.

كتابة البحث*

يشـير نورمـان دينزيـن إلى أن "الكتابة ليست ممارسـة بريئة" وإنما هـي أداة تساعد في تغييـر العـالم (Norman Denzin 2000، p. 898). فاللغة قـوة ثقافية مؤثرة، وتتحـول الكتابة إلى وسيلة للباحثة أو الباحـث في إيصال معلومات وتأويلات قيمة إلى جمهور أوسع من القراء. كما يصبح الباحثون والباحثات أكثر انخراطا في العمل، ولذا تؤثـر مقاصدهما الشخصية في تشكيل وصياغة أسلوب وعمليـة الكتابة. ويكاد يستحيل الفصل بين نطاق الكتابة ونطاق التأويل، فالكتابة شكل تأويلي قوي من أشكال الخطاب الـذي له "حضور مـادي في العالم" ويمكـن أن يكون "محوريـا في تفاعلات المجتمع الديمقراطي الحر" (Norman Denzin 2000، p. 898–899).

وعنـد الشروع في مرحلة كتابة البحث، يجـب على الباحثين والباحثات الانتباه إلى العلاقـة الحميمة القائمة بين ما يكتبونه وبين عملية التأويل التي وجهت تناولهم للبحث. والعلاقـة بين الكتابة والتأويـل مهمة ولكن يمكن أيضا اعتبـار هذين العنصرين ضمن عملية واحـدة مشتركة. وتعتبر قضايا التأويل والتمثيل أمـرا بارزا في البحث النسوي إذ إنـه بالإضافـة إلى المسائل الأخلاقيـة والبراجماتية التي تواجـه الباحثين والباحثات عمومـا، يجب على الباحثـة النسوية أيضا التفكير في العلاقة بـين مشروعها السياسي، ومقاصدهـا كناشطة نسوية، والتزاماتها الإبستمولوجيـة، ورغبتها في الكشف وإتاحة المعرفة المعرضة للإقصاء، وكذلك واجبها في تمكين غيرها لا قهرهم.

ويجب على الباحثة أو الباحث أن يتذكرا أنهما في الوقت الذي توجد فيه عدة روايات يتـم جمعها من الميـدان، فإن الأمر ينتهـي بالباحثة أو الباحـث إلى كتابة رواية واحدة منهـا، وبالتالي لا يعني ذلك تجاهل إمكانيـة وجود أشكال أخرى لتمثيل ما تم في العمل الميـداني. وقد قامت دراسـة بنقد الإثنوجرافيـا التقليدية وتعريـف الباحثات والباحثين المعاصريـن بالفكـرة القائلة بأن الروايـات الفردية الواردة في الدراسـات الميدانية هي

(*) تم اقتباس أجزاء من هذه النقطة، وتعديلها كليا أو جزئيا، من المصدر التالي :
Hesse-biber Sharlene Nagy, and Leavy, Patricia, "Analysis, Interpretaion, and the Writing of Qualitaive Data" in Sharlene Nagy hesse-biber and Patricia Levy (eds.) Approaches to Qualiative Research: A Reader on Thery and Practice, New York:Oxford Universsity Press, 2004, pp. 409-425.

روايات محدودة وقاصرة في أحسن الأحوال (Van Maanem 1995). كما تؤكد الدراسة على أنه يمكن إنتاج أكثر من رواية بناء على التجربة الميدانية الواحدة، إذ تتعدد الأصوات، ولكن بعضها يتعرض بالضرورة إلى الاستبعاد. ومن هنا "يوجد منطق قوي في العمل على مواجهة أية قناعة تامة محسومة في عالم يتسم بالبساطة أو الشفافية" (Van Maanem 1995، p. 18).

وفي إطار رفض وجود حقيقة وواقع واحد أوحد، تؤكد دراسة نورمان دينزين على نشأة نوع جديد من الكتابة في عصر ما بعد الحداثة. وقد تم تناول بعض تلك الأساليب في الفصل الرابع من هذا الكتاب عند الحديث عن النسوية ما بعد الحداثية. كما يتم اختبار الأساليب المختلفة بواسطة الباحثات والباحثين والصحافيات والصحافيين على السواء، وتؤكد الدراسات على ضرورة التعامل مع الحقائق باعتبارها تتشكل اجتماعيا (Denzin 2000، p. 899).

وبينما كان "النمط المنطقي-العلمي" (logico-scientific mode) للبحث في العلوم الاجتماعية يسعى في الماضي إلى الحصول على أدلة إمبيريقية وجمع "شروط للحقيقة العامة" (universal truth conditions)، فإن الاختبار يعتمد حاليا على تفكيك (deconstruct) هذا النوع من العقلانية المتفشية (Richardson 1995، p. 201). فنحن لا نرى وجود حقيقة واحدة، وتجربة واحدة، وبداية ووسط ونهاية واحدة للرواية، إذ إن خطوط الحقيقة وحدودها غير واضحة، ويتم إعادة تشكيلها من قبل الباحثات والباحثين الذين يبذلون كل الجهد من أجل التوصل إلى أفضل طريقة لكتابة أبحاثهم. وتوجد أسئلة عديدة تواجه وتوجه عملية كتابة البحث، فهل تبدو الأسئلة التالية مألوفة لك؟

- ما المعايير التي يتعين وجودها لدى الباحثة أو الباحث؟ وفي عالم الكتابة التأويلية بمرونته، كيف يمكن للباحثة أن تقوم بتمثيل الآخر دون أن تقوم بتمثيل نفسها بصورة ما أو بأخرى؟

ومع معرفتهم بأن الكتابة ليست "تمثيلا "حقيقيا" لـ"واقع" موضوعي"، فإن الباحثات والباحثين ما بعد الحداثيين يسعون للتعرف على جماهيرهم وأهدافهم البحثية

وتعريفها وإعادة تعريفها (Richardson 1995، p. 199). وتتضمن الكتابة قرارات مهنيــة وأخلاقية وشخصية، ويمكن لاختيارات الباحثة والباحث اللغوية والأسلوبية أن تخلق قيمة وتضفــي معنى وتصوغ شكل الذوات والموضوعــات التي تنشأ في الدراسة (Shapiro 1985–1986، as cited in Richardson 1995، p. 199).

وهكــذا فإن الكتابة تمنح الجماهير فرصة تطويــر ما يطلق عليه "المخيلة الاجتماعية" (sociological imagination)، عــبر تأمل السيــاق الاجتماعي الذي تشكلت حوله التجــارب الشخصيــة (C. Wright Mills، 1959، quoted in Richardson 1995، p. 216). حقا "إن الناس في كل مكان يعايشون ويؤولون حيواتهم في علاقتها بالزمن" ويصبحون أقدر على "التحكم في 'مصائرهم'" عندما تساعدهم الكتابة على فهم السياق التاريخي الاجتماعي (sociohistorical context) لحيواتهم (Richardson 1995، pp. 207، 215). وتــرى دراســة ميلز هذا الأمــر بمثابة الوعد الذي يحمله علم الاجتماع، كما يوضح كيف يمكن للكتابة أن تحمل معاني مختلفة باختلاف البشر.

إن باحثة مثل لوريل رتشاردسون، التي تدعو إلى استخدام السرد كوسيلة للتواصل في مجــال علم الاجتماعي، ساهمــت مع غيرها فيما يطلق عليه عــدم وضــوح (blur-ring)، الواقع الاجتماعي. ففي نقاشها حول السرد كأسلوب مفيد في "التفكير والتمثيل" تؤكد لوريل رتشاردسون أن علينا التفكير في أشكال بديلة من الكتابة (Richardson 1995، p. 200). إن استبعــاد السرد كأداة للتعبير عــن التجارب الاجتماعية سيؤثر بالسلــب على المجتمع ككل، فالكتابة في مجال العلوم الاجتماعية تؤثر على النقاش العام الدائــر حول السياســة والسياسات العامــة والهوية والتحول، ويمكن للســرد أن يؤثر ويساعد في توجيه دفة تلك النقاشات المجتمعية.

وتــرى الباحثة أيضــا أن الشكل السردي يحكــي حكاية "تعكس التجربــة الإنسانية العامة مع الزمن، وتربط بين الماضــي والحاضر والمستقبل" (Richardson 1995، p. 218). فالســرد الذي يجمع بــين الأدب والتاريخ، وبين ما هو فردي ومجتمعي، يجعل "الأفراد والثقافات والمجتمعات والعصور التاريخية مفهومة ككل" (Richard-son 1995، p. 200)؛ إذ يساعد الناس على رؤية أنفسهم باعتبارهم جزءا من نظام أشمــل. وهكذا يمكن للسرد أن يحفز على قيــام نقاشات تحررية بشأن الهموم المجتمعية

المهمـة لأنه يشجع القراء على استخـدام ما لديهم من "مخيلة اجتماعية" في "الكشف عن المشـاكل الشخصيـة باعتبارها قضايا عامـة، وجعل من الممكن تحقيـق الهوية الجمعية والحلول الجماعية" (Richardson 1995، p. 216).

وتشهـد الروايـات السردية تزايـدا في شعبيتها بـين الباحثات والباحثـين، كما أن الأساليـب التجريبية في تأويل المجتمع عبر الكتابة أوجدت أساليب جديدة من الروايات الاجتماعيـة. إذ يستخـدم الباحثـون والباحثات روايـات سردية من الحيـاة اليومية، والحوار اليومـي، ووجهات النظر المتعددة وأسلوب الكتابـة السهل البسيط في التعبير عـن صوت الكاتب أو الكاتبة التأويلي (Harrington 1997، as cited in Denzin 2000، p. 899، وانظـر/ي أيضـا: Denzin 2000، p. 902). إنهـا حكاية تمثل مدخلا مهما لمسار البحث، لأنهـا تساعد القارئة والقارئ وكذلك الباحثة والباحث على اكتشاف الحقائق الأخلاقية ووجهات النظر المتعددة بشأن قضية محددة.

إن تلك الممارسات الجديدة في الكتابة قطعت أشواطا كبيرة نحو التوصل إلى جوهر بعض أصوات المجتمـع الضائعة. فقد طال على سبيل المثال أمـد إسكات النساء في الدراسات الإثنوجرافيـة، وتم عادة التحيز إلى الدراسـات التي يقوم بها الرجال (Clough، as cited in Van Maanen 1995، p. 2). إن الاهتمام بالقضايا النسوية مؤخرا أدى إلى بدايـات الاعتراف بوجود النساء في المجتمع، ومـا يواجهنه من مشاكل حتى يومنا هذا. إن الأبحاث وحدها هي التي أدت الآن إلى القيام بأفعال لعلاج تلك المشاكل، ومن المهـم أن يستمـر الإنتاج المتواصل لمثـل هذه الكتابة حول هذا النـوع من الموضوعات. فلابـد من تقديم ومناقشة لغة وتجارب المجموعـات المهمشة وتناولها على أرض الواقع بواسطة الكلمات، بحيث يمكن رفع مستوى الوعي الاجتماعي.

وكمـا يشير نورمان دينزين، فإن مثل هذه الكتابة توضح "اهتماما حميما بحياة البشر" (Denzin 2000، p. 899)، ويمكـن عـبر هذا النوع من الكتابـة الدفع نحو التغيير الاجتماعـي. فيمكن للغة المؤلفة أو المؤلـف أن تنتج هذا المسار، ولكن تجارب "الآخر" هـي القادرة على توجيـه هذا المسار. وسيتم بلا شك نسـج الصوتين معا داخل النص، وسيعملان في نهاية المطاف معا لتمكين من يحتاجون إلى كسر صمت الماضي.

الخاتمة

إنني إذ أختم هذا الفصل من الكتاب، أقدم لك قائمة للاستعانة بها عند شروعك في القيام بمشروع بحثك. وقائمة الأسئلة ليست جامعة وإنما القصد منها هو تسليط الضوء على بعض العوامل المهمة التي قد تستوقفك عند قيامك بتقييم مشروع بحثك ككل.

قائمة التقييم

أسئلة للطرح عند تقييم مشروعك البحثي (Hesse-Biber & Leavy 2006)

سؤال البحث العام

السؤال: ما الذي يجعل أي أحد "يقبل" روايتك؟ يثق في روايتك؟

قضايا المصداقية

السؤال: ما بعض المعايير لتقييم مصداقية الدراسة؟ هل يتعرف المشاركون والمشاركات على تجاربهم في تحليلك وتأويلك للمادة البحثية؟ ولماذا أو لمَ لا؟ هل يتضمن البحث "توثيقا لمسار" عملك (audit trail)؟ هل يمكن للقارئة أو القارئ تتبع الخطوات التحليلية دليلاً على المصداقية؟

جمع المادة

السؤال: هل المنهج متوافق مع الغرض (سؤال البحث)؟ ما مدى دقة وجودة وصفك لاستراتيجيات جمع المادة؟

العينة

السؤال: كيف تم اختيار المستجيبات والمستجيبين؟ هل يمثلون اختيارا موفقا لهذا البحث؟

أخلاقيات المهنة

السؤال: كيف يتم التعامل مع مسائل ذاتية البشر؟

التحليل

السؤال: كيف توصلت إلى نتائج البحث؟ هل تم تناول استراتيجيات البحث المحددة؟ هل فعلت ما قلت بنيتك القيام به؟ هل مقاربات تحليل المادة تتوافق مع سؤال البحث؟

التأويل

السؤال: هل يمكـن للقارئة أو القارئ إدراك (gestalt) المعنى الذي تحمله مادة البحث بنـاء علـى النتائج المكتوبة؟ هل تم وضـع نتائج البحث في سياق الأدبيـات التي تتناول موضوع بحثك؟ هل تتناسب الأدلة مع المادة؟ هل تتماشى المادة مع سؤال البحث؟

الخاتمة/التوصيات

السـؤال: هـل تعكس الخاتمة نتائج بحثك؟ هـل يقدم بحثك بعضـ التوصيات للأبحاث المستقبلية؟

أهمية البحث

السؤال: ما أهمية بحثك؟

لقـد أوضح هذا الفصـل كيف أن مسار البحـث التكراري، "جيئة وذهابـا"، هو أشبه بتجميع قطع منفصلة تشكل معـا صورة كاملة (a puzzle). ويمكن لمقتطفات من المادة البحثيـة أن تحقق الكثـير في تجميع المعنى، ولكن لا يجب علـى المرء الاندفاع في جمع قـدر مبالغ فيه من المادة دون تأمـل المعلومات شيئا فشيئا. إن النزعة الإبداعية وحزمة المهارات التحليليـة والتأويلية ضرورية في هذه العمليـة. والتكويد وتدوين الملاحظات والمذكـرات هما آليتان قويتان يمكن توظيفهما في عملية فهم مـادة بحثك وتأويلها. وقد تواجهـك بدايات خاطئة وكذلك لحظات من الاكتشافـات العظيمة وتوليد رؤى نظرية داخـل تحليلـك وتأويلك لمـادة بحثـك. إن هذا النوع مـن العمل البحثـي لا يتلاءم مع الشخصيـات الضعيفة، كما أنه يتطلب على الدوام حسن الانتباه إلى التفاصيل، والعمل الـدؤوب في مواجهة الفوضى، والقدرة على احتمال الغموض. كذلك فإن كتابة بحثك تتطلـب منك تأمل موقعيتك، أي مجموعة السمات الاجتماعية والاقتصادية التي تحملها

فتؤثر في تحليلك و تأويلك لمادة بحثك. إنها رحلة جديرة بالمضـــي فيها، لأنها تقودنا في آخر المطاف إلى فهم أفضل وإدراك أعمق وتمكن من الواقع المعيش لمن نقوم ببحثهم.

أما بالنسـبة للنسـويات، فهي رحلة مقيدة وموجهة بمجموعة مـن المبادئ والالتزامات والهمـوم التي تتجاوز حـدود مشروع بحث معين. فالباحثة النسـوية تعتبر عملية بناء المعرفة مرتبطة بالضرورة بالتزام بالكشف عن معارف النساء وغيرهن ممن تعرضن تاريخيا للتهميش. والرحلة بالنسـبة لنا موقع يتداخل فيه الجانب الشخصي والسياسي، ويتم فيه اكتشاف الحقائق المتعددة والكشف عن أصواتها حيث ساد الصمت من قبل.

والآن وقد قاربت رحلتنا على الانتهاء، فإنني وباتريشا ليفي نتمنى أن تكون رحلتك معنا قد أضافت لك فكرا، كما نعتقد أن الرؤى والأدوات التي قدمناها في هذا الكتاب ستثبت فائدتها عند شروعك في رحلتك عبر الحياة بطرقاتها وشوارعها الخلفية وأرجائها المجهولة.

المراجع

Brown, Lyn M., & Gilligan, Carol. (1992). *Meeting at the crossroads.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Brown, Lyn M., Tappan, Mark, Gilligan, Carol, Miller, Barbara, & Argyris, Dianne. (1989). Reading for self and moral voice: A method for interpreting narratives of real-life moral conflict and choice. In Martin Packer & Richard Addison (Eds.), *Entering the circle: Hermeneutic investigation in psychology* (pp. 141–164). Albany: State University of New York Press.

Charmaz, Kathy. (1983). The grounded theory method: An explication and interpretation. In Robert M. Emerson (Ed.), *Contemporary field research: A collection of readings* (pp. 109–126). Prospect Heights, IL: Waveland Press.

Charmaz, Kathy. (1995). Grounded theory. In Jonathan Smith, Rom Harre, & Luk Van Langenhove (Eds.), *Rethinking methods in psychology* (pp. 27–49). London: Sage.

Denzin, Norman K. (2000). The practices and politics of interpretation. In Norman Denzin & Yvonna Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 897–922). Thousand Oaks, CA: Sage.

Fielding, Nigel, & Lee, Raymond. (1998). Introduction: Computer analysis and qualitative research. In *Computer analysis and qualitative research*. London: Sage.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.

Jack, Dana C. (1991). *Silencing the self: Women and depression*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Jack, Dana C. (1999). *Behind the mask: Destruction and creativity in women's aggression*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Jack, Dana C. (2001). Understanding women's anger: A description of relational patterns. *Health Care for Women International, 22*(Special issue), 385–400.

Lemert, Charles. (Ed.). (1999). *Social theory: The multicultural and classic readings* (2nd ed.). Boulder: Westview Press.

Lorde, Audre. (1984). *Sister outsider: Essays and speeches* (The Crossing Press Feminist Series). Trumansburg, NY: Crossing Press.

Rich, Adrienne C. (1979). *On lies, secrets, and silence: Selected prose, 1966–1978*. New York: Norton.

Richardson, Laurel. (1995). Narrative and sociology. In John Van Maanen (Ed.), *Representation in ethnography* (pp. 198–221). Thousand Oaks, CA: Sage.

Spielberger, Charles D., Johnson, E. H., Russell, S. F., Crane, R. J., Jacobs, G. A., & Worden, T. I. (1985). The experience and expression of anger: Construction and validation of an anger expression scale. In Margaret A. Chesney & Ray H. Rosenman (Eds.), *Anger and hostility in cardiovascular and behavioral disorders* (pp. 5–30). New York: Hemisphere/McGraw-Hill.

Strauss, Anselm, & Corbin, Juliet. (1990). *Basics of qualitative research: Grounded theory procedures and techniques*. Newbury Park, CA: Sage.

Van Maanen, John. (1995). An end to innocence: The ethnography of ethnography. In John Van Maanen (Ed.), *Representation in ethnography* (pp. 1–35). Thousand Oaks, CA: Sage.

المؤلفتان فى سطور:

د. شارلين ناجي هيسي-بايبر

أستــاذة علم الاجتماع في كلية بوسطــن في تشيستنت هيل بولاية ماساتشوستس. لها دراسـات عديدة منشورة حول أثر العوامل الثقافية الاجتماعية على صورة الجسد لدى النســاء، بما في ذلك كتابها الذي تم اختيـاره في مجلة تشويس (Choice magazine) كأفضل كتاب أكاديمي عام 1996 (Sharlene Nagy Hesse–Biber، Am I Thin Enough Yet? The Cult of Thinness and the Commercialization of Identity 1996). كمـا شاركـت في تأليف كتاب عن النسـاء العاملات في أمريكا (Working Women in America: Split Dreams 2005). كذلـك شاركت في تحرير كتاب عـن المقاربات النسويـة (Feminist Approaches to Theory and Methodology: An Interdisciplinary Reader 1999)، وعـن البحث الكيفي (Approaches to Qualitative Research: A Reader on Theory and Practice 2004)، وعـن مناهج البحث الجديدة في البحـوث الاجتماعية (Emergent Methods in Social Research، Sage 2006). كما شاركت في تأليف كتاب عن البحث الكيفي (The Practice of Qualitative Research، Sage 2006). وقامت بتحرير كتاب في البحث النسوي (Handbook of Feminist Research: Theory and Praxis، Sage 2006)، وكتابـين قيد النشر أحدهما عن النحافة (The Cult of Thinness)، والآخـر عن البحث متعدد المناهج. كمـا شاركت في تطوير برنامج في برمجيات الحساب (HyperResearch)، وهـو برنامج لتحليل المادة الكمية، وكذلك أداة جديـدة لتحويل النصـ المسجل إلى نص مكتـوب - (HyperTRANSCRIBE) (www.researchware.com).

د. باتريشا لينا ليفي

أستاذة مساعـدة في علم الاجتماع بكلية ستونهيل في إيستون بولاية ماساتشوستس. وهي مؤسسة ومديرة برنامج دراسات النوع (الجندر) في الكلية. لها مقالات منشورة في مجـالات الذاكرة الجماعيـة، ووسائل الإعـلام، والثقافة الجماهيريـة، وصورة الجسـد، والنسوية، ومناهـج البحث الكيفي، كما يكثر الاستشهـاد بأقوالها في الصحف لخبراتها في الثقافة الجماهيرية والأحداث الجارية وقضايا النوع. وقد شاركت في تأليف كتاب عن البحث الكيفي (Patricia Lina Leavy، The Practice of Qualitative Research، Sage 2006)، وشاركـت في تحريـر كتاب عن البحـث الكيفي (Approaches to Qualitative Research: a Reader on Theory and Practice، 2004)، وكتاب آخـر عن مناهج البحوث الاجتماعيـة (Emergent Methods in Social Research، Sage 2006). ولهـا كتاب قيد النشر (Iconic Events: Media، Power and Politics in Retelling History). وقد كتبت أجزاء كثيرة من هذا الكتاب أثناء استماعها إلى موسيقى توري آموس.

***

المساهمات فى سطور:

1 - أبيجيل بروكس (Abigail Brooks)

باحثة دكتوراه في علم الاجتماع في كلية بوسطن. تتضمن مجالات اهتمامها النظرية النسوية، علم اجتماع النوع، وعلم الشيخوخة النقدي ودراسات الشيخوخة النسوية، وعلم اجتماع الجسد، ودراسات العلوم والتكنولوجيا، والنظرية الاجتماعية. تتناول أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه تجارب النساء المعيشة بشأن التقدم في السن وتأويلاتها وذلك على خلفية سياق الانتشار والتقبل المتزايد لجراحة التجميل. ولها مقالة منشورة مؤخرا عن جراحة التجميل (Under the Knife and "Proud of It: An Analysis of the Normalization of Cosmetic Surgery"، in Critical Sociology)

2 - إلانا بوتش (Elana D. Buch)

باحثة دكتوراه في البرنامج المشترك للعمل الاجتماعي والأنثروبولوجيا في جامعة ميشيجان. وهي مهتمة بشكل عام بدراسة العلاقات بين السياسات الاجتماعية، وممارسات القرابة، وعمل النساء بأجر وبدون أجر. وتركز أطروحتها على الاختلافات في أيديولوجيا القرابة وتجارب الرعاية وتأثيرها على ممارسات رعاية المسنين المنزلية مدفوعة الأجر في الولايات المتحدة الأمريكية. وهي تحمل درجة الماجستير في العمل الاجتماعي من كلية العمل الاجتماعي بجامعة ميشيجان، ورسالة ماجستير في الأنثروبولوجيا من جامعة ميشيجان.

3 - د. توبي إبستين جاياراتني (Toby Epstein Jayaratne)

باحثة علم النفس في جامعة ميشيجان. تدير حاليا دراسة قومية تتناول آراء الأمريكيين والأمريكيات بشأن المؤثرات الوراثية المحتملة على ما يتم تصوره من اختلافات النوع والطبقة والأصل والميول الجنسية. وتتركز اهتماماتها الأكاديمية على استخدام التفسيرات الوراثية (genetic) لتبرير وتعزيز أيديولوجيات اجتماعية وسياسية متنوعة. وقامت بكتابة وعرض العديد من الأوراق البحثية في موضوع المنهجية النسوية، وحصلت على درجة الدكتوراه في علم النفس التنموي من جامعة ميشيجان.

4 - دينيز ليكينبي (Denise Leckenby)

باحثة دكتوراه في علم الاجتماع بكلية بوسطن. تتضمن مجالات اهتمامها منهجيات البحـث الكيفي، والمنهجيـة النسوية، والنظريـة النسوية، والجنسانيـة. وشاركت في تحرير كتـاب، (Women in Catholic Higher Education: Border Work Living Experiences and Social Justice 2003).

5 - د. كاثي ماينر روبينو (Kathi Miner-Rubino)

أستـاذة مساعدة في علـم النفس بجامعة ويســترن كنتاكي. لها العديـد من الأبحاث المنشـورة في مجالات النوع، والطبقة الاجتماعية، والرفاهــة النفسية. وتركز أحدث أبحاثهـا على التعرض لسوء المعاملة (أي قلة الأدب والتحرش) التي تواجهها النساء في أماكـن العمل. وتقـوم بتدريس مناهج في علم النفس الاجتماعــي، وعلم نفس النساء، ومناهــج البحث. وقد حصلت على درجة الدكتوراه في علم النفس والدراسات النسائية من جامعة ميشيجان.

6 - د. كارين ستالر (Karen M. Staller)

أستـاذة مساعدة في كليــة العمل الاجتماعــي بجامعة ميشيجان. تتضمــن اهتماماتها البحثيـة دراســة الشبـاب الهاربين من أسرهم بلا مـأوى، وتعرضـ الأطفال للأذى الجنسي، والتقاطعات بين القانون والعمل الاجتماعي. قامت بأبحاث بينية على مستوى المجتمعـات الصغـيرة إلى جانب المشروعــات التاريخية. تقـوم بالتدريس في مجالات سياســات الرفاهة الاجتماعية، ومناهج البحــث الكيفي، والعمل الاجتماعي والقانون. حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وكذلك دبلومة متخصصة من كلية الحقوق والقانون في جامعة كورنيل.

المشاركات والمشاركون في "ما وراء الستار" في سطور :

1 - أنطوانيت إيرانت (Antoinette Errante)

أستاذة مساعدة في التربية المقارنة وتاريخ التربية بجامعة ولاية أوهايو. وتركز أبحاثها في الولايات المتحدة وأفريقيا الجنوبية على دور التعليم المدرسي في الحركات الاجتماعية وتشكيل الهوية. كذلك قامت بأبحاث مقارنة للعنف والتصالح والعلاج باعتبارها ممارسات ثقافية.

2 - باتي لاذر (Patti Lather)

أستاذة في الدراسات الثقافية في برنامج التربية بكلية السياسات التربوية والقيادة، بجامعة ولاية أوهايو، حيث تقوم بتدريس البحث الكيفي في الدراسات التربوية، والمنهجية النسوية، والنوع والتربية. بدأت حياتها العملية كعضوة هيئة تدريس في جامعة ولاية مانكاتو في مجال الدراسات النسائية. عملت أستاذة زائرة في كل من جامعة كولومبيا البريطانية، جامعة جوتيبورج، وجامعة التربية الدنماركية، بالإضافة إلى قضاء إجازة دراسية في معهد البحوث الإنسانية، وجامعة كاليفورنيا في إيرفين، قامت خلالها بتدريس سمنار في منهجية البحث النسوي، كما حصلت على منحة مؤسسة فولبرايت عام 1989 قضتها في نيوزيلاندا. لها كتاب عن البحث النسوي والتربية وما بعد الحداثة /(Getting Smart: Feminist Research and Pedagogy With In The Postmodern، 1991 Critic Choice Award)، واشتركت مع كريس سميثيز في تأليف كتاب عن النساء المريضات بالإيدز :Troubling the Angels) Women Living with HIV/AIDS، One of CHOICE's Outstanding Academic Titles for 1998). نشرت مقالاتها في الدوريات التالية: Harvard) Educational Review; Qualitative Studies in Education; Educational Theory; Signs: Journal of Women in Culture and Society). تتضمن أحدث إصداراتها: "-Scientific Research in Education: A Critical Per)

spective" a joint publication in the British Educational Research Journal and the Journal of Curriculum and Supervision and "This IS Your Father's Paradigm: Government Intrusion and the Case of Qualitative Research" in Qualitative Inquiry). ولهـا فصول في كتاب عـن البحث والتدريس (Handbook of Research and Teaching، edited by V. Richardson 2001)، وفي كتـاب عـن النظرية المناهـج النسوية في علم التربية (Working the Ruins: Feminist Theory and Methods in Education، edited by P. Atkinson et al. 2001). وتعكـف حاليـا علـى كتاب (Getting Lost: Feminist Efforts Toward a Double(d) Science، under contract with SUNY Press). ومـن ضمـن آمالهـا أن تتعلم هوايـة العزف على آلة الأكورديون ولعب البريدج.

3 - جوديث بريسيل (Judith Preissle)

أستاذة أدرهولد لعام 2001 في برنامج البحث الكيفي بكلية التربية، جامعة جورجيا (UGA)، وعضوة منتسبة إلى معهد الدراسات النسائية بالجامعة. بدأت حياتها العملية بالتدريـس في مرحلـة التعليم المتوسط عام 1965، ثم عملـت بجامعة جورجيا منذ عام 1975، حيـث تقـوم بالتدريس والأبحـاث والكتابة في موضوعـات الأنثروبولوجيا التربويـة، والبحـث الكيفـي، ودراسات النـوع (الجندر)، وعلم الأخـلاق. ويعمل زوجها مديرا لشبكة الحاسب الآلي بجامعة جورجيا، ولديها كلبان صغيران من فصيلة شناوتزر، وكلبان من فصيلة كلاب صينية، يشاركونها جميعا في تأملاتها الفلسفية.

4 - دانا كرولي جاك (Dana Crowly Jack)

حاصلة على دكتوراه التربية في التطور الإنساني وعلم النفس. وهي أستاذة في كلية فيرهافن متخصصة في الدراسات البينية، جامعة ويسترن واشنطن. ومن مؤلفاتها كتاب عن العدوانية عنـد النسـاء (Destruction and Creativity in Women's Ag-

(Silencing the Self: Women والاكتئاب gression 1999)، وآخر عـن النساء والاكتئاب
(Moral وكتاب عن الرؤية الأخلاقية والقرارات المهنية and Depression 1991)
Vision and Professional Decisions 1989)، إلى جانـب مقالاتها ومساهماتها بفصـول في عدد مـن الكتب. وقد تم ترجمـة "مقياس إسكات الـذات"، والذي أعدته لاختبـار نظريتها في عرضـة النساء للاكتئاب، إلى لغات عديـدة. قضت فترة في عام 2001 في نيبال، في منحة فولبرايت لكبار الباحثين والباحثات، حيث قامت بالتدريس في برنامج الدراسـات العليا في الدراسات النسائية بجامعـة تريبوفان، وقامت خلالها ببحث حـول الاكتئاب والنوع في نيبال. وتعكف حاليا علـى تحرير كتاب عن الرؤى الدولية لإسكات الذات والاكتئاب لدى النساء.

5- ديبورا بياتيللي (Deborah Piatelli)

ناشطـة وباحثـة دكتوراه في علـم الاجتماع بجامعـة بوسطن، حيث تقـوم بإعداد أطروحة الدكتوراه عن التحديات التي تواجهها الجهود المعاصرة في الحشد والتعبئة من أجل السلام والعدالة الاجتماعية، وذلك على أساس الأصل والطبقة والنوع.

6- ديانا راسل (Diana E. H، Russell)

أستـاذة متفرغة في علم الاجتماع بكلية ميلز في أوكلاند بكاليفورنيا. لها سبعة عشر كتابـا ما بين التأليـف والمشاركة في التأليف والتحرير والمشاركـة في التحرير، ويدور معظمهـا حول الأذى الجنسي و/أو العنف الجنسي ضد النساء والفتيات. وحصلت على جائزة مشتركة في عام 1986، وهي جائزة رايت ميلز (C. Wright Mills Award) لـا قامت به من بحث متميـز في العلوم الاجتماعية في كتابها :The Secret Trauma) Incest in the Lives of Girls and Women). وتتضمـن كتبها الرائدة كتبا عن سياسيـات الاغتصـاب (The Politics of Rape; Rape in Marriage; Sexual Exploitation: Rape، Child Sexual Abuse، and Workplace Harass-ment). كانـت أيضا رائدة كناشطة، وتحقق حلمهـا بقيام "محكمة دولية للجرائم ضد

النســاء" في بلجيــكا عام 1976 ، حيــث اجتمعت أكثر من ألفي امــرأة من أربعين دولة وشاركن في الشهادة بجرائم الأبوية ضدنا كنساء. وقد وجهت سيمون دي بوفوار (Si-mone de Beauvoir) ، تحيــة لهذه المحكمة الدولية باعتبارها "بداية للتحرر الجذري للنساء" ("the beginning of a radical decolonization of women").

7-ديفيد كارب (David Karp)

أســتاذ علم الاجتماع في كلية بوســطن. ومن مؤلفاته كتاب عن عبء التعاطف (The Burden of Sympathy 2002)، وعــن الحزن والاكتئــاب (Speaking of Sad-ness: Depression، Disconnection، and the Meanings of Illness 1997)، وعــن سوســيولوجيا حياة المدينــة (Being Urban: A Sociology of City Life 1994)، وعن علم الاجتماع في الحياة اليومية (Sociology in Everyday Life 1993)، وعن الشــيخوخة والتقــدم في الســن (Experiencing the Life Cycle: A Social Psychology of Aging 1993)، وعــن مناهــج البحــوث الاجتماعية (The Research Craft: An Introduction to Social Research Methods 1992). وقد حصل على درجة الدكتوراه من جامعة نيويورك عام 1971.

8-ساندرا هاردينج (Sandra Harding)

تقوم بتدريس الفلســفة والعلوم الاجتماعية والدراسات ما بعد الكولونيالية والنسوية في جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس. شاركت بتأليف وتحرير أربعة عشر مؤلفا ما بين كتاب وعدد خاص من الدورات التي تركز على الإبســتمولوجيا والمنهجيات النســوية ومــا بعد الكولونيالية، وعلى فلســفة العلوم. ولهــا كتاب عن نظرية الموقعية النســوية (The Feminist Standpoint Theory Reader: Intellectual and Politi-cal Controversies 2004)، وكذلــك كتــاب (Science and Social Inequal-ity: Feminist and Postcolonial Issues، April 2006). شــاركت لســنوات

في تحريـر دوريــة "سايـنـز" (Signs: Journal of Women in Culture and Society، 2000-2005)، وتعكـف حاليـا على كتاب عن النسـاء والعلوم والحداثـة (Women، Science، and Modernity)

9-سهيلة كيركا شرودر (Suheyla Kirca Schroeder)

تعمـل في كلية الاتصالات بجامعــة باتشيشيهـير (Bahcesehir University) في تركيا. نشــرت العديد من المقالات حــول قضايا النوع، الهويــة والتمثيل، الدراسات الثقافيــة النسوية، الثقافــة الجماهيرية والإعلام، عولمة الثقافــة، الموسيقى، والشباب. وإلى جانــب عملها الأكاديمي شاركت في مشروع "بناء الديمقراطية والقيادة النسائية" (2004-2005)، وتعمـل حاليا على مشروع عنوانه "العنــف ضد النساء في تركيا". حصلت على الدكتوراه في الدراســات الثقافية البريطانية من جامعة ووريك بإنجلترا، ودرجــة الماجستير في الإعلام والثقافة بجامعــة ستراتكلايد بإسكتلندا، كما تحمل درجة الليسانس في الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جامعة إسطنبول بتركيا.

10-شيرلي هيل (Shirley A. Hill)

أستاذة علم الاجتماع في جامعة كنساس، حيث تقوم بتدريس مقررات في الأسرة، علـم الاجتمـاع الطبي، البحــث الكيفي، الظلـم الاجتماعــي. تركــز في أبحاثها على السياســات الصحيــة وخاصة في تأثيرها علــى الأسر، وخاصة بفعـل الظلم القائم على أساس الأصــل والطبقة والنوع، وهو موضوع أحدث كتبهـا: (Black Intimacies: A Gender Perspective on Families 2005). كذلــك قامــت بتأليف كتاب عن أطفــال الأسر الأفروأمريكيــة (African American Children: Socialization and Development in Families، Sage 1999)، وآخر عن مرض كريات الدم الحمــراء المنجلية في الأسر منخفضة الدخــل (Managing Sickle Cell Disease in Low-Income Families 1994)، وكلاهمــا يعتمدان علــى البحث الكيفي. وهي نائبة تحرير "دورية الزواج والأسرة" (Journal of Marriage and Families)،

وعضوة عدد من اللجان في جمعية علم الاجتماع الأمريكية (American Sociolog-ical Association) وعلماء الاجتماع من أجل النساء في المجتمع (Sociologists for Women in Society).

11-كريستين أندرسون (Kristin L. Anderson)

أستاذة مساعدة في علم الاجتماع بجامعة ويسترن واشنطن. تتضمن أبحاثها المنشورة حديثا الآتي: ("Theorizing Gender and Intimate Partner Violence Research،" in Sex Roles 2005; and "Perpetrator or Victim? Relationships Between Intimate Partner Violence and Well-Being،" in Journal of Marriage and Family 2002).

12-ليا شمالزباور (Leah Schmalzbauer)

أستاذة مساعدة في علم الاجتماع بجامعة ولاية مونتانا، وعضوة مجلس إدارة مشروع (Proyecto Hondureno) في تشيلسي بماساتشوستس. تتناول أبحاثها وكتاباتها استراتيجيات الحياة اليومية للأسر عابرة القوميات الفقيرة. وتواصل عملها في الأبحاث التشاركية في الولايات المتحدة وأمريكا الوسطى.

13-ليسا دودسون (Lisa Dodson)

أستاذة باحثة في علم الاجتماع بكلية بوسطن. قامت على مدار ما يزيد على العقدين بالبحث والتدريس والمساهمة في السياسات العامة لمنخفضي الدخول في الولايات المتحدة.

14-ليسا كوسجروف (Lisa Cosgrove، PhD)

متخصصة في علم النفس في كلية الدراسات العليا في التربية بقسم الإرشاد وعلم النفس المدرسي في جامعة ماساتشوستس ببوسطن. وشاركت مع بولا كابلان في تحرير كتاب عن التشخيص النفسي (Bias in Psychiatric Diagnosis 2004)،

والذي ألفت عددا من فصوله. لها مقالات وفصول في كتب منشورة تتناول علم النفس النقـدي، قضايا السياسـات الاجتماعية، مناهج البحث، قضايا نظريـة وفلسفية متعلقة بالممارسـة الإكلينيكية (العيادية). وقد حصلت في أبحاثهـا على دعم من كل من جامعة هارفارد (Harvard University، Radcliffe Institute، NIMH: Murray Center) وجامعـة ماساتشوستس. حصلت على زمالـة مركز ويليام جوينر لدراسة الحروب وتداعياتها الاجتماعية في الفترة 2002–2003، كما قامت بأبحاث على الأثر الممتـد عبر الأجيال لاضطراب كرب ما بعد الحـروب (PTSD: Post-traumatic stress disorder).

15-ماكسين بيرتش (Maxine Birch)

محاضرة في الصحة العقلية بكلية الصحة والرعاية الاجتماعية في الجامعة المفتوحة. رسخـت دراستها لنيل درجة الدكتـوراه لاهتمامها بتناول الروايـات والحكايات التي تحال فهم التجارب المعيشة. وأبحاثها في الطب النفسي البديل، وحكايات هوية الذات، والتعبـير عن الروحانية منشـورة في كتـاب (Post-Modernity، Sociology & Religion 1996). لهـا كتابات في جوانب متعددة من العمل البحثي مدعومة بنشاطها داخـل شبكة الباحثـات الأكاديميات النسوية. وتتناول مقاربـة السيرة الذاتية في كتاب عـن البحث الكيفـي (Feminist Dilemmas in Qualitative Research، Sage 1998)، وكذلك العلاقات البحثية القائمة في المقابلات الشخصية عن التجارب الشخصية والخاصـة (International Journal of Social Research 2000). وهي إحدى محـررات كتاب عن أخلاقيات البحث الكيفي شاركت فيه أيضا بفصل عن المشاركة في البحث ("Encouraging Participation: Ethics and Responsibilities،" in Ethics in Qualitative Research، Sage، 2002).

التصحيح اللغوى : خالد رجب

الإشراف الفنى : حسن كامل